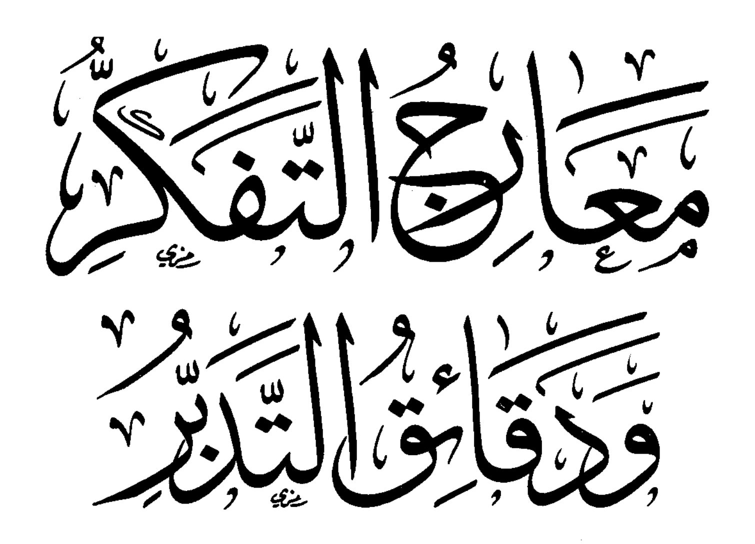


تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

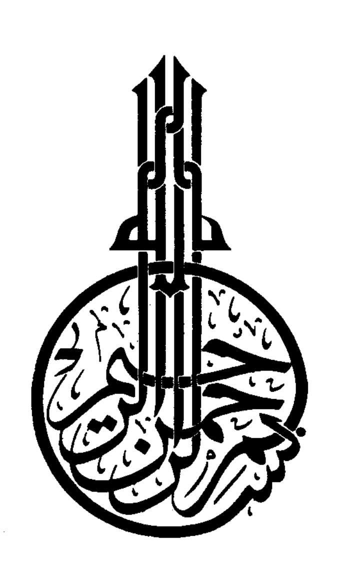
المجلد السادس

تفسير سورتي

يس (٤١) - الفرقان (٤٢)

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم


معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

حُقوقُ الطبع محفوظة للمؤلِّف

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَة يسٓ

٣٦ مصحف ٤١ نزول

وَهِيَ سُورَة مَكِّيَّة

إلا الآية ٤٥ فهي مدنية



(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات
وهي مكية إلّا الآية (٤٥) منها فمدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ

---

٤ - • قرأ قُنْبُل، ورُوَيس: [سِرَاطٍ] بالسّين بَدَلَ الصّاد، وهي لغة عربية.
وقرأ خلف عن حمزة: بإشمام الصاد زاياً.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿صِرَاطٍ﴾ بالصّاد.

٥ - • قَرَأ ابْنُ عامرٍ، وحفْص، وحمزة، والكسائي، وخَلف: ﴿تَنزِيلَ﴾ بالنَّصب على تقدير منزّلاً تنزيل.
وقرأ باقي القراء العشرة: [تَنْزِيلُ] على أن اللَّفظ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هُوَ تَنزِيلُ.

٩ - • قرأ حفْص، وحَمْزة، والكِسَائي، وَخَلَفٌ: ﴿سَدًّا﴾ بفتح السّين، في الموضعين.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [سُدًّا] بضم السّين في الموضعين أيضاً.
والقراءتان لغتان عربيتان.

كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ

١٤ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [إِلَيهِمِ اثْنَينِ] بكَسْرِ الميم.
وقرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخَلَف: [إِلَيهُمُ اثْنَين] بضم الهاء والميم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إِلَيهِمُ اثْنَين﴾ بكسر الهاء وضَمّ المِيم.
وهي وُجوه عَربية في النطق.
• وقرأ شُعْبَةُ [فَعَزَزْنَا] وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ بتشديد الزاي الأولى.
وهما لغتان متكافئتان.
وفي عَزَّزَ مزيد تقوية.

١٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [أَأَنْ ذُكِرْتُمْ] أي: لأجل أنْ ذُكِّرْتم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُم﴾: بكَسْرِ الهمزة الثانية. وهي على معنى الشرط، أي: أئِنْ ذُكِّرْتم تَطَيَّرْتم.
والاستفهام في القراءتين إنكاريّ.

١٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [ذُكِرْتُمْ] أي: أخِفْتُم أن تشتهروا بين الناس بقبائحكم.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾ أي: تُهَدِّدوننا بالقتل لأجْلِ تذكيرنا إيّاكُم بما فيه نجاتُكم وسَعادتُكم.

أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ

---

٢٢ - • قرأ حمزة، وخلف، ويعقوب: [وَمَالِي لاَ أَعْبُدُ] بإسْكان ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة بفتحها. وهمان لغتان عربيّتان لنطق هذه الياء.

٢٢ - • قرأ يعقوب: [تَرْجِعُون] وقرأ الباقون: ﴿تُرْجَعُونَ﴾. والقراءتان متكاملتان في الأداء البياني.

٢٣ - • قرأ أبو جعفر: [يُرِدْنِيَ] بياء مفتوحة وصلاً، ساكنةٍ وقفاً. وأثبتها يعقُوب في الوقف. وحذَف الياء باقي القرّاء العشرة.

٢٤ - ٢٥ -• [إِنّيَ إِذاً]: نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر ﴿إِنّيٓ إِذاً﴾ الباقون. ومثلُها: [إِنّيَ آمَنتُ] ويوافق ابن كثيرٍ على الفتح.

٢٥ - [فَاسْمَعُونِي] يعقوب في الوصل والوقف ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ الباقُون.

٢٩ - • قرأ أبو جعفر: [إِلاَّ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ] بالرفع على اعتبار أنَّ «كَانَ» تامة غير ناقصة.
وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ بالنصب على اعتبار أنّ «كان» ناقصة.

ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

٣٢ ـ • قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وابن جمَّاز: [لَمَّا] بتشديد الميم، وهي بمعنى «إلَّا».

أي: وما كُلٌّ إلَّا لدينا محضرون.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَمَا] بتخفيف الميم، وعلى هذه القراءة تكون «إنْ» هي المخففة من الثقيلة، واللام في [لَمَا] هي اللّام المزحلقة، وما صلة للتأكيد.

والقراءتان تفنُّن في التعبير، والمؤدىٰ منهما واحد.

٣٣ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [الميّتَةُ] بتشديد الياء.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿المَيْتَةُ﴾ بتخفيف الياء. وهما لغتان متكافئتان.

٣٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وهشام، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب، وخَلَفٌ: ﴿الْعُيُونِ﴾ بضم العين. وقرأ الباقون: [العِيُونِ] بكَسْرِ العين، وهما لغتان.

٣٥ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [مِنْ ثُمُرِهِ] جمع «ثَمَرَة». وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ بفتح الثاء والميم، وهو اسم جنس جمعي يفرّق بينه وبين واحدة بالتاء، ومؤدّىٰ القراءتين واحد، وهما من التفنُّنِ اللّغوي.

٣٥ ـ • قرأ شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [وَمَا عَمِلَتْ] دون هاء الضمير، إيجازاً.

وقرأ الباقون: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾.

ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا

٣٩ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وروْح: [والْقَمَرُ] بالرّفع على الابتداء.
وقرأ باقي القراء العشرة ﴿وَالْقَمَرَ﴾ بالنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف، يفسّر [قدَّرْناه] لاشتغاله عنه بنصب ضميره.

٤١ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [ذُرِّيَّاتِهِمْ] بالجمع.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بالإفراد، والمؤدى واحد.

٤٩ ـ • قرأ أبو جَعْفر: [يَخْصِّمُونَ].
وقرأ ورش، وابن كثير، وهشام: [يَخَصِّمُونَ].
وقرأ أبو عمرو: باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد.
وقرأ قالون كأبي جعفر وأبي عمرو.

=

يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى
ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟
يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ
جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ
ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾
سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟

= وقرأ ابنُ ذكوان، وعاصم والكسائي ويعقوب، وخلف: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾.
وقرأ حمزة: [يَخْصِمُون]. وهي وجوهٌ في النطق والمؤدّىٰ واحد.

٥٣ ـ قرأ أبو جعفر: [إلاَّ صَيْحةٌ وَاحِدَةٌ] على اعتبار أن «كان» تامّة.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ بالنصب على اعتبار أنّ «كان» ناقصة.

٥٥ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو: [في شُغْلٍ] بتسكين الغين.
وقرأ الباقون بضمها. وهما لغتان عربيتان.

٥٥ ـ • قَرأ أبو جعفر: [فَكِهُونَ] دون ألف بعد الفاء، جمع «فَكِهٍ».
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَاكِهُونَ﴾: جمع «فَاكِه».
والمعنى فيهما واحد. أي: ناعمون طيبة نفوسهم.

٥٦ ـ قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [فِي ظُلَلٍ] جمع ظُلَّة، وهي كلُّ ما أظلّ.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فِي ظِلاَلٍ﴾ جمع «ظِلّ».
والقراءتان من التفنن في التعبير، والمؤدّىٰ واحد.

ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۖ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ٦٨ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ

---

٦١ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، وخلف: ﴿وَأَنِ اعْبُدوني﴾ بكسر النون.
وقرأ الباقون: [وَأَنُ اعْبُدُوني] وهما وجهان في النطق للتخلّص من التقاء الساكنين.

٦٢ ـ • قرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر: ﴿جِبِلًّا﴾.
وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ورويس، وخلف: [جُبُلاً].
وقرأ أبو عمرو، وابن عامر: [جُبْلاً].
وقرأ روح: [جُبُلًّا].
وهي لغات متكافئة. والمعنى: جماعة من الناس.

٦٧ ـ • قرأ شعبة [مَكَانَاتِهِم] بالجمع، وقرأ الباقون ﴿مَكَانَتِهِمْ﴾ بالإفراد. والمؤدّى واحد.

٦٨ ـ • قرأ عاصم، وحمزة: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾. وقرأ الباقون: [نَنْكُسْهُ] وهما وجهان لغويان وفي «نُنَكِّسْهُ» معنى المبالغة في التنكيس، وهذا يلائم أحوال الذين يزيد الله في تنكيسهم.

٦٨ ـ • قرأ نافع، وابن ذكوان، وأبو جعفر، ويعقوب: [أفلا تَعْقِلُون] بتاء المخاطبين.
وقرأ الباقون: ﴿أفلا يَعْقِلُون﴾ بياء الغائبين. وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ

٧٠ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [لتُنْذِر] خطاباً للرسول.
وقرأ الباقون: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ بياء الغائب. وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٧٦ ـ • قرأ نافع: [فَلَا يُحْزِنكَ] من فعل «أَحْزَنَهُ».
وقرأ الباقون: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ﴾ من فعل «حَزَنَهُ».
وهما لغتان متكافئتان.

٧٨ ـ ٨١• قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكسائي، بإسكان هاء الضمير في [وَهْي ـ وهْوَ].
وقرأ الباقون: [وَهِيَ] بكسر الهاء، و[هُوَ] بضم الهاء. وهي لغات.

٨١ ـ • قرأ رُويس: [يَقْدِرُ] مضارع «قَدَر».
وقرأ الباقون: ﴿بِقَادِرٍ﴾.

=

ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

= وهما من التفنُّن في التعبير والمؤدّى واحد.

٨٢ ـ • قرأ ابن عامر، والكسائي: [فَيَكُونَ] بالنصب.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالرفع.
والقراءتان وجهان صحيحان إعرابيًّا عند النحويّين.

٨٣ ـ • قرأ رُوَيس بحذف صلة هاء الضمير في [بِيَدِهِ مَلَكُوت].
وقرأ باقي القراء العشرة بإثبات صلة هاء الضمير. وهمان وجهان في الأداء.

٨٣ ـ • قرأ يعقوب: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ من فعل «رجع» اللازم.
وقرأ باقي القراء العشر: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ على أن الفِعْل مبني لما لم يُسَمَّ فاعله.
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد. أي: يُرْجِعُهُمْ رَبُّهُمْ، فهم يَرْجِعُونَ لا محالة بالجبر.

(٢)
ممّا ورد في فضل سورة (يسٓ)

جاء في كُتب السُّنَّة بشأن فضل سورة (يسٓ) رواياتٌ أسانيدها ضعيفة، وبعضها حسن، وهي بمجموعها تُشْعِر بأنّ لهذه السورة خُصُوصيَّة فَضْل، على أنَّ القرآنَ كلّه كلامُ الله، وكلامُ اللّهِ المنزَّلُ فضْلُه عظيم جدًّا، فمنها ما يلي:

(١) ما جاء في الحديث عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكُلّ شَيْءٍ قَلْباً، وقَلْبُ الْقُرْآنِ يَسٓ». ونظيره عن أبي هريرة أخرجه البزّار.

(٢) وروىٰ الحافظ أبو يَعْلَىٰ بإسْنَادٍ جَيّدٍ عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ (يَس) فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ، وَمَنْ قَرَأَ (حٓم) الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا الدُّخَانُ أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ».

(٣) وروىٰ ابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ، عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ (يسٓ) في لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ غُفِرَ لَهُ».

قال ابن كثير: إسنادُهُ جَيِّدٌ.

(٤) وعنْدَ الإمام أحمد بسنَدٍ فيه مَجْهُولاَنِ عن النَّبي ﷺ قال: «الْبَقَرَةُ سَنَامُ الْقُرْآنِ وَذِرْوَتُهُ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكاً، وَاسْتُخْرِجَتْ [اللَّهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ] مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ فَوُصِلَتْ بِها، و(يٓس) قَلْبُ الْقُرْآنِ لَا يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّهَ تَعَالَىٰ والدَّارَ الآخِرَةَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ، واقْرَؤُوهَا عَلى مَوْتَاكُمْ».

وعنْد النسائيّ وَأَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَهْ نظيرُه.

قَالَ ابن كثير في تفسيره: ولهذا قالَ بَعْضُ العلماء. من خصائصِ هٰذِهِ السُّورَةِ أَنَّها لَا تُقْرأُ عِنْدَ أَمْرٍ عَسِيرٍ إِلَّا يَسَّرَهُ اللَّه.

أقول: وَتَجَارِبُ كثيرةٌ تُسَاعِدُ على إثباتِ هذه الخصيصة لسورة (يسٓ).

(٥) وَروىٰ البزَّارُ بسَنَدِهِ عن ابْن عباسٍ قالَ: قَال النَّبِيُّ ﷺ، بشأن سورة (يٓس): «لَوَدِدْتُ أَنَّهَا فِي قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي».

(٦) وَروىٰ الدارمي عن ابن عباس قال: «مَن قَرَأ يسٓ حِينَ يُصْبِحُ أُعْطِيَ يُسْرَ يَوْمِهِ حَتَّىٰ يُمْسِي، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي صَدْرِ لَيْلَتِهِ أَعْطِيَ يُسْرَ لَيْلَتِهِ حَتَّىٰ يُصْبِحَ».



(٣)
موضوع سورة (يسٓ)

يَدُور موضوع هذه السُّورَةِ حول معالجة مشركي مكَّة إبّان المرحَلَةِ الّتي نزلت فيها السورة، بشأن مواقفِ أئمّتهم العنادِيَّة، والإيذائيَّة للرسول، والاضطهادية لضعفاءِ المؤمنين، وحَوْلَ اتّهامهم القرآن بأنَّه نوعٌ من الشِّعر

واتهامهم الرسول بأنه شاعر، وإنكارِهم السَّاعةَ والبَعْثَ للحسابِ وفصلِ القضاء والجزاء.

وحول معالجة الرَّسُولِ ﷺ بشأن ما ينالُهُ من المشركين من أذىً، ومعالجة المؤمنين أصحابِ الرسول بشأن ما ينالُهم من أئمة الكفر والشرك من اضطهاد.

وتدور معالجة المشركين حول الإقناع الفكري، والبيان التَّهدِيديّ والإنْذَارِيّ من الله عزّ وجلّ بالعقاب المؤجّل مع احتمال إنْزالِ عِقابِهِ المعَجَّلِ في الدّنيا.

ومن الإقناع الفكْرِيّ دَفْعُ شُبهاتِهم بالبراهين الدامغة.

وتدُورُ معالجةُ اللَّهِ لِرسُولِه حولَ تَيْئِيسِه، من إيمان الذين مَرَدُوا عَلَى الكفر وعلى الإصرار على ما هم فيه من باطل، وإشعَارِهِ بالإعراض عنهم، وعدم شَغْلِ فِكْرِهِ ونَفْسِه بهم، توفيراً لجَهْدِهِ الجَسَدِي والنفسي، وبغية توجيهه لآخرين غير مَيْئُوسٍ منهم، وحول وصِيَّتِهِ بأن لا يَحْزَنَ بِسَبَبِ إِذاءاتهم القوليّة.

وتَدُور معالجة الله للمؤمنين حَوْلَ البشائر الضِّمْنِيَّة، بِأَنَّ الله سَيُنْزِلُ بمضطهديهم، ما يَرُدُّ مَكَايِدَهُمْ إلى نُحُورِهِمْ، كَمَا حَصَلَ لأمْثَالِهِمْ مِنَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ، والبشائر الصَّرِيحَةِ الجليَّة بما أَعَدَّ لَهُمْ من ثوابٍ جَزيلٍ في جنَّاتِ النَّعيم.

واشتمل هذا الموضوع على ثلاثَ عشرة قَضِيَّة:

القَضِيَّةُ الأُولى: بيان صِدْقِ الرَّسُولِ محمَّد ﷺ في رسالته، بشهادة إعجاز القرآن الذي يَسْتحقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ به.

والمقصودُ بهذا البيان الذينَ لم يَصِلُوا إلى دركة اليأسِ من إيمانهم، عن طريق إراداتهم الحرّة.

القضية الثانية: بَيَانُ واقعِ حالِ أكْثَرِ أئمة الشِّركِ والكُفْرِ في مكَّةَ في المرحَلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا السُّورَة، إذْ وَصَلُوا إلىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ من إيمانهم مَعَهَا عن طريق إرادتهم الحرَّة، فسَواءٌ عَلَيْهُمْ الإنْذَارُ وَعَدَمُهُ.

القضيَّةُ الثالثة: ضَرْبُ مَثَلٍ تاريخيّ لِقَوْمٍ أهْلَكَهُمْ اللَّهُ، وَهُمْ أصْحَابُ القرية الّتي جاءَهَا المرسَلُون، فكَذَّبُوهُم، وهَدَّدُوهم بالرَّجْمِ وبعذاب أليم، إذا لم يَنْتَهُوا عن تأْدِيَةِ رِسَالَتِهِمْ بَيْنَهُمْ.

وحالُ كُبَرَاءِ مُشْرِكِي مكة قَدْ أَوْشَكَتْ أَنْ تَصِلَ إلى الدَّرَكَة الَّتِي وَصَلَ إلَيْهَا أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ، الّذِين أهلكهم اللَّهُ بالصَّيْحَة.

القضية الرابعة: اشتَمَلَتْ عَلىٰ إِثْبَاتِ الإحياء بعد الموت للحساب وفصل القضاء والجزاء، بأسْلُوب تشبيه إحياء الأحياءِ بعد موتهم، بإحْياء الأرض وإنْبَاتِ نباتها بَعْدَ مَوْتها.

وأُدْمِجَ في هذا العرض، ما يَدُلُّ على طائفة من صفات الرّب العليم الحكيم القدير، الذي يَفْعَلُ مَا يشاءُ ويختار بحِكْمَتِهِ السَّنِيَّة.

القضية الخامسة: بيان بَعْضِ نِعَم اللَّهِ علَى عِبَادِه في الحياة الدّنْيا، بياناً يَسْتَحِثُّ أَهْلَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ لمقابَلَةِ نِعَم اللَّهِ عَليهم بالثناء والحمْدِ، والشكر بالطاعة والاستجابة لما يَدْعُوهُمْ إليه مما فيه حياتُهُمْ وسعادَتهم الحقيقية.

ويتضمّن هذا البيان إثْبَاتَ طائفةٍ من صفات اللَّهِ وأسمائه الحسْنَى.

واقْتَرَنَ بِهِ تَهْدِيدٌ بالعقاب المعجَّلِ، إذا اقتضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ إنزالَهُ بالْمُصِرّين على الكُفْرِ والإفساد في الأرض من عِباده.

القضية السَّادسة: عَرْضُ طائفةٍ من ظواهر سلوك الكافرين المعاندين المصرّين على شركهم وكُفْرهم، إذ يُعْرِضُونَ عَمَّا يُوَجَّهُ لهم من مذكّراتٍ،

ويَسْخَرُونَ ممَّا يُوَجَّهُ لهم وَيُؤْمَرُون به من فعل الصالحات، كالإنفاق ممَّا رزقهم الله على ذوي الحاجات والضرورات.

القضية السابعة: عَرْض بعض جدليّاتِ قادَة أهل الكفر، الّتي لا قيمةَ لها في موازين الفكر السّليم، والّتي اتَّخَذُوا منها ذَرائِعَ لرَفض الإيمان، وهي جدلياتٌ تتعلَّقُ ببيانِ وقْتِ قيام السّاعةِ.

وأُتْبِعَ عَرْضُ جَدَلِيَّاتِهِمْ بِعَرْضٍ سَرِيعٍ لبَعْضِ مشاهد قيام الساعَةِ الّتي ينتهي بها نظام الحياة الدنيا، وعرض بعض مشاهِدِ يوم القيامة، يوم الدّين الذي يَجْرِي فيه الحسابُ، وفَصْلُ القضاءِ وَتَنْفِيذُ الجزاء.

القضيَّة الثامنة: تهديدُ الذين مَرَدُوا على الكفر والعناد، بِطَمْسِ أَعْيُنِهِمْ، أو مَسْخِ أَجْسَادِهِمْ، وَتَثْبِيتِهَا في أمْكِنَتِهَا كالصُّخُور لا تَسْتَطِيع الحركة مع بيان حَالِ التَّنْكِيسِ في الخَلْقِ، لِمَن يُطِيلُ اللَّهُ عُمُره، وهو أَمْرٌ يُشْعِرُ بنهايَةِ الحياةِ في الدنيا، ويُذَكِّرُ باقترابِ الأجل.

القضيَّة التَّاسِعة: الرَّدُّ على مُتَّهِمي الرَّسُولِ ﷺ بأَنَّهُ شاعر، واتِّهَامِ القرآن بأنه نوعٌ من الشّعر.

القضية العاشرة: عودٌ إلى عرض طائفة من نِعمِ اللَّه على عباده في الدنيا.

القضية الحادية عشرة: بيان عقيدة المشركين في آلهتهم، بأنَّها عقيدة قائمة على أنّ آلهتهم تُشَارِكُ اللَّه في بعض عناصر ربوبيَّته، ومنها نصرُها لعابِديها بوسائل غيبيَّة.

القضيَّة الثانية عشرة: تَسْلِيةُ الله عزَّ وجلَّ لرسوله محمَّد ﷺ بشأن أقْوالِ المشركين فيه المحزنةِ له، مع إشعارهِ ضِمْناً بأنّ الله سَيَنْتَصِرُ له، وسَيُحْبِطُ مَكَايِدَ مُحْزِنِيهِ بأقوالهم الافترائية الظَّالِمَة.

القضية الثالثة عَشْرَة: إقامة الحجَّةِ البرهانية على مُنكِر الْبَعْثِ، إذْ قَدَّمَ عظماً نَخِراً بالياً، وقالَ: مَنْ يَحْيي الْعِظامَ وهي رَمِيم، ساخراً من قضية الإعادة إلى الحياة بَعْدَ الموتِ والفناء، دون أن يقدِّم دليلاً ما غير الاستبعاد والاستغراب.



(٤)
دروس السورة

اشتملت سورة (يسٓ) على عشرة دروس متعانقة داخل دائرة موضوع واحد، هو الموضوع الذي سبَقَ بيانُه في الفقرة السابقة، وهي ما يلي:

الدرس الأول:

• اشتمل هذا الدرس على خِطابٍ من الله ـ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه ـ لرسوله محمّد ﷺ، مؤكّداً له فيه، بأنّه من المرسلين، بدليل معجزة القرآن الحكيم الذي يُنزّله عليه مُفرّقاً مُنجماً بحَسَب مقتضيات الحِكْمَةِ البيانيَّة والدعويّة، ومثنياً عليه بأنَّه على صراط مستقيم، وبأنَّه يُنَزِّل عليه القرآن الحكيم ليُبَلِّغَهُ للناس، وليكون آخِرُ مراحِل رسَالَتِه مع كلِّ زُمْرَةٍ يَدْعُوهَا إلى دين الله الإنْذارَ بعذاب اللّهِ المؤجّل إلى يوم الدين، مع احتمال أن ينزل الله بها عذاباً معجّلاً في الدنيا، إذا أصَرَّتْ على كُفْرِها وجحودِها، وفسادها وإفسادها في الأرض، ومقاومتِهَا لدَعْوَةِ الحقّ الرّبانيَّة.

وهذا الإنْذَارُ هو الشيْءُ نَفْسُه الَّذِي أُنْذِر به آباءُ الأقوام ومنهم العرب، في الكتب السَّابقة، أو على ألسنة الرُّسُل السابقين فمرَّتْ عليهم أزمان أَهْمَلَتِ الأقوامُ مَا كان آباؤهم قَدْ أُنْذِرُوا به فصاروا غافلين، غير منتبهين إلى ما كان آباؤهم قد أُنذروا به.

والغرض من هذه الفقرة من هذا الدرس إعلامُ النّاس بأسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشر، بوظيفة القرآن الحكيم، ووظيفة الرَّسُول الكريم محمّد ﷺ، فيما حمَّلَهُ رَبُّهُ من رسالة للناس، مع تثبيت فؤاد الرَّسُولِ في رسالته، غيرَ مُبَالٍ بما يَتَعَرَّض له من أذىً، ويتعرَّض له الذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ من اضطهاداتِ كبراء كفّار مكّة يومئذٍ.

• واشتمل على بيانٍ يتَعَلَّقُ بحال أكثر كبراء كُفَّار قومه المشركين في مكّة إبَّانَ نُزُول السُّورَة، بأنَّهم قد وصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ منها، فلا يُؤثّر فيهم معها الإنْذَار: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾.

إذنْ فمن الخَيْرِ له أَنْ يُوَجِّه اهْتمامه وعنايتَهُ، لدَعْوَةِ غَيْرِهِمْ من الذَّينَ لَمْ يَبْلُغُوا بَعْدُ إلى مِثْلِ حالَتِهم من العِناد والإصرار على الكُفْرِ والجحود، ومعاداة الرسول ودعوته، ولا سيّما الذي يَتفرَّسُ فيهم أنَّهُمْ يَخْشَوْنَ اللَّهَ بِالْغَيْبِ.

• واشتمل على بيانٍ هُوَ مِنْ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإِيمَانِيَّةِ في الإسلام.

وهو الآيات من (١ ـ ١٢).

الدرس الثاني:

• اشتمل على ضَرْبِ مَثَلٍ تاريخيّ لقوم أرسل الله إليهم رَسُولَيْنِ فَكَذَّبُوهُما، فَعزَّزَهما الله بثالث، فكذَّبُوهُمْ، وأخيراً هَدَّدُوهُمْ بالقَتْلِ رَجْماً بالحجارَةِ، وبِعَذَابٍ أليم، إذا لم يَنْتَهُوا عن أداء رِسَالَتِهِم.

وكان مَصِيرُ هؤلاء القوم الذين ذكرَهُم اللَّهُ بعنوان «أصحاب الْقَرْيَة» الإهلاكَ بالصيحة.

ويُشْعِرُ إيرادُ هذا المثل التاريخي، عقب بيان أنّ كُبراء كُفَّارِ مكَّة قد وصَلُوا إلى حَالَةٍ ميؤوسٍ من إيمانهم معها، بأنّ هؤلاء قَدْ أَوْشَكُوا أن تَصِلَ حَالَتُهم حينَئِذٍ إلى مثل حالة «أصحاب القريَة» الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَزّ وَجَلّ إهْلاكاً شاملاً بالصَّيْحَة.

وهو الآيات من (١٣ ـ ٢٩).

الدرس الثالث:

• اشتمل هذا الدّرْسُ على بيان استحقاق أكْثَر الناس التَّحسُّرَ عليهم، إذْ يدفَعُونَ بأنفسهم إلى الهلاك بسَبَب كُفْرِهم ومُعَانَدَتِهِمْ الحقَّ، واسْتِهْزَائِهِمْ بِرُسُلِ رَبّهم، مع أَنَّ شواهِدَ التاريخ البشَرِيّ تَدُلُّ علَىٰ أَنَّ أَقْوَاماً كَثِيرِينَ، قَدْ كان مَصِيرهُمْ فِي الحياة الدنيا الإهلاك الشامل، بسَبَب كُفْرِهِم ومعاندتِهم الحقّ واسْتِهْزَائهم بِرُسُلِ رَبِّهم، ومُقَاوَمَتِهِمْ لدَعْوَتِهم.

• واشتمل أيضاً على بَيانِ الجزاء الأُخْرَوِيّ يوم الدّين، مُقْتَرِناً بالدّليل على قُدْرَةِ اللَّهِ عزّ وجلّ على بَعْثِ الأَحْيَاء، بالقياس علىٰ إحيائه الأرض بَعْدَ موتها، مع إدْماج بيانِ نِعَم الله على عباده بالرّزْق المتلاحق عن طريق إحيائه الأرض بَعْدَ مَوْتِها في الْفُصُولِ الزّراعيّة.

ومع هذا أبَانَ اللَّهُ عزّ وجلَّ حقيقةً كونيةً، وهي أنّه بحِكْمَتِهِ جَعَلَ نظامَ الأزْواجِ نظاماً شاملاً للأحياء، وللنباتات، ولأشياء أُخرىٰ لَا يَعْلَمُهَا الناس، وفي بيان هٰذه الحقيقة الّتي اكْتَشَفَهَا بَعْدَ أكثر من أحد عشر قرناً من نزول القرآن، عُلَمَاءُ البحث الكوني، دَليلٌ علىٰ أَنَّ هذا القرآن مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ولَيْسَ مِنْ وَضْعِ البشر، وما الرَّسُول محمّد ﷺ فِيهِ غَيْر مُبَلِّغٍ عنْ رَبِّهِ ما يُنزِّلُ عليه مِنْ كتابه.

• واشتمل أيضاً على بيان بَعْضِ آيات اللَّهِ في كونه، الدَّالَّاتِ على كمال عِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ، وحِكْمَتِهِ وَفَضْلِهِ على عباده، وأنَّه يَفْعَل مَا يشاءُ ويختار، ومِنْهَا قُدْرَتُهُ على إهلاكِ مَنْ يَشَاء إهلاكَهُمْ من عباده المجْرِمِين.

وهو الآيات من (٣٠ ـ ٤٤).

الدرس الرابع:

• اشتمل على عَرْضِ بَعْضِ ظَواهر سُلُوكِ الكَافِرِينَ المعاندين

المصرِّين على شركهم وكُفْرِهم، وهُمُ المَغْنِيُّونَ في السُّورَةِ، في مقابل ما يُوَجَّهُ لهم من دَعْوَةٍ لاتّقاءِ عِقَابِ اللَّهِ علىٰ ما قَدَّمُوا مِنْ جَرَائِمَ في الماضي، ولاتِّقَاءِ عقابه على ما يُرِيدُونَ ارْتكابَهُ من جرائم في المستقبل، وفي مُقَابلِ ما يَرَوْنَ من آيات اللَّهِ في كونه، وفي مجاري تصاريفه، إذ يُقَابِلُونَ كلَّ ذَلِكَ بالإعراضِ وَعَدَمِ الاكْتِرَاثِ.

وإذا قِيلَ لهم: أنفقوا ممّا رَزَقَكُمْ الله على ذَوِي الضَّرُورَات والحاجات. سَخِرُوا مِمَّنْ دعاهم إلى هذا العمل من أعمال الخير قائلين: أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ؟! بأسلوب استفهام السَّاخِرِ المستهزئ الذي لا يُؤْمِنُ بِفِعْلِ الخير.

وهو الآيات من (٤٥ ـ ٤٧).

الدّرْس الخامس:

• اشتمل على عرض بعض جدليّات قادة المشركين المعاندين في مكة في المرحلة التي نزلَتْ فيها السورة، وهي جدلِيَّاتٌ غَيْرُ ذَاتِ قيمَةٍ في موازين الفكر السليم، اتَّخَذُوا منها ذرائع لرفْضِ الإيمان بالرَّسُولِ وبالقرآن وبما جاء فيه من حقٍّ.

وهي جدَلِيَّاتٌ كانوا يُكَرِّرُونَ فيها قولهم: متىٰ يكونُ وقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ؟!

فجاء التعليم الرَّبَّانيُّ مشْتَمِلاً على بيان أنّ السّاعة الّتي أخفى اللَّهُ عزّ وجلّ العلم بوقتها عَنْ كُلّ ذي عِلْمٍ ممّن خلق، إذَا جاءَ وقْتُهَا فلا يحتاجُ الأمْرُ إلّا صيحَةً تَأْخُذُهم أخذاً سَرِيعاً جداً، إذْ يَكونُونَ بها هالِكِينَ، هُمْ وكُلُّ من قَضىٰ الله أن يُهْلِكَهُ ساعتئِذٍ، وإذْ تَحْدُثُ أَحْدَاثُهَا العظمىٰ في الكَوْنِ كُلّه.

ثمّ بَعْدَ مُرور مُدَّةٍ من الزَّمَنِ مُقَدَّرَةٍ في علم الله جلَّ جلالُهُ، يُنْفَخُ في

الصُّور، فيُبْعَثُ الأمواتُ إلى الحياة الأخرى، وتجري أحداثُ يَوْمَ الدِّين، وما فيه من حسابٍ، وفصل قضاءٍ، وتنفيذ جزاء.

وجاء في هذا الدرس عرْضُ بَعْضِ المشاهد مما سَوْفَ يكون يوم الدِّين.

وهو الآيات من (٤٨ ـ ٦٥).

الدّرس السادس:

• اشتمل على تَهْدِيد الّذين مَرَدُوا على الكُفْرِ والعناد، بأَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لَوْ شَاءَ لَطَمَسَ على أَعْيُنهم فَأَعْمَاهُم، ولو شاء لمسَخَهُمْ فأثْبَتَهُمْ في أَمْكِنَتِهِمْ عِقاباً لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَجُحُودِهم الحقّ الجليّ الواضح، الَّذِي تَدُلُّ عَليه الآياتُ البيّنات.

واشتمل على ظاهرة التنكيس الّتي يجريها الله في المعمَّرينَ من الناس، وهِيَ من قبيل النقص الجزئيّ في الخلْق، الذي هو جزءٌ من النقص الكلّي في حالَةِ المسْخ الشامل.

وهو الآيات من (٦٦ ـ ٦٨).

الدّرس السابع:

اشتمل على رَدّ أقوال بعض أئمة الشرك والكُفْر، الَّذِينَ اتَّهَمُوا الرّسول بأنّه شاعر، واتَّهموا القرآن بأنّه نَوْعٌ من الشّعر، وبيان أنَّ القرآن ذِكْرٌ للعالمين، وقرآن مبين واضِحٌ لكل ذي فكْرٍ أَنَّهُ ليْس من الشِّعْر في شيء.

إنّما أنزلَهُ اللَّهُ عليه لِيُنْذِرَ أَهْلَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ أحياءَ الْقُلُوبِ، التي يُدْرِكُونَ بها مَا يَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهم، فيعْمَلُونَ لتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة.

أمّا من كانَ ميِّتَ القلْبِ فلَمْ يَسْتَجِبْ وأَصَرَّ على كُفْرِهِ وعناده، فإنَّه يحقُّ عليه قولُ الله بالعذاب الأبديّ.

وهو الآيتان (٦٩ و٧٠).

الدرس الثامن:

• اشتمل على عرض بَعْض نِعَم الله على عباده في الدنيا، الّتي نَسْتَحِثُّ ذوي الْعَقْلِ والرُّشْد لحمد الله عليها، والقيام بواجب شُكْرِه، علىٰ نِعَمِه، بالإيمان والإِسْلام والطّاعة.

• واشتمل على بيان أنّ عبادة المشركين لشركائهم، إنّما يدعوهم إلى عبادتها اعتقادُهُمْ أَنَّها تنفعهم في أمور دنياهم، ومِنْها نَصْرُهم على أعدائهم، بوسَائِل غيبيَّة، هي من خصائص الرّبّ جلَّ جلالُه.

وهو الآيات من (٧١ ـ ٧٥).

الدرس التاسع:.

درس من آية واحِدَةٍ اشتملت على تسْلِيَةِ الله عزّ وجلّ لرسُولِهِ ﷺ، بشأن أقوال المشركين فيه المحزنةِ له، مع إشعاره ضِمْناً بأنّ اللَّهَ سَيَنْصُرُهُ، وسَيُحْبِطُ مَكَايد مُحْزنيه بأقوالهم الافترائية الظالمة.

وهو الآية (٧٦)

الدرس العاشر:

• اشتمل على إقامَةِ الحجَّة الْبُرْهَانِيَّةِ على مُنْكِر الْبَعْثِ من أئمة المشركين، إذْ قَدَّمَ عظماً نَخِراً بالياً، وقال: مَنْ يُحْيي العظامَ وهي رميم، ساخراً من قضيَّةِ الإعادة إلىٰ الْحياة بَعْدَ الموت والفناء، دون أن يُقَدِّمَ دَليلاً غَيْرَ الاستبعاد والاستغراب، والإنكار جحوداً أو عناداً بلا دليل.

وهو الآيات من (٧٧ ـ ٨٣) آخر السورة.

* * *

وبالتدبر المتأني السَّليم، يظهر تعانُقُ دروس السورة وقضاياها ضِمْنَ شجرة موضوعٍ واحدٍ اتُّبع فيه أُسلُوبُ النظام الشجري، لا أسلوب النظام الطولي، الّذِي يشبه ترابط حلقات السِّلْسِلة.

* * *

(٥)
التدبر التحليلي للدرس الأوّل من دُروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٢)

قال الله عز وجل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾.

تمهيد:

نزلت سورة (يسٓ) في أوَاسِطِ المرحَلَةِ المكيَّة من تاريخ دَعوة الرسول محمّد ﷺ، وقد كان أئمة الشِّرْك والكُفرِ فيها قَدْ وَصلُوا إلى دَرَكَة المشَاقَّة والعداء، ومحاولات التجمع بكثَافَةِ ضدّ الرسول ودعوته، وضدّ الذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، مع القيام بأعمال اضطهاديّة لضعفاء المؤمنين، ووَصَلَ كثيرٌ مِنْهُم إلى دَرَكَةِ ميؤُوسٍ مَعَهَا من استجابتهم لدَعْوَةِ الحق الرَّبّانيّة.

وقد كان لهؤلاء الأئمة في هٰذه المدّة الّتي نزلَتْ فِيها السّورة، مواقف عنادِيَّة وكَيْدِيَّة، اقْتَضَتْ إنْزالَ بياناتٍ إقناعيَّة وتربويَّةٍ وتوجيهاتٍ رَبَّانيَّة لعلاج مواقِفِهم معالجاتٍ تربويَّةً غير إكراهيَّة، وعلاجِ حالَةِ الرسُولِ وأحْوالِ المؤمنينَ حِينئذٍ تُجاهَها.

وحين يضَعُ المتدبّر لسورة (يسٓ) ظروف هذه المدّة الزمنيّة من تاريخ دعوة الرّسُول، فلا بُدَّ أَنْ تَتَفَتَّحَ أَمَامَهُ أبوابُ الْفَهْمِ الصحيح لآيات السورة، وإِدْراكِ دَلَالاتها، وإِدْراك ما تَرْمِي إليه من أغراض، وإدْراك أنَّ المعنيّين فيها هم المشركون في أُمّ القرى، والتابِعُونَ لهم ممّا حَوْلها، ويُقَاسُ أَمْثَالُهُمْ عَلَيْهِمْ، فإذا استقرت الدَّعْوة وتنامَتْ، فالخُطَّةُ الهادفة إلى تبليغ الناس أجمعين، أنْ تَتَّسِعَ شيئاً فَشَيْئاً ضمن دوائر تَنْداحُ باتِّساعٍ حتَّى تَبْلُغَ كُلَّ سُكَّانِ الأرْضِ في تَراتِيبِ خُطَّةِ الدَّعْوَةِ إلى دينِ اللَّهِ الرّبّانية.

التدبّر التحليلي:

قول الله عز وجلّ:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾،

• ﴿يسٓ ۝١﴾: حَرْفان مقطعان جاءا في أول هذه السورة «يا» و«س» وقد سبق في سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ بيان ما يَتعلَّقُ بالحروف المقطعة الواردة في أوائل بعض السّور، فلا حاجة إلى الإعادة.

وأورد المفسّرون عدّة آراء حول معنى (يسٓ) إلّا أنّها لا تَمْلِكُ دليلاً عقلياً، ولا نَقْلياً، ولا لُغوياً، فمن الخير أن نقول هي رُموز بين اللَّهِ ورسُوله وقَدْ يَكْتَشِفُ بَعْضُ الباحثين مستقبلاً باستخدام الحاسباتِ الآليّة دلَالَاتِ لَهَا، لا يَسْتَطِيعُ الذِّهْنُ البشَرِيُّ وَحْدَهُ اكتشافها.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾: يُقْسِمُ اللَّهُ عزّ وجلّ في هٰذه العبارة بالقرآن الحكيم، «الواو» حرف جرّ حمَل معنى القسم، والجار والمجرور متعلقان بمحْذُوف تقديره: «أُقْسِمُ» فالمعنى: أُقْسِم بالقرآن الحكيم.

وقد وصف الله عزّ وجلّ القرآن بأنّه حَكيم، أي: مُحْكَمٌ في مَبانِيه،

ومُحْكَمٌ في معانيه، ومُحْكَمٌ في أغْراضِهِ وَمَرَامِيهِ، ومحكَمٌ فيما اشتمل عليه من ترْبيةٍ، وَتعليم، وحقٍّ، وصراطٍ مُسْتَقيم، ووسائل على اختلافها، أو هو ذُو حِكْمَة في كلّ هذه الأمور.

لفظ: «حكيم» إمّا بمعنى اسم المفعول، وإمّا بمعنى اسم الفاعل، أو هو مستعْمَلٌ فيهما لتلازُمِ المعنيَيْنِ.

الحكمة: هي اختيار أحْسَنِ الأشياء ملأَمَةً لِمَا يَخْتَارُ له. ووضْعُ الأشياء في مواضِعها عملاً، أو فكراً، أو مَعْرِفَةً، أو اعتقاداً، أو غَيْرَ ذَلِكَ من صُوَرِ السُّلُوكِ الإرادي[1].

والحكمة: تَرْجِعُ إلى جذرَين:

الجَذْر الأول: الحكمة في المعرفة، وتكون بمطابقة العِلْم للواقع، أو لأحْسَنِ وأَقْوَمِ صُورَةٍ مُمْكِنَةٍ تقتَرِبُ مِن مطابقة الكمال في الشيء.

الجَذْرُ الثاني: الحكمة في السُّلُوك، سواءٌ أكان خُلُقاً، أَمْ عَمَلاً جَسَدِياً، أم تَصَرُّفاً في قَوْلٍ، أو مشوَرَةٍ أو إفتاء، أو حُكْمٍ، أَوْ سِيَاسَةٍ، أَوْ إِدَارَةٍ، أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

القرآن: هو هذا الكتابُ المنزَّلُ من لَدُن حَكِيمٍ عليم، والّذي نَتَدَبَّرُ آياته وسُوَرِهِ على قَدَرِنا.

والحكمةُ الّتي اشتملَ عليها القرآن تظْهَرُ للمتدبّرينَ الباحثين، في دَلالاتِ جُمَلِهِ وفِقَراتِه، وآيَاتِهِ، وفي سُورَهِ الّتي يُلاحَظُ في كُلِّ سُورَةٍ مِنْها وَحْدَةُ مَوْضُوعٍ عجيب البناء، كَشَجَرَةٍ ذاتِ جُذُور، وسَاقٍ أَوْ أَكْثَر، وذاتِ فُرُوع وأزْهَارٍ وثمَرَاتٍ، وَزِينَاتٍ جَماليّاتٍ رَائِعَات، وهي تُؤْتي ثمراتٍ جَدِيداتٍ كُلَّ حينٍ بإذْنِ رَبّها، إذْ يفْتَحُ اللّهُ على أذْهانِ المتدبّرين لاكْتِشَافِها واسْتِنْبَاطِها.

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر سورة (القمر)، «الحكمة في القرآن».

وتظْهَرُ أيْضاً للمتدبّرين الباحثين في موضوعاتِه المنبَثَّة في ثنايا سُوَرِهِ، حِينَ يَجْمَعُونَ نُصُوصَ كُلِّ مَوْضوع، وَيَتَدَبَّرُونَهَا تَدَبُّراً تَكامُلِياً، فَيكْتَشِفُونَ باسْتِخْرَاجِهَا، وَجَمعها، وتَدَبُّرها تَدَبُّراً تكامُلِيّاً، عجائِبَ ودَلَالاتٍ تكامُليَّة، لم يَتَوَصَّلْ إلى اكْتِشَافِهَا عُلَمَاءُ الْقُرُونِ السَّابِقة، وَيَكْتَشِفُونَ أَنَّهُ لَا تَنَاقُضَ ولا تضادّ بَيْنَ نُصُوصه، على الرُّغم من بَثِّهَا في مُخْتَلِفِ السُّوَر، وتَنْزِيلها في أزْمانٍ مُتَعَدّدَةٍ في نُجُومٍ مُتفَرِّقَة، ولو كان من عند غير اللَّهِ لوجَدَ الباحِثُونَ المنقِّبونَ فيه اختلافاً كثيراً. ويكْتَشِفُونَ التوافُقَ التَّامَّ بيْنَ ما عَرَضَهُ القرآن من بياناتٍ عن أُمُور كونيَّةٍ، وبَيْنَ ما تَوَصَّلَتْ إلَيْهِ حَقَائِقُ الْعُلُومَ، بَعْدَ جُهُودٍ مضنيَةٍ بذَلَهَا علماء البحث الكوني طوال قرون، في القضايا التي عرض القرآن بيانَات عنها. ويَكْتَشِفُونَ مطابَقَةَ شَرَائِعِهِ وتعليماتِهِ وأَحْكامِهِ وَوَصَايَاهُ للناس، لِلْفِطْرَة الَّتي فَطَرَ الرَّبُّ الخالِقُ النَّاسَ عليها، ويَكْتَشِفُونَ أنَّهَا أَحْكَمُ وأَعْدَلُ وأَصْلَحُ وأَنْفَعُ مِنْ كُلِّ ما يصنَعُ النَّاسُ لأنفُسِهِمْ مِنْ قوانِينَ وأَنْظِمَةٍ مخالفةٍ لِمَا جَاءَ فيه، ممَّا تَصَوَّرُوا أَنَّهَا صَالِحَةٌ نَافِعَةٌ، يُدْرِكُ هذا المنصفون منهم.

إنَّ هٰذِهِ العناصِرَ الحِكْمِيَّةَ الَّتي اشتَمَلَ عَلَيْهَا القرآنُ الحكيم، مَعَ عناصر أخرىٰ لَمْ يَكْتَشِفْهَا النَّاسُ بَعْدُ فيه، تَحْمِلُ بذاتِها شَهَادَةً علىٰ أنّ هذا القرآن المجيد تَنْزِيلٌ من الله العزيز الحكيم الرحيم. إذْ لَوْ كَان من عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدَ النَّاسُ فيه اختلافاً كثيراً بَيْنَ بَعْضِ آياته وَبَعْض، واختلافاً كثيراً بَيْنَ بَيَانَاتِه وحقائق الْعِلْمِ الإنساني، وبيْنَها وبيْنَ ما هوَ الأَحْكَمُ والأَعْدَلُ والأَصْلَحُ والأَنْفَعُ للنّاسِ مِنَ الشَّرائع والأحكام وتعليمات السّلوكِ في الحياة الدُّنيا، وهذا من دَلائل كوْنِه مُعْجِزَةً للناس.

وبما أَنَّ الْقُرْآنَ يَحْمِلُ بذاتِه الصِّفَاتِ الَّتِي تَشْهَدُ بأَنَّهُ كَلامُ اللَّهُ، وبما أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إلى الناسِ إلّا بلاغاً عَنِ الله جَلّ جلالُه، من النبيّ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ، فإنّ إتْيَانَهُ بِهِ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ وَبُرْهَانٌ سَاطِعٌ، على أنَّهُ رَسُول الله حقًّا وَصِدْقاً.

فجاءت آية:

• ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ المتضمَّنَةُ الْمُقْسَمَ عليه، بمثَابَةِ النتيجة الْقَطْعِيَّةِ للدَّلِيل الْقَطْعِيّ.

ففي قَسَمِ اللَّهِ عزَّ وجلّ بالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، على أَنَّ محمّداً لِمَنْ المرسَلِينَ، تنبيهٌ جَلِيٌّ عَلَىٰ بُرْهَانِ كونِهِ رَسُولاً.

إِذَنْ: فعلَىٰ النّاس أَنْ يفْحَصُوا هٰذا البرهَانَ القاطع، فَقَدْ فتح اللَّهُ عزّ وجلّ لهم باب البحث، إِذْ وَصَفَهُ بأَنَّهُ حكيمٌ.

فَمَنْ بَحَثَ فيه، واكْتَشَفَ مَا فِيهِ من حِكْمَةٍ مُعْجِزَة، عَلِمَ أَنَّهُ كلامٌ مُنَزَّلُ مِنْ لَدُنْ عليم خبيرٍ حكيم، وعَلِمَ أَنَّ مُحَمَّد بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، رَسُولُ الله بلا رَيْب، وعَلِم أنَّ القرآن وما فِيهِ من بيانات لِصِرَاط الله المستقيم، مشْتَمِلٌ على مَطْلُوب اللَّهِ من عباده في رحلةِ ابتلائهم في ظروف الحياة الدّنيا.

والغرض من خطاب الرسول بهٰذه الآية إسْمَاعُ مُنْكِرِي رسالَتِهِ، ولهذا جاءت الجملة مؤكَّدةً بالمؤكدات «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة» وقد أعرض الله عن خطابهم هنا لأنهم أصَرُّوا على تكذيبهم، وجحودهم رسالته، وقد سَبَقَ في نجوم التَّنزيل أن واجَهَهُم بالخطاب، وأكّدَ لَهُمْ أَنَّ محمَّداً رسُولُهُ حَقاً وصِدْقاً فمنها ما يلي:

(١) قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (المزمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) يخاطِبُهُمْ خطاباً مباشراً:

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦﴾.

(٢) ثم أنزل قولَهُ عزّ وجل في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ولمّا وَصَلَ كُبَرَاءُ مُشْرِكي أَهْلِ مكّة يَوْمَئِذٍ إلى مَوْقِفِ إدْبَارِ المكابر المعاند المتولّي، كَانَ من المناسِبِ الإعراضُ عنهم في الخطاب، وإسماعُهُمْ بأسْلُوب المُعْرِض عنهم، لإشْعَارِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَدْ تَحجَّرَتْ قُلُوبُهم، فَمُواجَهَتُهُمْ بالخِطابِ التكْرِيميّ، لا تُلائِمُ حَالَةَ نُفُوسهم، لكن قَدْ يُلائم نِفُوسَهم في الأساليب التربويّة الدَّعويّةِ الإعراضُ عَنْهُمْ، مع مُتَابَعَةِ إسْمَاعِهم ما هم له مُنْكِرونَ جَاحِدون.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾﴾. **صِراط**: فيها قراءتان كما سبَقَ، إحْدَاهُمَا بالصَّادِ، والأُخْرىٰ بالسّين، وهُما لغتان، وقرأ خلفٌ عن حمزة باشْمَام الصَّادِ زاي، وهو من اللّهجات العربيَّة.

الصِّرَاط والسِّرَاط: الطريق الواضح، وقيل: سُمِّي سِراطاً لأنَّه يَسْتَرِطُ المارّة، أي: يَبْتَلِعُهُمْ بِيُسْرٍ وسُهُولَة، دُون تزاحم.

مُسْتَقِيم: أي: لا اعْوِجَاجَ فيه.

والمرادُ بالصّراطِ المستقيم مَا جاء في الدِّين الَّذي اصْطَفَاهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ لعباده، الشامل للعقائد الإيمانيَّة، والأخلاق، وأَحْكَامِ السُّلُوكِ المنظمةِ لمَسِيرَة الإنْسان في حياته، من كلّ ما يَعْبُدُ به رَبَّهُ، في العباداتِ المحضَةِ وفي غيرها، الفرديَّة، والاجتماعيَّة(١).

وجاء استخدامُ حَرْفِ الجرّ «على» في آية ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾﴾ للدَّلَالَة على أنّ الرَّسُول محمّداً ﷺ ثابتٌ على صراطِ اللَّهِ في عقائده،

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق تدبر سورة الفاتحة حول ما جاء في القرآن من آيات فيها ألفاظ «سبيل ـ طَرِيق ـ منهاج ـ صراط».

وأخلاقه، وسُلُوكه، ومَفْهُوماته، ومتمكِّنٌ مِنْه، فَهُوَ لا يَعْدِلُ عنْهُ إلىٰ مُتعَرِّجَاتِ السُّبُل، ولا يَنْحَرِفُ عن حُدُودِ حَافَّتَيْهِ اتّباعاً لِلْهَوَىٰ وَشَهواتِ النَّفْسِ، أو زِيناتِ الأفكار الضَّالةَ، والأقوال الزخرفية.

وهذه شهادة من اللَّهِ عزّ وجلّ لرَسُوله بالاستقامة التَّامَّةِ علىٰ أحكام الدّين فهو لا يَحِيدُ عنها.

ومثلُ هذا التعبير جاء في سورة (الزُّخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول). فقال الله عزّ وجلّ فيها لرسوله:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: إنّ اسْتِمْسَاكَكَ بالّذي أُوحي إِلَيْكَ من رَبّكَ يجْعَلُكَ دواماً ثابِتاً على صراطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمُتَمَكِّناً مِنه.

ووصَفَ هُودٌ عَلَيهِ السَّلام رَبَّهُ بأنَّهُ على صِراطٌ مستقيم، فقال الله عزّ وجل في سُورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكايةً لبعض مقالاتِ هُودٍ لقومه:

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

وظاهرٌ أنَّ من أعْظَم الثناء على الرَّسُول محمد ﷺ، أَنْ يَصِفَهُ رَبُّهُ بوَصْفٍ هو من صِفَاتِ اللَّهِ جلَّ جلاَلَهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، بشأن الصّراط المستقيم.

• ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾: بنَصْبِ ﴿تَنزِيلَ﴾ وبرفعِها على الْقِرَاءَتَيْنِ. فالرَّفع على أنّه خبَرُ مبتَدأ محذوف، والنَّصْبُ على أنه مَفْعُولٌ مطلَقٌ لحالٍ مَحْذُوفَةٍ، والتقدير: مُنَزَّلاً تَنْزِيلَ الْعَزِيز الرَّحيم، والعامل فعل «أقسم» الذي دلَّ عليه القسم.

التنزيلُ: مَعْلُومٌ، وهُوَ كالإنْزَالِ، ويُفِيدُ أَنَّ الْفَاعِلَ المُنَزِّلَ وَهُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ هو في جِهَةِ الْعُلُوِّ، وقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ المتَعَالي، وأنَّه الْعَلِيُّ الأَعْلَىٰ.

ويُفِيدُ أيضاً أَنَّ المنزَّلَ عَلَيْهِ هو في الجهة المقابِلَةِ لِجِهَةِ العلوّ، فهو في الجهة الدنيا.

ونفْهَمُ من هٰذا أَنَّ كُلَّ عَطَاءٍ من عطاءاتِ الرُّبوبيَّةِ تَنْزِيل، لأنَّ الله عزّ وجلّ لا يُشارِكُهُ في علوّه أحدٌ، وكُلُّ ما سِوَاهُ مَخْلُوقٌ له، فكلُّ ما يعطيه سبحانَهُ وَتَعَالَىٰ تَنْزِيلٌ وإنْزَالٌ، سواءٌ أكان مادياً مُحساً، أمْ مَعْنَوياً مُدْرَكاً أَم غَيْرَ مُدْرَك.

ولهٰذا جاء التعبير بالإنْزَالِ والتَّنْزِيل لدىٰ بيان كثير من العطاءاتِ الرَّبَّانيَّة، ومنها ما يلي:

«إنزال الأنعام ـ إنْزَالُ السَّكِينَة ـ إنْزَالُ الْكِتَابِ ـ إنْزَالُ المَنِّ والسَّلْوىٰ ـ إنْزَال اللّباس والرِّيَاش ـ إنْزَالُ الْحَدِيد».

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: أي: الْقَوِيّ الغالب، وهو من أسماء الله الحسنىٰ، وصفاته العليا.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: ذِي الرَّحْمَةِ العظيمة، وهو من أسماء الله الحسنى وصفاتِهِ العُلْيا.

وجاء اختيار هٰذيْن الاسْمَيْن من أسماء الله الحُسْنى، بَعْدَ ذِكْرِ القرآن الحكيم، وأنَّ مُحَمَّداً لَمِنَ المُرْسَلِين، وأنَّ الدِّينَ الَّذِي يُطَبِّقُهُ في ذَاتِهِ، ويَدْعُو الناس إلَيْهِ، هو صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، إِشَارَةً إِلَىٰ أَنَّهُ بِقَوَّتِهِ الْغَالِبَةِ يُعَاقِبُ الْمُكَذِّبِين الّذينَ يُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ في رسالَتِهِ، وَيُكَذّبونَ بِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبّه من كتابٍ حَكِيمٍ مُعْجِزٍ، وصِرَاطٍ مُسْتَقِيم، وأَنَّهُ لا يَقِي من عذابِ اللَّهِ أَحَدٌ، إذا قَضىٰ بِهِ على مستحقّيه. وإشارةً إلى أَنَّهُ بِرَحْمَتِهِ العَظِيمة أَنْزَلَ

الكِتَاب، وبَعَثَ الرُسُولَ، وأبانَ الصِّرَاطَ المستقيم للناس، وإشارةً إلى أنَّهُ بِرَحْمَتِهِ العظِيمَةِ يَجْزِي عبادَهُ المؤمنين الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدين.

• ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾.

الإنْذَارُ: هُو الإخْبَارُ بالْعَاقِبَةِ المؤلمة.

أي: جَعَلْنَاكَ يَا مُحَمَّد نبياً رَسُولاً، وأنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآنَ، المشتمل على بيان الصِّراطِ المستقيم، وأنت سَائِرٌ عَلَيْهِ لا تَخْرُجُ عن حُدُوده، فأنت الأُسْوَةُ الحسنة، لتَكْلِيفِكَ أنْ تُنْذِرَ قوماً الإنْذَار الَّذِي أُنْذِرَهُ آباؤُهم، فأَعْرَضُوا عَنْهُ وأَهْمَلُوهُ فَهُمْ غَافِلُونَ، مشغولُون في أمور دُنْيَاهُم، واتباع أهوائهم وشهواتهم، وضلَالَاتِ المضلّين، وعقائدهم الباطِلَةِ القائمة على الشِّرْكِ بالله في رُبُوبيّته وإِلٰهِيَّتِهِ، وإنكارِ الجزاء ويوم الدّين.

الغفلة: انصرافُ الذِّهْن عن ملاحظة الشيء ومراقبته، معَ وجوده في مجال الإدْراكِ أو وُجود أدلَّتِه، وإمكان إدْراكِه، لولَا وُجُودُ الصارف أو السَّهْو، الّذِي هو بمثابَةِ إطباق الأجفان على العيون.

يُقَالُ لغة: غَفَلَ عَنِ الشيءِ يَغْفُلُ غُفُولاً وغَفَلَةً.

والإنْذَارُ هو المهمَّةُ الّتي تأتي بَعْدَ التَّبْلِيغ، والدَّعْوَةِ بالحكمة، والموعظة الحسنَةِ، والجدالِ بالّتي هي أحْسَن، وتَرْغيب من اسْتجابَ وأطاع بالعاقبة الحسْنَىٰ في جَنَّاتِ النعيم، أمّا مَنْ أبَىٰ وَعَانَدَ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لدعوة الحقّ، فيأتي إنْذارُه بالعاقِبَةِ السَّيِّئَةِ في جهَنَّمَ دار عذاب الكَفَرَة المكذِّبين.

فذِكْرُ الإنْذار الذي تَسْبِقُهُ مراحِلُ دَعويَّة تقْتَضِيها قواعِدُ الدَّعْوَةِ إلى الله، والتَّراتِيبُ العَقْلِيَّةُ الحكيمة، يَدُلُّ عن طريقِ اللُّزوم الذِّهنيّ على هذه المراحل.

كمن يقول لِوَلَدِهِ وهو ما زَال في المرحلة الابتدائية: لقد أَدْخَلْتُكَ يا وَلَدِي في المدْرَسَةِ لتنَال شهادة الدُّكتوراه، أي: بَعْدَ أن تجتاز المرحلة الابتدائية، والمرحلة الإعداديّة، والمرحلة الثانويَّةُ، والمرحَلَةَ الجامِعيَّة، ثمَّ الماجستير، فالدّكتوراه.

وكمن يقول لراغب في الحجّ، خُذْ هٰذا المقدار من المال لَتحجَّ به، أي: لتهيّئ كلَّ مَا تَحتَاج إليه، وتَسَافِرَ من بَلَدِكَ مجتازاً المسافات، على وسائل النقل الّتي تَتَيَسَّرُ لك، حَتَّىٰ تَصِلَ إلى مَكَّةَ في مَوْسِمِ الحجّ وَتَحُجَّ مع وفُود الرَّحْمٰن.

فالمعنى: لتُبَلِّغ الناس ما أوحىٰ رَبُّكَ إليك، وتُبَيِّنُ للناس ما أُنْزِلَ إليهم، وتَدْعُو إلى اللّٰهِ بالحكمة والموعظةِ الحسنة والجدال بالتي هي أَحْسَن، وتَضْرِبَ بِنَفْسِكَ المثَلَ الأعْلَىٰ، وَتُبَشِّرَ المؤمنين ثُمَّ لِتُنْذِرَ أَخيراً الكافرين المكذّبين الْمُصرّين على عنادِهم وجُحُودِهم.

عبارة ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ تَرَدَّدَتْ في تفسيرها أقوالُ المفسّرين بين إثْباتِ إِنْذَارِ آبائهم ونَفْيه، وعلى النَّفْي فلَفْظُ ﴿مَا﴾ حرْف نفي، وعَلىٰ الإثْبات يُمْكن أن يَكُونَ لفْظُ ﴿مَا﴾ اسم موصُول بمعنى الّذي، ويمكن أنْ يكون حرفاً مَصْدَرِياً يُؤَوَّلُ مع ما بَعْدَهُ بِمَصْدَر.

فعلىٰ أَنَّهُ اسْمُ مَوْصُولٍ يكون تقدير الكلام: لِتُنْذِرَ يَا مُحمَّد قوماً العذابَ الَّذي أُنْذِرَهُ آباؤُهم.

وعلى أَنَّهُ حَرْفٌ مَصْدَرِيٌّ يكون تقدير الكلام: لِتُنْذِرَهُمْ إِنْذَارَ آبَائِهِمْ الَّذِي أُنْذِرُوهُ على لسانِ رَسُولِهِمْ وهو إِسْمَاعِيل بْنِ إبراهيم عَلَيْه السّلام بالنسبة إلى العرب في جاهليتهم.

ونفي الإنْذَارِ وَجَّهَهُ القائِلُونَ بِهِ لآبَائِهِم الأقربين، وذٰلِكَ لأنّ آباءَهُمْ الأبْعَدِينَ قَدْ أُنْذِرُوا حَتماً، فلا يَسْتَقِيمُ النفي العام، وعن إسماعيل عليه السلام ورث العرب عبادة الحجّ ومناسكه، والصَّلَوَاتِ الّتي كانو يُصَلُّونها،

والطواف الذي كانوا يطوفونه، واسْتَمَرَّتْ هذه المواريث حتَّىٰ بِعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ.

أدلة القول بالإثبات:

والفهم الذي اتَّضَحَ لي بِجَلاءٍ هو القولُ بالإِثْبَاتِ لا القولُ بالنفي، والدليل عليه مَا جاء في القرآن، من بيان أنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ خَلَتْ في الماضي من القرون، إلَّا أَرْسَلَ الله عزّ وجلَّ لها رَسُولاً أنْذَرَهَا، أو بَلَغَها إنْذَارُ رسُول، وبذلك قامت حُجَّةُ الله على الأُمم، وآباءُ الْعَرب أمَّةٌ من الأمم، ومن الأدلة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/٤٣ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ومَا مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ إلا سَلَفَ وَمَضَىٰ فِيها نَذِيرٌ أَنْذَرَهَا بَعذابِ الله في نَارِ جَهنَّمَ إذَا هِيَ كَفَرَتْ، وَكَذَّبَتْ بآيَاتِ رَبّها، وَكَذَّبَتْ الرَّسُولَ المؤيَّدَ بآيَاتٍ مِنْهُ وَخوارق.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) حَدِيثاً عَنْ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّين إذْ يخاطب الله الجنّ والإنْسَ مَعاً:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

فأثْبَتَ هٰذا البيانُ الرَّبَّاني أنَّ الله جلَّ جَلالُه يُنَادِي يَوْمَ الدِّين معشَرَ الجِنِّ والإنْسِ، فيقُولُ لهم:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ﴾؟

استفهام لانتزاع إقرارهم بأنَّهم قد جاءتْهُمْ رُسُلُ منهم فبَلَّغُوهم وأنْذَرُوهم، فلَمْ يكن لهم عُذْرٌ بالجَهْلِ، بل يشْهَدُونَ على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين.

﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾: وظاهر أن آباءَ القوم المعنيين بقول الله عزّ وجل: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ يَدْخُلُونَ في عُمومِ نداء الله يوم الدين بقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ ويَشْهَدُونَ على أنفسهم، ولا يخرج عن عموم هذا النداء إلَّا أفرادٌ لم تَبْلُغْهُمْ دعوةُ رَسُولٍ مَا، ولا بَلَغَهُمْ إنْذَارٌ بعذاب اللَّهِ يوم الدّين، أمَّا الأمَمُ والأقوام بوجْهٍ عامٌّ فما من أُمَّةٍ إلَّا جاءَها نذير.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الْقَصَصِ/٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) بشَأْنِ مُشْرِكي مكّة:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝٤٨﴾.

إنَّ عِلْمَهُمْ بِرِسَالَةِ مُوسَىٰ وَبِرِسَالَةِ عِيسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلامُ مِنْ بَعْدِهِ، وَعِلْمَهُمْ بِرِسَالَةِ إِسْمَاعِيلَ وإبْرَاهِيمَ مِن قَبْلِهما، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ آبَاءَهُمْ قَدْ بَلَغَتْهُمْ إِنْذَارَاتُ الرُّسُل.

وقَدْ دَمَغَهُمُ الله عزّ وجلّ بأَنَّهُمْ كَفَرُوا بما أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ، وكان يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَبِما أَنْزَلَ اللَّهُ عَليه.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) عن عُتاة مُشْرِكِي مَكَّةَ المعانِدين المترفين:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠﴾.

فدلَّ هذا النَّصُّ على أنّ هؤلاء الكفرة المشركين المترفين من كبراء مكَّة، قدْ فَهِمُوا ما في القرآن من قضايا الإيمان والإنْذَارِ بعذاب الله يوم الدِّين للكافِرِين، وأنّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَ نظيرُهُ لآبائِهِمْ الأَوَّلين، وأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ صِدْقَ الرَّسُول وما يتحلّىٰ به من خُلُقٍ عظيم، وما يَتَّصِفُ به من فِطْنَةٍ فائقةٍ وَعَقْلٍ راجح.

كُلُّ هٰذِهِ النُّصُوص تَدُلَّ على أنّ المراد بقول الله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ على الإثبات لا علىٰ النفي.

وعبارة ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ في الآيَةِ تُؤَيِّد الإثبات، لأنَّ الغفلَة حالَةٌ عنْدَ اليقْظَان تجْعَلُه لا يَشْعُرُ ببعْضِ مَا هُوَ فِي دَائِرَةِ إدْراكه من حَوْلِهِ أو في نفسه، لانْصِرَافِ كُلِّ هَمِّه وَتَوَجُّهِهِ لأمُور أخْرَى هو مُتَعَلِّقٌ بها.

فإثباتُ أنَّهُمْ غَافِلُونَ يَدُلُّ على أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ما أنْذِرَ بِهِ آباؤُهم، إلَّا أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عنه، بسَبَبِ انْصِرَافِ نُفُوسِهِمْ إلى شَهَوَاتِهِم، وأهوائهم من الدُّنيا، فهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِتَرْكِ شيءٍ مِنْ حُظوظِ الدُّنْيَا، استجابةً لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ مَهْمَا حَذَّرَهُم وأنْذَرَهُم، ومهما كانَ لَدَيْهِم من أنباء الرُّسُل السَّابِقين في مواريث أخبار آبائهم.

فإنْذَارُ الرَّسُولِ لهم إنْذَارٌ يُنَبِّهُهُمْ من غَفْلَتِهِمْ، ولا يُعْلِمُهُمْ بما كانُوا يَجْهَلُونَهُ.

والعبارة على تقدير: لتُنْذِرَ قوْماً عذابَ اللَّهِ الَّذِي كَانَ آباؤُهم قَدْ أُنْذِرُوهُ، فَأهْمَلُوهُ وأعْرَضُوا عَنْ تَذَكُّرِهِ مع المناسبات الداعياتِ إلى تَذَكُّرِهِ، فَهُمْ غَافِلُونَ عنه، لا يَكْتَرِثُونَ لَهُ، ولا يَعْبَؤُونَ به.

وَيُحْمَلُ على هذا ما صحَّ من أحاديث الرَّسُول ﷺ، ومنها ما يلي:

(١) ما جاء عند البخاري ومسلم من أنّ الرّسُول ﷺ رأىٰ عَمْرو بن لُحَيّ في جَهَنَّمَ وهُوَ الَّذِي سيَّب السَّوَائِبَ في الجَاهِلِيَّةِ العَرَبيَّة.

وعند المؤرخين أنّ هٰذا الجاهليّ أوّلُ مَنْ غَيَّرَ دين التوحيد الَّذي كان عليه العربُ من أيَّام أبيهم إسْمَاعِيلَ بن إبراهيم عليهما السلام.

(٢) وروى مُسْلِمٌ عن عائشة رضي الله عنها، أنَّها سألَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقالت: يَا رَسُولَ الله، إنَّ ابْنَ جُدْعَانَ كان في الجاهليَّةِ يَصِلُ الرَّحِم، ويُطْعِمُ المسكينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قال:

«لا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْماً: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين».

(٣) وروى ابْنُ مَاجِهْ عن عبد الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ مُشْرِكٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ». وُصِفَ بأنّه صحيح.

(٤) وروى مُسْلِمٌ عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لي، واسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لي».

وظاهِرٌ أَنَّ الله عزَّ وَجلَّ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ بأنْ يَسْتَغْفِرَ لأُمِّهِ، لأنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، فهو لا يأْذَنُ بالاستغفار لمَنْ مَاتَ مُشْرِكاً.

(٥) ووردت عدَّة روايات يُقَوِّي بعضُها بعضاً، بشأن امْرِئِ القيس، وأنَّ الرسُول قال فيه: صاحبُ لواء الشعراء إلى النار، وأنَّهُ نَبِيهُ الذِّكْرِ في الدُّنيا، خامِلُهُ في الآخرة[1].

أدلّة القائلين بالنفي في عبارة: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾:

أمّا القائلون بالنفي فقد اعْتَمَدُوا فيه على ما تَبَادَرَ لأذهانهم من فهم فيما يلي من نصوص:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سُورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) خطاباً لرَسوله محمّد ﷺ:

﴿... لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) انظر أيضاً تدبر الآية (٤٢) من سورة (فاطر/٣٥ مصحف/٤٣/ نزول) ففيها مزيد تأكيد لأدلة القول بالإثبات.

(٢) وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) بشأن القرآن:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

حملوا كلمة ﴿مَا﴾ في ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ على أنَّها حرف نَفْي على ما تبادر إلى أذهانهم.

مع أنّ هٰذيْنِ النَّصَّيْنِ يجب فَهْمُهما بما يتطابَقُ مع دلالات النصوص الواضحات، الَّتي سبَق ذِكْرُها وتَدَبُّرها تَحْتَ عنوان «أدِلَّة القول بالإثبات».

إنّ كلمة ﴿نَّذِيرٍ﴾ تأتي في اللُّغة مَصْدراً بمعنى «الإنْذَار». وتأتي بمعنى «المُنْذِر».

وانسجاماً مع مختَلِفِ النصوص يَنْبَغي حَمْلُ الكلمة في نَصَّي (القصص) (والسجدة)، على معنى «الإنْذَار» فيكونُ المعنى فيهما كما يلي:

لتُنْذِر قوماً الّذي آتاهُمْ مِنْ إنْذَارٍ من قَبْلِكَ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كما جاء في (الْقَصَص) و﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ كما جاء في (السجدة). وإنْذارُكَ لَهُمْ يكون بمثابَةِ المُنَبِّهِ لهم من غفلاتهم، كما جاء في سورة (يسٓ).

أمّا قول اللَّهِ عزّ وجل في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) بشأن كبراء كُفَّار مكّة في المرحلة المكيّة من دعوة الرسول ﷺ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٤٣ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٥﴾.

فظاهر فيه أن الآية (٤٤) هي من توابع أقْوَالِهِم، فهم يَفْتَرُونَ على اللَّهِ بأنَّهُمْ مَا أتَاهُمْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ من نذير، ولهذا أَتْبَعَ الله عز وجل

الآية بقوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: وكَذَّبَ هؤلاءِ بأقوالِهِمْ هذه، وكذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ منْ أَهْلِ الْقُرُونِ السابقة كذلك، وكانُوا أشَدَّ من كُفَّار مَكَّةَ قُوةً وبأساً فأهْلَكَهُمُ الله عزّ وجلّ.

وأمّا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول).

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

فقد اشتمل على أرْبَعَةِ قوانِينَ دُسْتُورِيَّةٍ عامَّةٍ مِنْ قَوانِينِ الجزاء الرَّبَّاني:

القانون الأول: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾: أي: إذْ يَجْلُبُ لَهَا باتّباعِهِ الْهُدَىٰ السَّعادَة الأبَدِيَّة بفَضْلِ رَبّ العالمين، واهْتِدَاؤه الَّذِي يَجْلُبُ لَهُ سَعادَتَهُ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُه، مهْمَا كان الْتِصَاقُهُ بِهِ وَثيقاً بقرابَةٍ وَرَحِمٍ، أَوْ حُبٍّ، فثوابُه لَهُ وحْدَه.

القانُونُ الثاني: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾: أي: يَضِلُّ جانِياً على نَفْسِهِ، إذْ يُلْقِي عليها عُقُوبَاتِ اخْتِيَارِه سُبُلَ الضَّلالِ. وضَلَالُهُ لَا يَضُرُّ غَيْرَه، مَا لم يكن لَهُ تَسَبُّبٌ بإضْلَالِ غيره، ومن كان سبباً في إضلال غَيْرِه، فإنَّهُ يُعَاقَبُ على أعمالِهِ السَّبَبِيَّةِ، لَا عَلَىٰ أَعْمَال الآخَرِينَ الاخْتِيَارِيَّة.

القانون الثالث: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي: ولَا تَحْمِلُ نَفْسٌ تَكْتَسِبُ باخْتِيَارَاتِها أوْزارَهَا فهِي باكتِسَابها لها وازرة، وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَىٰ تَكْتَسِبُ باخْتِيَارَاتِها أوْزارَهَا.

القانُون الرابع: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾: أي: وما كانَ من شأْن الله وَلا من سُنَّتِه الحكيمة، أنْ يُعَذِّب الموضُوعين مَوْضِع الامْتحان، على كُفْرِهِمْ وعَدَم إيمانِهِمْ، حتَّى يَبْعَثَ رَسُولاً يُبَلِّغُ الممتَحَنِينَ مَطْلُوبَ اللَّهِ مِنْهم، وقَدْ بَعَثَ اللَّهُ في الواقع الفِعْلِيّ لكلّ أُمَّةٍ رَسُولاً، فقد تحقَّقَ هذا

الأمْرُ بالنسبة إلى كلِّ الأُمَم، كما جاء في بيانات القرآن الكريم، ورَسُول اللَّهِ محمَّدٌ ﷺ بَعْدَ بِعْثَتِهِ هو الرَّسُولُ لكلّ العالمين من الإنس والجنّ.

أمّا الأفرادُ المنْعَزِلُون الَّذِينَ لم تبلُغْهُمْ دَعْوَةُ رَسُولٍ، فَلِلَّهِ فيهم إجراءٌ خَاصٌّ قد يكون بإجراء امتحانٍ لهم يوم القيامة، كما جاء في بَعْضِ الأحاديث، واللَّهُ لَا يَظْلِمُ أحداً شيئاً، وقَدْ يكُونُ بمعاملتهم كمعاملة الأنعام، والله هو العليم بإجراءاته فيهم.

واعْتِبَارُ أَهْلِ الجاهليّة العربيَّةِ قبْلَ الإسلام، أهْلَ فَتْرَةٍ بصِفَةٍ عامَّة، أمْرٌ لا تُسَاعِدُ عليه النُّصوص، بل تَدُلُّ النُّصُوصُ على أَنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ ومُجَازَوْنَ علَىٰ كُفْرِهم.

وإطلاق عبارة: «أهْلِ الْفَتْرَة» مَأْخُوذَةٌ من قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

الْفَتْرَةُ: هي مُدَّة السُّكُونِ الّتي تَكُونُ بَيْنَ حَدَثَيْنِ من نوع واحد، كَسُكُونِ الْحُمَّىٰ بَيْنَ نَوْبَتَيْنِ، وكانْقِطَاعِ بَعْثِ رَسُولٍ بَيْنَ رَسُولين.

فإنْ كان لأهْلِ الْفَتْرَةِ أحْكَامٌ خاصَّةٌ تُعفيهِمْ مِنَ الْمَسْؤُولِيَّة عن الإيمان الصحيح، فالأولىٰ بها أَهْلُ الكِتَابِ بمقْتَضَىٰ هٰذِهِ الآيَةِ، ولا مَعْنَىٰ لتَخْصِيصِهَا بأهْلِ الجاهليَّةِ الْعَرَبيَّة.

فأحكام أَهْلِ الفترة الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ عُلَمَاءِ التوحيد، لَمْ أَجِدْ ما يَدُلُّ علَيْهَا مِنَ النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ، ولا من براهين العقل، باستثناء الأفراد الّذين لم تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ رَسُولٍ، ولا بيانَاتٌ صحيحةٌ عن أرْكان الإيمان، وما أَعَدَّ اللَّهُ للكافرين من عقابٍ يوم الدين.

❊ ❊ ❊

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾.

كلمة: ﴿سَدًّا﴾ في الموضِعَيْن فيها قراءتان متواتران بفتح السِّين وبضَمِّها، وهُما لُغتان عَرَبيتان للْكَلِمَة.

• ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾:

المرادُ بأكْثَرِهِمْ أكْثَرُ قادَةِ وأئِمَّةِ مُشْرِكي مَكَّةَ حِينَئِذٍ، وهُمُ الّذِين يُطِيعُهُمُ السَّوادُ الْأَعْظَمُ مِنْ جُمْهُور الْقَوْم، وهُؤَلاءِ القادَةُ والْأَئِمَةُ من الأكابِر المجْرِمِينَ هُم الّذين كان الرسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ حَرِيصاً على أنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَجِيبين لِدَعْوَتِه، لأنَّهم إذَا آمَنُوا بِه واتَّبعُوهُ تَبِعَتْهُ مَعَهُمْ جَمَاهِيرُهم، ودَخَلَتْ في الإسْلَام من بَعْدِهم جَمَاهِيرُ قبائِلِ الْعَرب أفْواجاً، إذْ كانَتْ قبائِلُ مُعْظَمِ الْعَرَب تَرىٰ لِقُرَيْشٍ سِيَادَةً وَفَضْلاً، وَلا سيما في أُمُورِ الدين.

وقد أيأسَ اللَّهُ عزّ وجلَّ رسُولَه بهٰذِهِ الآية مِنْ إيمَانِ أكْثَرِهم، لِعِلْمِه بمَا وصَلَتْ إليه نُفوسُهم وقُلُوبُهُمْ مِن عنادٍ واستِكْبارٍ وإصرار على الباطل، وذلك لئلا تبقىٰ مطامِعُ الرَّسول متعلّقَةً بإيمانهم، بغية إعزاز الإسلام والمسلمين بهم، والإسراع بانتشار دين الإسلام في الأرض.

ولِيُوَجِّه الرَّسُولُ ﷺ الطاقات الكبرى من طاقات دعْوَتِه إلى آخَرِين، لم تَسْتَحْكِمْ في نُفُوسهم عُقْدَةُ العناد والاستكْبار والإصْرار على الباطل.

فالمعنىٰ الذي تَدُلُّ عَلَيْهِ هذه الآية يمْكِنُ شرحُهُ بما يلي:

لقد ثبت على أكثرهم قوْلُ اللَّهِ المحدِّدُ لأنْظِمَةِ النَّفْسِ الإنسانيَّة، المتَضَمِّنُ أنَّ من جعل نفْسَهُ باختياره الحرّ أَسِير جوامِحِه من الأهواء والشهوات، والكِبْرِ وحُبِّ الْعُلُوّ في الأرْض، والرَّغْبَةِ في الفُجُور، فإنَّه لَا يُؤْمِنُ بالجزاء الرّبّاني، ولا يُؤْمِنُ بِيَوْم الدّين، لئلَّا يُلْجِمَ جوامِحَهُ عن مطالِبِها وَرَغباتها، مَهْمَا توالَتْ عَلَيْهِ الآيَاتُ البيّنَات، والْحُجَجُ والبراهين الواضِحَات، ومهما تتابعتْ عليه الإنذارات.

وثبَتَ على أكْثَرِهِمْ قَوْلُ اللَّهِ هٰذَا، بأنَّهم لَنْ يُؤْمِنُوا مستقبلاً، مهما وُجِّهَتْ لهم وسائل العلاج الإقناعيّ والترغيبيّ والترهيبي، وبأنَّ مَصِيرَهم إلى عذابِ جهنَّمَ، فحالَةُ نفوسهم حَالَةٌ ميْؤُوسٌ منها، ولو مُنِحُوا أزمان إمْهَالٍ طويلَةَ الأجل.

لكن ما دام فيهم العدَدُ الأقلُّ قابلين لأنْ يُؤْمِنوا مستقبلاً، ولَمْ يَصِلُوا إلَى حَالةِ ميؤوسٍ منها، فإنَّ حِكْمَةَ الله عزّ وجلّ تَقْتَضِي عَدَمَ إهلاكهم إهلاكاً جماعِياً عَامًّا. كما أهْلَكَ الَّذِينَ أهلَكَهُمْ من كفار الْقُرُونِ السّالفة، من أُمَم المرسَلِين السَّابقين.

عبارة: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ تكَرَّرَ في القرآن المجيد نظيرها، فَمِنْهَا ما يلي:

- ﴿...فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ الإسراء/١٧.
- ﴿...وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ السجدة/ ٣٢.
- ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ الصافات/ ٣٧.
- ﴿...وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فصلت/ ٤١.

• ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يونس/ ١٠.

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ الأحْقَاف/ ٤٦.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يونس/ ١٠.

هذا الاسْتِعْمَالُ ونظائرُه قد جاء في القرآن بمعنى تحقُّقِ كَلِمَةِ الله في سُنَّتِهِ في عبادِهِ، إذْ يكُونُ مَصِيرُهُمْ بأسْبَابٍ مِنْهُمْ إلَىٰ عَذَابِ الله، عن طَرِيق إراداتهم الحرَّة المختارة، حِينَ يَخْتارُون الْإِصْرَارَ على الكُفْرِ والجُحود، ورَغبَاتِ الْفُجُور، ومعانَدَةِ الخالِقِ العزيز الْقَهّار، بَعْدَ أَنْ مَنَحَهُم رَبُّهم في امتحانهم في ظروف الحياة الدنيا كلّ ما يَلْزَمُ للابْتِلَاءِ الْأَمْثَل، وَأَمْهَلَهُم إمْهالاً كافِياً، فلو اسْتَمَرُّوا في الحياة الدُّنْيا إلَىٰ الْأَبَدِ، لاسْتَمَرُّوا كافِرِينَ إلَىٰ الْأَبَد.

وجاءت كلمة «على» في هذه الاستعمالَاتِ ونظائرها مُنَاسِبَةً لِقَضَاءِ الْعِقابِ الَّذِي يُسْقِطُهُ اللَّهُ عليهم.

ولو كان القضاء الرَّبَّانيُّ قضاءَ ثواب، لكان المناسبُ استعمال حَرْف اللام الّذي يُدُلُّ على الْمِلْكِ أو الاختصاص أو نَحْوِها.

إنَّ كَلِمَةَ الله بالعِقاب المعجّل في الدُّنيا، أو المؤجّل إلى يَوْم الدِّين، أو بالإهلاك الشامِلِ في الدُّنيا، كَلِمَةٌ مُعَلَّقَةٌ مَشْرُوطةٌ، سَبقَتْ وَضْعَ الممتحنين في مجالَاتِ ابْتِلَائهم، وهي تَتَرقَّبُ مَنْ يُحقِّقُ منهم في نَفْسِه باختياره الحرِّ الصِّفَاتِ الّتي تَجْعَلُهُ يَسْتَحِقُّ إنْزَال العقاب أو الإهْلَاكِ عليه.

فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ في نَفْسِهِ فَقَدْ حَقَّ قَوْلُ رَبِّه عَلَيْهِ، فانْطَبَقَ عَلَيْه، واسْتَقَرَّ وَثَبَتَ، كما تَنْطَبِقُ أَسْنَانِ المفتاح على أسْنَانِ الْقُفْلِ، ويَنْتَظِرُ الْقُفْلُ حَرَكَةَ إدَارَة، وبإدارة مِفْتَاحِ قُفْلِ العذاب يَنْزِلُ العذابُ عليهم بقضاء اللَّهِ وقَدَره، وهم مُسْتَحِقُّونَ له اسْتِحْقَاقاً تَامًّا، بمقتضىٰ عَدْلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وَوَعِيدِهِ السَّابق.

أقْسَامُ قول الله:

إنّ «قَوْل الله» و«كلمة الله» سواء، ويكونُ قَولُ اللَّهِ تعالى في الأقسام الأرْبعة التالية:

القسمُ الأول: قَوْلُ الله عزّ وجلّ في موضوعٍ خَبَرِيّ، أزَلِيّ أو غير أزَلِيّ، من ماضٍ، أو حاضرٍ، أَوْ مسْتَقْبل، وهو قَوْلٌ دالٌ على مَعْلُومٍ منْ مَعْلُومات الله، وهو حقٌّ لا محالة، ولا يكونُ الواقِعُ إلّا مطابقاً لِقَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجلّ بشأنه.

القِسْمُ الثَّانِي: قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في أَمْرِ تَكْوِيني، وهو قَوْلٌ نافِذُ التَّكْوِينِ لَا مَحَالَة، ويتَحقَّقُ الْمُكَوَّنُ بأَمْرِ التَّكْوِينِ «كُنْ» كما قال الله عزّ وجلّ في أواخِر سُورَة (يسٓ):

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

القِسْمُ الثالث: قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجَلَّ فِي حُكْمٍ تَشْرِيعي، ويَتَحَقَّقُ نَفَاذُهُ ويَتِمُّ بِبَتِّ الْحُكْم التَّشْرِيعيّ، وَوَضْعِ حُدُودِه، علىٰ مُرادِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ فيه، ويُوَجَّهُ الْبَيَانُ بِهِ للعباد، أمراً، أَو نَهْياً، أو إباحَةً، أو تَرْغيباً، أو غير ذلك من الأحكام، ولَا يَتَوَقَّفُ الْقَوْلُ التَّشْرِيعِيُّ على طاعَةِ العبادِ لَهُ، إذْ تَتَحَقَّقُ الإرادَةُ بإصْدَارِ الحكْمِ.

القسْم الرابع: قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ في مَوضوعٍ جزائي، ويَتَحَقَّقُ نفاذُه بإصدار الْوَعْدِ والْوَعِيد به، وتَحْدِيدِ قواعِدِه وشُرُوطِه ومجالاته، على ما تَمَّتْ به إرَادَةُ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه.

وعِنْدَ تَنْفِيذِ الجزاء بالْوَعْدِ أو الْوَعِيد، يَأْتِي أمْرُ التكوْين، فَيَتِمُّ التَّنْفِيذُ بِكَلِمَةِ «كُنْ».

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

• ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَغْلَٰلًا﴾: جمع «غُلّ» وهو طَوْقٌ من حَدِيدٍ أوْ جِلْدٍ، يُجْعَلُ في عُنُق الأسير، أو المجْرِم، أو في أيديهما، وقَدْ تُجْمَعُ يَدُ المغْلُولِ إلى عُنُقِه، وتُطَوّقان بالْغُلّ.

﴿ٱلْأَذْقَانِ﴾: **الأذقان**: جمع «الذَّقَن» وهو مجْتَمَعُ اللَّحْيَيْنِ مِنْ أسفَلِهما.

﴿مُّقْمَحُونَ﴾: أي: رافِعُوا رؤوسِهم إلى الْأَعْلَى، يُقَالُ لغةً: أقْمَحَ الْغُلُّ الْأَسِيرَ، أي: ضَيَّقَ الْغُلُّ عَلَىٰ عُنُقِهِ، إذ كان عَرْضُهُ أكثَرَ من مسافة عُنقه فاضطره إلى رفع رأسه.

والمراد بالجعْلِ هُنَا في عبارة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ تَطْبِيقُ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في كونه، وهِيَ أنَّ مَنْ جعَلَ نَفْسَه باختياره الحرّ أسِيرَ جوامحِهِ من الأهواء والشهوات والكِبْرِ، وحُبِّ الْعُلُوّ في الأرض، والرَّغبةِ في الْفُجُور، فإنَّه لا بُدَّ أن يَرْفُضَ دَعْوَة الحقِّ الَّتِي جَاءَ بها الرَّسُول، ولَا بُدَّ أن يُعانِدَ ويَسْتَكْبِر، وهٰذا مِن سُنَنِ اللَّهِ عزّ وجلّ وقوانينه في النفوس ذواتِ الإرادات الحرَّةِ المبتَلاةِ في ظروف الحياة الدُّنيا.

وسُنَنُ اللَّهِ عزَّ وجلّ وقَوانِينُه تُعْطِي نتائِجَها بجَعْلٍ مِنْهُ تَبارك وتَعالَىٰ، وإنْ كانَتْ أسْبَابُ اسْتِخْدَامِها مِنْ إراداتِ العباد.

فَمَنْ رمَىٰ نَفْسَه من شاهِقٍ على الصُّخُور، قَتَلَهُ اللَّهُ بالصُّخُور الّتِي ارْتَمَىٰ عَلَيْهَا، وكسَّرَ له بها عظامَه، ومزَّقَ لحْمَهُ، وشحْمَهُ، وأعصابَهُ، ضِمْنَ سُنَنِه وقوانِينِه الثَّابِتَة.

ومَنِ اسْتَجاب لدواعي الكُفْرِ في نَفْسِه، شَعَرَ بأنَّ شَيْئاً نَفسِيًّا يَأْسِرُه،

كالْغُلِّ في عُنُقِه، فيجعَلُه يَرْفُضُ الإيمانَ والاعْتراف بالحقّ، ضِمْنَ سُنَنِ اللَّهِ وقوانينهِ الثابتة الَّتي نَظّمَ بها حركات النفوس وأَعْمَالها.

فَهٰذِه الآيَةُ تُقَدِّمُ صُورَةً تمثيليَّةً رائِعةً، لحَالَةِ رَفْعِ رؤُوس الْكَافِرِين المستكْبِرِينَ، ورَفْعِ أُنوفِهم إلى الأعلى، إذْ رفَضُوا الاستجابَة لدعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بعْدَ أنْ دعَاهُمْ طويلاً إلى ما جاء في القرآن الحكيم، وبياناتِه وَحُجَجه.

وهٰذه الصورةُ هيَ في الحقيقَةِ صُورَةٌ تمثيليَّةٌ لحالَةِ نُفُوسِهم من وراء رؤوسهم.

إنَّ هٰذِهِ الصورةَ التمثيليَّة تَدُلُّ على أنَّ رفْضَهُمْ وعنادَهُمْ ظاهِرَةٌ مادّيَّةٌ مَشْهُودَةٌ، لأسْبَابٍ نَفْسِيَّةٍ بعِيدَةٍ كُلَّ الْبُعْدِ عَنْ مَنْطِقِ الحقّ، وتَدُلُّ على أنَّ رَفْضَهُمْ وعنادَهُم ناتجان عن اختيارهم الحرّ، ولا أثَرَ لِلْجَبْرِ فيه، فَمَسْؤوليّتُهُمْ إذَنْ تُجاهه مَسْؤُوليَّةٌ تامَّة.

وكُلّنَا نَعْلَمُ أنّ ظاهِرَةَ رَفْضِ شيءٍ ما قَدْ يُعَبَّرُ عَنْها برَفْعِ الرأسِ إلى الأعلى نَفْياً واسْتِكْبَاراً.

فما هو سبَبُ رفْعِ رُؤوسِهم عناداً لآيَاتِ اللَّهِ في القرآن الكريم، واسْتِكباراً عنها؟!

إنَّ الآيَةَ تُشِيرُ باللّمح البارع الّذِي يتَصَيَّدُهُ المتفكّر المتدبّر الأَدِيب الأريب، إلَى أنَّهُمْ في حقيقَةِ نُفُوسِهِمْ أسْرَىٰ.

ويطْرَحُ سائلٌ سؤالاً يقُولُ فيه: كيف هم أَسْرَىٰ وقد كَانُوا أصحابَ القوة والسُّلْطَانِ في مكَّة، وكانَ المسلمون أتباعُ الرسُول ﷺ مستضعفين بينَهُمْ؟!

ويُجِيبُ التَّحْلِيلُ اللَّمَاحُ بأَنَّهُمْ أسْرَىٰ شهواتهم، وأهوائهم، وكِبْرِهِمْ،

وحُبِّهِم الاسْتِعْلَاءَ في الْأَرْضِ بغَيْرِ الحقّ، وأسْرَى رَغباتِهِمْ الجامحاتِ في الْفُجور، وأسْرَىٰ الشَّياطين الَّتي تَسوقُهُمْ أَوْ تَقُودُهم إلى شقائهم.

ولَمَّا كان المعتادُ في الأسْرَىٰ أن تُوضَعَ الأغْلَالُ في أعناقِهم، وأن يُقَادُوا منها بالسَّلاسِل، ولمَّا كان من الأغْلَالِ ما هو ضَيِّقٌ عَرِيضٌ، وبسَبَبِ ضِيقِهِ وعَرْضِهِ يُضطَّرُّ المغْلُولُ بواحدٍ منها إلَىٰ أن يَرْفَعَ ذَقَنَهُ إلَىٰ الْأَعْلَىٰ، كان مُنْظَرُ الرَّافِضِ لِدَعْوةِ الحقّ الَّذِي يَرْفَعُ رأْسَهُ إلى الأعْلَىٰ نفْياً واسْتِكْباراً، مُشَابِهاً لمنظر هذا المغْلُولِ بالْغُلِّ الضّيِّقِ العريض.

ولـمّا كانت أغْلَالُ هٰؤلاء الكَفَرَةِ أَغْلَالاً غَيْرَ مَرِئْيَّةٍ، وهِيَ ضَاغِطَةٌ على رقابِهِمْ من داخِلِ نُفُوسِهِمْ، كانَ مَا يُرىٰ من ظاهِرِهم تَعْبيراً مادِّيًّا عن هٰذِهِ الأغْلَالِ النَّفْسِيَّةِ، الَّتِي جَنَوْا عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ بِتَقَلُّدِها، وأَجْرَمُوا وَظَلَمُوا، وَجَعَلُوا إراداتِهِمْ تُجَرُّ بسَلَاسِلِها إلى ما هُمْ به مغْتَرُّونَ مُنْخَدِعُونَ، وهُمْ بسَبَبِها زَادُوا كُفراً وعِناداً، وزادُوا إصراراً على الباطل، على الرَّغْمِ من تَبَلُّغِهِم الحقّ، وعلى الرُّغْمِ مِنْ عَرْضِ أدِلَّتِهِ البرهَانيَّةِ عليهم، وإقامة الحجَّةِ الدَّامِغَةِ لهم، وعلى الرُّغْم من الترغيب العظيم لمن آمن وأطاع بمَا يطمع فيه العقلاء الرَّاشِدُونَ فيَزْهَدُونَ بكُلِّ الدُّنيا من أجله، وعلى الرُّغْم من الترهيب المخيف لمَنْ كَفَر وعصَى، ممّا يَرْهَبُ منه رَهباً شَدِيداً الْعُقلاء الرَّاشِدُون، فيحْذَرُون من فِعْلِ كلِّ ما نهىٰ اللَّهُ عنه، ومِنْ تَرْكِ كُلِّ مَا أَمَرَ الله به.

وتقولُ إيحاءات هٰذِهِ الآية: فلا تحْسَبَنَّ أيُّها المتدبّر أنَّ ما تراهُ من رَفْع رؤوس الجاحدين المستكبرين إلى الأعلىٰ، رافضين الاستجابة لدَعْوَة الحقّ الرَّبَانيّة مُعَبِّراً عَنْ عُلُوِّ نُفُوسِهم، بل هُمْ مُقْمَحُونَ أسْرَىٰ الجوامِح من أهوائهم وشهواتِهم وكِبْرِهِمْ وحُبِهِم الاستِعْلاءَ في الأرْض بغَيْرِ الحق، وأسْرَىٰ رَغباتِهِمْ في الفجور، وأسْرَىٰ الشياطين.

وبما أَنَّهُمْ أَسْرَىٰ، فالأَغْلَالُ الضَّيِّقَةُ الْعَرِيضَةُ تَشُدُّ عَلَى أعناقهم، وتَدْفَعُ أَذْقَانَهُمْ، فَيَرْفَعُونَ بسَبَبِ ذلك رؤوسَهُمْ وأُنوفَهُمْ، فَيَظْهرونَ للرَّائين مُسْتَكْبِرِينَ.

وهَلْ يُوجَدُ أَذَلُّ وأحْقَرُ من الأسِير، الّذِي يُجَرُّ بسِلْسِلَةٍ معْقُودَةٍ بغلٍّ يُطَوِّقُ عُنُقَه؟!.

هكذا صَوَّرَ الله عزّ وجلَّ حالَةَ هؤلاء المعانِدين المستكبِرين، الّذِينَ رَفَضُوا دعوةَ الرسول محمّد ﷺ من كُبَراء مُشْركي أهل مكَّة حينئذٍ، ويُلْحَقُ بهم أشباهُهُمْ في كلّ عَصْرٍ وفي كُلِّ أمَّة.

* * *

قولُ الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾:

﴿سَدًّا﴾ و﴿**سُدًّا**﴾على القراءتَيْن المتواتِرَتين، بفتح السّين وضمها: هو الحاجِزُ بَيْن شيئين، ومنْه سَدُّ الصين، وسَدُّ ذي القرنَيْن، والسَّدُّ الّذي يَحْجُزُ المَاءَ.

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: أي: فجَعَلْنَا عَلَىٰ بَصَائِرِهِمْ غِشَاءً، **الْغِشَاءُ والْغِشَاوَةُ:** الغِطَاءُ السَّاتر.

أي: وجَعَلْنَا بمقْتَضَىٰ سُنَنِنَا السَّبَبِيَّةِ، وقوانينِنَا في النفوس ذواتِ الإرادات الحرَّةِ المبتَلاة في ظروف الحياة الدنيا، حاجزاً مِنْ أمَامِهِمْ وحاجزاً من ورائهم، يَحْجُبُ عَنْهُمْ الرُّؤْيَةَ كَيْفَمَا اسْتَداروا، لأنّهُمْ اختارُوا لأنْفُسِهِمْ ظُلُماتِ الكُفْرِ والْجُحُودِ، واتّباعِ الأهواءِ والشهواتِ ورَغَبَاتِ الْفُجُور، ومَواقِعُ هٰذِهِ الظُّلُماتِ مَحْجُوبَةٌ عَنْ مَواقِعِ أنْوار الهدايَةِ الرَّبَّانِيَّة.

واقتصَرَ النصُّ على ما بين أيديهم وما خَلْفَهم، لأنّ ما بينَ يدَي

الناظر يشْمَلُ نصْفَ الدائرة من حوله، إذ البصَرُ يَرَىٰ من الجهة الّتي يتوجَّهُ لها مقدارَ نِصْفِ الدائرة أو الكُرَة من حول الناظر، فَيَدْخُلُ ما هو عن يمينه وما هو عن شماله وما هو من فوق هذه الجهة، فالسَّدُّ من بين يدَيْه كلّ هذه الجهة، وحِينَ يسْتَدِيرُ إلى خَلْفِهِ يَجِدُ سدّاً آخر بمقدار نصْفِ الدائرة أو الكُرَة من حَوْله، فعبارة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ تَشْمَلُ كُلَّ ما حَوْلَهُ، فَلا حاجَةَ إلى إضافَة: وعَنْ أيمانهم سَدًّا، وعن شمائلهم سَدّاً ومن فوقهم سَدًّا. وهذا من دقائق التعبيرات القرآنية.

وهذه الآية تُقَدّم صورةً تمثيليَّةً رائعةً لحالَةِ عَدَمِ رُؤيَتِهِمْ للحقّ، وهي تَعْرِضُ ما قامَ دُون بصائرهم من سُدُودٍ تَمْنَعُ عَنْهَا رؤية الحقّ، بسبَبِ كونِهِمْ سُجَنَاءَ شهواتهم وأهوائهم وكِبْرِهم، وحُبّهم الاستعلاء في الأرض بغَيْر الحقّ، ورغباتهم في الفجور، ومن ورائها الشياطين.

وجاء في الصورة تسْمِيَةُ الحجُب سُدوداً، ولم يُسّمها الله سُتُوراً أو نحو السُّتور، لأنّ هذه الحجب تصَلَّبَتْ وتحجَّرَتْ، فَهِي حَرِيَّةٌ بأَنْ تُسَمَّىٰ سُدوداً، إذْ هي بالنسْبَةِ إليهم وإلى مَنْ هُمْ مثلهم تُشْبِه السُّدُود.

وقد جعل الله ـ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه ـ في أنظمة النفوسِ الّتي هي إحْدَىٰ سُنَنِهِ وقوانينه في كونه، أنَّ من جعَلَ نَفْسَهُ باختياره الحرّ سَجين أهوائِهِ وشهواتِه إلى سائر الجوامح الأواسِرِ لنِفْسِه، أَنْ تُقَامَ بين بَصِيرَته وبيْنَ الحقّ سُدُودٌ مِنْ بين يدَيْهِ ومن خَلْفِه،، وهذه السُّدُود تحجب عن بصيرته رؤية الحقّ.

وهل يُوجَد أذَلُّ وأحْقر وأخْزَىٰ من أسيرِ سَجينٍ لا يَرَىٰ أنوار الهِدَاية الرَّبَّانِيَّة؟!

هكذا صَوَّرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ حالَةَ هٰؤلَاءِ الْمُعَانِدِينَ المستكْبِرين، الّذِين دَخَلُوا باخْتِيارِهُم الحرّ في سِجْنِ الجوامِح الأواسِرِ المتعلّقةِ بمتاعِ الحياة الدنيا وزينَتِهَا.

إنّهم بدُخولهِمْ هذا السّجْنَ المظْلِمَ الخادعَ باللّذّاتِ، قَدْ جَعَلُوا أنْفُسَهُمْ ضِمْنَ سُدُودٍ تَحْجُبُ عنْهُمْ رؤيَة الحقّ ضِمْنَ أنْظِمَةِ اللّهِ في كوْنِه للنُّفُوسِ، فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ.

إنّ نظام اللّهِ عزَّ وجَلَّ ضِمْنَ قَوانِينِه السَّبَبِيَّةِ للنُّفُوس، يُشْبِه نِظَامهُ ضِمْنَ قوانِينه السببِيَّةِ للمُدْركَات الحسيَّة، التي نُلَاحِظُ فيها أَنَّ من أدْخل يَدَهُ في النار بإرادته الحرَّة أحْرَقَها اللّهُ له ضِمْنَ قوانينه السببيَّة في كونه، ومَنْ شَرِبَ سُمًّا قاتِلاً بإرادته الحرَّة أو بغير إرادته، قتله الله عزّ وجلّ بسُمّه، ضمْن قوانينه السببيَّةِ في كونه.

كذلك من اخْتَار بإرادَته أنْ يتَّبِعَ أهواءَه وشهواتِه من متاع الدنيا ويَسْتَجيبَ لوسَاوِسِ الشياطين، واخْتَارَ أَنْ تكون بصيرَتُهُ بَعِيدَةً عن أنوار الهداية الرَّبَّانِيَّةِ، جَعَلَ اللَّهُ في عُنُقِهِ غُلاً يُصَيِّرُه مُقْمَحاً، وجَعَل بَيْنَه وبين أنوار الهداية الرَّبَّانيَّة، سَدًّا من بَيْنَ يَدَيْهِ وسَدًّا من خَلْفِه، وكلُّ ذَلِكَ ضِمْنَ قوانينهِ السَّبَبِيَّةِ في كَوْنِه تَبَارَكَ وتَعَالى.

وحين تُوجَدُ هٰذِهِ الأَغْلَالُ، وتُوجَدُ هٰذِهِ السُّدُودُ، فإنَّ الإنْذَارَاتِ والتَّحْذِيراتِ الَّتي تُوجَّهُ لَهُ لَا تُؤَثِّرُ في نَفْسِه أثراً ما، لأَنَّه في داخل نَفْسِهِ مَحْجُوبٌ عنها، مَقُودٌ كالأَسِيرِ إلى الجهاتِ المضادَّةِ لما تَدْعُوا إلَيْهِ، أو تُحذِّرُ منه، أوْ تُنْذِرُ به.

فسواءٌ عليه أَأَنْذَرْتَهُ أَمْ لم تَنْذِرْهُ فإنَّهُ لَنْ يَسْتَجِيب.

قول الله تعالى:

• ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

الهمزة في: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ هنا هي همزة التسوية كما يقول النحويون.

أي: واسْتَوىٰ فَوْقَهُمُ إنْذَارُكَ لَهُمْ بِعَذَابِ الله المسَلَّطِ بِقَدَر اللّهِ

وقَضائِهِ علَيْهم، والَّذي سَيَنْزِلُ عليهم إذا اسْتَمَرُّوا على كُفْرِهِمْ وجُحودِهِمْ وإصرارهم على إتّباع الباطل، والتّكْذِيبِ بالحقّ، وعَدَمُ إنْذارِكَ لهم، لأنَّهُمْ مَغْلُولُونَ أسْرىٰ، ومَحْجُوبُونَ عن أنوارِ الهداية، ومنْغَمِسُونَ في أَوْحَالِ كُفْرِهم ومعَاصِيهِم، لا يَنْظُرُونَ إلى ما هو مُعَدٌّ لهم من عذابٍ في آخِرِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم، مع احْتِمالِ أن يُنْزِل اللَّهُ عليهم عذاباً معجَّلاً، وهم ما زالوا يَتَقَلَّبُونَ في رِحْلَةِ الامتحان والابتلاء.

وجاء استعمال عبارة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للدَّلَالَةِ على فوقيَّة الإنْذار، إذْ هو إنذارٌ بعذابِ اللَّهِ الَّذي يأتِي في العادَةِ مُنْصَبّاً من فَوْقِ المعذَّبين، ونَازِلاً عليهم.

فمِنْ دقَّةِ الأداء البيانيّ استعمالُ حَرْفِ «على» الّذي يَدُلُّ على الاسْتِعْلاء، دون غيره من الحروف.

وفيه أيضاً مَعْنَىٰ إعْلاءِ عبارات الإنْذار عن مستوىٰ الحضيض الذي هم منْغَمِسُون في أَوْحاله.

والخطابُ في الآية مُوجَّهٌ للرَّسُول محمَّدٍ ﷺ، ثُمَّ لِكُلِّ حاملِ رسالةِ الدَّعْوَة إلى الله من أمّتِه، على سبيل الخطاب الإفرادي.

والمعنيُّون المتَحدَّثُ عَنْهُمْ هُمْ كُبَراءُ وأئِمَّةُ مُشْرِكي مكَّة إبَّانَ التَّنْزِيلِ، ويُقَاسُ عليهم أشْبَاهُهُمْ ونُظَراؤهم، في كلِّ عَصْرٍ وفي كلّ قوم.



قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾:

يُبَيِّنُ اللَّهُ عزّ وجلّ في هٰذِهِ الآيَةِ لرَسُولِهِ ولكُلّ داعٍ إلى سبيل رَبِّه من

أمَّتِه، أنَّ الّذِي يَنْتَفِعُ بالإنذار، فيَسْتجِيبُ لإنْذارات المنذرين الصَّادِقِين، بعذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّين، واحْتِمَالِ أن يُنْزِلَ عذابَهُ المعجَّلَ في الدنيا أيْضاً، إذا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذلك، لا بُدَّ أنْ تتوافَر لَدَيْهِ صفتان:

الصِّفَةُ الأُولى: اتِّبَاعُ آيَاتِ الذِّكْرِ الحكيم، وهُو الْقُرآن المجيد، بالإصغاء والْفَهْم وحُسْنِ التَّدبُّر، واتِّبَاعُ المذَكِّرَاتِ الّتي تُبَيِّن ما فيه، وتَشْرَحُهَا بمقدار استيعاب المتلَقِّي وعلى مِقْدار مداركه.

فمن لم تكن لَدَيْهِ هٰذِهِ الصِّفَةُ فإنَّهُ لا يَحْصُلُ لَدَيْهِ الاقتناعُ بالحقِّ المنزَّلِ من عند الله عزّ وجل، ومِنْ شأن مَنْ لم يَحْصُل لديْه الاقتناعُ بالحقّ، أنْ لَا يَهْتَمَ للقضايا الّتِي اشْتَمَلَ عليها هذا الحقّ، وأنْ لَا يَكْتَرِثَ لها، وأنْ لا يَسْتَجيبَ لِدَعْوَةِ الدُّعاة إلَيْهِ، مَهْما اجْتَهَدُوا في الدَّعْوَةِ والبيان، والتذكير في كُلّ آن، وتكون دعوتُهم وبياناتهم وتَذْكيراتُهم كَمَنْ يَنْعِقُ في الأنعام، أَوْ يُخَاطِبُ صُمَّ الآذان.

الصِّفَةُ الثانية: خشيةُ الرَّحْمٰنِ بالغيب، **الخشية**: أصْلُ معْناها الخوف والحذَر، **والخشية من الله**: مزيجٌ من الإجلال والحبّ والخوف مع الطمع، لأنَّ مُرَاقَبَةَ اللَّهِ الّتِي تُحْدِثُ الخشيَةَ منه فيها كُلُّ هذه المعاني. وتُوجَدُ في النَّاس بنِسَبٍ مختلفة في مجموعِها الكُلّي وفي عناصِرِها.

وَلَا تَكُونُ الخشيةُ من الله إلّا بَعْدَ الْإيمَانِ به، وبعلمه، وقدرته، وحكمتِه، وفَضْلِه، وعَدْلِه، إلى سائر صفاته، ومنها أنه عزيز منْتَقِمٌ جبارٌ، وأنَّه رحمٰنٌ رحِيمٌ، وأنَّهُ يجازي على الكفر به بالخلودِ في عذاب النار، وعلى السّيئة بِمِثْلِهَا، ويُجَازي على الإيمان الصحيح الصادق بالخُلُودِ في جنَّاتِ النعيم، وعلى الحسَنَةِ بعَشْرِ أمثالها إلى سبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، إلَىٰ أضْعَافٍ كثيرة.

واقتصر النَّصّ على ذكر اسم الله «الرحْمٰن» إطْمَاعاً بصِفَة رحْمَتِه، وإشعاراً بأنّ رحْمَتَهُ سبقت غَضَبَهُ.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ «إنَّما» أَدَاةُ حَصْر. و«تُنْذِرُ» أي: تُخبر بوعيد اللَّهِ بالعقاب إِخْبَاراً مُؤَثِّراً نافعاً.

﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾: أي: من تكلَّفَ أن يتْبَع الاسْتِماع إلى القرآن الذي هو ذِكْرُ الله الرحْمٰن للناس، بالاستماع والإصغاء والتفهّم، وأن يتْبَعَ أقوال المذكرين باللَّهِ وبصفاته، وبما جاء عن الله في كتابه أو على لسان رسوله، لأنّ في قَلْبِهِ إيماناً ما باللَّهِ يدفعه إلَىٰ اتّباع الذّكر.

﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾: أي: وخَشِيَ الرحْمٰنَ حَالَةَ كوْنه سبحانه في عالم الغيب عن مجالَات الإدْراكاتِ الحسِّيَّة لِعِبَادِه، في الحياة الدنيا، حياةِ الابتلاء.

فالمعنى: إنّك أيُّهَا المبلّغُ المبشّرُ المنذر، لَا تُنْذِرُ إنذاراً مُؤَثِّراً نافعاً، إلّا مَنِ اتَّبع الذّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بالغيب.

وهذا من قَصْرِ صفة الاستجابة للإنذار والتأثّر به على الإنسان الذي اتَّبع الذّكْرَ وخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بالغيب، وهو قَصْرٌ حقيقيّ.

وبما أنّ الاقْتِنَاعَ بوجود الله عز وجل، وبصفاته الجليلة، إنَّما يتحقّقُ بالإيمان بالْغَيْبِ في ظروف الحياة الدُّنيا، نظراً إلى أنَّ أوّل عناصِرِ الابْتِلاءِ في هٰذه الحياة لذَوِي الأفكار والعقول هو الإيمانُ بالغيب المتّصِلِ باللَّهِ عزّ وجلّ وصِفَاته الجليلة، وما أَخْبَرَ به من جزاءِ يوْمَ الدّين، جاء في الآية: ﴿. . . وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

• ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾: أي: فإذَا وَجَدْتَ يا مُحَمَّدُ، ويَا أَيُّها الدَّاعِي إلى سَبِيلِ رَبِّه، هٰذا الَّذِي يَتَّبِعُ الذِّكْرَ بالإصْغَاءِ والْفَهْمِ وحُسْنِ التَّفكُّرِ والتَّدبُّر، ويَخْشَىٰ الرَّحْمٰنَ بالْغَيْب، ويَنْتَفِعُ بالإنْذَارَاتِ اللّاتي توجّهها له، فبَشِّرْهُ بأمْرَيْن:

الأمر الأوّل: أنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ من ذُنُوبه الّتي سلَفَتْ مِنْه، وهي تتعلّقُ

بحُقُوق رَبّه عليه، وذنُوبه الّتي قد يرتكبها في المستقبل، بشرط أن يتوبَ منها ويسْتَغْفر ربّه، أخْذاً من دلالات نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

الأَمْرُ الثاني: أن يُعطِيَهُ اللَّهُ يَوْم الدِّين أجراً كرِيماً، على إيمانهِ وصالحات أعماله، في جنَّاتِ النَّعِيم، مع ما قَدْ يُعْطِيه من أَجْرٍ كريمٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا.

الأَجْرُ الكَرِيم: هو الأَجْرُ الكثير العظيم النفيس.

وكُلٌّ من الأمْرَيْنِ فيه بُشْرَىٰ عظيمَةٌ لِمَنْ يُؤْمِنُ برَبّه، ويَسْتَجِيبُ لدعْوة الرَّسُول ﷺ، أو لدعْوَةِ الدُّعَاة إلى سبيل الله من أُمَّتهِ المؤمنين المسلمين.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾:

إنّ قانون الجزاء الرَّبَّانيّ للموضوعين موضع الابتلاء في الحياة الدنيا، الّذي دلَّتْ عليه الآيات السّابقاتُ بما اشتملَتْ عليه من بياناتٍ حولَ الإنْذَار بِالعقَابِ، والبشارةِ بالثواب مغفرةً وأجْراً كريماً، اقتضىٰ التعقيب علَيْهِ بقضايَا أساسيَّةٍ، من قضايا العقيدة الإيمانيَّة، لرَبْطِ فُروع الدّين بأصُوله الإيمانيَّةِ.

وهذا منْهَجٌ قُرْآنيٌّ مُلَاحَظٌ في عَدَدٍ كثيرٍ منَ النُّصوصِ القرآنيَّة.

والقضايا الّتي اشتملَتْ عليها هذه الآية من أصول الدّين الإيمانيَّة، هِيَ ثلاثُ قضايا.

القضيَّةُ الأولى: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ يُحْيي الموتَى يَوْم القيامة للْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

القضيَّةُ الثانية: أنَّ الله عزّ وجلَّ يَكْتُبُ بأمْرِهِ تِبَاعاً كَسْبَ النَّاس الذي قَدَّمُوهُ في الحياة الدُّنيا لآخِرَتِهِمْ، ويكْتُبُ بأمْرِه تِباعاً آثارَ كَسْبِهِمْ في حياتِهِمْ، وبَعْدَ مَمَاتهم ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾.

القضية الثالثة: أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أحْصَىٰ كُلَّ شيْء عَدداً، سواءٌ أكَان مادِّيًا، أمْ مَعْنويّاً، ممَّا كان، وممَّا هو كائن، ومِمَّا سيكُونُ، وأثبتَهُ في كِتَابِ مُبِينٍ واضِحٍ لمَنْ يَطَّلِعُ عليه. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

شَرْح القضيَّةِ الأُولى:

هٰذه القضيّة قد دلَّ عليها في الآية قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: «إِنَّا» أصْلُها «إنَّنَا» حُذفَتْ نُون «إنّ» الثانية، لتوالي الأمثال، وجاء في العبارة استعمال ضَمِير المتكلّم العظيم مَرَّتَيْن: «نا» و«نَحْنُ» إشعاراً بأنّ إحياء الموتى أَمْرٌ عظيم جدًّا.

وقد جاء تأكيدُ إحيائه ـ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ الموتى بالمؤكدات: «إِنَّ ـ والجملة الاسْمِية ـ وضِميرُ الْفَصْل» مراعاةً لأحوال منكري البعث.

وعَلِمْنَا من قَرِينَةِ السِّياقِ أنَّ الْغَرض من بيان إحياء الموتَى، بيانُ تحقيق الوعْدِ بيَوْمِ الدِّين، وما فيه من حساب، وفَصْل قضاء، وتنفيذ جزاء.

وفي هذه العبارة قصر مستفاد من ضمير الفصل، وهو قصر إحياء الموتى على الله عزّ وجل، وهو قصرٌ حقيقي.

شرْح القضيَّة الثانية:

هذه القضية قد دلَّ عليها في الآية قَوْلُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾: في هٰذِهِ الجِملَةِ أسْنَدَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ كِتَابَةَ مَا يَكْسِبُ

المكلَّفونَ مِنْ أَعْمَالٍ إِلَىٰ نَفْسِهِ، لأنَّهُ هُوَ خَالِقُ الملائِكَةِ الكِرَام الكاتِبين، الّذِين يُسَجّلون أَعْمالَ العِباد، ومَا يكْسِبُونَ في الحياة الدّنيا من خَيْرٍ وشرٍّ، وهو سبحانه وتعالَىٰ الذي وجّهَهُمْ وَكَلَّفَهُمْ وهيّأ لَهُمْ بِقَضَائِهِ وقَدَرِهِ وخَلْقِهِ كُلَّ ما يلْزَمُ، حتَّىٰ يَقُومُوا بوظائِفِهمْ الّتي كلّفَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا عَلَى أتَمّ وجْهِ واتْقَنِه.

وكُلُّ ما يَعْمَلُه العبادُ من طاعاتٍ أو مَعَاصٍ، فَقَدْ قَدَّمُوهُ لآخِرَتِهِم، الّتِي فيها يكونُ حِسَابُهم عليه، وفيها يكونُ فَصْل القضاءِ بشأنهم، وفيها يكون الجزاء بالثواب أو بالعقاب.

ومَا قَدَّمُوه هو ما أنْجَزُوا فعْلَهُ من طاعةٍ أو معصية، وما أنْجَزُوا تركَه من طاعَةٍ أو معصية، والواجبُ المتروكُ قد جاء التعبير عنه في القرآن بأنَّ المكلَّفَ أَخَّرَهُ، أي: لم يَعْمَلْهُ، فقال الله تعالى في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بشأن أحداثٍ تجري يوم القيامة: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

وقال الله تعالى في سُورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول) كذلك:

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

أمّا آثارُهُمْ فَهِيَ آثَارُ أعْمالهم، كَصَدَقَةٍ جاريةٍ في سبيل رضوان الله، وكسيّئَةٍ جاريةٍ وسُنَّةٍ سيّئَةٍ، مثل تأسيس دارٍ للزّنا، أو مؤسَّسةٍ رَبَوِيَّةٍ، أو دَارٍ للخَمْر والميْسر.

فآثار أعْمَالهم الصالحة المتجدِّدَةِ تُسَجَّلُ في صَحائف حسناتهم، وآثار أعمالهم السيِّئَةِ المتجدِّدَةِ تُسَجَّلُ في صحائف سيئاتهم، ولو بَعْدَ مُوْتِهِمْ، حتَّىٰ تتلاشَىٰ هٰذه الآثار.

وجاء في السُّنَّةِ بَيَانٌ بشأن كتابَةِ أعْمَالِ المكلَّفِين وآثار أَعْمَالِهم في عدَّة أحاديث، منها ما يلي:

(١) روَى البخاري ومُسْلم عن عبْد اللَّهِ بن عبَّاسٍ، عن الرسول ﷺ، أنَّه قال:

«إنَّ اللَّهَ تَعالَىٰ كَتَبَ الحسَنَاتِ والسَّيئَاتِ، ثُمَّ بيَّنَ ذَلِك، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَة، وإِنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

أي: مَنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَصَرَفَ نَفْسَهُ عن عَمَلِها طاعةً لِلَّهِ عزّ وجلّ، كتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كاملةً.

(٢) وروى مسْلِمٌ والبخاريُّ في الأدَب عن أبي هريرة، أنَّ الرسُولَ ﷺ قال:

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

(٣) وروَىٰ مُسْلمٌ وأحْمَدُ والترمِذِيّ والنَّسَائي وابْن ماجه، عن جَرِير رضي الله عنه، أنّ رسُولَ الله ﷺ قال:

«مَنْ سَنَّ في الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وأَجْرُ مَنْ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ في الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

(٤) وَرَوَىٰ البخاري ومسلمٌ عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:

«لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إِلَّا كَانَ على ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

كِفلٌ: أي: نَصِيبٌ.

(٥) ورَوىٰ مُسْلِمٌ عَنْ جابر بن عبد الله، قال: خَلَتِ البقاعُ حَوْلَ الْمَسْجِد، فأرَادَ بَنُو سَلَمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا قُرْبَ المسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقال لهم.

«إِنِّي بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ».

قالوا: نَعَمْ يا رَسُول الله، قَدْ أَرَدْنا ذلك، فقال رسول الله ﷺ:

«يَا بَنِي سَلَمَةَ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ».

أي: الْزَمُوا دِيَارَكُمْ، لَا تَتَحَوَّلُوا عَنْهَا إِلَىٰ قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فإنَّ آثَارَ خُطُواتِكُم وتَحَرُّكَاتِكُمْ تُكْتَبُ في صحائفِ حَسَناتِكُمْ.

شرح القضية الثالثة:

هذه القضية قد دلَّ عليها في الآية قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾:

أحْصَيْناهُ: أي: عَرَفْنَا مِقْدَارَ عَدَدِ أجْزَاءِ ذاتِه وأجْزَاءِ صِفَاتِه، مع مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الذّاتِ والصِّفَات، وسَجَّلْنَا كُلَّ ذَلِكَ.

يقال لغة: أحْصَىٰ فلانٌ الشيْءَ أي: عَرَف مقداره، ويقالُ: أحْصَىٰ فُلانٌ الكِتَابَ، أي: حَفِظَهُ.

وحِفْظُ الأشْيَاءِ في كتابٍ أو في لَوْحٍ يَكُونُ بتَسْجِيلها فيه، وبِجَعْلِه مَحْفُوظاً من أيّ تغيير أَوْ تَبْدِيلٍ، أو زِيادَةٍ، أو نَقْص.

ولَمَّا كانت الأشياء كُلُّها ذَوَات أجزاءٍ صُغْرىٰ هي مُؤَلَّفَةٌ مِنْهَا، كان ضَبْطُهَا في كتابٍ يَسْتَدْعي أنْ يَسْتَوْعِبَ كلَّ أجزائها، حتَّىٰ لا يَنِدَّ عنْهُ شَيْءٌ صَغيراً كانَ أَمْ كبيراً، وكانَ المناسِبُ للدّلَالة على هٰذا الاسْتيعابِ اسْتِعْمَالُ

كَلِمَةِ «أحْصَىٰ» لِمَا في هذه الكلمة من معنَىٰ إحْصَاءِ أعْدَاد مَقَادِيرِ كُلّ شيءٍ، وكأعداد الذَّرّات في كُلّ خَلِيَّةٍ، وأعْداد الألكِتْرُونات في كُلّ ذَرّة، وما دُون ذلك من صغريات، وأعداد أجزائها.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ نُصبَ لفظ: «كلَّ» بفعل محذوف مثل الفعل الذي جاء بَعْدَهُ، في عبارة: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ لاشتغالِه عنه بضميره، وفائدة هذا الإجراء إيرادُ جُمْلَتَيْنِ لتأكيد قضيَّةٍ واحدة، مع عدم الإشعار بأنهما جملتان.

وجاء استعمال ضمير المتكلّم العظيم في عبارة ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ إشعاراً بِعَظَمَةِ هذا الإحصاء، الّذي يَدُلُّ على عظمة قدرة الرّبّ جلَّ جَلَالُهُ، وشُمُول عِلْمِه كلَّ شيء يُعْلَمُ.

وعبارة ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ تَشْمَلُ كُلَّ ما يُحِيطُ به الْعِلْم.

﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: الإمام المبين للكُتُب هو اللَّوْحُ المحفوظ، لأن صحف الملائكة النازلة بما شاء الله تنزيلَه تُنْسَخُ عنه.

المبينُ: الواضح الجلي، والمظْهِرُ الموضِح.

الإمَامُ: هو في اللُّغَةِ مَا يُؤْتَمُّ به، أي: يُتَّبَعُ، فالإمام في الصَّلاةِ هو الذي يتبِعُه المقتدون. ويطْلَقُ لفظ الإمام على الخليفة، وعلَىٰ قائد الجند، وعلى دَليلِ الْمُسَافِرين، وعلى الطريق الواسع الواضح، وعلى المثال الذي يُوضَعُ لِيُعْمَلَ عَلَىٰ وفْقِهِ، وعلى الكتاب الذي تُنْسَخُ النُسَخُ على وَفْقِهِ، وتُؤْخَذُ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ مِنْهُ حرفاً بحَرْفٍ وَكَلِمَةً بِكَلِمَة.

وإنّ من عَظيم حكْمَةِ الباري جلّ جلالُهُ أنَّه دَلَّ على عِلْمِهِ الشامل لكلّ شيء، ما كان، وما هو كائن، وما سيكون أو سوف يكون، بكلماته التامّات، وكتَبَ كلماتهِ التامّاتِ الدَّالّاتِ على عِلْمِه الشّامِل في كتاب من قَبْلِ أَنْ يَبرأ الْخَلْقَ، وأطْلَقَ على هذا الكتاب عدّة أسماء:

١ ـ الكتاب المبين.

٢ ـ أمّ الكتاب.

٣ ـ اللّوْح المحفوظ.

٤ ـ الإمام المبين.

٥ ـ الكتاب المكنون.

وَجاء في القرآن المجيد خَمْسةَ عشر نصًّا بشأنه في مناسبات مختلفات، وجاء في السُّنَّةِ عدّة نُصُوصٍ بشأنه أيضاً.

وقد اخْتَرْتُ أَنْ أعْقِدَ مُلْحَقاً خاصّاً بعد اسْتِكْمَالِ تدبُّرِ السّورة، أُثْبتُ فيه النُّصُوص القرآنيَّة بشأن اللّوح المحفوظ، مع ما يفتح الله به من تدبُّر لها، ومَعَ بعض النصوص من السُّنَّةِ المطهرة المتعلّقةِ باللوح المحفوظ، وأقتصر هنا على هذا البيان.



(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دُرُوس السورة وهو الآيات من (١٣ ـ ٢٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

القراءات:

(١٤) • قرأ أبو عَمْرو: [**إِلَيْهِمِ ٱثْنَيْنِ**] بِكَسْرِ «هاء» و«ميم» [إليهِمِ] وصلاً.

وقرأ حَمْزَة، والكِسائيُّ، ويعْقُوبُ، وخَلَف: [**إِلَيْهُمُ ٱثْنَيْنِ**] بضمّ الهاء والميم وصلاً. وفي الوقف يضُمُ يَعْقوبُ وحمزة الهاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ بكَسْرِ الهاء وضم الميم وصْلاً.

(١٤) قَرَأ شُعْبَةُ: [**فَعَزَزْنَا**] من قول الْعَربيّ: عَزَزْتُ الْقَوْم، أي: قوّيْتُهُمْ وشَدَدْتُهُم، وهذه القراءة تلائم مشاعِر بعض المعنيّين بالتقوية.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي: فَقَوَّينَا وشَدَّدنا، وهذه القراءة تَدُلُّ على زِيادَةِ التقويَة، وهي تلائم مشاعِرَ بعض المعنيّين بالتقوية.

يقال لغة: عَزَزْتُ، وأَعْزَزْتُ، وعَزَّزْتُ القَوْمَ.

(١٩) • قرأ أبو جَعْفر: ﴿**ذُكِرْتُم**﴾ بالتخفيف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ذُكِّرْتُم﴾ بالتَّشْديد.

وقد سبَقَ مع نصّ السورة توجيه هاتين القراءتين.

(٢٢) • قرأ حمزة، وخلف، ويعقوب: [**وَمَالِي لاَ أَعْبُدُ**] بإسْكانِ ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة بفتح هذه الياء ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾.

(٢٣) • قرأ أبو جَعْفر: **[إِنْ يُرِدْنِيَ]** بإثبات ياء المتكلم مفتوحَةً في الوصل، وساكنة في الوقف.

وأثبت يعقوب هذه الياء في الوقف، وحذَفها في الوصل.

وحذفها في الوصل والوقف باقي القراء العشرة.

وهٰذه وُجوهٌ عرَبيَّة لياء المتكلم.

(٢٣) • قرأ ورْش بإثبات ياء المتكلم وصلاً في **[يُنقِذُني]** وبَحذْفها في الوقف.

وأثْبَتَها يَعْقُوبُ في الوصل والوقف، وحَذَفها باقي القراء العشرة مطلقاً.

(٢٤) • قرأ نافِع، وأبو عمر، وأبو جعْفر: **[إِنّيَ إذاً]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

(٢٥) • قرأ نافِع، وأبو عمر، وأبو جعفر: **[إِنّيَ آمَنْتُ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها، إلّا أن ابْنَ كثير يوافق على الفتح أيضاً.

(٢٥) • أثبت يعقوب ياء المتكلم في **[فاسْمَعُوني]** وحذفها باقي القراء العشرة، وهذا من الإيجاز في النطق.

تمهيد:

هذا الدّرس اشتمل على تعليم من اللّٰهِ عزّ وجلّ لرسوله أنْ يُوجّه

علاجاً لمشركي مكَّة إبّانَ تنزيل السّورة، بأن يُقَدّم لهم صورة من صُوَرِ الإقناع الّذِي يَحْمِلُ عَصَا الإنْذار بالعقاب المعجّل، للذين لم يُؤْمِنُوا به نبيًّا ورسُولاً، ولم يُؤْمنوا بما جاء به عن رَبّه.

وهذا التعليم نَفْسُه مُوَجَّهٌ من اللَّهِ عزّ وجلّ لهم بأسْلُوب غَيْرِ مُبَاشر، لأنَّه أُنْزِلَ قرآناً يُتْلَىٰ عليهم وعلى الناس أجمعين، فهو أيضاً مُوجَّهٌ لكل نظرائهم في كلّ عَصْرٍ وفي كلّ قوم، لأنّ رسالة محمّد ﷺ رسالةٌ عامّة للناس أجمعين، وللجنّ أيضاً.

وصورة الإقناع هذه تشتمل على ضرْبِ مَثَلٍ تاريخِيّ جرَىٰ لقوم أهلكهم الله، لأَنَّهم كذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم، وأنذُروهم بالقتل رَجْماً بالحجارة، وبعذابٍ أليم إذا لم يَنْتَهُوا عن تأدِيَةِ وظائف رسالَةِ ربهم الَّتِي أَرْسَلَهُمْ بها، مع الإلماح إلى أنّ أحوالَ كبراء مُشْركي مَكَّة قَدْ أشرَفَتْ أنْ تكون مماثلةً لأحوال هؤلاءِ القوم المهلكِين، فمتَىٰ بلَغُوا إلى مِثْل ما بَلَغَ إليه أولئك الْمُهْلَكُونَ أجرى اللَّهُ بهم سُنَّتَهُ فأهلكهم.

إنَّ هٰؤُلَاء المهلَكِين الَّذِينَ ضَرَبَ اللَّهُ بهم المثَل، هُمْ أصحاب قَرْيَّةٍ وَثَنِيُّون، جاءَها مُرْسَلُونَ مِنْ غَيْرِ أهلها، كَانُوا اثْنَيْن، فعَزَّزَهم اللَّهُ بثالث، فَدَعَوْا أهلَ هذه القريَةِ إلى الإيمان الحقّ، وإلى تَرْكِ ما هُمْ فيه من وثنيَّةٍ باطلَة، فَكَذَّبُوهم في كوْنِهِم رُسُل رَبّهم، فأكَّدُوا لَهُم أَنَّهُمْ صادِقون مُرْسَلُون حَقّاً، وأَنَّهُمْ لَيْسُوا مُطَالَبِين منْ رَبِّهم إلّا بالبلاغ المبين الواضح الموضِّح لقضايا الإيمان الحقّ، ولشرائع الله وأحكامِهِ لعباده بالحكمة والموعظة الحسنَة، وأنَّهم ليْسُوا مكلَّفين أَنْ يُلْزِموا الْقَوْمَ أَنْ يُؤْمِنُوا بهم ويتَّبِعُوهم إلْزاماً وهُمْ كارِهُونَ غَيْرُ رَاغِبين، فالاسْتِجَابَةُ لدَعْوَةِ الرُّسُلِ يجب أن تكُونَ استجابةً اختياريَّةً إرادِيَّةً طَوْعِيَّةً، لَا اسْتِجَابةً جَبْرِيَّةً إكراهيَّةً على خلَافِ رَغْبَةِ المستجيب واختيارِه الحرّ.

فأَصَرّ أصْحَابُ الْقَرِيَةِ على تكذِيب رُسُلِ رَبّهم، وقالوا لهم:

﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

فزاد الرُّسُلُ الثلاثَةُ تَأْكِيدَهُمْ لِلْقَوْمِ بأَنَّهم إليهم مُرْسلون.

فأَخَذَ اللَّهُ الْقَوم بالبأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لعلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ وَيُؤْمِنُون برسُل رَبّهم، ضِمْنَ مُجْرَيَاتِ سُنّتِه جلَّ جَلَاله.

فجعل القومُ ما نزَلَ بِهِمْ من شُؤْمِ الرُّسُلِ، فقالوا لهم: إِنَّا تَطَيَّرْنَا بكُمْ فَكُفُوا عن جهادكُم الدَّعوِي، وأقْسَمُوا بالأيمان، لَئِنْ لم ينْتَهُوا عن مُتَابَعَةِ مَا يَقومون به من دعْوةٍ لَيَقْتُلُنَّهُمْ رَجماً بالحجارة، مع تَعْذِيبهم عذاباً أليماً.

فقال لهم الرُّسُل: إنَّ ما نزل من مصَائِبَ أَنْتُمْ سَبَبُها، فَشُؤْمُكُمْ مَعَكُمْ، وهُو كُفْرُكُم وتكْذِيبكُمْ رُسُلَ رَبّكُمْ.

قال أصحاب القرية للرُّسل: إنَّ مَنْ حَوْلَنَا مِنَ الْقُرىٰ هم مِثْلُنَا، ولم يُنْزِل اللَّهُ بِهِم المصائبَ كَمَا أَنْزَلَهَا بِنَا.

قال لهم الرُّسل: بَلْ أنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُون، قَدْ زادَت شُرُوركُم وجرائِمكُمْ عن شُرور وجرائم أَهْلِ القرىٰ الذين لم يُنْزل اللَّهُ بهم المذكِّراتِ والمنْذِرَاتِ منَ المصائب.

وَنَصَر المرسَلِينَ الثلاثَةَ رَجُلٌ من أصْحاب القريَة، جاءَ من أقصا المدينَةِ يسْعَىٰ، وكان هذا في آخِرِ مَوْقفٍ من مواقف دَعْوَةِ الْمُرْسَلِين لهم.

فدعَا هذا الرَّجُلُ قوْمَهُ إلى الإيمان بِرُسُلِ رَبِّهِمْ إليهم، وإِلَىٰ اتّبَاعِهِمْ، وحَاوَرَهُمْ وَنَاظَرهم، وأخيراً رَفَعَ عَقِيرَتَهُ مُعْلِناً إيمانَهُ بِرَبِّهم الحقّ، وهٰذا يتَضَمَّنُ إعْلَان كُفْرِهِ بِوَثَنِيّتِهِمْ، وبآلِهَتِهِم الّتي يَعْبُدُونها من دون الله.

عندئذٍ الْتَهَبَتْ نِيرانُ غَيْظِهِمْ مِنْهُ وَثَارُوا عَلَيْهِ ثَوْرَةَ انْتِقَامٍ بغَضَبٍ هائج،

فقَتَلُوهُ، فَوَجَدَ عِنْدَ رَبِّهِ مَغْفِرَةً وإكْراماً عظيماً، فتمنَّى أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ بِمَا نَالَ من كرَامَةٍ عِنْدَ رَبِّه، فَيُؤْمِنُوا برُسُلِ رَبِّهِمْ ويَتّبِعُوهم، هكذا أَخْبَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ عنه.

وَلَمْ يُنْظِر اللَّهِ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أصْحابَ الْقَرْيَةِ، بَعْدَ أَنْ قَتَلُوا رَجُلَهُمُ الَّذِي نَصَحُهَمْ، وتَمَنَّىٰ لهُمُ الخيْرَ، بلْ عاجَلَهُمْ بالإهْلَاكِ الشَّامِلِ، بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ جَعَلَهُمْ بها خامِدِينَ، كَنَارٍ ثائِرَةٍ هَائِجَةٍ، انْطَفَأَتْ وَخَمَدَتْ فَجْأَةً بلَحْظَةٍ وَاحِدَة، دَلَّ عليها قَوْلُ الله عزّ وجل:

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

فدلَّ التعبير بالخمود على اقترانِ إهلاكِهِمْ بِلَهِيبِ ثَوْرَتِهِمْ على رَجُلِهِم الّذي قَتَلُوهُ، وهٰذا إنّما يكُونُ عَقِبَ قَتْلِهِمْ له.

ويَظْهَرُ أنَّ الرُّسُل الثلاثة انْسَحَبُوا من الموقف، لمَّا وَجَدُوا الرَّجَلَ يَنْصَحُ قَوْمَهُ، ويُناظِرُهم، وَوَجَدُوا الْقَوْمَ ثائِرِينَ عليه يُريدونَ قتْلَه.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

الخطاب موجَّهٌ للرسول ﷺ، ويوجّه من بَعْدِه لكل داعٍ إلى الله من أمّته.

والضمير في عبارة: ﴿لَهُم﴾ يَعُودُ على الذين تتحدَّث عنهم السورة في الدرس الأول منها، وهم مشركوا مكّة، إبّان تنزيلها.

- ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾: أَصْلُ الضَّرْب تَوْجِيهُ شيءٍ لشيءٍ آخَرَ بقُوَّةٍ حتَّىٰ يَصْطَدِمَ بِهِ وَيُؤَثّر فيه أثراً ما.

ولمَّا كانَ المسافِرُ يَضْرِبُ رِجْلَيْهِ في الأرض، أو تَضْرِبُ دابَّتُهُ يَدَيْها ورِجْلَيْها في الأرض، سُمِّيَ السَّفَرُ ضَرْباً في الأرض.

ولمَّا كانَتْ صِنَاعَةُ الدَّراهِم والدَّنانير تَتِمُّ عن طريق ضَرْبِ صفائحِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ بقوالِبَ حَدِيدِيَّةٍ صُلْبَةٍ حُفِرَتْ فيها أَمْثِلَتُهَا، أَوْ ضِمْنَ قوالِبَ يَدْخُلُ بعضُها في بعضٍ، قالوا: ضَرَبَ فَلانٌ الدّراهِمَ أو الدَّنانير، إذا طَبَعَ على مَعْدِنهما المثالَ المحْفُور في القالب.

ثُمَّ حصَلَ توسُّعٌ في معنى الضَّرب، فقالوا: ضَرَبَ مثلاً، أي: ذَكَر أو صَنَع أو فَعَلَ مثلاً، أو مَثَّلَ مَثَلاً.

والأصْلُ في المَثِل أنَّه قائم على تشبيه شيءٍ بشيءٍ، لوجُودِ عُنْصُر تَشابُهٍ أوْ تَمَاثُلٍ بَيْنَهما، أَوْ لِوُجُودِ أكْثَرَ مِن عُنْصرِ تَشَابُه.

• ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ عطْفُ بيان أو بدل من ﴿مَثَلًا﴾.

وجاء في المراد بهذه القرية روايات ضعيفات الأسانيد عن ابن عباسٍ وغيره أنَّها مَدِينَةُ أنْطاكِيَّة، وهذا الاسم يُطْلَقُ على مَدِينتَيْن أسَّسَهُما أحَدُ قُوَّاد جَيْشِ الإسْكنْدَرِ الأكْبر، واسْمُه «سُلُوقِسْ نِيكَاتُورٍ» فالأُولى أسَّسَها عام «٣٠٠» قبل الميلاد، على نَهْرِ العاصِي، وعلى مسَافَةِ خَمْسَةَ عَشَر مِيلاً من البَحْر الأَبْيَضِ المتوسّطِ، وسمَّاهَا أنطاكِيَّة نِسْبَةً إلى أبيه «أنطْيُوخُس» والأخرى أسَّسَها في وسَط آسيا الصغرى.

واعْترض ابْنُ كثير على الرّوايات الواردات حول اعتبار أنطاكيّة هي المقصودة بالقرية، بثلاثَةِ وجُوه، منْها أنَّ أهْلَ أنطاكيَّة استجابُوا لِرُسُلِ المسَيحِ عَلَيْهِ السَّلام، وصَارَتْ هٰذِهِ المدينَة أهَمَّ مَرْكَزٍ للمسيحيَّةِ بعْدَ أُرُوشَلِيم.

أقول: ينبغي التوقُّفُ وعَدَمُ التعيين، ولعَلَّ الباحثين في الآثار سَيَكْتَشِفُونَ ما يَدُلُّ على القَرْية المرادة بالقصَّة القرآنِيَّة.

• ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: أي: واضْرِبْ لكُفَّارِ قُرَيشٍ يَا محمَّد قصَّةَ أصْحَابِ الْقَرْيَةِ الَّتِي حَدَثَتْ في وقْتِ مَجِيءِ الْمُرْسَلِين إلَيْهَا، ودَعْوَتهمْ أَصْحَابَهَا إِلَىٰ دِينِ الله الحقّ.

❃ ❃ ❃

قول الله تعالى:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

جُملَةُ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ ...﴾ وَمَا بَعْدَها حتَّىٰ آخِرِ الْقِصَّة بَيَانٌ تَفْصِيليٌّ لجُمْلَةِ ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

دلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أَرْسَلَ أوّلاً إلى أصحابِ هٰذِهِ القرية رَسُولَيْنِ اثْنَيْنِ، فَكَذَّبوهُما، إذ اعْتَبَرُوهُمَا مُخْبِرَيْنِ كذَّابَيْنِ، يَدَّعِيَانِ أَنَّهمَا يُبَلِّغَانِ الدِّينَ عَنِ اللَّهِ وهُمَا مُفْتَرِيَانِ، فَقَوَّاهُمَا اللَّهُ عَزَّ وجلّ برسُولٍ ثالثٍ، جاء الْقَرْيَةَ وهُوَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِها، فلَمَّا اجْتَمَعُوا ثَلاثَتُهُمْ قَالُوا لأَهْلِ الْقَرْيَةِ: إنَّا إليكُمْ مُرْسَلُون، بَعْدَ أَنْ كانَ الرَّسُولَان قَبْلَهُ يقولان: نَحْنُ إليكم مُرْسَلان، أو نحْنُ رَسُولا رَبِّكُمْ.

• ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾: هذه جملة جاء تأكيد الخبر فيها بمؤكدَيْن، «إنّ ـ والجملة الاسمية» وجاء تقديم ﴿إِلَيْكُمْ﴾ على العامل ﴿مُّرْسَلُونَ﴾ لرعاية رُؤوس الآيات، وقد يَدُلُّ هنا على التخصيص، أي: مرسَلُونَ إليكم على وجْهِ الخصوص.

❃ ❃ ❃

قول الله تعالى:

• ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

هذا الكَلَامُ الّذِي وجَّهَهُ أهلُ القرية لرُسُلِهِم يتضمَّن اعتراضاً، وافتراءً، واتّهاماً، وربما قالُوا هذا على مراحل.

• **أمّا الاعتراض**: فقد دلَّ عليه قولُهم ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أي: وليْسَ مِنْ شأن البشر أنْ يكونوا رُسُل رَبّهم.

وقد تكرّر هذا الاعتراض على ألْسِنَةِ كُفَّارِ القرون الذين أَهْلكهم الله، وجاء أيضاً على لسان العرب الّذين كفروا بالرَّسول محمّد ﷺ.

وجاء في القرآن دفْع هذا الاعتراض بالحجَج والبراهين الدامغة.

وهو اعتراضٌ قائم على توهُّم أنّ رُسُلَ اللَّهِ إلى البشر لَا بُدَّ أَنْ يكونُوا من الملائكة، لا يأكُلُونَ ولا يَشْرَبُون ولا يَنكحون، ولا يمْشُونَ لكسْبِ أرزاقهم كما يفْعَلُ الناس، مع أنَّ الحكمة تقتضي أن يكون الرُّسُل إلى البشَرِ من البشر أنفسهم[1].

■ وأمّا الافتراء: فقد دلّ عليه قولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: وما أنزل الرحْمٰنُ على بَشَرٍ من شيْء يتضمَّن رسالةً من الله للناس، ككِتاب، وتعاليم، ووصايا، وأحكام، وشرائع.

أو وما أنزل الرَّحْمنُ مِنْ شيءٍ من ذلك للناس، على بشَرٍ أَوْ غير بشر.

«من» في عبارة ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ حرف جرّ زيد للدّلَالة على استغراق العموم أو التنصيص عليه. «شَيْءٍ» مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به.

وهذه المقولة الافترائيّة دلَّتْ على ثلاثة أمور:

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر هذه السورة «اعتراض الأمم على بشرية الرُّسُل».

الأمر الأوّل: أنّهم من الّذِينَ يُنْكِرُون الرّسالات الرّبانيَّة للناس، مع إيمانهم بالله عزّ وجلّ، وهذا ظاهر من قولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾.

الأمْرُ الثاني: أنَّهم يُؤْمِنُون بأنَّ الله عزّ وجلّ هو الرحْمٰن، على خلاف عقيدة جمهور مُشْرِكي مكَّة قبل الإسلام، الّذين كانُوا يُؤْمِنُون بالله رَبًّا خالقاً للكَوْن، ولا يُؤْمِنُونَ بأَنَّهُ الرَّحْمٰنُ الرحيم، بل ينْسُبُونَ صفة الرحمة إلى شركائهم، ويلْتَمِسُون عنْد شركائهم منافِعَهُمْ ومصالِحَهُمُ الدُّنيوية، ودفع المضار عنهم، ويرجون لديهم أن ينصروهم على أعدائهم، فيجْعَلُونَ لشركائهم بعض خصائص الرّب، وينفونها عن الرَّبّ الخالق.

وبما أن أصحاب هذه القرية الّذين أرسل الله إليهم ثلاثة رسُل يُؤْمِنُون بأن الله هو الرَّحمن، فالظاهر أنَّ عقيدتهم في شركائهم تُشْبِهُ عقيدة بعض مشركي العرب، الّذين كانوا يقولون في شركائهم: مَا نَعْبُدُهم إلَّا لِيُقَرّبونَا إلى اللَّهِ زُلْفَىٰ.

الأمر الثالث: أنَّهم يُنْكِرُون الآخرة ويَوْمَ الدين، لأنَّ أعظم ما تَشْتَمِلُ الرّسالات الرَّبَّانيّة بعد الإيمان بالله وبصفاته وأسمائه الحسنى، هو الإيمانُ بالجزاء، وبِيَوْم الدّين، وبمطالِب اللَّهِ مِنْ عبادِه في رحْلَة امتحانِهِمْ في الدُّنْيا، للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدّين.

■ وأمّا الاتّهام: فقد دلَّ عليه قولهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ خطاباً لِرُسُلِهم، أي: ما أنْتُم إلَّا بَشَرٌ تكْذِبُون في ادّعاء أنَّكُمْ رُسُلٌ تُبَلِّغُونَ دِينَ الله للنّاس.

وإذْ وَجَّهُوا هذا الاتّهام للرُّسُل الثلاثة، بناءً على تَوَهُّمِهِمْ بأنَّ الْبَشر لَا يَصْلُحُونَ لتَلَقِّي رِسالَةٍ عن الله بوساطة الوحْي، وتوهُّمِهِم بأنّ الرَّحْمٰنَ ما أنْزَلَ للنَّاسِ رسالةً ما، فقد أَلْغَوْا كُلَّ احتمالٍ يَسْتَبْعِدُ عن الرُّسُل الثلاثة صِفَةَ الكذب، كاحْتِمَالِ أن يكونوا مُتَوَهّمِينَ لم يتعمَّدُوا الكَذِب، وكاحْتِمال

أَنْ يَكُونَ رِئْيٌّ مِنَ الجنِّ كذَبَ علَيْهِمْ فَصَدَّقوه، إلى غيرهما من احتمالات.

وإذْ ألْغَوْا من تصوُّراتهم كُلَّ الاحتمالات الّتي تَسْتَبعِدُ عنهم صفة الكذب، مع معتقداتهم الفاسداتِ المتأصِّلاتِ في أعماقِ نفوسهم، لم يبْقَ أمامَهُمْ إلَّا أن يتَّهِمُوا الرُّسُل الثلاثة بأَنَّهم يَكْذِبُون، لغايَةٍ يَقْصِدُونَها لأنفسهم من ادّعَائِهم أنّهم يُبَلّغون أهل هذه القرية دين الله.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

• ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

في مقابل مقالات أصحاب القرية، التي تضمّنَتْ اعتراضاً، وافتراءً واتّهاماً، لم يكُنْ لدى الرسُل الثلاثَةِ إلَّا أن يُجيبُوا بجوابَيْن:

الجوابُ الأول: دلّ عليه قولهم: ﴿. . . رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ لقد أعادوا بهذا الجواب بيان أَنَّهُمْ مُرْسَلُونَ حَقًّا وَصِدْقاً من ربِّهِمْ، مع زيادة مُؤَكِّداتٍ في العبارة، على عبارتهم السّابقة الّتي قالُوها لهم، وهي: ﴿. . إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

فالعبارة السَّابقة قد اشتملت على مؤكِّدَين هما: «إِنَّ ـ والجملة الاسمية».

أمّا عبارة: ﴿. . . رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ فقد اشتملَتْ على أربع مؤكّدات: «رَبُّنَا يَعْلَمُ (فهذِهِ العبارة بقُوَّةِ القسم) ـ وإِنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللَّام المزحْلَقَة (وهي لام الابتداء زُحْلِقَتْ للخبر بسبب دُخول «إِنَّ» على المبتدأ) ـ».

الجواب الثاني: دلَّ عليه قولُهُمْ: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ أي: وما أوجب علينا رَبُّنَا إِلَّا أَنْ نبَلّغكُمْ الرِّسالةَ التي كلّفَنَا أنْ نُوصِلَها

إليكُمْ واضِحَةً جَلِيّة، ومَا لَمْ تَفْهَمُوهُ منها فعَلَيْنا أَنْ نُبَيِّنَهُ لكم حتىٰ تَفْهَمُوه، ولَسْنَا مُكَلّفين أَنْ نُجْبِرَكم على الاستجابَةِ لدعوتنا، ولَا أَنْ نُلْزِمَكُمْ باتّباعِنَا وَأَنْتُم له كارِهُون.

﴿وَمَا عَلَيْنَآ﴾: أي: وَمَا يَجِبُ علينا.

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾: أي: إلَّا تبليغ رسالَةٍ كلامِيَّةٍ ذاتِ مَضْمُونٍ فكري، فإن شئتُمْ استجبْتُم، وإنْ شئتُمْ أَبَيْتُمْ، فلا جَبْرَ ولا قَهر، بلْ عَرْضٌ وتخيير.

البلاغ: اسْمُ بمعنى المصدر الّذي هو الإبلاغ أو التَّبْليغ، وهو في اللُّغة: إيصالُ رسالة كلاميَّةٍ أو غير كلاميَّة، إلىٰ مَنْ أُرْسِلَتْ إليه.

﴿ٱلْمُبِينُ﴾: أي: الواضح الظاهر، والموضِحُ المظهِرُ. و«مُبين» اسم فاعل من فعل «أبَانَ» وهذا الفعل يأتي لازماً ومُتَعَدِّياً، فيقال: أَبَانَ الشَّيْءُ، بمعنَىٰ ظَهَر واتَّضَحَ. ويقالُ: أَبَانَ فُلَانٌ الشيءَ، بمعنى أَظْهَرَهُ وأَوْضَحَه.

واللَّفْظُ هنا في الآيَة صالح لإرادَة المعنيين معاً. إذ الرِّسَالَةُ الّتي على الرُّسُل أن يُبلِّغُوها ظاهرةٌ وَاضِحَةٌ، وإِذَا خَفِيَ على المبَلَّغِين منها شيءٌ، فعلَىٰ الرُّسُلِ إبانَةُ ذلك وإظهارُهُ وتوضيحه.

وقد دَفع الرُّسُل الثلاثة بهذا الجواب الثاني ظُنُون القوم بِهِمْ، الَّتي تَدُور حول سَعْيهم، لاتخاذ وسائل الإكراه على الدّين الجديد، كما يَفْعَلُ أصحابُ المذاهب الإنسانية الضَّالَةِ الفاسِدَة الباطلة، وتدور حول اتّهامهم بأنّ انتشار دعوتهم وقبُولَ الناسِ لَها، سيمكّنُهُمْ من تَحقيق أهدافِهِمْ، في الظفر بمنافع ومصالح عند أصحاب القرية، منها المالُ والجاهُ والسُّلْطان.

وصيغَة: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ صيغة حَصْرٍ بالنفي والاسْتثناء، ويُفْهَمُ من هذا الحصْرِ أنّهم غَيْرُ مأمُورِينَ ولا مَأْذُونٍ لهم، بأنْ يَقُوموا بوسيلَةٍ ما من وسائل الإلْزَام والإكراه عَلَىٰ قبول أهل القرية لما

يَدْعُونَهُمْ إلَيْه، بَلْ لا بُدَّ أن يكون قبولُهُمْ واسْتجابَتُهُمْ له باختيارهم الحرّ.

والقَصْر هنا من قبيل قَصْرِ الموصوف على صِفَة، وهو من قبيل القصر الإضافي، تطبيقاً لما يذكُرُه البلاغيون، أي: ليس لهم من الصفات بالإضافة إلى خُصُوص الرّسالة التي جاءُوا من أجْلِ تأديتها، إلّا الْبَلَاغُ الكلاميُّ الْمُبِينُ لما يَدُلُّ عليه من معاني.

❁ ❁ ❁

قوله الله تعالى:

• ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾﴾:

تمهيد:

لم يجد الملأ من أصْحاب القرْيَةِ مَا يُثيرونَ حوْلَهُ جدالاً فِكْرِيًّا، بَعْدَ أنْ وصَلُوا إلى ذِرْوة التذمُّرِ من دعوة الرُّسُلِ الثلاثة، وهذا يكون عادةً بعْدَ مُدَّةٍ من بَدْءِ دَعْوات الرُّسُل في كلِّ أمَّة، وحينما يَخْشَىٰ ذَوْو السلطان والنفوذ فيهم على مراكزِهم ومصالحهم.

فلَجأ الملأ من أصحاب القرية إلى إثارة ذَريعةٍ ما ضدّ المرسلين الثلاثة.

والذّريعةُ الّتي اتّخذوها تدلُّ على أنّ الله عزَّ وجل قد أخَذَهُمْ بشيء من البأساء والضرّاء، كتوقف نزول الأمطار، وجفاف الأرض، ونزول أنواع من المصائب في الأموال والأنفس، رغبةً في أن يتذكَّرُوا فيتضرَّعوا لبارِئهم، فإذا فَعَلُوا ذلك كان مُناخاً ملائماً لأَنْ يفْتَحوا عُيُونَ بَصَائرهم، فيشْهَدُوا الحقَّ الّذِي بلّغَهُمْ إيّاه رُسُلُ رَبّهم، فيُؤْمِنُوا.

لكنَّهم لم يَسْتفِيدُوا من هذا التذكير الرَّبَّانِيّ لهم، بلِ اتَّخذوه ذريعة لإطلاق خرافة التطيرِ برُسُلِ رَبّهم إليهم، والتطيُّر بدعْوتِهِمُ الّتي يُجَاهِدُون في نشرها بين سُكَّانِ هذه القرية.

ومَعْلُومٌ أَنَّ أَمْثَالَ هذه الذرائِع والتَّعِلَّات تَجِدُ رواجاً عند الجماهير، للغوغائيَّة الّتي تشِيعُ فيهم، ولسَيْطَرة المفهومات الخرافيَّة الّتي تكْثُرُ بَيْنَ أَهلِ الكُفر، ولا سيما أصحاب العقائد الوثنيَّة، الذين لا يُؤْمِنونَ بيَوْم الدّين، ويجعلون لأوثانهم تأثيرات غيبيَّةً في أحوال الناس، وفي الظواهر الطبيعيَّةِ في الأرض، الّتي تَتِمُّ بقضاء اللَّهِ وقَدَره.

وأتْبَعُوا تطيُّرَهم برُسُلِ رَبّهم مُتَذَرّعين بأَنَّ ما نَزَل بِهِمْ مِنْ مصائب قَدْ كان بسَبَبِهِم، أن هَدَّدُوهم بالقَتْلِ رجماً بالحجارة، مع عذابٍ أليمٍ يمَسُّونَهُمْ بِه في أجسادِهِمْ ونفوسهم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾: أي: قال الملأ من أهل القرية للرُّسُل الثَّلاثَة، إنَّا نَرَىٰ أنَّ ما نَزَلَ فينا من مصائب قد كَانَ بسَبَبِكُمْ وبَسَبَبِ دَعْوتِكم.

التطيُّر: التشاؤُمُ بالأشياء، أو بالأشْخاص، أو بالأحداث، كَمَرْئِي، أَوْ مَسْمُوع، وأصْلُ التَّطَيُّرِ مَأْخُوذُ من زَجْر العَرَبِ للطَّيْر، فإذا طَارَ إِلَىٰ جِهَة اليمين تَفَاءَلُوا، وإذا طَار إلَىٰ جهة الشِّمَال تَشَاءَمُوا، ثُمَّ صَارَ كُلُّ تَشَاؤُمٍ بشيءٍ ما يُطْلَقُ عَلَيْهِ لفظُ «طِيَرَة»، وضِدُّ الطِيَرَةِ التفاؤُلُ بالأشياء، وكان الرَّسُول ﷺ يتفاءَلُ ولَا يَتَطَيَّر.

وجاء فيما ثَبَتَ عنه صلوات اللَّهِ وسلاماته عليه قولُهُ: «لَا عَدْوىٰ وَلَا طِيرَة».

أي: لا عَدْوَىٰ تُؤثِّر بذاتِها دُونَ قضاء اللَّهِ وقَدَرِه أوْ إِذْنه، ولا تُوجَدُ أشياءُ، ولا أحياء، ولا أحداثٌ، لها صفاتٌ خفيَّةٌ تَحْمِلُ شُؤْماً حتَّىٰ يُتَطَيَّرَ بها، وهذا المعنى لا يَتَنافىٰ مع وجوب اتقاء ما فيه شرٌّ أو ضُرٌّ أو أذىٰ، بحَسَب صفاتِهِ التي فطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْها، كالحيوانات المفترسة، أو السَّامَة، وكالحشراتِ الضارّةِ أو المؤذية، فتحاشيها حذراً من شرورها ليس من الطِّيَرَة، بل هو من وسائل الوقاية من شرٍّ ما خلَقَ اللَّهُ في كونه.

وقد أمرنا الله عزّ وجلّ بأن نَسْتَعِيذَ بِهِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَق.

اشتملت هذه الآية على مَقُولَتَيْن قالَهُما ملأ أصحاب القرية لرُسُل ربّهم.

المقولة الأولى: دلَّ عليها قولهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾: أي: إنَّ ما نَزَلَ بنَا مِمَّا نَكْرَهُ من نَقْصٍ في الأموال والأنْفُسِ والثمراتِ، قد كان بسَبَب وُجُودِكم بَيْنَنَا، ودَعْوَتكم الّتِي جِئْتُمونا بها.

والمعنى: فَكُفُّوا عَنْ دعْوَتِكُمْ حتَّىٰ يَذْهَبَ عنَّا ما نَزَل بنا من مكْرُوه.

المقولة الثانية: دلَّ عليها قوْلُهُمْ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾:

﴿لَئِن﴾: اللّام موطئة للقسم، والتقدير: نُقْسِمُ لئن لم تَنْتَهُوا عن مُتَابعَةِ دَعْوَتِكُمْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ، وليَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أليم.

قُدّم التَّهدِيدُ بالْقَتْلِ بوسيلَةِ الرَّجْم بالحجارة، الَّذِي كان إحْدَىٰ وسائل القتلِ في العصور القديمة للمنْبُوذين المطْرُودين، للتخويف بأشَدِّ الأمْرَيْنِ ابْتِدَاءً، وعُطِفَ عليه التَّهْدِيدُ بأن يَمَسَّهُمْ منهم عذابٌ أليم بالواو الّتي هي لمَطْلَق الجمع فلا تفيدُ تَرْتيباً ولا تَعْقِيباً، مع ما في تأخِير جُمْلَتِه من صياغةِ ملائِمَةٍ لِنَسَقِ الآيات، وإذْ كانَ من المعْلُوم بداهة أنّ تَعْذِيبَهُمْ عَذاباً أليماً غَيْرَ قاتِلٍ يكُونُ عادةً قَبْلَ الرَّجْم الْقَاتِلِ، كانت الدلالة الفكريَّةُ مغنيَةً عن استخدام التقديم في الترتيب، للإشعار بأنَّ الرَّجْمَ يكون هو المتأخّر لدىٰ التنفيذ.

وجاء التعبير بالمسِّ للدّلَالَةِ علىٰ أنّ التعذيب قبل الرَّجْمِ لا يَصِلُ إلى مُسْتَوىٰ القتل.

❁ ❁ ❁

قول اللَّهِ تعالى:

• ﴿قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾:

دلّتْ هذه الآيةُ على ثلاثِ مقولاتٍ أجابَ بها الرُّسُلُ الثلاثَة، ملأ أصحاب القريَةِ، على تهدِيدِهم لهم بالرَّجم وبالعذاب الأليم:

المقولةُ الأُولَىٰ: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

يُطْلَقُ الطَّائر في اللُّغَةِ علىٰ مَا يَحْصُلُ به التَّشَاؤُم، ولَهُ دلَالاتٌ أخرى، لكنَّ هذا المعنى هو الملائم هنا.

فالمعنى: إنَّكُمْ تَوَهَّمْتُم أنَّ دَعْوَتَنا هي السَّبَبُ فيما حلَّ بكم من مصائب، ونَقْصٍ في الأمْوَالِ والأنْفُسِ والثمرات، فتَطَيَّرْتُمْ بِنَا تَطَيُّرَ تَشَاؤم. مع أنّ السَّبب في الْحقيقة هُو شِرْكُكُمْ وكُفْرُكم، وتَكْذِيبُكُمْ رُسُلَ رَبِّكُمْ، وجُحُودُكم ما جاءُوكُمْ بِهِ عَنْ رَبّكم، وهذا السَّبَبُ هو الّذِي جَلَبَ بَعْضَ المصائب لكم، وهو السبب الذي أنْزَلَ بِكُمْ بَعْضُ عقوبات اللَّهِ لكُمْ، رغْبَةً في أَنْ تَتُوبوا إليه، وتَسْتَغْفروه، وتَتَضَرَّعُوا له.

وهذا السَّبَبُ موجودٌ معكم لَا مَعَنا، فما هو فيكُمْ ومَعَكُمْ ممَّا لَا تُرِيدُونَ التخلُّصَ مِنْهُ هُو طَائركُم، وهو الّذي يجبُ أَنْ تَتَشَاءَمُوا مِنْه، لَا أنْ تَتَشَاءَمُوا من رُسُل رَبِّكُمْ ومِنْ دَعْوَتِهم لكم إلى دينِ اللَّهِ الحقّ، وهُو الّذِي يَجِبُ أَنْ تُبْعِدُوهُ وتَرجُموهُ رَجْمَ طَرْدٍ أبَدِيٍّ، ومَا كان يَصِحُّ عقلاً وَرُشداً أَنْ تُهَدِّدُونا بالعذاب الأليم، وبالرَّجْمِ حتَّىٰ الموت.

المقولة الثانية: دلَّتْ عليها عبارةٌ: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ وقَرَأَ أَبُو جَعْفر: [**أَأَن ذُكِرْتُم**].

والمعنى على قراءة جمهور القرّاء العشرة: أَتَطَيَّرُونَ بنا وَبِدَعْوَتِنَا، وتُهَدِّدُونَنَا بالعذاب الأليم وبالرَّجْمِ حَتَّىٰ الموْت، إنْ تُذَكَّرُونَ مِنْ قِبَلِ رَبِّكُم

بالمصائب الّتِي يُنْزِلُهَا بكُمْ، رَغْبَةً في أن تتذَكَّرُوا وتَصْحُوا من غَفَلَاتكُم، فتَتُوبُوا إلَىٰ بارِئِكُمْ، قَبْلَ أن يُنْزِلَ بكُمْ هَلاكاً شاملاً، ضِمْنَ مُجْرِيَاتِ سُنَّتِه في عباده؟!. «إنْ» شرطية جاءت بعد همزة الاستفهام، والجواب محذوف تقديره: أإن ذُكِّرْتُم تتطيّرُون.

والاسْتِفْهَامُ في العبارة، هو من قبيل الاستفهام الإنكارِيّ التعجُّبيّ.

والمعنى على قراءة أبي جعفر: أَتَطَيَّرْتُمْ بِنَا وبَدَعْوَتِنا، وتُهَدِّدُونَنا بالعذاب الأليم وبالرَّجْم، لأجْلِ أَنْ ذُكِرْتُمْ بِبَعْضِ مَا فيكُمْ من عُيُوبٍ وَجَرَائم وعُدْوانٍ، وفَسَادٍ وَإِفْسَادٍ في الأرض؟!.

أخِفْتُمْ أَنْ تَشْتَهِرُوا بيْنَ النّاسِ بقبائِحكُمْ، فأرَدْتُمْ أَنْ تَنْتَقِمُوا مِنَّا بالتَّعْذِيبِ بعذابٍ أليمٍ، وبالرَّجْمِ حتَّى الموت؟!.

والاستفهام على هذه القراءة هو أيضاً من قبيلِ الاستفهام الإنكاريِّ التعجُّبيّ.

وهذه القراءة تُناسِبُ حَالَ ذوي السُّلْطَان فيهم، الَّذِين تَأْخُذُهُمُ العزَّةُ بالإثم، إذا ذُكِرُوا بسُوءِ أعمالِهم، وكُشِفَتْ قبائحهم لجماهير قومهم. وقد تُنَاسِبُ حالَ سَائر الْقَوْمِ إذَا كَانَتْ لهم قبائِحِ يَخْشَوْنَ أَنْ يُذْكَرُوا بها لَدَىٰ غيرهم من أهل الْقُرىٰ.

وبهذا نُلاحِظُ أنَّ القراءَتَيْنِ مُتكامِلَتَانِ في تأدِيَةِ المعاني المرادة.

المقولة الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿..بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾:

هذه المقولة تَدُلُّ على أَنَّ أصحابَ القرية، أَوْ أصحاب الجاه والسلطان في قَوْمِهِم، قابَلُوا نُصْحَ رُسُلِهِمْ لهم بالإقْلَاع عن قبائحهم وجرائمهم وفسادِهم وإفسادِهم في الأرض، وأنَّها من أسباب ما نزل بهم من مصائب مُذَكِّرَةٍ لهم ومُنْذِرَة، رغبةً في أنْ يَتَضَرَّعُوا إلى بارئهم، بقولهم لهم: لسْنَا الْوَحِيدِينَ بَيْنَ أَهْلِ الْمُدُنِ الأُخرىٰ في انتشارِ ما تَلُومُونَنا علَيْه

من ظُلْم وعُدْوانٍ، وفِسْقٍ وبغْي في الأرضِ وفسادٍ وإفساد، فكُلُّ أَهْلِ الْقُرَىٰ الأُخْرَىٰ يَعْمَلُونَ مِثْلَ أَعْمَالِنا.

فَقَال لَهُمْ رُسُلُهُمُ الثلاثة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: أي: لَيْسَتْ أحوالُكُمُ العدوانيَّةُ الظالِمَةُ مِثْلَ أحوالِ أهل القرى الأُخْرَىٰ، ولَيْسَتِ النِّسْبَةُ فيكُمْ مُمَاثِلَةً للنِّسْبَةِ في غَيْرِكم.

إنَّ نِسْبَة قبائِحِكُمْ وجرائِمِكُمْ قَدْ زادَتْ فيكم زِيادَةً فاحِشَةً إلَىٰ دَرَكَةِ الإسْرَافِ في الإثم، الَّذِي يَسْتَدْعي أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بِكُمْ هَلاكاً عامًّا شاملاً، كما أَنْزَلَ بالأقوام الَّذِينَ أَسْرَفُوا مِنْ قبلكُمُ فَأُهْلِكُوا إهلاكاً عَامًّا شاملاً.

وكان لا بُدَّ أنْ يَنْقَطع بهذا الحِوَارُ الدَّعَوِيُّ، ويَتَرَقَّب الرُّسُلُ الثلاثَةُ نَصْرَ اللَّهِ.

❁ ❁ ❁

قول اللَّهِ عزّ وجل:

• ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾:

عند انقطاع الحوار الدَّعَوِي وَتأزُّم الموقف، وُوُصُولِ ذوي السُّلْطان في المدينَةِ إلى طَوْر تَنْفيذ ما هَدَّدُوا الرُّسُل الثلاثة به، جاء من أَقْصا المدينة رَجُلٌ مجاهِدٌ يسعَىٰ لِيَنْصُرَ دَعْوَةَ الرُّسُل بِبَيَانه، مُضَحِّياً بِنَفْسِهِ لنُصْرَةِ الحقِّ، فَوقَفَ في وسَطِ جماهير أهل المدينَةِ خطِيباً وهو منهم.

أَقْصَىٰ المدينة: هو أبْعَدُ أماكِنِ المدينَةِ عن وَسَطِها، وعَنْ مركز الحكْم وسُلْطَةِ التَّنْفيذِ فيها، يقال لغة: «قَصَا يَقْصُو» و«قَصِيَ يَقْصَىٰ» أي: بَعُد.

قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ في بَدْءِ الحديث

عن قصَّةِ الرَّجُلِ المؤمِنِ الّذي أسْرَعَ يَسْعَىٰ مِنْ أَقْصَىٰ المدينة، حتَّىٰ وَصَل إلى حيْثُ اجْتَمَعَ قادَةُ أهْلِهَا، وجُمْهُورٌ من عامّتهم، لتَنْفِيذ ما تَوعَّدُوا به الرُّسُل، قدْ دلَّ على مَبْلَغ إيمان هَذَا الرَّجُلِ وَتَضْحِيَتِه بنَفْسِه.

إنَّهُ مِنْ أَقْصَىٰ المدينة وعَلِمَ بالخبر، فجاء يَسْعَىٰ، ومِثْلُهُ لا بُدَّ أنْ يَشُقَّ صُفُوفَ الجماهِيرِ المجتَمِعينَ حتَّىٰ يَبْلُغَ دَائِرَةَ الوَسَط، وهذا العمل يدُلُّ على أنَّه مُجاهِدٌ أَقْبلَ في حَالَةِ رَوِيَّةٍ وتَصْمِيم، ليَنْصُرَ المرسَلِينَ الوافِدِين إلى قَوْمِهِ من غَيْرِ قومه، ويَدُلُّ على أنَّه لم يَكُنْ حَاضراً في مجتمع القوْمِ، فبلَغَهُ الخبر، فَتَحمَّسَ بانْفِعالٍ لينْصُر الرُّسل، وقد كان من الذين آمَنُوا بهم، واستجابوا لدعوتهم.

ودلَّ تقديم عبارة: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ على فاعل ﴿جَآءَ﴾ وهُو ﴿رَجُلٌ﴾ على أنّ حضوره من أقْصَىٰ المدينَةِ قَدْ كانَ سعْياً جهاديًا عن حماسَةٍ وتصْميم وتضحِيَةٍ بالنفس، دفاعاً عن الحقّ الرَّبَّاني، وقد كانَ من نَتِيجَةِ سَعْيِهِ أنَّهُ جاهَدَ ونَصَرَ دَعوة الحقّ، واسْتُشْهِدَ في سبيل الله.

بخلاف الرجلُ الذي جاء مِن أَقْصَىٰ المدينَة يَسْعَىٰ مسْتَخْفياً، ليبلِّغَ موسى عليه السلام، بأنَّ القوْمَ يَأْتَمِرُون به لِيَقْتُلُوه، وليَنْصَحَهُ بأنْ يَخْرُجَ.

إنَّه إذْ لم يَكُنْ لقُدومِه من أقْصَىٰ المدينَةِ إلّا الإشارة إلَىٰ أنَّه من الَّذِينَ لهم معرفةٌ بما يجري في القصر الفرعوني، ومداخلة ضمن الملأ الذين يُقَرّرُونَ، لم يكُنْ داعٍ لتقديم عبارة ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ على الفاعل الّذِي هو: ﴿رَجُلٌ﴾ في قولِ اللَّهِ عزّ وجلَّ في مَعْرِضِ الحديثِ عن قِصَّةِ موسى عليه السلام، في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

فمن دواعي تقديم ما حقُّهُ التأخِيرُ في الجملَةِ العربيّة التَّنْبِيهُ علَىٰ أمْرِ

ذي أَهَمِيَّةٍ، يَشْتَمِلُ عليه العنْصُر الذي قُدِّمَ من عناصِرِ الجملة عن موقِعِهِ الّذِي هو له في الجملة.

ولمّا وصَلَ مُؤْمِنُ أصْحَابِ الْقَرْيَةِ إِلَىٰ مَوْقِعِ الاجتماع ضِدَّ الرُّسُل، اخترق الجمْعَ حتَّىٰ وصَلَ إلى حيْثُ مِنَصَّةُ الحاكم والمَلأُ من حوله، فوقف خطيباً خُطْبَةً اشْتَمَلَتْ على ثلاث مقولات:

المقولَة الأُولَى: دلَّتْ عَلَيْها عبارَة: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

فدعا قومَهُ إلى الإيمان بهؤلاء الرُّسُل الثلاثة، مُثْبتاً لهم أنَّهُمْ رُسُلٌ صَادِقون ليْسُوا بكاذبين، ودَعَاهُمْ إلىٰ اتّباعِهِمْ فيما جاءَوا بِهِ من شرائِعِ الدِّين وأحْكامه.

الاتّباع: هو في اللُّغَةِ سَيْرُ التَّابعِ علَىٰ أثَرِ المتْبُوعِ، وتَقْلِيد المقتَدِي إمَامَهُ في أقوالِه وأفْعَاله، وطَاعَتُهُ في أوامِرِه ونواهيه، والاستجابَةُ لَهُ في دَعْوَتِه، والاجْتِهَادُ في تَطْبِيقِ وصَايَاهُ.

ومعلومٌ أنَّ إثبات صِدْق الرسُل لا بُدَّ أن يتَضَمَّنَ التّنبيه على أدلّة رسالتهم، وأنَّ مضمون رسالتهم حقٌّ.

المقولة الثانية: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾:

ففي هذه العبارة تأكيد صِدْقِ هؤلاء الرُّسُل بأنَّهُمْ ليْسُوا أصْحَابَ مصالح شخصيَّةٍ، لَدَىٰ قَوْمِه من دَعْوَتِهم إيَّاهُمْ إلى الإيمان ونَفْي الوثنيّةِ ونَبْذِ الشِّرْكِ باللَّهِ وسَائر خُرافاته.

فَهم لا يَسْأَلُون الْقَوْمَ أجراً على دعْوَتِهم لهُمْ إلى الإيمان الحقّ، والإسلام الحقِّ لله عزّ وجلّ وحْدَهُ لا شريكَ له، إنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ أجراً ماليًّا، ولَا أجراً من سُلْطانٍ يَطْلُبُونه، ومُلْكٍ يَسْعَوْنَ للوصُولِ إليه، أوْ غير ذلك.

إنّهم غَيْرُ مُتَّهمِينَ في دعْوَتِهِم إلى الحقّ، وجاءَ هذا البيان لدَفْعِ تَوَهُّم أنَّهم يَتَّخِذُونَ الدَّعْوَةَ إلى الحقِّ وسيلَةً للوُصُولِ إلى مصَالِحَ شَخْصِيَّةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مِنْ دَعْوَتهم عند القوم، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَدْعُونَ إلَىٰ الحقِّ بحُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ، لكِنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ غِطاءً لمَصَالح دُنْيَوِيَّةٍ يُرِيدون الوُصُولَ إلَيْها، حتّىٰ إذا وَصَلُوا إلى مُراداتِهِم من الدُّنيا تَخَلَّوْا عن الحقِّ والدَّعْوَةِ إلَيْهِ ونُصْرَتِه، وتكشَّفَتْ عُيُوبُهم، وظهَرَ عدَمُ الْتِزَامِهِمْ بما كَانُوا يَدْعُونَ إليه.

ومنْ صِفَات كلّ الرُّسُلِ أَنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ الناسَ أجراً، مقابل دعوتهم إلى دين الله الحقّ، للظفر بسعادَةِ الدنيا وسعادة الآخرة، فقد أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ كلَّ رسُولٍ بأن يقول لقومه: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجراً، فقال لقومه كما أمَرَهُ الله.

المقولة الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿... وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾:

ففي هذه العبارَةِ تأكيدُ صِدْقِ هؤلَاءِ الرُّسُلِ في دَعْوَتِهم بِأَنَّهُمْ في ذواتِهِم مُهْتَدُونَ، علَىٰ صراطٍ مستقيم، في أخْلَاقِهم، ومعاملاتهم، وعباداتهم، والتزامِهِمْ بالحقّ، والعدْلِ، والعِفَّة، والزُّهْدِ فيما في أَيْدِي الناسِ، والصِّدْقِ، والأمانةِ، إلى غير هذه الصفات من كُلّ ما يَدْعُو الدين وتدعُو مَوازين العقل السليم للالتزام به، فَلَا شيْءَ يَجْرَحُ سُلُوكَهُمْ حتَّىٰ يَكُونُوا مُتَّهَمِينَ في دَعْوَتِهِمْ، بَلْ هُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لكُلِّ من أراد أن يتأسَّىٰ بذَوِي الفضائل ومحاسِنِ الأخْلاقِ والسُّلُوك.

وبهذه المقولات الثلاث أقامَ مُؤْمِنُ أصْحابِ القرية الحجَّةَ الدامِغَةَ على صِدْق الرُّسُلِ الثلاثة، وأنَّ على قَوْمِه أنْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ وَيَتَّبِعُوهم.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ

ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾:

تمهيد:

يظهر للمتدبّر أنَّ الْقَوْمَ قَدْ فُوجِئُوا بمداهَمةِ رَجُلٍ مِنْهُمْ جَمْعَهُمُ الحافلَ، بُغْيَةَ أنْ يَنْصُرَ الرُّسُلَ الثلاثَةَ بحُججٍ بُرْهَانِيَّةٍ تُثْبِتُ صِدْقَهم في أنَّهُمْ رُسُل الله.

فاسْتُثِيرَ غَضَبُهُمْ مِنْهُ، وتَحَوَّلُوا عَنْ مُحَاكَمةِ الرُّسُل الَّذِينَ لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ دَعْوَتِهم، إلى مُحَاوَرَةِ الرَّجُلِ مِنْهُمْ ومُحَاكَمَتِهِ، إذْ أَقْبَلَ مِنْ أَقْصَىٰ المدينَة لنُصْرَةِ الرُّسُلِ ببياناته الّتي قَدَّمتها خطيباً، حَرِيصاً على إقناع قَوْمِهِ بوُجوبِ الإيمان بالدَّعْوَةِ الَّتي جاءتهم بها الرُّسُل، وَوُجوب اتّباعهم.

ويظهر للمتدبّر من إيحاءاتِ النَّصّ والمطويَّاتِ فيه، أَنَّ ملأَ أصْحاب القرية قالُوا للرَّجل:

إذَنْ: فقد آمَنْتَ بهٰؤُلاء الرُّسُلِ وَتَرَكْتَ مِلَّةَ قَوْمِكَ؟

قال: نَعَمْ، آمنْتُ بِهم وبما جاءُوا به عن رَبّي وَرَبّكُمْ.

فقالوا له: إذَنْ، فَأَنْتَ تَعْبُدُ الرَّبَّ وَحْدَهُ، وقَدْ هَجَرْتَ ونَبَذْتَ عبادَةَ آلِهَتِنا؟!.

قال: نعم.

وهُنَا يأتي النَّصُّ القرآنيُّ في السُّورَةِ، فَيُبَيِّنُ لَنَا أنَّه قَالَ لهم:

- ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

- قرأ يعقوب [**تَرْجِعُونَ**] بالبناء للمعلوم.

وقرأ باقي القراء العشرة [**تُرْجَعُونَ**] على البناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، من فعل «أَرْجَعَ» المتعدّي.

والقراءتان متكاملتان، إنَّهم يُرْجَعُونَ، فيُطَاوِعُون فيَرْجِعُون بالجبر، ويظهر للمتدبّر أنّ ملأ قومه قالوا له: كيْفَ تَعْبُدُ الرَّحْمٰنَ وَحْدَهُ، ولا تَعْبُدُ آلِهَةَ قَوْمِكَ، آلِهَةَ آبائِكَ وَأجْدَادِكَ.

فقال لهم: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾؟!

استفهامٌ فيه معْنَىٰ التَّعَجُّبِ والإنكار على اعتراض قوْمِهِ عليه.

أي: ما حُجَّتِي وما هو السُّلطان الّذِي لي يَحْمِيني من عذابِ ربّي الَّذي فَطَرَني، وما هُوَ النَّصِيرُ المدَافِعُ عَنِّي الذي يَنْصُرُني فَيَدْفَعُ عَنِّي عذابَه، حالَةَ كَوْني لَا أَعْبُدُهُ وهُوَ الَّذِي فَطَرَني وَحْدَهُ؟!

إنَّني إذَا لَمْ أعْبُدْهُ وعَبَدْتُ آلِهَتَكُمْ مِنْ دُونِه، أَوْ جَعَلْتُهُمْ شُركاء له، دُونَ أَنْ يكُونَ لي في ذلِكَ بُرْهَانٌ مِن اللَّهِ، فإنَّني أُعَرِّضُ نَفْسِي حَتْماً لعذابِهِ الأبَدِيّ، إذْ أكُونُ كافراً به، ولَوْ من كُفْرِ الشِّرْكِ الّذي هُو أخَفُّ دَرَكاتِ الكُفر.

وهُنَا يَظْهَرُ للمتدبّر من المطويّاتِ أنَّ الْقَوْمَ قَالُوا له: لَقَدْ عبَدَ آباؤُنَا وَأَجْدَادُنَا مِنْ قَبْلِنَا آلِهَتَنَا ولَمْ يَنْزِلْ بِهِمْ عَذَابُ اللَّهِ كَمَا تَزْعُمُ؟!.

والجوابُ المناسب الّذي قَدْ أَجابَهُمْ به قد اعْتَمَدَ فِيه على الإيمانِ بالْيَوْمِ الآخِر، وأنَّ مَرْجِعَ النَّاسِ جميعاً إلَىٰ اللَّهِ يَوْمَ الدّين، ليُلاقوا حسَابَهُمْ، وفَصْلَ القضاءِ فيهم، وتنفيذ الجزاء، فَمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالحاً دَخَلَ جنَّاتِ النَّعِيم، خالداً فيها مُخَلَّداً أبداً، ومَنْ كَفَرَ وأَجْرَمَ دخَلَ نارَ جَهَنَّمَ خالداً فيها مُخَلَّداً.

وهذا يَسْتَتْبِعُ أَنَّهُمْ قَالُوا له: أَتَخْشَىٰ أَنْ تَرْجِعَ إلَىٰ حياةٍ أخْرَىٰ بَعْدَ الموتِ للحِسَابِ والجزاء من قِبَلِ ربِّك؟!

وكان جوابُه: أَنَا إِلَيْهِ أُرْجَعُ وأنْتُمْ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، دلَّ على هذا قولُهُ لهم المذكورُ في الآية: ﴿... وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وهُنَا يَظْهَرُ لِلمُتَدَبِّر أنَّهُمْ دَافَعُوا عَنْ عَقِيدَتِهِمْ في آلِهَتِهِمْ، وأنّ دِفَاعَهُمْ عَنْها يتَلَخَّصُ بأنَّ عَبادَة هذه الآلِهَة تَنْفَعُ عنْدَ الرَّحْمٰن، فإذا عَبَدْتَها كانَتْ شفيعَةً لَكَ عِنْدَه.

والجواب الذي اخْتَارَهُ هذا الرَّجُلُ المؤمِنُ المجاهِدُ بلِسَانِهِ ومُحَاجَّتِه، هو ما دلَّ عليه القولُ المحكيُّ عنْه في النصّ:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾:

دلّ هذا النَّصُّ على أنَّ هذا الرَّجُلَ المؤمِنَ، قد وضَعَ قَوْمَهُ أصْحَابَ الْقَرْيَةِ أمَام بُرْهانٍ مَسْبُوقٍ بتجارب، وهذا البُرْهَانُ يَدْعَمُ إيمانه، ويُسْقِطُ مَفْهُومَاتِهِم الشركيَّة.

فالنَّصُّ يُوحِي بأنَّهُ قَالَ لَهُمْ: لَقَدْ جَرَّبْتُ آلِهَتَكُمْ فيما نَزَلَ بِي مِنْ ضُرٍّ فيما مضىٰ، فَدَعَوْتُهَا، وعَبَدْتُهَا، واسْتَشفَعْتُ بها، فلَمْ تُغْنِ عبادَتي ودُعَائي لها عنّي شيئاً، لأنَّ ما نزل بي من ضُرٍّ قَدْ كانَ من اللَّهِ عزّ وجلَّ، لا مِنْ آلِهَتِكُمْ، فإنْ كانَ لَهَا شَفَاعَةٌ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا تَزْعُمونَ، وكانتْ تَمْنَحُ شَفَاعَتَها لمن يَدْعُوها ويَعْبدُها، فقَدْ جَرَّبْتُهَا في هذا فلَمْ تنفَعْنِي شفَاعَتُها شيئاً.

إذَنْ: فَلِماذا أسْتَمِرُّ على عبادتها، وحالي مَعَها بَيْنَ يَدَي الرَّحْمٰنِ هو: إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ مُسْتَقْبلاً بِضُرٍّ، وعَبَدْتُها ودَعَوْتُها مُسْتَشْفِعاً بها، لا تَغْنِ عَنّي شفاعتها شيئاً عند الرحمن، ولا هي تُنْقِذِني بوسائل غَيْرِ الشفاعَة، ولا هي تَدْفَعُ عَنِّي الضُّرَّ الّذِي يُريد أن يُنْزِلَهُ الرَّحْمٰنُ بي.

ومعلومٌ أَنَّ الدَّلِيلَ التَّجْرِيبيَّ مِنْ أقوىٰ الأدلَّة لقياس الْمُسْتَقْبَل عليه.

وقد آثَر هذا الرَّجُل المؤمن أن يذكر من أسماء الله اسم «الرَّحْمٰن» لِيُشْعِرَ الْقَوْمَ بإيمانِه بأنَّ ما يُنْزِلِ اللَّهُ به من ضُرٍّ في الدنيا فإنَّهُ مظْهَرٌ من مظاهر رحْمَتِه، لا من مظاهِر غضبه ونقمته.

وقد سبَقَ أن ظهر لنا أن قومَهُ يُؤْمِنُونَ بأنَّ الرحْمَة من صفات اللَّهِ عزّ وجلّ مع عباده في الأرض، فهو الرَّحْمٰن، على خلاف عقيدة كثيرٍ من مُشْرِكي العرب الّذين كانوا يُنْكِرُون اسم الله الرحمٰن، ويَنْسُبُون صِفَة الرَّحْمَةِ إلى آلِهَتِهم الّتِي يَعْبُدُونها.

وبَعْدَ أنْ وضع هذا الرَّجُلُ المؤمن قومَه أمَامَ هذا البرهان التجريبيّ، الَّذِي جرَّبَهُ بنَفْسِه، أَعْلَمَهُمْ بأنَّه إذا اسْتَمَرَّ على الباطِلِ الَّذِي كَانَ علَيْه، فإنَّه إذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ واضحٍ جَلِيٍّ، دلَّ على هذا قولُه: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وأرَىٰ أنَّهُ اسْتَعْمل الفِعْلِ المضارع في عبارته، أو ما يماثِلُهُ في لُغَتِه، إذْ قال لقومه: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ على معنَى أَتُرِيدُونَ مِنّي أنْ أتَّخِذَ مُسْتَقبلاً آلِهةً من دون ربّي، وحَالي معهم بين يَدَي الرَّحْمٰن أنّي: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مُسْتَقْبلاً ﴿بِضُرٍّ﴾ يُنْزِلُهُ بِي مَادّيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ بدَلَالَةِ تَجْرِبَتِي السَّابِقَةِ مَعَهُمْ؟؟!

إنَّنِي أكُونُ إذاً بَعْدَ سَوابقِ التجارِب في ضلالٍ مُبِينٍ واضحٍ جَلِيّ، أي: في ضياع واضح، وفي مجافاةٍ بيّنَةٍ لطَرِيق الحقّ والْهُدى.

وهنا ظَهَرَتْ حُجَّةُ الرَّجُل المؤمن قَوِيَّةً واضِحَةً بُرْهانيَّة، وانقطَعَتْ حُجَجُ الْقَومِ وأُفْحِمُوا، فَلَمْ يَجِدُوا أمَامَهُمْ إلَّا أنْ يَنْتَصِرُوا لأنْفُسِهم بقَتْلِهِ، فَقَدَّمُوه للقَتْلِ.

فتَوَجَّه هذا الرَّجُلُ المؤمنُ المجَاهِدُ الصَّابِر الشُّجاع، قُبَيْل تَنْفِيذ الأمْرِ بقتله، لجماهير قومه المحتشدين، فنادَىٰ بأعْلَىٰ صَوْته مُتَحدِّياً داعياً، بما جاء في قول الله تعالى حكاية لقوله:

• ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وعقب هذا نَفَّذُوا فيه حُكْمَ الْقَتْلِ فَقَتَلُوه، فلفظ رُوحَهُ شهيداً في سبيل الله، دلَّ على هذا الحدَث المطويّ في النَّصّ من قصَّتِه:

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾: من البَدَهِيّ أنّ هَذا قَدْ كانَ بَعْد أنْ قَتلَهُ قومه، أي: أمَرَ الله ملائكةَ الرَّحْمَةِ أنْ تقولَ له: ادْخُلِ الجنَّة، فقالُوا له مُكَرِّمين: ادْخُلِ الجنَّة، إذْ لَفَظَ رُوحَهُ شهيداً في سَبيل الله، مجاهداً بأفْضَل أنواع الجهاد، وهي كَلِمَاتُ حَقٍّ وَصِدْقٍ ودَعْوَةٍ إلى دين الله، قالَها داعياً بها ذوي سُلْطانٍ كَفرَةٍ فجرَةٍ طُغَاةٍ بُغَاةٍ جبَّارِين.

والمرادُ بدخوله الجنَّة مَا جاءَ بيانُه فيما صَحَّ عن النبيّ ﷺ من أنَّ أَرْواحَ الشهداء، تَدْخُلُ فِي أجْوافِ طُيُورٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ معلّقةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ، تَسرَحُ من الجنَّةِ حيْثُ شاءَتْ، وتأكُلُ مِنْ ثِمَارِها.

وهذا في الحقيقة دُخولٌ جزئيٌّ في الجنَّةِ، وليس هو الدخول الموعُود به يوْمَ الدّين.

روَىٰ مُسْلِمٌ والتّرْمِذِيُّ عن ابْنِ مَسْعُودٍ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ تَحتَ الْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَت، ثُمَّ تأوِي إلَىٰ تِلْكَ الْقَنادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطّلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئاً؟.

قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي، ونَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجنَّةِ حيْثُ شِئْنَا؟!.

فَيُفْعَلُ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَمْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبُّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ إلينا أَرْوَاحَنَا في أَجْسَادِنا، حتَّىٰ نَرْجِعَ إلىٰ الدُّنيا، فَنُقْتَلَ في سبيلِكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

فلَمَّا رَأَىٰ أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حاجَةٌ تُرِكُوا».

وروى البخاريُّ ومُسْلمٌ والترمذيُّ عن أنسٍ قالَ: قال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الدُّنْيَا، وَإِنَّ لَهُ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرُ الشَّهِيدِ، فإِنَّهُ يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَىٰ مِنَ الكَرَامَةِ».

وعلى مَا جاء في حديث ابْنِ مَسْعودٍ، ينبغي أَنْ نَفْهم ما جَاءَ في القرآن منْ كَوْنِ الّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيل اللَّهِ أَحْياءً عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون، كما جاء في قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

وبَعْدَ أَنْ قالت الملائكة للرَّجُلِ المؤمِنِ المجاهد الشهيد في سبيلِ الله: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ ولَقِي مَا لَقِيَ من كرامَةٍ عظيمةٍ عِنْدَ ربِّهِ:

﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

نَادَىٰ وَهو في عَالَمِ الحياةِ الْبَرْزَخيَّة، وَلَا يَسْمَعُ الْبَشَرُ في الحياة الدُّنيا نداءَ المنادي من أهلِ الحياة البرزخيَّة، مَهْما رَفَعَ صَوْته.

نَادَىٰ مُتمنِّياً أَنْ يعلَمَ قَوْمُه الَّذِين قَتَلُوهُ، وفَرِحُوا بقَتْلِهِ انْتِقَاماً منه، بأمْرِ ثوابَيْنِ عَظِيمَيْنِ ظَفِرَ بِهما عنْدَ رَبّه:

الثوابُ الأوّل: أَنَّ رَبَّهُ غَفرَ لَهُ ذُنوبَهُ، أي: سَتَرَهَا فَلَمْ يُحَاسِبْهُ عليها.

الْغَفْرُ: في اللُّغَة هو السَّتْر.

الثوابُ الثاني: أنَّ رَبَّهُ جعَلَهُ من المكْرَمِينَ، وهم الّذِين خصَّهُمُ اللَّهُ،عزّ وجلّ بكَرَامَةٍ وإكرام منه، إذْ أَدْخَلَ أرْواحَهُمْ في أجوافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَأْوِي إلَىٰ قناديلَ معلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وتَسْرَحُ من الجنَّةِ حَيْثُ شاءَت، وتأكُلُ مِنْ ثَمَرِها.

رُوِيَ عَنِ ابن عباس أنّه قال بشأن هذا الرَّجُل المؤمن المجاهِدِ الشُّجَاع، نَصَحَ قَوْمَهُ في حَيَاتِهِ وبَعْدَ مَمَّاته.

فماذَا كانَ حالُ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ؟.

قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ:

• ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

• قرأ جمهور القرّاء العَشَرةِ: **[إنْ كَانَتْ إلاَّ صَيحةً واحِدَةً]** بِنَصْبِ: «صيحةً وَاحِدَةً» على اعتبار «كان» ناقِصَةً و«صَيْحَةً» خَبَرُها، أي: ما كانت وسيلة إهلاكهم إلَّا صَيْحَةً واحدة:

وقرأ أبو جَعْفَر: **[إنْ كَانَتْ إلاَّ صَيحَةٌ واحِدَةٌ]** على اعتبار «كان» تامَةً و«صَيْحَةٌ» فاعِلُها، أي: ما وُجِدَتْ إلَّا صَيْحَةٌ واحِدَةٌ جعلتهم خامِدِين.

فالمعْنَى: لَقَدْ أَهْلَكْنَاهُمْ بَعْدَ قَتْلِهِمُ الرَّجلَ المؤمِنَ الدَّاعِيَةَ إلَىٰ الله مِنْهُمْ بصَيْحةٍ واحِدَةٍ فَإِذَا هُمْ صَرْعَىٰ هَلْكَىٰ.

الصَّيحةُ: صَوْتٌ عظيمٌ يَقْتُلُ بالصَّدْمَةِ الصَّوْتيَّة الشَّديدة، وقَدْ أثبَتَتْ وَسَائلُ الْعِلْم المعاصِرَةُ أنَّ الصَّدَمَاتِ الصَّوْتِيَّة العظْمَىٰ قواتِلُ للأحياء، وقَدْ تُدَمِّرُ الْبُنْيَانَ وَغَيْرَهُ مِن الأشياء.

ودَلَّت عبارَةُ: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ على أنَّ إهلاكَهُمْ بالصَّيْحَةِ كَانَ

عَقِبَ قَتْلِهِمُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ دُونَ فَاصِلٍ زمَنِيٍّ كبيرٍ، وذَلِكَ لأنَّ الْخُمودَ يُسْتَعْمَلُ لانْطِفَاءِ النّار، وتَحوُّلِها فَحْماً أَوْ رَمَاداً، فدَلَّ استِعْمَالُ الْخُمُودِ هُنَا على أنَّ لَهيبَ غَضبِهم الَّذِي جَعَلَهُمْ يَقْتُلُون رَجُلَهُمُ الناصِحَ لهم، لأنَّه نَصَرَ المرسَلِينَ لَمْ يَنْطَفِئْ بقَتْلِهِمْ له، لكنَّهُ خَمَدَ بإهلاكهم، إذْ صَارُوا جَمِيعاً هُمْ وَنيرانُ غَضَبِهم الثّائر خَامِدِينَ، كَفَحْمٍ مُلْتَهِبٍ انْطَفَأَ دُفْعَةً واحِدَةً بصُورَةٍ مُفَاجِئَةٍ دَلّتْ عليها «إذا» الْفُجَائيّة، في عبارة: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾.

وبياناً لوَسِيلَةِ إهْلاكهم ذكر اللَّهُ عزَّ وجلَّ أنَّه لم يُنْزِلْ لإهْلَاكِهِمْ جُنْداً من ملائكة السَّمَاءِ، أي: كما أَنْزل لإهْلَاكِ قوْمِ لُوطٍ عليه السلام، أو غَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أهْلَكَهُمْ بإنْزَالِ جُنْدٍ من السماء. وذكَرَ جلّ جلالُهُ أنّ حالَ هؤلاء القوم ما كَانَ يَقْتَضِي أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللَّهُ إلّا بالصَّيحَةِ المميتَةِ لهم، فقال تبارك وتعالى:

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

وفي هذا دَفْعٌ لتَزَيُّدَاتِ المتَزَيِّدِينَ، وتَحْدِيدٌ قَدْ يُفِيدُ يوماً ما في مَعْرِفَةِ المراد بالْقَرْيَةِ، الّتي جاء ذكْرُهَا في هٰذِهِ الْقِصَّةِ القرآنِيّة، لاحْتِمَالِ أَنْ تكُونَ الصيْحَةُ قَدْ أَهْلَكَتْ كُفَّارَ القريَةِ، ولم تُغَيِّرْ شيئاً مِنْ معالمها ومَبانيها، واللَّهُ أعلم.

ولعَلَّ في هذا إشارةً إلىٰ أنَّ مَكَّةَ لَو قَضَتْ حكْمَةُ اللَّهِ بأن يُهْلِكَ كُفَّارَها يَوْمئذٍ، فلَنْ يُهْلِكَهُمْ إلّا بالصَّيْحَةِ، تكْرِيماً وَصِيَانَةً لِلْبَلَدِ الأَمِين.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبّر التحليليّ للدّرسِ الثالث مِنْ دُروس السورة وهو الآيات من (٣٠ ـ ٤٤)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿يَحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبًّا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾﴾.

القراءات:

(٣٢) • قرأ ابْن عامر، وعاصم، وحمزة وابْنُ جَمَّاز: **[لَمَّا]** بتَشْدِيدِ الميم، وهي هنا بمعنى «إلَّا» وعلىٰ هذِه القراءَةِ تَكُونُ «إنْ» في: **[وَإِنْ كُلٌّ]** حرف نفي بمعنى «ما» النافية، أي: وَمَا كُلٌّ إلَّا جميعٌ لدَينا مُحضَرُونَ، بَعْدَ بعْثِهِمْ للحياة الأخرىٰ، ليُلاقوا حسَابهم، وفصْل قضاء اللَّهِ فيهم، وجزاءَهُمْ على ما أسْلَفُوا في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا دار الابتلاء.

وقرأ بَاقِي القرّاء العشرة: **[لَمَا]** بتَخْفِيفِ الميم، وعلى هذه القراءة

تَكُون «إِنْ» في: [وَإِنْ كُلٌّ] هي المخفَّفَةَ مِن الثقيلة «إنَّ» ويكون اسم «إِنْ» ضَمِيرَ الشَّأْنِ، وتَكُونُ اللَّامُ في [لَمَا] هِيَ اللَّامَ المزَحْلَقَةِ، الّتِي يُؤْتَىٰ بها للتَّأْكيد. و«مَا» صِلَةٌ جِيءَ بِهَا لِزِيَادَةِ التَّأْكِيد.

(٣٣) • قرأ نَافع، وأَبُو جَعْفر: [الميّتَةُ] بِتَشْدِيد الياء.

وقَرأ باقي القرّاء العشرة: [الْمَيْتَةُ] بإسْكان الياء.

والقراءتان لغتان عَربيّتَان متكافِئَتَان.

(٣٤) • قرأ نَافع، وأبو عَمْرو، وَهِشَام، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلَف: [مِنَ الْعُيُونِ] بضَمِّ الْعَيْن.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مِنَ الْعِيُونِ] بِكَسْرِ العين.

ضمُّ عين العيون وكَسْرُها لُغتَانِ عربيّتان متكافئتان.

(٣٥) • قَرَأ حمزة، والكسَائي، وخَلَفٌ: [لِيَأْكُلُوا مِنْ ثُمُرِهِ] بضَم الثاء والميم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ] بفتح الثاء والميم.

«ثَمَرة» تجمع على: ثَمَرٍ، وثُمُرٍ، وثِمَارٍ، وأَثْمَار، ولفظ «ثَمَر» اسم جنس جَمْعي، يفْرق بينه وبين واحده بالتاء.

(٣٥) • قرأ شُعْبَة، وحمزة، والكسَائي، وخلفَ: [وَمَا عَمِلَتْ] بحذف الضمير، الذي هو مفعول به، ويعود على «ما» إيجازاً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَمَا عَمِلَتْهُ] بإثبات هاء الضمير.

والقراءتان من قبيل التفنُّن في التعبير، والمعنى واحد.

(٣٩) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، ورَوْحٌ: [وَالْقَمَرُ قَدَّرْنَاهُ] برفع «الْقَمَر».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ**] بنَصْبِ «الْقَمَرَ».

والقرَاءتان جائزتان عرَبيًّا، كما يُقَرِّرُ النحاة، لأن لفظ «الْقَمَر» قد اشْتَغَلَ عنه عامله بنَصْبِ ضَمِيره، وفي هذه الحالة يجوز الوَجْهان في القمر، النَّصْبُ والرَّفْعُ، أَمّا الرَّفْعُ فعلَىٰ أَنَّه مبتدأ، وأمَّا النَّصْبُ فعلَىٰ أَنَّه مَفْعُولٌ به لِفِعْلٍ مَحْذُوف مقدَّرٍ ذِهْناً يُفَسِّرُه المشتغِلُ عنه بضميره.

(٤١) • قرأ نَافع، وابْنُ عَامِر، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [**ذُرِّيَّاتِهِمْ**] بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**ذُرِّيَّتَهُمْ**] بالإفراد.

ومؤدَّى القراءتَيْنِ واحد، لأنَّ إضافة «ذُرِّيَّة» إلى ضَمِيرِ النَّاس يَشْمَلُ كُلَّ ذُرِّيَّاتِهم.

تَمْهيد:

يَبْدأُ هذا الدرس الثالث من دُروس السُّورة بآيَةٍ صَالِحَةٍ لأَنْ تكُونَ بدايَةً له، وصالِحَةٍ أيْضاً لأنْ تكون نهايةً وخِتَاماً للدرس الثاني، وهذا من لطائفِ سلاسِلِ الرَّبْطِ بَيْنَ الدروس في السُّورَةِ القرآنيَّة.

لقد تضمَّن الدّرس الأوّل من دُروس السورة كما سبَقَ في التَّدَبُّر خطاباً من اللَّهِ لرسوله محمّد ﷺ، يُبَيِّنُ فيه للناس تَعْرِيضاً آيَتَيْنِ من آياتِ صِدْقِه في نُبُوَّتِه ورسالَته:

الآية الأولى: آيَةُ القرآن الحكيم، الّذِي كانَ يَتَنَزَّلُ عليه من لَدُنْ عزيزٍ رَحِيم.

الآيَةُ الثانية: آيَةُ صِفَاتِه العظيمة الّتي يتحلّىٰ بها صلوات اللَّهِ وسلامُه عليه، والّتِي هُو بها على صِرَاطٍ مستقيم.

ويُبيّن للرَّسُول فيه مَسْؤولياتِ رسالَتِه تجاه كُبراء مشركي مكّة، إبَّان نُزول سورة (يسٓ).

ويبيّنُ له فيه الطَّوْر الّذي وصَلَ إلَيْه أكْثَرُ قَادَةِ كُفَّارِ مكّة إبّانَ هذه المرحلة من مراحل دَعْوتِه ﷺ.

أمّا الدَّرْسُ الثاني من دُروس السُّورَةِ، فقد تَضَمَّنَ تَوْجِيهاً للرَّسُولِ أنْ يَضْرِبَ لكُفَّارِ مكَّة يومَئِذٍ مَثلاً تاريخيًّا مُشَابهاً لِبَعْضِ حالهم، لعلَّهم يعتبِرُونَ به.

وهذا التوجِيهُ هو في الحقيقة تَوْجِيهٌ من اللَّهِ لهم بأسْلُوبٍ غَيْرِ مباشِرٍ، فيه معنى الإعراضِ عَنْهُمْ، لكَثْرَةِ عنادِهِمْ وإصْرَارِهِمْ على الباطل، ومعاداة الحقّ الرَّبَّاني.

هذا المثل التاريخيُّ هو واقع حال أصحاب الْقَرْيَةِ الّتي جاءها المرسَلُونَ الثلاثة، فكَذَّبُوهم، وتَوَعَّدُوهم بالْقَتْلِ رَجْماً بالحجارة، وبعذَابٍ أَلِيمٍ، ثُمَّ قَتَلُوا الرَّجُلَ المؤمِنَ من أَهْلِ قَرْيَتِهِمْ الَّذِي جاء يَسْعَىٰ من أقْصَىٰ المدِينَةِ لِنُصْرَةِ الرُّسُل ببياناته ومُنَاظراتِه، فلمَّا أفحمهم قَتَلُوه، فأهلكهم اللَّهُ بالصيْحةِ، أي: بصَوْتٍ عظيم قاتل.

وأمّا الدرس الثالث الّذِي أتوكَّلُ على الله عزّ وجلّ في تدبره، فهو يتضمن بيانات إقناعية موجهة من الله عز وجل للقوم بأسلوب الحديث الموجَّهِ للغائبين، مراعاةً لحالَةِ إعراضِهِمْ أوْ إدْبَارِهِمْ عن تقبُّل بَيَانَاتِ الدَّعْوَةِ إلى الحقِّ، والنَّجَاةِ والْفَوْزِ بالسَّعَادَةِ الخالِدَةِ، مع مُلَاحظة حال الّذين لَمْ يَصِيروا ميْؤُوساً مِنْهُمْ من قَوْمه.

وابتدأ بالتعقيب على قصة أصحاب القرية المهلَكين بعبارة تتضَمَّنُ التَّحَسُّرَ على العباد الذين يُهلكون أنفسهم في العاجلة، ويُعرّضونَها للخلود في عذاب النار يوم الدين، بكفرهم وعنادهم وتكذيبهم رُسُل رَبّهم، واستهزائهم بهم.

التحسّر: أثر من آثار الرحمة التي تكون بسبب حلول المصيبة أو الخوف من حلولها.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٠﴾:

الْحَسْرَة عَلَىٰ الشيء: تأتي في اللُّغَةِ بمعْنَىٰ التأسُّفِ، والحزْنِ، والتَّلَهُّف، وقد يرافِقُ ذَلِكَ النَّدَمُ، وتلويمُ النَّفْسِ على ما كانَ منها، ممّا جَرَّ إلَىٰ ما اقْتَضَىٰ الحسْرَةَ والنَّدَم.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾: نداءٌ للْحَسْرَة، قالُوا: وهذا النداء على معنَىٰ: إنْ كانَ لَكِ وقْتٌ يَا حَسْرَةُ، فهذا أوانُ حُضُورِكِ.

وذكَر المفسّرون تخريجاتٍ أُخْرَىٰ، أرَىٰ أنَّها بَعِيدةٌ عَنْ أساليب الْقُرْآنِ الرَّفِيعة، مِنْهَا أَنَّ المنادىٰ محذوفٌ، ولفظُ «حَسْرَةً» منْصُوبٌ على أنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لفِعْلٍ مَحْذُوف، والتقدير: يا هَؤلَاءِ تَحَسَّرُوا حَسْرَةً.

أقول:

لِمَ لَا يكُونُ نداءً للحَسْرةِ أنْ تَنْزِلَ بمُكَذِّبِي الرُّسُلِ المستهزئين بهم، وهو على معنى: يَا عقاباً عادلاً انْزِلْ عليهم، فاشْمَلْ قُلُوبَهُمْ ونفوسهم بالْحسْرَةِ والنَّدَم، على ما كان منْهم من ظُلْمٍ وإثْمٍ وعنادٍ والْتِزامٍ بالباطل، ورْفضٍ للحقّ.

جاء في العبارة النداء للحَسْرَةِ، والمرادُ ما يُسَبِّبُها من العقاب والعذاب.

أو لِمَ لا يكونُ هذا التعبير ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ مِنْ بَابِ النُّدْبَةِ، والمعنى أنَّ حالَ هؤلاء العباد المستهزئين برُسُلِ رَبِّهم، حال مَنْ يَتوجَّعُ مُحِبُّوهُمْ والمشْفِقُونَ عليهم من الحسْرَةِ لأجلهم، إذْ يَسْعَوْنَ كادِحينَ إلى عذابِ النار خالدين فيها.

النُّدْبَة الّتِي ذكَرَها عُلَماءُ العربيَّة تكُونُ لمتَوَجَّعٍ على فَقْدِه، أو لِمُتَوَجَّعٍ مِنْهُ، أَوْ لِمُتَوَجَّعٍ لأَجْلِه.

وقد اسْتَعْمَلَ العرب صيغة النداءِ في النَّدْبَ تَوجُّعاً وَتَفَجُّعاً، وإنْ كان ما ذَكَرَهُ النَّحوِيّونَ مِنْ شُرُوط المنْدُوب غَيْرَ مُتَحقِّقٍ هُنَا، والأمْرُ يَسِيرٌ في أساليب التعبير.

وجاء المندوبُ هُنَا منْصُوباً دُون أَنْ يقْتَرِنَ بألِفِ النَّدْبَةِ الَّتِي تُزَادُ بَعْدَ المندُوب، لأنَّ النَّصَّ عبَّرَ عَنْ حالَةِ كُلِّ مَنْ يُتَحَسَّرُ لأجْلِهم، لا عَنْ حَالَةِ مُتَحَسّر لأجْلِهِ خاصّ.

وهذا الأسلوب ابْتكارٌ قُرْآنيٌّ، علَّمَنا اللَّهُ فِيه كيْفَ نُعَبِّرُ عن حالَةِ منْ سَيَسْقُطونَ في عواقب وخيمةٍ، تَجْعَلُهُمْ يتحسَّرُون على أنفسهم، وتَجْعَلُ آخرين من ذوي الألباب والرَّحْمَةِ والشفقة يتحسَّرُون عليهم، ويتوَجَّعُونَ من أجْلِهم، إذْ يَرَوْنَهُمْ يَسْعَوْنَ كادِحِينَ في مَسَالِكَ تُوصِلُهُمْ إلى شقائهم الأبديّ في عذاب النار، كالفراش الذي يَتَهَافت على الحريق، غَيْرَ أنَّ عذاب الكفار خالد، وعذاب حريق الفراشِ لَمْحة.

والتحسُّرُ في عبارة: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ كنايَةٌ عن تحقُّقِ نُزول العقاب فيهم، بسبب تكذيبهم رُسُلَ رَبِّهم، واسْتَهْزَائهم بهم.

والحاكم العادل قد يُوقع العقاب الشديد بمن يستحقه بمقتضىٰ العدل، وهو قد يتحسَّر على من يُنزِلُ به العقاب، إذ جنىٰ على نفسه باختياره الحرّ.

والعاقل الرحيم يشاهِدُ مُغَامراً يَقْذِفُ بنَفْسِهِ مِنْ شاهقٍ، اعتماداً على أنَّه يَسْقُط على ماء، وهو ماهِرٌ في السِّباحة، مع أَنَّه في الحقيقة يسْقُطُ علَىٰ صَخْرٍ يُحَطِّمِه، أو نارٍ تُحْرِقه، فيَصْرُخُ المشاهِدُ الرَّحيم به نَادِباً متفجّعاً مِنْ أَجْلِه، قائلاً: يَا حَسْرَةً عليه، قَتَلَ نَفْسَهُ، وقَذَفَ بها إلى العذاب.

أمّا السَّبب في سقوط أكْثر العباد في العواقب المشْقِيَة لهم، والّذي يسْتَدْعِي تَحَسُّرَ الْعُقَلاءِ الرُّحَمَاءِ من أجْلهم، فهو موقفهم من رُسُلِ اللَّهِ إليهم، إذْ يُكَذِّبونهم فيما يُبلِّغُون عن رَبّهم، ويَسْتَهْزِئُونَ بهم، وبِدَعْوَتِهم إلى دين الله الحق.

والعقلاء أولوا الألباب يَعْلَمُونَ أنَّ الاستهزاء بِدُعاةِ الحقّ، من وَسَائلِ الّذين يَعْجَزُونَ عن مواجهة الفكر بالفكر، والحجَّةِ بالحجَّة، والبرهان بالبرهان، فَيَرَوْن الاستهزاء، وسيلةً من الوسائل الّتي تُغَطّي عَجْزَهُمْ أَمَامَ أنفُسِهم، وأَمَام جماهِيرِ أتباعهم، لكنَّهُمْ حِينَ يملكُونَ الْقُوَةَ القتالِيَّةَ يُقَابِلُونَ بَراهِين الْعَقْلِ بحدّ السَّيْف، وقواتل الْحَدِيد والنّار.

هذا السَّبَب أَبانَه اللَّهُ عزّ وجلّ بقوله بشأن الْعِباد الَّذِين يُتَحَسَّرُ مِنْ أجلهم:

﴿..مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

«مِنْ» في عبارة: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ جيء بها لتأكِيدِ عُمُومِ النَّفْي والتَّنْصِيصِ علَيْهِ، وتُسَمَّىٰ زَائِدَةً لِهذا الْغَرَضِ.

الاسْتِهْزاء: السُّخْرِيَةُ بتَوْجِيهِ عباراتٍ وأَعْمَالٍ، فيها احْتِقَارٌ وازْدِراءٌ وتَنْقِيصٌ وتسْفِيهٌ لرأْيِ المخالفِ أوْ عَمَلِه.

ونستَخْلِصُ من هذا البيان في هذه الآية أنَّ الموقف الّذي وصَلَ إليه كُبَراء كُفَّار أَهْل مكَّةَ إبَّان نُزُول سورة (يسٓ) هو موقف مواجهة الرَّسُول ﷺ ودَعْوَتِه بالاستهزاءِ العلَنِيّ الصَّريح، إذْ لَمْ يَجِدُوا حُجَجاً فِكْرِيَةً قادرةً على مُنَازَلَةِ حُجَجِهِ وبياناتِه الحقّ في معارِكِ الفكْرِ والبيان، فلَجَؤُوا إلَىٰ وَسِيلَةِ الضعفاء السُّخفاء السُّفَهاء في منْطِقِ الفكر، وهي وسيلة الْهُزْء والسُّخرية، وتَتْبَعُها وسِيلَةُ السِّبابِ والشَّتائم.

أمّا الهزْءُ والسُّخْرِيَةُ فَيُشْبِهُهما ضَحِكُ الْقُرود، وأمَّا الشتائم فيُشْبِهُهَا عُواءُ الكلاب، وَمَا أَبعَدَهُما عَنْ أَدْنَىٰ مُسْتَويات الْفِكْرِ والإِنْسَانيَّة.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

• ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾؟!!.

أي: أَلَمْ يَرَوْا في آثارِ الْمُهْلَكِينَ السَّابقين إهلاكاً جماعيًّا شاملاً، ما يَدُلُّهم على أنّ إهلاكَهُمُ الشاملَ، قد كان بسبب تكذيبهم رُسُلَ رَبّهم، وتَكْذِيبهم بما جاءُوهم به من الحقّ، جُحوداً وعناداً وإصراراً على الباطل، واتّباعاً للأهواء والشهوات من زينةِ الحياة الدُّنيا، وإيثاراً للتقاليد العمياء الموروثَةِ عن آبائهم وأجدادهم.

﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾: **الْقُرُون**: جمع «القرن» والقرنُ من الناس أهْلُ زمَانٍ واحد.

لم يُواجِه الله عزّ وجلّ في هذه الآية المعنيّين بالخطاب المباشر، بل تحدَّثَ عنهُم بأسْلُوبِ الحديثِ عن الغائبين، لمقابَلةِ إدْبارِهم أو إعراضهم عن دَعْوة اللَّهِ ورسُوله، بالإعراض عن المواجَهَةِ بالخطاب، ومَعْلُومٌ أَنَّهم مُكَذِّبوا الرَّسُول إبّانَ تنزيل السورة، وأنّ الغرض إقناعُهم عن طريق تذكيرهم بالشواهد التاريخيَّةِ من قِصَص الْمُهْلَكِين السَّابقين، وهم ما بين مُدْبِرٍ ومُعْرِض.

فالمناسِبُ مخاطبَةُ المقبلِين عنْد التحدُّثِ عن المدْبرينَ أو المعرِضين الغائبين فِكْريًّا وَنَفْسِيًّا، لإسْمَاعِهِمْ مَا يتعَلَّقُ بِهم دون مواجَهةٍ لهم بالخطاب التكريميّ.

إنَّ إهْلاكَ اللَّهِ عزّ وجلَّ مُكَذِّبي الْقُرونِ السّابقة من القضايا المعروفَةِ لدَىٰ المعنيِّينَ بالحديث، فأخْبَارُ قوْمِ نوحٍ، وعادٍ، وثمود، وقوم لوطٍ، وأهلِ مَدْين، وفرعَوْن وجنودِه، وإهْلاكِ اللَّهِ لهم، لأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وقاوَمُوا رسَالاتهم مشاقّين مُعَادِين، أخبارٌ مُنْتَشِرَةٌ مَشْهُورَة، وقَدْ سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ التَّذْكيرُ بها، والآثارُ في الأرض شواهِدُ تُؤَكِّدُ هٰذِهِ الأخبار.

ونظراً إلى ظُهورِ هذِه الوقائع التاريخيَّةِ جاءَ في الآيَةِ استِعْمال فِعْلِ الرُّؤيَة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾؟! لأنَّ رُؤيَتَهُمُ الفكريَّةَ العلميَّةَ هِيَ منَ الوضوح بمثابَةِ الرُّؤيَةِ الْبَصَريَّة.

• ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾: ﴿كَمْ﴾ هُنا خَبَرِيَّة بمعنى: «كثير» وعبارة: ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيانٌ لإبْهَامِها، وهي في محلِّ نَصْبٍ على أنّها مفْعُولٌ به لفِعْل: ﴿يَرَوْا﴾.

والمعنى: ألَمْ يَرَوْا كثيراً مِنَ الْقُرُونِ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ.

• ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: هذه العبارةُ مختَزَلَةٌ مِنْ كلامٍ مُنْفصل عَنْ جُمْلَةِ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾.

إنّ هذه الجملة مُصَدَّرَةٌ باستِفْهامٍ يحْمِلُ معنَىٰ الإنكار عليهم، والتعجيب من أمْرِهم، إذْ لم يعْتَبِرُوا بإهْلاكِ اللَّهِ عزّ وجلّ مكذّبي القرون السابقة.

وممَّا يُثيرُ الإنكارَ والتعجُّبَ من حال هؤلاء الْقَوْم، أنّهم عَلِمُوا بإهلاك الله عزّ وجلّ مُكَذِّبي القرون السّابقة علماً يُشْبِهُ الرُّؤيَةَ البصريّة، ثُمَّ لَمْ يتَّعظُوا بذَلِكَ وَلم يَعْتَبِرُوا به، وانتهت الجُمْلَةُ عِنْدَ هذا الحدّ.

وبَعْدَهَا يَبْحثُ الذّهْنُ عَنْ سَبَبِ عدَمِ اتّعَاظهم واعتبارهم، بما جرى لمكذِّبي القرون السَّابقة، ويَتَساءَلُ:

• أبَلَغُوا من الحماقة أنْ يُعَرِّضُوا أنفسهم لإهلاك مماثِلٍ لإهلاكِ مُكذِّبي الْقُرون السابقة؟!

هذا مستَبْعَدٌ وفيهم الأذكياء الْفُطَناء.

• أيَشُكُّونَ في أَنَّ مُهْلَكِي الْقُرُونِ السَّابقةِ قَدْ أُهْلِكُوا بسبب تَكْذِيبهم رُسُلَ رَبّهم، والْعَمَلِ علَىٰ مَنْعِ رِسالَاتِه الَّتي أرْسَلَهُمْ بها من الانتشار؟!.

هذا احتمالٌ غَيْرُ مستَبْعَد، بسَبَبِ أنَّ الّذين أُهْلِكُوا مِنْ مكذبي الرُّسُل السَّابقين، لا يَرْجِعُون إلى الحياة الدّنيا، ليُخْبِرُوا بأنّ الله ـ جلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدْ أَهْلَكَهُمْ وعَذَّبَهم بسبب كُفرِهم وتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهم، وبأنَّهم يُلاقُونَ عنْدَ رَبِّهِمْ عذاباً في البرزخ، وبأنَّهُمْ يَترقَّبُونَ عَذاباً أليماً يَوْمَ الدّينِ في نَارِ جهنّم.

هذا الاحتمال دلَّت عليه عبارة: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾؟!

فالمعنى: أيَشُكُونَ في سَبَبِ تَعرُّضِ الْمُهْلَكِينَ السَّابقين للْهَلَاكِ الشَّامل، لأنَّهُمْ إليهم لا يَرْجِعُونَ، فَلا يُخْبِرُونَ بما جَرَىٰ لَهُمْ؟!.

ومع أنّ هذا الاحتمال احتمال ساقط لا يعْتَمد عليه أولوا الألباب، إلّا أنّه أقوى احتمالٍ يمكن أن يَتَذَرَّعَ به المكذبون المعاصِرُون للرسول محمّد ﷺ، على الرُّغم من ضَعْفِه وسقوطه وعَدَمِ صلاحيّته للاعتماد عليه.

وقد ابْتَعدَتْ عن هذا المعنى أذهان المفسّرين، إذْ تشَبَّثُوا بقيود الصناعة النحويَّة، وغَفَلُوا عن أنّ القرآن المجيد لهُ أسْلُوبُهُ الخاصّ في المحاذيف، وفي الاختزالات الإيجازيَّة الّتي يَكْشِفُ دَقائقها التأمُّل في المعاني وروابطها، وحُسْنُ التَّدَبُّر لمَا في القرآن المجيد من المثاني.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

سَبَقَ توجيه قراءتي [لَمَّا] بتَشْدِيد الميم و [لَمَا] بتخفيف الميم.

والمعنىٰ على قراءة [لَمَّا]: وَمَا كُلٌّ من الأوّلين والآخِرين إلَّا جَميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ، بَعْدَ بَعْثِهم للحياة الأخرى، ليُلَاقِيَ الممتَحَنُونَ في الحياة الدّنيا منهم حسابَهم، وفَصْلَ القضاءِ بشأنهم، وجزاءَهُمْ، على ما أسْلَفُوا في رِحْلَة الحياة الدُّنيا دار الابتلاء.

والمعنى على قراءة **[لَمَا]** بتخفيف الميم: وإنَّ الشَّأْنَ العظيم المؤكّد جدًّا أنّ العباد جميعهم لدَينا محضَرُونَ يوم الدّينِ للحسَابِ، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء. فإنْ هِيَ المخفَّفَة من الثقيلة، وهي مهملة عن العمل، واللّام في «لَمَا» تَسمّىٰ اللام الفارقة.

﴿جَمِيعٌ﴾ على وزن «فعيل» بمعنَىٰ: مَجْمُوعٍ، ضدّ متفرّق.

﴿لَدَيْنَا﴾: أي: عَنْدنا. «لَدَىٰ» ظرف مكان بمعنى «عند» وقد تستعمل في الزمان، وهي اسم جامد، وإذا أضيفت إلى ضَمِيرٍ قُلِبَتْ ألفها ياءً.

﴿مُحْضَرُونَ﴾: أي: مَسُوقُونَ قَهْراً حتَّىٰ يَحْضُرُوا لدَىٰ رَبّهم، لمُحَاسَبَتِهم، وفَصْلِ القضاء بشَأْنهم، ثم بَعْدَ ذلِكَ يكون تنفيذ الجزاء.

الحضور: نقيضُ الغيبة، يقال: «حضَرَ يحْضُر حضوراً» ضدّ «غَابَ يَغِيبُ غَيْبَةً». ويقال: حضر فلانٌ المجلس، ويقال: أَحْضَرَ فلانٌ الشَّيْءَ. ويُقالُ: أحْضَرْتُ الدَّائِنَ المالَ الذي له عندي.

والإحضارُ يكون بحسَب الغاية منه، فإذا كانت الغاية منه الحسَابَ وفَصْلَ القضاء، فالمُحْضَرُ يُسَاقُ إلى مجْلِسِ محاسَبَتِه وفَصْلِ القضاءِ بشأنِه، وإذا كانت الغاية منْهُ تَنْفِيذَ الجزاء، فالمحْضَرُ يُسَاقُ أو يُحْمَلُ إلى المكان المعَدِّ لتعذيبه.

وقد جاء في القرآن استعمال عبارة: «مُحْضَرُون» أو «مُحْضَرِين» بمعنَىٰ الإحضار لمجلِس الحساب وفَصْلِ القضاء لدَىٰ رَبّ العباد، وبمعنى الإحضار في دار العذاب المقضي به من الجزاء.

ودلائل السِّبَاق والسِّيَاق تُرْشِدُ إلى المراد بالإحضار، وظاهر هُنَا في هذه الآية أنّ الغرض من الإحضار هو الإحضار لمجلِسِ المحاسَبَةِ وفَصْلِ القضاء، وهذا الإحضار يكون بعْدَهُ الإحضار في دار العذاب، إذا كان المحْضَرُ من العباد المكذبين برُسُل الله، والمستهزئين بهم.

ولفظ [كُلٌّ] جاءَ التنوينُ فيه عوضاً عن المضاف إليه المحذوف، والتَّقْدير: ومَا كُلُّ مُمْتَحَنٍ من العباد في الدُّنيا إلَّا جميعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ لمحاسبتهم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، ثُمَّ لتنفيذ الجزاء عليهم أو لهم.

والتقدير على وفق القراءة الأخرى: وإنَّ الشَّأْنَ العظيم المرتقَبَ كُلٌّ ممتَحَنٍ من العباد في الدُّنيا لَمَا جَميعٌ لدَينا محْضُرون لمحاسبتهم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، ثمّ لتنفيذ الجزاءِ لَهُمْ أو عليهم.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

• ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

القراءات في هذه الآيات سبَق بيانُها وتوجيهها، وليس فيها ما يحتاج نظراتِ تكامُلٍ في المعنى، إذْ هي لغاتٌ عربيّة، ومنها مَا هو جائز إثباتُه وحذفُه.

تمهيد:

يُقَدّمُ اللَّهُ عزّ وجلّ في هذِهِ الآيات لمنْكِرِي الحياة بعد الموت يوْمَ القيامة للحساب والجزاء، دليلاً على قُدْرَتِهِ على إحياء الموتَىٰ، وهِيَ ظاهِرَةُ إحياء الأرض الميّتَة.

إنَّها آيَةٌ مِنْ آيات اللَّهِ المشهودَةِ بتكْرَارٍ للناس، إنَّ الأرض تكُونُ حيَّةً بأشجارِها وَزَرْعِها وثَمراتِها، ثُمَّ تَأْتِيهَا آجالُها فَتَمُوت، وتَبْقَىٰ لها بُزُورٌ تَحْمِلُ خرائطَ صِفاتها، وعواملَ حياتِها مَرَّةً أُخْرَىٰ، وهي كامِنَةٌ فيها، تتَرَقَّبُ الشُّروط، الملائمةَ لِعَوْدَتِها إلَىٰ الحَياةِ، وحينَ تتوافَرُ لها هذه

الشروط، تَنْبُتُ منْ جديدٍ، وتَعُودُ إِلَىٰ الحياة والنَّماء والْعَطاءِ والإثمار مِنْ جديد.

فَمَنْ جَعَلَ النَّبَاتَ الَّذِي مَاتَ وفَنِيَ يَعُودُ إلى الحياة مِنْ بَقَايا بُزُوره في الأَرْض، هل يَعْجَز عن إعادة الأحياء البشريَّة وغَيْرِها إلى الحياة، من بقايا تُخَلِّفُها، كَنَوَاةٍ صُغْرَىٰ في عَجْبِ الذّنب، قد تجتمع ملايين منْها على رأسِ إبْرَة دقيقة؟!

هذا ما اختاره الله ـ جلّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُه ـ في نظام خَلْقِهِ لإعادة الأحياء.

إنّ الله العليَّ العليم الحكيم القدير، لا يَعْجَزُ عن ذلك، ولا يَعْجَزُ أيْضاً عن إعادة الأحياء إلى الحياة بعْدَ الموت، ولو انْعَدَمَتْ كُلُّ بَقَاياها، ولوْ لَمْ يَبْقَ من ذرَّاتِ الحيّ ذَرَّةٌ واحدةٌ تَحْمِلُ خَريطَةَ صفاتِه، أو تحتوي على عوامل انْفِلَاقِهِ إلى الحياة مرَّةً أُخْرى.

لَقَدْ خلَقَ الله عزّ وجلّ الأحياءَ أوّلاً على وفْق قَدَرِه وقضائه السّابِقَين فيها، وقَدَرُهُ وقَضَاؤُه مَشْمُولٌ بِعِلْمِهِ المحيطِ بكُلِّ شيءٍ، وعِلْمُهُ جَلَّ جَلَالُهُ قد أَثْبَتَه في اللَّوْحِ المحفوظ.

فإذا شاء أَنْ يُعيدَ أيَّ كائِنٍ بَعْدَ انْعدامِهِ، فإنَّه يُعيدُهُ كما خَلَقَهُ في المرّة الأولىٰ، مطابقاً لقَدَرِهِ وقضائه، وهو جلَّ جلالُه يُعيدُهُ بأمْرِ التكْوين، يقولُ لهُ: «كُنْ» فهو يكون، وهذا بالنسْبَةِ إلى خالق الكون كلِّه، وَرَبِّ السَّمَاوات والأَرْضِ أمْرٌ يَسِيرٌ سَهْل.

لكِنْ قضَىٰ اللَّهُ بحِكْمَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ لإنْشَاءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ نظاماً، وأَنْ تكُونَ سُنَّتُهُ في الخلْقِ مُلْتَزِمَةً بالنظام الَّذِي وضَعَهُ لِنَفْسِهِ، ليُسَهِّل على عبادِه مَوْضُوعَ الإيمانِ بالبعث، حينما يُشَاهِدُونَ تكْرار حياة الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِها، تفجُّراً من الْبُزُور الَّتي تُخَلِّفُها الأشجار وسائر نباتاتِ الأرض.

التَّدبر:

قول الله تعالى:

• ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا . . . ﴿٣٣﴾﴾:

الآية: هي في اللُّغَةِ الْعَلامَةُ الّتي تتضَمَّنُ دَليلاً ما.

والآية في هذا النّصّ هي حُجَّةٌ بُرْهانيَّةٌ تقوم على قياسِ الغائب المتحدَّثِ عَنْه، على المشهود، مع تماثلهما في الصفات التي تَسْتَدْعي التماثُلَ في الحكم.

فكُلٌّ من الشاهد والغائب كان ذا حياةٍ ما، وفقدَ حياته، وكُلٌّ منهما ذو خَلَايا وَذَرَّاتٍ صُغْرَىٰ، وفي داخِلِ كلِّ خَلِيَّةٍ وَذَرَّةٍ خَرِيطَةُ صِفَاتِه الَّتي تَظْهَرُ فيه وهو حيٌّ، وَهذَا مَا يُسَمَّىٰ بالعوامل الوراثيّة، أو الجينات الوراثية عند عُلَماءِ الأحياء.

أيَعْجِزُ عن إعادة الأحياء إلى الحياة مرَّةً أُخرَىٰ، ومرَّاتٍ بلا نهاية، مَنْ يجعل الأشجار العظيمَة تعودُ إلى الحياة من بُزُورها الصغيرة، بل منْ نَوياتِ هذه البزور؟!

أيُتَصَوَّرُ عَجْزُهُ سُبْحانَهُ عن إعادة الحيِّ إلى الحياة بَعْدَ مَوْته وفناء جَسَدِه، وهو الذي سَبَقَ أنْ أعاد العُزيْرَ إلى الحياة بعد أن أَمَاتَه مئَةَ عام، وأعَادَ حِمَارَهُ إلى الحياة وهُوَ يُشَاهِدُ إنْشَاءَهُ، وأَعَادَ قَتِيلَ بَنِي إسرائيل إلى الحياة في عَهْدِ مُوسَىٰ عليه السلام، وجماهير بني إسرائيل يَنْظُرُونَ، وهو الَّذِي يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ موتها في أحْداثٍ متكَرّرة، وهو الّذِي بدأ خَلْقَ الأحياء ولم يكُونُوا شيئاً مَذْكُوراً؟!!.

إنّ الجواب الّذِي يَنْطَلِقُ من أفْوَاه أولي الألباب: اللَّهُ ـ جَلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطَانه ـ يُحْيِي الموتى متَىٰ شاء، وهُوَ علىٰ كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.

قول الله تعالى:

• ﴿... وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

أَتْبَعَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ دَليلَ إحياء الموتَىٰ من خِلَالِ لَفْتِ الأنْظَارِ إلَىٰ إحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتها، بالامتِنَانِ على عبادِه، بما تُنْتِجُ النَّبَاتَاتُ اللَّاتي صارت ذوات حياة بَعْدَ مَوْتها، منْ حَبٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ النَّاس، ويَتَلذَّذُونَ بأكْلِهِ مع تناوُلِ غذائِهِمْ منه. ومِنْ ثَمَرٍ تُخْرِجُهُ الأشجارُ، فيأْكُلُ منْهُ النَّاسُ غذاءً واسْتِمْتاعاً بُطُعُومِهِ اللَّذِيذة.

وأَتْبَعَ الله عزّ وجلّ هذَا الامتِنَانَ بالتوجيه لواجب شُكْرِهِ على نِعَمِه، أو التَّذْكِير به.

إنّ الامْتِنَانَ بطائفةٍ من نِعَمِ اللَّهِ علَىٰ عباده، اشتقاقاً من آيَةٍ كَوْنِيَّةٍ جاءَ لَفْتُ أنظار المتفكِّرين إلَىٰ كوْنِها إحْدَىٰ الآدِلَّة المتكرّرَةِ في أحداثِ الكَوْنِ على البعْثِ إلى الحياة يوْمَ الدْين، بُغْيَةَ حَثِّ أُولي الألبابِ على شُكْرِ اللَّهِ على نِعَمِه، لاجتيازِ رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدّنيا بالإيمان، والعمل الصالح، من فُنُونِ البيان الرَّفيع الّذي اشْتَمَلَتْ عليه آيات القرآن المجيد.

وهذا يَدْخُلُ فيما يُسمَّىٰ عِنْدَ عُلَماء البديع: «الإدْماج» وهو إدْخَالُ غرضٍ بياني في غَرَضٍ آخر، أو إدخال فكرة في فكْرَة، والتذكير بواجب الشكر في العبارة الأخيرة: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ لَا يُلْغِي فيما أرىٰ بَدِيعيَّة «الإدْماج» في فقراتِ النّصّ قَبْلَها، بل هو يَكْشِفُ الفكرة المدمجة.

• ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾: أي: وأخْرجْنا مِنَ الأرض الّتِي أحْيَيْناها حَبًّا من مختلف الأجناسِ والأنْواعِ والأصناف، فمِنْهُ غذاءٌ، ومنْهُ دَوَاءٌ، ومنْهُ ذُو مَنَافِعَ أُخرَىٰ.

وبما أنَّ أَجلَّ مَنافِعِ الحبِّ أَنْ يأكُلَ مِنْهُ النَّاس قال الله تعالَىٰ: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وسَكَتَ النَّصُّ هُنَا عمَّا في الحبّ من منافع لدوابّ النّاسِ وأَنْعامهم، ومَا في الحبّ من منافع أُخْرَىٰ كثيرة، اكْتِفَاءً بذِكْرِ النَّفْعِ الأجلّ، ولِيَنْطَلِقَ ذهْنُ المتدبّر إلى مُلاحظَةِ المنافع الأخرى بنفسه، واكتفاءً بما جاء التّصْرِيحُ بِهِ في نُصُوص أخرى، منها قول الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

واشْتِقَاقاً من إحياء الأرْضِ بَعْدَ مَوْتها في امْتِنَان اللَّهِ على عباده بعَظِيم نِعْمَتِه، جاءَ في النّصّ التَّنْبِيهُ على ظاهرة الجنَّاتِ في الأرْض، وهي البسَاتين المستورَةُ أَرْضُها بأشْجارِها، وَخصَّ اللَّهُ عزّ وجلّ بالذِّكْرِ من الأشجار النّخيلَ والأَعْنَابَ، فَهُما صِنْفَانِ لَهُما قِيمةٌ عُظْمَىٰ لَدَىٰ الصَّفِّ الأوّلِ من المخاطبينَ بالنَّصّ، وهُمُ العرب، مع ما في هذَين الصِّنْفين من ميزاتٍ عظيماتٍ كَشَفَتْ عنها بُحُوثُ علماء النَّبَاتِ، وعُلَمَاءِ الْغِذَاء.

وجاء في النصّ أيضاً التنبيهُ علَىٰ ظاهِرَة العيُون الّتي يُفَجِّرها الله من الأرض لسُقْيا الجنَّاتِ، فتجري فيها أنهاراً أو سواقي، ولسُقيا النّاس ودوابّهم وأنْعَامهم، فقال الله تعالى:

• ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾: **الْجَعْلُ**: إذا كان منسوباً إلى اللَّهِ عزّ وجلّ فهو بمعنَىٰ الخلْقِ، ولو كان من التصاريف في مخلوقاته جلَّ جلاله، لأنَّ كُلَّ أَفْعَالِه ذواتِ الآثار التكوينيَّة خَلْقٌ، ولَوْ لَمْ يكن خَلْقاً من الْعَدم العامّ.

والضمير في: [فيها] يَعُودُ على الأرض في عبارة: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾.

﴿جَنَّٰتٍ﴾: جَمْعُ «جَنَّة» وهي ما يحتوي على أشجارٍ وثمارٍ وزُرُوع وأنهار، وقد تكونُ فيها قُصُورٌ، وتطْلَقُ «الجنّاتُ» على الحدائق والبساتين المكتَظَّةِ بالأشجار، فَهِيَ سَاتِرَةٌ لمَا تَحْتَها.

وأصْلُ مادَّةِ: «جَنَّ» تَدُورُ حَوْل معنىٰ السَّتْر.

﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ «النَّخْلُ» و«النَّخِيلُ» اسم جِنْسٍ جمعي، واحِدُه «النّخْلَة» وهي شجرة معروفة، وثَمَرُ ما يُثْمِرُ مِنْها البَلَحُ والتَّمْرُ.

وقَدْ ذُكِرَت هنا الشجرة لتَشْمَلَ المثْمِرَ من النخل، وغيْرَ المثمر، وهو مَا يكون للزينة ولمنافع أخرىٰ غير الأكل منها.

[وَأَعْنَابٍ]: «أَعْنَاب» جمع «عِنَبٍ» وهو ثَمَرُ الشجر الذي يُسَمَّىٰ كَرْماً.

وقد ذُكِرَ هُنَا الثَّمَر، دون ذكر اسْم الشجر لأنّ أَجَلَّ منافع هذه الشجرة يكُون في ثمَرِها، وجاء في الصحيح عن أبي هُرَيرة، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لَا تُسَمُّوا الْعِنَبَ الكَرْمَ»[1].

﴿وَفَجَّرْنَا﴾: التَّفْجِير: إخراج الشيء مُتَدَفّقاً بِقُوَّةٍ من باطِنِ شيءٍ آخَرَ حَاصِرٍ له.

ولفظ: [مِنْ] في عبارة: [مِنْ نَخِيلٍ وأَعْنَابٍ] لبيان الجنس.

وحرف: [مِنْ] في عبارَة: ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ للتَّبْعِيضِ، لأنَّ بَعْضَ العيون تتفَجَّرُ في البساتين، أو تجري أنهارُها فيها، وبعْضَ الْعُيُونِ تَتَفَجَّرُ في مواطِنَ أُخرىٰ لا تكون فيها بساتين وجنّات.

---

(١) رواه البخاري ومسلم، عن صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم ٧٣٣٠.

• ﴿.. لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾: في هذِهِ العبارَة بيَانُ عِنَايَةِ اللَّهِ عزّ وجلَّ بعباده، ورحْمَتِه بهم، إذْ جعَلَ لَهُمْ جنّاتٍ من شَجَرِ نَخِيلٍ وأَعْنَابِ ليَأْكُلوا مِنْ ثَمَرِ هذا الشَّجر، ومَعْلُومٌ أنّ الأَكْلَ أَجَلُّ مَنَافِعِها، ويُقاسُ على شجر النّخِيل والأعْنابِ سَائرُ الشجر، ويُقَاسُ على الأكْلِ سَائِرُ المنافع.

وحرْفُ [مِنْ] في عبَارَة [مِنْ ثَمَرِهِ] للتَّبْعِيضِ، أيْ: ليأكُلوا من بعْضِ ثَمَرِه أكْلاً مُبَاشراً. وأمّا بعضُهُ الآخر فيسْتفيدُ النَّاسُ منْهُ في غَيْرِ الأكْل.

• ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ﴾: أيْ: وليأكُلوا وليَنْتَفِعُوا ممَّا عَمِلَتْهُ أيْدِيهم، بالتصنيع من كلِّ ما يُخْرِجُهُ اللَّهُ لَهُمْ من نبات الأرض.

ومعْلُومٌ أنَّ أيْدِيَ النَّاسِ تَصْنَعُ من نباتاتِ الأَرْض مَأْكولَاتٍ تصِيرُ بالتَّصْنِيع صالحةً للأكل، أو صالحة لمنافع كثيرة غير الأكل، وكُلُّ ذلِكَ بتَوْفيق الله، وبما سخَّرَ الله للناس في ذواتهم وفي الأشياء من مسَخَّراتٍ كثيرات، يصْنَعُونَ منها صناعاتٍ لا حَصْرَ لها.

﴿.. أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾: استفهامٌ فيه معنَىٰ الحثّ على القيام بواجب شُكْرِ اللَّهِ على نِعَمِهِ الكثيرة، وفيه معنى الإنكار الشديدِ على جاحدِي نِعَمِ اللَّهِ عليهم، أي: إنَّ عَدَمَ شُكْرِهِمْ لرَبِّهِمْ مَعَ كُلّ هذِهِ النِّعَم الّتي يُنْعِمُ بها عَلَيْهِم لأَمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ جدًّا، ويَدْعُو إلى اشْمئزاز ذوي النفوس السّوِيَّةِ الرَّشيدة.

الشُّكْر: مقابلَة إنْعَامِ المنْعِم بما يُرضِيه من فِعْلِ ما يُحِبُّ، وتَرْكِ ما يكره، وطاعَتِه في أوامره ونواهيه. وقد يَشْمَلُ القوْلَ الّذِي فيه ما يُرْضي المنْعِمَ، إلَّا أَنَّ بعْضَ الْقَوْلِ يخْتَصُّ بعنوانِ الْحَمْدِ والثناء.

❀ ❀ ❀

قوله اللَّهِ تعالى:

• ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

تمهيد:

في هذه الآية يُوَجِّهُ الله ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ أنظار المتفكّرين، لآيةٍ عظيمةٍ من آياتِ رُبُوبيَّتِه المنْبَثَّةِ في الكَوْن، إذْ نظَّمَ الخلْق وَفْقَ سُنَّةِ الزَّوْجية، الّتي يُتِمُّ فيها كُلٌّ من الزَّوْجَيْنِ صَاحِبَهُ، لِيَنْفَرِدَ اللَّهُ عزّ وجلّ بالْوَحْدَانِيَّة.

وهذا النظامُ يشْهَدُ للرَّبّ الخالِقِ بأنَّهُ واحِدٌ أحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ، لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولَمْ يكُنْ له كُفُواً أحَدٌ، ولا صاحِبَةَ لَهُ ولَا نِدَّ.

ويُلاحَظُ في هذه الآيَةِ التنويعُ في البيان، إذْ جاء البيان فيها بأسْلُوب مشتَملٍ على تَغْيير النَّسَقِ في عَرْضِ آيَاتِ اللَّهِ في كَوْنه، على السُّنَّةِ المتَّبَعَةِ في القرآنِ، الّتي تُعْرَضُ بمقتضاهَا الأشباهُ دُونَ أنْ تُلْتَزَمَ فيها الوتيرة الواحدة، بَلْ يَجْرِي فيها التنويع.

لقد بدأ عرضُ آياتِ اللَّهِ في كَوْنِه أوّلاً بأسْلُوب الاستفهام الإنكاري، في قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾؟!

وجاء بَعْدَه اسْتخدام أُسْلُوب الْعَرْضِ الخبريّ، فقال الله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ثُمَّ جَاءَ اختيارُ أُسْلُوب افتتاح الْعَرْضِ بتَنْزِيه اللَّهِ فقال تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

إنَّ أَحْسَنَ كُتَّاب البشر يتَبَادَرُ لَهُ أَنْ يَقُولَ: وآيَةٌ لَهُمْ خَلْقُ الأَزْواج كلّها . . . عطفاً على مَا جاء قَبْلَها.

لكِنَّ فَنِّيَّةَ التَّنْويع الإبداعيّ دَعَتْ إلى مُفَاجَأَةِ المَتَلَقِّي بِعِبَارَةِ تَنْزيهِ اللَّهِ عَنِ الزَّوْجِيَّةِ ولوازِمِها قَبْلَ بَدْءِ عَرْضِ آيَةِ اللَّهِ الكَوْنِيَّةِ في خَلْقِهِ للأشياء، وفْقَ نِظَام الزَّوْجِيَّةِ الّذِي تَنَزَّهَتْ ذَاتُ الباري جلّ جلالُهُ عنه وعن كلّ تَعَدُّد وعن كلّ حاجة إلى نظير، إذْ هو واحدٌ أحدٌ، لا صَاحِبَةَ لَهُ وَلَا وَلَد.

﴿سُبْحَٰنَ﴾: كلمة تَنْزيهٍ، فمَعْنَىٰ «سُبْحانَ اللَّهِ»: تَنْزِيهاً للَّهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَليقُ بجلالِه وعظيم سُلْطانه.

وتُسْتَعْمَلُ هذِهِ الكلمة في التَّعَجُّبِ وفي التعجيب.

وهي في موضع مفعول مطلَقٍ لِفِعْلٍ مَحْذُوف، قال النَّحْويُّون وهي اسْمُ علَمٌ لمعنى البراءة، والتنزيه، وليْس لها فعْلٌ من لَفْظِهَا، وهي ممنوعَةٌ من الصَّرْفِ إلَّا إذَا أُضِيفَتْ.

وجاء في لسَان العرب لابن منظور: «وروى الأزهريُّ بإسناده، أَنَّ ابْنَ الكَوَّا سَأَلَ عَلِيًّا رضوانُ الله تعالى عنه، عن «سُبْحَانَ اللَّهِ» فقال: كلمةٌ رضِيها الله لنفسه، فَأَوْصَىٰ بِهَا».

وأصْلُ السَّبْحِ في اللُّغَة الحركةُ السَّهْلَةُ الّتِي يحْصُلُ بها الانتقالُ مِنْ مكان إلى آخر، في الماء أو في الهواء برفق ولين، ومنه سبْحُ السَّمَكِ فِي الماء، وسَبْحُ الكواكب والنجوم في مسيراتها في أفلاكها.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾: **الأزواج**: جمْع «زَوْج» والأزْواج تُطْلَقُ بمعنَىٰ الأصناف والأنواع المختلفة في صفاتها، وتُطْلَقُ بمعْنَىٰ أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ لَهُ زَوْجٌ من جنْسِهِ، فَهُمَا يتكاملانِ في أَدَاءِ وَظِيفَتَيْهِما في الوجود.

ويُمْكِنُ حَمْلُ لفْظَةِ «الأَزْوَاجِ» في النصّ هُنَا على المعنَيَيْنِ معاً، إلَّا

أنّ النَّصّ مُوَجَّهٌ بقُوَّةٍ للتفكُّرِ في المعنَىٰ الثاني، وهو نظام الزَّوْجيَّة في الكَوْن.

إنَّ نظَامَ الزَّوْجيّة في الكَوْنِ يَبْدُو للمتَأمِّلِ فِيه، أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ اخْتَارَ أَنْ يَجْعَل أجناسَ خَلْقِه، وأنواعَهم، وأصْنَافَهُمْ، وأَفْرَادَهُمْ جَمِيعاً خَاضِعَةً لنِظَام الزَّوْجيَّةِ، لئَلّا يُشَارِكَ اللَّهَ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ في صِفَةِ الأَحَدِيَّةِ أَحَدٌ.

إنَّ هذا النظام يَبْدو أَنَّه مُطَّرِدٌ في الْوُجُود كُلِّه في كُلِّ ما خَلَقَ الله، أَدْرَكَ الباحِثُونَ مِنْهُ مَا أَدْرَكُوا، وغَابَ عَنْهُمْ منْهُ مَا هُوَ في عالَمِ الْغَيْبِ بالنِّسْبَةِ إليهم.

إنَّه مُلَاحَظٌ في الناس، وفي سائر الحيوانات، ومُلَاحظٌ في النَّبات، وقد لاحظَهُ عُلَماءُ طبائِعِ الأشياء الكونيَّةِ في الذَّرَاتِ، وفي الْقُوىٰ الكهربائية والمغناطِيسِيَّةِ، وفي كُلِّ مَا تَوَصَّلُوا إلى معرفةِ طَبِيعَتِهِ من شيءٍ في الكون.

وقد أَعْلَمَنا اللَّهُ عزّ وجلَّ بهذا النظام في عِدَّةِ نُصُوصٍ من القرآن المجيد.

(١) ففي سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول) أبان الله عزّ وجل أنَّه خلَقَ الزَّوْجَيْن الذكر والأنْثَىٰ مِن نُطْفَةٍ إذا تُمْنَىٰ، فذكَر قضِيَّةً ظاهرةً مشهودة، وهي الزَّوجيَّة القائمة على الذكورة والأنوثة، وقضيَّةً خفِيَّةً، وهي كوْنُ الذُّكُورَةِ والأُنُوثَةِ كِلَيْهِما مَوْجُودَتَيْنِ في نُطْفَةِ الذَّكر، الملَقِّحَةِ لبُيَيْضَةِ الأُنْثَىٰ، وهذه لم يتوصَّلْ إليها عُلَماءُ الْبَحْثِ الكوني إلّا في عَصْرِنا الحاضر، فهِيَ ممَّا في القرآن من إعْجازٍ عِلْمِي، فقال الله جلّ جلالُهُ فيها في معرض بيان صفات الرَّبّ تبارك وَتعالى:

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

(٢) ثُمَّ أنْزَلَ اللّٰهُ عزّ وجلّ في سورة (القيامة/٧٥ مصحف/٣١ نزول) قولَه مُبَيِّناً بعض مراحل خَلْقِ الجنين، مع تأكِيد أنَّ الذُّكورَةَ والأُنُوثة تَرْجعان إلى أصْلِ التَّكْوِينِ في مَنِيِّ الذكر:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

(٣) ثُمَّ أنْزَلَ اللّٰهُ عزّ وجلّ قَوْلَهُ في سورة (يسٓ/٣٦ مصحف/٤١ نزول) الّتي يجري تَدَبُّرُها على ما يفتح اللّٰهُ به:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

فأعْلَمنَا في هذه الآيَةِ أنَّ نِظَامَ الزَّوْجِيَّةِ في الكَوْنِ لَيْسَ خاصًّا بالنّاس، ولا بالأحْياءِ الأخْرَىٰ الّتي نَشْهَدُ نظامَها الزَّوجيَّ، بلْ هو نظامٌ تخضع له النباتات أيضاً، وتخضَعُ له أشياءُ أخرى لا نعْلَمُها.

وقد عَلِمَ النّاسُ في عَصْرِنا الحاضِر منْها عن طريق البحوث العلميَّةِ القائمة على التجربَةِ والملاحظة، نِظَام الزوجيَّةِ في الذّرّاتِ، ونظامَ الزَّوْجيَّةِ في الكهرباء، فعرَفنا الموجب والسَّالِبَ، ونظام الزَّوْجِيَّةِ فِي المغناطيس.

(٤) ثُمَّ أنْزَلَ اللّٰهُ عزّ وجلّ في سورة (الذَّاريات/٥١ مصحف/٦٧ نزول) بياناً كَشَفَ فيه سُنَّتَهُ فِي كُلّ مَا خَلَقَ اللّٰهُ منْ شيءٍ، وأنَّها قائمةٌ على نظام الزَّوْجِيَّة، فقال جَلّ جلالُهُ فيها:

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: نُبَيّنُ لكم هذه الحقيقة التَّكْوينيَّةَ رَاغبين أَنْ تَضَعُوها في ذاكراتِكُمْ أيُّها المتَلَقُّونَ المُتَدبِّرُونَ، فكُلَّمَا اكْتَشَفْتُمْ وُجُودَ نِظَام الزَّوْجيَّةِ في شيءٍ جَدِيدٍ كَانَ خَفِيًّا علَيْكُمْ، تذكَّرْتُمْ هذا البيان من تنزيلِ رَبِّكُمْ في كِتَابه

المجيد، فَعَلِمْتُمْ أنَّ هذا القرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْهُ، فازْدَاد إيمانُكُمْ بِهِ، وازْدَادَ إيمانكم بصِدْق نُبُوَّةِ ورِسَالَةِ مُبَلِّغِهِ عن رَبّه، محمَّدِ بن عبد الله ﷺ، وازداد حرصُكُمْ على اتِّبَاعِ تعليمات دين الإسلام، وأوامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ فِيهِ.

(٥) وَأخيراً أَنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّعْدِ/١٣ مصحف/٩٦ نُزُول) قولَهُ حَوْل موضوع الزَّوْجِيَّةِ نَفْسِه:

﴿.. وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ .. ﴿٣﴾﴾.

فأبانَ جلّ جلالُهُ في هذا النّصّ أنّ الزَّوْجِيَّة ليْسَتْ مُجرَّدَ تَعَدُّدٍ، بل هي زوجيَّةٌ من اثْنَيْن، كالذّكر والأنْثىٰ في الأحْيَاء، والموجِبِ والسَّالِبِ في الكهرباء، وهكذا إلى سائر الأزواج في الأشياء.

وهذا من إبداع اللَّهِ ـ جلّ جَلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانُه ـ في الْخَلْق، واخْتِيارٌ اختارَهُ سُبْحَانَهُ لكُلّ مَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ، لينْفَرِدَ بالأَحَدِيَّة.

فتأَمَّلِ التَّدرُّجَ الارْتقائِيَّ التكامُلِيَّ، في بيانات النُّصُوصِ الّتي وَرَدَت في القرآن المجيد، بشَأْن نِظَامِ الزَّوْجِيَّة، والذي اسْتَفَدْنَاهُ مِنْ تَتَبُّعِ تَرْتِيب نُزُولِ السُّوَر.

وبشأن نظام الزوجيَّةِ في الكون، نَسْأَلُ عُلَمَاءَ الكَوْنِيَّاتِ، كُلًّا مِنْهُمْ فِي مجال اختصاصِه، فَيُحَدِّثُونَنا عن معارفهم في مجالَات اختصاصاتهم، بما يُؤَكّدُ أنَّ نظام الزَّوْجِيَّةِ نظامٌ شاملٌ.

- نَسْأَلُ عُلَمَاءَ النبات عن نظام الزَّوجيَّةِ في عالَمِ النبات، فيُثْبِتُونَه، ويُوَضِّحُونَ خَصَائِصَهُ، وطُرُق اللِّقَاحِ فيه.

ويذكُرُون أنَّ مِنَ اللّقاحِ ما يَتِمُّ عن طريق الرِّياح، الّتي تَحْمِلُ الموادَ المَلَقِّحَةَ مِنَ الذُّكورِ إلى الإناث.

ومن اللِّقاح مَا تَنْقُلُهُ الحشرَاتُ بأَرْجُلِهَا وأجْنِحَتِها وأجْسَامِهَا من

الذُّكُورِ إلى الإناث، إذْ تَجْذِبُهَا الأزْهار بألوانها وروائحها، لتقومَ بهذِهِ الوظيفَةِ الحياتِيَّة.

ومن اللِّقَاحِ مَا يَتِمُّ ذَاتِيًّا عن طَرِيق النَّبَاتِ نَفْسِه.

• ونَسْأَلُ عُلَمَاءَ الحيوان عن نظام الزوجيَّة في عالم الحيوان، فَيُحَدِّثُوننا عن مكتَشَفات مُدْهشات، توصَّلُوا إليها خلال دراساتٍ واسعاتٍ وَدَقيقات.

• ونَسْأَلُ عُلَمَاءَ الذَّرَّة عن نظام الزَّوْجيَّةِ في عالم الذَّرَّاتِ، فيُثْبِتُونَهُ، ويُحَدِّثُونَنَا عن الْبُرُوتُون في نواة الذَّرَّة، وهو يَحْمِلُ شِحْنَةً كهربائية موجِبة، وعن الألكْتْرُون، الذي يَدُورُ في مَدارٍ حول النواة، وهو يَحْمِلُ شِحْنَةً كهربائيَّةً سَالِبَة، وهُمَا مترابِطَانِ في بناء ذَرَّاتِ هذا العالم المادِّي.

• ونلاحظ الطاقة الكهربائية إذْ نُمَدِّدُ أسْلاكَها في بُيُوتِنَا ومَتاجِرنا ومصانِعِنَا أزْواجاً، ونُدْرِك أنّ أحَد الزَّوْجَيْن موجِبٌ، وأنّ الآخَرَ سالب.

• ونُلاحظ الطاقة المغناطيسِيَّة المجهولَةَ الْهُوِيَّة، فنُشَاهِدُ أنَّ لَهَا قُطْبَيْنِ: أَحَدُهما موجب، والآخر سالب.

بعد هذه اللّمحة السَّرِيعَةِ عن نظام الزوجيَّةِ في الكون، يَنْبَغي لنَا أن نَقُول كما عَلَّمَنَا اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

❀ ❀ ❀

قول الله تعالى:

• ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ

عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

سبَقَ تَوْجِيهُ قِراءَتَيْ رَفْع (الْقَمَر) ونَصْبِه.

في هذا النصِّ وَجَّهَ اللَّهُ عزّ وجلّ أنظارَ النَّاسِ لِستِّ آياتٍ من آياته في كونه، الّتي تَرْتَبِطُ بِها مصالِحُ العباد في الأرض، وهي من آثار رحْمَةِ اللَّهِ بهم، وهي فيما بَيْنَها مترابِطَاتٌ مُتَشَابِكات.

الآية الكونية الأُولىٰ: دلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

هذهِ الآية اشتملَتْ على نِعْمَتَيْنِ عظيمتَيْن مِنْ نِعَمِ اللَّهِ على عباده، الّتي تَسْتَوْجِبُ مِنْهُمُ الشُّكْر، هما نِعْمَةُ اللَّيْلِ والنهار، إذْ هُمَا يتَعَاقَبانِ ضِمْنَ نِظَامٍ دَوْرِيٍّ لَا يَتَخَلَّفُ، يُسَبِّبُهما نِظَامُ دَوْرَةِ الأرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا تُجاهَ الشَّمْس. فالْمقدارُ الّذي لا يكونُ مواجِهاً للشَّمْسِ منَ الأرْضِ تَظْهَرُ فِيهِ ظُلْمَةُ اللّيل.

ونظامُ الدَّوَرَانِ مُسْتَمِرٌّ بدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ إلى مَا شاء الله.

وهذا من آياتِ اللَّهِ الْعُظْمىٰ في نِظَام الأبْعَادِ والحركَةِ، لتحقيقِ مصالح العبادِ بنِظَامِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، فَمَا يَتَحَقَّقُ مِنْ مَصَالِحَ في النَّهار لَا يتحقَّقُ في اللَّيْل، ومَا يتحقَّقُ من مصالح في اللّيل لا يتحقَّقُ في النهار.

• ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾: دَلَّتْ كَلِمةُ ﴿نَسْلَخُ﴾ في هذِهِ العبارة على أنَّ الظُّلْمَةَ هي الأَصْلُ في كَوْكب الأرض، وكلّ الكواكب المماثلَةِ لها، فإذا قَابَلَتْ جِسْماً مُضيئاً كالشَّمْسِ ظَهَرَ عليها الضِّيَاءُ، وانْكَشَفَتْ لأَبْصَارِ الرَّائين، ثُمَّ إِذَا انْعَدَمَتْ هذِهِ المقابَلةُ، عادَتْ لها ظُلْمَتُها الّتي هي الأصْلُ فيها وفيما حَوْلَهَا من الجوّ.

السَّلْخ: كَشْطُ جِلْدِ الحَيَوانِ عَنْ جَسَدِهِ الواقِعِ تَحْتَهُ، وكُلُّ شيءٍ يُفْصَلُ عن شيْءٍ آخر كان مُلاصقاً له كجِلْدٍ أو قِشْرٍ فَقَدِ انْسَلَخَ منْه.

ولمَّا كانَتْ حَرَكَةُ دَورانِ الأرْضِ حوْل نَفْسِها في مُقَابَلَةِ الشَّمس، تَعْمَلُ بنِظَامٍ ثابِتٍ دَقيقٍ، كانَ مَا يَبْتَعِدُ عَنْ مواجَهَةِ الشَّمْسِ من الأرْض بِتَأْثِير حركَةِ الدوران، يَبْتَعِدُ عنْهُ الضَّوْءُ شيئاً فشَيْئاً، وتَظْهَرُ ظُلْمَتُهُ شيْئاً فشيئاً، بمثابَةِ الْجِسْم الأسْوَدِ المظْلِمِ الَّذِي ينْسَلخُ عَنْهُ الجلْدُ الأبْيَضُ الْمُضِيءُ، فَيَعُودُ إلىٰ ظُلْمَتِهِ الأَصْلِيَّة.

فالعبارة القرآنيَّةُ جَاءَتْ مُعبِّرَةً بإيجاز بالغٍ تعْبيراً دقيقاً جدًّا، مشيراً إلى عِدَّة حقائق.

الأولى: أنّ الأَرْضَ مظْلِمَةٌ هيَ وما حولَها من الجوّ بحسَب الأصْل.

الثانية: أنَّ ضياءَ النَّهار الذي يظْهَرُ على الأرض، إنَّما يأُتيها من ضياء الشمس، ويكون في الجهة الّتي تُقَابل الشَّمسَ منها.

الثالثة: أنّ النَّهارَ يَبْتَعِدُ شيئاً فشيئاً بمقدار نِسْبَةِ حَرَكة الدوران، ويكُون هذا من الجهَةِ الّتي يبْدأُ فيها ظُهُورُ اللّيْلِ شيئاً فشيئاً، كما ينْسَلِخُ جِلْدُ الحيوان عَنْهُ شيئاً فشَيْئاً.

الرابعة: أنَّ هذِهِ الظّاهِرَةَ تَسْتَلْزِمُ أنْ تكُونَ حركةُ الأرضِ في اتّجاه الشَّمْسِ حَرَكَةَ دَوَرَانٍ حَوْلَ نَفْسِها.

وهذه الحقائق هي الّتي أثبتَتْهَا الدراساتُ العلميّة الإنْسانيّة، وأكَّدَتْها الْعُلومُ المعاصرة، ولم تَكُنْ مَعْرُوفَةً للنّاسِ من قَبْل.

• ﴿.. فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾: هذِه العبارةُ تُؤكِّدُ أنّ الأرْضَ مظْلِمَةٌ هِيَ وما حَوْلَها من الجوّ بأصْلِ تَكْوينها، وأنّ الضّياء هو الذي يأتي من الخارج، فيُغَطّي أصْلَ ظُلْمَتِها إذْ يكْشِفُ سُطوحَها، فإذا ذَهَب عنْها الضياء

عادَتْ إلىٰ أصْل ظُلْمَتِها ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾: أي: فإذَا هُمْ يُفَاجَئُونَ بأنَّهُمْ داخِلون في الظلام.

يقال لغة: أظْلَمَ الْقَوْمُ، أي: دَخَلُوا في الظَّلَام.

فما أبْدَعَ التعبير القرآنيَّ عن هذهِ الظَّاهرة من ظواهر آيات الله في كونه!! القائم على استعارة فعل [نَسْلَخُ] للدلالة على معنى انحسار النهار شيئاً فشيئاً عن الأرض عند توالي حركة الغروب.

الآية الكونيّة الثانية: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي﴾: **الجَرْيُ:** السَّيْرُ المنتظم، يُسْتَعْمَلُ لذِي الأرجُلِ، ولِلْمَاء، ولِكُلِّ سائرٍ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إلى مكان آخر.

﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾: **المستَقَرُّ:** مَكَانُ الاستقرارِ، وزمَانُهُ، ومَصْدَرٌ ميميٌّ بمعْنَىٰ الاسْتِقرار.

كانَ يُدَرَّسُ في مادَّةِ العلوم الطبيعيَّةِ في أوائل الْقَرْنِ العشرين الميلادِي، أنَّ الشَّمْسَ ثابِتَةٌ لا تَجْرِي، وأنَّ الأَرْضَ والكواكبَ منْ حَوْلِ الشَّمْس هيَ الّتي تَجْري حولَها.

وانْطَلَقَتْ يَوْمَئِذٍ الأسْئِلَةُ حَوْلَ مخالَفَةِ الآيَةِ القُرْآنِيَّة لمَا هُو مُقَرَّرٌ في الْعُلُومِ الكَوْنِيَّةِ الإنْسَانِيَّة، وقامَتْ جَدَلَيَّاتٌ بيْنَ المؤمنينَ بالْقُرآن، والمؤمنينَ بمقالَات الْعُلوم، دون تحفُّظٍ، فِتْنَةً بما يَذْكُرُهُ عُلَمَاءُ الكَوْنِيات.

ثمّ تَقدَّمَتِ البحُوثُ العلميَّةُ الفَلَكِيَّةُ، وأثْبتَ الْعُلَمَاءُ الفلكيُّونَ أنّ الشَّمْسَ بالنِّسْبَةِ إلى مَجْمُوعَتِها الدَّائِرَةِ حَوْلَها والّتي هِيَ أُسْرَتُها ثَابِتَةٌ، لكِنَّهَا مَعَ كُلِّ أُسْرَتِهَا تَجْرِي بحَرَكَةٍ خَاصَّةٍ في فَلَكٍ أكْبَر ضمْنَ المجرَّة.

فهي بالنِّسْبَةِ إلى أُسْرَتِهَا ثَابتَةٌ، لكنَّها بالنِّسْبَةِ إلى وَضْعِها مع أُسْرَتِها

في المجرَّةِ جاريَةٌ غَيْرُ ثَابِتَةٍ، فهي كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿تَجْرِى﴾ وظَهَرَ بهذَا نَقْصُ الْعُلُومِ الإنْسَانيَّةِ الأولى، الّتي كان يَقُولُ بها عُلَمَاءُ الدّراسَاتِ الكونية، وظَهَرَت مطابَقَةُ الْبيانِ القرآنيّ للحقّ والواقع، وظهَرَتْ مطابَقَةُ كَلِمَةِ اللَّهِ البيانيَّةِ، لآثار كَلِمَةِ اللَّهِ التكوينيَّة في الكَوْنِ.

وهذِهِ إحدىٰ أمْثِلَةِ الإعْجَازِ الْعِلْميّ في القرآن.

أمّا المسْتَقَرُّ الّذِي يَتَوَقَّفُ جرَيانُ الشَّمْس عنده، والّذي دلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ في النّصّ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ فَهُو أمْرٌ من أمُورِ الغيب الذي سيَحْدُثُ مُسْتَقْبلاً، فَيَكُونُ للشّمس اسْتِقرار حتْماً، في مكان من الكَوْنِ، وزَمَانٍ من الدَّهر، ولَا يَزَالُ هذا الأمْرُ حتَّى الآن غَيْباً بالنِّسْبَةِ إلى الْعُلُوم الإنسانيَّة، ولهذا جاء تنكِيرُهُ، ولَمْ يُضَفْ إلى ضَمِيرِ الشَّمْس، بل جاءت العبارة ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾.

• ﴿.. ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾: أي: ذلك الجريَانُ المتْقَنُ الْعَجِيبُ، المسْتَمِرُّ لِبُلُوغِ مُسْتَقَرٍّ يتوَقَّفُ عِنْدَهُ جريانُ الشَّمس، في مَكَانٍ مَحَدَّدٍ مِنَ الكونِ، وَزَمَانٍ مُحَدَّدٍ من الدَّهْرِ، مَعْلُومٍ لله جلّ جلالُهُ، هُوَ مُبْرَمٌ بتقدير اللَّهِ الْعزيز العليم، ومُنَفَّذٌ بِقُدْرَتِهِ الَّتي يفْعَلُ بها مَا يَشَاءُ ويَختَار.

﴿ذَٰلِكَ﴾: جاء اسْتعمالُ اسم الإشارة الموضوع للمشار إلَيْهِ البعيد، لدّلَالَةِ على عظَمَةِ هذَا التقدِير، وهذا التَّسْيير.

﴿تَقْدِيرُ﴾: أي: تحديد مقادير حركة الشمس، وتحديد مقادير الأمكنة والأزمِنَة الّتي تَجْري فيها، وتَحْدِيد مقادير حَجْمِها بالنِّسْبَةِ إلَىٰ مجموعتها، وبالنِّسْبَةِ إلى مَجْمُوعات النجوم الأُخرى في السَّمَاوات.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: أي الْقَوِيُّ الْغَالب.

﴿ٱلْعَلِيمِ﴾: أي: البالِغُ الغايَةِ في شُمولِ عِلْمِهِ، لكلّ كَبِير مَهْمَا كَبُر، ولكلِّ صَغِيرٍ مَهْمَا صَغُر، وشمُول عِلْمِهِ للذَّواتِ وللصفات وللجواهِرِ وللأَعْراض، جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانه.

الآيةُ الكونيّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾:

الْعُرْجُون: الأعوادُ الّتي تَحْمِلُ التَّمْر، والْعُودُ الواحِدُ مِنْهَا يُطْلَقُ علَيْهِ لفْظُ «عُرْجُون» فإذا قَدُمَ ضَمُرَ واعْوَجّ، ولَوْنُهُ أصْفَر، فهو بهذِهِ الحالة يُشْبِهُ الهِلالَ آخِرَ الشهر.

وعن ابن عبَّاس «أنَّ الْعُرْجُونَ أصْلُ العِذْق» وهو الذي تتفرّع أعواد شمراخ التمر عنه:

أقول: مقْطَعُ أصْل العِذْق الذي يَحْمِلُ الْبَلَحَ المعَلَّقَ بأعْوَادِهِ، يُشْبِهُ الهلال آخِرَ الشهر.

ولَعَلَّ ما رُوي عن ابْنِ عبّاسٍ أَقْرَبُ إلى الواقع، وقَدْ شَبَّهَ اللَّهُ عزّ وجلّ به الْقَمَر وهو في آخِرِ الشَّهْرِ قَبْلَ يَوْمِ الْمَحاق.

إذْ هو يُشْبهُ بالنِّسْبَةِ إلى الناظر إلَيْهِ في الأَرْضِ أصْلَ الْعِذْقِ بَعْدَ قَطْع العِذْق عنه ويَبْقَى على ساقِ النّخلَةِ هذا الأصْلِ، فهو يُشبه الهلال آخر الشهر ولا سيما القديم منه، ويشبهُ أيضاً عوداً أصْفَر مُعْوَّجاً من الأعواد الّتي يَنْبُتُ عليها البلَح، وهذا التشبيه يناسب أهل النخيل.

ومنازِلُ الْقَمَر منازِلُ مَعْرُوفَةٌ لدَىٰ عُلَمَاءِ الْفَلَكِ، وتقدير هذه المنازل مِنْ آياتِ اللَّهِ الجليلَةِ العظيمةِ في الكوْن، وهي ناتجةٌ عن دَوْرَةِ القمر حَوْل الأرض، مع المحافظة على مُواجَهَتِه للأرض بوجْهٍ واحد.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾: جاء استعمالُ ضمير المتكلّم العظيم للدّلالَة على عَظَمَةِ تقدير منازِلِ الْقَمر تقديراً محكَماً مُتْقَناً.

والقمر جسْمٌ لا ضياءَ فيه، إلَّا أنّه يَعْكس نوراً ناتجاً عن انْصِبَابِ ضَوْءِ الشمس علَيْه، فالْوَجْهُ المواجِهُ للشمس منه في دورته الشهريّةِ حول

الأرض، يُعْطِي مِنَ النور بمقدار ما يَرىٰ سُكَانُ الأَرْض من هذا الْوَجْه، وبهذا تظهر الأهِلَّة التكامليَّة حتى يصير القمر بدْراً في منْتَصَف الشهر، ثم تظهر الأهلَّة التناقُصِيَّة، حتى ليلَةِ الْمَحَاقِ، التي لا يَرىٰ فيها سُكَّان الأرضِ شيئاً من وَجْهِ القمر المواجهِ للشمس، ويكون الْقَمَرُ بين الشَّمْس والأرض تماماً.

ويَدُور القمر حَوْلَ الأرض في مَدارٍ بَيْضِيٍّ.

وهذا التقدير المتْقَنُ البديعُ من عجائبِ صُنْعِ اللَّهِ في كَوْنه، ومن عنايته الجلِيلَةِ بعباده.

الآية الكونيّة الرابعة: دلَّ عليها قول الله تعالى في النَّصّ:

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ ... ۝٤٠﴾:

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾: أي: لَا الشَّمْسُ يَصْلُحُ لَهَا، ولَا يَتَسَهَّلُ لها، ولا يتيَسَّرُ لها.

يُقال لغة: لَا يَنْبَغِي لَهُ كَذا، أي: لا يَسْهُلُ له، ولا يُطَاوِعُهُ، وَلَا يَتَيَسَّرُ لَهُ، أَوْ لا يَصْلُحُ لَه، ولا يَكُونُ بَيْنَهما تَلاؤُمٌ أو قبول.

﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾: **تُدْرِك**: أي: تَلْحَق وتَبْلُغ وتَنال.

يقالُ لغة: أدْرَكَ الشرطيُّ المجرمَ، أي: لَحِقَهُ وبَلَغَهُ ونالَهُ قابضاً عَلَيْه، ويُقالُ: أدْرَكَ السَّهْمُ الْهَدَف، أي: أصابَهُ وثَبَتَ فيه.

ولَمَّا كانتِ الشَّمْسُ ذَاتَ جاذبيَّةٍ عظيمةٍ لِكِبَرِ حَجمها وَوَزْنِها بالنسْبَةِ إلَىٰ الْقَمر، كانت بطبيعَتِها مؤهَّلَةً لأَنْ تجذب الْقَمَرَ إليها، وتَبْتَلِعَهُ إذَا اقْتَرَبَ منها في دَوْرَته كلّ شهْرٍ حول الأرض.

لكِنَّ تقدير العزيز الْعَلِيم الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صنْعاً، قَدْ أحْكَمَ وضْعَ الجاذبيات، وتَقْدِيرَ الحَرَكاتِ والسُّرْعاتِ، فجَعل الشمس مع جاذبِيَّتِها

الفائِقَةِ للْقَمَرِ، غيْرَ قادرةٍ على اجْتِذَابِه إليها وابْتِلَاعِهِ، ما دَامَ هذا النظام قائماً بتَقْدِيرِ اللَّهِ وقضائِه وإجراءات خلْقِه.

لكِنْ قضىٰ الله عزّ وجلَّ أن يأتي يومٌ تجتَمِعُ فِيه الشَّمْسُ والقمر، فَيَنْدَمِجَانِ، وهذا يكونُ يوم القيامة، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾؟.

هذه الآية الإتقانيَّةُ في الكَوْنِ دَلَّتْ عَلَيْها عبارةٌ أدَبيَّةٌ سامِيَةٌ في أدائها البياني: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾: إنَّ سُلْطانَ الْقَهْرِ الرَّبَّانِيّ، وَحِكْمَةَ اللَّهِ العظيمة الّتي حَدَّدَت مقادير طَاقَاتِ الأشياءِ الّتي يُمْكِنُ أن تتغالَبَ في الكون، قد جعَلَتْ كلَّ طاقةٍ مَهْما عظمَتْ، مُلازمَةً للحدود الّتي حدَّهَا اللَّهُ لها، مُتْقِناً صنعَتَهُ فيها، فلا يَنْبَغي لذي القوّة العظيمة أن يتجاوز حدوده، إذْ جَعَلَ لذي القوّةِ الأضْعَفِ مُسَاعِدَاتٍ من جهاتٍ مختلفات، تمنَعُ عنه طُغْيانَ ذي الْقُوَّةِ الأشَدّ، وهذا يَرْجِعُ إلى ضابِطِ الْعَدْلِ، أحَدِ قَوانِينِ اللَّهِ جلَّ جَلَالُهُ في الكون، قال تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

فالشَّمْسُ لا يَصْلُحُ لها وَلَا يَسْهُل لها أن تُدْرِكَ القمر فتبتلِعه، لأنّ ضابط الْعَدْلِ المتْقَن بين الجاذبيات والحركات، يمْنَعُها من أنْ تَطْغَىٰ متجاوزة حُدودَها الّتي قَدَّرَهَا اللَّهُ لَها وقضاها.

الآية الكونيّة الخامسة: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿. . وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ . .﴾:

ما المراد بنَفْي سبْقِ اللّيْلِ للنهار؟

أقول: استُعْمِلَ السَّبْقُ في القرآن المجيد بمعنيين:

المعنى الأول: السّبْق الزّماني، أو المكاني.

المعنَىٰ الثاني: السّبْقُ المعنوي، كالتفوُّق في القوّة والْقُدْرَة، وكالتفوُّقِ في العلم، وكزيادة نِسْبَةِ الأعمالِ الصالحة، أو الأعمال السيئة، لدىٰ السابق، على ما لدى المسْبُوق.

وبالنظر إلى واقع اللّيلِ والنهار نُلاحظ أنّ الظُلمةَ بطبيعَتِها لا تَغْلِب الضوءَ، ولا تستطِيعُ أنْ تتفوَّقَ عليه، ولمَّا كانَ اللَّيْلُ حدَثاً يحْصُل بسَبَبِ غيابِ ضَوْءِ النهار، كان اللَّيْل بطبيعَتِه غَيْرَ غالبٍ للنهار ولا مُتَفوّقٍ عليه، بل النهار بضيَائِه هُوَ السَّابقُ المتفوّق على اللَّيْل كُلَّما وُجِدَتْ أسْبَابُ وجُود النهار، فيَتَوقَّفُ وُجُودُ اللَّيلِ على غيابِ النَّهار دُون العكْسِ، إذْ لا يَتَوَقَّفُ وجودُ النهار على غياب اللّيْلِ، بلْ يحدثُ النّهارُ بِمُجَرَّدِ إشراقِ الشَّمْسِ بضَوْئِها، وهذا مِن آياتِ اللّهِ في كونه.

ونلاحظ أيضاً أنّ اللَّيْلَ لَا يَسْبِقُ زَمَانَ حُدُوث النهار، ولا يَسْبِقُ مَكانَ حُدوثه، إذْ كلَّما وُجِد النّهارُ في أي زمانٍ وفي أيّ مَكانٍ انْعَدم اللّيل، فلا يكُونُ للَّيلِ سبْقٌ للنَّهار لَا في الزمان، ولا في المكان.

وقد أدّىٰ التَّعْبِيرُ القرآنيُّ كلَّ هذِهِ المعاني بأوْجَزِ كَلامٍ في قول اللّهِ تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ وهو من روائع البيان القرآني.

إنّ نظام مقادير الله في كوْنِه جعَلَ النهار وأسْبَابَه هي الغالبَةَ السَّابقَة لِلَّيْلِ وأسْبابه، كما جعَلَ نورَ الحقِّ هو الغالبَ لظلْمَةِ الباطل، وهذا سبْقٌ معنوي.

الآية الكونيَّة السادسة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿.. وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

التنوين في: ﴿وَكُلٌّ﴾ عِوَضٌ عن مضاف إليه محذوف، ودلَّ على أنَّ المحذوفَ جمعٌ عبارة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ مع أنّ الظاهر أنّ يُقال: يسبحان، لأنَّ الحديث في النصّ عن الشَّمْس والْقَمَر، لكِنَّ الذِّهْنَ حين يلاحظ الشَّمْس والقمر يُلاحظ معهما حركتي اللّيل والنهار، ويُلاحظ المجموعةَ الشَّمْسِيّةَ كُلَّها، ثُمَّ يَنْطَلِقُ إلى سائر النجوم والكواكب، ولمَّا كان نظامُ الرّبّ ـ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه ـ للأجرام السماوِيَّةِ قائماً على قانون السبْحِ في الفضاء ضمن مَسِيراتٍ ومَدَارَاتٍ مُحَدَّدَاتٍ لَا تتخطَّاها، جاء التعبير عنها بالجمع منزَّلَةً منْزِلَةَ العقلاء المدْرِكين المطيعين، وربما كان ذلك مراعاة لأحوال سُكَّانها من الملائكة والجنّ والإنس، وأنهم لا يستطيعون تغيير نظام الله فيها مهما اتخذوا من وسائل وأسباب.

الفَلَكُ: هو خطُّ السَّيْر المحدَّدُ في الجوّ، الذي يجري فيه النجم أو الكوكب، فلا يَحِيد عنْه بتقدير الله وقضائه، فهو يسْبَحُ في فراغه سبحاً.

والأفلاكُ خطُوطٌ ليْسَ لها معالم ترىٰ، لكنّ الأجرام السماويَّةَ لَا تَحِيدُ في مَسِيراتها عن أفلاكها المحدّدة لكلٍّ مِنْها.

هذا هو حال كُلِّ نُجُومِ السَّمَاءِ وكواكِبها، وقَدْ جاء القرآنُ بهٰذِهِ الحقيقةِ الكونيّةِ، على خلاف ما كان يعْتَقِدُهُ الأقْدَمُونَ من أَنَّها تَجْرِي على أجرامٍ صُلْبَةٍ، أو يَدُورُ بها فلَكَ صُلْبٌ هي مثبتَةٌ فيه.

ومُنْجزَاتُ الْعُلُومِ الكَوْنيَّةِ قد اكتَشَفَتْ ما سبقَ أنْ أبانَهُ القرآنُ، حوْلَ سَبْحِ النجومِ والكواكب في أفْلاكٍ لَهَا في فضاءِ السَّمَاواتِ، كما تَسْبَحُ الطَّائِرات.

وإذْ كان لكلِّ نَجْمٍ أَوْ كوكَبٍ فَلَكٌ يجري فيه، وهُوَ خاصٌّ به، جاء لفظ «فَلَكٍ» في النّصّ مفرداً.

فالمعنى: ولكلِّ نجم أو كوكبٍ فلكٌ خاصّ به يَسِير على خطّهِ سَابحاً لا يتعَدَّىٰ حُدوده، وهم جميعاً يسْبَحُونَ بانتظام عجيب، دون أن تتعارض أَوْ تتصادم، إلَّا إذا قدَّر الله شيئاً من ذَلِكَ وقَضَاهُ، وأجْرَاهُ بخَلْقِهِ في كونه، على ما يشاءُ من كلّ أمْرٍ حكيم.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

سبق تَوْجِيهُ قراءتي: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ و[**ذُرِّيَّاتِهِمْ**] وبيان أنَّ مُؤَدَّاهما واحدٌ، فالإفراد مع الإضافة إلى معرفة، والجمْعُ مع الإضافة إلى المعرفة نفسها، متكافئان في الدّلالة على العموم.

في هذا النصّ تَنْبيهٌ على آيَتَيْنِ من آيات الله الكونية، وهما مقترنتان ببيان نعْمتَيْن مِنْ نِعَم اللَّهِ على عبادِهِ الّتِي توجب عليهم الشُّكْرَ للرَّبّ المنعم جلَّ جلاله.

الآية الكونية الأولى: دلَّ عليها قول الله عز وجل في النص: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

إنَّهَا آيَةُ المراكبِ الْبَحْرِيَّة، الّتي أوحَىٰ اللَّهُ عزّ وجلَّ إلى نوحٍ عليه السَّلَامُ، أنْ يَصْنَعَ أوّلَ مركبَةٍ منها، فهي أُمُّ سائر المراكب البحريَّة، وقد جاء بَيَانُ هذا في القرآن الكريم، ومنه ما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكايةً لما خاطب الله به نوحاً عليه السلام:

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

فدلَّ هذَا النَّصُّ علَىٰ أنَّ تنْفِيذَ صُنْعِ الْفُلْكِ، وخُطَّةَ الْعَمَلِ، وهَنْدَسَةَ البناء، وتَحْدِيدَ الموادّ الّتي يُصْنَعُ مِنْها، ممَّا كانَ مَوْجّوداً في بيئَةِ نوح البدائيّة، وطَريقَةَ التَّنْفِيذِ أُمورٌ مسْبُوقةٌ بالْوَحْي الرَّبَّاني، ومَحْفُوفَةٌ بعِنايَةِ اللَّهِ وتَوْجِيههِ وتَسْدِيدِه، حتَّىٰ يبلُغَ الغايَة المقْصُودَة من صُنْع الْفُلْكِ، ضمْن إمكاناتِ نوحٍ عليه السلام، المتاحَةِ لَهُ في زمانه.

إنّ التَّنْبيه على آيَةِ المراكب الْبَحْرِيَّةِ يسْتَدْعي التَّفَكُّرَ فِي جُمْلَةِ قوانين رَبَّانيَّة جعل الله نظام الكون قائماً عليها.

فمنها القوانين التالية:

الأول: قانون الطفّو على الماء، وأسْبابُه وعوامله.

الثاني: قانون جَرْي الطّافي على الماء، وأسباب جَرْيِهِ، وتوجيهه بحَسَبِ المقاصِدِ الّتي يَقْصِدُها العباد.

الثالث: قانونُ نِسْبَةِ قَدْرَةِ الطَّافِي على الحُمُولَةِ الَّتي يُمْكنُ أنْ تُحْمَلَ عليه، دون أن يتعرَّضَ بالثِّقَلِ للغَرَقِ في الماء.

إلى غير ذلك من قوانين نظَّم اللَّهُ عزّ وجلَّ هَذِهِ الآيَةَ الكونيَّةَ على مُقْتضَيَاتِ الغايَةِ منْها.

وتأتي من رواء هٰذِه القوانين عِنَايَةُ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ بتَقْدِيرِ السّلامة من المخاطر المحيطَةِ بهٰذِهِ الآيَةِ العظيمة، فاللَّهُ تبارك وتعالى هو الّذي يُسَيِّر عبادَه في الْبَرِّ والْبَحْر، ويُلْحَقُ بهما الجوّ، إذ هو إمَّا جَوُّ الْبَرِّ وإمَّا جَوُّ الْبَحْر.

وقَد خاطب الله عز وجلَّ عبادَه في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) بقوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ... (٢٢)﴾.

وامْتَنَّ اللَّهُ عزّ وجل على بني آدَمَ بقوْلِهِ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول).

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ... (٧٠)﴾.

ففي هذا النصّ امتنانٌ بنِعْمَة اللَّهِ على بني آدم بأن حَمَلَهُمْ علىٰ مراكب في البَرِّ والْبَحْر، ودلَالَةٌ ضِمْنِيَّة على كون هذا الْحَمْلِ من آيات الله الدالّاتِ على عِلْمِهِ الشّامل، وحكمته الجليلة، وقدرته العظيمة، وعنايته ورحْمَتِه بعِباده.

وجاء في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) قول الله عزّ وجلّ خطاباً للناس:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ (١٢)﴾.

وقد دلَّ هذا النصُّ علىٰ أنَّ جَمِيع الْبَشَر الَّذِين تناسَلُوا مِنْ بَعْدِ الطُّوفان قد حَمَلَهُم الله عزّ وجلّ في الجارية، أي: في سفينةِ نوح عليه السلام، علىٰ معنَىٰ أنّ أصول ذرّاتهم قَدْ كانَتْ في أصْلَاب أجدادِهم الّذِين رَكِبُوا السَّفينَةَ ونَجَوْا من الغرَق، ولو كان هؤلاء الأجْدَاد قَدْ أُهْلِكُوا مع مَنْ أُهْلِكَ لم تكُنْ في الأرْضِ ذراري بشريَّة، فَحَمْلُ الأجداد في سفينة نوحِ الجارية وفي أصْلابهم ذرّاتُ ذَراريهم هو حمْلٌ للذّراري مع الأصول، وبهذا يكونُ الخطابُ مطابقاً للحقيقة والواقع، وعامًّا لكُلّ الناس الّذِينَ وُجِدُوا بَعْدَ الطوفان، والّذِين سَيُوجَدُونَ.

وفي هذا العرض امتنانٌ على الناس، مع الإشارة إلىٰ آية المراكب البحرية.

أمّا الآية التّي جاءت في النصّ من سورة (يسٓ) وهي قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾:

فقد جاء فيها البيانُ الصَّريحُ بأنَّ هذا الحمْلَ آيَةٌ من آياتِ الله في كونه.

أي: وآيَةٌ للعباد الّذين جاء الحديث عنهم في قوله تعالى في السورة:

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وهذه الآية آيَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لكلّ البشر، ما دامُوا يسْتَخْدِمون المراكب البحريّةَ لرُكوب البحار، وعُبُورها، وحَمْل أثقالهم عليها، ونَقْلِها إلى بلادٍ لم يكونوا بالغيها إلّا بشقّ الأنْفس.

الفُلْك: مركبُ البحر، يُطْلقُ على الواحد وغيره، ويُذَكَّرُ ويُئَنث، يقال: هذا فُلْك، وهذه فُلْك.

المشحون: أي: المملوءُ رَكَّاباً وَأَحْمالاً. يقال لغة: شَحَنَ السفينة يشحَنُها، أي: ملأها ركَّاباً وأحمالاً.

الآية الكونيّة الثانية: دلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

يرىٰ المفسّرُونَ أنّ الجِمَال في الصَّحْراءِ هي المماثِلَةُ للسُّفُنِ في الْبَحْرِ، فهُمْ يركبون الجمالَ ويَحْمِلُونَ عَلَيْهَا أثْقالَهُمْ، وأَخَذُوا من قول الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ أنَّ التعبير بالخَلقِ الرَّبَّانِيّ يَسْتَبْعِدُ ما تَتَدخَّلُ فِيه الصِّناعةُ البشَرِيَّة.

أقول:

لسْت أرىٰ مانعاً من جعل النَّصّ يشْمَلُ كُلَّ المراكب البرِّية، جمالاً كانَتْ أو خَيْلاً، أو بغالاً، أو حميراً، أو غيْرَ ذلك.

ولسْتُ أرى مانعاً من جعْلِه يشْمَلُ المراكب التي يصْنَعُها الناس، لأنَّهم لَا يصْنَعُونَها إلَّا بإلْهامٍ من الله وتوفيقٍ، وإمدادٍ منه لهُمْ بالمعُونَةِ والقوَّة، وتَسْخِير المسَخَّراتِ لهم في كونه، ولَا يُمْكنُ أن يسْتَفِيدوا من المسخَّرَاتِ إلَّا مِنْ خلال قوانين اللَّهِ الّتِي جعَلَ كوْنَه مقيَّداً بها، وهي خاضِعَةٌ لخلْقِ الله، كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه، فيما حكاه اللَّهُ عَنْهُ مُقِرًّا له في سورة (الصَّافَّاتِ/٣٧ مصحف/٥٦ نزول):

﴿. . وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

وبهذا الْفَهمْ يُمْكِنُ إدْخالُ كلّ المراكب البريَّةِ والجويَّةِ والبرمائيَّة، وغَيْرِها، وكُلّ ما يُمْكِنُ أن يُسْتَحْدَث من مراكب.

والتعبير بالفعل الماضي في: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ يُحْمَلُ علَىٰ معْنَىٰ: وَقَدَّرْنا وقَضَيْنَا، إذْ قضاءُ اللَّهِ وقدَرُهُ من الأمور النافِذَةِ حَتْماً، ولَوْ كانَتْ بوسَاطَةِ إلْهَام اللَّهِ للعباد، وتَمْكينِهِمْ، من التنفيذ، وتسْخِير المسخَّرَاتِ لهم، لأنَّ ما سيَفْعَلُهُ العبادُ مَسْبُوقٌ بالْعِلْمِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي لا يُمْكِنُ تخلُّفُهُ.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

• ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

إنَّهُ لمّا كانت سلامَةُ راكبي المراكبِ البحريَّةِ وغَيْرِها لَا تتحقَّقُ إلّا بقضاء الله وقدره، وعنايَتِه ورحَمْتِهِ بعِباده، كانَ من الحكمة إيرادُ هاتَيْنِ الآيتَيْن، للتنبِيهِ علَىٰ فَضْلِ الله على عباده بِسَلَامَتِهِمْ في رِحْلَاتِهم البحريَّةِ وغَيْرِها، إذْ لو شاءَ الله عزَّ وجلّ إغراقهم لم تُغْنِهم وسائلُهم من الله شيئاً.

والمعنى: وإنْ نَشَأْ إغراقَهُمْ نُغْرِقْهُمْ، إذا كانوا في المراكب البحْرِيَّة، بوسِيلَةٍ من الوسائل التي لَا يَمْلِكُون دفْعَها ولا تحويلها، فإذَا صَرَخُوا مَسْتغيثين مسْتَنْجِدِينَ لَمْ يَجِدُوا مَنْ يُنجِدُهُمْ ويُغِيثُهُمْ ويُنْجِيهِمْ، إذْ لَا رَادَّ لِمَشِيئَةِ الله.

وكذلك يكُونُ حالُهم إنْ شاءَ اللَّهُ إهلاكهم في البرِّ أو في الجوّ، أو في أيّ موقع: بوسيلة غير الغرق، كإسقاط الطائرة أو إحراقها، أو نحو ذلك في المراكب البرّية.

الصَّرِيخُ: المغيث، ويُطْلَق هٰذا اللَّفْظُ أيضاً علَىٰ المسْتَغِيث، وعلى الاستغاثة، فيأْتي بمعنىٰ اسْم الفاعل، واسْم المفعُول، والمصْدر. والفعل منه: صرَخَ يَصْرُخُ صُراخاً وَصَرِيخاً، إذا صاحَ صياحاً شديداً، وإذا اسْتغَاث.

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾: أي: ولَا يُوجَدُ مَنْ يَنْقِذُهم من الهلاكِ، إن شاءَ اللَّهُ إهلاكهم.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾: أي: لكِنْ إذا شئنا أن لا نُهْلِكَهُمْ، فإنَّنَا نُنْقِذُهم، ممّا قد يتعرَّضُونَ لَهُ من مخَاطِرَ في مراكِبِهم، رحْمَةً منَّا بهم، ونبقيهِمْ أحْيَاءَ ليتمتَّعُوا متاعاً في الحياة الدنيا، إلَىٰ حين تأتِيهِمْ آجالُهُمْ بحسب أعْمَارهم المقضيَّةِ لهم في هذه الحياة.

المتاع: كُلُّ شيء يُنْتفَعُ به، والْفَنَاءُ يأتي عَلَيْهِ في الدنيا.



(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (٤٥ ـ ٤٧).

قول اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

تمهيد:

يَعْرِضُ هذا الدرسُ صورةً من صُوَر أحوال الكافِرينَ إبَّانَ تنزيل السّورَة، المعرضين عن دعْوَةِ الحقِّ، والمعرضين عن إنذاراتِ المنْذِرينَ لهم بعقاب الله، والمعْرِضين عنْ آياتِ اللَّهِ رَبّهم، غَيْرَ مُكْتَرِثهينَ لها، ولَا مُبَالِين بها.

وهٰذِهِ الصّورَةُ صُورَةٌ مَشْهُودَةٌ بتكرار فِي كلّ الكافرين من قَبْلهم ومن بعْدهم، فهِيَ في الحقيقة تُعَبِّرُ عَنْ جانِبٍ من واقِع أحْوالِ كُلّ الكافِرِين برُسُلِ اللَّهِ وبما جاءُوا به من عند الله، والْمُعْرضين عن تَدَبُّر آيات الله البيانيَّة المنَزَّلة، والتفكُّرِ في آيات الله الكونية، والاتّعاظِ بآيات الله الجزائيّة، والاقْتِناع بآياتِ الله الإعجازيّة.

التدبّر:

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

ذكر المختصُّون بعلُوم القرآن أنّ هذه الآية من السورة آيَةٌ نزلَتْ في المدينة، وقد ضُمَّتْ إلى سورة (يسٓ) المكيّة، وجُعِلَتْ في صَدْرِ هذا الدرس الرابع من دُرُوسها.

وبالتأمُّل ظهر لي أنَّ هذا الإجراء قد رُوعِيَ فيه اقتضاءان:

الاقتضاء الأول: أنّ عُتَاة كفّار مكّة إبَّانَ تنزيل السورة كَانُوا إذا قيل لهم: اتقوا الله أعْرَضُوا ولم يكْترِثُوا للإنْذار، فَمُنَاسَبَةُ السُّورة تَقْتَضِي ضَمَّ هٰذِهِ الآيَةِ إليها.

الاقتضاء الثاني: أنّ حال عُتَاة الكُفَّار في كلِّ عَصْرٍ مثلُ حال عُتَاةِ كُفَّار قُرَيش إبّان التنزيل، فاقتضىٰ هٰذا تأخيرَ إنْزَالِ هٰذه الآية إلى العهد

المدني، للإشعارِ بأنَّ الكافرين في كُلِّ عَصْرٍ تَنْطَبِقُ علَيْهِم الأوْصَافُ الَّتِي جاء بيانُها في هذا الدَّرْس، وإنْ كان البيانُ قدْ نزَلَ بشَأْنِ عُتَاةِ كُفَّارِ قُرَيش.

• ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾: ونتساءَل: ما هو الّذي بين أيْدِي الناس، وما هو الذي خَلْفهُمْ؟. أيُهما الماضي، وأيُّهما المستقبل؟.

والجواب على هذا يأتِينَا من التَّعْبيراتِ القرآنيّة، ومن التأمُّلِ الفكري.

فالتعبيرات القرآنية تدُلُّنا علىٰ أنَّ ما بَيْنَ يَدَيِ الشيءِ هُوَ مَا مضَىٰ وسَلَف، فقد جاء فيه وصفاً للقرآن، أنَّه مُصَدِّقٌ لمَا بيْنَ يَدَيْه، أي: للكُتُب المنزَّلَةِ قبْلَه، وجاء فيه بيانُ أنّ الرِّياحَ تَأْتي بُشْراً بَيْنَ يَدَيّ رَحْمَةِ الله للناس بالمطر، ونحو ذلك من استعمالاً، فدَلَّ هذا على أنّ المراد بعبارَةِ ما بيْنَ يَدَي الشيءِ هو ما سَلَفَ ومضىٰ، وأنّ المراد بعبارةِ ما خلْفَ الشيءِ هو ما يأتي مستقبلاً.

وأمّا التأمُّل الفكريُّ: فهو يَدُلُّ على أنّ الأحياء ذوي الإدْرَاك العلميّ، قد رَكِبُوا مركبَاتِ حيواتهم وَوُجُوهُهُمْ فيها وأعْيُنُهُمْ مُوَجَّهةٌ فَقَطْ للماضي، بَدْءاً من لحظة الحاضر، وأمَّا ظُهُورُهْم فَمُوجَّهَةٌ للمسْتَقْبَلِ الَّذِي لَا يُشَاهِدُونَهُ وَلَا يُشَاهِدُونَ أحداثهُ ولَا يَعْلَمُونَها حتَّىٰ تَتَحَقَّ في الواقع، فَهُو من خَلْفِ ظُهُورِهم.

أمّا مَرْكبَاتُ حيواتهم فهي سائرةٌ في اتِّجاه المستقبل، وهَذَا المستقْبَلُ هُو بالنِّسْبَةِ إليهم غَيْبٌ، وعِلْمُهُ عند الله جلّ جلالُه، كما قال تعالى في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

فتطابَقَتْ دَلَالَاتُ الْعِبَارَاتِ القرآنِيَّةِ مع المفهومات الفكريَّة، وقَدْ أخْطَأَ منْ رأىٰ أنَّ ما بَيْنَ يَدَيِ الشيء هو المستقبل، وأَنَّ ما خَلْفَهُ هُوَ الماضي.

■ أمّا ما سَلَفَ في الماضي ممّا يجبُ أنْ يُتَّقَىٰ فأمُران:

الأمْرُ الأول: العقوباتُ الّتِي أنزلها اللَّهُ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ، بكُفَّارِ الْقُرونِ السَّالفة، واتّقاء هذه العقوباتِ هو بمعْنَىٰ اتِّقاءِ نظيراتها الّتي يُمْكن أن تأتي في المستَقْبَل، لأنّ سُنَّةَ الله عزّ وجلّ في الأمم واحدة، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ الله تحويلاً.

أي: اتَّقُوا عقوبَاتِ اللَّهِ الَّتي هي أمْثَالُ ما سبَقَ بين أيديكُمْ، من عقوباته لكفَّار القرون السالفة، تطْبيقاً لِسُنَّتِه الثابتة.

ويمكن اتقاء هذه العقوباتِ بالتوبة والاستغفار، والإيمانِ والعمل الصالح.

الأمْرُ الثاني: ذُنوبُهم وجَرائِمُهُمْ، وكُفْرِيَّاتُهُمْ وشِرْكيَّاتُهُمُ السَّابقة، واتِّقاؤها هو بمَعْنَىٰ اتّقاء العقاب عليها، وهذا يكون أيضاً بالتوبة والاستغفارِ، والإيمان والْعَمل الصالح.

فالإيمان يجُبُّ ما قبْلَهُ، فيغْفِرُ الله الذُّنوبَ والجرائم، فلا يُعَاقب عليها، وبهذا يتحقَّقُ اتِّقَاءُ العقابِ عليها.

والمعنى على الأمْرَين: اتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ على ما قَدَّمْتم بَيْن أيديكُم من ذُنُوبٍ وجرائم بالتوبة والاستغفار وبالإيمان الذي يَجُبُّ ما قبله، وبالعَمَلِ الصَّالح الدَّالّ على صِدْقِ الإيمان.

■ وَأمَّا اتِّقَاءُ مَا خَلْفَهُمْ فيكونُ باتّقَاء عُقُوباتِ الله المستقبلَةِ في الدنيا والآخرة، وهو يكون بأداء ما أوجب الله من إيمانٍ وعمل، وباجتناب ما حرَّمَه الله على عباده من اعتقادٍ وعمل.

وبالتوبة والاستغفار، بَعْد ارْتكاب الذُّنُوبِ والمعاصي، والخوضِ في أوحالِ الأخطار، التي تجلُبُ عذاب العزيز القَّهار.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: اتَّقُوا مَا بَيْن أَيْدِيكم ومَا خَلْفَكُمْ لِتَرْحَمُوا. كلمه «لَعَلَّ» في مثل هذا تحْمل معنى التعليل.

وعلى تقدير أنها للترجِّي، فالمعنىٰ: اتَّقُوا رَاجين أن يَرْحمكم ربكم، فيغفر لكم، ويَحْميكم من عقابه وعذابه، ويمنحكم من فَضْلِهِ في العاجلة والآجلة، ويُرَجّيكُمْ برَحْمَته.

كلمة: «لَعَلَّ» تُسْتَعْمَلُ في القرآن بمعنَىٰ الترجية، وبمعني التعليل، وبمعنى لازِم الترجِيَة، وهو الرغبة والحبّ والودّ، والسّبَاق والسّيَاق والمعنى العامّ أمُورٌ تُساعِدُ على فهم المراد.

الرحْمة: صفَةٌ من صفات اللَّهِ عزَّ وجلّ من آثارها الحمايَةُ والحفظُ وعطاءاتُ النِّعْمَةِ الوافرة، والوِقايَةُ من عذابِ النّار، والإسْعادُ بدخول الجنَّة.

ويتساءَلُ المتدبّر للآية: أيْنَ جَوابُ شَرْطِ [إذَا] في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾؟

والجواب: أنَّهُ محذوفٌ لفظاً، مُقَدَّرٌ ذِهْناً، تَقْدِيرُه: أَعْرَضُوا، وقد دَلَّ عليه ما جاء في الآية التالية لها، وهي قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: فهم يقابلُون نُصْحَ الناصِحِينَ، ويُقَابلُونَ آيات رَبِّ العالَمِين بالإعْرَاض، وعَدَم الاكتراث.

الإعراض: منزلة وسْطَىٰ بين الإقبال والإدْبار، وأصل الإعراض

إعطاء الجانب، عُرْضُ الشيء في اللُّغَةِ جانبه، وعَارِضَا الإنْسان صَفْحتا خَدَّيه.

والمعرضُ عن الشيءِ يُشْعِرُ بعَدَمِ اهتمامه له، وعَدَمِ رَغْبَتِهِ فيه، وعَدَم العنايَةِ بفهم ما يَدُلُّ عليه، مهما كان ذا دلالَةً تُهِمُّ ذُوِي الألباب، لأنَّها تتعلَّقُ بمصيرِهِمْ سَعادَةً أوشقاءً.

عبارة: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ ...﴾ تَدُلُّ نصًّا على استغراقِ كلّ الآيات، بأنَّهم يُقَابلونها بالإعراض ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ دَلَّ النفي والاستثناء على أنّ مقابَلَتَهُمْ لآياتِ الله مَقْصُورَةٌ على إعراضهم عنها، فلا يَنْتَفِعُونَ مِنْهَا بشيءٍ ممّا هي آتيةٌ للدلالَةِ عليه، وفي هذه العبارة قصرٌ موصوف على صفة.

وآياتُ الله عزّ وجلّ تَشْمَلُ الآياتِ البيانيَّةَ المنزَّلَهُ، والآيات الكونيَّة الدَّالة على صفاتِ الخالق الرَّبّ العليم الحكيم القدير، وتشمل الآيات الإعجازيَّة التي يَشْهَدُ الله بها لرُسُلِه، والآيات الجزائية الدالة على صِفَتي عَدْلِ اللَّهِ وفَضْلِه.

الآية في اللّغة: العلامة، وبما أنَّ الله عزّ وجلَّ غيبٌ عن الحواسِ الظاهرة بذاته، فقد أقام في كوْنِهِ آياتٍ على صفاته، من مخْلُوقاتٍ ذوات قوانين مستمرّة، وتصاريف ذواتِ سُنَنٍ ثابتة، ومعجزاتٍ خارقاتٍ للسُّنَنِ شاهدات على صدْق الرُّسل، وشاهداتٍ على قُدْرَةِ اللَّهِ جلّ جلالُهُ على خَرْقِ قوانينه في كَوْنه، وأنزل تبارك وَتَعَالَىٰ آياتٍ بيانيَّةً فيها تعليم وهُدىً، ونورٌ وإعجازٌ، وإرْشادٌ إلى الصراطِ المستقيم.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

• ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾:

أبانَتْ هذهِ الآيةُ ظَاهِرَةً من ظواهرِ سُلُوكِ عُتَاة كُفَّارِ مَكَّةَ إبَّانَ تنزيل السورة، وهي في الواقع الإنسانيّ ظاهرةٌ متكرّرة لدى كلّ عتاة الكافِرِين بما جاء به المرسلون من لَدُنْ رَبّ العالمين.

إنّها ظاهرةُ شُحِّهم الشَّدِيدِ ببذْلِ الصَّدقاتِ لذوي الحاجاتِ والضّرورات، مع تعلُّلِهم الفاسِد بعلَّةٍ مضادّةٍ لحكمة ابتلاء الأغنياء بالفقراء، في ظروف الحياة الدنيا، إذْ يقولُون على سبيل الفتنة والتثبيط للمؤمنين: أنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ إطعامَهُ أطعمه؟ ويقولون لهم: إنْ أنتم إلا في ضلالٍ مُبينٍ في بذلكُمْ أمْوالكم للفقراء والمساكين، وفي دَعْوتِكُمْ لمسَاعَدَتِهم ومَعُونَتِهم وإطْعامِهم ورفْعِ المبؤسِ والضُّرِّ عَنهم.

إنّهم يَزْعمون في مقولتهم الباطلة، أنّ الله جلّ جلالُه قد أرَادَ أن يَجْعل الفقراء يُعَانُون متاعِبَ الْفَقْر وعذَابَه، وأرادَ أنّ يُهِينَهُمْ، لأنّهم لا يسْتَحقون غير ذلِك، فإذا أَطْعَمْنَاهم وسَاعَدْنَاهُمْ ورَفَعْنَا الضُّرّ والبؤسَ عنهم، فإنَّنا نَعْمَلُ عَلَىٰ خلافِ مشيئة الله فيهم، وهَذا ضَلالٌ مُبين.

• ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: أي: في آيَةٍ قُرآنيَّةٍ، أو في بيانٍ نَبَوِيّ، أو في دَعْوةٍ من بَعْضِ المؤمنين.

• ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي: على ذوي الضَّرُوراتِ والحاجات من الفقراء والمساكين.

• ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: أي قال المدعُوُّون إلَىٰ الإنفاق من الَّذِينَ كَفَرُوا للمؤمِنِينَ الصادقين، بُغْيَةَ فِتْنَتهم عن فِعْلِ الخير، والبذْلِ لذوي الضرورات والحاجات من الفقراء والمساكين، ولتَحْسِين ما هُمْ فيه من شُحٍّ وقَسْوَةِ قَلْبٍ وجفافِ عاطفة مع كبْرٍ واستعلاء.

• ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾؟؛ أي: أنُطْعِمُ جائعاً فقيراً لَوْ شَاءَ اللَّهُ إطْعَامَهُ أطْعَمه، لكنه لم يشأ ذلك، بل شاء إهانته، وهذا القول

منهم جوابٌ جدليٌّ على دعوتهم إلى الإنفاق مما رزقهم الله، ودعوة مضادة إلى الشحّ.

اختِيرَ في الدَّعْوَةِ من سَدِّ حاجاتِ الفقراء الْإِطْعام، لأنَّ الحاجة إلى الطّعام من ضَرُورِيَّاتِ الحياة، والأغنياءُ الكَفَرَة المستكْبرونَ ذوُو قلوبٍ أشَدُّ قَسْوَةً من الحجارة، لا تُلَيِّنُها مشاعِرُ رَحْمَة، ولا تَعْتَصِرُ نَداها ضواغِطُ عَاطفةٍ نبيلة، وهُمْ يَطْلُونَ وُجُوهَهُمُ القبيحَةَ بأصْبَاغ ذرائِعَ بَاطِلَةٍ، إذْ يَزْعُمُونَ أَنَّ حِكْمَةَ الله عزّ وجلّ، قد قضَتْ أنْ يُهِينَ الفقراء بالفقر، والجائعينَ بالْجُوع، وأنْ يُذلَّهم، لأنَّهم لا يسْتَحقُّونَ إلَّا ذَلِكَ، وأنَّ الناس مطالَبُونَ بأنّ لَا يُغَيِّرُوا مُرَادَ اللَّهِ فيهم.

• ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٤٧﴾: أي: ما أنْتُمْ أيُّها المؤمِنُونَ الباذِلُونَ أمْوَالكم لإطعام الجائعين، وسَدِّ حَاجات وضَرُورَاتِ الفقراءِ والمساكين، إلَّا في ضياعٍ واضحٍ جَلِيٍّ عن طَرِيق الحقّ والخير والْهُدىٰ.

﴿إِنْ﴾: هنا حرف نفي بمعنى «ما» النافية.

﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾: أي: في ضياع، وباطل، وعُدولٍ عن الطريق المستقيم.

وهٰذه الذَّريعة الباطلة الّتي يتَذَرَّع بها الكافرونَ وأشْبَاهُهم، إنما هي نتيجةُ سُوءِ فَهْمِهِمْ عن اللَّهِ عزّ وجلّ ومقاديره في خلْقه.

إنَّهم صَرَفُوا عَنْ تَفْكيرِهم أنّ رحلة الحياة الدنيا هي رِحْلَةُ امتحان، وأنَّ وراءَهَا حياةً أخْرَىٰ خالِدَةً أبَدِيَّةً هي حياة الجزاء، بَعْدَ الحساب و فَصْلِ القضاء، وأنّ الامتحان في الحياة الدنيا قد اقتضىٰ الامتحانَ بالمتضَادَّاتِ والمختلفات، ومِنْها الغِنَىٰ والْفَقْر، والقوّة والضعف، والصّحة والسَّقَم، والعزُّ والذّل، والجمالُ والْقُبْح، إلى سائر المتضاداتِ والمتناقضات والمتخالفات.

أنَّه تَعَلُّلٌ جَدَليٌّ يعتَمِد على وَهْم أنَّ الرَّبَّ الخالِقَ أرادَ أن يَجْعَل قسْماً من النّاس أغنياء مُتْرَفين تكَريماً لهم، وأرادَ أن يجْعَل قسْماً آخرَ من الناسِ فقراء مُعْوِزين ذوي ضروراتٍ وحاجاتٍ، يجوعونَ ويعيشُون في البؤْسِ إهانَةً لهم، ولو يشاءُ اللَّهُ القادر ساعَةً بَعْدَ ساعَةٍ، ويَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، وشهراً بَعْدَ شَهْرٍ، أن يُطْعِمَهم، لوسَّع عليهم في الرّزْق فأطْعَمَهُمْ، ولهيّأ لهم وسائل الغنىٰ عن صَدَقاتَ المحْسِنِين، الّذين يجودون عليهم من أموالهم. أفيصحُّ أن نُعَارِضَ مشيئة اللَّه فيهم، فنُطْعِمَهم من طعامنَا، ونكفِيَهُمْ من أموالنا الّتي اكْتَسَبْنَاهَا بكدِّنا واجْتِهَادِنا، واختصَّنا اللَّهُ بها.

يقولون هذا جَدَلاً، وهم لا يُؤْمِنُونَ بأنَّ الله رَحْمٰنٌ بعبادِه، بَلْ ينْسُبونَ مقَادِيرَ الرَّحْمَةِ لآلِهَتِهم الّتي يَعْبُدونها منْ دُونِ الله.

وحين يَرَوْن أنَّهم قَدْ مَلَكُوا ناصِيَة الحجَّةِ بزُخْرُفِ الْقَوْل، والإيهام الذي صَنَعُوه يقُولُون للّذين آمَنُوا بالله وبرسوله وبما أنزل عليه من آياتٍ بيّناتٍ: ما أنتم إلّا في ضَلَالٍ واضحٍ مبينٍ، ابْتَعَدْتم به عن طريق الصواب فيما تَبْذُلُونَ من أموالكم، وفيما تدعوننا إليه ممن البذْل.

هذه فلْسَفَةُ الأنَانِيّين، وهَذا منْطِقُ المرضَىٰ بداء الشُّحِّ المقيت، مع اسْتِعْلاءِ واستكبارٍ في الأرض.

ولو أنَّهم آمنوا بربّهم حقَّ الإيمان، وآمَنُوا بالْيَوْم الآخِرِ، وما فيه من جزاء بنعيمٍ مقيم، أو عذابٍ أليم. واستناروا بنُورِ الرّسَالةِ الرَّبَّانيَّة، وفَهِمُوا ما جاء في كتاب اللَّهِ وآمَنُوا بِهِ، لكانَ لهُمْ موقف آخر، ولكان لهم فَهْمٌ آخَرُ لمقادير الله في عباده.

وإذْ صَرَف الذين كفَرُوا عن تفكيرهم أنّ رحْلَة الحياة الدنيا رحْلَةُ امتحان، لم يقبلُوا أن يكونَ هذا الامتحانُ بالغِنَىٰ أحياناً، لابْتِلاءِ طَاعَةِ العبْدِ لربّه في بذْلِ قسْمٍ من الأموال الّتي آتاهُ اللَّهُ إيّاها، واسْتَأْمَنَه على

حقوق ذوي الحقُوق فيها إلى مَنْ أَمَرَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بَبذْلها إليه، أو إلى الجهات الّتي أمَرَهُ أن يَبْذُلَ من أمواله فيها.

ولم يقْبَلُوا أنْ يكون هذا الامتحانُ بالفقر والحاجةِ أحياناً، لابتلاء صبْرِ الْعَبْد، ورضاهُ عَنْ رَبِّه فيما ابتَلَاهُ به، وطاعَتِه وعدَم معصيَتِه في العُدْوان على ما وهَبَ اللَّهُ بْعضَ عباده، ممّا لَاحَقَّ لَهُ فيه، وعَدَم تطَلّعه إلى ما امْتَحَنَ بِه سِوَاهُ من زينَةِ الحياة الدنيا، واقتناعه بَما قَسَم له من معيشة.

ولَمْ يأتِ هُنا في سورة (يسٓ) جوابُ مقالةِ الَّذِين كَفَرُوا، لأنَّه قَدْ سَبق في نجوم التنزيلِ القرآنيّ بيانُ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ إذا أغْنَىٰ بعضَ عبادِه فإنَّما يُغْنِيهِمْ ليَبْلُوَهم ويَخْتبرَهُم في ظُروف الحياة الدُّنيا، ولَيْسَ إغناؤهم من أجْلِ تكريمهم علىٰ من سواهم. وأنّ الله عزّ وجَلّ إذا أفقر بعض عباده فقَدَر علَيْهم رزْقَهُمْ فإنّما يُفقِرُهُم ليبْلُوهُمْ ويْختَبِرَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا، ولَيْسَ إفقارُهم من أَجْلِ إهانَتِهِمْ، فرحْلَةُ الحياةِ الدنيا بكُلِّ ما فيها من متناقضاتٍ ومتضادّاتٍ ومتخالفَاتٍ رِحْلَةُ ابتلاءٍ واختبار، وبعدها تأتي حياةُ الحسابِ وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذ الجزاء، وتِلْكَ هي الحياة الخالدة، أمَّا الحياةُ الدُّنيا فحياةٌ مُؤَقّتة قصيرة جدًّا بالنّسْبَةِ إلى حياة الخلود، وهي أقلُّ في مقاييس النِّسَبِ من ساعات الامتحان الّذِي يجريه الأساتذة لاختبار طلابهم، إذا انْتهت أُخْرِجُوا من مكان الامتحان، وانتزعَتْ مِنْهُمْ صُحُفُ إجَاباتهم بالإكراه، ثم يكون بعد ذلك إعلان النتائج.

لقد سبَق في نُجُوم التنزيل، مَا يدُلُّ على أنَّ كُلًّا من مقادير التوسعة في الرِّزْقِ والتضييق فيه، إنَّما هو للابتلاء، فلا الإغناء للتكريم، ولا الإفقار للإهانة، والغنيُّ يُطْلَبُ منْه في ابتلائه الطاعة والقناعةُ والصبر، وعلى الغنيِّ حقٌّ في ماله للفقير، وحقٌّ من نَفْسِه بعَدَمِ الاستعلاء على من

هم دونه في الغني، وعلى الفقير حقٌّ للغنيِّ من نَفْسِه، أنّ لا يمُدَّ عيْنَيْه إلى متَّعَة ربِّه من زينَةِ الحياة الدنيا بحَسَد، وعليه أن لا يعترِض على الله في مقاديره، وأن لا يَحْقِدَ على مَنْ فضَّلَهُ اللَّهُ عليه في الرّزْق، وعليه أنْ يؤْمِنَ ويُوقِنَ بأنَّ اللَّهَ حكيم في كلِّ مَا يشَاءُ ويختار.

وممَّا سبَقَ في نجوم التنزيل بياناً لحكمة الابتلاء في مَجَالَي بَسْطِ الرِّزْق وَتَضْيِيقِه، قولُ الله عزّ وجَلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾.

فزجَر الله عزّ وجلّ في هذا النصّ مَنْ يتصَوَّرُ أنَّ التوسعة في الرزْقِ للإهانه، بعبارة:

﴿كَلَّا﴾ وَأَبَانَ أنَّ كُلًّا منهما للابتلاء، وهو الاختبار والامتحانُ في ظروفِ الحياة الدنيا، وأبَانَ ـ جلَّ جلالُه ـ أنّ من المطلوباتِ الّتي يُؤْمَرُ بها العَبْدُ الممتحن بالْغِنَىٰ أَنْ يُكْرِمَ الْيَتِيمَ ويحُضَّ على إكرامه، وأنْ يُطْعِمَ المسكين ويَحُضَّ على إطعامه. أي: لَا أنْ يُراوِغَ ويُجَادِلَ بالباطل، ويقُولَ: أنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أطْعَمَهُ؟!! مصْطَنِعاً شُبْهَةً في زُخْرُفٍ من القول، يسْتُرُ بِهِ أَنَانِيَّته وشُحَّه المقيت، ويتَجَاهل أنَّه في هٰذِهِ الحياة الدّنيا ممتحنٌ مُكَلَّفٌ، وأنّ من صور الابتلاء فيها ابْتِلَاء النَّاسِ بْعضِهِمْ ببَعْض، ومنه ابتلَاءُ الأغنياء بالفقراء، وابتلَاءُ الفقراء بالأغنياء، إلى غير ذلك من صُورِ ابتلاءِ لَا تكاد تُحْصَىٰ.

وهنا أقول: من يُحْرَمِ البصيرة الإيمانيَّة يَسْقُطْ في أوحال الباطل، وقَدْ أحاطَتْ به مصَايدُ الشياطين مُلْتَفَّةً على ما فيه من مَقَاتِل، تجرُّهُ حتَّىٰ يكونَ مع الأَرْذَلِين، في أسْفَلِ سافِلِين، وفي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من الجحيم.

❁ ❁ ❁

(٩)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دُروس السورة وهو الآيات من (٤٨ ـ ٦٥)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

القراءات:

(٤٩) توجد عدّة قراءات في نُطْقِ لفظ [**يخصمون**].

- فقرأ أبو جَعْفَر: [**يَخْصِّمُونَ**] بإسْكان الخاء وتَشْدِيدِ الصّاد بَعْدها مكسورة
- وقرأ وَرْشٌ، وابْنُ كثير، وهِشَام: [**يَخَصِّمُونَ**] بفَتْح الخاء، وتَشْدِيد الصّاد بعدها مكْسُورة.

• وقرأ أبو عَمْرو باخْتِلَاس فتحةِ الخاء وتشْدِيد الصَّاد المكسورة بعدها.

• وقرأ قالُون كأبي جعفر، وأبي عَمْرو.

• وقرأ ابْنُ ذكوان، وعَاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلَف: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بِكَسْرِ الخاء وتَشْدِيد الصّاد المكسورة بعدها.

• وقرأ حمْزَة: [يَخْصِمُونَ] بإسكان الخاء وكسر الصّاد دون تشديد.

وهي وجُوهٌ من الأداء في نُطْقِ اللّفظ، والمعنى فيها يخْتَصِمُونَ أو يخاصِمُون، وجميعها تدخل تحت الحروف السَّبْعَةِ الّتي أُنْزِل عَلَيْهَا القرآن مراعاةً للّهَجاتِ العربيّة.

(٥٢) سكَتَ حفْصٌ سكْتَةً لطيفة على ألف ﴿مَّرْقَدِنَا﴾ بدُون تنفُّسٍ، ولَمْ يسْكُتْ هٰذِهِ السَّكْتَة سَائر القرّاء العشرة.

(٥٣) • قرأ أبُو جَعْفر: [إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةٌ واحِدَةٌ] برفع [صَيْحَةٌ واحِدَةٌ] على اعتبار أنّ «كان» تامّة تكتفي بمرفوع.

وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرَة: ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ بنَصْبِهما على اعتبار أنّ «كان» ناقصة.

(٥٥) • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبُو عَمْرو: [شُغْلٍ] بإسكان الغين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿شُغُلٍ﴾ بضمّ الغين.

والقراءتان وجهان عربيان لنُطق هذه الكلمة.

(٥٥) • قرأ أبو جَعْفر: [فَكِهُونَ] جمع «فَكِه».

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ جمع «فَاكِه»، الفاكِه والْفَكِهُ من كان طيِّبَ النفس، مُتَنَعِّماً بما يَسُرُّه.

فالقراءتان وجهان عربيان وهما بمعنى واحد.

(٥٦) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [فِي ظُلَلٍ] جَمْعُ «ظُلّة» وهي كُلُّ ما أظلَّ.

وقرأ باقي الْقُرَّاء العشرة: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ جمع «ظِلّ».

ومعلُومٌ أَنَّ مَنْ كَانَ في أجواء «ظُلّه» فهو في «ظِلٍّ»، فمؤدّى القراءتين واحد، وهما من التفنُّن في التعبير، وفي استعمالهما نكهةٌ أدبيَّة لطيفة مُسْتَساغة.

(٦١) • قرأ أبو عَمْرو، وعاصم، وحمزة، وخَلَفٌ: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي﴾ بِكَسْر نون «أن» وهو وجْهٌ عَرَبِيّ للتخلّص من التقاء السَّكِنَيْن.

وقرأ باقي الْقُرّاء العشرة: [وَأَنُ اعْبُدوني] بضَمّ نون «أنْ» وهو وجْهٌ عربيٌّ آخر للتخلّص من التقاء السّاكنين.

فالقراءتان متكافئتان.

(٦٢) • كلمة: [جبلا] فيها قراءات تمِثْلُ وجوهاً عربيّة متكافئةً للكلمة، وكُلُّها بمعنىٰ «الأُمَّة» والجماعة من الناس.

فقرأ نافع، وعاصم، وأبو جَعْفَر: ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والياء وتشديد اللّام.

وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ورُوَيس، وخلف: [جُبُلاً] بضم الجيم والباء واللّام المنصوبة دون تشديد.

وقرأ أبو عَمْرو، وابْنُ عَامر: [جُبْلاً] بضم الجيم وإسكان الباء، واللام المنصوبة دون تشديد.

وقرأ رَوْح: [جُبُلًّا] بضم الجيم والباء، وَتَشْديد اللّام المنصوبة.

تمهيد:

هذا الدرس الخامس من دورس السورة، يُعالجُ تَسَاؤُل الّذِين كَفَرُوا عن موْعِد تحقُّقِ الإنذار بعذاب الله المعجَّلِ فِي الدنيا، أو المؤجّل إلى يوم الدين بعْدَ الموتِ والبعث.

وطَرْح هذا التساؤل هو طَرْحٌ جَدلِيٌّ يُرادُ بِه الإشعار بِأَنَّهُمْ يُكذّبون بما أُنْذِرُوا به، بمعنَىٰ أنّ الإنْذارَ بالعذاب إذا لم يَقْتَرِن به تَحْدِيدُ الزَّمن الّذِي يتحقَّقُ فيه إنْزَالُه فَهُوَ إنْذارٌ وهُمِيٌّ لَا يُصَدَّق.

هكذا يُصَوّرُ الّذين كفروا قضيَّة الجزاء الرَّبَّانيّ، صانعينِ من أَوْهامهم حُجَّةً جَدَلِيَّةً، مع أنّ عقاب الله عزّ وجلّ الّذِي أنزلَهُ بكُفَّار القرون السَّابقة لَمْ يكن الإنذار بِه مقترناً بتَحْدِيدِ زَمَنِ إنزاله، إنّما جاءهم بغُتَةً وهُمْ نَائمون، أو وهم يلْعَبُون.

وأمَّا عذابُ يَوْمِ الدِّين فهو قضيَّةٌ خَبَرِيَّةٌ عن الله جلَّ جلالُهُ في كلّ رسالاته للناس، وعَقْلِيَّةٌ تَسْتَنِدُ براهينُ العقل فيها إلى صفات اللَّهِ الجليلة، وَالغايَةِ من خلق ذوي الإراداتِ الحرَّة، في الحياة الدنيا وهي الامتحان، وحكْمَةُ الله العظيمة قاضيَة بأن الامتحان يسْتَلْزِمُ عقلاً الحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، وهذا لَا بُدَّ أن يكون بَعْدَ انتهاء ظروف الامتحان في الحياة الدنيا، وأَنْ يكُونَ في حياة أُخرى هي حياة الجزاء.

ومعْلُومٌ أنّ يوم الجزاء لا يأتي إلَّا بَعْد إنْهاء ظروف الحياة الدنيا، وقيام الساعة، وقَدْ أخْفىٰ اللَّهُ عزّ وجلَّ قيام السَّاعة عن كلّ مَنْ خَلَق في السماوات والأرض، وهيَ لَا تَأْتي إلَّا بغتةً، ولا يتطَلّبُ الحدَثُ الغيبيُّ المستقْبَليُّ مَعْرِفَةَ زَمَنِ وَقُوعه، للإيمان به، في موازِين الْعَقْل السّليم، والحجَجِ الفكريَّةِ الصحيحة، ما دامَتْ براهينُ الْعَقْل والأَخْبَارُ الدّينيَّةُ

عن اللَّهِ الرَّبِّ الخالق مُدبّر الكَوْن، ومُقَدِّر مقادِيره، ومُبْرِم قضائه فيه، قَطْعِيَّةً لَا رَيبَ فيها.

فالتَّشكيكُ في حقيقة من الحقائق، بِعِلَّةِ عَدَمِ مَعْرِفَةِ زَمَنِ وقوعها، تَعِلَّةٌ باطلةٌ، ولَيْسَ لها أساسٌ عَقْلَيٌّ صِحيح.

على أنّ ساعة كلّ إنسان تأتيه عنْد موْتِه، دون أن يَعْلَمَ بوقْت نزولها فيه، فَهَلْ يَشُكُّ ذو عَقْلٍ وبصيرة بواقع الحياة، في أنَّ موتَهُ قادمٌ لا محالة، لأنّه لا يعْلَمَ زَمَنَ مَوْته.

التدبّر:

قول الله عزّ وجل:

- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

الضمير في: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يَعُودُ على الكافِرين المعنيِّينَ في السّورة، الذين سبَقَ الحديث عنهم. وحَرْفُ العطف «الواو» يعطف هذه الجملة على الْجُمَلِ السابقة الّتي تحَدَّثَتْ عنْهُمْ، وآخرُها ما جاء في الآية (٤٧) التي هي آخر الدرس الرابع من دورس السورة.

ويبدأ الدرسُ الخامس بعَرْضِ قَوْلِ عتاة الذين كفروا في مكّة إبَّان التنزيل، بشأن ما أُنْذِروا بِهِ من عذاب الله على كفرهم، طَالِبين فيه تحديدَ الزَّمَنِ الذي سَيُنْزِلُ اللَّهُ بهم فيه هذا العذاب.

فَصِلَةُ هذا الدَّرْس بما سبَقَ من دُروس السورة صلةٌ جليَّةٌ واضحةٌ جدًّا، ولا تحتاج شرحاً ولا بياناً.

ودلَّت عبارة: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ الّتي اسْتُخْدِمَ فيها الْفِعْلُ المضارِعُ، الذِي يَدُلُّ على التكْريرِ مرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، على أنَّهم كانُوا يكرِّرُونَ مقالَتَهم مرَّة بعَدَ مَرَّة، متَّخِذين منْها وسِيلَةٍ إعلامِيَّةٍ، على الرَّغم من كونها مَقولَةً مَرْفوضةً في موازين العقول السليمة.

واسْتُعْمِل في الآية لفظ «الوعْدِ» الّذي يأتي في اللّغة بمعنىٰ خبر الإنْذَارَ وخَبَرِ الْبِشَارة، لأنّ وَعِيد الكافِرين بما يُسوؤُهُمْ يَسْتَلْزِمُ وَعْدَ المؤمنين بما يَسُرُّهم

وقد يخصَّصُ في الاستعمال خبر الإنذار بلفظ «الوعيد» وخَبَرُ البشارة بلفظ الوعد.

فدَلّت هذه الآية على أنَّ عُتَاة الذينَ كَفَرُوا وأتْبَاعَهُمْ كانوا يكرِّرُون مقالَتَهُمْ للرَّسُولِ وللّذِينَ آمَنُوا في تَشْوِيشٍ إعلامِيّ مَتَىٰ هذا الوعْدُ الّذِي تُنْذِرُوننا به إنّ كُنْتُمْ صَادِقين؟، أي: في أيِّ زَمَنٍ يَقَعُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقين في الإخبار به؟.

فجعَلُوا عدم الإخبار بالزّمن، دليلاً على عَدَمِ صِدْقِ ما تضمَّنهُ الوعْدُ الإنذاريُّ بالعذاب.

وهٰذهِ مِنْهُمْ مُغَالَطَةٌ جَدَلِيَّةٌ سُوفسطائِيَّة، فالوعْدُ الصَّادِق بتحقيق أمْرٍ في المستقبل لا يشتَرَطُ فِيه تحديد الزّمن، ولا سيما إذا كان وعْداً بثوابٍ أو عقابٍ من الله عزّ وجل، لأنَّ الأصْلَ في مِثْلِ هذا الوعْدِ لِمَنْ هو موضوعٌ مَوْضِع الامتحانِ، أن يكُونَ مطْلقاً عن التحديد بزمن، وهذا ما تَقْتَضِيه حكمة الامتحان في حياةٍ لا يعْلَمُ فيها الممتَحَنُ متىٰ تَنْتهي.

❁ ❁ ❁

قول الله عز وجل:

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

تمهيد:

جاء في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ مُعَالجةٌ لمقالة الّذِينَ كفرُوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أنَّه لمّا لَمْ تكن مقالتُهُمْ هٰذِهِ مُقْتَرِنَةً بحُجَّةٍ ما، مهما كانت ضعيفة، حتَّى تُدْفَعَ بالحجَّةِ البرهانيَّةِ الدَّامِغَة، إذ مقالَتُهُمْ قائمة على ادّعاء لزوم اقتران الوعيد بالعقاب الذي تؤيْده البراهين، بتَحْدِيدِ زمن وقوعه في المستقبل، لم تكن هذه المقالة مؤهّلة لدفعها بحجَّةٍ ما.

إنّ الإدّعاء الذي اشتملت عليه مقالتهم لا دليل عليه من الْعَقْل، ولا دَليل علَيْه من واقع الأخبار الوَعِيدِيَّةِ، الَّتِي تَصْدُرُ عن ذوي السُّلْطانِ في الأرض، فذُوُو السُّلطان قَدْ يُنْذِرُونَ الْعُصَاةَ الخارجين على قانونهم بمفاجأتِهِمْ بالعقاب متَىٰ شَاءُوا، دُونَ أنْ يُحَدِّدُوا زَمناً معيَّناً لهٰذهِ المفاجأة، ولا يُوجَدُ واحِدٌ لدَيْه فكرٌ سَلِيمٌ يَقُولُ لذوي السُّلْطَان، أو للمبَلِغين عَنْهم من المعتمِدِين لدَيْهم: إنْ كنْتُمْ صادقين في إنذاركم لنا فَحَدِّدُوا لنا زَمَنَ وُقوعه.

إنّ النّاس لا يسْتطيعون التَّطَاولَ على ذوي السُّلْطان من النّاس، بطَرْحِ مثْلِ هٰذه المقالَة علَيْهِم، إذْ يخْشَوْنَ أن يُسارعُوا إلى الانتقام منهم، وأنْ لا يُمْهِلُوهم.

لكنّ الذين كفروا قد أطمعهم بالتطاوُل على رُسُلِ ربّهم، والمبلِّغين عنهم أنّ من سُنَّة الله جلَّ جلالُه أن يُمْهِلَ عبادَه، ولَا يُعاجِلَهُمْ بالعقاب، ليَمْنَح كلَّ واحِدٍ منْهم في امتحانِهِ في الحياة الدنيا، كلَّ الزّمَنِ الذي قضاه لامتحانه، مع الإمهال والتَّوْسِعَةِ لَهُ في العمر بحَسَبِ الفِطْرَة الّتي فطَرَهُ عليها، وتختَلِفُ أزمان امتحانِ الممتَحَنِين المكلَّفِينَ بَحَسَبِ اخْتِلَافِ الْفِطَرِ النَّفْسِيَّةِ الَّتي فُطِرُوا عليها.

وإذْ ليْسَ في مقالَةِ الّذين كفروا حجَّةٌ ما مهما كانت ضعيفةً، حتى تدفع، كانت المعالجة القرآنية لهم، مقتصرة على توجيه تَهْديدٍ لهم باحتمال مُفَاجأتهم بمُهْلِكةٍ ربّانية غير مرتَقَبة، تأتيهم وهم يتخاصمون فيما بينهم على

مصالح ومنافع وحقوقٍ ومبادلاتٍ ومنافساتٍ من أمور الحياة الدنيا، وعلاقاتٍ فيما بينهم حَوْلها، فإذا جاءتْهُمْ هذه المهلكةُ الرَّبانيَّةُ وهم في أماكن أعمالهم، ضربتهم ضربةً لم يسْتطيعوا معها أن ينْطِقُوا بوصيَّةٍ يوصُون بها ورثتَهُم، في قضايا يُهمُّهم جدًّا أن يوصُوهم بها، وسَقَطوا صَرْعَىٰ في أماكن أعمالهم، أو أماكن لَهْوِهم، ودون أن يتمكَّنُوا من الرُّجوعِ إلى أهليهم، حتّىٰ يكون موتُهُمْ فيما بينَهُمْ.

التدبرّ:

• ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩﴾:

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾: أي: ما ينْتَظِرُونَ، يقال لغة: نظَرَ الشَّيءَ وانتظره، بمعنى: تَرَقَّبَ حصولَه، أو حُصُول ما يُتَوَقَّعُ مِنْه، أو يُطْلَبُ منه، أو نحو ذلك.

وهذا المعنى هو أَحَدُ معاني كلمة «نَظَر» وتأتي بمعنىٰ توجيه الْبَصَرِ لرؤية الشيْء بالْعَيْن، وبمعنى توجيه الفكر لمعرفة الشيءِ.

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾: **الصيحة**: الصّياح بصَوْتٍ عالٍ يبلُغ أقْصَىٰ ما يستطيع الصَّائح.

وصيْحةُ العذاب الرَّبانيّ صوتٌ عظيم يميت الأحياء، وقد يُدَمّر الأشياء.

وقد أَهْلَكَ الله عزّ وجلّ أُمماً كثيرة بالصَّيحة، منهم عادٌ قوم الرسول هُودٍ عليه السّلام، ومنهم ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام، وقوم لوطٍ عليه السّلام، وقوم شعيب عليه السلام، وأصحاب القرية الّتي جاءها المرسلون الثلاثة.

وقد أثبتَتِ الدراسات الإنسانية أنّ الصّوت العظيم قاتِلٌ، وقد يُدَمّر.

ووصَفَ الله عزّ وجلّ الصيحة بقوله: ﴿وَٰحِدَةً﴾ للدّلالَةِ على أنَّ إهلاكهم يكفي له صيحةٌ واحدةٌ.

﴿تَأۡخُذُهُمۡ﴾: أي: تُهْلِكُهُمْ وتميتُهم، فإهْلَاكُهُمْ قَدْ أَطْلَقَ الله عزّ وجلّ عليه عبارة ﴿تَأۡخُذُهُمۡ﴾ لأنّها تأخُذُهم من الحياة، وتجْعَلُهُمْ صَرْعَىٰ هَلْكَىٰ، لا يسْتَطِيعُونَ أن يَمْلِكُوا من أنْفُسِهِمْ شيئاً.

أصل الأخذ في اللّغة: معناه تناوُل الشيْءِ، والقبض عليه وحيازته، ويَحْمِل الأخْذُ في الاستعمال معنَىٰ ما يُؤْخذ له الشيء، فأخذ المذنب يحمل معنى معاقبه بذنبه، ولو لم يحْصُلْ أخْذٌ جسَدِيٌّ له، والْإهْلَاكُ أخْذٌ عقابي للمهْلَكِ، وفيه يكون أخْذُ حياته منه، مع تعذيبه.

وقد يسْتَعْمَلُ الأَخْذُ في الأشياء المعنويّة، كأخْذِ الْعَهْدِ والمثياق.

﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾: أي: تَأْخُذُهُمُ الصَّيحَةُ، والحالُ أنَّهم يتَبادلُون الخصُومَانِ فيما بينهم على شؤُون دُنياهم، فتُبَاغِتُهُم، ويكون بها إهلاكُ اللّهِ لهم.

فالمعنى: إنّ كَانُوا ينْتَظِرُونَ جوابَ سُؤَالهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾؟ حتى يُؤْمِنُوا ويتَّبِعُوا الرَّسُول، ويَعْمَلُوا بما جاءهم به من عند ربّهم، وهم في ذلِكَ كاذبون يتعلّلُون تعلُّلاً جدليًا، فإنَّهُمْ في الواقع لا يَنْتَظِرُون إلَّا تَحْقِيقَ الوعْدِ وتنفيذَهُ بِمُهْلِكَةٍ عاجِلَةٍ، ثمَّ بعذابِ يوم الدّين على ما قَدَّمُوا في الحياة الدنيا من كُفْرٍ وعِنادٍ، وبُعْدٍ عن سبيل الرَّشاد، وبغْيٍ وفَسَادٍ وإفسادٍ، وظُلْم للعباد.

فالله جلَّ جلالُه وعزَّ سلطانه لَنْ يُحَدِّد لهم زَمَنِ تنفيذِ وَعِيدِه بعذابهم ومعاقبتهم وما أنْذَرَهم به من عقاب عاجلٍ في الحياة الدنيا، إذْ قَضَتْ حكمتُه في عباده أنْ لا يُحَدِّدَ لهم هذا الزمن.

وحينما يأتي الأمْرُ الرَّبّانيُّ بإنفاذه يأتِيهم بغتَةً وهُمْ لَا يَشْعُرُون.

• ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾:

أي: فإذا باغَتَتْهُم الصَّيْحَةُ العظيمة بالإهلاك، أهْلَكَتْهُمْ في مواقعهم الّتي يخْتَصِمُونَ فيها، بَعِيدِين عن أَهْلِهِمْ وَذَوِيهم فوراً، فسَقَطُوا صَرْعَىٰ، دون أنْ يسْتَطِيعُوا توصِيَةَ أَحدٍ بما يحبُّونَ أن يُوصُوا به قَبْلَ لحظة موتهم، ودون أنّ يستَطِيعُوا الرُّجُوع إلىٰ أَهْلِهِم بوَسِيلَةٍ من الوسائل.

جاء التعبير عن فوريَّةِ الإهلاك بما يُسوؤُهم من لوازمها، إذْ من لوازم فوريَّة الإهلاك أن لا يسْتطيعُوا توصيةً ما، ولا الرجُوعَ إلى أَهْلِهِمْ ليكون موتُهُمْ بين من يُحِبُّهُمْ، بل يُهْلَكُون بين مَنْ يخاصِمُونهم.

❁ ❁ ❁

قول الله عز وجل:

• ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾.

تمهيد:

تنتقل هٰذه الفقرة من الدرس الخامس إلى تقديم مشاهد ممَّا سَوفَ يكون بعْدَ البعث، وطُوِيَ في النصّ الحديث عن البرزخ، وهو الفاصل الزمنيّ بين الموت والبعث، لأنّ الإحساس بزمنه لا وُجُود له في نفوس من هُمْ في البرزخ موتى، مع وجود الإحساس بما تَلْقَاهُ النفوس فيه من عذابٍ أو نعيم دون شعورٍ بمرور الزَّمن.

وكانت الفِقَرةُ السّابقة لها في الدرس قد دارَتْ حول احتمالِ إهلاك الله الكافِرين الّذين يقولون بتكرارٍ للرَّسُول وللمبلّغين عنه: ﴿...مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾؟

بالصيحة المهلِكَة وهُمْ يتخاصَمُونَ من أجْلِ دنياهم.

وهذا الانتقالُ المفاجئ إلى عرض لقطاتٍ من لحظات البعثِ فما بَعْدَها، يُشْعِرُ بأنّ حقائق يَوْم الدِّين في خُطَّةِ الخلْقِ الرَّبَّانِيَّةِ لَا تَهْتَمُّ بِتشكُّكِ المتشكِّكين، ولا اعتراضات المعترضين، ولا جحود الجاحِدين، بلْ تجري في أوقاتها وبحسَبِ مقادير الله فيها، غيْرَ عابئةٍ بمخالف أو معترضٍ أو ناقدٍ، أو مُكذِّبٍ أو جاحد، فكُلُّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ اللَّهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعزّ سُلْطَانُهُ ـ ثابتٌ مُسْتَقِرٌّ، علَىٰ ما تمَّ به الْقَضَاء والْقَدر.

التدبّر:

قول اللَّهِ تَعَالَى:

• ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾:

جاء في هذه الآيَة بيانُ النفخة الثانيةِ في الصور، وهِيَ النفخة التي يخرج بها الموتَىٰ من الأرض، الّتي كانَتْ مقابِرَ أجْسَادِهم، أحياءً يَنْسِلُونَ إلى أرض المحشر، ليُلَاقُوا حِسَابِم، وفَصْلَ القضاء بينهم، ثم ليُلَاقُوا جزاءهم، في جنَّاتِ النعيم، أَوْ في دار العذاب الأليم.

أمّا النفخَةُ الأولى في الصُّور فيكُونُ بها إمَاتَةُ الأحياء الّتي لم تَكُنْ قَدْ ماتَتْ في الأرض وغيرها، وذلِكَ عنْد قيام الساعة الّتي تَنْتَهِي عِنْدَهَا ظُرُوف الحياة الدنيا، إلّا ما شاء الله.

• ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾: **النفخ**: دفع الريح بقوّة من الفم أو آلة نافخة، وبهذا النفخ قد يحدُثُ صَوْتٌ ما بحَسَب الآلَةِ الّتي جَرَىٰ النفخ فيها.

الصُّور: مخْلُوقٌ من مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ كَهَيْئَةِ الْقَرْنِ، إحْدَىٰ جهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دائريَّةٌ ضَيِّقة، وفي الجهة الأخْرىٰ فُتْحةٌ واسِعَةٌ، وباطِنُه فارغ، يمكن أن يُنْفَخَ فَيُصْدِرَ صوتاً بَحَسب خصائص تكوينه.

وجاء في السُّنَّةِ النبويَّةِ بيانُ أَنَّه كَبُوقٍ عظيم تأوي فيه أَرْواحُ الموتى.

وجاءَتْ تسْمِيَتُه فيها أيضاً باسْمِ الْقَرْنِ، لأنّ الْبُوقَ يُشْبِهُ الْقَرْنَ المجَوّف، الّذِي لَهُ فُتْحَتَانِ، إحداهما صُغْرَىٰ تُلْتَقَمْ للنفخ منها، والأخرىٰ كبرى لَنَشْرِ الصّوت في مخْتَلِفِ الجهات.

وذكر البخاريُّ عن مجاهِدٍ أنَّ الصُّورَ كالْبُوق، وذكَرَ المفسّرُونَ أنّهُ قَرْنٌ من نور يُجْعَلُ فيه أرْواح الخلائِق ذوات الأرْواح.

وجاء في القرآن تَسْمِيَةُ الصّور أيضاً باسْم الناقور، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾.

ومن معاني النَّقْرِ في اللُّغَةِ إطْلَاقُ الصَّوت، ويقال لُغةً: نَقَرَ بِفُلانٍ إذا دعَاه.

فالناقُور هو الأداة الْمُصَوِّتَةُ العظيمة، الّتي يُنَادَىٰ بها، ويُدْعَىٰ بها إلى أَمْرٍ ما، وإطلاق الصَّوْتِ مِنْهُ يكونُ بالنفخ.

وقد جعَلَ اللَّهُ عزّ وجلَّ مَلَكاً خاصّاً يَقُومُ بوظيفة النَّفْخِ في الصور، وورَدَ أنَّه إسرافيل عليه السلام.

• روى الترمذي بسَنَدِه عن عبد الله بْنِ عَمْرو بن العاص، قال: جاء أعرابيٌّ إلى النَّبِيّ ﷺ فقال:

ما الصُّورُ؟

قال: «قَرْنٌ يَنْفَخُ فيه». [قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن].

• وروى الترمذيّ أيضاً عَنْ أبي سَعِيدٍ الخدْريّ قال: قال رسُولُ الله ﷺ:

«كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْأُذْنَ، مَتَىٰ يُؤْمَرُ بالنَّفْخ»؟!.

فكأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلىٰ أصْحَابِ النبيِّ ﷺ، فقال لهم قولُوا:

«حَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ». [قال الترمذي: حديثٌ حسن].

• وعن عبد الله بن مَسْعُودٍ أنّ مَلَكَ الصُّور يقُومُ بيْنَ السَّمَاءِ والأرض، فينْفُخ فيه، فَلا يَبْقَىٰ لِلَّهِ خَلْقٌ في السماواتِ والأرض إلّا مات، إلَّا مَا شاء رَبُّكَ، ثُمَّ يَكُونُ بَيْنَ النفختين ما شاء الله أن يكون، فلَيْسَ من بني آدمَ خَلْقٌ إلَّا وفي الأرض شيءٌ منه.

وصَحَّ عن النبي ﷺ أنَّ كلَّ شيء في جَسَد الإنسان يفْنَىٰ إلّا عَجْبَ الذَّنب، ومِنْهُ (أي: من جزء صغير جدًّا مِنْهُ» ينْبُتُ جَسدُهُ إلى الحياة الأخرى.

وهذا الذي رُوي عن ابْنِ مَسْعُود لا يُقال من قبَلِ الرَّأي والاجتهاد في فهم النصوص، فإذا صحَّ عنه قبِلْنَاه، فابْنُ مَسْعُودٍ من أجلاء الصحابة الثقات.

• ﴿.. فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾: أي: وَنُفِخَ في الصُّورِ النَّفْخَةُ الثانية، فيُفَاجَأُ الْمَوْتَىٰ بأنّهم يخْرُجُونَ إلَىٰ الحياةِ مَرَّةً ثانية، لمُلَاقَاةِ ما وُعِدُوا به من حسابٍ، وفَصْلِ قضاءٍ، وتَنْفِيذُ جزاء.

• ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: من الْقُبور، جمع «جَدَث» وهو الْقَبْرُ في لسانِ العرب، والمراد بالْقَبْر مَكَانُ وجُودِ نَوَاةِ نبات أجسادهم في الأرض، داخِلَ عَجْبِ الذَّنب.

• ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أي: إلى حسَابِ ربّهم على ما أسلَفُوا في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الأولى، وإلى فَصْلِ قضائه، ثم إلَىٰ تَنْفِيذِ جزائه.

• ﴿يَنسِلُونَ﴾: أي: يُسْرِعونَ في المشّي، يقال لغة: «نَسَلَ الماشي يَنْسِلُ وَيَنْسُل نَسْلاً ونَسَلَاناً» أي: أسرع في مشيه.

قال اللَّيْث: النَّسَلانُ مِشْيَةُ الذِّئب إذَا أسْرَع، والنَّسَلانُ إسراعٌ في المشي دُون السَّعْي.

ورُوي أنَّ الصَّحابَةَ في أحَدِ الأسْفارِ شَكَوْا إلى الرسُول ﷺ الإعْياءَ والضَّعْفَ، فقال لهم:

«عَلَيْكُمْ بالنَّسْل» وجاء في رواية أخرى أنّه قال لهم: «عَلَيْكُمْ بِالنَّسَلانِ» أي: بالإسراع في المشي «عن لسان العرب، مادة نسل» وهذا النَّسَلانُ للمبْعُوثين يوْمَ الدِّين يكُونُ بَعْدَ أنْ يَنْبُتُوا في الأرض كما يَنْبُتُ الْبَقْل، وبَعْدَ أن تَعُودَ أرواحُهُمْ إلىٰ أجْسَادِهم.

رُوِي عن أبي هُرَيْرَة عن النبيّ ﷺ:

«أنّ اللَّهَ يُمْطِرُ على الموتَىٰ مَاءَ الحيَاةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ الْأَجْسَادَ فَتَنْبُتُ كَنَبَاتِ الطَّرَارِيثِ[1]، (وهو نَباتٌ كالْفِطْر) وكَنَبَاتِ الْبُقُولِ، حتَّىٰ إذَا اكْتَمَلَتْ أَجسَادُهم، فَصَارَتْ كَمَا كَانَتْ، أَمَرَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ حَمَلَةَ الْعَرْش أَنْ يَحْيَوْا فَيَحْيَونَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَن يَحْيَىٰ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وإسْرَافِيلُ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ إسْرَافيل، فَيَأْخُذُ الصّورَ، ثُمَّ يَدْعُو اللَّهُ الأرْواحَ، فَتَأْتِي أَرْوَاحُ الْمُسْلِمِينَ تَتَوَهَّجُ نُوراً، وَتَأْتِي الْأُخْرَىٰ مُظْلِمَةً، فَيَأْخُذُها اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ، فَيُلْقِيهَا فِي الصُّور، ثُمَّ يَأْمُرُ إسْرَافِيلَ بِأَنْ يَنْفُخَ نَفْخَةَ الْبَعْثِ، فَيَنْفُخُ فَتَخْرُجُ الأرْواحُ كُلُّهَا كَأَمْثَالِ النَّحْلِ، قَدْ مَلأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ: وَعِزَّتِي وجَلَالِي، لِيَرْجِعْ كُلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِه، فَتَدْخُلُ الْأَرْوَاحُ فِي الْأَرْضِ إِلَىٰ الْأَجْسَادِ».

وجاء فيها أيضاً: أنَّ الرَّسُول محمَّداً ﷺ أوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ

---

(١) **الطَّرَارِيثُ**: جمعٌ مفرده «**الطَّرْثُوث**» وهو نبات طُفَيليٌ من الفصيلة السّنومورية، ومنه نوع طويل مُسْتَدِق كالفطر ينْبُت في بادية مصر، وحول بحر الرُّوم (المعجم الوسيط).

الْأَرْضِ، وَأنَّ الرِّجَالَ يَخْرُجونَ شباباً كُلُّهُمْ أَبْنَاءُ ثَلاثٍ وثلاثين، وأَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾[1]. واللَّهُ أعلم.

❀ ❀ ❀

قول الله تعالى:

• ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ . . . ﴿٥٢﴾﴾:

أي: فإذَا خَرَجُوا مِنَ الأجْدَاث إلى رَبِّهم يَنْسِلُون، وفاجَأَهُمْ ما هُمْ فيه، قالُوا هذا القول.

• ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: **الويلُ**: يأتي في اللُّغة بمعنى الحزْنِ والهلاك، والمشقة من العذاب.

قال ابنُ سَيدة: «وَيْلٌ» كَلِمةُ عذاب، وهي كذلك عند النحويّين واللُّغويّين، ويقابلُها كلمة «وَيْح» الّتي هي كَلِمَةُ تَرَحُّم.

وفي النُّدْبَة يقول القائل: «يَاوَيْلَتِي» و«يَاوَيْلَتَا» ويَقُولُ النَّادِبُونَ: «يَاوَيْلَنَا».

وهذا النداء هو على معنَىٰ التَّوَجُّع، والتفجُّع، والتخوُّفِ من العذاب المرتقب.

فالكافرون حين يُبْعَثُونَ ويَخْرُجُونَ سِراعاً إلى حِسَاب رَبّهم يُدْرِكُون صِدْق مَا كان قَدْ أَخْبَر به المرسَلُون، فلم يُؤمِنوا به، ولم يَعْمَلُوا بمقتضاه، ويُدْرِكُون أنَّهم يَسْتَحقُّون بمقتضى الوعيد السّابق أن يكونُوا من أهل النّار، فيُنَادُونَ خَوْفاً، وهلعاً، وحُزْناً: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: أي: يَا حُزْننا ممَّا سَنَلْقَىٰ مِنْ مشَقَّةٍ وعذابٍ أَليم.

---

(١) انظر «التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة» للقرطبي ص(٢٠٤ ـ ٢٠٥).

وحينَ يُبْعَثُونَ لَا يَشْعُرُونَ إلَّا أَنَّهم كَانُوا في مثْل نَوْمةٍ كانوا يَنَامُونَها في الدُّنيا قبلَ مُنْتَصَفِ النَّهارِ، أو بَعْدَ منتَصَفِه، فكَأَنّهم لَمْ يَلْبَثُوا بَيْنَ المْوتِ والبعث إلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاها.

أمّا العذابُ الّذِي ذاقُوهُ في مُدَّةِ البرْزَخِ فَشُعُورُهم نَحْوَهُ بَعْدَ البَعْث يُشْبِهُ شُعُورَ من مَرَّتْ بِهِ في نَومه أحْلَامٌ مؤلِمَةٌ جدًّا باقيَةٌ في ذاكِرَته.

• ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؟: إنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ يَنْدُبُوا أَنْفُسَهُمْ بالْوَيل خَوْفاً وَحُزْناً وَهَلَعاً، يقولُون هذا القول.

البعْث: يأتي في اللّغة بمْعنَىٰ الإحياء من الموت، ويأتي بمعنَىٰ الْإيقاظِ من النوم.

المرْقَدُ: المكانُ الّذِي يَنَامُ فيه النَّائم، ويُطْلقُ بَمعْنَىٰ الرُّقاد، على أنَّه مَصْدَرٌ ميميّ. **الرُّقَاد**: هو النَّوم، يقال لغة: «رَقَدَ، يَرْقُدُ، رَقْداً، ورُقُوداً، وَرُقاداً»: أي: نَامَ.

لقد كانَ الموتُ بالنسبة إلى إحساس نفوسهم بمثَابَةِ النَّوْم، وحينَ البعْثِ تَعُودُ إليهم مشاعِرُهُمْ الّتي كانوا علَيْها قَبْلَ الموت، فيقولُون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؟!: أي: مَنْ أيْقظنا مِنْ نَوْمِنا؟.

وعَقِبَ هذا التَّسَاؤُل يُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ في مَوْقف حَشْرٍ. يُسَاقُونَ حُفَاةً عُراةً إلَىٰ حِسَابِ رَبِّهم، وفَصْلِ قضائِه بَيْنَهم، ثم إلَىٰ تَنْفِيذ جزائِه بالعقاب أو بالثواب، بحَسَبِ حالِ العبْدِ الّذي كان مَوْضوعاً في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿... هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٢﴾:

هذا جوابُ تَساؤُلهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؟!. وهو إمَّا أنْ يكون اعْتِرافاً صادراً عن أصحاب التساؤلِ أنْفُسِهم، بعْدَ أنْ شَهِدُوا أنَّهُمْ في موقف حشْرٍ، وبعد أنْ أَدْرَكُوا أنَّهُمْ في الحياة الأخْرىٰ الّتي كانُوا قدْ وُعِدُوا بها فكَذَّبُوا رُسُلَ ربّهم، وكَذَّبُوهم بما أَخْبَرُوهُمْ به عن يَوْمِ الدّين، وَإِمَّا أنْ يكونَ جواباً يَتَلَقَّوْنَهُ مِنْ غيرهم، كَبعْضِ المؤمنين، أو الملائكة الذين يَسُوقونَهُمْ إلى مَحْشَرِهِمْ، وإلى مَوقفِ حسابِهم، وقد يكون جواباً صادراً منْهُمْ، ومِنَ المؤمنين ومن الملائكة.

أي: هذا هو البعْثُ إلَىٰ الحياة الأخرى، بَعْدَ الموت والفناء، وهو الأمْرُ الَّذِي كَانَ وَعَدَهُ الرَّحْمَنُ عِبادَهُ، إذْ كانُوا في رِحْلَةِ الامْتِحَانِ في الحياةِ الدنيا، فكَذَّبَ به الكافِرُونَ، ولَمْ يُصَدِّقوا رُسُلَ رَبّهم، لكنَّهُ بَعْدَ أنْ صَارَ واقعاً مَشْهُوداً فقد ظَهَرَ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ المرْسَلُونَ فيما كانوا قد أَنبؤُوا بِه عن ربِّهِمْ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

❁ ❁ ❁

قول اللّهِ تعالى:

• ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ۝٥٣﴾.

أي: ما كانت وَسِيلةُ إحضارِ المحضَرِينَ إلى محكمَةِ الْعَدلِ الرَّبّانيّة يوْمَ الدّين إلَّا صَيْحةً واحدةً، فكانَتْ المفَاجَأةُ لهم أنّهم جَمِيعاً مجتَمِعين غَيْرَ مُتفَرِّقِين لدَىٰ رَبِّهِمْ مُحْضَرُونَ، تَسُوقُهُمْ الملائكة، فلا تُبْقِي أَحداً منهم دُونَ أن تَسُوقَهُ وتَضُمَّه إلى جَمْعِ المحضرين لمحكمة العدل الرّبّانية.

ودلَّت «إذا» الفجائيَّة على السُّرعة العظيمة الّتي يتمُّ بها الإحضار بالصَّيْحَة.

ويَبْدُو لي أنّ المرادَ بهٰذِهِ الصيْحَةِ نداءٌ تُحْشَرُ بِه الخلائق إلى مواقفِ حسابهم بيْنَ يَدَيْ رَبّهم.

﴿مُحۡضَرُونَ﴾: أي: يُؤْتَىٰ بِهِمْ حَتَّىٰ يَحْضُرُوا مَوَاقف حسابهم بين يدي رَبّهم، وفَصْلِ القضاء بينهم، تمهيداً لتنفيذ الجزاء الذي يقضي به الله لهم أو عليهم.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

- ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾:

أي: فالْيَومَ الّذي هُو يَوْمُ الحِسَابِ، وفَصْلِ القَضاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء الرَّبّانِيّ، لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ ما شيئاً، بزيَادَةِ العَذاب على مَا قَدَّمَتْ منْ شَرّ، أَوْ بنُقْصَانِ الثوابِ عمَّا وُعِدَتْ به من أَجْر على فِعْلِ خيرِ، أو عَمَلٍ صالح، ظاهرٍ أو باطن.

ويخاطِبُهُمُ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ بقوله:

﴿... وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾:

أي: وَلَا تُجْزَوْن جزَاءَ عقابِ إِلَّا جزاءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، تَطْبِيقاً للقانون الرَّبّاني: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ فاطر/١٨ والقانون الرَّبّاني: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ ٤٠﴾ غافر.

ولكن يَدْخُلُ في وِزْر المكلّف آثار عَمَلِه أو إضلالِه أَوْ إغوائِه في كُلّ من تأثّر به، فآثَارُ الأَوْزَارِ هي من الأوزار.

أمّا الجزَاءُ بالثَّوابِ فمِن البَدِهي أن لا يُظْلَمَ أَحدٌ فيه، لأنَّ الحسَنَةَ عند الله تُضَاعَفُ إلى عشَرَةِ أمثالها، إلى سبعمئة ضعف إلَىٰ أضعاف كثيرة لا يَعْلَمِها إلّا الله.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالَىٰ:

• ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

عرضَتْ هٰذهِ الآياتُ الأرْبَعُ لوْحَةً تصويريَّة لمشهد من أحوال المتقين أصحاب الجنَّة في الجنَة، بَعْدَ فَصْل القضاء بشأنهم، وإدْخالِهِمْ الجنَّةَ جزاءَ مَا قَدَّمُوا منْ إيمانٍ وعَمَلٍ صالحٍ، أو إدْخالِهِمْ الجنَّةَ بغَيْرِ حِسَابٍ، إذْ كانُوا من السّابقين المقرَّبين.

وفي هٰذِهِ الّلوْحَةِ التَّصْوِيرِيَّة، المتعَلِّقَةِ بِمَشْهَدٍ من مشَاهِدِ أهْلِ دَارِ النَّعيم يَوْمَ الدّين، ثمانِيَةُ مَقَاطِع:

المقطع الأوّل:

يُصَوّرُ أنّ أصْحَابَ الجنَّةِ الملازمين لها، والمنَّعمِين فيها، هُمْ في شُغُلٍ فَاكِهُونَ، أيْ: هم في عَملٍ ما مِنَ الأعْمال الّتِي ينالُونَ بها نَعِيمَهُمْ، ويَحْصُلُونَ بها على لذّاتِهم الّتي يَطْلبُونَها، وتَشْتَهِيها نفوسُهم.

وهذه الأشغال الّتِي ينَالُونَ بِها أنواعَ نعيمهم، من مطاعِمَ ومشاربَ ومنَاكِح وغيرها تشْغَلُهُمْ، وتَمْلأُ فراغَ أزْمانهم عمَّا سِوَاها، فلا هَمَّ يُقْلِقُهم، ولا حُزْنَ يُقْعِدُهم عَنْ أعْمالِ نَعِيمهم.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ أصْحابَ الجنَّةِ لَا تأتيهم أنواعُ نَعِيمِهِمْ، وأنواعُ لَذَّاتِهم وهُمْ سَاكِنُونَ لَا حَركَةَ لَهُمْ وَلَا عَمَلٍ، بلْ هم ينفقون طاقاتهم الّتي تُمِدّهم بها الأغْذِيةُ في أشغالٍ إرادِيَّةٍ محبَّبَةٍ لهم، وهي جزءٌ مِنْ نعيمهم فيها، فالنعيم الذي يحصل عليه ذو الطّاقَة بعَمَلِه الّذِي يَشْغَلُهُ عَمَّا سِوَاهُ أعْظَمُ وَأكْبَرُ من النّعيم الّذي يأتيه وهو ساكِنٌ لَا يَعْمَلُ في تحصِيله.

إنّ إنفاق الطّاقاتِ في تناوُلِ أسْبَابِ النّعيم وتَحْصِيلِ لذَّاتِه، هو من النّعيم الذي يُضاعفُ اللَّهُ به النعيم.

أصْحَابُ الجنة: هم ملازموها ملازمة الصاحب لصاحبه، ومستحقوها.

أصْحاب: جمع «صَحْب» وهذا جمع «صاحب» والصاحب في اللّغة هو المعاشر المخالط المرافق، والمستحق والمالك، وهذان من التوسُّعات اللّغوية.

«الشُّغْلُ، والشُّغُلُ، والشَّغْلُ والشَّغَلُ» لغاتٌ بمْعنَىٰ العمل.

دلَّتْ على هذا المقطع عبارة: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾.

المقطع الثاني:

أنّ أصحابَ الجنَّةِ في الجنَّةِ فَاكِهُونَ، أي: ناعِمُون، فرحون، مَسْرُورون ضاحكون، يَسْعَدون بلذَّاتِهم طيِّبَةً بهَا نُفُوسهم، مَعْجَبُونَ بما آتاهُمْ رَبُّهُم، وكذلك «فَكِهُونَ» كما جاء في القراءة الأخرى.

الْفَاكِهُ والْفَكِهُ في اللّغة: هو من يَعِيشُ فَرِحاً مَسْرُوراً، أوضاحكاً طيِّبَ النَّفْس، نَاعِماً بمَا ينَالُ من نعيم، يتلَذَّذُ باللّذاتِ، ومن كان كذَلك سَرَّتْهُ المضحكاتِ المثيرة للعَجَب.

والْفَكِه: هو الّذي يأتي بالنّكاتِ والنوادِر المضحكة المثيرة للإعجاب.

دلّ على هذا المقطع وصْفُهم بأنهم: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ في الآية (٥٥).

المقطع الثالث:

أنّ أصْحَابَ الجنَّةِ في الجنَّةِ يتَنعَّمُونَ بصُحْبَةِ أَزْواجِهم من الحور العين، وأزواجهم المؤمنات اللّواتي جَعَلَهنّ الله عزّ وجلّ بإيمانهِنّ من أهل الجنَّة.

دلّت على هذا المقطع من النّصّ عبارة: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾.

المقْطَعُ الرابع:

أنَّ أصْحَابَ الجنةِ في الجنَّةِ يَكُونُونَ في ظلال دائم من أشجار الجنَّةِ وقُصُورها، فَلا تُؤْذِيهم أشِعَّةُ شَمْسٍ بحرارَتِها وَوَهجها. ويَكُونون في ظُلَلٍ سَواتر، كما جاء في القراءة الأخرى.

الظُّلَلُ: جَمْع «ظُلَّة» وهِيَ كُلُّ مَا عَلَا فَأظَلَّ، مثل المظَلَّاتِ على اختلاف أشْكالها وأنواعها، ولو كانت لحجْبِ الأنْظَارِ أو للزينَة.

دَلَّتْ على هٰذا المقْطَع من النّصّ عبارَة: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ و[**في ظُلَلٍ**] كما جاء في القراءة الأخرى.

المقطع الخامس:

أنّ أصْحابُ الجنَّةِ في الجنَّةِ على الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُون.

قال المفسّرون: الأرائكُ هي الأسِرَّةُ فِي الحِجَال.

الحِجَال: جمع «حَجَلَة» وهي ساترٌ كالقبَّة يُزَيَّنُ بالثّياب والسُّتور للعروس، وسِتْرٌ يُضْرَبُ للعروسِ في جوف البيت.

وتطلقُ الأريكةُ في اللّغَةِ على كلِّ مَقْعَدٍ مُنَجّدٍ وثير، وعلَىٰ كلّ سَرِيرٍ عليه فراشٌ أَوْ فُرُشٌ مُنَجَّدَةٌ وثِيرَة، وقد يكون فوقَهُ حَجَلَةٌ ساترةٌ مزيَّنة.

ومن هذا نستطيع أن نتصوّر أنّ أرائك الجنَّةِ مقاعِدُ وأسِرَّةٌ عظيمة، ومِنْها ذواتُ حِجالٍ عظيمة الرّفاهية.

﴿مُتَّكِئُونَ﴾ جمع «مُتّكِئ» وهو القاعد المتمكّن من قُعُوده، إذْ يضَعُ كُلَّ ثِقَلِهِ على الأريكَةِ الّتي يَقْعُدُ عليها، ويُلْقِي ثِقَلَ يدَيْهِ علىٰ مَا يَحْمِلُهُما منْها، كذِراعَيْنِ مُنَجَّدَيْن أوحَشِيَّتَيْن، أَوْ نحو ذلك.

ومن الاتكاء الاضطجَاعُ علىٰ جَنْبٍ، فهو وسَطٌ بين الاضطجاع الكامل والجلوس.

والمترفون يحبّون الاضطجاعَ على جَنْب راحةً أو كبْراً.

دلَّ على هذا المقطع وصفهم في النَّصّ بأنّهم: ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾.

المقطع السادس: أنّ أصحاب الجنَّةِ في الجنَّةِ لَهُمْ فيها فَاكِهَةٌ، أي: لَهُم فيها فَاكهة كثيرة الأنواع والأصناف، وكثيرة الكَمّ والمقادير بحَسَب ما يَرْغَبُون.

دلّت على هذا المقطع من النّصّ عبارة: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ودلَّ التنكيرُ في لفظ: ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ على أنّها فاكِهةٌ كثيرة الكَمِّ، وكثيرة الأنواع والأصناف، فحذف صفة الاسم المنكّر قد يَدُلُّ مع القَرائن على التعميم والتكثير، أي: فاكهةٌ من كلّ الأنواعِ ومن كلّ الأصناف، وكثيرة جدًّا تفيضُ فوق رغباتِ الطالبينَ المتنعِّمِينَ بها.

وجاء في نُصُوص أخرى، أنَّ لهم من المطاعم غير الفاكهة، ما يشتَهُون، كلحمِ طيرٍ مشويّ وغير ذلك.

المقطع السابع:

أنّ أصحابَ الجنّةِ ذكوراً وإنَاثاً لهم فيها ما يَدَّعُونَ، أي: لهم فيها ما يَتَمَنَّون، من رغائب بَعِيدَةِ المنَالِ، أو متعذّرَتِةٍ في تصوُّرهم، لكِنَّ أَمَانِيَّ أَهْلِ الجنَّةِ سَهْلَةٌ مَيْسُورَةٌ، لَا شيءَ مِنْها يتَعَذَّرُ أوْ يَعْسُرُ الحصُولُ علَيْه، بخلافِ أمانيّ أَهْلِ الدُّنيا في الدُّنيا، فهِيَ عَسِيرَةُ الحصُول، أو متعذِّرةٌ، أو مستحيلَةٌ أحيانًا.

يقال لغة: ادَّعَىٰ الشَّيْءَ، أي: تَمَنَّاهُ وطلَبَهُ لِنَفْسِه، وهٰذا أَحَدُ معَاني هٰذا الفعلِ، وهو المناسِبُ هُنَا.

دلَّت على هذا المقطع من النصّ عبارة: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾.

المقطع الثامن:

أن أصحاب الجنة في الجنة يحييهم الله الرب الرحيم، وهم يتقلبون في أنواع النعيم الشاغل لهم بتحيةٍ منه، فيقول له «سلامٌ» وهذه التحية يسمعونها من ربهم، فتعمهم منه سعادة عظمى.

دلَّتْ على هذا المقْطعِ من النّصّ عبارة: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

جاء بيان هذا السّلام من رَبِّهم لهم مُقْتَطعاً من الحدَثِ الّذِي سَوْفَ يَكونُ لأصحاب الجنَّةِ وَهُمْ في الجنَّةِ يُنَعَّمُون، كاقْتِطاعِ الصُّوَرِ من أحداثِ الماضي، أَو أحداثِ المستقبل، وتقديمها عَرْضاً مُفَاجِئاً، دُونَ أَنْ يَكُونَ موصولاً صلَةً إعرابيَّةً على منهج النحاة بما قبْلَهُ من بيان، فَهُو على طريقة القرآن في عرض بعض الأحداث المستقبلِيَّةِ أَو الماضِيَة.

إنّه لمّا جاء في النصّ عرضُ بعض ما سَوْف يكُونُ لأهل دار النّعيم وهم يتنعَّمُون في الجنَّة، ولمَّا قدَّم هذا العرضُ مَشْهداً متحرَّكاً يُشْعِر المؤمنين بأنَّهم في الجنَّةِ تخيُّلاً، حَسُنَ في البيان أَنْ يُخاطِبَهُمُ الله بقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾.

وبما أَنَّهم في الدُّنيا لم يزالُوا في رِحْلَةِ امتحانِهِمْ جاءَ في البيان بَعْدَ عبارة «سَلامٌ» ما يَدُلُّ على أنَّه قولٌ موجَّهٌ لَهُم من رَبٍّ رِحيم.

فما ينالونَهُ من نَعيم في الجنَّةِ هو أثَرٌ مِنْ آثار رُبُوبيَّته تعالَىٰ خَلْقاً، وأثَرٌ من آثار رَحْمَتِهِ تعالَىٰ فضلاً.

وكلمة «سَلَامٌ» في النصّ مبتدأٌ، وهذا ممّا يجوز الابتداءُ فيه بالنكرة، وخَبَرُهُ محْذُوفٌ تقديرُهُ: «عليكم» وحُذِفَ للْعِلْمِ به، والتّنكيرُ والرَّفْع في لفظ «سلامٌ» للدلَالَة علىٰ عِظَمِ السَّلام واستمراريّته.

وعبارة: ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ حَالٌ. وهذا فيما أرىٰ أوْلَىٰ من الإعراباتِ الأخرى الّتي ذُكِرَتْ لهذه العبارة.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

تمهيد:

عرضت هٰذه الآيات السِّتّ لوحةً تصويريَّةً أخرى، لمَشْهَدٍ مِنْ أَحْوالِ المجْرِمينَ يَوْمَ الدِّين، وهُم أصحابُ جَهَنَّمَ الَّتِي كَانَ الكافِرُون في الدُّنْيا يُحَذَّرُون منها، ويُنْذَرُون بها.

وهذا المشْهَدُ في هذه اللّوحة منتزَعٌ مِنْ واقع ما سَوْفَ يَحْدُثُ يومَ القيامة بَعْدَ حَشْرِ الْخَلائِق وجَمْعِهِمْ، وتَهْيئَتِهِمْ لموقف الحسَاب وفَصْل القضاء بَيْنَ يَدَي اللَّهِ في محكمة العدْلِ الّتي يُقِيمُها لعباده.

ويظهر أنّ هذا المشْهَدَ يَحْدُثُ مَعَ مَنْ بقي في الموقف لم يُحَاسَبْ بَعْدُ، ولَمْ يُقْضَ بشَأْنِهِ مِنْ بَنِي آدم، وهُمُ الْمُجْرِمُونَ الكافرون، ومُرْتَكِبُوا الكَبائِر من المؤمنين، ومنهم أَهْلُ الأعراف.

فَبَيْنما يكونُ أصْحَابُ الجنَّةِ الأوّلُونَ، المستَحِقُّونَ لَهَا بالوعْدِ الرَّبَّانِيّ الكريم، في شُغُلٍ فاكِهِينَ، هُمْ وأَزْوَاجُهُمْ في ظِلَالٍ على الأرَائِكِ مُتَّكِئونَ، لأنّ الله عجّلَ لهم الحسابَ وفصْلَ القضاء، أو أدْخَلَهُمُ الجنَّة بغَيْرِ

حسَاب، فهم في منازلهم في الجنَّةِ وفي نَعِيمها يَتَقَلَّبُونَ، تَحْدُثُ مَقَاطِعُ هٰذِهِ اللَّوحَةِ الخاصَّةِ بالباقين، وفيهم الكافرون المجرمون.

فهمْنَا هذا أخذاً مِنْ دَلاَلَةِ اللَّوحَةِ السَّابِقَة، الخاصَّةِ بأصْحاب الجَنَّةِ الأولين، إذْ جَاءَ في صَدْرِهَا قَول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

وبَعْدَ عَرْضِ هٰذِهِ اللَّوْحَةِ التصويريَّة، جاء عرضُ اللَّوْحَةِ التصويريَّة الخاصَّة بِمَنْ بَقِيَ في الموقف لَمْ يُحَاسَبُوا بَعْدُ، وفيهم المجرمون.

ونلاحظُ أيضاً في هٰذِهِ اللَّوْحَةِ التصويريَّةِ الثانية، أَنَّها صُورَةٌ مُنْتَزَعَةٌ من الواقع الّذي سوف يَحْدُثُ يوْمَ الدِّين، ومُقَدَّمَةٌ في صورة مَشْهَدٍ مِنَ المشاهد.

وفي هذا المشْهَدِ خطابٌ للمجْرِمين بتَأْنيبٍ وتَثْرِيب، بَعْدَ تمِيْيزٍ وعَزْلٍ لهم، إذْ يأمُرُهُمُ اللَّهُ بأنْ يمْتَازُوا. وفيه حديثٌ عن بَعْضِ ما يَجْرِي في محاسَبَتِهم.

التدبّر:

هذه اللَّوحَةُ التصويريَّةُ مُؤَلَّفَةٌ من ثَمَانِيَةِ مَقَاطع، مُنَاظِرَةٍ لمقاطع اللَّوْحَةِ الأولى عدداً، والخاصَّة بأصْحَاب الجنَّةِ الأوّلين.

المقطع الأول:

دَلّ عليه قول الله تعالى في النصّ: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ خطابٌ يُوجَّهُ للمجْرِمين، أي: انْفَصِلُوا وتَنَحَّوْا إلى جِهَةٍ خاصَّةٍ بكم عَنْ سَائِر من بَقِيَ منْ أَهْل الموقفِ من بَنِي آدم، لم يُحَاسَبْ بَعْدُ، ولَمْ يُفْصَلْ بشَأْنِه القضاء.

يقال لغةً: «امْتَازَ» الرَّجُلُ و«تَمَيَّزَ» أي: صَارَ في ناحِيَةٍ مُنْفصِلاً عَنْ غَيْرِه.

ويقال: «امْتَازَ» القَومُ، أي: انْفَصَل بعضُهُمْ عَنْ بعْضٍ.

وتوجيه الأمْرِ للمجرمين يوْمَ الدّين بأنْ يمْتَازُوا مُنْفَصِلِينَ، توجِيهٌ لَا يَسْتَطِيعُونَ مخالفتَه، وقد يكونُ أمْراً تكوينيًّا يَجْعَلُهُمْ يَمْتَازُونَ بالجبْرِ، فَيَجدُونَ أنفُسَهُمْ مُنْفَصِلِينَ في مكانٍ خاصٍّ بهم، هو أقربُ إلىٰ جِهَةِ دَار العذاب، بدليلِ نُصُوصٍ قرآنيّةٍ أخرىٰ، منها:

(١) قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾.

(٢) وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُجْمَعُونَ في مَكَانٍ خاصٍّ ويُحْصَرُونَ فِيه:

(٣) وقول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: يُجْمَعُونَ في مكانٍ هُو أقْرَبُ إلىٰ جِهَةِ جَهَنَّم.

المقطع الثاني:

دلَّ عليه قولُ الله تَعالَى في النّصّ: ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾﴾:

خطابٌ سَوْفَ يُوَجَّهُ لكُلِّ مَنْ لَمْ يُحَاسَبْ بَعْدُ مِنْ أَهْلِ الموقف من بني آدم، مُجْرِمينَ فَمَنْ هُمْ أقلُّ مِنْهُمْ إثماً من الْعَصَاةِ الَّذِينَ لَمْ يَشْمَلْهُمْ الْعَفْو مع أَهْل الجَنَّةِ الأَوّلين.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾: أي: ألَمْ أُوصِكُمْ وَصِيَّةً مُوثَّقةً فِيما أَمَرْتُكُمْ به ونَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وفيما بَشَّرْتُكُمْ بِهِ من خُلُودٍ في دار النعيم إذَا آمَنْتُمْ وأَطَعْتُمْ فَعَبَدْتُموني، وفيما أَنْذَرْتُكُمْ به من عَذابٍ في دار العذاب، إِذَا أَطَعْتُم الشيطانَ فَعَبَدْتُموهُ وعَصَيْتُمْ أَمْري، واسْتَكْبَرْتُم عن عِبَادَتي.

العَهْدُ: يأتي في اللُّغةِ بمعانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، منها: الوصِيَّة، وكُلُّ ما أمر الله به ونَهَىٰ عَنْه. ومنها: ما يكُونُ بَيْنَ العباد من مواثيق يَلْتَزمُونَ بما جاء من بُنُودِها. ومِنْها: اليمين، والوفاء، والأمان، والحِفَاظِ، ورعَايَةُ الحُرْمَة، ويُطْلَق الْعَهْدُ على الزّمان.

يقال لُغَةً: عَهِدَ فُلَانٌ إلى فُلَانٍ عَهْداً، أي: أَلْقَىٰ إِلَيْهِ الْعَهْدَ وَأَوْصَاهُ به.

ويُقال: عَهِدَ إِلَيْهِ بالْأَمْرِ، وعَهِدَ إليه في الأمْر، أي: أَوْصَاهُ به.

أمّا الْعَهْد بين الله وبيْن عبادِه المكلّفِين فقد تضمَّن أن يُؤْمِنُوا به وبما جاء من عنْده، وأنْ يَعْبُدوه ولَا يُشْرِكوا بعبادته شيئاً، وأن لَا يَعْبُدوا الشَّيطان ولا يَتّبعوا خُطُواته، فَمَنْ آمَنَ وأَطَاع اللَّهَ ربَّهُ، أدْخَلَهُ يوْم الدّين جنَّاتِ النَّعِيم، وجعَلَهُ خالداً فيها بلا نهاية، ومَنْ كَفَرَ باللَّهِ وأطاع الشيطان واتَّبَع خُطُواتِه، أدْخَلة يومَ الدّين دارَ العذاب النار، وجعلَهُ خالداً فيها بلانهاية.

ومَنْ آمَنَ بالله إيماناً صحيحاً، وأَعْلَنَ إيمانَهُ وإِسْلامَهُ صادقاً، لكنَّهُ عصَىٰ اللَّهَ في أوامره ونواهيه، فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ من عقاب الله بالْعَدْلِ على مقاديرِ معَاصِيه، وقد يَغْفِرُ اللَّهُ له من ذُنوبِه على وفق حكمته.

هذا موجز الْعَهْد بَيْنَ الله وبَيْنَ عبادِهِ المكلفين من بني آدَم، منذ بَدْء تاريخ وُجُودِ الإنسان على الأرض، وحتَّىٰ إقفالِ باب التوبة بالنسبة إلى العباد.

أمّا البنُود المتعلّقَةُ باللَّهِ الرَّبّ الخالق جلّ جلالُهُ فهي مستمرّةٌ خالدةٌ بِلا نِهَاية.

وجاء تفْسِير بَعْضِ ما تضمَّنَهُ عَهْدُ الله لعباده في النّصّ، بقول الله تعالى فيه: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾.

﴿أَن﴾: تَفْسِيريَّة، فقد جاءتْ بَعْدَ عِبَارَة: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ إذْ فيها معْنَىٰ الْقَوْلِ دُون حُرُوفه، كما يَقُولُ النحويّون، وجاء بَعْد ﴿أَن﴾ التفسيريَّة بيانٌ لبَعْضِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْعَهْد.

فَمِنْ بُنُودِ الْعَهْدِ نَهْيُ بَنِي آدَم عن عِبَادة الشَّيْطَانِ لأنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لهم.

إنَّ عبادَة الْعَبْدِ لسَيِّده تتحقَّقُ بأَنْ يَقُومَ الْعَبْدُ بمَطْلُوبِ سَيِّدِهِ مِنْه، ومَطْلُوبُ الله من عباده سبَقَ آنِفاً بيانُه.

ومَطْلُوبُ الشَّيْطانِ من عبادِ الله، أَنْ يَكْفُرُوا بِرَبِّهِمْ، ويَعْصُوا أوامِرَ اللَّهِ وَنَواهِيَه، ورَغْبَةُ الشيطان أن يكُونَ بَنُو آدَمَ معذَّبينَ مَعَهُ في جَهنَّمَ.

فالّذِينَ يَكْفُرُونَ بِرَبّهم ويَعْصُونَ أوامِرَهُ ونواهِيَهُ تَأَثُّراً بوَسَاوِسِ الشيطانِ وتَسْويلاته، فإنَّهُمْ يُحَقِّقُونَ في أنفسهم مَطْلُوبَ الشيطان منهم، وهو على النقيض من مطْلُوبِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ منهم.

وبمقابَلَةِ النَّقِيضِ بالنَّقِيضِ يَظْهَرُ أَنَّهُمْ كانوا يَعْبُدونَ الشيطان، بِطَاعَتِه فيما دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، ومَا كانوا يَعْبُدون اللَّهَ رَبَّهم.

وقد أبانَ الله عزّ وجلّ في وصاياه الَّتي بلَّغَها عَنْهُ رُسُلُهُ الَّذِينَ أرْسَلَهُمْ إلى بَني آدم هذا العنْصُرَ من عناصِرِ عَهْدِهِ إِلَيْهِم.

وأبانَ لهمْ أنّ الشيْطان عَدُوٌّ مُبينٌ لهم، أي: عدُوٌّ واضح العداوة، إذْ يَدْعُوهُمْ إلى سُلُوكِ سبل توصلهم في غاياتها إلى عذاب السّعير.

﴿مُّبِينٌ﴾ من فعل «أَبَان» وهذا الفعلُ يأتي لازماً ومُتَعَدِّياً، واللازم منه هو بمعنى «ظَهَرَ وَوَضَحَ» واسم الفاعل منه «مُبِين» أي: ظاهر واضح، وما جاء في النّصّ هنا هو على هذا المعنى.

وقد قَصَّ الله عزَّ وجلّ في القرآن الكريم لبَنِي آدَمَ، قصَّةَ الشَّيطان مع أَبَويَهْم في الجنّة، وكيف أخرجَهُما منْها بوساوسه.

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

بيانٌ مُصَدَّرٌ باسْتِفْهَامٍ تَوْبِيخيٍّ يُوجَّهُ للمجْرِمِين الكفرة، وَلِسَائر العصاة الَّذِين لم يَشْمَلْهُمُ الْعَفْوُ في موقف الحشر.

والجواب الصادق لهذا الاستفهام التوبيخيّ يكون بعبارَةِ: بَلَىٰ.

المقطع الثالث:

دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلَّ في النّصّ: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

وهذا خطابٌ يُوجَّهُ أيْضاً لِكُلِّ مَنْ لَمْ يُحَاسَبْ بَعْدُ مِنْ أَهْلِ الموقف، وقد اشتمل على تَفْسِيرٍ لبَعْضِ عناصِرِ الْعَهْدِ الّذِي عَهِدَ اللَّهُ بِهِ إلى بني آدم.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ﴾: أي: وأَنْ حَقِّقُوا مَطْلُوبي مِنْكُمْ، فَأَنْتُم عِبَادِي، وأنا رَبُّكُمْ، والمعنى: فإذَا حقَّقْتُم مطْلَوبي مِنْكُمْ حَمَيْتُكُمْ مِنْ عذابي، وأَدْخَلْتُكُمْ جَنَّتِي.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: أي: إنَّ مَا أمَرْتُكُمْ بِهِ من عبادتي هو صراطٌ مُسْتَقِيمٌ لَكُمْ يُوصِلُكُمْ إلَىٰ الْخُلُودِ في دار النَّعيم.

الصّراط: الطريق الواضح المُبِين الّذي لا ظُلْمَةَ فيه ولا غَبَش، وهو

الدّين الّذي بعَثَ اللّهُ بهِ رُسُلَه إلَىٰ عباده، وأَمَرَهم بسُلُوكه واتّباعِ شرائعِه وأحْكَامِه وَوَصَايَاهُ فيه[1].

المقطع الرابع:

دلَّ عليه قول الله عزَّ وجل في النص: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا... (٦٢)﴾ وهذا خِطابٌ من الله عزّ وجلّ يوجَّهَ أيضاً لكُلّ مَنْ لم يُحَاسَبْ بَعْدُ من أهْلِ الموقف.

أي: ولَقَدْ أَضَلَّ الشَّيْطانُ منْكُم وهو الْعَدُوُّ المبينُ لَكُمْ جِبلًا كثيراً، أي: جَمْعاً كثيراً منكُمْ، إذِ اسْتجابُوا لدَعْوتِه، واتَّبَعُوا خُطُواتِه، وغَرَّتْهُمْ زِيناتُ الحياة الدنيا، الَّتِي خَدَعَهُمْ بها بالباطل.

سَبَق بيان القراءات في كلمة «جبلًا». وبيان أنّ معنَىٰ الجِبلّ في اللّغَةِ: الأمَّةُ من الخلْقِ، والجماعة من الناس.

وجاء وصْفُ ﴿جِبِلًّا﴾ بمعنَىٰ الأمَّة والجماعَةِ من الناس بلَفْظِ [كثيراً] وهُو مفرد، لأنَّهُ على وزن «فَعِيل» وهٰذَا الوزْنُ قد يَسْتَوِي فيه المذكّر والمؤنَّثُ والمفردُ والمثنّىٰ والجمْعُ، ولَوْ كَانَ بمعنى «فاعل» إذْ لَهُ نظائِرُ مُتَعدِّدَةٌ في القرآن.

أمَّا إذا كان هذا الوزن بمعنى «مفعول» فهو كذلك دواماً عنْد النحاة.

وقالوا في تخريج لفظ «كثيراً» في النصّ هنا: معناه معنى الجمْعِ، فأغْنَىٰ المعنَى عن جَمْع اللَّفظ.

﴿وَلَقَدْ﴾: أي: وَأُأَكِّدُ لَكُم، فالّلام وحرف «قَدْ» يُفِيدان التأكيد.

---

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق تدبّر سورة (الفاتحة) حول ألفاظ «سبيل ـ طريق ـ منهاج ـ صراطَ» في القرآن.

﴿أَضَلَّ﴾: أي: كانَ الشَّيْطان السَّبَبَ في إضْلَالِ أُمَّةٍ كثيرةٍ منكم، بوساوسِهِ وَتَسْويلاته، وإغراءاته ومخادعاته، إذِ استجابوا لدَعْوَتِهِ ووسَاوِسِه وإغراءاته، وكان السَّبَبَ في إخراجِهم عن الصراط المستقيم، الّذي هو صراط الله لعباده.

وكوْنُ الشيطان سَبَباً في إغوائهم وإضلالهم، لا يُخَفِّفُ من جرائمهم شيئاً، لأنّهم استجابوا له بإراداتهم الحرَّة، لتحقيقِ مطالب نفوسهم وشهواتهم وأهوائهم من زينَةِ الحياة الدنيا، وأعْرضُوا وأدْبرُوا وَتَوَلَّوْا عَنْ دَعْوة الله لهم إلى الصراط المستقيم، وإلىٰ النجاة والْفَوْزِ بجنَّاتِ النّعيم، فمَسْؤُلِيَّتُهم عن اختياراتِهِمُ الحرَّةِ مسْؤُوليَّةٌ تامَّة.

المقطع الخامس:

دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ في النّصّ: ﴿. . أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وهذا خِطَابٌ من الله عزّ وجلّ يُوجَّهُ أيضاً للّذين لم يحاسَبُوا بَعْدُ من أهل الموقف.

في هذه العبارة استفهامٌ توبيخيٌ، فيهِ تأنيبٌ وَتَثْرِيبٌ وإنكار عليهم بالِغٌ، إذْا لم يَسْتَعْمِلُوا عقولَهُمْ فيما خَلَقَها الله له، حتى كأنَّهُمْ قَدْ كانوا في الحياة الدنيا لَا يَعْقِلُون.

أي: أَسُلِبْتُمْ قُدْراتِ التفكير فيكُمْ، وسُلِبْتُمْ إراداتكُمُ الضابِطَةَ لأهوائكم وشهواتكم، ونزعاتكم ونزغاتكم فَلَمْ تكُونوا تَعْقِلُونَ.

العقل: يُطَلقُ في التعبيرات القرآنيَّةِ بمعنَيْن:

المعنَىٰ الأوَّل: العقل العلميّ، وبه تُدْرَكُ مَسَائِلُ المعرفة، وتحفَظُ معْقُولةً في الذاكرة، وقد جاءَتِ البيانات الدينيّة في كتاب الله وسُنَّةِ رسُولِه، لتُدْرَك معانيها وحقائِقُها، ولتحْفُظَ في الذاكرة، فتكُونَ ذِكراً عند كلّ مُنَاسَبَةٍ تَسْتَدْعِي منْها شيئاً.

المعنى الثاني: الْعَقْل الإرادي، وبهِ تُضْبَطُ النَّفْسُ عن اتّباع الأهواء والشهوات، والنزعات والنزغات الجانحات، المؤديات إلى عقاب الله وعذابه، وعن الاستجابة لوساوس الشياطين وتسويلاتهم، وعن اتّباع خطواتهم.

إنّ إبليسَ الشيطان الأكبر، وسائر جنوده يَعْمَلُونَ دواماً على إخراج بني آدم من صراط الله المستقيم، أو صَدِّهم عنه، وعلى اسْتِدْرَاجهم إلى السُّبُل الجانحة عن صراط الله، والضالَّة في متاهات الشّرّ والغيّ، والفسادِ وَالإفساد في الأرض، وهي السُّبُل الَّتِي تُؤَدّي بهم إلى عذاب النار، والشقاءِ الدّائم والخزْي والنَّدَامَة.

ومِنْ معنَى الْعَقْل في اللّغة الّذي هو إدْرَاكُ الشيْءِ وَرَبْطه، أُخِذَ لَفْظُ «الْعِقَال» وهو الحبْلُ الّذي يُعْقَلُ به البعير، ويكونُ عقْلُهُ بضَمِّ رُسُغِ يَدَيْهِ إلى عَضُدِه، ورَبْطِهِما معاً بالعقال، لِيَبْقَىٰ بَارِكاً.

المقطع السادس:

دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في النّصّ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣﴾.

هذا خطابٌ من الله رَبّ العباد، يُوجّهُهُ يَوْم الدِّين للكافرين المجرمين، الذينَ كانوا في الحياة الدّنيا يكَذّبُونَ بالبعث، وبأنباءِ ما بَعْدَ البعث، إذْ تكونُ الجحيم قد بُرّزَتْ وَأُظْهرت لهم، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١﴾:

﴿وَبُرِّزَتِ﴾: أي: وأظْهِرَتْ، فصار الراؤُون يَرَونها.

﴿ٱلْجَحِيمُ﴾: اسم من أسماء النار دار عذاب المجرمين يوم الدين، وكُلُّ نارٍ عظيمةٍ في مَهْواةٍ تُسَمَّى جحيماً في اللُّغَة.

﴿لِلْغَاوِينَ﴾: الغاوُون جمع «الْغَاوي» وهو الضّالُّ الخائب الفاسد، يُقَال لغة «غَوَىٰ يَغْوي غَيًّا فهو غاوٍ» ويقالُ: «غَوِيَ يَغْوَي غَيًّا فهو غاوٍ» أي: ضلّ وخابَ وفسَد، وترك سَبيل الرَّشد، عن قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ اتباعاً للهوى.

وضدُّ الغَيّ «الرَّشد» وهو الالتزام بالْهُدَىٰ والحقّ والخير، عن بَصِيرَةٍ وقَصْد لهذا الالتزام.

وكما قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول:

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

وإذْ صارت جهَنَّمُ قَرِيبةً مِنْهُمْ يُدْرِكونَها بِبَعْضِ حَوَاسِّهِمُ الظاهرة، يُقَال لهم:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾: أي: التي كَانَ اللَّهُ ورُسُلُهُ يُنْذِرُونكم بعذابها، وكُنْتُم بها تُكَذِّبُونَ، وكُنْتُمْ بها تَسْتَهِينُونَ، فلَا تَحْذَرُونَ عذابَ الله فيها، ولَا تَتَّقُونَهُ بطاعته، والْعَمَلِ بما طَلَبَ مِنْكُمْ مِنْ عبادته.

وَهَلْ بَعْدَ الشُّهُودِ الحسِّيِّ إمْكَانٌ لإنكار أَوْ تَكْذِيب، أو مجالٌ للاسْتِهانَةِ وَعَدَمِ المبالَاةِ؟!

﴿جَهَنَّمُ﴾: اسْمٌ عَلمٌ من أسْماء النّار الّتي أعَدَّهَا اللَّهُ ليُعَذِّبَ فيها الكافرين والعصاة يومَ الدّين، وهو ممنوعٌ من الصرف للعلمية والتأنيث.

ويقال لغة للقَعْرِ البعيد جهَنَّم، وبِئْرٌ جَهَنَّمٌ أي: بعيدةُ القعر.

﴿تُوعَدُونَ﴾: الوعْدُ: هو الإخبار بما تَمّ العزْمُ على فعله في المستقبل، ويكون في الخير، وفي الشرّ، يقال لغة: وَعَدَهُ بنفع، ووَعَدَهُ بضُرّ.

أمّا الوعيد والإيعاد، فهما في الشرّ خاصّة.

قال الأزهري: كلامُ الْعَرب: وَعَدْتُ الرَّجُلَ خيراً، ووَعَدْتُه شرّاً.

المقطع السابع:

دلّ عَلَيْهِ قول الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

هذا خطابٌ من الله جلّ جلالُهُ يُوجّهه يوم الدّين للكافرين المجرمين خاصَّة.

﴿ٱصْلَوْهَا﴾: أي: ادْخُلُوهَا واحْتَرِقُوا بنَارِها. يقالُ لغة: صَلِيَ النَّارَ وَصَلِيَ بِها، أي: احتَرَقَ فيها، ولامَسَ جَسَدُهُ لَهَبَها مُحْتَرِقاً به.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾: أي: الْيَوْمَ الّذي هو يَوْمُ الدّين والجزاء، على ما سبَقَ أنْ قَدَّمْتُمْ في يوم الامتحان والابتلاء.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: أي: بسَبَبِ مَا كُنتُم في رحلة الحياة الدنيا تكْفُرُون، فما كَانَ يأتيكُمْ مِنْ حَقٍّ من ربّكم في أزمان حياتكم الأولى إلَّا كُنْتُم تكْفُرُونَ به، حتَّىٰ انْتَهَتْ أعمارُكُمْ فيها وأنتم توالُون كُفْرَكم بالحقّ من رَبّكم.

وقد سبَق بيانُ أنَّ الله عزّ وجلّ ميّزَهم عن سائر أهل الموقف بقوله لهم: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ والمجرمون في الاستعمال القرآني هُم الكُفّارُ الذين يسْتَحقّونَ الخلُود في عذاب جهنّم، ويسْتَحقُّون الاحتراقَ بلَهَبِ نيرانها.

﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أمْرٌ تكْوينيٌّ من الله العزيز القهار الجبَّار يَدْخُلونَ به النّار قهراً.

وقد تقوم ملائكة التعذيب بتنفيذه فيهم، وفي توجيه هذا الخطاب لهم إهانَةٌ وإذْلَالٌ وتقريعٌ وَإخزاءٌ.

ويكون إدْخَالُهُمُ النَّار وتَصْليتهم بلهبِها بَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ والحكْمِ عليهم.

المقطع الثامن:

دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

في هذه الآية بيان لما يحْصُل قَبْلَ الحكْمِ علَيْهم بالتَّصْلِيَةِ في جَهَنَّم، وهو بمثابة الخبَرِ لما هُو مقرَّرٌ أنْ يحصُل يوْم الحسَاب وفَصْلِ القضاء.

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: المرادُ بكلمة ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يَوْمُ الحساب والْخَتْمُ على أفواهم كِنَايَةٌ عن إقْفَالِها إقفالاً لَا يَسْتَطِيعُونَ معه الكلام. فالأبوابُ إذا أُقْفِلَتْ وَوُضِعَتْ أخْتامُ الطِّينِ السُّلْطانية على الأقفال كان ذلِكَ دَلِيلاً علىٰ أنَّ الحكْمَ بإقْفالها حُكْمٌ مُبْرَمٌ، فَلَا تُفْتَحُ إلَّا بأمْرٍ سُلْطَاني.

وبهذا تكُونُ أفواهُهُمْ عاجزةً عجْزاً كُلِّيًّا عَنْ أيّ كلام.

ولَيْسَ المرادُ أَنَّ أفواهَهُمْ تكونُ كذلِكَ طَوَالَ يَوْمِ الحسَاب، بَلْ يُخْتَمُ عَلَيها إذا سُئِلُوا سَاعَةَ مُحَاسبتِهِم فجَحَدُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كافرين، وأَنَّهُمْ كانُوا طُغَاةً مُجْرِمِين، فَيُخْرِسُ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ أَلْسِنَتَهُمْ، ويَحْبِسُ أفواهَهُم، فلا يَسْتَطِيعُون النُّطْقَ حتَّىٰ لَا يُثَرْثِرُوا بالْأَكاذِيب وأقوالِ الجحود.

وتُسْتَنْطَقُ جوارِحُهمُ الْأُخرىٰ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أيديهم وأَرْجُلُهُمْ بما كانُوا يكْسِبُونَ في الحياة الدنيا.

وقد جاء بيَانُ هذا في السُّنَّة، فقد أخرج أَحْمد ومُسْلم والنسائيّ وغيرهم، عن أنسٍ رضي الله عنه قال: كنَّا عنْدَ النبيّ ﷺ، فضحِكَ حتَّىٰ بَدَتْ نواجِذُه[1].

---

(١) نواجذه: أي: أضراسه.

قال: «أَتَدْرُونَ مِمَّ ضَحِكْتُ؟»

قلنا: لَا يَا رَسُولَ الله.

قال: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فيقول: بَلَىٰ. فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَيَّ إِلَّا شاهِداً مِنّي، فيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وبالْكِرامِ الكاتِبينَ شُهُوداً، فَيُخْتَمُ علىٰ فِيهِ، ويُقَالُ لِأَرْكانِهِ انْطِقِي، فتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وبَيْنَ الكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ».

أُنَاضِلُ: أي: أحامِي وأُدافِعُ: يُقَالُ لغة: ناضَلَ فلانٌ عن فلانٍ مُنَاضَلَةً ونِضَالاً، أي: حامَىٰ ودافع عنه.

هكذا يُفْعَلُ بالكافر الصَّرِيح، وكذلك يفعلُ بالمنافق، كما جاء في حديثٍ آخر، رواه مُسْلِمٌ وغَيْرُهُ عن أبي سعيد الخدريّ، وعن أبي هريرة.

أمّا ما جاء في سورة (النُّور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) من شهادة الألْسُنُ معَ الأيدي والأرْجُل، فقد جاء بشأن الَّذِينَ يَرْمُونَ المحصَناتِ الغافلات المؤمنات، إذْ جاء فيها قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فهذا النَّصُّ جاء في معرض الحديث عن أهْلِ الإفْكِ على عائشة أمّ المؤمنين، رضي الله عنها، وقد كان فيهم مؤمِنُونَ وَمُنافِقُون.

أمّا المؤمِنُون مِنْهُمْ فيعْتَرِفونَ بألْسِنَتِهِمْ. وأمّا المنافِقُونَ، فإذَا كذَبُوا حينَ تُعَبِّرُ أَلْسِنَتُهُمْ عَمَّا يُرِيدُونَ، أنْطَقَ اللَّهُ أَلْسِنَتَهُمْ بِمَا صَدَرَ مِنْهَا من إفْكٍ في الحياة الدُّنيا، كجارِحةٍ تَنْطِقُ بِمَا عَمِلَت، لَا أَلْسِنَةً تُعَبِّرُ عَنْ إراداتهم، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١٠)
التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة وهو الآيات من (٦٦ ـ ٦٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

القراءات:

(٦٧) • قرأ جمهورُ القرّاء العشرة: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ بالإفراد.

وقرأ شُعْبَةُ عَنْ عَاصِم: [**عَلَى مَكَانَاتِهِمْ**] بالجمع.

المكَانَة، مثلُ المكَانِ: وهو الموضع، الذي يكون فيه الشَّيْء، إذْ يحْتَل فيه فراغاً على مقداره، ويُطْلَقَان على المنزلة المعنوية.

وقراءتا الإفراد والجمع بمعنى واحد، لأنّ اسم الجنس المضاف إلى الجمع يُعمُّ أفراد الجمع. وقد يكونُ في عبارات: [**مَكَانَاتِهِم**] إشارةٌ إلى مسْخٍ جماعي، يكون لهم معَهُ مكانَةٌ جماعيَّةٌ واحدةٌ مكتسبَةٌ من هيئتهم الجماعية، فتكونُ القراءتان متكاملتين في المعنى. أي: ولو نشاءُ لمسخناهم وهم على مكاناتهم الاجتماعيَّة التي يشتركون فيها بوصْفِهِمْ أمَّة. ولمسخناهم على مَكانةِ كلّ فردٍ منهم باعتباره ذا مَكَانَةٍ خَاصَّة، في أُمَّتِه وجماعته، إذا حَمَلْنَا لفظ المكانَةِ على المنزلة المعنوية. أمّا إذا حَمَلْنَا المكانة على المكان بمعنى الموضع الذي يكون فيه الشيء أو الكائن، كما جاء في أقوال المفسرين، وأنّ المكانة مؤنث المكان، فالقراءتان متكافئتان.

(٦٨) • قرأ جمهور القرّاء الْعَشَرة: [**نَنْكُسْهُ في الْخَلْقِ**]: من فعل «نَكَسَ» بالتخفيف، يقال لغة: «نَكَس فلان الشَّيْءَ يَنْكُسُهُ نَكْساً» أي: قَلَبَهُ وجَعَلَ أعلاه أسْفَلَه، أو جعلَهُ يميلُ شيئاً فشيئاً إلى أسْفلِه.

وقرأ عاصمٌ، وحمزة: ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾: من فعل «نَكَّسَهُ تَنْكِيساً» بالتشديد للتكثير.

والقراءتان متكاملتان في تأدية المعنى المراد، لأنّ من الناس من يضْعُف ويعجز عَجْزاً غَيْر كَثيرٍ بالشيخوخة والهَرم، ومن الناس مَنْ يضْعُفُ ويعجَزُ عجزاً كثيراً بالشيخوخة والهرم.

فَمِنَ النَّاس مَنْ يُنْكَسُ، ومن الناس منْ يُنَكَّسُ.

ومَعَلُومٌ أن مَنْ كبرَت سنُّهُ إلى مَرْحَلَةِ الشيخوخة فالهَرَم، رُدَّ إلى حالةِ عجْزٍ وضَعْفٍ، كما كان عند طفولَتِه عاجزاً ضعيفاً، إلى أنّ الطّفْلَ يتصاعَدُ إلى القوة، وأنَّ الشيخ الْهَرِمَ يَتَنَازل إلى الضّعْف والعجز.

(٦٨) • قرأ نافع وابن ذكوان، وأبو جعفر، ويعقوب: [**أَفلا تَعْقِلُونَ**] بضمير المخاطبين.

وقرأ بَاقي القراء العشرة: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بضمير الغائبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

تمهيد:

هذا درسٌ يُنْذِرُ الله عزّ وجلّ به المعنيِّين في بدايَة السورة، وهم عُتَاةُ مُشرِكي مكّة، ثمّ من كان على شاكِلَتهم إلى أن تقومَ السّاعة، وهم الذين قال الله عزّ وجلّ بشأنهم في أوائل السُّورة:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾.

وقال بشأنهم أيضاً:

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

التّدبّر:

قول الله تعالى:

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦﴾:

جاء التعبير بضمير المتكلّم العظيم: **[وَلَوْ نَشَاءُ]** ـ **[لَطَمَسْنَا]** للدلالة على جبَرُوت سُلْطان الرُّبوبيّة.

[لَوْ] شرطِيَّةٌ للتعْليق في المستقبل، وهي هنا مثل «إنْ» الشرطية.

﴿لَطَمَسۡنَا﴾: طَمْسُ الشيءِ، والطَّمْسُ عليه، يأتيان بمعنى التشويه والْمَحْوِ والإزالة.

يقال لغة: طَمَسَت الرِّيحُ الأثَر، أي: أزالَتْهُ ومَحَتْه.

وطَمَسَ الْغَيْم الكواكب: أي: حجَبَ ضَوْءَها. وطمَسَ الله عَيْنَ فلان، وطمَسَ على عيْنِه، أي: أعماها، وأزالَ قُوَّةَ إبصارها ومَحَا رُؤْيتها.

﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾: أي: جاوَزُوه وَتَرَكُوهُ فَضَلُّوا وسَارُوا في المتاهات. **الصّراط**: الطريق الواضح الجليّ.

فالمعنى: وَلَوْ نَشَاءُ في كُلِّ لحظَةٍ من لحظاتِ مستقبل وُجُودِهم في الحياة الدنيا، طَمْسَ أَعْيُنِهم وجعْلَهُمْ عُمْيَاناً بتَعْذِيبٍ دُون الإهلاك، لطَمَسْنَا علىٰ أَعْيُنهم، فإذَا سَارُوا يبتَغُون مَكاناً مَا، وأَرَادُوا أن يسْلُكُوا إلَيه الطّرِيقَ الواضِحَ الْجَلِيّ، الَّذِي لا يَضِلُّ فِيه ولا يضِلُّ عنْهُ ذو نظَرَ ما مهما كان ضَعيفاً، لتجاوزوه، ولتركُوهُ ضالين عنه، لانْطِماسِ أبْصارهم انطِمَاساً كاملاً، إذْ مَحَا الله عزّ وجلّ منها الْقُدْرَة على الإبْصارِ، وإذا محا الله عزّ

وجل من عيونهم القدرةَ على الإبصار مَحْواً كُلِّيًا، فإنَّهُمْ لَنْ يُبْصِرُوا شيئاً.

وجاء التعبيرُ عن اسْتِحالة إبْصَارِهم إذَا طَمَسَ اللَّهُ على أعينهم بقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؟!

﴿فَأَنَّىٰ﴾: أنّىٰ: تأتي استفهاميّةً بمعنى: «من أين»؟. وتأتي بمَعْنَىٰ: «كيف»؟. وتأتي بمعْنَىٰ: «متى»؟. وتأتي بمعنى: «حيث».

ويمكن حَمْلُ ﴿فَأَنَّىٰ﴾ في النصّ هنا على معنى: فمِنْ أيْنَ يُبْصِرُونَ بعْدَ أن يَطْمِس الله أبصارَهم؟! وعلى معنى: فكَيْفَ يُبْصِرُون؟!

وهو استفهامٌ يبيِّن استحالَة قُدْرَتهم على الإبصار، إذا شاءَ الله عزّ وجلّ سَلْبَهُمْ هذه القدرة.

وفي هذا تَهْدِيدٌ بتعجيل جُزْءٍ من عقوبتهم في الحياة الدنيا.

قول الله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

[لَمَسَخْنَاهم] جاء التعبير بضمير المتكلم العظيم، **المسخ**: تحويل صُورَةٍ إلى صورة أخرى مشوّهة قبيحة، ومنه مسخ الإنسان إلى نحو قِرْدٍ أو خنزِير، أو إلى جَسَدٍ مُقَطَّعِ الأيدي والأرْجُل يَثْبُتُ في مكانِه، فلا يقْدِر على حركةٍ ما، مُضِيًّا إلى الأمام، أو رجوعاً إلى الوراء.

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: على الموضع الذي هم فيه، أو على المنزلة الاجتماعية التي هم فيها، كما سبَقَ بيانُه آنفاً.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا﴾ أي: فما اسْتَطاعوا ذَهاباً أمامَهُمْ، يقال لغة: مضىٰ في الطريق، أيْ: ذهَبَ فيه ولم يتوقَّفْ فالمضيُّ هو الذهابُ دون توقف، وهو مصْدَر مضى، تقول لغة: مضىٰ الشيء يمْضِي مُضِيًّا ومضاءً، أي: مرَّ وذهب دون توقف. ومنه مُضِيُّ السيف ومضاؤُه، أي: مُروره فيما يقطعه دون توقُّفٍ، يُقال: سيفٌ ماضٍ.

والمعنى: ولو نشاء في كلّ لحظة من لحظاتِ مستقبل وُجُودِهم في الحياة الدنيا، تحويلَ صُورَتِهِمْ إلَىٰ صُورَةٍ أخْرَىٰ يكونون فيها كقِطْعَةِ لَحْمٍ وَعظم غيرِ قادرةٍ على الحركة إقبالاً أو إدْباراً، يَمِيناً أو يَسَاراً، لَفَعَلْنَا بهم ذَلِكَ، فثَبَتُوا في مكاناتهم الّتي يكونون عَلَيْها قبْلَ المسْخ، أي: على أماكِنِهم مُشَوَّهِينَ قِباحاً، خاسِرين مكانَاتهم الاجتماعيّة الّتي كانت لهم، خاسئين أذِلّاءَ يَسْتَهْزِئُ النّاسُ الأسْوياء بهم.

جاء التنويعُ في التعبير بين عبارة: ﴿مُضِيًّا﴾ وَعبارة ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ لداعِيَيْنِ بلاغِيّيْن:

الداعي الأوّل: الخرُوجُ عن نمَطِيَّةِ التَّقابُل المتناظر، وفي هٰذا إبْداعٌ مُعْجب.

الداعي الثاني: مَراعَاة رُؤُوس الآي، الّذي فيه جمال التناظر عند النهايات.



قول الله تعالى:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: فإذا لم نَطْمِسْ على أعْيُنِهم، ولم نَمْسَخْهُمْ على مكاناتهم، لأنَّ مَشيئتنا الحكيمةَ اخْتَارَتْ إمْهالَهُمْ، فلا بُدَّ أَنْ تأتِيَهُمْ آجالُهُمْ علىٰ ما قدَّرْنا وقَضَيْنَا لهم من أعمارٍ في هٰذِهِ الحياة الدنيا، ثُمَّ يمُوتُون بقضائنا وأمْرِنا، إذْ تَأتِيهم رُسُلُنَا من الملائكةِ فيتَوَفَّوْنهم، ويقولون لهم، أيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ منْ دُونِ الله؟!. فيكون جوابُهم: ضَلُّوا عَنَا، ويَشْهَدُونَ على أنفسهم بأنهم كانوا كافِرين، كما سبَق بيانُه فيما أنْزَل اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) فقد جاء فيها قول الله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُولَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾: أي: وَمَنْ نُطِلْ عُمُرَه، يقال لغةً: عَمَّرَ اللَّهُ فُلاناً، أَيْ: أَطالَ عُمُرَه.

﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أو (نُنْكِسْهُ في الْخَلْقِ] على القراءتين: أي: ومَنْ نُطِلْ عُمُرَه نَجْعَلْهُ يتنازَل مَائِلاً إلى الأسْفَلِ ضَعْفاً وعَجزاً شيْئاً فَشيئاً، حتَّىٰ نَرُدَّهُ إلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمر، ومن المعمَّرِينَ من يكُونُ تَنْكِيسُه أشَدَّ من غَيْرِه.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾: أي: أيسْتَمِرُّون في فِتْنَتِهم بمظاهِرِ الحياة الدُّنيا، غارقين في غفلَاتهم، كأنَّهمْ خالِدُونَ فيها، فَلَا يَعْقِلُونَ عقلاً علْمِيًّا بِكَثْرَةِ مَا يُشَاهِدُون من مُنَكَّسينَ وَصَلُوا إلى عَتَبَاتِ قُبورهم، وأحَبُّ النّاس إلَيْهِم يَنْتَظِر الخلاصَ منهم ومن تَبِعَاتهم بالموت. ولا يَعْقِلُونَ عقلاً إراديًّا بِضَبْطِ نفوسهم عمَّا سَوْف يَجْعَلُهم يوم الدّين من المعذَّبين في دار عذاب المجرمين، والعُصَاة المذنبين.

الفاء في ﴿أَفَلَا﴾ فاء فصيحة عطفت على محْذُوفٍ، دلّتْ علَيْهِ القرائن والدّلائل الفكرية في هذا الدرس.

وإذا أردْنا بَسْطَ معنى الآية، مُسْتفيدين مما جاء في دُرُوس السّورة قبلَها، لإحكام الرَّبْط الفكري، فباستطاعتنا أن نقول:

ومَنْ نُطِلْ عُمُرَهُ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهم، أكْثَر من نُظَرَائِهِ ومواليد سَنَةِ ميلادِه، فإنَّنا نُنْكِسُهُ أَوْ نُنَكِّسُهُ في الْخَلْق، فنَرُدُّهُ إلى الضَّعْفِ والعَجز، حتَّىٰ لَا يَجِدَ في حياتِه ما يُطْمِعُه بالْبَقاء، ورُبَّما تَمَنَّىٰ الموْتَ ليَتَخَلَّصَ ممَّا هو فيه من عجْزٍ وضَعْفٍ، وافتِقارٍ دائم إلىٰ من يُعِينُه في طعامه وشَرَابه وقضاءِ

حَاجاته. ولما يَرَى من تأَفُّفِ أقرب النَّاسِ إِلَيْهِ واشْمِئزَازِهِمْ مِنْه، ورَغْبَتِهِمْ في أَنْ يمُوت.

وبهذا تكونُ السّورة قد أبانَتْ لهم كلّ الاحتمالاتِ الّتي يمكن أن يُعامِلَهُمُ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ بواحِدٍ منها:

الاحتمال الأوّل: أَنْ يُهْلِكَهُمُ الله بِعِزَّتِهِ وَقَهْرِه، كما أَهْلَكَ أصحاب القرية الّتي جاءها المرسلون بصَيْحةٍ واحدة.

الاحتمال الثاني: أن يُعاقِبَهُمْ رَبُّهم عقاباً دُون الإهلاك الشامل، كالطَّمْسِ علَىٰ أَعْيُنِهم، وكَمَسْخِهِمْ علَىٰ مَكَانَاتهم.

الاحتمال الثالث: أن يُمْهِلَهُم رَبُّهم بِحِكْمَتِه، حتَّى تَأتِيَهُم آجالُهُم الْمُقَدَّرَةُ لَهُمْ في الحياة الدُّنْيا، فيَمُوتُ مَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ شابًّا، أَوْ كَهْلاً، أَوْ شيْخاً، أَوْ هَرِماً مُنَكَّساً في الْخَلْقِ قَدْ رُدَّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُر.

وعلى كلّ الأحوال فَسَوْفَ يلْقَوْنَ حِسَابَهُمْ وَجَزَاءَهُمْ يوْمَ الدّين، وسوف يكون مَصِيرُهُمْ أَنْ يَصْلَوْا جَهَنَّمَ بمَا كانُوا يَكْفُرُون.

وفي آخِرِ هذا البيان الذي جاء عرْضُه في السّورة وسيلةً لإقناع الكافرين المجرمين، قال الله عزّ وجل خطاباً لهم: [**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**]؟ كما جاء في إحدى القراءتين. وقال حديثاً عنهم بضمير الغائبين: ﴿**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**﴾؟!

وقد سبَقَ آنفاً تحليل هذه العبارة وشَرْحُها.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلُ في الأداء البياني، ففي مواجَهَتِهم بالخطاب يُقَالُ لهم: [**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**]؟!. وفي الحديث عنهم مع غَيْرِهِمْ يقالُ: ﴿**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**﴾؟!

والاستفهام في هذه العبارة يَحْمِلُ معنىٰ الاستنكارِ التأنيبيّ التوبيخِيّ

للكافِرين المجرمين، سواء بمخاطبَتِهم به، أو بالحديث عنهم، إذْ تَصرُّفَاتُهُمْ في الحياة الدنيا تَصرُّفات الَّذِين لا يعقلون.



(١١)
التدبّر التّحليلي للدرس السابع من دروس السورة وهو الآيتان: (٦٩ و٧٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

ما فيه من القراءات:

(٧٠) • قرأ نافع، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفَر، ويَعقُوب: [لِتُنْذِرَ] خطاباً للرَّسُول الّذي أنزل الله عزّ وجلّ عَلَيْه القرآن، وفي العبارة إلتفات إلى الرسول ﷺ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ حَدِيثاً عن الرَّسُولِ بضمير الغائب، أو حَدِيثاً عن القرآن، إذِ الرَّسُول مُنذِرٌ، والقرآنُ مُنْذِرٌ ببياناتِ الإنذار الّتي فيه.

ففي القراءتَيْنِ تكاملٌ في الأداء البياني، وتكامُلٌ فِكْريٌ في أداءِ المعنى المراد.

تمهيد:

هذا الدرس موصولٌ بما جاء في صَدْر السورة، وهو قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾.

وإذْ بدأ بعض قادة عتاة مشركي مكّة يتهامَسُونَ فيما بينهم، للعمل على ترويج إشاعة أنّ القرآن لونٌ من ألوان الشّعر، وأنّ الرَّسول محمّداً ﷺ شاعر، فقد كان من المناسِب أخذ الأمور بقوابِلها، وبيان أنّ الرَّسول ليس بشاعرٍ، وليْسَتْ لدَيْهِ مَوْهبَةُ نظْم الشعر، وبيان أنّ القرآن ليْسَ لَوْناً من ألوان الشّعر، ولا فَنًّا من فُنُونِه.

ودلَّ قولُ الله عزّ وجلّ في هذا الدرس السابع من دُروس السورة: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ حديثاً عن الرَّسُول وعن القرآن الذي يُبلّغُه عن رَبّه، ربْطاً بما بَدَأَتْ بِه السُّورة، علىٰ أنّ بعْضَ قادِة مُشْرِكي مكة قد بَدَأَ بعْضُهُمْ يَهمِسُ باتّهام الرَّسُول بأنّهُ شاعر، واتّهَامِ القرآن بأنّهُ لوْنٌ من ألْوَانِ الشّعر، للترويج بها بيْنَ الناس، بُغْيَة صَدِّهم عن الإيمان به وبما أُنْزِل عليه من رَبّه.

ويظهر أنّ هذه الهَمَسات قد كانت في بدايتها، لَمْ تَصِلْ إلى حَدِّ الإشاعَةِ السَّائرة، الّتي تترَدَّدُ على ألْسِنَةِ جماهِيرِهم وعامّتهم، لكِنَّها قَدْ بَلَغَتْ أُذُنَ الرَّسُولِ ﷺ، بدليل قول الله عزّ وجلّ لَهُ بَعْدَ بِضْعِ آياتٍ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

فأشارت عبارة: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ إلَىٰ أنَّ هٰذا الاتهامَ ما زَالَ سِرّاً، وفي مراحِلِه الأولى تَهَامُساً فيما بين بعضهم.

أمّا ما أعْلَنُوه فقد سبَقَ في نجوم التنزيلِ بيانُه، والرَّدُّ عليه بالحجج الدّوامغ.

وتُحدِّثُنا كُتب السِّيرة عمَّا كان من شأن الوليد بن المغيرة، إذِ اجْتَمع إلَيْه نَفَرٌ من قُرَيش، واستشاروه بأن يَتَّهمُوا الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بأنّه شاعِرٌ،

إذَا سَأَلَتْهُمْ عنه وفود الحجاج، فأجابَهُمْ بقوله: مَا هُو بشاعر، وأبَانَ لهم أنّ القرآن الذي يتْلُوهُ عَليْهِم ليْسَ من أيّ لَوْنٍ من ألوان الشّعر، ولا من أيٍّ فنٍ من فنونه.

جاء في سيرة «ابن هشام» عن ابْنِ إسحاق، وهو عند البيهقي أيضاً: أنّ الوليد بْنَ المغيرة اجْتَمع إلَيْه نفرٌ من قريشٍ، وكانَ ذا سِنٍّ فيهم، وقد حضَرَ الموسِمُ[1]، فقال لهم: يَا مَعْشَر قُرَيشٍ، إنَّهُ قَدْ حضَرَ هذا الموسم، وإنَّ وُفُودَ العَربِ سَتَقْدُمُ عَلَيْكُمْ فيه، وقد سَمِعُوا بأمْر صاحِبِكُمْ هٰذَا، فَأَجْمِعُوا فيه رأياً واحداً، ولا تخْتَلِفُوا فَيُكَذِّبَ بعْضُكُمْ بعضاً.

قالوا: فأَنْتَ يا أبا عَبْدِ شَمْسٍ فَقُلْ، وأَقِمْ لَنَا رَأْياً نَقُلْ به.

قال: بَلْ أَنْتُم فَقُولُوا، أسْمَعْ.

قالوا: نقول: كاهِنٌ.

قال: لَا وَاللَّهِ مَا هُو بكَاهِنٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الكُهَّانَ، فما هُوَ بِزَمْزَمَةِ[2] الْكَاهِنِ وَلا سَجْعِه.

قالوا: فنقُولُ مجْنُون.

قالَ: مَا هُو بمجنُونٍ، لقَدْ رَأَيْنَا الجنُونَ وَعَرَفْنَاهُ، فَمَا هو بخنقه ولَا تخالُجِه، وَلَا وَسْوَسَتِه.

قالوا: فنقول: شاعر.

قال: مَا هو بشاعر، لقد عَرَفْنَا الشّعْرَ كلَّه، رَجزَهُ، وهَزَجَه، وقريضَهُ، ومقْبُوضَهُ، ومَبْسُوطَهُ، فما هو بالشّعر.

---

(١) أي: حضر موسم الحج.

(٢) **الزمْزَمة**: الكلام الخفيُّ الذي لا يُسْمَع.

قالوا: فنقول: ساحر.

قال: ما هو بساحرٍ، لقَدْ رَأيْنَا السُّحَّارَ وَسِحْرَهُمْ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِمْ وَلَا عَقْدِهِمْ.

قالوا: فَمَا نَقُولُ يا أبَا عَبْدِ شَمْس؟

قال: وَاللَّهِ إنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً، وإنَّ أصْلَهُ لَعَذْق[1]، وإنّ فَرْعَهُ لَجَنَاةٌ[2].

وفي رواية ذكرها ابنُ هشام: وَإِنَّ أصْلَهُ لَغَدَقٌ[3].

وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلَّا عُرِفَ أنَّهُ باطل، وإنَّ أقْرَبَ القول فيه، لأنْ تَقُولُوا: ساحرٌ، جاء بقوْلٍ هو سِحْرٌ، يُفَرِّقُ به بيْنَ المرْءِ وَأبيه، وبيْنَ المرْء وأخيه، وبين المرْءِ وزوجَتِه، وبَيْنَ المرْءِ وعَشِيرَته.

فتفرّقُوا عَنْهُ بذلك، فجَعَلُوا يَجْلِسُونَ بِسُبُلِ الناسِ حِينَ قَدِموا الموسم، لا يَمُرُّ بِهِمْ أحَدٌ إلَّا حَذَّرُوه إيّاه، وذَكَرُوا له أمْرَه.

ويَبْدُو أنّ اتّهامَه بأنَّه ساحِرٌ، لم يَصُدَّ النّاسَ عن التأثُّرِ بالْقُرآن الَّذِي يَتْلُوه، فلم يجدُوا ذَريعةً إلَّا أن يتّهمُوه بأنّه شَاعِرٌ يقولُ لَوْناً من ألْوان الشّعْرِ لا يَعْرِفونه، وكانَ هٰذَا تَهَامُساً لم يَبْلُغْ أنْ يكون إشاعَةً سائرة، بدَليل أنَّ النصَّ في سورة (يسٓ) لم يأتِ فيه التَّصْريحُ باتّهامِهم له بأنّه شاعر، ولا بأنّ القرآن هُوَ لَوْنٌ من ألوان الشعر، ولم يأتِ فيما نزلَ من القرآن قبْلَ سُورَةِ (يسٓ) تصريحٌ ولا إشارَةٌ إلى مثْل هذا الاتّهام، لكنّ قول الله عزّ وجلّ في سورة (يسٓ): ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

---

(١) العَذْق: النخلة بِحَمْلها، يُشَبّه القرآن بالنخلة المثمرة.

(٢) لَجَنَاة: أي: لثمرة عظيمة طيبة.

(٣) لَغَدَق: أي: لكثير الماء.

يُشِيرُ إلى أنّ اتّهامَهُمْ له بأنَّهُ شَاعر، واتِّهَامَ الْقُرآنِ بأنَّهُ لَوْنٌ من أَلْوانِ الشّعر، قَدْ بدَأَتْ بوادِرُهُ سِرّاً، ووصَلَ بعْضُها إلى الرسُول ﷺ، فقال الله له: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

فجاءَتِ المبادَرَةُ الرَّبَّانيَّةُ إلىٰ دفع هٰذا الاتّهام وهو في مَهْدِه، في هذه السّورة، واشتمل البيانُ على أنّ الرَّسُول محمَّداً بطبيعَتِه لَا يَقْرِضُ الشِّعر، ولَا يَليقُ بِهِ أنْ يكون شاعراً، وأنَّ الذّكْرَ الحكيم في القرآن المبين، لا يَليقُ به أنْ يكونَ من قبيلِ الشّعر، بحسَبَ المعْرُوف من شعر معظم الشعراء، ومذاهبهم في البيان، وطبائع نفوسهم الّتي تجْعَلُهم يخوضُونَ في أوحال مختلف الأودية الهابطة عن مستَوَياتِ مكارم الأخلاق، ومحاسِنِ الشِّيم.

وكان هذا الذي جاء في سورة (يسٓ) أوّلَ بَيَانٍ قُرْآنِيّ نزَلَ حول هذا الموضوع.

التدبر:

قول الله تعالى:

- ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾:

يتحدَّثُ رَبُّنَا بضمير المتكلّم العظِيم، بشأن رَسُولهِ الّذي خاطبه في أوائل السُّورة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وبشأن القرآن الذي قال عنه في أوائلها أيضاً: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ وقال عنه أيضاً: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾.

أي: وما علَّمْنَا رَسُولَنَا محمّداً شعراً أَوْحَيْنا بِهِ إلَيْه، ومَا جَعَلْنَا في طبيعَةِ نَفْسِه اسْتِعداداً لِقَرْضِ الشِّعْرِ ذِي الموازينِ الخاصَّةِ به، إذ الاستعداداتُ الّتي يَجْعَلها الله عزّ وجَلَّ في فِطَرِ النُّفُوسِ الحيَّة، وفي فِطَرِ

الناس، هي من عناصرِ التَّعْليم الرَّبَّانِيّ لهم، لأنَّها تُقْرَنُ بدوافع وَإِلْهَامَاتٍ تجْعَلُهُمْ يُؤَدُّونَ مقتضياتها مِنْ أَعْمَالٍ، وكُلُّ ذَلِكَ بخَلْقِ الله، بَعْدَ قضائِه المسْبُوقِ بقَدَرِه.

ولهذا قال الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول): ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾.

أي: مَنَحَهُ الاسْتِعْدادَ الفِطْريَّ ليُبِينَ عَمَّا في نَفْسه من المعاني والأحاسيس والأفكار، بالمصْطَلَحَاتِ اللُّغَوِيَّة الْقَوْلية.

وقال في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول):

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

أي: علَّمَ جلّ جلالُهُ باستخدام الْقَلَم، كثيراً من المعارفِ لمنْ جَعَلَ في فِطَرِهِمْ الاسْتِعْدادَ لاكتساب الْعُلُومِ بوسائلها، ومنها وسيلة الْقَلم، وهو الذي يَخْلُقُ فيهم الْعِلْمَ بما يُعَلِّمُهُمْ إيّاهُ عن طريق قنواتِ الوسائل.

ولهذا لم يكن الرَّسُول محمّدٌ ﷺ من قارضي الشّعر، لَا قبْلَ النبوّةِ ولَا بَعْدها، وليْس ذلك لأنَّ الْقُدْرَة علَىٰ قَرْض الشّعر منْقَصَةٌ في الإنسان، بل هي هِبَةٌ من الله جلّ جلالُه لبعض عباده.

ولكن لم يمنحَ اللَّهُ جلَّ جلالُه رَسُولَهُ محمّداً ﷺ الاستعدادَ الفطريَّ لقَرْضِ الشّعر لحكْمَةٍ تتعَلَّقُ برِسالته، وهي سدُّ ذَرِيعة الّذين لَا يُؤْمِنُونَ بدعْوَته، ولئلا يجدوا رَواجاً لاتّهامهم له بأنَّه شاعر، وبأنَّ النَّزْعَةَ الشِّعْرِيَّة هِيَ الّتي جعلَتْهُ يتخيَّلُ تخيُّلَاتِ النبوَّة، والتَّفَوُّقِ في صِناعَةِ الْبَيان الرَّفيع، مع ما في نفوس معظم الشعراء من الاستعدادِ للدُّخُولِ هَائمين في كلّ وادٍ من أوْدِيَةِ الكلام، مهْمَا كان وادِياً سحيقاً هابطاً إلى مواطِنَ غيْرِ أخْلاقيّة، فيها الكذب، والهجاء الفاحش، والثناءُ بغَيْر حقٍّ، والاستِجْداء، والتَّغَزُّلُ بالْعَفِيفاتِ الشريفاتِ، الذي يُشْعِرُ برضاهنَّ، وبأنَّهنّ يُشَارِكْن الشاعرَ الهوىٰ، ولهنّ معه لقاءاتٌ غَيْرُ محمُودَة.

فالشِّعْر لا يَنْبغي لنَبيٍّ رسُولٍ بحَسَبِ نظراتِ معظم النّاسِ للشعراء.

على أنَّ الشعراء المؤمنينَ الصالحين من ذوي الاستقامة، يتَّقُونَ رَبَّهم، فلا يخوضُونَ في أوحالِ وِدْيَانِ الشّعر، التي يخوض فيها أكْثَر الشعراء.

وأقول أيضاً: إن عَدَم تعليم الله رَسُولَهُ الشّعر، هو نَظِيرُ عدم تعلِيمِهِ القراءَةَ والكتابة، مع استعدادِهِ الفِطْرِيّ لذلك، وذلك لأنّ كوْنَهُ أُمّيًّا أَدْعَىٰ إلى تَصْدِيقه بأنَّهُ نبيٌّ ورسُولٌ أرسَلَهُ رَبُّ العالمين، بسَبَب المعْجِزَةِ الخاصَّةِ بِهِ، وهِيَ مُعْجِزة القرآن، فلوْ كانَ قارئاً كاتباً، لراجَتْ مقالة الكفّارِ بشأن اتِّهامه بأنَّه نَقَلَ القرآنَ من كتُب أهل الرسالاتِ السّابقات.

• ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾: أي: وما يَنْبَغِي لَهُ أنْ يكُونَ شاعراً، ومعنى «ما ينبغي له» في اللّغة: مَا يَصْلُح له ذلك، وما يَسْهُل لدَيْه أن ينْظمَ الشّعْرَ ويَقْرضه.

والسَبَ في كون قرضِ الشعر لَا يَصْلُحُ للرَّسُول محمّد ﷺ، تَصَوُّرُ الْعَرب في الْبِيئَةِ العربيّة أَنَّ الشُّعَراءَ كذّابُون، يصْطَنِعُون الهجاء والمديح افتراءً، ويسْتَجْدُونَ المـلُوكَ والأمَراء بشِعْرِهـم، وأنّهـم أصحابُ أهـواءٍ وشهواتٍ يُتَابِعُونَها فيما يَقْرِضونَ من شِعْر، وأنَّهم خياليُّونَ غالباً، لا يحْرِصُونَ في كلامِهِمْ على بيانِ الحقّ، وقولِ الحكمة النافعة، باستثناء القليل منهم.

قول اللّهِ تعالى:

• ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩﴾:

قضيَّتَانِ جاءَتَا مُنْدَمِجَتَيْن في نصٍّ واحدٍ:

• قضيَة كَون الشِّعْرِ مَا يَصْلُحُ للرَّسُول.

• وقضية كونِ القرآنِ لَيْسَ شِعْراً، بَلْ هُو ذِكْرٌ وقُرآن مبين.

وفي إدْماجِ هَاتَيْنِ القضيَّتَيْنِ ببيانٍ واحدٍ؛ إبْداعٌ فكريٌّ وإيجازٌ لفظيّ.

أي: ما الكلام الذي يَتْلُوهُ محمَّدٌ مُبَلّغاً إيَّاهُ عن رَبّه، ويتحدَّىٰ الناسَ بأن يأتوا بمثله أو بمثل سورة منه، إلّا ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مبين.

وَصَفَهُ اللَّهُ بأَنَّهُ ذكْرٌ، نظراً إلى المطلوب الأخير من المكلّفين بالنسبة إليه، إذْ عليهم أن يتَلَقَّوْهُ، ويُصْغُوا إلى كلّ كلمةٍ وآيَةٍ منه، ويتفَهَّمُوه، ويَعْقِلُوا معانيَه، ويكون لهم ذِكْراً يذكُرُون مِنْهُ ما يَتَعَلَّقُ بالمنَاسَباتِ الداعيات إلى تَذكُّرِ شيءٍ منه، للعمل بمقتضاه.

ووصفه الله جلّ جلالُه بأنَّه قرآنٌ مبين:

قرآن: مَصْدَرُ قرأ، أُطْلِقَ على اسْم المفعول، فهو بمعنى مَقْرُوء، أي: مكْتُوبٌ في المصاحف يُقْرأ منها. وفي هذا توجيه لوجوب كِتابَتِه، وقَدْ نفَّذَ الرَّسُول ﷺ والمسلمونَ منْ بَعْده هذا الواجب.

مُبين: أي: هو واضِحٌ في ذاتِه صِياغةً ونُطْقاً، ومبِينٌ للمعاني الّتي يَدُلُّ عليها، بما توافر فيه من صِيَغٍ بيانِيَّةٍ مختَلِفَةٍ للمعنى الواحد، وغير ذلك.

من فعل «أبان» اللّازم بمعنى ظهر ووضح، ومن فعل «أبَانَ» المتعدِّي، بمعنى أظهر وأوْضح.



قول الله تعالى:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾:

سبق توجيه قراءتَي: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ و[لِتُنْذِرَ] ونفهم من القراءتَيْنِ أنّ الرَّسول مُنْذِر، وأنّ القرآن منذر، وباستطاعة كلّ داعٍ إلى الله أن يُنْذِرَ بما جاء في القرآن.

الإنذار: هو الإخبارُ بما ينبغي التوقّي والحَذَرُ منه. والْإنذارُ في دَلَالَاتِ النصوص القرآنية، هو الإخبار بعقاب الله المعدّ جزاءً على معصيته بالكُفْرِ فما دُون الكُفرِ من المعاصي، في الآخِرَةِ أو في الدنيا، أو فيهما معاً.

﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ و[لِتُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا] على القراءتين، أي: من كَانَ ذَا وَعْيٍ وفكر يُدْرِكُ أنَّ للكَوْنِ رَبًّا خَلَقَ النَّاسَ لِيَبْلُوهُمْ في ظروفِ الحياة الدّنيا، ثُمَّ لِيُجَازِيَهُمْ على ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امتحانهم بالثّواب أو بالعقاب يوم الدين. وهو بعد هذا الوعي يتَفَاعل تَفَاعُلَ استجابةٍ لما وعى، فيعملُ بمقتضاه إيماناً وعملاً صالحاً، طاعةً لله، كَشَأْنِ سائر الأحياء بالنّسْبَةِ إلى أمور حياتهم الدّنيا، فَإنَّ كُلَّ حَيٍّ يُدْرِك مَطْمَعاً يَسْتَطيع الحصول عليه، فلا بُدَّ أَنْ يَسْعىٰ لتحصِيلِهِ، ويُدْرِكُ مخوفاً منه يسْتَطِيع حماية نفسه منه فلا بُدَّ أنْ يتّخذ وسائل للتَّوَقّي منه.

أمّا مَنْ عطَّلَ أدوات الإدْرَاكِ فيه، أو عطَّلَ أجْهِزَةَ الاستجابة النَّفْسِيَّةِ لما يُدْرِك، أو صَرَفَهَا عن وظائفها، ولوفي مجالٍ من مجالاتها، فهو بالنسبة إلى ذَلِك المجال بمثابَةِ الميّتِ الَّذِي لَا حَياة فيه.

فصَحَّ بهذا أن يُسْتعار لفظ «حَيّ» لمَنْ يُبيَّن له ما فيه خيرُهُ في عاجل أَمْرِهِ وآجِلِه، فَيُدْرِكُه، ويستجيبُ لما أَدْركَ مِنْهُ ووعَىٰ، الاستجابةَ الملائمة له، خوفاً أو طمعاً.

وصحّ أن يُسْتَعَار لفظ «مَيّت» لمَنْ لَا يُدْرِكُ ولا يعي، معَطّلاً أدوات الإدْراكِ والوعْيِ فيه، أو صارفاً لها عمّا يجبُ عليه أن لا يَصْرِفَها عنه، أو هو لا يستجيب لما أَدْرَكه ووعَاه الاستجابة الملائِمةَ له من خوفٍ أو طَمَع.

وبما أنّ الإنذارَ بعقاب الله لمَنْ كفَرَ مُعانداً مُصِرًّا علَىٰ باطله، إنَّما

يكون في آخِر مراحِل الدّعْوة الّتي تبدأُ بِمَرْحَلَةِ الإقناعِ البياني بالحق، وتأْتِي بعْدَها مَرْحَلَةُ الترغيب بالثواب العظيم، ثُمَّ تَأْتي مَرْحَلَةُ الإِنْذارِ والتَّرْهيب من العقابِ الأليم، فقد جاء في النصّ هنا الاكتفاء بذكر الإنذار، لأنّ هذا الكلامَ جاء في معرض الحديث عن الكافرين المشركين المصِرّين على مواقفهم الكفريّة العناديّة، وقد سبَقَ بيان الحقّ لهم بمختلف وسائل الإقناع، وسبَقَتْ بشارَتُهُمْ وتَرْغيبهم بالجزاء العظيم الكريم في جنَّاتِ النعيم، إذا آمنوا وعَمِلُوا صالحاً، والباقي من المراحل بالنسبَةِ إلَيْهِم الإِنْذارُ بعذاب الله الأليم، في دار العذاب يوْم الدّين، وبعقوبَاتٍ قد يعجّلُها الله لهُمْ في الحياة الدنيا.

فَمَن بَقِيَتْ فيه منهم بقيَّةُ حيَاةٍ يُدْرِكُ بها الإنْذَار، ويَسْتَجِيبُ بها لَهُ الاستجابَةَ الملائمة بالْخَوْفِ، وباتّخاذِ الوقاية المناسبَةِ، وهي تكونُ بالإيمان والإسلام، انْتَفَعَ بالإنذار، وَمَنْ لم تبْقَ فيهِ منْهم بقيَّةُ حياةٍ مَا، فإنَّه لا يَنْتَفِع بالإنذار.

فانْحَصَر الانتفاعُ بالإنذار في مَنْ بَقيَتْ فيه منْهُم بقيَّةُ حياةٍ في مجالِ قضايا أُسُس الدّين، فجاء التعبير الملائم، بقول الله عزّ وجَلّ بالنِّسْبة إلى القرآن:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ في قراءة.

وبقول الله عزّ وجلّ خطاباً للرَّسُول ﷺ:

[لِتُنْذِر مَنْ كَانَ حَيًا] في القراءة الأخرى.

وجاءت عبارةُ الحصْرِ الصريح بقول الله عزّ وَجَلَّ في أوائل السّورة:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ... ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى:

﴿... وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: وليثبت على الكافرين أثَرُ القول الخاصّ بوعيدهم بعذاب جهنَّم، خالِدِينَ فيها أبداً، فيكونوا من أهل النار.

يقال لغة: حقَّ الأمْرُ يَحِقُّ حَقًّا، أي: ثبَتَ واسْتَقَرّ. أو المعنى: ليثْبُتَ القولُ نَفْسُه على الكافرين، عنْد انتهاء رِحْلةِ امتحانِهم قبْلَ أَنْ يَتُوبُوا، بَعْدَ أَنْ كان هذا القولُ وعيداً مُعَلّقاً بشَرْطِ عَدَمِ تَوْبَتِهِمْ قبل انتهاء رحْلة امتحانهم، ومَتىٰ ثَبَتَ القولُ عليهم فلا بُدَّ من تحقيق وقوع أثَرِه، لأنَّ الله عزّ وجلّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به، ويَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، والشّرْكُ أخَفُّ دَرَكاتِ الكُفْرِ.

وهذه العبارة مرتبطة بما جاء في صدر الصورة:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾.

وبالتأمّل التدبّريِّ العميق في قول الله عزّ وجل:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

نُدْرِكُ أنَّ فيه حَذْفاً من الجملة الأولى دلّت علَيْه الجملة الثانية، وأنّ في الجملة الثانية حذفاً دلّت عليه الجملة الأولى، وهذا النوع من الحذف يُطْلِقُ علَيْه البيانون اسْمَ «الاحْتِباك» مع ما فيه من استعارة لفظ: «حيًّا» لمَنْ ينتفع بالإنذار، أمّا من لا يُؤثّر فيه الإنذارُ فهو بمثابة الميّت.

وبإظهار المحاذيف يكونُ التقدير:

لِيُنْذِرَ القرآن والرَّسُولُ مَنْ كانت لدَيْهِ بقيةٌ من حياةٍ إنْذاراً يَنْتَفِعُ بهِ، إذْ يُؤَثّر فيه فيُؤْمِنُ وَيَكْسِبُ في إيمَانِهِ خيراً، فيَحِقُّ قَوْلُ الْوَعْدِ بثوابِه، فيكُونُ من أهل الجنّة.

ومن كان بمثابة الميّتِ الذي لم تبقَ فيه بقية من حياة، فإنَّه لا يَنْتفع

بهذا الإنذار، إذْ لَا يُؤَثّر فيه فلَا يُؤمن، فيَحِقُّ عليه قَوْلُ الوعيدِ بأنَّه من أهل النار الخالدين فيها.

وقد تكرّر في القرآن بيانُ أنَّ القرآن مُنْذِرٌ بسبب مَا فيه من آياتِ إنذار، وبيانُ أنّ الرَّسُولَ مُنْذِرٌ، لأنَّه يُبلّغُ عَنْ رَبِّه الوعِيد بعذاب الله لِلْعُصَاة، ويتْلو الآيَاتِ القرآنِيَّة على المكذبين، وفيها وعِيدٌ بعذاب الله.

فممّا جاء من بيان أنّ القرآن منذر، قولُ الله عزّ وجل في أوّل سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾.

وممّا جاء من بيان أنّ الرَّسُول مُنْذر، قول الله عزّ وجلّ في أوائل سورة (يسٓ) كما سبَق في التدبّر خطاباً لرسوله:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾.

مَا عالَجه هذا الدَّرْس:

هذا الدّرس قد عالج قضيَّة اتِّهام الرَّسُول بأنَّه شاعر، واتّهام القرآن بأنّه لَوْنٌ من ألوان الشعر، لمَّا كان هذا الاتّهام همساً بيْنَ بعض كبراء عتاة الكفرة المشركين في مكة.

ولكن هذا الذي كَانَ إبَّانَ نزول سورة (يسٓ) همساً، قَدْ صار بعْدَ ذَلِك قولاً يُصَرِّحُونَ بِه عَلانِيَة، فجاء في البياناتِ القرآنية ما يَدُلُّ على هٰذِه الأطوار، مع معالجة أقوالهم.

(١) فجاء في سورة (الصافّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) قول الله عزّ وجلّ بشأن أقوالهم:

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾:

﴿وَيَقُولُونَ﴾: جاء في هذه العبارة اختيارُ الْفِعل المضارع الدالّ على التكرير، للدّلالة على أنّ مقول هذا القول، قد صار عبارة دائرة على ألسنتهم ومقالة يُكرّرُونها، لتكون إشاعَةً سائرة بين جماهيرهم.

• ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦﴾: مقالة استفهامية اسْتِنكاريّة، يُعبّرُونَ بها عن استحالة تركهم عبادة آلهتهم من الأوثان، لأجْلِ مقالَاتِ شاعرٍ مجنون.

فاتَّهَمُوا الرَّسُول بأنّه شاعِرٌ مجنون، وزعَمُوا بصريح تعبيرهم أنّ القرآنَ الّذِي يتْلُوهُ عليهم هو من قبيل الشعر الّذي تنْدَفِعُ إلَىٰ قوله أخْيِلَتُه الشّعْريّة، أَوْ يُمْلِيه عليه من الجنّ من أصابه بالجنون، إذْ مَسَّه، أو دخَلَ في جَسَدِهِ مشاركاً له فيه.

• ﴿..بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: ليس شاعراً ولا مجنوناً، بل جَاءَ بالحقّ، ومعلومٌ أنّ المجنُونَ لَا يكونُ كلُّ ما يأتي به حقًّا، وكذلِكَ الشاعِرُ بحسَب ما يعْلَمُ القوم من أحوال الشعراء.

«بَلْ» ابتدائيّة، ومعناها الإضرابُ الإبطالي.

وبما أنَّ القرآنَ كُلَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ فلا يُمْكن أن يكون مُبَلّغُهُ عن رَبّه الرَّسولُ محمَّدٌ شاعراً وَلَا مجنوناً.

• ﴿..وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾: أي: ويُضافُ إلى كَوْنِه قَدْ جاءَ بالحقّ، أنَّهُ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ السَّابِقِين، فيما جاءُوا به عن رَبّهم.

فدَلَّ التطابُقُ بين ما جاء به محمّد بن عبد الله، وبين الأصول الصحيحة الّتي جاءَ بها المرسَلُونَ مِنْ قَبْلِه على أَنَّهُ نبيٌّ مُرْسَلٌ، وأنّ الكتابَ الذي جاء به هُو منْ عِنْدِ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقاً.

(٢) ثُمَّ أنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ قولَهُ في سورة (الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول) بعد بيان اتّهام عُتاة المشركين في مكة للرَّسول بأنّه ساحر:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾.

هذه مرحَلَةٌ غَلا فيها عُتَاةُ المشركين في طَرْح الاتهاماتِ الباطلاتِ المختلفات.

فاتَّهَمُوا الرَّسول بأنَّه سَاحِرٌ، وزَعَمُوا أنّ تَأْثير البيان القرآنيّ من نوع تأثير السّحر.

وطَرَحُوا احْتِمَال أَنْ يكُونَ القرآنُ من قَبِيلِ أضغاثِ الأحلام الّتي يراها النّائم، فإذا استَيْقَظَ حَفِظَها فَأَلْقَاها للنَّاسِ.

وَطَرَحُوا احْتِمَال أن يكُونَ مِنْ قبيل الافتراء، أي: هو يَصْنَعُهُ وَيَنْسُبُهُ إلى رَبّه افتراءً على الله.

وطَرَحُوا احْتمالَ أَنْ يكونَ من قبيل أَخْيلَةِ الشَاعِرِ وأقوالِه الشِّعْرِيّة.

وَرَفَضُوا آيَةَ القرآن، وطالَبُوا بآيَةٍ مادّيَّةٍ، كعَصَا مُوسَىٰ، وناقَةِ صالحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَام، ولو استجابَ اللَّهُ لطَلَبِهِمْ كما طَلَبُوا لمَا أمْهَلَهُمْ، بلْ لأهلَكَهُمْ بمقتضَىٰ سنَّتِه في عباده جلَّ جلالُه.

وقد دلَّ هٰذا النّصّ علىٰ بُلُوغهم مَرْحلةَ الاضطراب في طرح ذرائع رفض الحقّ.

(٣) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلَّ قولَهُ بشأنهم في سورة (الطور/٥٢ مصحف/٧٦ نزول) خطاباً لرسُوله:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾:

فدلَّ هذا النصّ على إصرارهم على مُتَابَعَةِ توجيه الاتّهاماتِ له بأنَّه كاهِنٌ، أو مجنون، أو شاعر، وقالوا ننتظر موتَه فنتَخَلَّصُ من دَعْوَتِه ومِنْ قُوَّةِ بيانه.

﴿نَّتَرَبَّصُ﴾: أي: نَنْتَظِر، يقالُ لغة: تَرَبَّصَ فُلَانٌ بُفَلانٍ، أي: انتظر خيراً أو شرّاً يَحُلُّ به.

﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾: أي: حوادِثَ الدَّهر الْمُمِيتَة. **الرَّيب**: من معانيهِ صَرْفُ الدّهر وحوادثه. **الْمَنُون**: الموت.

ودَلَّ هذا النَّصُّ على أنّهم ما زالُوا في حالَةِ الاضطراب، وعدَم الثبات على رأيٍ مَقْبُولٍ يتّهمُونَه به.

﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: انْتَظِرُوا مَوْتي، وأنا مَعَكُمْ من المنتظرين، ولكِنّي أَنْتَظِرُ نَصْرَ اللَّهِ لي وللّذين آمَنُوا بي واتَّبَعُوني، وأَنْتَظِرُ عِقَابَ اللَّهِ لَكُمْ على إصراركُم على الباطل.

(٤) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلَّ بشَأْن القرآن في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: إنّ القرآن قَوْلٌ بلَّغَهُ الرَّسُول الكَريمُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام، للرَّسول محمّد، وعَلَّمَهُ إيّاهُ حَرْفاً بحَرْفٍ، وَكَلِمَةً بِكَلِمَةٍ، وهو تنزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(٥) ثُمَّ أنزلَ اللَّهُ عزّ وجلّ آياتٍ مَدَنِيَّةً ضُمَّتْ إلىٰ سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) المكية، لمراعاة اقتضاءَين: أحَدُهُما يُنَاسِبُ أحوالاً وَقْتَ التنزيل، والآخَرُ يُنَاسِبُ مَوْضوعَ السُّورَةِ من الناحِيَةِ الفكريَّة، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾.

في هٰذه الآياتِ بَيَانُ طبيعَةِ مُعْظَم الشُّعراء، المنافيةِ للاصطفاء برسالةٍ عظيمة فيها هُدىً ونُورٌ وحقٌّ، وشرائِعُ جادَّة، وأَخْلَاقٌ فاضِلَةٌ مُثْلَىٰ، والمنافية لما جاء في القرآن من حقٍّ.

وفيها استثناء الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات من عُمُومِ الشعراء، الَّذِينَ يَمِيلُ معظَمُهم إلىٰ الغوايَةِ.

وقُرِنَتْ هٰذه الآياتُ بما جاء في السُّورَةِ من رَدٍّ على اتِّهام الرَّسُولِ ﷺ بالكَهَانَة، وبأَنَّ ما جاء به هو من نوع ما يتلَقَّاهُ الكُهَّانُ من أَوْليائِهِمْ من الجنّ.

وَإِذْ كَانَ بَيْنَ الكَهانَةِ وَبَيْنَ الشِّعْرِ جامعٌ ما في خيال الْعَرَبِ قبل الإسلام، إذْ كانُوا يَتوهَّمُونَ أَنَّ للشَّاعِرِ شيطاناً يُلْهِمُهُ الشِّعر، كانَ من الحكمة البيانيَّة، أن يَدْفع اللَّهُ عزّ وجلَّ هاتَيْنِ الْفِرْيَتَيْنِ بالتتابع في هذه الآيات.

ودَلَّت هذه الآياتُ الَّتي يُخَاطب اللَّهُ عزّ وجلّ بها أئمة الكُفْرِ والشرك، بقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾؟ على أنّ فِريَتَي اتِّهام الرَّسُولِ والقرآن بالكِهَانَةِ والشّعر، قد بلَغَتَا مبْلغَ الإشاعَةِ الَّتي صَارُوا يُرَدّدُونَها بأفواهِهِمْ عَلَناً، وأنَّها خَرَجَتْ من الهَمَسَاتِ السِّرِّيَّةِ إلَىٰ الأَقْوَالِ العلنيَّة.

أمَّا الكهانَةُ فَأَبَانَ اللَّهُ بشَأْنِها أنَّ الأَخْبَارَ الّتي تأْتِي بها إنَّما تَتنزَّلُ بها الشَّيَاطِينُ، عَلَىٰ أَوْليائهم من الإنْسِ، وكُلُّ واحِدٍ من هَؤلاءِ أَفَّاكٌ أثِيمٌ،

كثيرُ الافْتِرَاءِ والصَّرْفِ عن صراط الحقّ والْهُدَىٰ، كثيرُ الإثْم مُغْرِقٌ فيه، يُلْقُونَ أسْمَاعَهُمْ لقُرَنَائِهم وأوليائهم من الشياطين الّذين يأتُونَ بالْأخبار، لنَشْرِ الكُفْرِ والشِّرْكِ بالله بَيْنَ النّاس، فيُضِيفُ الْكُهَّانُ من عنْدِ أنفسهم أكاذيبَ على مَا يَتَلَقَّوْنَ مِنْ قُرنائِهم، فَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُون، لَا يَقْتَصِرُونَ علىٰ مَا يَتَلَقَّوْنَ من شياطينهم.

وأمّا الشِّعْر والشعراء فلا يلتقيان بكتابٍ رَبَّانِيٍّ منزّلٍ بالحقّ والهدى، على نبيّ أرْسَلَهُ الله بالهَدىٰ ودِينِ الحقّ.

فالشُّعَراءُ أكْثَرُهُمْ غاوُون، يتَّبِعُونَ سُبُل الْغَيّ والضّلال، ويهجُرُونَ صِرَاطَ الرُّشْدِ والهداية.

وأتْبَاعُ الشُّعراء يَكونون من الغاوين، ذوي الإغراق في الغوايةِ عادةً، إذْ يَجِدُونَ في شِعْرِهم أهواءَ نُفُوسهم، ورَغباتِ انحرافاتهم عن سَبِيل الحقّ والْهَدىٰ.

لكِنَّ محمَّداً ﷺ لم يتّبِعْهُ الغاوُونَ علىٰ عاداتهم في اتّباع الشعراء، بَل اتَّبَعَه ويَتّبِعُهُ الراشِدُونَ الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات.

والدّليل على أنّ معظم الشعراء غاوُونَ ويتّبِعُهُمُ الغاوونَ، أنّهم في كلّ وادٍ من الأدوية السّافلة الهابطة يَهِيمُون.

الهائم: هو الذي يُتَابعُ في مَسِيرِه أيّ طَرِيق يجدُه تُجَاهَه، فهو لا يَدْرِي أيْنَ يتَوجّه. والمتحيّر المضطربُ الذاهب كلّ مذهب، ومن كان كذلك، مشَتْ به قَدَمَاه إلى المهالك.

ومعظم الشعراء يقولون ما لا يَفْعلُون، أي: يَعِدُونَ بأن يَفْعَلُوا، مواعِيدَ كاذبَةً لَا يُريدون الوفاء بها، فهم لا يفْعَلُونَها، وهٰذهِ من علامات النفاق.

ويقاسُ على هذا كذبُهم في الأخبار، يقولون: فَعَلْنَا وهم لم يفعلوا، وهذا يدخل في عموم: أنّهم في كلِّ وادٍ يهيمون.

واستثنى الله عزّ وجلّ من عُمُوم الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وَذكُروا اللَّهَ كثيراً، وانْتَصَرُوا بشعرهم من بَعْدِ ما ظُلِمُوا فقال الله عزّ وجل في النص:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

ومن هؤلاء شعراء الصحابة وَمَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ.

ممّا جاء في السُّنَّة بشأن الشّعر والشعراء:

لم يأت في السُّنَّةِ ذَمُّ كلّ الشِعْر وكُلّ الشعراء، بل جاء فيها ثناء على بعض الشعر، وحثٌّ لبَعْض الشعراء أن ينْصُروا الإسلام والرَّسُولَ بشِعْرِهم، وجاء فيها ذَمُّ بَعْضِ الشعر، وهو محمولٌ على الشعر الذي يَشْتَمِلُ على ما يحرُمُ في الإسلام قولُه، كعبارات الشرك، وكلام الْفُحْشِ، وإيذاء الناس في أعراضهم، ونَصْرِ أهل الكفر والنفاق، والفِسْق والفجور في الأرض، والثناء علىَ الطغاة البغاة. وجاء فيها ذَمُ بعض الشعراء، وهم الذين يستخدمون شعرهم للطّعْن في الإسلام والمسلمين، أو لإشاعَةِ الفاحشة في الأرض، أو لظُلْمِ البُرءَاء في أعراضهم، أو نحو ذَلِكَ ممّا حرَّمَهُ دينُ الله للنّاس.

فممّا ورَد في السَّنة ما يلي:

(١) روى البخاري وأبو داود عن ابن عباس، قال: جَاءَ أعرابيٌّ إلى النبيّ ﷺ، فجعل يَتكلَّم بِكَلامٍ فقال: «إنّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْراً، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَماً».

(٢) وروى مسلم عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يضَعُ لِحَسَّانَ مِنْبَراً في الْمَسْجِدِ، يَقُومُ عَلَيْهِ قَائِماً يُفَاخِرُ عَنِ النبيّ ﷺ، فيقول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا نَافَحَ أَوْ فَاخَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ».

رُوح القدس: هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَام.

(٣) وروى البخاريُّ عن البراء بْنِ عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْه، أنّ النبيّ ﷺ قال يوم قُرَيْظَة لحسَّان رَضِي اللَّهُ عَنْهُ:

«أهْجُ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ».

(٤) وروى البخاريّ ومسلم وأبو داود عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيّ ﷺ دخل مكّة في عُمْرَةِ القضاء، وعبْدُ اللَّهِ بْن رواحة يمشي بين يَدَيْه ويَقُول:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... الْيَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَىٰ تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ[1] ... ويُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فقال له عُمَر: يا ابْنَ رواحة، بين يَدَي رُسولِ الله ﷺ، وفي حَرَم الله تقول الشعر؟!

فقال رسول الله ﷺ:

«خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَر، فَهُوَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْل».

(٥) ورَوىٰ البخاري وأبو داود والترمذي عن عَمْرِو بْنِ الشريد عن أبيه قال: رَدِفْتُ النبيَّ ﷺ يوماً فقال:

---

(١) جاء في لسان العرب: الهام جمع هامة، وهي أعلىٰ الرأس، ومقيله موضعه، مستعارٌ من موضع القائلة (أي: القيلولة) وسكون الباء من «نَضرِبْكُمْ» من جائزات الشعر، وموضعها الرفع.

«هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَّيَةَ بْنِ أبي الصَّلْت؟» قُلتُ: نعم. قال: «هِيهِ» فَأَنْشَدْتُه بَيْتاً. قال: «هِيهِ» فأنْشَدْته. فقال: «هِيهِ» فَأَنْشَدْتُهُ مِئَة بَيْتٍ.

وجاء في رِواية أنّ النبيّ قال: «وَلَقَدْ كَادَ يُسْلِمُ في شِعْرِهِ».

(٦) وروىٰ مُسْلِمٌ عن جابر بن سُمرة قال: جالَسْتُ النبيّ ﷺ أكثر من مئة مرَّة، فكان أصحابُه يَتَنَاشَدُونَ الشِّعْرَ، ويَتَذَاكَرُونَ شيئاً مِنْ أَمْرِ الجاهِلِيَّةِ وَهو ساكت، فربَّما يَبْتَسِمُ مَعَهُم.

(٧) ورَوى الترمذيُّ عن أبي هريرة، أنَّ عُمَر مَرَّ بحَسَّانٍ وهو يُنْشِدُ الشِّعْرَ في الْمَسْجد، فَلَحَظَ إليه شَزْراً[١]، فقال: لَقَدْ كُنْتُ أُنْشِدُ فيه، وفيه من هو خَيْرٌ مِنْك.

ثُمَّ الْتَفَتَ إلى أبي هريرة، فقال: أَنْشُدُكَ اللَّهَ، أَسَمِعْتَ النبيَّ ﷺ يقول:

«أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ».

فقال: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

(٨) وروى الترمذيّ والنسائي عن أنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ مَعَ النبيّ ﷺ في بعْضِ أسفاره غُلامٌ أسْودُ يُقالُ له: «أَنْجِشَة» يَحْدُو، فقال له النبيّ ﷺ:

«وَيْحَكَ يَا أَنْجِشَةُ، رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ».

(٩) وروى البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ عن أبي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَيْنَما نَحْنُ نَسِيرُ مع النبيّ ﷺ بالْعَرْج، إذْ عَرَض شاعِرٌ يُنْشِدُ، فقال النبيُّ ﷺ:

---

(١) أي: نظر إليه بمؤخر عينه معرضاً لائماً.

«خُذُو الشَّيْطَانَ، أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ، لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً».

ويَظْهَرُ أنَّ هذا الشاعِرَ قد كان من شعراء المجُون، من أَهْلِ الجاهليَّة، وكان الشِّعْرُ الّذي يَقُولُهُ ممّا يَحْرُمُ قولُهُ في الإسلام، فقولُه الرسُول ﷺ مَحْمُولُ على الشِّعْرِ الفاجر، والداعي إلى الفجور، والشِّعْرِ الّذي يشتمل على مَا هو حرامٌ في الإسلام من الأقوال، أو الدَّعْوَة إلى معصية الله عزّ وجلّ.

(١٠) وروى البخاري ومسلم عن عائشة أمّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّها سُئِلَتْ، هَلْ كان النبيُّ ﷺ يتسامع عنده الشعر؟. قالت: كَانَ أَبْغَضَ الْحَدِيثِ إِلَيْهِ.

ويظهر أنّ هذا محمولٌ على الشّعر الباطل الذي لا خير فيه، ولا حكمة، ولا حقَّ ولا رُشْدَ، والشعْرِ الصارفِ عن ذكر الله والهدىٰ والرشاد.

بخلاف الشعر الذي فيه فائدة ونفع وخيرٌ ما، أو مأذون به شرعاً.



(١٢)
التدبّر التحليليّ للدّرس الثامن من دروس السورة وهو الآيات من (٧١ ـ ٧٥)

قال الله عزّ وجل:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرس عوْدٌ إلى التَّنْبيهِ علَىٰ بَعْضِ آياتِ اللَّهِ في كونه ورَبْطٌ بها.

فقد جاء في الدرس الثالث من دُروس السُّورة عَرْضُ طائفةٍ منها، في الآيات من (٣١ ـ ٤٤) بدأها الله عزّ وجل بقوله:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وفي كلا الْعَرْضَيْنِ بيَانٌ لِبَعْض نِعَم الله على عبادهِ من خِلالِ هٰذِه الآيات الّتي يَعْرِضُها عليهم، مع إدْماج أغراضٍ أخْرَىٰ غير الامتنان بالنِّعَم عليهم، ومن هذه الأغْراضِ بيانُ قُدْرَتِه جلَّ وعَلَا على الْبَعْثِ بَعْدَ الموت، وهو ما جاء واضحاً في آيات الدَّرس الثالث.

وهذه النِّعَمُ الكثيرة الْجَلِيلَةُ تَسْتَدْعي منهم أن يشْكُروا ربَّهم علَيْها بالإيمان والإسلام والطاعة، وعبادته على ما يَرْضَىٰ، وأن لَا يُشْرِكوا بِه شيئاً، لا في رُبُوبيَّتِهِ وَلَا في إلَهيّته.

والآيات التي اشتمل عليها هذا الدرس الثامن من آياتِ اللَّهِ في كَوْنِه، قد جيء بها للامْتِنان بالْأَنْعَامِ الَّتِي خَلَقَها اللَّهُ جلَّ جلالُهُ لِلْأَنام، وللتعْجِيب من عَدَم شُكْرِ العباد رَبَّهم على نِعْمَتِه عليهم بها.

ونُلاحِظُ أنَّ الدَّرسَ الثالث قد جاء فيه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا..﴾ أمّا الدَّرْسُ الثامِنُ فَقَدْ بُدَأَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بقوله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

فجاء صَدْرُ هذا الدرس الثامِن مَعْطُوفاً بِحَرْفِ العطف «الواو» بَعْدَ

هَمْزَةِ الاستفهام، على ﴿أَلَمْ يَرَوْا ...﴾ التي جاءت في الدَّرس الثالث، لبَيان ارْتباطِ عَرْضِ آياتِ اللَّهِ في كونِهِ بِبَعْضِها في السُّورَة.

ونُلاحِظُ التّلاؤم في صيغة الاستفهام الإنكاريّ التعجيبيّ، بين المعطوف وبينَ المعطوف عليه، ولَا يُؤَثِّرُ الفاصِلُ الطويل بينهما، إذْ يَبْلُغ ثلاثين آيَة، لأنّ نظام وحْدَةِ مَوضوع السُّورَة القرآنيَّة نِظَامٌ شَجَرِيٌّ، ولَيْسَ نِظاماً طُولِيًّا كالسِّلْسِلَة، ومِثْلُ هذا العطف هو من العناصِرِ البيانيَّةِ الَّتي تَكْشِفُ وحْدَة موضوع السورة، والّتي يَحْسُنُ بالمتَدَبِّرينَ لِكتَاب الله أنْ يُمْعِنُوا النّظر لاكْتِشَافِهَا، من خلال الدّلائل الّتِي تُشِيرُ إليها، وقد تكون دَلَائل دقيقة جدًّا، كإضافة حَرْفِ عطْفٍ، أَوْ تَماثُلٍ في أُسْلُوب الْعَرض وصيغته، وقد يكون رابطاً فِكْرِيًّا يكْشِفُهُ حُسْنُ التَّدبُّر، وإمعانُ النظر في معاني آياتِ السورة من أوّلِ آيَةٍ فيها، حتَّىٰ آخرِ آيَةٍ من آياتها.

التدبّر:

قول الله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: استفهامٌ إنكاريٌّ على الكافِرين، وتعْجِيبيٌّ من حالهم، الأمْر الذي يَسْتَحِقُّونَ مَعَهُ أَنْ يُنْدَبُوا بالحسْرَةِ عليهم، إذْ يَدْفَعُونَ أنْفُسَهم بِكُفْرِهِمْ إِلَىٰ الهلاك المخزي في العاجلة، والخلُودِ في عذاب النار يوم الدين، على الرُّغْم مِنْ وُجُودِ الآيَاتِ الكثيراتِ في أنْفُسِهم، وفيما حَوْلهم مِنَ الكوْن، الدَّالّاتِ علىٰ الرَّبّ الخالِقِ جَلَّ جلالُه وعظم سلطانه، والّتِي توجِبُ عليهم شُكْرَهُ علَىٰ وَافِرِ نِعَمِهِ عَلَيْهم، الّتي لَا يَسْتَطِيعونَ إحْصَاءَهَا، دُونَ أَنْ يكونَ لَهُمْ عُذْرٌ فيما اختاروا لأنفسهم مِنْ كُفْر، إذْ هُمْ مُعَانِدُون، يتّبِعُونَ سُلطانَ الهَوىٰ، والتقْلِيد الأعْمَىٰ، والكِبْرِ، ورَغَبَاتِ الفجور.

والتَّحْسُّرُ عليهم قَدْ جاء في صَدْرِ الدَّرْسِ الثالث من دُروس السورة بقول اللَّهِ تَعَالى:

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وجاء عطفُ صَدَرْ هذا الدَّرْسِ الثامِنِ على ما جاء في الآية (٣١) من آيات الدرس الثالث.

عبارة: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ دَلَّتْ علَىٰ الرُّؤيَة البصريَّة، وعلى الرُّؤيَةِ الفكريَّة الواضِحَةِ المشابِهَةِ في وُضوحِها في الفكر، للرُّؤْيَةِ البَصَرِيَّة.

أي: أَوَلَمْ يَنْظُرُوا بأعْيُنِهِمْ، ويَتَفَكَّرُوا بِعقُولِهم الَّتي وهَبَهُم رَبُّهم إياها ليستَعْمِلُوهَا فيما خُلِقَتْ له.

• ﴿أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم﴾: أي: أنَّا أبْدَعْنَا وَصَوَّرْنا وَأَوْجَدْنَا علىٰ غير مِثَالٍ سَبَقَ لِأجْلِهِم، وجاء التعبيرُ بضمير المتكلّم العظيم، لأنّ الموضوعَ يتعلّق بالخلْقِ الإبداعيّ من العدم، الذي لا يَسْتَطِيعُه إلّا ذو الصفات العظيمة الجليلة، وهو اللَّهُ الرَّبُّ الَّذِي لَا شريكَ له.

• ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمًا﴾: أيْ: من بعْضِ مَا عَمِلَتْ أيْدِينا أنْعَاماً، وذِكْرُ ﴿أَيۡدِينَا﴾ فيه الإشعار بعناية اللَّهِ عزّ وجلّ ببني آدم وتكريمه لهم.

الأنعَام: هي الأموال الراعية، وهي الإبلُ والبقر والغنم. ولفظ «الأنعام» يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، وجاء ذكرها مُنكراً: ﴿أَنۡعَٰمًا﴾ للدلالة على الكثرة، وعظم المنافع.

ومع أنّ كُلَّ مَخْلُوقٍ في الوجود كُلِّهِ هو من صُنْع الله جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه، لم يُشارِكْهُ وَلَا يُشَارِكُهُ في خَلْقِهِ أَحَدٌ، سَواءٌ في ذَلِكَ الإِبْدَاعُ الأَول وغَيْرُه، فالتَنْبِيهُ على أنه جلّ جلالُهُ قَدْ خَلَقَ الأنْعَامَ للنَّاسِ

يُرَادُ به تَحْرِيكُ الدَّوافع الفاضِلَةِ فيهم لأداء واجب شُكْرِ المنْعِمِ علىٰ إنْعَامِهِ.

والدَّلِيلُ الواقِعِيُّ التَّجْرِيبيُّ الدَّالُّ على أَنَّهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ خَلَقَها لهم وعِنَايَةً بِهِم، أَنَّها مُسَخَّرَةٌ وُمَذَلَّلَةٌ لهم، وفيها منافِعُ كثيرة لهم، فيأكلونَ مِنْ لُحُومِها، ويشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِها، ويَرْكَبُونَ ظُهورَ بَعْضِها كالجمال، فَتَحْمِلُهم إلى بَلادٍ لَمْ يكُونُوا بالغِيهَا إلَّا بشقِّ الأنفس.

وجاء تفصيل الامتنان بالأَنْعَام في نُصَوصٍ قرآنية عشرة، جاءت في «يسٓ» و«الشعراء» و«الأنعام» و«الزُّمَر» و«غافر» و«الشورى» و«الزخرف» و«النحل» و«المؤمنون»[١].

ذكر الله عزّ وجلّ في هذا النص عبارة [أيدينا] مبيناً أنه خلق الأنعام بها. وأبان جل جلالُه أنّه خَلَقَ آدَمَ بِيَدَيْهِ، فقال تعالى في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) في حكايَة خِطَابِهِ لإبليس:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

وأَبَانَ جَلَّ جلاَلُهُ أنَّ الَّذِينَ كَانُوا يُبايِعُونَ الرَّسُولَ ﷺ، قَدْ كَانَتْ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، فقال تعالى في سورة (الفتح/٤٨ مصحف/١١١ نزول) خطَاباً لِرَسُوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

وأَبَانَ جَلَّ جَلاَلُهُ أَنَّ يَدَيْهِ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ، رَدّاً على الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، فقال تبارَك وتعالى في سُورَةِ (المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول):

---

(١) انظر تفصيلها وشيئاً من التدبر المتعلّق بها في الملحق الرابع من ملاحق تدبر هذه السورة (يسٓ).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ. . . (٦٤)﴾.

فَنَسَبَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ إلى نَفْسِه في هٰذِه النُّصُوصَ الأَيْدِيَ، والْيَدَيْنِ، والْيَدَ، وَرأي السَّلَفِ في مِثْلِ هٰذِهِ الصِّفَاتِ المنسوبَةِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ قَدْ لَخصَّهُ الإمَام مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ بقَولِهِ بالنّسْبَةِ إلى الاسْتواء: الكَيْفُ غَيْرُ مَعقول، والاسْتِواءُ غَيْرُ مَجْهُول، والإيمان به واجبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَة.

• ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾: أي: فَهُمْ لَهَا عَلَىٰ وَجْهِ الْخُصُوصِ مالِكُونَ مِلْكاً مُتَمَكِّناً مِمَّا يَرُومُونَ بِهَا بِحَسَبِ صِفَاتِها الَّتي فَطَرَها اللَّهُ عليها، إذْ سَخَّرَهَا اللَّهُ لهم، وَذَلَّلَها لِطَاعَتِهِمْ علَىٰ أفْضَلِ وَجْهٍ، بِخِلَافِ بَعْضِ الْبَهائم الأخرى، كالْبَهائم الوحْشِيَّةِ، ومِنْها الظِّبَاءُ، وحُمُر الوحش، والأَيَائل، فإنّها غَيْرُ مُطِيعَةٍ طاعَةَ المَمْلُوكِ لِسَيِّدِه، مع أنَّها مُسَخَّرَةٌ أيْضاً للنَّاس، إذْ هِي ذَوَاتُ نُفُورٍ عن الطاعَةِ بِطَبَائِعها.

فتَقْدِيم المعْمول على عامله في عبارة ﴿لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أفَادَ تَمْيِيزَ الأنْعَامِ بِطَاعَتِهَا لِمَالِكيها من النّاسِ، طاعَةً زَائِدَةً علَىٰ مُطْلَقِ التَّسْخِيرِ الْعَامّ، مع ما في التّقديم من مُرَاعَاةِ التناسُقِ والتَّنَاظُرِ الْجَمِيلِ في رُؤوسِ الآياتِ السَّابقاتِ واللّاحِقَاتِ.

واسْتُعْمِلَتِ الجملَةُ الاسْمِيَّة في عبارة: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ لإفادَةِ ثَبَاتِ مِلْكِهِمْ لها وَدَوَامِه، نظراً إلى مَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ.

والمراد بالملكيَّةِ الْقُدْرَةُ علىٰ التَّصرُّفِ فيها، وفي منافِعهم منها، فالمالكُ للشَّيْءِ مِنْ شَأْنِهِ أنْ يكونَ قادِراً على التَّصرُّفِ فيه.

• ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾: أي: وَأخْضَعْنَاهَا لَهُم، وَجَعلْنَاهَا مُطِيعةً مُنْقَادَةً لهم، بِمَا فَطَرْنَاهَا عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ الْخُضُوعِ والطّاعَةِ والانْقِيادِ لِمَنْ يَقُودُها.

• ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾:

في هذا البيان بَعْضُ تَفْصِيلٍ لِآثَارِ تَذْلِيلِ الأنْعام للنّاس.

«الفاء» في: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ تفريعِيَّةٍ، لتَفْصِيلِ بَعْضِ آثار التَّذْلِيل.

الرَّكُوب: بمَعْنَىٰ: الْمَرْكُوب، كالحَلُوب بمعنى المحلوب، فَهُوَ فَعُولٌ بمعنى اسم المفعول.

والمركوبُ من الأنعام الإبلُ، التي هي سُفُن الصحراء، وحاملَةُ الأحْمَالِ الثقيلَةِ للنَّاسِ في حِلِّهِمْ وَتَرْحَالهم.

• ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾: أيْ: ومن الأنعام يَذْبَحُونَ، ويأْكُلونَ من أجْسَادِها لَحْماً وَدُهْناً، وما يَطِيبُ لَهُمْ منها، إذْ جَعَلَهَا اللَّهُ عزّ وجلّ بِحِكْمَتِهِ وَنِعْمَتِهِ مُذَلَّلَةً لهم.

• ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ أمَّا المشاربُ فهي الألْبَانُ الَّتِي تُحْلَبُ مِنْ ضُرُوعِ إنَاثِ الأنْعَام، وهي أنواع:

وأمَّا المنافِعُ فَهِيَ كَثِيرَةٌ مختَلِفَةُ الأنواعِ والأصناف.

فَيَسْتَخْدِم الناس البقر في الحرث، وَيَنْتَفِعُونَ مِنْ جُلُودِها وقرونِها، وكلّ شيءٍ فيها.

وَيَنْتَفِعُ الناسُ من أصواف الضَّأْن، وأشْعَارِ الماعِزِ، وأوبار الإبل، وجُلُودِ كلِّ الأنعام، وعِظامِها، وأَرْواثها، وأَبْوالِها.

ونِعَمُ اللَّهِ في كُلِّ مَا في الأنعام نِعَمٌ عظيمَةٌ جدّاً.

• ﴿.. أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ جاءت هذه العبارة في آخِرِ هذا العرضِ الامْتِنَائي بالْأنعام.

أي: ألَا يَتَفَكَّرُونَ في هٰذِهِ النِّعَم الْعَظِيمَةِ الَّتي أنْعَمَ اللَّهُ بها عليهم، فهم بسَبَب عَدَم تفكُّرِهم لَا يَشْكُرُون رَبَّهم عليها بالإيمان والإسلام والطاعة.

«الفاء في ﴿أَفَلَا﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ علىٰ مَحْذُوف تقديره ما سبَقَ بيَانه.

وهُوَ اسْتِفْهامٌ إنكاريٌّ يُنْكِرُ اللَّهُ عزّ وجل به على الكافرين بنعِمَهِ عَلَيْهم، وتَعْجِيبيٌّ مِنْ أَمْرِهم إذْ لَا تَتَحرَّكُ نفوسُهُمْ وقلوبهم لتأديَةِ واجب الشكر.



قول الله تعالى:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

تمهيد:

بعد أنْ عَرَض اللَّهُ عزّ وجلّ لقادة المشركينَ وأتْباعهم في مَكَّةَ إبّان نزول السورة، بعض آيَاتِهِ في كوْنِه الدَّالّاتِ على أنَّهُ واحِدٌ في رُبُوبيته لا شَريكَ له، فَيجبُ عقْلاً أنْ يكون واحداً في إلٰهيَّتِهِ، فَلَا يُعْبَدُ مَعَهُ غَيْرُه، أَبَان جَلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانُه ـ أنَّهُمْ مع كلِّ آيَاتِه في كَوْنِه، ووافِرِ نِعَمِهِ على النّاس، قَد اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً يَعْبُدونَهُم راجين أنْ ينْصُروهم، مع أنهم لا يستطيعون نَصْرَهم، ولا يسْتَطِيعون أن ينْفَعُوهُمْ بِشَيْءٍ.

هذه الآلَهةُ الّتي اتَّخذوا لها أوثاناً، هي رُمُوزُ ذَواتِ مَنْ يَعْبُدون مِنْ دُون الله، إنَّما يعبُدونهم لِمَا يَرْجونَ لَدَيهم بعِبَادَتِهم لهم مِنْ جلْبِ نفْع، أو دَفْعِ ضُرٍّ، من أمُور دنياهم، ومنها أن يُحَقِّقُوا لهم مَا يريدون في أعْدائِهم وخُصُومهم، أَوْ أَنْ يَكُونُوا لهُمْ مَدَدَ قُوَّةٍ وعِزّ، فَهُمْ في الحقيقة قَد جَعَلُوهم شركاء لله في بَعْضِ عناصر رُبوبيته.

فإذَا طَلَبُوا مطالِبَ لحياتِهِمْ من رزْقٍ، وصِحَّةٍ، وأَمْنٍ، ودفْعِ مخوفٍ منْهُ، وتَسْهِيل زواجٍ، وهِبَةِ بَنِين، ونحو ذلك من أمُور حياتهم، في إقامتهم

وفي أسفارهم، طَلَبُوهَا مِنْ آلِهَتهم، وقَرَّبُوا لهَا القرابين، مع اعتقادهم بأنّ الله هو الخالِقُ لهم وللكَوْنِ كُلِّه.

ولهذا لمّا قيل لهم: اسْجُدوا للرَّحْمٰن وَصفاً من أوصاف الرَّبّ جلّ جلالُه، أنْكَرُوا أن يكُونَ الله عزّ وجلَّ رَحْمَاناً، كما جاء بيانه في سورة (الفُرْقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) في قول الله تعالى فيها:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠)﴾.

أي: فهم يعْرِفُون أنّ الله خالِقُ السَّمَاوَاتِ والأرض، ولكنَّهم لَا يَعْرِفُون أنَّ اللَّهَ يَرْحَمُهُمْ، فيُلَبِّي دُعَاءَهم من أجل مطالب حياتهم. إنَّ هذه المطالب يطْلُبونها من آلهتهم لَا من اللَّهِ عزَّ وجلّ، وهذا مِنْهم إشراكٌ بالله في بعض عناصر رُبوبيته سبحانه وتعالى عمَّا يَصِفُون، ويلزم من هذه العقيدة إشراكُهم باللَّهِ في إلَهيّته، وبما أنَّ كُلَّ هُمُومِهِمْ متعلِّقَةٌ بمصالح دُنياهم فإنّهم يَعْبُدونَ شركاءَهُمْ ليُحقِّقُوها لهم، ولا يُوجِّهونَ اهتماماتٍ جَادَةً لعبادة اللَّهِ جلّ جلالُه.

ولهذا جاءت النُّصُوصُ القرآنيَّةُ حَوْلَ هذا الموضوعِ مشتَمِلةً علىٰ إقناعهم بأنّ آلِهَتهم الّتي يَعْبُدُونها، لَا تَمْلِكُ لَهُمْ نَفعاً ولَا ضرّاً، وأنّ اللَّهَ هو الذي يَسْتَجِيبُ الدُّعاء، وأنَّه هو وحْدَهُ الذي بِيَدِهِ نَفْعُهم وضُرُّهم، ومعونتهم ونَصْرُهم.

أمَّا آلِهَتُهم من دُون الله، فلا تَخْلُقُ لهم شيئاً، بَلْ هُمْ يُخْلَقُونَ، ولَا تَمْنَحُهم قُوَّةً وَلَا عِزًّا، وَلَا تَمْنَعُهُمْ مِمَّنْ يُرِيدُهم بِشَرٍّ أو ضُرٍّ أو سوء، ولا تَنْصُرُهُمْ إذا طَلَبُوا مِنْها النَّصْرَ، مَهْما عَبَدُوها.

وقد وُزِّعَتْ هٰذِهِ المعاني في عَدَدٍ من النُّصوص القرآنية الموزّعَةِ في كثير من السُّور، وجاء منها في هذه السورة بيانُ أنَّهم يَرْجُونَ من آلِهَتِهِم

الَّتِي يَعْبُدُونَها أنْ تَنْصُرَهم، ومعلومٌ أنَّ النَّصْرَ مِنْ آلِهةٍ ذَوَاتِ قُوىً غيبيَّةٍ غيْرِ مشهودَةٍ في اعتقاد المشركين، هُو عَمَلٌ من أعمالِ الرُّبُوبيَّة، وهٰذا يكْشِفُ للمتدبّر أنَّ المشركين يَعْتَقِدون في آلهتِهِمْ أنَّها شَرِيكَةٌ للَّهِ سبحانه وتعالى في بعْضِ عناصِرِ رُبُوبيَّته، على خلافِ ما يتصوَّرُ بَعْضُ المدافِعينَ عن العقيدة الإسلامية، من أنّ مُشْرِكي العرب، كانُوا يُؤْمِنُونَ بتوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لله تبارَك وتَعَالَىٰ، إلَّا أنَّهم يَجْعَلُون لَهُ شركاء في إلٰهيَّتِهِ.

التدبّر:

قول الله تعالى:

- ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

اتَّخَذَ: على وزْنِ «افْتَعَلَ» مِنَ الْأَخْذ، ومن معاني هٰذِهِ الصيغَةِ التكلُّفُ والتّصَنُّعَ على خِلاف طبيعَةِ الشيءِ أو الأمْر.

الضمير في: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ يَعُودُ على المشركين الَّذِين جرى الحديثُ عنهم في السورة، وهم مُشْرِكُوا مكَّةَ وَمَنَ كان على شاكِلَتِهِمْ إبَّانَ نزول السَّورة.

أيْ: واتَّخَذُوا بتَكلُّفٍ وَتَصَنُّعٍ مخالِفٍ للحقيقَةِ بَاطلٍ، مِنْ دُون اللَّهِ العَليِّ الْأَعْلَىٰ آلِهَةً سُفْلَىٰ يَعْبُدُونهم، راجِينَ منهم أن يَنْصُرُوهُمْ عَلَىٰ خُصُومهم وأعدائهم، في حَرْبٍ ظاهرةٍ، أوْ حَرْبٍ غَيْرِ ظَاهِرَةٍ، بَلْ تَجْرِي مَكْراً في الخفاء.

﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ جُملَةٌ حاليّة، أي: حالَةَ كَوْنهم راجين أَنْ يُنْصَرُوا علَىٰ أعدائهم، من قِبَلِ آلهَتِهِمُ الَّذِين يَعْبُدونهم من دُون الله.

قول الله تعالى:

- ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: إنَّ هٰؤُلَاءِ الآلِهَةَ الَّذِين يَعْبُدُونَهُم مِنْ دُون اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهم بشَيْءٍ من الأشياء.

وجاء التعبير بضمير جماعَةِ العقلاء: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ نظراً إلى مَا يَعْتَقِدُ المشركون فيهم، إذْ يَرَوْنَ أنَّ الأوثانَ رُموزُ أَرْبابٍ يَعْلَمُونَ أحوال عابِدِيهم، وهؤلاء الآلِهَةُ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْر عابديهم بشَيْء، في حال أَنَّ عابِدِيهِمْ قَدْ جَنَّدُوا أَنْفُسَهُمْ لنُصْرَةِ هؤلاء الآلِهَةِ المعْبُودين.

العابِدُونَ المشْرِكُونَ باللَّهِ يَنْصُرُونَ آلِهَتَهُمْ من دُون الله، والشُّرَكَاء المعْبُودُونَ لَا يَنْصُرُونَ عابِدِيهم، لأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهم.

ونلاحِظُ أنَّه قد جاء التعبير في الآية عن نُصْرَةِ المشركين لآلهتهم بكِنَايَةٍ غايَةٍ في الإبداع فِكْرَةً وَتَعْبِيراً، وهي قَوْلُ الله عزّ وجلَّ في الآية: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾: أي: والمشركون لآلِهَتِهِمْ جُنْدٌ مُدافِعُونَ عَنْهم، مُنَاصِرون لهم دَواماً، تَسُوقُهُمُ الشَّيَاطين بوساوسِها للدّفاع عنهم، والحضُور الدائم لمناصَرَتِهم، وإشارةً إلىٰ هَذَا السَّوْقِ مِنْ قِبَلِ الشَّيَاطِين، جاءَ التعبيرُ باسْمِ المفْعُول ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ لَا باسْمِ الفاعلِ «حاضِرُون» وهٰذا من إبْداعَات القرآن في انتقاء الكلمات الدَّالَّاتِ على المراد دَلَالَاتٍ دَقيقَاتٍ مُحْكَمَاتٍ.

ومعلومٌ أنّ الجنْدَ المحْضَرِينَ عِنْدَ رَئيسهم الذين يُحِبُّونَه ويُعَظِّمُونَه، ويَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ، لَا بُدَّ أنْ يَكُونُوا مُتَأَهّبِين لمناصَرَتِهِ دواماً.



(١٣)
التدبر التحليلي للدرس التاسع من دروس السورة وهو الآية (٧٦)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ خِطاباً لِرَسُولِه محمّد ﷺ:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

- قرأ نَافع: [يُحْزِنْكَ]: من فِعْل: «أَحْزَنَهُ الأمْرُ».

وقرأ باقي القُرَّاءِ العشرة: ﴿يَحْزُنكَ﴾ من فعل «حَزَنَهُ الأَمْرُ».

يقال لغة: «حَزَنَ الأَمْرُ فَلاناً يَحْزُنُهُ حُزناً» أي: غَمَّه.

ويقال أيضا: «أحْزَنَهُ يُحْزِنُهُ إحْزَاناً» أي: غَمَّه.

فالقراءتان مُتكافِئتان، وهما لغتان عَرَبيّتان للكَلمة.

تمهيد:

هٰذِهِ الآيةُ جاءت دَرْساً قائماً بذاته من دُروس السورة، وهي تشتمل على علاج رَبَّانِيّ للرَّسُولِ ﷺ، وهذا العلاج مَوْصُولٌ بما جاء في الدرس السابع، وهو قول الله عزّ وجلّ فيه:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

وقد سبق أن ظَهَر لنا بالتدبّر أنّ هذا القول قد دلَّ على أنَّهم اتَّهَمُوا الرَّسُولَ بأنّه شاعِرٌ، وأنَّ القرآن لَوْنٌ مِنْ أَلْوانِ الشِّعر، إلّا أنّ هذا الاتهام لم يبلغ إبان نزول سورة (يسٓ) مبلغ الشائعة الّتي تتكرَّرُ على أَلْسِنَةِ المخالفين الكافِرين بِرِسَالة الرَّسُول ﷺ، بل كانت أقوالاً في السِّرّ، قِيلَتْ ضِمْنَ أَحَاديثِ قيادات المشركين، في مجالِسَ خاصَّةٍ، وَبما أنّها قَدْ بَلَغَتِ الرَّسُول ﷺ، فإنّ مِنْ شَأْنِها بِحَسَبِ الطَّبَائع البشريَّةِ، أَنْ تُحْزِنَهُ لأنّها أُكْذُوبَةٌ مُفْتَراة، وهو يَخْشَى أنْ تَصير شائعةً تَلُوكُها الأَلْسِنَةُ، فتُؤَثِّر على مَسِيرَةِ دَعْوَتِهِ وانتشارِها، وهو ﷺ يَعْلَمُ من نَفْسِه أنّه غَيْرُ شاعر، ويَعْلَمُ أنّ القرآن تنزيلٌ من رَبّ العالمين، يُعَلّمه إيَّاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ حَرْفاً فَحَرْفاً، وكلمةً فكَلِمَةً، وآيَةً فآيَة، فَهُوَ يَتْلُوهُ علَىٰ قَوْمِهِ ويُبَلِّغُهُمْ إيَّاهُ كَمَا يُنَزَّلُ عليه، لا يَزِيدُ فيه شيئاً، ولا يَنْقُصُ مِنْهُ شيئاً.

وهذا الدرس والدرس السابع موصولان بالخطّ الّذِي بدأتْ به السّورَةُ في دَرْسها الأول، إذْ جاء فيه قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾.

وهذه اللّقَطات الارْتباطيَّة في السُّورَةِ، مع تباعُدِ الفواصل بَيْنَها، مِمَّا يَدُلُّ علىٰ وَحْدَةِ مَوْضوعها.

وفي هذه المعالجة الرَّبَّانيَّة لِنَفْسِ الرَّسُول ﷺ بشأن اتّهامِهِ بأنَّه شَاعِرٌ، وبشأن اتّهام القرآن بأنَّهُ لَوْنٌ مِنْ ألوانِ الشعر، وهذا أمْرٌ قَدْ أحْزَنَه، قال الله له: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾.

وأبان الله عزّ وجلّ له مَا يُهَوّن عَلَيْهِ الأمْرَ، ويَجْعَلُهُ لَا يَحْزنَ لِمَا يَقُولُون، فقال له: ﴿... إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٦﴾.

أي: إنَّ الله الخالِقَ بعَظَمَةِ رُبُوبيّتِهِ، والّذي بِيَدِه مَقَاليدُ السّماوات والأرض، والقادر على قَطْع ألْسِنتهم وأعْنَاقِهِمْ بِكلمة: «كُنْ» لَمْ يُعَاجِلْهُمْ بالعقوبة، إذْ قضت حِكْمَتُهُ إمْهَالهم، والحلْم والصَّبْر عليهم، فارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَهُ رَبُّكَ لِنَفْسه.

﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾: أي: فلا تَجْعَل لِقَوْلِهِمْ تأْثيراً عَلَيْكَ، فَيُجدِّدَ لَدَيْكَ الحزْنَ آناً فآناً، بل اصْرِف عن ذِهْنِكَ ونَفْسِكَ أقوالَهُمْ، وَلَا تَعْبَأْ بها، واعْلَمْ بأنَّ رَبَّكَ النَّصِيرَ لَكَ يَعْلَمُ كُلَّ مَا يُسِرُّونَ، وكُلَّ مَا يُعْلِنُون.

علاجٌ رَبَّاني عظيم، لَا يَدَعُ في نَفْسِ الرَّسُولِ حُزْناً بشَأْن هذا القول من أقْوال قادَةِ المشركين.



(١٤)
التدبر التحليلي للدرس العاشر من دروس السورة وهو الأخير وهو الآيات من (٧٧ ـ ٨٣)

قال اللّهُ عزّ وجل:

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا

ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

القراءات:

(٨١) ● قرأ رُويس: [**يَقْدِرُ**] علىٰ أنه فعل مضارع.

وقرأ باقي الْقُرّاءِ العشرة: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ اسم فاعل مجرور بالباء.

والقراءتان متكافئتان، لأن اسم الفاعل بقوّةِ الفعل المضارع.

(٨٢) ● قرأ ابْنُ عامر، والكِسَائي: [**كُنْ فَيَكُونَ**] بِنَصْبِ «يكون» بأن مضْمَرَة بَعْدَ فاء السَّبَبِيَّةِ.

وقرأ باقي القرّاء العشَرَة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بِرَفْعِ «يكون» أي: فهو يكون.

والقرائتان وجهان عَرَبيّان جائزان، فهما متكافئتان.

(٨٣) ● قرأ يَعْقُوب: [**تَرْجِعُونَ**] بالبناء للفاعل.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.

والقراءتان مُتَكامِلَتَان، لأنّ الله عزَّ وجلَّ يُرْجِعُهُم إلى الحياة بَعْدَ الموت، فَهُمْ يُطاوِعُونَ بالجبْرِ فَيَرْجِعُونَ.

تمهيد:

هذا الدرس يُعالِجُ قضيَّةَ جُحودِ المشْركينَ الَّذين جاء الحديث عَنْهُمْ في السّورة، للبَعْثِ وَيَوْم الدّين، إذْ رَأَوْا بِعُقُولهم الْقَاصِرَةِ اسْتِحالَةَ إحياء الموتَىٰ بَعْدَ فَنَاءِ أَجْسَادِهِم.

فأنكَرُوا اليوم الآخر، وما أَعَدَّ اللَّهُ عزَّ وجلّ فيه من حسابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وجزاءٍ في دار النعيم المعدَّة للمتقين، وجزاءٍ في دار العذاب النار للكافِرِينَ والْعَاصين.

وقد اشتمل العلاجُ الرَّبّانيُّ في هٰذِهِ السُّورَةِ على الإقناع بعِدَّةِ عناصِرَ إقناعِيَّة.

التدبّر:

قول الله تعالى:

• ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾:

المرادُ بالإنسانِ هُنَا الإنْسَان المنْكِرُ للبَعْثِ ويَوْم الدِّين، مُتوهِّماً أنّ البعثَ إلى الحياة بَعْدَ الموت أمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ لَا تَقْبَلُهُ العقول.

وفي مُعَالَجَةِ هذا الاستبعاد أعادَ اللَّهُ هَذا الإنْسَان إلَىٰ قِصَّةِ خَلْقِهِ الأوّل مِنْ نُطْفَةٍ، وكيف تكوَّنَتْ هٰذِهِ النُّطْفَةُ، ثُمَّ كَيْفَ تَطوَّرَتْ بخَلْقِ اللَّهِ، حتَّىٰ صارتْ إنْسَاناً سَوِيّاً يُخَاصِمُ رَبَّهُ الذي خَلَقَهُ بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ شيئاً مَذْكوراً، فجعَلَهُ إِنْسَاناً سَوِيًّا.

إنّه يُخَاصِمُ رَبَّهُ في إِخْبَارِهِ بِأَنَّهُ سَوْفَ يُعِيدُ الناسَ إلىٰ الحياة مَرَّةً أُخْرىٰ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، ليحاسِبَهُمْ علَىٰ مَا قَدَّمُوا في حياة الامتحان، مَعَ أنّ الإعادة إلى الحياة مرَّةً أُخرَىٰ مِثْلُ بَدْئها في المرَّةِ الأولَىٰ، بل هي أهون من المرَّة الأولى بِحَسَبِ تجارِبِ ما يُبْدِعُ الناسُ من أعْمال.

• ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾: جُمْلَةٌ معْطُوفَةٌ على جُمْلَةِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ الواردة في أوّل الدَّرْسِ الثامِنِ مِنْ دُرُوس السّورة.

وجاء في هذا الدرس العاشِرِ خِطابُ كُلِّ واحِدٍ من مُنْكِري الْبَعْثِ

خِطَاباً إِفراديًّا، لأنَّ كُلَّ واحِدٍ من الناس قد مرَّ بهذا الطَّوْرِ من الخلْق.

أمّا النظائر التي جاءت في السورة فقد جاءَ خِطابُ المشركين فيها خِطَاباً جماعَيًّا:

ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

لأنّ الرُّؤْيَةَ الجماعِيَّةَ في هٰذَيْنِ الموضوعَيْنِ هي الرُّؤْيَة الملائمة لَهُما.

أمّا عبارة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فكُلُّ إنْسَانٍ مُدْرِكٍ يَعْرِفُ هذه الحقيقة.

إذَا سَأَلْنَا عُلَمَاءَ الْأَحْيَاءَ عَنْ تَكُوُّنِ الْجَنِين مِنَ النُّطْفَةِ، وتناميه حتَّىٰ يُولَد، وحَتَّىٰ يَكُونَ إِنْسَاناً سَوِيًّا قادِراً علَىٰ الجدالِ والمخاصَمَةِ، فإنَّهم يَأْتُونَنَا بِبُحوثٍ مُذْهِلَةٍ عَنْ عجائب وغرائِب ومتقناتِ صُنْعِ الله عزّ وجلّ في خَلْقِ الإنْسَانِ وسائر الأحياء.

أفيليقُ بذي فِكْرٍ مُدْرِكٍ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ نَشْأَتِه، أَنْ يَجْحَدَ قُدْرَةَ الرَّبِّ القدير على مَا يَشَاء، فَيُنْكِرَ مَا أَخْبَرَ بِهِ عزّ وجلّ، من أَنَّه سَوْفَ يُحْيي الموتَى، لِيُحَاسِبَ الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدُّنيا، ولِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ لَهُمْ أو عليهم، وليجازيهم علىٰ ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانهم.

والاستفهام في عبارة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾؟! استفهام إنكاريٌّ وتعجيبيٌ من أمْرِ الإنْسَانِ الكافِرِ بما جاء عن اللَّهِ عزّ وجل من قضيَّةِ البعث للحسَاب وَفَصْل القضاء وَتنفيذ الجزاء بالعدل أو بالفضل.

أي: أوَلَـمْ يَرَ خَلْقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ، فيما يشاهد من نُظَرائِهِ الَّذِين يَخْلُقُهُمُ اللَّهُ مِنْ مثْلِ مَا خَلَقَهُ؟!

إنَّها سُنَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ مَشْهُودَةٌ دَواماً، فَهَلْ هُوَ أعْمَىٰ مُنْطَمِسُ الْبَصِيرَةِ

لَا يَرَىٰ هٰذه الحقيقة المتكرِّرَة؟! أَمْ هو يَراها ويَتجاهَلُها وَيَصْرِفُ فِكْرَهُ عَنِ الاعْتِبَارِ بها؟! كِلَا الأَمْرَيْنِ مُسْتَنْكرانِ، يستثيران استِغْرابَ العقلاء وتَعجُّبَهُمْ الشّدِيدَ من فَرْطِ سفَاهَةِ المنكِرِ ونقصان عقْلِه، أو من عناده ومكابَرَتِه بالباطل.

﴿..فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: **الْخَصِيمُ**: المخاصِمُ الْمُجَادِلُ خِصَاماً شديداً بِحَقٍّ أو بباطل.

«إِذَا» فُجَائِيَّة، أي: كَانَ نُطْفَةً مَهِينَةً حَقِيرَةً، فَلَمَّا صَارَ إِنْسَاناً سَوِيًّا كامِلاً، فَاجأ بالْخُصُومَةِ دَاعِيَ رَبّه، وصَارَ يُجَادِلُ بالباطل، ونَسِيَ مَا كَانَ عَلَيْهِ حِينَما كانَ نُطْفَةً قَذِرَةً حَقِيرَةً.

﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: أي: واضح الخصومة والمجادلة، وقَدْ يَصِلُ إلى دَرَكة الوقاحَةِ وغايَةِ السَّفَاهة إِذَا كان يُجَادِلُ بالباطل.

وبما أنّ هٰذا الإنْسَانَ المتحدَّث عَنْهُ كافرٌ جاحِدٌ، فَإِنَّ وَصْفَهُ بأنَّهُ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَصْفٌ مُهَذَّبٌ جدًّا، إِذْ حَقُّهُ أنْ يقال بشَأْنه: خَصِيمٌ وقِحٌ سَفِيهٌ يجادل بالباطل لِيُدْحِضَ به الحقَّ.

قول الله تعالى:

• ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾:

أورد ابْنُ كثير وغَيْرُهُ رِوَايَاتٍ حول أَسْباب نُزُولِ هاتَيْنِ الآيَتَيْن، جاء فيها: أنَّ أُبَيَّ بَنَ خَلْفٍ، أو العاص بْنَ وَائل، ورُبَّما كلاهما، قَدْ صَدَرَ عَنْهُمَا هذا القول الذي جاء في النصّ.

ففي رِوَايَةٍ أنَّ أُبيَّ بْنَ خَلَفٍ جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وفي يَدِهِ عَظْمٌ

رَمِيم[1] وَهُوَ يَفُتُّهُ، ويَذْرُوهُ في الْهَوَاءِ، وهو يقول: يا مُحَمَّدُ، أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هٰذا؟!

قال ﷺ: «نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللَّهُ تَعَالىٰ، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَىٰ النار».

ونزلَتْ هٰذِهِ الآيَاتُ من آخِرِ سورة (يسٓ).

وفي رِوايَةٍ عن ابْن عبَّاسٍ: أنّ الْعَاص بْنَ وَائلٍ، أخَذَ عظماً مِنَ البَطْحَاءِ[2]، ففَتَّهُ بِيَدِه، ثُمَّ قال لِرَسُولِ الله ﷺ: أَيُحْيِي الله هذا بَعْدَ مَا أَرَىٰ؟!

فقال رسول الله ﷺ:

«نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللَّهُ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جهَنَّمَ».

عبارة: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾: تفيد أنّ هذا الإنْسَانَ الكافِر، قَدَّم لنا نَمُوذَجاً من جَسَدِ مَيّتٍ قَدْ بَلِي، وقَالَ مَقَالَة تَعَجُّبٍ واسْتِنْكار: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾؟!

وَنَسِيَ حِينَ ضَرَبَ هٰذَا المَثَلَ خَلْقَهُ، إذْ خَلَقَهُ اللَّهُ عزّ وجلَّ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِين، ولم يَكُنْ شيئاً مَذْكوراً.

إنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُ في أَنْ يَنْسَىٰ خَلَقَهُ، أي: كيف خَلْقَهُ الله وكيف أنْشَأه؟ سواءٌ أكان هٰذَا النسْيَانُ مَحْواً مِنَ الذَّاكِرَة، أمْ كانَ نِسْيَاناً بمَعْنَىٰ التَّرْك والإهمال والإعراض عن هٰذه الحقيقة، الّتي لا يُمْكِنُ أَنْ تُنْسَىٰ، لأنَّ شواهِدَهَا مُتَكَرِّرَةٌ دَواماً.

---

(١) رَمِم: أي: بَالٍ.

(٢) **البطحاء**: المكان المتّسِعُ من الأرض يمُرُّ به السيل، فيتْرُكُ فيه الرَّمْلَ والحصَىٰ الصغار.

أصل معنى «النِّسْيَان» في اللُّغَةِ التَّرْكِ، ومن التَّرْكِ المتعمّد الإهمال.

وقَدْ علَّمَ اللَّهُ عزّ وجلّ الرَّسُولَ ﷺ فكُلَّ داعٍ إلى الله مِنْ أُمَّتِه، كيْفَ يُجيبُ على سؤال هذا السَّائلِ المتعجّبِ المسْتَنْكِر، بجوابٍ حَكِيمٍ هَادِئٍ، مَنْطِقِيٍّ بَارِدٍ، لَا عُنْفَ فِيهِ ولا انْفِعال، فقال تباركَ وتعالى:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿أَنشَأَهَآ﴾: **الإنْشَاء**: الإحْدَاثُ المصحوبُ بالتَّكامُلِ المتَدرّج.

أي: إنَّ الذي أنْشَأَ الْعِظَامَ في المرَّةِ الأولى، وَكَسَاهَا لحماً، وَصَوَّرَ الإنْسَانَ في رَحِمِ أُمِّهِ بأحسَنِ صُورة، ونفخ فيه الرُّوحَ فَكَانَ حيًّا، هو نَفْسُهِ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه وقُدْرَته ـ القدير على إنْشائِهَا وإحْيَائِهَا بَعْدَ الموتِ والفناء، مَرَّةً ثانِيةً وثالِثَةً، ثُمَّ إلى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنْ مَرَّاتٍ، لو شاء أن يميتَها وَيُفْنِيَها ثُمَّ يُحْيِيَها مَرَّاتٍ وَكَرَّاتٍ لَا حَصْرَ لَهَا، وهٰذِهِ قضيَّةٌ تُفْهَمُ باللُّزُوم العقليّ.

وإذا كانَ الإشْكالُ الَّذِي أثار في نفس السَّائل الشُّبْهَةَ آتيا من جهَةِ التشكُّكِ في شمولِ عِلْم الله لِدَقَائِقِ الْخَلْقِ الأَوّل، فاللَّهُ الخالقُ الرَّبّ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، أي: مَهْما كان هذا الخلْقُ دَقيقاً في ذاتِه أو في صِفَاتِه، وعِلْمُهُ جلَّ جَلَالُهُ لَا يَتناقصُ وَلَا يَتَبَدَّل، إنّه سبحانه لَا يَضِلُّ وَلَا يَنْسَىٰ، وَإعَادَةُ المخْلُوقِ إلى الحياة بَعْدَ الفناء تأتي مطابقة تماماً لخلْقِه الأول، لِأَنَّهُ يَخْلُقُ عن عِلْمٍ:

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾: أي: وهو بكُلِّ خَلْقٍ يَخْلُقُهُ عَلِيمٌ بِهِ قَبْلَ أَنْ يخْلُقَهُ، إذ الخلْقُ مَسْبُوقٌ بقضاء اللَّهِ وَقَدَرِه، وعَلِيمٌ بِهِ حِينَ خَلَقَهُ على وفْقِ خَرِيطَةِ تَكْوِينه، وعَلِيمٌ بِهِ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ، وَعَلِيم بمَا كَان عَلَيْهِ بَعْدَ أن أَمَاتَهُ وأفناه.

وهذا يُنبِّهُنَا على أَنَّ كُلَّ دقيقةٍ من دَقائِقِ الخلْقِ، بدأً مِنْ نَواة الذَّرَّةِ

فما هو أصْغَرُ مِنها، حتّى أكْبَرِ مَجَرَّة فَمَا هُو أعظم مِنْهَا مُحَاطٌ بِعِلْم الله، ومشمولٌ بعمليَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبّاني دَواماً، لكلّ تغيّرٍ فيه، ولكُلّ حَدَثٍ من أحداثه، فكُلُّ ذَرَّةٍ في الوجُود هي خَلْقٌ إبْدَاعيٌّ مِنْ خَلْقِ الله، ولمْ يَتِمَّ خَلْقُهُ له إلّا وهُوَ مَشْمولٌ بعلمه شمولاً تامًّا، وعِلْمُ اللَّهِ لا يُمْحَىٰ وَلَا يُنْسَىٰ، فإذا شَاءَ اللَّهُ إعَادَةَ الْخَلْقِ مَهْمَا كَان شأنُه، أعادَهُ فجعَلَهُ كَما كَان، مطابقاً لحالَتِه الأولىٰ، ونفَخَ فيهِ الرُّوحَ، فكَانَ هُوَ هُوَ لَمْ يتغيَّره مِنْهُ شيْءٌ، إنّما حَصَل فيه تحليلٌ وتركيبٌ، على أنَّ هُوِّيَّةَ الإنْسَانِ تَتمثَّلُ بِنفْسِه، لَا بِجَسِدِهِ ذي العوارضِ المتغيّرَة، ونَفْسُه ورُوحُه مِنَ الأسْرار الّتي لَا يَعْلَمُها إلّا اللَّهُ جلَّ جَلَالُه.

وقد اشتملَتْ هٰذه الآية (٧٩) على عُنْصُرَيْنِ من عناصِرِ الإجابَةِ الّتِي جاءَتْ في التعليم الرَّبَّاني:

العنصُرُ الأول: دلَّ عليه من الآية: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقد سبَق شرْحُ هٰذا العنصر.

العنصر الثاني: دَلَّ عليه من الآية قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

وقد سبَق شرح هذا العنصر، وأُضيفُ أنّ هذا العنصر من الجواب يَعْتَمِد على التأمُّل في الخلْقِ كُلّه، وأنَّهُ لا يَتِمُّ فيه الإتقانُ المشهود مَا لم يَكُنْ عِلْمُ اللَّهِ شاملاً قَبْلَ الخَلْقِ، وحِينَ الخلْق، وبَعْد الخلْق، الذي تَسْتَمِرُّ في المخلوق معَهُ أعمالُ الخلْق، لكلّ عناصِرِ الذّرّاتِ وأجزائها، وأجزاء أجزائها، مِنْ كلِّ شيءٍ في الكونِ، الشامل للذّوات وللصفات، بدءاً من أصْغر صغير في الكون، حتَّىٰ أكْبَرِ كبير فيه.

وعلّم الله جلّ جلالُه لا يتعرَّضُ للمَحْو وَلا للنِّسْيَان.

وبِما أنَّ الكَوْنَ مُتْقَنٌ دَواماً، فَعِلْمُ اللَّهِ شاملٌ لكلّ خَلْقٍ فيه دواماً.

العنصر الثالث: دلَّ عليه ما جاء في الآية (٨٠) وهو:

قول الله تعالى:

- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

جاء في هذه الآية التَّنْبِيهُ على ظاهِرةٍ من ظواهر خَلْق الله في الكون، وهي ظاهرة مصحوبَةٌ بعِنَايَةِ اللّهِ بالنّاس، وإنْعَامِهِ علَيْهم بالْوَقُودِ الَّذِي يُخْرِجُ اللّهُ لهُمْ منْهُ ناراً، يَنْتَفِعُونَ بها في حياتهم انتفاعاً عظيماً، إذْ يَسْتَمِدُّونَ مِنْها طاقاتٍ عظيمات، للإنضاج، والصَّهْر، والصِّنَاعَاتِ المختلفات، وينتفِعُون بِها منافع جمَّةً في السِّلْم والحرْب.

من المعروفِ المشاهد أنّ النباتَ والأشجار على اختلافِ أنواعها وَأصْنَافِها قابِلَةٌ لِأَنْ تكونَ وَقُوداً، لأنَّها تختَزِنُ في ذَرَّاتِها الحرارة الَّتي تَحْتَفِظُ بها من أشِعَّةِ الشمس، عن طَريق الورَقَةِ الخضراء، الَّتي تَنْبُتُ في أغْصَانِهَا.

وما زَالَ الإنسان مُنْذُ عَرَفَ كَيْفَ يَقْدَحُ الزّنادَ، ويَسْتَخْرِجُ شرارة النار، يتَّخِذُ مِنَ الْأَشْجَار وقوداً لما يحْتاجُ إليه من النار.

وتتحوَّلُ النَّبَاتاتُ الّتي تَدْخُلُ تَحْتَ عنوان الشَّجر الأخْضر إلَىٰ أجْسَادِ في الأحياء، وتَبْقَىٰ فيها صَلاحيَّةُ أنْ تكُونَ وَقوداً، شحومُها، ولُحُومُها، وعِظَامُها، وَكُلُّ ما يَتَّصِلُ بها أَوْ يَخْرُجُ مِنها.

وتَنْضَغطُ ذَرَّاتُ النَّبَاتاتِ في الْأَرْض طَوالَ أحْقَابٍ كثيرة، فتَصِيرُ فحْماً حَجَرِيًّا، قابلاً لأنْ يكونَ وَقُوداً لمَا يَحْتَاجُ إلَيْه النَّاسُ من نار، فيَسْتَخْرِجُ الْبَاحِثُونَ في مَنَاجِم الأرْضِ هٰذا الفحمَ الحجَرِيَّ، ويُسوِّقُونَه في أسْواقِ الْوَقُودِ ذي الأهميَّةِ البالِغَةِ لِلنّاس.

وقد اتَّجهَتِ الآراء الْعلْميَّةُ إلى الاعتقاد بأنَّ النِّفْطَ المختزَنَ في باطِنِ

الأرْض، إنَّما هو من تَحَوُّلَاتِ المخلَّفَاتِ العضويّة الّتي تَرْجِعُ أصُولُها إلى الشّجر الأخضر، وقَدْ حَدَثَتْ فيها هٰذِه التحوّلاتُ باجتماع الحرارة والضُّغُوطِ وتَطاوُلِ الزّمن.

وهذا يُدُلُّنا على أنَّ معظم وَقُود النّار في الأرض هو من الشَّجَر الأخْضَر، فتكونُ الآيَةُ قَدْ أَرْشَدَتْ إلى المصْدَرِ الأعْظَمِ لأنواع وقود النّاسِ في الأرض.

وجاء فيها ذِكْرُ الخُضْرة وَصْفاً للشّجر، للإشارة إلى أنَّ الورقَة الخضراء هي الّتي جعلَها الله عزّ وجلّ مصْنَعَ الوقود، وهي تَنْقُلُه إلى الشَّجَرَةِ مقتبسةً الحرارةَ مِنْ أشِعَّةِ الشمس، وهذا الأمْرُ لم يَكُنِ النَّاسُ يَعْلَمُونَهُ قديماً، حتَّىٰ جَاءَت المكتَشَفَات العلميَّةِ الحديثَةِ فَأَبَانَتْه.

وكُلَّما اكتشَفَ الناسُ آيَةً ذَاتَ مَنْفَعَةٍ لَهُمْ من آياتِ الله في كونه، يُسَارِعُونَ إلى الانتفاع بها في حياتهم ومَعَايشِهِم بصُورَةٍ مُفَاجِئَةٍ عَجِيبَةٍ، دُونَ أنْ يَنْتَفِعوا مِنْ دَلَالَاتها الإيمانيّة الّتي تَهْدِي أولي الألْبَابِ إلى إدراكِ بعض صفاتِ الرَّبّ جلَّ جلَالُه، وَإِدْرَاكِ نِعَمِهِ الّتي تَسْتَوْجِبُ مِنْهُمْ أن يشْكُروه، بالإيمان، والإسلام، والطّاعَةِ، والعبادَةِ على مَا يَرْضَىٰ، وأَنْ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شيئاً.

هذا مَا أشَارَ إليه قول الله عزَّ وجلَّ في التعليم: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ باستعمال كلمة «إذا» الْفُجَائِيّة، دون أنْ يتّجهوا إلَىٰ الإيمان، بدليل وجُودِ المنكرين لِبَعْضِ أَرْكانه من الَّذِينَ يُفَاجِئُونَ بالانْتِفَاعِ بأنواع الْوَقود.

﴿تُوقِدُونَ﴾: أي: تَسْتَعْمِلُونَ منْهُ الوقود كلَّمَا احْتَجْتُمْ إلى النار.

العنصر الرابع: دلّ عليه ما جاء في الآية (٨١) وهو قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ... ﴿٨١﴾﴾:

من الواضح في أذهان المنكرين للبعث أنّ خَلْق السمٰاواتِ والأرض وما فيهما أكبر مِنْ خلق النّاس، فَمِن الحكمة في الاستدلال للإقناع أن يَطْرَحَ المناظر استدلالَهُ بأسْلُوب المستنكر المتعجِّب من واقع حال المنكرين للبعث، إذْ لم يسْتفيدوا من قُدْرَةِ اللَّهِ على خَلْق السّماوات وَالأَرْض اليَقِينَ بأنَّهُ قادِرٌ على خلق مِثْل أجْسَادهم التي تفنىٰ بَعْدَ الموت، وتَتَفَتَّتُ ذَرَّاتُها في الأرض، وبأنّه قادِرٌ على أن يَجْعَلَ فيها نفوسَهم وأرْواحَهم، الّتي هي هوِيّاتُهُمُ الحقيقية، أمّا الأجساد فأقفاصٌ أو قوالِب أو مَساكن لها، والله أعْلَمُ بأحْوَالِ خلقه، وهو على كُلّ شيءٍ قدير.

العنصر الخامس: دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في آخر الآية (٨١).

• ﴿.. وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾:

﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الخالق» الدَّالةِ على التكثير والتعظيم، وهي بالنسبة إلى الله جلّ جلالُه تَدُلُّ علَىٰ قُدرَتِه على خَلْقِ أقصىٰ الممكنات الْعَقْلِيَّة في الخلق.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الْعَالِم» الدَّالة أيضاً على التكثير والتعظيم، وهي بالنسبة إلى الله جلّ جلالُه تَدُلُّ على شمولِ عِلْمِهِ كلّ شيء.

فالله عزّ وجلّ له غاية القدرة على خَلْقِ ما يشاء فهو الْخَلَّاقُ الذي لَا يُشَارِكُهُ في صفته هٰذِهِ أحد. ولَهُ الْعِلْمُ الشّامل كلَّ شيء، ما كان وَما هو كائن وما سَيَكُونُ وما هو ممكن أن يكون وما هو مستحيلٌ أن يكون، ولا يُشَارِكُه في صفته هٰذِهِ أَحَد.

العنصر السادس: دلَّت عليه الآية (٨٢) وهي:

قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حَصْرٍ وقَصْر.

﴿أَمْرُهُۥٓ﴾: أي: شَأْنُه ـ جلّ جلالُهُ وَعظم سُلْطانُه ـ وهو هُنَا يتعلَّقُ بكَوْنِه خَلَّاقاً.

والمعنى: ما شأنُهُ ـ تبارك وتَعَالَىٰ ـ إذَا أرادَ شيئاً ما، إلَّا أن يقول لَهُ آمِراً أَمْرَ تكْوين: ﴿كُن﴾ فَهُو ﴿يَكُونُ﴾ علَىٰ وفْق مَشيئته تماماً.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى في آخِر تعليم عناصر الإقناع، وبه يختم السورة:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿فَسُبْحَٰنَ . .﴾ أي: فتنزيهاً لِلَّهِ عَمَّا زَعَمَ مُنْكِرُو البعث، إذْ لَمْ يَقْدُرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه.

تسبيح الله: تنزيهُهُ وتقديسُه، عن كلّ ما لا يليق به جلّ جلاله من صفات النقص الّتي تتنافى مع أَزَليّته ووحدانيّته وأبديته وكمال صفاته الوجودية.

قال النحاة: «سُبحْان» اسْمٌ علَمٌ لمعنى البراءة والتنزيه، ولَيْس له فعلٌ من لفظه، وهو ممنوعٌ من الصّرف إلّا إذا أضيف. ويأتي منصوباً في موضع المصْدَرِ المنصوب بفِعْلٍ محذوف.

جاء في «لِسَان العرب»: وروى الأزهريّ بإسناده، أنّ ابنَ الكَوّا سألَ

علياً رضي الله عنه عن «سُبْحانَ الله» فقال: كَلِمَةٌ رَضِيَها الله لنَفْسِه، فَأَوْصَىٰ بها.

• ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾:

﴿مَلَكُوتَ﴾ على وزْنِ «فَعَلُوت» صيغةُ مبالغة غير قياسيَّة لكَلِمَةِ: «مِلك» بكَسْر الميم.

أي: الذي بِيَدِهِ التَّصَرُّفُ الكامِلُ التّامُّ بِكُلِّ شيءٍ في الوجود، لأَنَّهُ مِلْكُهُ الخاصّ به، الّذِي لَا يُشَارِكُه فيه أحد.

وتحْقِيقاً للغايَةِ من الخلْق وهي الابْتِلَاءُ، وثَمَرَتُه الّتي تكونُ بالْحِسَابِ، وَفَصْلِ القضاء، وَتَنْفِيذِ الجزاء، لَا بُدَّ أن تَرْجِعُوا بَعْدَ مَوْتِكم إلى الحياة، لِتُلَاقُوا ثَمَرَةَ مَا قَدَّمْتُمُوهُ في رحلة امتحانكم، فقال تعالى:

• ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: إذْ يَخْلُقُكُمْ خَلْقاً جَدِيداً يُرْجِعُكُمْ بِهِ إليه. فَتَرْجِعُونَ بالجبْر الرَّبَّاني.

وبهذا انتهى تدبّر السورة بعون الله وفَتْحِه.



ملاحق لتدبّر سورة (يسٓ)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغيّة من السّورة.

الملحق الثاني: اللّوح المحفوظ في كلّ القرآن وبعض السنة.

الملحق الثالث: بيان اعتراض الأمم على بشريّة الرُّسل في القرآن.

الملحق الرابع: امتنان الله على العباد بالأنعام في نصوص القرآن.

(١٥)
الملحق الأول
مستخرجات بلاغية من السورة

أوّلاً:

تأكيد الخبر بمؤكداتٍ مراعاة لأحوال المعنيّين بالخطاب الرَّبّاني، ومنه في السورة ما يلي:

(١) القسم بالقرآن الحكيم على أنَّ الرَّسُول محمَّداً ﷺ من المرسلين، وأنّ الْقرآن تنزيل العزيز الحكيم.

جاء هذا في قول الله عزّ وجلّ:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾.

وفي القسم بالقرآن تَنْبيهٌ على أنَّهُ عظيم جدًّا يَصِحُّ أَنْ يُقْسِمَ اللَّه به، فعلَىٰ أهل التدبّر أن يكتَشِفُوا مَا فيه ليُدْرِكوا إعجازه، وأنَّه أهْلٌ لأن يُقْسَم به.

(٢) قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ فيه من المؤكّدات: «إنّ ـ الجملة الاسميَّة ـ اللّام المزحْلَقَة».

والغرض إسماعُ منْكري رسالته.

(٣) قول الرُّسل الثلاثة لأصحاب القرية كما حكاه الله بقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤﴾ في مؤكدان: «إنَّ ـ الجملة الاسمية».

فقال لهم أصحاب القرية كما حكاه الله بقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥﴾.

في هذا القول ثلاثة جُمَلٍ مقصورة، وفي الْقَصر تأكيدٌ للخبر من الدرجة القصوى.

• ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: أي: نَجْزِم بصورة قطعية أنّكم لسْتُمْ رُسُلاً مُرْسلين من عند الله.

• ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾: أي: ونجزم بصورة قطعيَّة أنّ رَبَّنا الرَّحمٰن، ما أنْزَلَ شيئاً مَا للناس من تعليمات تتضمَّن مطلوبه منهم.

• ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾: أي: ونجزم بصورةٍ قطعيَّة أنَّكُمْ تكذِبُون في ادّعاء الرِّسالة، وتكذبُون في التبليغ عن الله الرحمٰن.

فقال لهم الرُّسُل الثلاثة كما حكاه اللَّهُ عزَّ وجلّ بقوله: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

في الآية (١٦) التأكيد بأربع مؤكدات: «ربُّنَا يَعْلَمُ (بقوة القسم) ـ إنَّ ـ الجملة الاسميَّة ـ اللّام المزحلقة» فزادوا في أدوات التأكيد.

وفي الآية (١٧) التأكيد بالقصر، أي: ونجزم لكم بصورة قطعيَّة أنّنا مبلّغون، ولسْنا مجبرين ولَا مُكْرِهين، فاختاروا لأنفسكم ما تشاؤونَ من إيمان أو كفر.

(٤) في قول أصحاب القرية لرسُلِهم كما حكاه الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿... لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ التأكيد بالْقَسَم الذي دلّت علَيْه اللام الموطّئة للقسم، ونون التوكيد الثقيلة في: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ وفي: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾.

وتوجد أمثلة أخرى في السورة، فيها تأكيد الخبر بمؤكداتٍ، مراعاةً لأحوال المعنيّين بالخطاب الرَّبَّاني، تركت استخراجها للباحثين المهتمين بالبلاغيّات.

ثانياً:

توجد في السورة أمثلة متعدّد من الإيجاز، ومنها ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾.

في هذه الآية إيجازٌ بالحذف تَدُلُّ عليه اللُّوازم الفكرية، وبيان ذلك فيما يلي:

الإنذار: هو الإخبار بالعاقبة المكروهة للمنْذَرِين، وهو الوظيفة الّتي تأتي بعد التبليغ، والدَّعوة بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالّتي هي أحْسَن، وتَرْغِيبِ المستجيبين المطيعين بالعاقبة الحسْنَىٰ في جنَّاتِ النّعيم، أمّا من أبَىٰ وعانَدَ ولَمْ يسْتَجبْ لدَعْوَةِ الحقّ، فيأتي إنذارُهُ بالعاقبة السُّوأىٰ في جهنَّمَ دَارِ عذاب الكفَرَةِ المكذّبين.

فذكْرُ الإنْذَارِ يَدُلُّ عن طَرِيق اللوازم الفكريَّة على أنَّه مَسْبوقٌ بهذه المراحل، وبما أنَّ هٰذه المراحل السابقة للإنْذَارِ لَمْ تكن ذاتَ جَدْوىٰ مع المعنيّين من الكفَّارِ المعاندين، كان الإنذار هو المناسب لهم بَعْدَ أَنْ وصَلُوا إلى حالة ميؤوس منها.

فالمعنى: لتُنْذِرَ هؤلاء، بعد أن اتّخذتَ مَعَهُمْ الوسائل السابقة له، فلم تُؤَثّر فيهم، ولم يَبْقَ لَديك ألا أن تنذرهم.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجل: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾.

الفاء في: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ هي الفصيحة الّتي تَعْطِف على محذوف، والتقدير: أيَسْتمرونَ في فتنتهم بمظاهر الحياة الدُّنيا، غارقين في غفلاتهم، كأنَّهم خالدون فيها، فَلا يَعْقِلُونَ عقْلاً علميًّا، ولا يعقلون عقلاً إرادِيًّا بضبط نفوسهم عمَّا سوف يجْعلهم من أهْل الجحيم يوم الدّين.

ونظيره في الآية (٧٣): ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾: أي: ألَا يتفكّرُونَ في هذه النِّعَمِ العظيمة التي الّتي أنعم الله بها عليهم، فهم بسبب عدم تفكّرهم لا يشكرون رَبّهم عليها بالإيمان والإسلام والطاعة على مقدار الاستطاعة.

المثال الثالث: وهو من أمثلة الاحتباك، الذي هو الحذف من الأوائل لدَلَالَةِ الأواخر، مع الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل.

قول الله عزّ وجلّ في السورة بشأن الرّسُول ﷺ وبشأن القرآن:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: ليُنْذِرَ الرَّسُول بالقرآن، وليُنْذِرَ القرآن، منْ كانَتْ فِيه بقيَّةٌ من حياة، إنْذاراً يَنْتَفِعُ به، فيَدْفَعُهُ إلى الإيمان والإسلام والعمل الصّالح، فيَحِقَّ قولُ الوَعْدِ بثوابه.

وليُنْذِرَ مَنْ كان بمثَابَةِ الميّت الذي لم تَبْقَ فيه بقيةٌ من حياةٍ، فلاَ يَنْتفع بهذا الإنْذَارِ، فيحَقُّ علَيْهِ قولُ الوعيد بأنَّه من أهْل النار.

وتوجد في السُّورة أمْثلة أخرى من أمثلة الحذف تركت استخراجها للمتدبر المتأني.

ثالثاً:

توجد في السورة أمثلة متعدّدة من التشبيه، وهو الدلالة على مشاركة شيءٍ لشيءٍ في معنًى من المعاني أو أكثر، على سبيل التطابق أو التقارب لغرضٍ ما، ولا يكون وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدّد.

فإذا كان وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدّدٍ فهو التشبيه المركّب، ويسمّيه البلاغيّون «تمثيلاً» وهو تشبيه يكون على شكل لوْحَةٍ تُصَوِّر أكثر من مفرد، ووجه الشَّبَهِ فيه لا يكون مأخوذاً من مفردٍ بعَيْنِه، بل يكون مأخوذاً مِنْهُ ومن غَيْرِه، أو من الصورة العامة.

المثال الأول: ما في قول الله عزّ وجل في وصف الكَفَرَةِ المكابرين المسْتَكْبِرين الميؤوس من إيمانهم:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⑧﴾:

أغْلَالاً: جمع «غُلّ» وهو طوق من حديدٍ أو جلد، يُجْعَلُ في عُنُقِ الأسِير أو المجْرِم، أو في أيْدِيهما، وقَدْ تجمع يَدُ المغْلُولِ إلى عُنُقِه وتُطَوَّقان بالغُلّ.

الأذْقَان: جمع «الذَّقَن» وهو مجتمع اللَّحْيَيْنِ من أسْفَلِهما.

مُقْمَحُونَ: أي: رافعو رؤوسهم إلى الأعلىٰ، يقال لغةً: أقْمَحَ الغُلُّ الأسِير، أي: جعل الغُلُّ الأسير يضطر أنْ يرفع رأسه إلى الأعلى، إذْ كان عَرْضُه أوْسَعَ من طول عُنقِه.

هذه الآية تقدّم صورةً تمثيليَّةً رائعةً، لحالة رفْع رؤوس الكافِرين المستكْبرين، ورفْع أنوفهم إلى الأعلى إذْ رفضُوا الاستجابة لدعوة الحق.

وهي في الحقيقة صورة تمثيليَّةٌ لحالَةِ نفوسهم من ورَاءِ رَؤوسهم، وهي تدلُّ على أنّ رَفضهم وعنادهم ظاهرةٌ مادّيَّةٌ مشهودة، لأسباب نفسيَّةٍ بَعِيدَةٍ كُلَّ الْبُعْد عن منطِقِ الحقّ، وتَدُلُّ على أنَّ رَفْضَهُمْ وعنادَهم ناتجان عن اختيارهم الحرّ، ولا أثر للجبْرِ فيه.

ومعلومٌ أنَّ ظاهرة رفْضِ شيءٍ ما قد يُعَبَّرُ عنْها برفْعِ الرأس إلى الأعلى نفياً واستكباراً.

والآية تُشِيرُ باللَّمح إلى أنّهُم أسْرىٰ شهواتهم وأهوائهم وكِبْرِهِمْ وحُبّهم الاستعلاء في الأرض، وأسْرَىٰ رغباتهم الجامحات في الفجور، وأسْرَىٰ الشياطين الّتي تَسُوقهم أَوْ تَقُودُهم إلى شقائهم.

ولمّا كان المعتادُ في الأسْرَىٰ أن تُوضَع الأغْلالُ في أعْنَاقهم، وأن يُقَادُوا منْها بالسَّلاسلِ، ولمّا كان من الأغلال ما هو عريضٌ وضيّقٌ على الرّقاب، فالمغلول بواحدٍ منها يضطرُّ أنْ يَرْفَعَ ذَقَنَهُ إلى الأعلى، كان منظر

الرافض لدعوة الحق الذي يرفع رأسَهُ إلى الأعلى نفياً واستِكْبَاراً مشابهاً لمنظر هذا الأسير المغلول بالغُلّ الضيّقِ العريض.

لكنَّ أغلال المعاندين الجاحدين من أهْل الكفر أغلالٌ ضاغطةٌ على رقابهم من داخل نفوسهم، فكان ما يُرىٰ من ظاهِرِهم تعبيراً ماديًّا عن الأغلال النفسيَّة الّتي جَنَوْا على أنْفُسِهم بتَقَلُّدِها، وأجْرَمُوا وظلموا، وجعلوا إراداتِهم تُجَرُّ بسَلاسِلِها إلى ما هم به مفترون مُنْخَدِعُونَ، وهُمْ بسببها زادوا كفْراً وعناداً، وزادوا إصراراً على الباطل.

المثال الثاني: ما في قول الله عزّ وجلّ بشأن الكفرة المكابرين المجرمين الرافضين دعوة الحقّ باختيارهم الحرّ:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾.

وهذه الآية تُقَدِّمُ للمتدبر الأديب البليغ صورة تمثيليّةً رائعةً، لحالَة عدَمِ رُؤيَةِ الكافرين المكابرين المعاندين للحقّ، وما قام دون بصائرهم من سُدودٍ تمنع عنها رؤية الحق بسبب كونهم سُجَناء شهواتهم وأهوائهم وكِبْرهم، وحُبِّهِم الاستِعْلاءَ في الأرضِ بغير الحقّ، ورغباتهم في الفجور، ومن ورائها وساوس الشياطين وتسويلاتهم.

وجاء في هذه الصورة تسمية الحجُبِ سُدُوداً، على سبيل الاستعارة، ولم يُسَمِّها الله عزّ وجلّ ستوراً، أو نحو الستور، لأنّ هذه الحجُبَ تصَلّبتْ وتحجَّرَتْ، فهي حَرِيَّةٌ بأنْ تُسَمَّىٰ سُدُوداً، إذْ هي بالنسْبَةِ إليهم وإلى من هم مثْلُهُم تُشْبهُ السُّدود المانعة من التسرُّب أو العبور.

وقد جعل الله عزّ وجلّ في أنظمة النفوس الّتي هي إحدى سننه وقوانينِه في كونه، أنّ من جعَلَ نَفْسَهُ باختياره الحرّ سجين أهوائه وشهواته، إلى سائر الجوامح الأواسر لنفسه من مطالب الحياة الدنيا وزينتها، قامَتْ بين بصيرته وبين الحقّ سُدودٌ من بين يَدَيْها وَمِنْ خَلْفها، وهٰذِه السُّدُودُ تحجُبُ عنْ بَصِيرَتِهِ رُؤية الحقّ.

وهل يوجَدُ أَذَلُّ وأَحْقَرُ وأُخْزَى مِمَّن جعل نفسه باختيارِه الحرّ أسيراً سجيناً، لَا يَرَىٰ أنوار الهداية الرَّبَّانيّة.

هكذا صوَّر الله عزّ وجلّ حالةَ هؤلاء المعاندين المستكْبِرين، الذين دخلوا باختيارهم الحرّ في سِجْنِ الجوامح الأواسر من متاع الحياة الدنيا وزينَتِها.

إنّهم بدخولهم هذا السّجْنَ المظْلِمَ الخادع قد جَعَلُوا أنفسهم ضمن سُدودٍ نفسيَّةٍ تَحْجبُ عنْهُمْ رؤيةَ الحقّ، ضِمْنَ أنظمَةِ الله السببيَّة في كونه للنفوس فهم لا يبصرون.

ونظيرُهُ في المادّيَّات، مَنْ أَدْخَلَ جَسَدَهُ في لَهَبِ النار المحْرِقَةِ باختياره الحرّ، فإنّ الله يُحْرقُه بالنار التي دخل فيها ضِمْنَ أنظمته السببيَّة.

المثال الثالث: ما في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾.

ففي هذه الآية تَشْبِيه الْقَمَر آخِرَ الشَّهْرِ وأوَّلَهُ بالْعُرْجُونِ القديم، وقد أشار إلى تشبيه أوَّلِه بالْعُرْجون القديم فِعْلُ: ﴿عَادَ﴾: أي: وكان في أوَّلِه كالْعُرْجُون القديم.

الْعُرْجُون: الواحِدُ من الأعواد الّتي تَحْمِلُ الثَّمْرَ في الشمراخ، فإذا قَدُم هذا العود وضَمُرَ اعْوَجَّ مع بقاء لونه أصفر، فهو بهذه الحالة يشْبِه الهلال آخر الشهر وأوَّله.

وعن ابْنِ عباس: أنَّ الْعُرْجُونَ أصْلُ العِذْق، وهُو الذي تتفرَّع عنه أعواد شمراخ التمر. وأصْلُ العِذْق الّذي يحْمِلُ البلَحَ المعلَّقَ بأعواده، بَعْدَ قَطْعِهِ عن الشجرة يشْبِهُ الهلال أوّل الشهر وآخِرَه.

ويظهر أنّ ما رُوِي عن ابن عبّاسٍ أقربُ إلىٰ الواقع، إذْ هو مُرْتفع

على ساق النخلة، ومُقَوَّسٌ ضئيل الحجْم، ويراه الناظر وهو على الأرض كالهلال أوّلَ الشهر وآخِرَه.

رابعاً:

توجد في السورة أمثلة متعدّدة من الاستعارة، وهي عند علماء البيان: استعمال لفظ ما في غَيْرِ ما وُضِعَ له في اصطلاحٍ به التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرِينةٍ صارفةٍ عن إرادة المعنىٰ الموضوع له في اصطلاحٍ به التخاطب.

وأصلُ الاستعارة تشبيهٌ حُذِف مِنْهُ المشَبَّهُ، وأدَاةُ التشبيه ووجْهُ الشَّبه، ولم يَبْق منه إلَّا ما يَدُلُّ على المشبَّهِ به، بأسْلُوب استعارة اللّفظ الدّالّ على المشبَّهِ به، أو استعارة بعض مشتقّاته، أو بعْضِ لوازمه، واستعمالها في الكلام بدلاً عن ذكر لفظ المشَبَّهِ. ويُلاحظُ في هٰذا الاستعمال ادّعاءُ أنّ المشبَّهَ داخِلٌ في جنْسٍ أو نوعٍ أو صِنْفِ المشبَّهِ به، بسَبَبِ مشاركَتِه لَهُ في الصفة الّتي هيَ وجْهُ الشَّبه بَيْنَهما في رؤيَةِ الناطقِ بالعبارة.

وممّا جاء من الاستعارة في السُّورة ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزّ وجل:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

جاء في هذه الآية تشبيه انحسار النهار عن الأرض شيئاً فشيئاً، عنْدَ توالي حركة غروب الشمس واختفاء ضَوْئها، ووُجُود اللّيل في مواطن انحسار النّهار، بسَلْخِ الجلْدِ الأبْيَضِ عن الجسْمِ الأسْود، واسْتعير فعْلُ ﴿نَسْلَخُ﴾ للدّلَالة على مَعْنَى انحسَارِ النهار وذهابه شيئاً فشيئاً عن الأرض عند توالي حركة الغروب.

وهٰذه من أبْدَعِ الاستعارات، وفيها دلَالَةٌ على أنَّ الظلمة هي الأصل

في الأرض، وفيما يكون مثلها، وأنَّ النهار إنَّما يُوجَدُ بسببَ الضِّياء الذي يُسَلَّطُ عليها من جسْمٍ مُضِيءٍ يَبُثُّ أشعَّةً ضَوْئية.

المثال الثالث: قول الله عزّ وجل في السورة بشأن الرسُول ﷺ والقرآن:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾:

استعير لفظ ﴿حَيًّا﴾ في هذا النصّ للدلالة على من ينتفع بالإِنْذَارِ، فيؤمِنُ ويُسْلِمُ ويَعْمَلُ صالحاً.

أمّا من لَا يُؤَثّرُ فيه الإنذار فينْطَبِقُ عليه لفظ «مَيّت» على سبيل الاستعارة أيضاً، فيكونُ من الكافرين موتى القلوب.

خامساً:

من البلاغة الرفيعة في الكلام اختيار الألفاظ الأكثر ملاءمة لأداء المعنى المراد، والسّورة تشتمل على أمثلة كثيرة جداً، ومن هٰذه الأمثلة ما يلي:

استعمال حرف «على»:

(١) في عبارة ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ للدَّلالة على أنَّ قول الله بتعذيب الكافرين قد صار مسَلَّطاً عليهم بسبب إصرارهم على الكفر، وبسبب أنّ إيمانهم مستقبلاً قد صار ميْؤُساً منه.

(٢) وفي عبارة: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ للدَّلالة على فوقيّة الإنذار، إذْ هو إنْذَارٌ بعذاب الله الذي يأتي في العادة منْصَبًّا من فوق المعذَّبين ونازلاً عليهم.

فمن الدقة في اختيار الألفاظ استعمال حرف «على» في العبارتين، إذْ هو يَدُلُّ على الاستعلاء دون غيره من الحروف.

وفيه أيضاً معنى إعلاء عبارات الإنذار عن مستوى الحضيض الذي هم منغَمِسون في أوحاله.

سادساً:

توجد في السورة أمثلة متعدّدة من القصر، وهو عند البلاغيّين: تخصيص شيءٍ بشيءٍ بعبارة كلاميَّةٍ تدلُّ عليه. أو: جَعْلُ شيءٍ مقصوراً على شيءٍ آخر بواحدٍ من طُرُقٍ مخصوصةٍ من طُرُق القول المفيد للقصر، وهو نوعان: ١ ـ قصرٌ حقيقي. ٢ ـ وقصر إضافي.

ومن أمثلة القصر في السورة ما يلي:

المثال الأول: ما في قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾..﴾.

في هذه العبارة قصر صفة الاستجابة للإنذار والتأثُّر به، على المنْذَرِ الذي اتَّبع الذّكر وخَشِي الرَّحْمٰنَ بالغيب.

وهو قصر حقيقي، وأداة القصر فيه: ﴿إِنَّمَا﴾ أي: ما تنْذِرُ إنذاراً مُؤَثّراً إلّا من اتّصف بصفتين:

الصفة الأولى: اتباعُهُ الذّكر، أي: بيانات الله في القرآن.

الصفة الثانية: مقدارٌ من الإيمان بالله الرحمٰن يجعَلُهُ يخشاه وهو ملتبس بالغيب عن مشاهدته.

المثال الثاني: ما في قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ... ﴿١٢﴾﴾.

في هذه العبارة قصر مستفادٌ من ضمير الفصل، وهو قصر إحياء

الموتى على الله عزّ وجلّ، فهو وحده القادر على الإحياء، وهو قصر حقيقيٌ، وهو من قبيل قصر صفةٍ على موصوف.

المثال الثالث: ما في قول الله عزّ وجلّ حكاية لقول الرُّسل الثلاثة لأصحاب القرية:

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

القصْرُ في هذه العبارة مستفادٌ من النفي والاستثناء، ويفهم من هذا القصر أنهم غير مأمورين ولا مطالبين بأن يَقُوموا بوسيلةٍ من وسائل الإلزام والإكراه على قبول أهل القرية لما يَدْعونهم إليه، بل لا بُدَّ أن يكون قبولهم له، واستجابتهم له باختيارهم الحرّ.

والقصر هنا من قبيل قصر الموصوف على صفة، وهو قصر إضافي، أي: ليس لهم من الصفات بالإضافة إلى خصُوص الرّسالة الّتي جاءُوا لتأدِيَتها إلَّا البلاغ الكلاميُّ المبين الواضح الدّالة على ما يُرادُ إبلاغهم إياه.

المثال الرابع: ما في قول الله عزّ وجلّ بشَأْنِ العتاة الكفرة المعنيِّين في السورة:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

في هذه الآية قصر مستفادٌ من النفي والاستثناء، أي: إنَّ مُقَابَلَتُهمْ لآيات الله مقصورةٌ على إعراضهم عنها. وهو من قبيل قصر موصوفٍ على صفة. وهو قَصْرُ إضافي، أي: بالإضافة إلى استفادتهم من الآية بالإقبال على إدراكها، أو عدم استفادتهم بالإعراض عنها وعدم التفكر فيها.

المثال الخامس: ما في قول الله عزّ وجلّ وصفاً لمشيئَتِه وخَلْقه:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: ما أَمْرُهُ التكوينيُّ إلَّا مُنْحصر في أَنَّه إذا أراد شيئاً فإنَّهُ يَقُولُ له: كُنْ، فهو يكون على وفق مشيئته جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه، والقصر هنا استفيد من الأداة ﴿إِنَّمَا﴾ وهذا قَصْرٌ حقيقيٌّ.

سابعاً:

من الفنون البلاغيَّة في علم المعاني، خروجُ الاستفهام عن أصل دلالته (وهي طلب الإفهام) إلى معانٍ أخرى أوصَلها البلاغيون إلى (٣٢) معنىً.

ومن أمثلة خروج الاستفهام عن أصل دلالته في السورة ما يلي:

المثال الأول: ما في قول اللَّهِ عزّ وجلّ حكاية لقول الرُّسُل الثلاثةِ لأصحاب القرية:

﴿قَالُوا طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾؟.

فالاستفهام في عبارة: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ استفهامٌ إنكاريٌ تَعَجُّبِيٌّ من أَمْرِهم.

المثال الثاني: ما في قول الله عزّ وجل حكاية لقول مُؤْمِنِ أصْحَاب القرية الذي جاء من أقصا المدينة يَسْعَىٰ لنُصْرَةِ الرُّسل:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾؟.

في هذه العبارة استفهامٌ تعجُّبِيٌّ فيه إنكار على اعتراض قومه عليه بشأن عبادته الله وحْدَهُ لا شريكَ له، وهَجْرِهِ عبادة آلِهَةِ قَوْمِه، الَّتِي يَرْمُزُون إليها بأصْنَام ينْحِتُّونَهَا.

المثال الثالث: قول الله عزّ وجلّ بشأن عتاة الكفرة المشركين:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾؟!:

في هذه الآية استفهامان خرجا عن أصل دَلالة طلب الإفهام، للدَّلالة علَىٰ الإنكار عليهم، والتعجيب من أمْرِهم، مع وضوح الشواهد التاريخيَّةِ على إهلاك الَّذين كذَّبُوا رُسُل ربّهم من أهل القرون الغابرة، ومع وضوح الأدلّة على قُدْرَةِ الله على البعث للحياة الأخرىٰ بَعْدَ الموت.

المثال الرابع: مَا في قول الله عزّ وجلّ بعد الامتنان بطائفةٍ من نِعَمِهِ على عباده:

﴿... أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟!.

في هٰذه العبارة استفهام يُرَادُ به الحثُّ على شُكْرِ الله على نِعَمِه على عباده، مع تلويم العباد على عدم شكرهم ربّهم على فيوضاتِ نعمه عليهم، وفيه الإنكار الشديد على جاحدي نعم الله عليهم، أي: إنّ عدم شكرهم لأمْرٌ مستنكرٌ جدًّا، ويدعو إلى اشمِئْزاز ذوي النفوس السّوِيَّةِ الرَّشيدة.

المثال الخامس: مَا في قول الله عزّ وجلّ حكاية لما سوف يخاطِبُ به بني آدم يوم الدّين:

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾؟.

في هذه الآية استفهام تَوْبيخيٌّ يوجَّه للمجرمين الكفرة يوم الدين، ولسائر العصاة الذين لم يَشْمَلْهم العفْوُ في موقف الحساب.

ونظيره في: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾؟ وفي: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾؟ وفي: ﴿... أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾؟.

المثال السادس: ما في قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾؟

في هذه الآية استفهامٌ تعجيبيٌ من أمرِ الإنسان الكافر المنكر للبعث،

مع الإنكار عليه، إذْ لَمْ يَقِسْ إمكان بَعْثِه على بَدْءِ خَلْقِهِ، ولا سيما مَرْحَلةُ كونه نُطْفَةً، وأن الذي خلقه من نطفة هو القدير على إنشائه مرّةً أخرى، وبعْثِه بَعْدَ الموت.

المثال السابع: ما في قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقول الكافر مِنْكِرِ البعث بَعْدَ الموت والفناء.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾؟!.

في عبارته: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ استفهام إنكاريٌّ وتَعْجِيبِيٌّ من نَبأ الْبَعْث، مع أنّ إنكارَهُ هو الذي يسْتَدْعي الإنكار، وتَعَجُّبَهُ هو الذي يَسْتَدْعِي التّعجب منه.

ثامناً:

ومن الفنون البلاغية تنزيل غَيرِ العاقل مَنزِلَة العاقل ذي الإرَادَة في الْعِبَارَة، للإشعار بأن صورة الحركة تُشبِه صورة حركة العاقل ذي الإرادة.

ونجد هذا الفنّ البديع في قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

التعبير الوارد في هذه الآية يُشْعِرُ بتنزيل الشمْسِ مَنْزِلَةَ ذي الإرادة الراغب في إدْراك القمر وابتلاعه، لكن لا يَسْهُل لها ذلك، وتنزيل اللّيل منزلة ذي الإرادة الراغب في أَنْ تَسْبِقَ النهار لكنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ ذلك.

وإذْ نُزِّلَتِ الشَّمْسُ والقمر واللّيلُ والنهار منزلة العقلاء ذوي الإرادات، جاء التعبير عنها في آخر الآية بقول الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بضمير جماعة العقلاء ذوي الإرادات.

تاسعاً:

ومن الفنون البلاغيّة الجميلة الخروج عن مقتضىٰ الظاهر، لداعٍ أو أكثر من الدواعي ذات الوقع الجميل في نفوس البلغاء والأدباء.

(١) فَمِن الخروج عن مقتضىٰ الظاهر اختيار البدائل التعبيرية الملائمة للغرض البلاغي، على خلاف ما تَسْبِقُ إليه الأذهان.

ومن أمثلة هذا النوع ما جاء في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

كان الظاهر الذي يَسْبِقُ إليه الذهن أن يقال: فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا رُجُوعاً، ولَكِنْ جاء البديلُ المختار: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.

ولهذا الخروج عن مقتضىٰ الظاهر داعيان:

الداعي الأول: تَرْكُ نمطيَّةِ التقابل المتناظر المألوفة في الكلام، وفي هذا الترك إبداعٌ معجب.

الداعي الثاني: مراعاة رؤوس الآي، الّذي فيه جمال التناظر عند النهايات.

(٢) ومن الخروج عن مقتضى الظاهر ما يُسَمَّى «الالتفات» وهو في اصطلاح البلاغيين: التحويل في التعبير الكلاميّ من اتّجاهٍ إلى آخر من جهاتٍ أو طُرُق الكلام الثلاث: «التكلّم ـ الخطاب ـ الغيبة» مع أنّ الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أوّلاً دون التحوُّل عنها.

ولا يكون هذا التحويل جميلاً بديعاً، ما لم يكن لداعٍ بلاغي يُعبِّرُ التحويل عنه.

ومن الالتفات في السورة قول الله عزّ وجل في وصف الرسول محمّد ﷺ:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

فقد جاء بعد هذه الآية في قراءة نافع، وابْنِ عامر، وأبي جعفر، ويعقوب: ﴿لِتُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ خطاباً للرّسُول ﷺ، مع أنّ مقتضَىٰ الظاهر أن يكون التعبير كما جاء في القراءة الأخرى: [لِيُنْذِرَ].

وهذا الالتفات فنٌ بلاغيٌّ يَجِدُ عذوبَةً واستحساناً لدى البلغاء والأدباء، إذَا كان اختيارُهُ ملائماً، يتحقَّقُ به غرض أو أكْثر من الأغراض الّتي يقصدُها البلغاء.

ومن دواعي الالتفات الإيجاز والاقتصادِ في التعبير، واستثارة انتباه المتلَقّي.

عاشراً:

جاء التنكير في السورة في عدّة مواضع منها لإفادة التكثير والتنويع، ومنه ما جاء في قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: أنعاماً كثيرة الأعداد والأنسال والأنواع والأصناف، وكثيرة المنافع.

حادي عشر:

من الفنون البلاغية تقديم ما حقُّهُ التأخير لداعٍ أو أكثر من الدواعي البلاغية، فمن هذا الفن:

(١) ما جاء في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ... ﴿٢٠﴾﴾.

أصل الترتيب في الجملة العربيّة أن يقال: «وجاء رجلٌ من أقصَىٰ

المدينة يَسْعَىٰ» إذْ مَنْزِلَةُ الفاعل في الترتيب متقدمة على منزلة التابع المجرور.

لكن قد يدعو داعٍ بلاغي لتقديم ما حَقُّه التأخير، فيكون تقديمه دَالًّا على ذلك.

والداعي هنا التنْبيه على أنَّ حضور هذا الرَّجل من أقصىٰ المدينة قد كان سعياً جهاديًّا عن حماسة وتصميم وتضحيَةٍ بالنفس دفاعاً عن الحقّ الرَّبّانيّ.

(٢) ما جاء في قوله تعالى بالنسبة إلى نعمة الله بالأنعام على العباد: ﴿... فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾:

جاء في هذه العبارة تقديم: ﴿لَهَا﴾ وهي معمولة لـ﴿مَٰلِكُونَ﴾ لإفادة تمييز الأنعام بطاعتها لمالكيها من الناس طاعةً زائِدَةً على مطلق التسخير العام.

أي: فهم لها على وجه الخصوص مالِكُونَ ملكاً متمكّناً ممّا يرومونَ بها، بحسَب صفاتها التي فطرها الله عليها، إذْ سخّرَهَا لَهُمْ وذلَّلها لطاعتهم على أفضل وجه، بخلاف بعض البهائم الأخرى، كالظباء، وحُمُر الوحْشِ، والأيائل، فإنها غير مطيعة كطاعة الأنعام.

ثاني عشر:

من فنون البديع عند علماء البلاغة «الإدْماج» وهو من المحسنات المعنوية، **والإدْمَاج**: هو إدخال غرض بيانيّ في غرض آخر، أو إدْخال فكرة في فكرة.

ومن أمثلة «الإدماج» في السورة ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزّ وجل:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟.

في هٰذه الآيات إدْمَاجُ الامتنان بما ذُكِرَ فيها مِنْ نِعَمِ اللّٰهِ على عبادِه، ضمْن عرض الدليل على قدرة الله عزّ وجلّ على الْبَعْثِ إلى الحياة بعْدَ الموت.

وجاء التعليق على الفكرة الّتي أدْمِجَتْ، وهي الامتنان بالنِّعَم، بتوجيه الاستفهام الذي يراد به الحث على شكر الله على نِعَمِه على عباده بعبارة: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟

المثال الثاني: ما في قول الله عزّ وجلّ بشأن الرَّسُول والقرآن:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾:

في هٰذِه الآية قضيتان مُنْدَمجتَان:

الأولى: قضية كون الشعر ما يَصْلُحُ للرَّسُول محمّد ﷺ.

الثانية: قضيَّة كون الْقُرْآن ليْسَ شِعراً، ولا لوناً مِنْ ألوان الشّعر، بل هو ذِكْرٌ وقرآنٌ مبين.

وفي إدْماج هاتين القضيتَيْن ببيانٍ واحدٍ إبداعٌ فكريٌّ، وإيجاز لفظيّ.

ثالث عشر:

ومن الفنون البلاغية البديعة «الكناية» وهي عند البلاغيين: اللفظ المستعمل فيما وُضِع له في اصطلاح التخاطب، للدّلَالة به على معنىً آخر لازمٍ له، أو مصاحِبٍ له، أو يُشَارُ به عادة إليه.

ومن أمثلة الكناية في السورة قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

في عبارة: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ كِنَايَةٌ غَايَةٌ في الْإِبْدَاعِ فِكْرَةً وَتَعْبيراً عنْ نُصْرةِ المشركين لآلهَتِهم، مع أَنَّ آلهتهم لَا يسْتَطِيعُون نَصْرَهُمْ نَصْراً ما، لكنَّ المشركينَ هم الذين ينْصُرُونَ آلهتَهُمْ دَواماً إذْ هُمْ بمثَابَةِ الجنْدِ الذين يُحْضَرُونَ من قِبَلِ شياطين الإنْسِ والجنّ، مَسُوقِينَ أو مَقُودِين للدِّفاع عن هذه الآلِهَةِ الباطلة، الّتي لَيْسَ لَهَا من الإلَهية شيءٌ.

رابع عشر:

ومن الفنون البلاغية البديعة، التَّنْوِيعُ في أسْلُوب العرض للأشباه والنظائر.

ومن أمثلة هذا التنويع في السورة ما يلي:

(١) جاء عرض بعض آيات الله في كونه أوّلاً بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ التَّلويْمِي، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

(٢) وجاء بَعْدَه استخْدَام أسلوب العرض الخبريّ، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

(٣) ثم جاء اختيار أسْلُوب افْتِتَاح الْعَرْض بِتَنْزِيهِ الله عزّ وجلّ عما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

إنّ أحْسَنَ كتّابِ البشر يتبادر له أن يقول: وآيَةٌ لهم خلْقُ الأزواج كلّها، عطَفاً على ما جاء قبلها.

لكنّ فنِّيّةَ التّنْويع الإبداعيّ دعَتْ إلى مُفَاجَأة المَتَلَقِّي بعبارة تنزيه الله عن الزوجيَّة ولوازمها، قبل بدْءِ عرض آية الله الكونيَّة في خَلْقِهِ للأشياء، وفق نظام الزّوجيّةِ الّذي تنزَّهَتْ ذاتُ الْبَارِي جلّ جلالُه عنه.

خامس عشر:

ومن الفنون البلاغية البديعة الّتي لم تكن معروفة عند البلغاء والأدباء، استقطاع النَّصّ من الحدَث الماضي، أو الحدَث الّذي سيكون أو سوف يكون في المستقبل، دون الإشارة إلى أنَّهُ كان كذا فيما مضىٰ، أو سيكون كذا في المستقبل، أو سوف يكون.

ومن أمثلة هذا الاستقطاع البديع في السُّورة ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ حديثاً عمَّا سوف يخاطب الله عزّ وجَلَّ به أهل الجنَّة في الجنَّة:

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: سوف يقول الله لهم وهم في الجنَّة: ﴿سَلَٰمٌ﴾ ومعْلُومٌ أنّ هذا الكلام مستقطع من الحدث المستقبليّ.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلّ حديثاً عمّا سوف يخاطب به المجرمون في موقف الحشر والحساب يوم الدّين:

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

هٰذا الكلام مستقطَعٌ من الحَدِثِ المستَقْبَلِيِّ الذي سَوْف يكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، وهو من فنون البلاغة القرآنية الّتِي لم تكُنْ مَعْرُوفة في كلام البلغاء قبل القرآن، ولا في شِعْر الشعراء.

وفي سورة (يسٓ) بلاغيات أخرى كثيرة تركت استخراجها للمهتمين بهذا الموضوع، من أهل الخبرة، وتَذَوُّقِ وإِدْراكِ فنون الكلام البليغ الرفيع.



(١٦)

الملحق الثاني

اللّوح المحفوظ في كلّ القرآن وبَعْضِ السُّنَّة

أُطْلِقَ على كتَابِ العِلْمِ الرَّبَّاني في القرآن المجيدِ عدّةُ أسماء، وهي:

(١) الكتاب المبين.

(٢) الإمام المبين.

(٣) أمّ الكتاب.

(٤) اللَّوْحُ المحفوظ.

(٥) الكتاب المكنون.

وقد جاء في القرآن المجيد خَمْسَة عَشر نصًّا بشأن هذا الكتاب الرَّبَّانِيّ العظيم، أعْرِضُها في هٰذا المَلْحَق، على وفْق تَرْتِيب نُزُولِ سُوَرِها، مَعَ مَا يَفْتَحُ الله به من تَدبُّرٍ لَهَا.

وأذكُرُ قَبْلَ الْبَدْء بها بعْضَ ما جاء في السُّنَّةِ بشأنه.

من السُّنة:

أَنْتَفِي من الرّوايات الواردات بشأن اللَّوْحِ المحفوظ عند المحدّثين روايتين:

الرواية الأولى:

نقل ابْنُ كثير ما رَوى الطبرانيُّ بسَنَدِهِ عن ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحاً مَحْفُوظاً مِنْ دُرَّةٍ بيْضاء، صَفَحَاتُها مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْراءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، وكِتَابُهُ نُورٌ، لِلَّهِ في كُلِّ يَوْم سِتُّونَ وثَلاثُمِائَةِ لَحْظَةٍ، يَخْلُقُ، ويَرْزُقُ، ويُمِيتُ، ويُحْيِي، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويَفْعَلُ مَا يَشَاءُ».

أقول: فاللّحظَةُ على هٰذا تُقَدَّرُ بأربع دقائق، أو هي على رأس كُلّ أَرْبع دقائق، إذْ (٤) دقائق تضرب بـ(٣٦٠) لحظة، فيكون الحاصل «١٤٤٠» دقيقة ÷ ٦٠ = ٢٤ ساعة، وهي كامل ساعات اليوم من أيّام الأرض.

الرواية الثانية: ما أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس أيضاً، قال:

«خَلَقَ اللَّهُ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظ كَمَسِيرَةِ مِئَةِ عَامٍ، فقال لِلْقَلَم قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: اكْتُبْ عِلْمِي فِي خَلْقِي، فَجَرَىٰ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

أقول: مِثْلُ هٰذَا البيان لا يُقَالُ مِنْ قِبَلِ الرَّأْيِ، فإنْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فينْبَغِي اعْتِمَادُه.

واللَّهُ أعْلَم.

النُّصوص القرآنِيَّة مع شَيْءٍ من التَّدبُّر.

النَّصُّ الأول:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾:

عَجب مُنْكِرِو بَعْثِ الأمواتِ بَعْدَ فَنَاءِ الْأجساد، كَيْفَ يُحْصِي اللَّهُ ذَرَّاتِ كُلِّ جَسَدٍ مِنها، بَعْدَ فَنَائِهِ وَتَفرُّقِ ذَرَّاتِهِ في تُرَابِ الأرض وسائر عناصِرِها.

فَأَبَانَ الله عزّ وجلّ في هذا النَّصِّ للمنْكِرين قضيَّتَيْن:

الْقَضِيَّةُ الأولىٰ: أنَّهُ ـ جَلّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قد عَلِمَ بِعِلْمِ الشامِلِ لكلّ شَيْءٍ، مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ في تَتَابُعِ أجزاء الزَّمَن، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَحْدُثَ هٰذا النَّقْص، لِأَنَّ كُلَّ حَدَثٍ يَجْرِي في الكَوْنِ كُلِّهِ، مَسْبُوقٌ بِقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ وَقَضَاء، إذا كان من مقاديره الجبْرِيَّةِ في خَلْقِه، ومَسْبُوقٌ بِعِلْمِه وَإِذْنِهِ، ومُقْتَرِنٌ بِخَلْقِهِ، إذا كان من اختيارات الْعِباد الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ لهم إراداتٍ حُرَّةً، لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدنيا.

الْقَضِيَّةُ الثانية: أنّ عنْدَ اللَّهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ كِتَاباً بَالِغَ الدِّقَّة فِي الحفْظِ، فَهُوَ [حَفِيظٌ] وقَدْ تَمَّتْ فِيهِ كِتَابَةُ كُلِّ شَيْءٍ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ، بذاتِهِ وصفاتِهِ كُلِّها، فَمَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ منْ أجْسَاده الموتَىٰ بالفناء، مكْتُوبٌ فيه بالدِّقَّة المتناهِيَةِ، المطابقَةِ لِلْوَاقِعِ، دُونَ زِيَادَةٍ ولَا نُقْصَانٍ، بلِ الواقِعُ يَتَحَقَّقُ تَنْفِيذُه على وَفْقِ ما هو مُسَجَّلٌ فيه.

هذا الكِتَابُ هو اللَّوحْ المحفوظُ. ويُضاف إلَيْهِ ما في صُحُفِ الملائكَةِ من كتابَةٍ وَتَسْجِيلٍ لأعمال العباد الاختياريَّةِ الظاهرةِ، والباطِنَةِ وكُلّ مَا يَتَعَلَّقُ بشُؤونِهم، ممَّا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بتَسْجِيلِهِ.

النصّ الثاني:

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (يسٓ/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿... وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾:

أي: وكُلّ شيءٍ عَلِمْنَاهُ وسَجَّلْنَاهُ في كِتَابٍ هُو إِمَامٌ لِسَائِرِ الكُتُبِ،

وهُو مُبين، من فِعْلِ «أَبانَ الشيْءُ» بمَعْنَىٰ ظَهَرَ واتَّضح، ومن فعل: «أَبَانَ فُلانٌ الشَّيْءَ» بمَعْنَىٰ: أفْصَحَ، وأظْهَرَ، وأَوْضَحَ، ففعل «أبان» يأتي لازماً، ويأتي مُتَعَدّياً، واسْمُ الفاعل منهما «مُبين».

ونَفْهَمُ من تسْمِيَتِه إمَاماً، أنَّهُ يُؤْتَمُّ به لدَىٰ تطبيق وقائع الخلْقِ، المقضِيَّةُ بقضاء اللَّهِ جلَّ جلالُه، والمقدَّرَةُ بقَدَرِه.

أمَّا أفْعَالُ العباد الاختياريّةُ، فَيُلَاحَظُ فيها مُطَابَقَتُهَا لسَابقِ عِلْم اللَّهِ بأحوالهم، واختياراتهم الَّتِي لَمْ يُجْبَروا علىٰ شيءٍ مِنْهَا، لكِنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ عَلِمَ ما سَيَخْتَارُونَ، وكتَبَ ذَلِكَ في اللَّوْحِ المحْفُوظِ، وَمَا تكْتُبُهُ الملائكَةُ من كَسْبِ العباد الاختياريّ مُتَابِعِينَ فيه ما يَصْدُرُ عنهم يأتي مُطابقاً تماماً لما هُوع مُسَجَّلٌ في اللَّوحِ المحفوظ.

ولم أخْتَرْ تَفْسِيرَ «الإمام المبينِ» بالعِلْم الرَّبَّانيّ في ذاتِ الرَّبّ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانه ـ لأَنَّهُ تَبَارَكَ وتعالى وصف هذا الإمامَ بأَنَّهُ مُبِين، أي: واضِحٌ ظاهِرٌ لمَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بأن يَطَّلِعَ عليه من الملائكة، وهذا الوصْفُ يَلِيقُ باللَّوْحِ المحفوظ الَّذي لا يَمَسُّهُ إلَّا المطَهَّرُونَ، لَا بما في نَفْسِ اللَّهِ من عِلْم، لأنَّ ما في نَفْسِ اللَّهِ لا يطَّلِعُ عليه أَحَدٌ إلَّا ببيانٍ خارجِ عن ذاتِ نَفْسِ الله.

النصّ الثالث:

قولُ الله عزَّ وجلّ في سُورَةِ (فاطرٍ/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

أي: ومَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ «كُلّ أُنْثَىٰ تَحْمِلُ» حتَّىٰ الْبَعُوضَةِ فَمَا دُونها،

ولَا تَضَعُ حَمْلَها إلّا بِعِلْمه اللّهِ جلّ جلاله، وإلّا هُوَ مكْتُوبٌ في اللَّوْح المحفوظ بحِفْظِه ضِمْنَ برنامج خُطَّةِ الخلْقِ الرَّبّانيَّة.

وَمَا يُعَمَّرُ من شَخْصٍ مُعَمَّرٍ «أي: يُطَوَّلُ في عُمُرِه» وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِ شَخْصٍ غَيْرِ مُعَمَّر، فَيُجْعَلُ نَاقِصَ الْعُمُر عَنْ نُظَرائِه، إلّا هو معْلُومٌ لِلّهِ، ومكْتُوبٌ في اللَّوْحِ المحفوظ بحفظ الله.

أوْ وَمَا يُعْطَىٰ مُعَمَّرٌ في صُحُفِ الملائكةِ كامِلَ عُمُرِهِ المكتوب فيها، ولا يُنْقَصُ من عُمُرِ مُعَمَّرٍ في هٰذِهِ الصُّحف، فَلَا يُعْطَىٰ كَامِلَ عُمُرِهِ المكتوبِ فيها، إلَّا هُوَ مَعْلُومٌ لِلَّهِ، وَمَكْتُوبٌ في اللوّحِ المحفوظ بحفظ الله.

إنّ اللّوحَ المحفوظَ بحِفظِ الله، لَا يَحْصُلْ فِيه تَبْدِيلٌ ولَا تغيير ولا زيادة ولا نَقْصٌ، إذ هو مطابق لعِلْم الله.

أمّا صُحُفُ الملائكَةِ فيَمْحُو اللَّهُ عزَّ وجلَّ مِنْها مَا يَشاءُ ويُثْبِتُ، وعِنْدَهُ أُم الكِتَاب، وهو اللَّوْحُ المحفوظ، أَوْ هُوَ عِلْمُ الله.

وقد قرَّبَتْ للناسِ برامِجُ الحاسِب الآلي، فَهْمَ هٰذِهِ الحقائق المتعلّقة بِعِلْم الله، وباللَّوْحِ المحفُوظ، فَفِي لَوْحةٍ صَغِيرَةٍ يُمْكِنُ جَمْعُ مَعْلُومَاتِ مكتبَةٍ عُظْمَىٰ، لوَقَائِعِ الماضي، أَوْ لخُطَطِ المستقْبَلِ، أو لمسائل العلوم.

النّصّ الرابع:

قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) يبيِّنُ فيه حواراً جَرَىٰ بَيْنَ مُوسَىٰ وهارون، وبين فِرْعَون:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾:

﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: فَمَا شَأْنُ وَمَا حَالُ الْمَوْتَىٰ السَّابِقِينَ

من أهل الْقُرُونِ الْأُولى، الَّذِينَ صَارَت أَجْسَادُهُمْ ذَرَّاتٍ مُتَفَتِّتاتٍ مُتَناثِراتٍ في تراب الأرض؟

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾: أي: الْعِلْمُ بِهَا بالتفصيل الشامل، مَكْتُوبٌ عِنْدَ رَبِّي في كتاب، وهو اللَّوْحُ المحفوظُ مَعَ مَا في صُحُفِ الملائكة مِنْ مُسجَّلَاتٍ، والعلْمُ بها بالتفصِيل الشّامل عنْدَ رَبّي في ذاتِ نَفْسِه، فَمِنْ صفاتِهِ أَنَّهُ لَا يَضِلُّ مُبْتَعِداً عن أيِّ شَيْءٍ ممَّا اشْتَمَل عَلَيْهِ عِلْمُهُ، ولَا يَنْسَىٰ شَيْئاً مِنْ عِلْمِه، جلَّ جلالُ اللَّهِ وعظُمَ سُلْطانه.

النّصُّ الخامس:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول): ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾:

وصَفَ الله عزّ وجلّ في هٰذا النَّصّ اللَّوْحَ المحفوظَ بكَوْنِه كتاباً مَكْنُوناً.

المكْنُونُ: هُو في اللُّغَةِ المسْتُورُ الْمَخْفِيُّ الْمُبْعَدُ عن الوصُولِ إليْهِ بالنَّظر أَوْ بِغَيْرِه، فَهُو في كِنِّهِ الّذِي هو فيه مَصُون.

الْكِنُّ: هو المكانُ المحفوظ المحْجُوبُ ببناء أو بِغَيْرِهِ من الحُجُب، وهٰذا حالُ اللَّوْحِ الرَّبَّاني، إذْ حَفِظَهُ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ وَصَانَه. ولِهٰذَا جاء في وصْفِهِ مَا يلي:

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾: أي: لا يَمَسُّهُ إلّا الملائكة المطهّرُون مِنْ رِجْسِ المعاصِي والمخالفات، ومن الأهواء والشَّهوات الّتي تدفع إلى الخروج عن أوامر الله ونواهيه، ومن رجْسِ الإخْلالِ بحَقِّ أيِّ واجب من واجبات اللَّهِ عليهم، أو ارتكاب أيِّ مِنْهِيٍّ عَنْهُ حَرَّمَهُ اللَّهُ علَيْهم، أوْ نَهَىٰ اللَّهُ عن الاقترابِ مِنْه.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النَّمْل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول):

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾:

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: أي: ما تخفيه الصُّدُور، فلا تُعْلِنُهُ، فهو سِرٌّ فيها.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: وما من ذَاتٍ وَلَا صِفَةٍ غائِبَةٍ عَنْ إدْراكِ ذوي الإدْراك من جميع الخلائق. إلّا هِيَ مَكْتُوبَةٌ في كتاب مُبين، واضِحٍ لمَنْ يَطَّلِعُ عليه ويقْرَأُ فِيهِ، من المطهرين من الملائكة.

النّصّ السّابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾:

أي: وَمَا مِنْ جَامِعَةٍ مَسَاكِنَ بَشَرِيَّةٍ صَغِيرة أَمْ كَبِيرَةٍ حَتَّىٰ أعظم الْمُدُنِ وَأَكْبَرِها، إلَّا قَدْ عَلِمَ اللَّهُ عزّ وجلّ بأنَّ أَهْلَها سَيَصِلُونَ باختيارهم الحرّ، إلى حالة من الظلم والإجرام، والتمادي في الفسْقِ والْعِصَيان، والكُفْرِ والطُّغْيان، يَسْتَحِقُّونَ معها أن يَحِقّ عَلَيْها قَوْلُ اللَّهِ جلّ جلالُه بالإهْلاكِ العقابيّ، أو بالعذابِ الشّديدِ من دُون الإهلاك، فَيُجْرِي اللَّهُ سُنَّتَهُ فيهم عُقُوبَةً وانتقاماً.

وهٰذا الْعِلْمُ الشّامِلُ لأحوال المجَمَّعَاتِ السَّكنِيَّة البشَرِيَّةِ، ولِعِقابِ أهلها بالإهلاك الشامل، أو بالعذاب الشَّدِيد قَبْلَ يوم القيامة، كان في الكتاب «وهو اللَّوْحُ المحفوظ» مَسْطُوراً مِنْ قَبْلِ أن يَبْرأ اللَّهُ عزّ وجلّ الخلْق.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾: «إنْ» حرف نفي بمعنى «ما» النافية. «مِنْ» حرف جرّ زيد للتنصيص على العموم والشمول، «قَرْية» مبتدأ مجرور لفظاً بحَرْفِ الجرّ الزائد.

القرية: تطلقُ في اللّغة على كلّ أرضٍ فيها بُيُوتٌ وَمَسَاكِنُ مجتَمعَة، قَلَّتْ أم كثرت، ولَوْ بَلَغَتْ أعظم مُدُنِ الأرض، وقد تُطْلَقُ على قُرىً متقاربَة تمثّلُ في مجموعها وحْدَةً إداريَّة كقُرَىٰ قوم لوط.

مَسْطُوراً: أي: مكْتُوباً، يقال لغة: سَطَر الكاتبُ الكِتابَ يَسْطُرُهُ سَطْراً، أي: كتَبَهُ.

وجاء في هذا النص الاستغناء بلفظ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ للدَّلَالَةِ على اللَّوْح المحفوظ، لأنّ «الْ» في هذا اللّفظ للكمال، واللّوحُ المحفوظُ هُوَ أكْمَلُ الكُتُب، وأَجْمَعُها لِعِلْم اللّهِ الشّامِلِ كُلَّ مَعْلُوم.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (يُونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) خطاباً لرسولِهِ فللنَّاسِ جميعاً:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾: أي: وَمَا تَكُونُ يا مُحَمَّدُ في شأنٍ مَا مِنْ شؤُون أدائِكَ رِسَالَةَ رَبّك، داعياً إلى الله، أو من شُؤون عباداتك لِرَبّك، أو من شؤونِك الخاصَّةِ بك في حياتك.

﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾: ظهر لي أنّ الضميرَ في عبارة ﴿مِنْهُ﴾ يَعُودُ على القرآن الذي تكرَّرَ ذِكْرُه في السُّورة، فجاء في الآية الأولى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ

ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ وجاء في الآية (١٥): ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

وبعد هذه الآية الآيتان (١٦) و(١٧) تتعلَّقَانِ بالقرآن. وجاء الحديث عن القرآن أيضاً في الآيات من (٣٧ ـ ٤١) وجاء الحديث عن القرآن أيضاً في الآيَة (٥٧).

وهذا الإجراء في إعادة الضمير على القرآن ممَّا يَدُلُّ على وَحْدَةِ موضوع السُّورة، ولم يُلاحِظِ المفسّرون ظاهرة وَحْدة موضوع السّورة في الْقُرْآن، فبَحثُوا عن أَقْرَبِ ما يُمْكِنُ إعادةُ الضَّمِير عليه في الآية.

فالمعنى فما تكونُ يا مُحَمَّدُ في شَأن وَمَا تَتْلُو مِن كتابنا من قُرآن إلَّا كُنَّا شاهِدِين، بدليل ما سيأتي في الآية:

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾: أي: يَا أَيُّهَا الناس.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: عَالِمِينَ بِكُلِّ أعمالِكُمْ صغارِها وكبارِها، حسَنِها وسَيِّئها.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: أيْ: إِذْ تَنْدَفِعُونَ في العمل بِهِمَّة وقُوَّةٍ، يخْتَلِطُ بَعْضُكُمْ ببَعْضٍ، فلاَ يَخْتَلِطُ علينا عَمَلُ بَعْضِكُمْ ببعْضٍ.

الإفاضَة: هي الانْدِفاعُ بقُوَّة في حركة سَيْرٍ نَشِيط، كجريَان الماء الكثير الذي يفيض فيضاً، ومِنْهُ إفاضَةُ جماهير الحجَّاج من عَرَفَات.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾: أي: ومَا يَبْعُدُ عَنْ شُهُودِ رَبِّكَ وعِلْمِه الدائم، يُقَالُ لغة: عَزَبَ الشَّيْءُ يَعزُبُ عُزُوباً، أي: بَعُدَ فَخفِيَ، قَرأ الكِسَائي: [يَعْزِبُ] بكسْر الزاي، وقرأ باقي القراء العشرة ﴿يَعْزُبُ﴾ بضم الزاي وهما لغتان عربيتان.

﴿... مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾:

أي: ومَا يَبْعُدُ عَنْ شُهودِ رَبِّكِ، وما يَخْفَىٰ عَلَيْهِ، من مثقال ذَرَّةٍ في الكَوْنِ كُلِّه، ولا أصْغَر من الذَّرَّة ولا أكبر منها.

قرأ حمزة، ويعقوب، وخَلَف: [وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ] برفع «أصْغرَ» و«أكْبَر» فنصب الرّاءِ في الكلمتين لُوحِظ فيه العطف على لفظ مثقال، فأصغر وأكبر ممنوعان من الصَّرف، والرَّفْعُ لوحظ فيه العطف على محلِّ مثقال، وهو الرفع لأن «من» حرف جرٍّ زيد لتأكيد النفي والتنصيص عليه، ومثقال في محل رفع فاعل «يَعْزُبُ».

وجاءت الإشارة إلى الذَّرَّةِ باسم الإشارة الموضوع للبعيد، لأنَّ الذَّرات بَعِيداتٌ عن مُشَاهَدَةِ الناسِ لِشدَّةِ صِغَرِها.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾: أي: ولَا يَعْزُبُ عَنْ شهودِ ربّك، ولَا يُحْصَىٰ كُلُّ شَيْءٍ في الكَوْنِ عند غَيْرِ رَبِّكَ، إلّا في كتاب مُبِينٍ، هو اللَّوْح المحفوظ.

وهذا الاستثناء يُؤَكِّدُ عدم بُعْدِه، وعَدَمَ خفائه على الله، وهُو من قبيل تأكيد عُمُوم الْقَضِيَّةِ بما يُوهم الاستْثناء منها، فكَوْنُ كُلِّ شيءٍ مكْتُوباً في اللَّوحْ المحفوظ، يُؤَكِّد أنَّ الله جل جلاله لا يخْفَىٰ عليه شيء.

أو نقول في تقدير الكلام: وما يَعْزُبُ عَنْ شُهُودِ رَبِّك مِنْ شيء، وَمَا مِنْ شيءٍ إلَّا هو مْكتُوبٌ في كتابٍ مُبين، هُوَ اللَّوْحُ المحْفُوظ.

وإيجازاً في العبارة حُذِفَ مِنْها ما يَسْهُلُ على المتدبِّر تقديره.

النصّ التاسع:

قول اللّهِ عزّ وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾.

أي: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ قدّر اللّٰهُ وَقَضَىٰ أَنْ يَخْلُقَهَا، فَلا بُدَّ لَهَا مِنْ رِزْقٍ لبقاء حياتها إلى أَجَلِها المقدَّرِ المقْضِيّ لها، وهٰذا الرِّزْقُ قد أَلْزَمَ اللّٰهُ نَفْسَهُ به، فجَعَلَهُ واجباً عليه.

وما من دابَّةٍ قَدَّرَ اللّٰهُ وقَضَىٰ أَنْ يَخلقها، وأجْرَى أَعْمَالَ خَلقِهِ لها، بدْءاً من أوَّلِ إنْشائها، إلَّا يَعْلَمُ كُلَّ أطْوَارِها في مستقرّاتِ الذكور، وكلَّ أطوارها في مُسْتَودعات الإناث، ويَعْلَمُ تراتيب رِزْقِها، ومع عِلْمِ اللّٰهِ الشّامِلِ لكلِّ ذَلِكَ، فهو مُسَجَّلٌ مَكْتُوبٌ في كِتَابٍ مُبِينٍ، هو اللّوحُ المحفوظ، قَبْلَ أَنْ يَبْرأ هذه الدَّوابّ في الأرض، من أصْغَرِ دابَّةٍ فَيْرُوسيَّة، حتَّىٰ أكْبَرِ دَابَّةٍ في الْبَرِّ أَوْ في الْبَحْر.

ومَعْلُومٌ أنَّ كتابَةَ هذه الدَّقائقِ يُشْعِرُ بكِتابَةِ ما هو أَهْوَنُ وأَسْهَلُ منها.

وقَدْ تكون عبارةُ: ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ بمعنى: كُلُّ شَيْءٍ على وجْهِ الْعُمومِ في كتابٍ مُبينٍ، ومِنْهُ مَا جاءَ ذِكْرُهُ في الآية.

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلَّ في سُورَة (سَبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣﴾.

● قرأ نافع، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفَر، ورُوَيس [عَالِمُ] بالرَّفع، أي: هو عالم.

وقرأ حَمْزَة، والكِسَائي: [عَلَّامِ] بصِيغَةِ المبالغة مع الجرّ صفة لـ«ربّ» من [ورَبِّي].

وقرأ باقي القراء العشرة [عَالِمِ] بالجرّ صفة لـ«رَبّ» من ﴿وَرَبِّيٓ﴾.

وقرأ الكِسَائي: [لاَ يَعْزِبُ] بكسر الزاي. وقرأ باقي القُرّاء العشرة: ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾ بضمّ الزاي، وهما لغتانِ عَربيّتَّان.

المعنىٰ العامّ الذي دلّت عليه هذه الآية بالنسبة إلى علم اللّهِ مماثل لمعنى الآية (٦١) التي سَبَقَ تَدَبّر معناها من سورة (يونس).

لكن آيَة (سبأ) جاء فيها لفظ «السَّمَاوَات» بالجمع، أمّا آيَةُ (يونس) فقد جاء فيها لفظ «السَّماء» بالإفراد، والمؤدّىٰ واحد.

وقُدِّم في آية (يونس) علم ما في الأرض على علم ما في السماء، وقُدّم في آية (سبأ) علم ما في السماوات على علم ما في الأرض، مُراعاة للمناسبة في كلٍّ منها.

فآية سورة (يونس) جاء فيها الحديث عن أحوال الناس في الأرض، وآيَةُ سورة (سبأ) جاء فيها الحديث عن السَّاعَةِ التي تَبْدَأ أحداثُها بتَبَدُّلِ في السَّمَاواتِ فالأرض.

فاقتضَتِ الحكْمَةُ البيانيَّة في كُلٍّ من الآيَتَيْنِ الإجراءَ الَّذِي تَمَّ فيها.

وسائر التحليل الذي سبَقَ في آية (يونس) يَنْطَبِقُ على ما جاء في آية (سبأ).

النَّصُّ الحادي عشر:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الزُّخْرُف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾:

أي: وإِنَّ الْقُرْآن مَكْتُوبٌ في اللَّوْح الْمَحْفُوظِ الذي سمَّاه اللَّهُ عزّ

وجلَّ في هذا النّصّ «أمّ الكتاب» أي: الأصل الذي تُؤخَذُ منه كُتُبُ الملائكةِ، والكُتُبُ والصُّحُفُ المنَزَّلَةُ على رُسُلِ اللّهِ.

وبما أنّ القرآن أكْمَلَ الكُتُبِ المنَزَّلَةِ على رُسُلِ اللّهِ لعباده، فقد جَعَلَهُ اللّهُ في اللَّوْح المحفوظ عَلِياً رَفيعَ المنزلة، موصوفاً بأنّه حَكيم.

النّصّ الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: ويوْمَ تقُومُ السّاعَةُ يُقْسِمَ الكافرون المجرمُونَ أَنّهم ما لَبِثُوا بيْنَ الموْتِ والْبَعْثِ غَيْرَ ساعَةٍ من نهار، وهذا المعنى قد تكَرَّرَ في القرآن المجيد، وذلِكَ لأنَّ الإحْساس بالزَّمَنِ ومُرُوره، يُلْغَىٰ من إدْراكِ أَرْوَاحِهم ونفوسهم، وهم ميّتون قد انفصلَتْ أرْواحُهُمْ عن أجْسَادِهِم ومُدْرَكاتها.

ولا يتعارض هٰذا مع إثبات عذاب القبر ونَعِيمه، فالمجرمون لهم في مُدَّةِ البرزخ بين الموت والبعث عذاب، والمؤمنون الطيّبون لهم فيها نعيم، ونفوسُ كلٍّ من الفريقين تُحِسُّ بذلك، إلّا أَنُّهم لا يَشْعُرُونَ بمُرُور الزَّمَنِ مَهْمَا طال.

أمّا المؤمنُون العالمون بأمُور دينهم، فيقولون للمجُرْمِين الّذِين كانوا في الحياة الدنيا كافرين بأنْباء الدين: لقَدْ لبثْتُم في مُدَّةِ البرْزَخِ زَمَناً مَكْتُوباً في كتاب الله، وهو اللَّوْح المحفوظ، وهذا الزَّمَنُ يَخْتَلِفُ باخْتِلَافِ ما بَيْنَ مَوْتِ كُلِّ واحِدٍ وساعَةِ بَعْثِه، فهذا اليوم الذي أنتم فيه الآن هو يوْمُ البَعْثِ الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ به في الحياة الدّنيا.

وبما أنّكُمْ كُنْتُمْ تَرْفُضُون أَنْ تَعْلَمُوا هذا العلم، وتَرْفُضُونَ أنْ تُؤْمِنُوا به، إذْ كُنْتُمْ في رِحْلَةِ امتحانكم كافِرين مُكذِّبين بِيَوْم الدّين، فإنّكُمُ الْيَوْمَ تَتَوَهَّمُونَ أنّكُمْ مَا لبثْتُمْ في رَقْدَتِكُمْ بين الموْتِ والْبَعْثِ غَيْرَ سَاعَةٍ زَمَنيَّةٍ من سَاعاتِ حياتكم الأولى.

النّصّ الثالث عشر:

قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحديد/٥٧ مصحف/٩٤ نزول) خطاباً للناس:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: مَا أصَابَ من مُصِيبَةٍ على وجْه الاستغراق الشامل، شيئاً مَا في الأرض، كإتْلاف زَرْع، أو تدمير عمران، أو مصيبة في أيّ مُمْتَلك من الممتلكات من الأشياء أو الأحياء، أو شيئاً ما في أنْفُسِكُمْ أيُّها الناس إلّا هو مكْتُوبٌ في كِتَابٍ، هو اللَّوْح المحفوظ، ومَا أُخِذَ عَنْهُ من مكتوباتٍ في صُحُفِ الْمَلَائِكة، مِنْ قَبْلِ أنْ يَخْلُقَ الأنفس، أو من قبل أن نَخْلُقَ الأرض أيْضاً.

﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ «من» حرف جرٍّ زيد لتأكيد العموم واستغراقه لكل الأفراد، «مصيبة» فاعل «أصاب» مجرور لفظاً مرفوع محلاً.

[من قبل أن نبرأها]: أي: من قبل أن نخلقها، قال ابن سِيدَه: بَرَأَ اللَّهُ الخَلْقَ، يَبْرَؤُهُمْ، بَرْءاً، وبُرُوءاً، خَلَقَهُمْ، يَكُونُ ذَلِكَ في الجواهر والأعراض.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾: أي: إنّ العِلْمَ بكُلِّ ذَلِكَ وتَسْجِيلَهُ في كِتَابٍ من قَبْلِ خَلْقِ الْخَلْقِ أَمْرٌ يَسِيرٌ سَهْلٌ على اللَّهِ.

النّصّ الرابع عشر:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الرَّعْدِ/١٣ مصحف/٩٦ نزول):

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشاءُ مَحْوَهُ، ويُثْبِتُ مَا يَشَاءُ إثْبَاتَهُ، في صُحُفِ الْمَلَائكَةِ، وعِنْدَهُ أُمُّ الكتاب (وهو اللَّوْحُ الْمَحْفُوظ) الَّذِي لَا يَتَعَرَّضُ لِلْمَحْوِ والتغيير، لأنَّه قَدْ كُتِبَ فِيهِ عِلْمُ اللَّهِ.

النصّ الخامس عشر:

قَول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الحجّ/٢٢ مصحف/١٠٣) خطاباً لرسُوله، ولكل صالح لأنْ يخاطب بهذا الخطاب على سبيل الخطاب الإفرادي:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: أَلَمْ تَعْلَمُ أيُّها المتفكّر في ظاهراتِ الكون، وما تدلُّ عَلَيْهِ مِنْ بواطِنه، أنَّ اللَّهَ المهيْمِنَ على كلّ شيءٍ، والمتصرِّفَ في كُلِّ شيءٍ، يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ مهما كان صَغِيراً غايَةً في الصِّغَر، ومُسْتَخْفِياً غايَةَ الاستخفاء، في السَّمَاءِ الشَّامِلَةِ لكلّ مُرْتَفِعٍ عن الأرض عُلْويّ حَتَّىٰ آخِرِ ذي وجود، وفي الْأَرْضِ.

اعْلَمْ بأنّ الله عليم به، واعْلَمْ بأنَّ ذَلِكَ العِلْمَ الرَّبَّانيَّ مُسَجَّلٌ في كتاب، هو اللَّوْح المحفوظ، واعْلَمْ بأنَّ ذَلِكَ العلْمَ العظيم، وتسجيلَ ذَلِكَ الْعِلْمِ في كتابٍ مُبِينٍ، أَمْرٌ يَسِيرٌ على الله جلَّ جلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

❀ ❀ ❀

(١٧)

الملحق الثالث

بيان اعتراض الأمم على بشريّة الرُّسُل في القرآن

لم يكُنْ كفّار العرب وحدهم المعترضين على بشريّة الرسول الذي له صفات البشر، ومنها أكل الطعام والمشيُ في الأسواق، بل سبقتهم إلى هذا الاعتراض نَفْسِه الأمم من قَبْلهم، إذْ تعلّلوا بأنّه ينبغي أن يكونَ رسولُ الله ملَكاً، زاعمين أنّ البشر لا يصلُحون للاتصال بعوالم ما وراء الأشياء الّتي تُدْرَك بالحواس، أو أنّ إرْسَال رسولٍ بشر للناس منافٍ لحكمة الله، فالله لا يفعله. فَمَنِ ادّعىٰ من الناس أنّه رسولٌ مَبْعُوثٌ من عند الله فهو كاذب، أو حصلتْ له تخيّلات أو تصوّراتٌ أو أمورٌ نفسيّة، ظنَّ بسببها أنّه رسول يتلقّىٰ الوحي عن الله، والواقع بخلاف ذلك.

وقد عرض القرآن المجيد قصّة اعتراض الأمم على بشريّة رُسُلِهم في عدّة نصوص مُوَزَّعةٍ في السُّوَر.

- **أوّلاً:**

جاء في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بيان تعجُّب كفار مكة من بشرية محمد ﷺ في قوله تعالى:

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾.

ثم ذكر الله عزَّ وجلّ اعتراض ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام على بشريّته، فأنزل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾.

[سُعُر]: جُنُون. لقد زعموا أنّهم إذا اتّبعوا رسولاً بشراً واحداً منهم، فإنَّهم يكونُونَ عندئذٍ في ضلالٍ عن الحقّ والصّوَاب، وجُنونٍ في الفكر.

وأبان الله عزَّ وجلّ في السورة هذه عاقبة تكذيبهم، بأن أَرْسَلَ عليهم صيحةً واحدةً كانت القاضية عليهم جميعاً، بعد أن أَنْذَرَهُمْ وامتحنهم بآية الناقة، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: أي: كأكوام الحطب والأعواد اليابسة التي يجمعها من يريد إقامة حظيرَةٍ لدوابّه.

● **ثانياً:**

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وعرض فيها لقطاتٍ من قصّةِ خلق الإنسان، وقصّةِ الرّسالات الرّبّانيّة للبشر، ولقطاتٍ من قِصَص المرسَلِين مع أقوامهم، وضِمْنَ ما عَرَض من قصّة نوحٍ مع قومه، أبانَ ما ذكره نوحٌ عليه السلام لهم حول تَعَجُّبِهِمْ من أَنْ يأتِيَهُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبّهم مُنَزّلٌ على رجُلٍ منهم لِيُنْذِرَهُمْ، فقال تعالى فيها حِكَايَةً لمقالةِ نوحٍ لقومه:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وكان عرض هذا إبّان نزول سورة (الأعراف) إنذاراً لكفّار العرب، الذين كان واقعُهم الرافض لاتّباع الرسول هو واقع المتعجّب من أن يأتيهم رجلٌ منهم رسولاً من ربّهم لِيُنذرهم، ويُبَلّغهم رسالات ربّه، لذلك جاء بعد هذه الآية قوله عزَّ وجلّ في السورة:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وَضِمْنَ ما عَرَضَ اللّهُ فِيها من قِصَّة هودٍ عليه السَّلامُ مع قومه عاد، أبانَ ما ذَكَرَهُ هُودٌ عليه السلام لهم حول تعجُّبِهم من أن يأتيهم ذِكْرٌ مِنْ رَبّهم منزّل على رجل منهم، فقال عزَّ وجلّ فيها حِكَايَةً لِمقالة هود لقومه:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وعرض سبحانه بعد هذه الآية طائفةً من جَدَلِيَّاتِهم وما أَجَابهم به هودٌ عليه السلام، وأبان أنهم كذّبوا فكانت عاقبتُهم إهلاكاً شاملاً.

• **ثالثاً:**

ويظهر أنّه قد بدأت تُساوِرُ كفارَ قريش فكرةُ اعتراضهم على بشرية الرسول محمد ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بياناً حَوْلَ قصّة أصحاب القرية التي بعث الله إليها رُسُلاً ثلاثاً (وهي أنطاكيّة كما ذكر المفسرون) فرفضوا الإِيمان بهم، وكذبوهم، وتعلَّلوا بأنّهم بشرٌ مثْلُهم، فقال الله عزَّ وجلّ مُوَجِّهاً رسولَه أن يضرب لَهُمْ مثلاً بِهِمْ:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

فأصرُّوا على موقفهم، وكذّبوا رسُلَ رَبّهم، وقتلوا ناصِحَهم من قومهم، فأهلَكَهُمُ الله بصيحة واحدة فإذا هم خامدون.

• **رابعاً:**

ثم صَرّح كفّار قريش باعتراضهم على بشريّة الرسول محمّد ﷺ، وجعلوا يردّدون مقالاتهم حول الاعتراض على بشريته، واعتراضهم على

أنه مثل سائر البشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وهذا يتنافى مع كمال الرسول الذي يتلقَّىٰ الوحي عن الله، ويؤمر بتبليغ رسالاته للناس.

فأنزل الله عزَّ وجلّ في (سورة الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بيانَ مقالتهم في ذلك بقوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

فرّد الله عليهم في هذه السّورة بأن جميع رُسل الله السابقين قد كانوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

• **خامساً:**

وأصرَّ كُفَّار العرب على اعتراضهم هذا، ولم يُقْنِعْهُمْ أنّ جميع رُسُل الله في تاريخ البشريّة قد كانوا بشراً، فأنزل الله عزَّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بياناً إضافيّاً حول اعتراضِ ثمود قوم النبيّ صالح عليه السلاوم على بشريته. وبياناً ابتدائيّاً حول اعتراضِ قوم الرسول شُعَيب عليه السلام على بشريّته.

• أمّا البيان الإِضافي حول مقالة قوم صالح فقد جاء في قول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

فطلبوا الآية، وأعطاهم الله ما سألوا، فأصَرُّوا على تكذيبهم، وعَقَروا الناقة التي طلبوها آية على صدق رسالته، فأهلكهم الله.

• وأمّا البيانُ الابْتدائيُّ حَوْلَ مقالة قوم شعيب في اعتراضهم على بشريته، فقد جاء في قول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿كِسَفٗا﴾: أي: قطعاً.

وأصَرُّوا على تكذيبهم، فأهلكهم الله بعذابٍ كما طَلَبُوا مُتَحدِّين رسولَهُمْ شعيباً.

● **سادساً:**

وزاد كفّار قريشٍ من تَعَنُّتِهم، وبالَغُوا في اقتراحاتهم، وتصوّروا أنّ عدم تحقيق ما اقترحوا يُخَوِّلُهم أن يَتَحدَّوْا الرَّسُول بإنزال العذاب الذي أنذرهم به، وأصَرُّوا على اعتراضهم على بشريّته، بإنزال الملائكة، فأنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾﴾.

بيتٌ من زُخُرف: أي: بيت من ذهب، أو مُزَيَّنٌ مزخرف بالذهب.

وجاء الرّد على المطالبة برسولٍ ملك في هذا النصّ، ببيان أنّ الحكمة تقتضي إرسال رسول بشر لِمُرْسَلٍ إليهم بشر، يحمل طبائعهم وصفاتهم، ولو كان في الأرض ملائكةٌ مكلّفون يمشون في الأرض مطمئنّين كما

يمشي البشر، ومُمْتَحَنُونَ كامتحان البشر، لأَنْزَلَ الله إليهم من نوعهم رسولاً مَلَكاً يُبَلِّغهم رسالات ربّهم إليهم.

• **سابعاً:**

وفي أوّل سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) تحدّث الله عزَّ وجلّ عن موقف كفّار العرب إذْ تَعَجَّبُوا من أن يوحي الله إلى رجُلٍ منهم منذراً مبشّراً، فقال الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

• **ثامناً:**

ويظهر أنّ الرسول محمّداً ﷺ ضاق صدره عن موقف قومه المتعنّت، معلّقين الإيمان به على إلقاء كنزٍ إليه أَوْ مَجيء مَلَكٍ معه، وربُّما خطر له الاستجابةُ لطلبهم لعلّهم يؤمنون، فينجيهم الله من العذاب، فأنزل الله عزَّ وجلّ على رسوله قوله في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ۝١٢﴾.

وعرض فيها عزَّ وجلّ قصة تكذيبِ قومِ نوحٍ رَسُولَهم مُتَعلّلين ببشريته، حتى انتهىٰ الأمر بهم إلى ما انتهىٰ إليه من إهلاكٍ شامل بالطوفان، وفي هذا العرضِ تحذيرٌ ضمنيٌّ لكفار قريش، فليتعظوا بما جرى للذين من قبلهم، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ۝٢٦ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ

مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

● **تاسعاً:**

وَتابع مشركو قريش ترديد المطالبة بإنزال مَلَكٍ، فأنزل اللَّهُ عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) قوله:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

أي: لو أنزل الله ملكاً كما طَلَبُوا فأصَرُّوا على تكذيبهم وكُفْرِهِمْ لأهلكهم الله دون إنظار كما هي سُنّته عزَّ وجلّ في الأمم، ولو أنزل الله ملكاً لأنزله على صورة إنسان رجل ليتسنّىٰ لهم مشاهدته، بحسب استعدادهم البشري، وعندئذٍ يلتبس عليهم الأمر، فلا يعرفون هل هو مَلَكٌ حقيقة، أو رجلٌ بشرٌ من الناس، إذ يَخْلطون بين الْمَلَكِ الذي هو على صورة رجل، وبين أيّ رجل آخر من الناس، وهذا يتمّ ضمن أفعال الله بحسب قوانينه القدريّة، إذْ تَلْتَبسُ الصور المتشابهة على أبصار الناظرين، وعنئذٍ يقولون: هذا أيضاً بشر من البشر وليس ملكاً، فَيُكَذِّبون، فَيَسْتَحقُّون الإِهْلَاكَ.

● **عاشراً:**

ثُمَّ علَّمَ اللَّهُ رسوله أن يُعلن لقومه أنه ليس إلّا بشراً مثلهم في صفاته التكوينيّة، لكنّ الله اصطفاه بالوحي إليه، أي: ولله أن يصطفي من يشاء من عباده وهو العليم الحكيم، فقال الله عزَّ وجلّ له في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾.

وعلَّمَهُ فيها أن يُنْذِرَهم بصاعقةٍ مثلِ صاعقة عادٍ وثمود إنْ أعرضوا كما فعل عادٌ وثمود مع رسُلِ رَبّهم، وقالُوا: لو شاء رَبُّنا لأنْزَلَ مَلائكةً، فقال الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝١٤﴾.

وعرض الله بعد ذلك موجز إهلاكهم، ليتعظ كفّار قريش ومن وراءهم.

- **حادي عشر:**

ثمّ أبان الله عزَّ وجلّ أنّ التعلُّل ببشريّة الرّسول ظاهرة من ظواهر كلّ المكذّبين لرسلهم من الأمم السابقة، فأنزل الله عزَّ وجلّ قوله في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) خطاباً للكافرين:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنّ كلّ المكذّبين من أقوام الرُّسل السابقين قد تعلّلوا بكون الرّسُلِ بشراً، ذريعةً لتكذِيبهم لهم، ورفض إيمانهم بهم.

فكان رَدُّ الرُّسُل على مقولة أقوامهم المعترضة على بشَرِيَّةِ الرسول

تتلخَّصُ بالإقرار بأنَّهم بَشَرٌ من البشر، مع بيان أنَّ البشريَّة لَا تتنافَى مع الرسالة، إذ الرسالةُ مِنَّةٌ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ يَمُنُّ بها عَلَىٰ من يشاء من عباده.

فإذا أراد اللَّهُ العليم القديرُ على ما يشاء أنْ يختَصَّ أحداً من خَلْقِه فيصطفيه للنُبوَّة والرسَالة، فَهَلْ يَعْجزُ سُبحْانَهُ عن ذلك؟! وهَلْ مِنْ حجْرٍ علَيْهِ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطانُه؟!

الجواب العقليُّ والواقعِيّ: لَا، قطعاً.

دل على هذا الرَّدِ المنطْقِي قولُ اللَّهِ تعَالَى في النصّ:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ... ﴿١١﴾﴾.

- **ثاني عشر:**

وأثار كُفَّارُ قريش قضيّةَ بشريَّة محمّد ﷺ مشْعِرين بأنَّها تتنافَى مع النبوّة والرّسالة، علىٰ شكْلِ همَسَاتٍ، دعائيَّةٍ لصَدِّ الَّذِينَ آمَنُوا به عنه، وتحريضهم على الرِّدّة عن الإسلام، فأنزل الله عزّ وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وردَّ اللَّهُ عزّ وجلّ عليهم فيها وأنْذرَهم بسُوء العاقبة فقال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

فالرُسُل للبشر هم جميعاً رِجالٌ من البشر، خصَّهُمُ الله بالنُّبوةِ فأوحىٰ إليهم، ثم بعَثَهُمْ رُسلاً.

• **ثالث عشر:**

ثمَّ أبان الله عزَّ وجلّ في عرض لقطات من قصّة نوحٍ مع قومه تعلّل ملأ قومه لرفض الإيمان به بأنه بشَرٌ مثلهم، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

فأبان هذا النصّ أنّ كبراء قوم نوح قد حاولوا إقناع جماهيرهم لصدّهم عن الإيمان به واتّباعه بأنَّهُ بَشَرٌ مثْلُهم، وبأنَّ البشر لا يصلحون أن يكونوا رُسُلاً يُرْسِلُهُمُ اللَّهُ عزَّ وجلّ، زاعمين وموهمين بأنّ البشريّة، تَمْنَعُ من الاتصال بربّ العالمين، لتَلَقِّي رِسَالةٍ منه، وتمنعُ من الاتصال برسول ربّ العالمين من الملائكة لتلقّي رسالة الله عنه.

وأشاروا إلى نوحٍ عليه السلام في مقولتهم باسم الإشارة «هذا» إشعاراً بأنّه رجلٌ لا يستحقُّ أنْ يُنْظر إليه باحترام وإكبار، وقصدوا تحقيره بحضوره أمام جماهيرهم ليصرفوهم عن احترامه كليّاً، وليثيروا نفوس صغار العقول منهم لازدرائه، والسخرية منه، باعتباره بشراً مثلهم، ويدّعي الاتصال بالله، وأنّه رسول مبعوث من قِبَلِه، ومثل هذا الادّعاء لا يدّعيه إلّا من بعقله اختلالٌ ما، أو نوع من أنواع الجنون.

وأبان الله عزَّ وجلّ في سورة (المؤمنون) نفسها أنّ عاداً قوم الرسول هود عليه السلام قالوا مثل مقالة قوم نوح عليه السلام، فقال الله عزَّ وجلّ فيها عطفاً على قصة قوم نوح:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

فكان موقفهم من رسولهم مثل موقف قوم نوح من رسولهم، والظاهر من القرن الآخرين الذين جاءوا بعد قوم نوح هم عادٌ قوم هود.

ثم عرض الله عزَّ وجلّ في سورة (المؤمنون) نفسها لقطةً من قصة إرْسَال مُوسَىٰ وهارون إلى فرعون ومَلَئِهِ، فكان موقفهم من بشريّة الرّسولين مثل موقف قوم نوح وقوم هود، فقال الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

فاستكبَرُوا واسْتنكفُوا عن الإِيمان والإِسلام لبشرين مثلهم من البشر، تعلُّلاً بِبَشَرِيتهما.

- **رابع عشر:**

وبعد النّصوص السابقة التي نزلت في المرحلة المكيّة، أنزل الله عزَّ وجلّ في المرحلة المدنيّة ردّاً على طائفةٍ من اليهود الذين قالُوا: ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيءٍ، إغراءً للعرب بأن يُفْتَنُوا بهذه المقالة، أنزلَ قوله تعالى في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) المكيّة إلّا أنّ الآية التالية منها مدنية فيما هو الراجح عند علماء علوم القرآن:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

وقَدْ يبدو عجيباً أن يقول بعض اليهود: ما أنزل الله على بشرٍ من

شيء، وهم يؤمنون بمُوسَىٰ، وبالكتاب الذي أنزله الله عليه، لكِنْ إذا علمنا أنّ من خطط اليهود أن يتظاهر بعضُهم أحياناً بالكفر بدينهم، أوْ بعض عناصره الأساسيّة لتضِليل الناس، وجعلهم يكفرون بما يؤمنون به من دين الله، سقط العجب، ولذلك وصفهم الله بوصفين:

الوصف الأول: أنَّهم يخوضون في مسائل الدين، كخوض من يخوض في الماء ليُعَكِّر صَفْوَهُ، فيُخْفِيَ الحقيقة بما يُثِير من مُعَكِّرات من القاع.

الوصف الثاني: أنَّهم يَلْعَبُونَ، أي: يَلْعَبُون بإصْدارِ الأقوال جُزَافاً للتضليل وتَشويه الحقائق.

وهذه الحركات هي من مكر اليهود المعروفة قديماً وحديثاً فيهم، وهم الذين يجعلون التوراة قراطيس يُبْدُون بعضها ويُخْفُون كثيراً منها كما جاء في الآية.

وجاراهم الله بحسب ظاهر قولهم فقال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ . . .﴾.

أي: إِنَّهم اتَّهَمُوا اللَّهَ عزَّ وجلّ بالعجز عن أن يكلّم بشراً، أو يوحيَ إليه، أو يُنَزِّلَ عليه كتاباً، وهو القادر على ما يريد سبحانه.

أليس خالِقُ البشر قادراً على أن يُوحِيَ إليهم، ويُنَزِّلَ عليهم ما يشاء؟!

❊ ❊ ❊

البيان القرآني الكاشف لفساد الاعتراض على بشريّة الرسول ومنافاة طلب إنزال الملائكة للحكمة

من خلال النصوص القرآنية التي اشتملت على بيان اعتراض المكذبين لرسُلِهم على بشريّة الرسولِ، والإقناعات الكاشفاتِ فسادَ هذا الاعتراض، والكاشفاتِ أنّ طَلَبَهُمْ إنزالَ ملائكة يكونون رسُلاً من الله بدل

إرسال رسُلٍ بشر أمرٌ منافٍ للحكمة نستطيعُ استخلاصَ الرُّدُودِ المنطقيّة العقليّةِ التالية:

(١) إنَّ الاعتراض على بشريّة الرَّسُولِ لَا يَسْتَنِدُ إِلَّا إِلَىٰ مُجَرَّدِ الاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْرَابِ والتعجُّب، وهذا ليس بدليل كما هو ظاهر.

فالسبيل الوحيد للإقناع هُو إِزَالَةِ تَوَهُّمِ أَنَّ البشرِيَّة تَتَنَافَىٰ مع الاصْطِفاءِ بالنبوّةِ وتَلَقِّي الوحي عن الله.

وإزالةُ هذا التَّوهُّم يكُونُ بانْتِزاع الاعْترافِ بعدم وجود مانعٍ عَقْلِيٍّ من ذلك، عن طرِيقِ طَرْحِ الْأَسْئِلَةِ التّالية:

السؤال الأول: هلْ يُوجَد مانعٌ عقلي من أنْ يُوحِي الله الرّبُّ الخالق البارئ، بكلامٍ ما، أوْ أمْرٍ ما، لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِه، أو لما يشاءُ من خلقه، وهو الخالق البارئ المصوّر؟!

السؤال الثاني: هَلْ يعجز الرّبّ الخالقُ البارئ المصور عن أن يتّصل بعباده، أو بخلْقٍ من خلقه، فيوحي إليهم، ويأمُرَهُمْ، ويَنْهَاهُمْ، ويكلّفهم، ويُبَلِّغَهُمْ شَرِيعَتَهُ وَمِنْهَاجَهُ؟!

السؤال الثالث: هَلْ يُوجَدُ مَانعٌ عقليٌّ أَوْ حَجْرٌ عَلَىٰ اللَّهِ في أنْ يَمُنَّ علىٰ من يَشَاءُ من عباده بالاصطفاء بالنُّبُوّة، والاصْطفاءِ بالرسالة؟!

السؤال الرابع: هَلْ يَتَنَافَىٰ مع مُقْتضياتِ الحكمة أَنْ يُرْسِلَ الله إلى البشر رَسُولاً من البشر أنفسهم، فِيهِ جَميعُ خَصَائِصِ البشريّةِ، ليكون أسْوةً حَسَنَةً لهم، وحُجَّةً عَلَيْهِمْ، فِي إيمانِهِ واستِقَامَتِهِ علىٰ منهج الله؟!

إنّ الجواب الذي لا مناص منه لأولي الألباب عن كلِّ واحدٍ من هذه الأسئلة: هو النفي حتماً.

وبذلك تَنْجَلِي الشبهةُ ويَسْقُط التوهُّم.

واختصر القرآن ذلِكَ في بياناته، فذكر لنا حكاية مقالات الرّسُل لأقوامهم، جواباً على اعتراضهم على بشريّتهم، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ... ﴿١١﴾﴾.

وعلّم الله عزَّ وجلّ رسوله محمّداً ﷺ أن يحتجّ بذلك علىٰ قَوْمِهِ في أَوْجَزِ عبارة، فقال تعالى خطاباً له في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ... ﴿٦﴾﴾.

أي: فَهَلْ في هذا مانعٌ عَقْلِيٌّ؟! أو منافاةٌ لِحِكْمَةٍ؟! وهَلْ يُوجَدُ حَجْرٌ علَىٰ اللَّهِ في أنْ يُوحيَ إلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عباده؟! وهَلْ يَعْجِزُ اللَّهُ عن هذا؟!

وأبَانَ الله عزَّ وجلّ في آية مدنية التنزيل منضمة إلى سورة مكيّة، للمناسبة الفكريّة، هي سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) المكيّة التنزيل في معظمها، أنّ الّذين قالوا: «ما أَنْزلَ اللَّهُ على بَشَرٍ مِنْ شيء» ما قَدَروا الله حق قَدْرِه.

أي: اتَّهَمُوهُ سُبْحانه بالعجز عن ذلك، وهو خالق كلّ شيء، والملائكةُ هم خلْقٌ من خلقه، خلقهم كما خلق البشر، فقال تعالى فيها:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ...﴾. [من الآية: ٩١].

وكذلك قال عزَّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾.

* * *

(١) وَأمّا مَطْلَبُ أَنْ يَكُونَ الرُّسُل إلىٰ الْبَشَرِ مِنَ الْمَلائِكَةِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ مع الرَّسُولِ مِنَ الْبَشَرِ مَلَكٌ أَوْ أَكْثَرُ يَشْهَدُونَ لَهُ بِصِحّةِ الرِّسَالَة، فقد جاء في القرآن بيانُ مُنافاتِهِ للحكمة من عِدَّةِ وُجُوهٍ، مَعَ بَيَانه أَنّه لَا يُفِيدُهُمْ بِشَيْءٍ.

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْتَخْلِصَ من البيانات القرآنِيَّة ما يلي:

• **أوّلاً:**

أنّ الحكمة تقتضي أن يكون الرسول من جنس المبعوث إليهم، حتّىٰ يكونَ أُسْوَةً لَهُمْ، وحُجَّةً عَلَيْهِمْ.

وقَدْ عَلَّمَ الله عزَّ وجلّ رسُوله محمّداً ﷺ تقديم هذا البيان بقوله تعالى في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

• **ثانياً:**

أنّ الملائكة هم مخلوقاتٌ من عالم الغيب بالنسبة إلى البشر، وإنزالهم حتّى يراهم الناس على صفاتهم الّتي هم عليها يُنافي حكْمَةَ امتحان الناس بالإيمان بالغيب، وذلك لأنّ عالَم الغيب متى انكشف كلُّه أو بعضه للنّاس سقطت ظروف الامتحان في الحياة الدنيا، وتحلّ حينئذٍ ظروف الجزاء، وعندئذٍ يُنْزِلُ الله عقابه بالمكذّبين لا محالة، فيهلكهم، دلّ علىٰ هذا قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الفرقان/٢٥ مصحف/٤٢ نزول):

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

وَيَقُولُون حِجْراً مَحْجُوراً: أي: يستعيذون من رؤيتهم خَوْفاً منهم، فيقولون هذا القول، على عادتهم إِذَا ذُعِرُوا من شيءٍ قالوا: حِجْراً مَحْجُوراً، أي: حراماً مُحَرَّماً، ولعلّ أصل العبارة يفيد طلب مكانٍ خاصٍّ مَحْمِيٍّ من الطّوارئ والكوارثِ.

ودلّت النصوص على أنهم يَرَوْنَ مَلَائِكَةَ الْعَذابِ عِنْدَ الموت، ويوم الدين بعد البعث للحساب والجزاء.

ففي كلتا الحالَتَيْن يَخافون من رؤية هؤلاء الملائكة، ويستعيذون منهم بالعبارات التي كانوا يألفونها في استعاذاتهم، والمتحدَّثُ عنهم في النصّ كانوا عند الخوف يقولون: حِجْراً مَحْجُوراً.

أمّا رؤية الناس الملائكة عند الموت فقد وردت فيه عدّة روايات منها ما هو ثابت في الصحيح.

روى البخاري عن عبادة بن الصامت أنّ النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ أَحبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، ومَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَه».

فقالت عائشة، أو بعض أزواجه: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ.

فقال: «لَيْسَ ذَاكِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ مِنَ اللَّهِ وَكَرَامَةٍ فَلَيْسَ شَيْءٍ أَحبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وأَحبَّ اللَّهُ لِقَاءَه. وإِنَّ الكافِرَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَه».

وروى البخاريّ عن ابْنِ عُمَر قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا ماتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوةً وَعَشِيّاً: إمّا النّار، وإِمَّا الْجَنَّة، فَيُقَالُ: هٰذا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ تُبْعَثَ إِلَيْهِ».

وروى ابن ماجه عن النبي ﷺ قال:

«تَحْضُرُ الْمَلاَئِكَةُ: فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحاً قالوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّب. أُخْرجِي حَمِيدَةً وأَبْشِري بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هٰذا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلانٍ. فَيُقَالُ: مَرْحَباً بالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ. أُدْخُلِي حَمِيدَةً، وأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ تنتَهِيَ إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيها اللَّهُ تَعالى.

فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ، قالوا: اخْرُجي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخبيثَةُ كَانَتْ في الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وأَبْشِرِي بِجَحِيم وَغَسَّاقٍ، وآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاج، فَلَا يَزَالَ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ، حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فيقالُ: مَنْ هذا؟ فيقالُ: فلان. فَيُقَالُ: لَا مَرْحَباً بالنَّفْسِ الخبيثة، كانت في الْجَسَدِ الخبيث. ارْجِعِي ذَمِيمة، فإنَّها لَا تُفْتَحُ لَكِ أبوابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَىٰ الْقَبْرِ».

وأبان الله عزَّ وجلّ أنّ الظالِمِينَ إذَا كانُوا في غَمَرَاتِ الموت، كانت ملائكة العذاب عندهم، باسطين أيديهم، يقولون لهم: أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ غَيْرَ الْحَقّ، وكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ.

قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

وقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأَنْفَال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

أمَّا رُؤيَتُهُمُ الملائكة يومَ الدينِ فمن القضايا الظاهرة التي تدلُّ عليها النُّصُوص من القرآن والسنة.

ودَلَّ على أنّ إنْزَال الْمَلَائكةِ لِتَبليغ الناس رسالات الله بدل الرُّسل من البشر، تنتهي معه ظروف الامتحان، قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الْأَنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول):

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

أي: لَقُضِي أَمْرُ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، ولا يَبْقَىٰ مُقْتَضٍ لاسْتِمرار وجودهم فيها، ثُمَّ لَا يُؤَخَّرُونَ، بل تَنْزِلُ بهم نوازل الإِهلاك.

●**ثالثاً:**

لو أنزل الله رسولاً ملَكاً على غير صفتِهِ الملكيّة، لكان المناسب أن يأتيهم على صورة رجل من الناس، وعندئذٍ يلتبس عليهم الأمر، فلا يعرفون الفرق بين رجلٍ من الناس وبين هذا الملك الذي يأتيهم على صورة رجلٍ من الناس، ولعادوا لمثل اعتراضهم الأول، ولو أنّه صار يظهر فجأةً ويختفي فجأةً من مكان ظهوره، لالتبس عليهم أمره، هل هو جنيٌّ أو ملك، وربّما زعموه نوعاً من السحر، وهكذا تلتبس عليهم الأمور، دلّ على هذا قولُ الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

أي: ولو جعلناه ملكاً في الحقيقة، وجسداً يراه الناس في الصورة،

لجعلناه على صورة رجُل، فاقتضىٰ قانون الخلق في الحياة، أن يَلْتَبس الأمْرُ عليهم، فلا يَعْرِفُوا هلْ هو مَلَكٌ أو بشر أو جنيّ؟

فتعود المشكلة، ويكون إنزال رَسُولٍ مَلَكٍ غيرَ محقّق لما يطلبون.

وبما أنّ سُنَن الله عزَّ وجلّ في الوجود الكوني هي من خلق الله، قال تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ معنى اللَّبْس: الخلْطُ والاشتباه.

أي: ولمّا كان إرسال ملَكٍ بصورة بشر، يجعَلُهم يَلْبِسُون، أي: يخلطون في رؤيتهم الملك بالبشر، أو غير ذلك، فسَيَقُولون مرّة ثانية: هذا بشر، وليس بملك، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: ما يخلطون.

فمعنى الجملة: ولو أنزلنا الرسول الملك بصورة رجل بَشرٍ لَلَبَسُوا الْأَمْرَ، أي: خلطوه بين الملك والبشر، وهذا خاضع لنظام الرّب وقانونه في الخلق، وهذا من فعل الله وخلقه بالجملة.

نظيره أن نقول: من أغمضَ عينيه حجب الله عنه الرؤيَة، ومَنْ خَلَطَ الْأَشْيَاءَ المتشابِهةَ لَبَسَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ ضِمْنَ قَانُونِه في الْخَلْق.



(١٨)
الملحق الرابع
امتنان الله على العباد بالأنعام في نُصوص القرآن

بمناسبَةِ امتنان الله على العباد بالأنعام التي خَلَقَها لَهُمُ، وإنكارِه في سورة (يسٓ) على الكافِرين، وَتَعْجِيبِه مِنْ عَدَمِ رُؤيَتِهِمْ لآية الله في الأنعام، وتعجيبه مِنْ عَدَم شُكْرِهم لِرَبّهم بالإيمان، والإسلام، والطاعة، والعبادة على ما يَرْضَىٰ، وأنْ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شيئاً، لَا في رُبوبيَّته وَلَا في إلَٰهيَّتِهِ.

رأيت أنّ من الخير استعراضَ مَا جاء في القرآن كلّه بشأْنِ آيات الله في الأنعام، والتّنْبيه علىٰ نِعْمَةِ الله على الناس بها، مع مقدارٍ ما من التدبُّر لهذه النصوص، وهي أحد عشر نصاً، وفيما يلي بيانها:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (يسٓ/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

سبق تدبّر هذا النصّ خلال تدبّر السّورة، وأُوجزُ هُنَا البيانَ، مكتفياً بذكر بَعْضِ ما اشتمل عليه النَّصُّ من دَلَالَاتٍ:

أي: أولم يَرَوْا رُؤية بَصَرِيَّةً ورُؤيَةً فِكريَّةً واضِحةً، أنَّا أبْدَعْنَا وَصَوَّرْنَا وأوْجَدْنَا على غير مثالٍ سبَقَ لأجلهم ممّا عَمِلَتْ أيدينا أنْعَاماً فَهُمْ لها على وجْهِ الخُصُوصِ مالِكُونَ مِلْكاً مُتَمكّناً مِمّا يَرُومون بها، بحَسَب صِفَاتها الّتي فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْها، إذْ سخَّرَهَا الله لهم، وذلَّلَها لطاعَتِهم على أفْضَلِ وجْهٍ، وأخْضَعَها لهم، وجَعَلَها مطيعةً منقادةً لهم، فمِنْها مَرْكُوبٌ لَهُم، ومن لُحومها يأكُلُون، ومن ألْبَانِها يَشْرَبُون، ولهم فيها منافع كثيرة مختلفة الأنواعِ والأصناف.

ألَا يتفكّرُون في هذه النِّعَم العظيمة الّتي أنْعَم الله بها عليهم، فهم بسبَبَ عدَمِ تفكُّرِهم لَا يَشْكُرُونَ رَبَّهم عليها بالإيمان والإسلام والطاعَة.

وهو استفهامٌ إنكاريٌّ يُنْكِرُ الله بِهِ على الكافِرين بنِعَمِهِ عليهم، وتَعْجِيبٌ من أمْرِهم، إذْ لَا تتحرَّكُ نفوسُهُمْ وقُلُوبهم لتأدية واجب شكر اللَّهِ على نِعَمِه الكثيرة عليهم، ومنها الأنعام.

الأنعام: هي الأموال الراعية، الإبل والبقر والغنم.

النّص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكايةً لقول هود عليه السلام لقومه، يَدْعُو إلى أن يتَّقُوا الله الذي أمَدَّهُمْ بِنِعَمٍ كثيرة يَعْلَمُونها، ومنها إمدادهم بنِعْمَةِ الأنعام:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾.

• قرأ ابن كثير، وابنُ ذَكوان، وشُعْبَة، وحَمْزَة، والكِسَائي: **[وَعِيُونَ]** بكسر العين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَعُيُونٍ﴾ بضمّ العين.

كسر عين «العيون» وضمها وجهان عربيان لنُطْقِ الكلمة، فالقراءتان متكافئتان.

﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: أعانكم وأغاثكم ومنَحكُمْ عطاءً مُتَتَابِعَ التجدّد.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أنذر هودٌ عليه السلام قومه إنذاراً مَقْرُوناً بالشفقة عليهم، بعذاب يوْمٍ عظيم يكون فيه هَلَاكُهُمُ الشّاملُ في الدنيا، وهو ما نزل بهم بَعْدَ ذلك. وأنْذَرَهم بعذَابِ يَوْمٍ عظيم، وهو العذابُ الّذِي سَوْفَ يلاقونه يوم الدين على كفرهم، في دار العذاب النار.

فالعبارَة تُطْلِقُ سَهْمَي إنذارٍ معاً، إنذارٍ معجّل في الحياة الدنيا، وإنْذَارٍ مُؤَجّل إلى يوم الدين.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) ممتنًا على عباده بما في الأنعام من نِعَمٍ أنعم بِها عليهم، بَعْدَ أن امْتَنَّ عليهم بالجنَّاتِ والثمرات:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤)﴾.

فجاء في هذا النصّ الامتنان بالأنعام، والتحذيرُ الشديد، من الافتراء على الله في أحكامٍ دينيَّة تتعلَّقُ بها، كتَحْرِيم مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ عزّ وجلّ منها.

فقد كان للمشركين في الجاهلية مفتريَات، إذْ كانوا يُحَرِّمُون بعْضَ الأنعام، ويَجْعَلُونَ قِسْماً مِنْهَا لآلِهَتهم الّتي جعَلُوها شُركاء لِلَّهِ، ويَجْعَلُونَ بَعْضَ مَا فِي بُطُونِ الأنْعَام حَلالاً لِذُكُورهم ومُحَرَّماً على أَزْوَاجِهم، ونَحْوِ ذلِكَ من أحكامٍ دينيَّةٍ كانُوا يَفْتَرُونَها على اللَّهِ عزّ وجل.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾:

الْحَمولَةُ: مَا أَطَاقَ الْعَمَلَ والْحَمْلَ مِنَ الأَنْعَام.

الْفَرْشُ: صِغَارُ الأَنْعَام الّتِي لَا تَسْتَطِيعُ الحَمْلَ، أَوْ مَا يُتَّخَذُ مِنَ الأَنْعَامِ من فَرْشٍ، كَجُلُودِها، وَمَا يُنْسَجُ من أَصْوافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعارها.

﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: **الضَّأْنُ**: ذَواتُ الصُّوف من الغنم، «**اثنين**»: أي: ذكراً وأنثىٰ.

﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾: الْمَعْز: ذَوات الأشعار والأذناب القصار. وهو اسم جنس، وواحد المعْزِ «ماعِز» مثل «صَحْب» و«صاحب». «اثْنينِ»: أي: ذكراً وأنثىٰ.

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾:

في هٰذه العبارَة تعليمُ تَوْجِيهِ الاستفهامِ الإنكاري، لاستنكار مُفْتريات أهل الجاهليَّة في تَحْريمهم بَعْضَ هذه الأنعام، وجاء في نصٍّ قرآني آخر تَفْصِيلُ بَعْضِ مُحَرَّمَاتِ أهْل الجاهلية من الأنعام، ولسْتُ هُنَا في صَدَدِ شَرْحِ مُفْتَرَياتِهم، بل في عَرْض امتنان الله على العباد بالأنعام.

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول) في مَعْرِض بيان بعض آياته في كونه، الدّالّاتِ علَىٰ عظيم صفاته، وإتقان صُنْعِهِ في خَلْقِه، وعنايَتِهِ بعِبَادِه، وخِطَاباً للنّاس:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾:

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ هي: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضَّأنِ اثْنَيْنِ، ومِنَ المَعْز اثنين.

وَجَاءَ التعبير هُنَا بالإنْزَالِ إشَارَةً إلَىٰ أَنَّ كُلَّ عَطَاءَاتِ الله لعباده، هِيَ إنْزَالُ مِنْهُ جلَّ جلالُه، ولو كان قد خَلَقَهَا لهم في الأرض حيْثُ إقَامَتهُمْ، وليْسَ المرادُ إنْزَالَها لَهُمْ من السَّمَاء، لِأَنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُه هو الْعَلِيُّ

الْأَعلى، وَكلُّ مَا سِوَاه هُو مِنْ دُونه، فَعَطَاءَاتُهُ لِعَبَادِهِ إِنْزَالٌ من لَدُنْهُ لهم.

والْغَرَضُ من الامْتِنَانِ تَوْجِيهُ الْعِبادِ لُشكْر رَبّهم على نعَمِهِ الجليلة عليهم، مع بيان أنّهم لَوْ كَفرُوا وَلَمْ يَشْكروا فَلَنْ يَضرُّوا الله شيئاً، لأنّه سبحانَه غَنِيٌّ عَنْهُم، وإنّما يَضُرُّونَ أنفُسَهم، ضِمْن قانون الله في ابْتلاء عباده، ومحاسبتهم ومجازاتهم.

ويشير النصّ إلى أنّ الله تعالى لا يُجْبر عباده على كُفْرٍ أو شُكر، وهو لا يَرْضَى لعباده الكفر، ويَرْضَىٰ لهم أنْ يكونوا شاكِرين.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

فجاء في هذا النّصّ بَيَانُ بَعْضِ آيَاتِ الله في كونِهِ الدَّالَّاتِ علىٰ عظيم صفاته، وعِنَايَتِهِ بِخَلْقِهِ، ومنها أنّه جلّ جلالُهُ وعظُمَ إنْعامه قد جَعل الأنْعَامَ للنَّاس لِيَرْكَبُوا مِنْهَا مَا يَصْلُحُ للرُّكوب، وهي الجمال، وليَأْكُلُوا مِنْ ذَبَائِحها، ولينتفعوا مِنْها في مَنَافِعَ أخْرَىٰ كثيرة، من أصوافها وأشعارِها وأوبارها وجلودها وغير ذلك.

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾: أي: خَلَقَ لِأَجلكُمُ الأنعامَ أيُّها الناس. ففعل ﴿جَعَلَ﴾ مُسْتَعْمَلٌ بِمَعْنَىٰ فِعْلِ «خَلَقَ» وقد يَدُلُّ فعل ﴿جَعَلَ﴾ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ بَعْدَ أن أسْكَنَ النَّاسَ في الأرض، وكانَتِ الأنْعَامُ مَخْلُوقَةً فيها قبل ذلك، جَعَلَهَا بالإلهام لبني آدم وبالتسخير الذي فَطَرَهَا عَلَيه صَالِحَةً لِمَا جَاءَ تَفْصِيلُهُ مِنْ منافع للناس.

﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا﴾: أي: لِتَركبوا ما يَصْلُحُ للرُّكوب منها، وهي كبارُ الإبل.

﴿..وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٩﴾: أي: ولتأكُلُوا ما يَصْلُحُ لِلأكل منْها، وهي لُحَومُها وشحومها بعد ذبحها. قُدِّم المعمول ﴿مِنۡهَا﴾ على عامله لمراعاة رؤوس الآيات.

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾: أي: منافع أخرى غير الرُّكوب والأكل.

﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ﴾: أي: ولِتُحَمِّلُوا علَىٰ ظُهُور ما يَصْلُحُ للحمل منها أثقالكم، وتبْعَثُوها إلى بلادٍ بعَيدةٍ، فتحقِّقُوا بذلك حَاجَةً تَقْصِدُونَ تحقيقها في صُدُوركم الحاوية لقُلُوبكم، الباعِثَةِ لإراداتِكُمْ، الّتي توجّهُها رَغَبَاتُ نفوسِكُم، كالتجارة والارتحال من بَلَد إلى بلَدٍ.

﴿..وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾: أي: وعلى الإبل منها تُحْمَلُونَ في الْبَرّ، وعلى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ في الْبَحْر.

ويُقَاسُ عليهما مَا تَوَصَّلَ النّاسُ إليه بإلهام الله وتسخيره، من مراكب بَرِّيَّةٍ وَجَوِّيَّة.

﴿..وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ٨١﴾: أي: ويُرِيكُمُ اللّٰهُ آياته في الآفَاقِ وَفي أنْفُسِكُم غيْرَ آياتِ الأنعام، وهي آيَاتٌ جليلات دَالّات عَلَىٰ عظيم صِفاته، وجليل آلائه.

فأيَّ آيات الله الظّاهراتِ لكلّ ذي حِسٍّ وفِكْرٍ تُنْكِرُونَ فَلَا تَعْرِفُون أيُّها الجاحدون مَا أنزلَ عليكم من بَيَانَاتِ كتابه، والمكذِّبون رَسُولَهُ والمكذّبون بما يُبَلِّغُكُمْ عَنِ اللّهِ من حقٍّ وهُدىٰ.

ونلاحظ أنّه جاء في هذا النّصّ بَعْضَ تفصيل لمنافع الأنْعَام، ولم يكن قد سبَقَ بيانه فيما أنْزِلَ قَبْلَهُ من نُصوص.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾:

﴿فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: خالِقُ السَّماوات والأرض ضِمْنَ نِظام الفَطْر.

الْفَطْرُ: الشَّق، وقد دَلَّت النُّصوصُ على أنّ خَلْقَ اللَّهِ عزّ وجلَّ قائم على نِظَام الْفَطْرِ والْفَلْقِ، وإبْداع المخلوق من عُمْقِ المفطور المفلوق، والحكمة من هذا أنّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ الأقصَىٰ من كلّ شيءٍ هي الْعَدَم، فالله جلَّ جلالُهُ وعظمت قُدْرَته، هو الموجد من العدم.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾: أي: خَلَقَ لَكُمْ مِنْ ذَوَاتِ أنْفُسِكُمْ أزواجاً إناثاً، وخَلَقَ مِن الأنعام أزواجاً إنَاثاً، ليكون التكاثر عن طريق التناسل.

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾: أي: يخلقكم ويُكَثِّرُكُم، ويُكَثِّرُ أنْعَامكم في هذا الْجَعْل، القائم على التناسل.

ويأتي الذّرْءُ بمَعْنَىٰ الْبَثّ، أي: ويخْلُقُ بَاثاً ذراريكم بهذا الْجَعْلِ القائم على الزوجيّة: ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ.

فأبانَتْ هذه الآيَةُ أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ جَعَلَ نِظَامَ خَلْقِ النَّاسِ والأنْعَام قائماً علىٰ الأزواج من الذّكُورِ والإناث، ضِمْنَ سُنَّةِ التناسُل، ولم يَجْعَلْهُ على نِظَامِ الخلْقِ الإفرادي، لِتكون الوحدانيَّةُ الَّتِي ليْسَ كَمِثْلِها شيء للَّهِ وحده الذي لا شريك له في ربوبيّته ولا في إلَهِيَّته.

وجاء في نُصُوصٍ أُخرَىٰ بيان أنَّ الله تبارَكَ وتَعالىٰ خَلَقَ مِنْ كُلِّ شيءٍ زَوْجين، وأنّه جَعَل مِنْ كُلّ الثمرات زَوْجَيْنِ اثْنَيْن.

فَدَلّ بهذا على أن جميع المخلُوقات تخضع لنظام الزوجيَّة، ويَبْقَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيء.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: تأْتي كلمة «مثل» بمعنى «وصْفٍ» وعلىٰ هذا فمعنىٰ العبارة: لَيْسَ مِثْلَ وصْفِه شيءٌ ما، ولا حاجة بهذا إلَى تأويلات متكلَّفات.

النصّ السّابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخْرُف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾: في هذه العبارة إشارة إلى ما سَبَقَ إنْزَالُه في سورة (يسٓ) وهو قول الله تعالى فيها:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقد سبَقَ تَدبُّر هذه الآيَةِ في موضعها من السُّورَةِ بما فيه غُنْيَةٌ عن الإعادة.

﴿. . وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾: أُعِيدَ التذكيرُ بهاتَيْن النِّعمتين من نِعَم الله على الناس، تمهيداً للتَّوْجِيه لذكر نِعْمَةِ الرّب عند رُكوب الْفُلْكِ والإبلِ، وسائِرِ المراكبِ الّتي أنْعَمَ الله بها على عباده، خَلْقاً مبَاشراً، أو إلْهَاماً وَتَسْخِيراً، وَلتَعْلِيم عِبَارَةِ الذِّكْر الخاصّ بهٰذِهِ المناسَبَة.

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾: يقال لغة: اسْتَوىٰ علىٰ كذا، أي: اعتَدَلَ واسْتَقَام فَوْقَه.

﴿.. وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾:
أي: تَنَزَّهَ الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ الّذِي سَخَّرَ لنا هذا المركوب، وَمَا كُنّا لَهُ مُطِيقِينَ لَوْلَا أنْ سَخَّرَهُ اللَّهُ لنَا.

يُقَال لغة: أَقْرَنَ لِلشَّيْءِ، أي: أطاقَهُ وَقُوِي عَلَيْه.

وهذا ممّا جاء في هذا النصّ زائداً على ما جاء في النصوص السابقة له.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجل في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾:

فَأضاف هذا النَّصُّ بيانَ أنَّ مِنْ مَنَافِعِ الأَنْعَامِ للناسِ ما فيها من دِفْءٍ لَهُمْ يَدْفَعُ عَنْهُمْ لَذَعَاتِ البَرْدِ وَأضراره، ومَا فيها مِنْ جَمَالٍ يَسْتَمْتِعُون به حِينَ يُرِيحُونَ وَحِينَ يَسْرَحُون.

﴿تُرِيحُونَ﴾: أي: تَسْتَرِيحُونَ من تَعَبِ الرَّعْي، وحين تَدْخُلونَ في الرَّواح، وهو اسم للوقت من زوال الشمس إلى اللَّيل، ويقابلُهُ الصّباح، ووقت الرواحُ يكونُ وقْتَ رَاحةٍ للرُّعاة عادة.

﴿تَسْرَحُونَ﴾: أي: تَرْعَوْنَ مَاشِيَتَكُمْ، وهٰذا يكونُ في الصَّباح عادة، يُقَالُ لُغةً: سَرَحَ يَسْرَحُ سَرْحاً وسُرُوحاً. أي: خَرَجَ بالْغَدَاة.

وأضَاف هٰذا النّصُّ أيضاً التَّنْبِيهَ علَىٰ نِعْمَةِ اللَّهِ على الناسِ بالْخَيْلِ والبغال والحمير، لِيَرْكَبُوها في مصالحهم، مع ما فيها من زينَةٍ لهم، والزِّينَةُ من الجمَالِ الَّذي تَسْتَمتِع به النفوس.

وأضاف هذا النَّصُّ أيضاً أنّ الله سيَخْلُقُ للناس مستقبلاً مَا لَا يَعْلَمُونَ قبل أن يخْلُقَهُ لهم، وممّا تحقَّقَ خَلْقُه إلْهاماً وتَسْخِيراً مَراكب البَرِّ والجوّ المختلفة، والغوّاصَاتُ في البحر.

﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾:

- قَرَأ أبو جعفر: [بِشَقِّ ٱلْأَنفُسِ] بفتح الشين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾ بِكَسْرِ الشّين.

شِقُّ الأَنْفُسِ، وشَقُّ الأَنْفُسِ: مَشَقَّتُها.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: أي ومن رأفته ورحمته بكم أنْ سخّر لكم هٰذهِ المسخّرات، **رؤوف** صيغة مبالغة لرائف: والرأفة أشد الرحمة.

النصّ التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) أيضاً خطاباً للنّاس:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةًۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصُّ على النُّصوص السَّابقة بيان آيَةٍ من آيات اللّهِ في خَلْقِهِ، وهي إخْرَاجُ اللَّبَن من بُطُونِ الأنْعَام خالصاً سائِغاً للشّارِبين، مِنْ بين فَرْثٍ وَدَمٍ.

الْفَرْثُ: بقايا الطَّعَام في الْكَرِش.

الأنعام: الأموال الراعية، وهذا اللَّفظُ يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، وقد أعيد الضمير عليه في هذه الآية بالتذكير، فقال تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾.

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) أيضاً خطاباً للناس:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾:

فأضاف هذا النَّصُّ بيان أنَّ مِنْ مَنَافِعِ الأَنْعَامِ أنْ يَتَّخِذَ النَّاسُ من جُلُودِها بُيُوتاً، كبيوت الشَّعْرِ لعَرَبِ البادية، وأنْ يَتَّخِذُوا أثاثاً وَمَتَاعاً لهم من أصوافها وَأَوْبَارِها وَأشعارها.

﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾: أي: تجِدونها خَفيفَةً في الْحَمْل والنَّقْل.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾: أي: حين ارتحالكم مُسَافِرِين.

﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾: أي: وحين إقامَتِكُمْ في الأرضِ الّتي تَسْتَقِرُّونَ فيها.

النص الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنُون/٢٣ مصحف/٧٤ نزول):

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

هذا آخر النصوص في مَوْضوع الأنْعام، وقد جاء فيه إيجازٌ عامٌّ لمنافع الناس من الأنعام، الَّتي امْتَنَّ اللَّهُ بها عليهم.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته

❀ ❀ ❀

سُورَةُ ٱلفُرقَانْ

٢٥ مصحف ٤٢ نزول
سورة مكية إلا الآيات
(٦٨- ٦٩- ٧٠) فهي مدنية
فيما روي عن ابن عباس وقتادة



(١)

نص السّورة وما فيها من فرش القراءات

وهي مكية إلّا الآيات: (٦٨ و٦٩ و٧٠) فهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾
ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ
شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ
مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ
لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا
﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ
قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾
قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ
غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ
وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ
نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ
يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا

٨ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [نَأْكُلُ].
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿يَأْكُلُ﴾.

مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن

١٠ ـ • قرأ ابنُ كثير، وابن عامر، وشعبة: [وَيَجْعَلُ لَكَ] برفع «يَجْعَلُ».
وقرأ باقي القرّاء العشرة [وَيَجْعَلْ لَكَ] بجزم «يَجْعَلْ».
وهما وجْهان عربيان جائزان.

١٣ ـ • قرأ ابن كثير: [ضَيْقاً] بإسكان الياء.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ضَيِّقاً﴾ بتشْديد الياء.

١٧ ـ • قرأ ابن كثير، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بضمير الغائب.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نَحْشُرُهُمْ] بنون المتكلم العظيم.

١٧ ـ • قرأ ابن عامر: ﴿فَنَقُولُ﴾ بنون المتكلم العظيم.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَيَقُولُ﴾ بضمير الغائب.

١٨ ـ • قرأ أبو جَعْفَر: [نُتَّخَذَ].
وقرأ باقي القرّاء: ﴿نَتَّخِذَ﴾.

دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟
ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ
فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ
عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ
إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾
۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ
نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾
يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا
مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً
مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ
مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾
ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ

١٩ ـ • قرأ حفص: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بتاء المخاطبين.
وقرأ باقي القراء العشرة: [فَمَا يَسْتَطِيعُونَ].

٢٥ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وابن عامر، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [تَشَّقَّقُ] بتشديد الشين.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشين.

٢٥ ـ • قرأ ابن كثير: [وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ] بضمير المتكلم العظيم، ونصب الملائكة.
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ بالفعل المبني لما لم يُسَمَّ فاعله، وبرفع الملائكة.

عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةًۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾

---

٢٧ ـ • قرأ أبو عمرو: [يَا لَيْتَنِيَ اتَّخَذْتُ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة بإسكان هذه الياء وهما وجهان عربيان.

٢٨ ـ • وقف رويس بهاء السَّكت في [يَا وَيْلَتَاهْ] ووقف باقي القرّاء العشرة بالألف: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾. وهما وجهان عربيان.

٣٠ ـ • قرأ نافع، والبزّي، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، ورَوْح: [إِنَّ قَوْمِيَ اتَخَذُوا] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بإسكان هذه الياء.

٣٠ ـ قرأ ابْن كثير: [القُرَانَ] وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿القُرْءَانَ﴾. وهما وجهان من الأداء.

٣١ ـ • قرأ نافع: [نَبِيءٍ]. وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿نَبِيّ﴾ وهما وجهان عربيان.

وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ

٣٨ ـ • قرأ حفص، وحمزة، ويعقوب: ﴿وَثَمُودَ﴾ على أنه ممنوع من الصرْف، ووقفوا على الدال بالسكون.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَثَمُوداً] على أن اللفظ مصرف، ووقفوا على الألف المبْدَلَةِ من التنوين.

٤٠ ـ • أبدَل همزة الاستفهام ياءً محضةً، نافع، وأبو جعفر، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، ورُوَيْس.

٤١ ـ • قرأ حفص: ﴿هُزُواً﴾.

وقرأ حمْزَة وخلف: [هُزْءاً]. وهي وجوهٌ من الأداء.

٤٤ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، والكسائي، وخلَف: [أَمْ تَحْسِبُ] بكَسْرِ السّين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ بفتح السين. وهما لغتان عَرَبيّان والمعنى واحد.

إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ

---

٤٧ ـ ٤٨ ـ • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإسكان الهاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضمّ الهاء.

وهُما وجهان في النُّطق عربيّان.

٤٨ ـ • قرأ ابنُ كثير: [الرِّيحَ] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالْجَمْع.

ومؤدّى القراءتين واحد، فالإفراد اسم جنس يعُمّ، والجمع يُقْصَدُ به التنويع.

٤٨ ـ • قرأ ابنُ عَامر: [نُشْراً].

وقرأ عاصم: [بُشْراً].

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نُشُراً].

وسيأتي إن شاء الله التوجيه وبيان التكامل الفكري في هذه القراءات.

٤٩ ـ • قرأ أبو جَعْفَر: [مَيِّتاً]. وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مَيْتاً﴾ وهما لغتان عربيّان والمعنى واحد.

٥٠ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [لِيَذْكُرُوا] بإسْكان الذال من فعل «ذَكَر».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِيذَّكَّروا﴾ بتَشْدِيد الذال، أي: لِيَتذَكَّرُوا.

ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ

٥٩ ـ • قرأ ابْنُ كثير، والكسائي، وخلف، [فَسَلْ] وقرأ حمزة كذلِكَ في الوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فاسْأَلْ﴾ بإثبات الهمزة.
وهما وجهان من الأداء.

٦٠ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [يَأْمُرُنَا] بياء الغائب.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تَأْمُرُنَا﴾ بتاء المخاطب.
وبَيْن القراءتَيْن تكامل في الأداء البياني.

٦١ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [سُرُجاً] بالجمع.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿سِرَاجاً﴾ بالإفراد.
وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعْنَىٰ المراد.

٦٢ ـ • قرأ حمزة، وخلَف: [أَنْ يَذْكُرَ] من فعل: «ذَكَرَ».
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ من فعل: «تذَكَّر».

أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ

---

٦٧ ـ • قرأ نافع، وابنُ عامر، وأبو جعفر: [وَلَمْ يُقْتِرُوا] من فعل: «أَقْتَر».
وقرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، ويَعْقُوب: [وَلَمْ يَقْتِرُوا] مِنْ فعل: «قَتَرَ يَقْتِرُ» كضربَ يَضْرِب.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ من فعل: «قَتَرَ يَقْتُرُ» كنَصَرَ يَنْصُر.
وهي وجوه عربية.

٦٩ ـ • قرأ ابنُ كثير، وأبو جَعْفَر، ويعقوب، بالجزم في فِعْلَي: [يُضَعَّفْ] و [يَخْلُدْ].
وقرأ ابن عامر فيهما بالرَّفع: [يُضَعَّفُ] و [يَخْلُدُ].
وقرأ شعبة فيهما: [يُضَاعَفُ] و [يَخْلُدُ] بالرَّفع.
• وقرأ باقي القرّاء العشرة فيهما: ﴿يُضَاعَفْ﴾ و ﴿يَخْلُدْ﴾ بالجزم.

٦٩ ـ • قرأ بصلة هاء الضمير في: ﴿فِيهِ مُهَاناً﴾ ابن كثير وحفص.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بترك صلة هاء الضمير، وهما وجهان من الأداء.

صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

٧٤ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ بالجمع.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَذُرِّيَّتِنَا] بالإفراد.
ومؤدّى القراءتين واحد.

٧٥ ـ • قرأ شعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [وَيَلْقَوْنَ] من فعل: «لَقِيَ يَلْقَىٰ».
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾: من فِعْلِ «لَقَّاهُ يُلَقِّيه».
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذْ هُمْ يُلَقَّوْنَ، فيَلْقَوْنَ.

(٢)
مما جاء في السنة حول سورة (الفرقان)

روى البخاري ومسلم وغيرهما (واللفظ للبخاري) أنّ عمر بن الخطاب قال:
سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة (الفرقان) في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقْرِئنيها رسول الله ﷺ، فكدتُ أُسَاوِرُه[1] في الصلاة، فانتظرته حتّى سلَّم، ثمَّ لبَّبْتُه بردائه أو بردائي فقلت:

---

(١) أُساوِرُه: أي: أثب إليه مغاضباً.

مَنْ أَقْرَأَكَ هذِه السورة؟

قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ.

فقلت له: كَذَبْتَ، فوالله إنَّ رسول الله أقرأني هذه السورة التي سمعتُك تقرؤها، فانطلقْتُ أقودُه إلى رسول الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنِّي سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروفٍ لم تُقْرِئنيها، وأنت أقرأتني سورة (الفرقان).

فقال رسول الله ﷺ: «أرسلْهُ يا عُمَر، اقْرأْ يا هشام».

فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرَؤها.

قال رسول الله ﷺ: «هكذا أُنْزِلَت».

ثمّ قال رسول الله ﷺ: «إنّ هذا القرآن أُنزِل على سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فاقْرَؤُوا ما تيسَّرَ منْهُ».

هذا الحديث هو أحد الأدلّة على موضوع القراءات، ونزول القرآن على سبعة أحرف.

والأحرف السبعة هي لهجاتُ أداءِ الألفاظ القرآنيَّة، تَسْهيلاً على أَلْسِنَةِ قبائل العرب الّذين كانت أَلْسِنَتُهُمْ لَا تُطَاوِعُهُمْ علَىٰ النُّطقِ بها وَفْقَ لهجة قريش.

وَقد أَحْصَىٰ عُلَمَاءُ الْقِرَاءَاتِ الرِّوَايَاتِ الصّحِيحة منها، وهي موجودةٌ مُدَوَّنَةٌ محفوظةٌ بمَا يُعْرَفُ عِنْدهم بالْقِرَاءَاتِ الْعَشْر المتَواتِراتِ.

❁ ❁ ❁

(٣)
موضوع السورة

يدور موضوع السورة حول كليات كبرى من عناصر القاعدة الإيمانية، وحال الناس في مرحلة نزول السورة تجاهها مع التوجيه والتربية والمعالجة.

البحث الكلّي الشامل لآيات سورة (الفرقان) دلّ على أن موضوعها يدور حول كلّيات كبرىٰ من عناصر القاعدة الإيمانيَّة تتعلّق بالله الربّ الخالق عزَّ وجلّ، والقرآن المنزّل من لَدُنه، وبالرسول المبلّغ له ثم الدعاة من بَعْده، وبالمرسَلِ إليهم إبَّان التنزيل ويُلْحق بهم من بعدهم.

فالعنصر الأوّل: جاء في السورة حوله بيان توحيد الربوبيّة لله عزَّ وجلّ، وما يلزم عنه عقلاً من توحيد الإلٰهيّة له تبارك وتعالى، وواجب عبادته وحده لا شريك له، وموقف الذين كفروا من هذه القضايا، والمعالجة الرّبانيّة لهم حولها.

والعنصر الثاني: وهو القرآن، فقد جاء في السورة حوله بيان أنّه مُنزَّلٌ من عند الله على رسوله محمّد ﷺ، وبيان موقف الذين كفروا منه، وبعض مقالاتهم بشأنه، مع المعالجة الرّبانية.

والعنصر الثالث: وهو الرسول ثم الدعاة من بعده، فقد جاء في السورة حوله بيان إثبات نبوّة محمّد ورسالته، وأنّ رسالته عامّة للعالمين، وبيان موقف الذين كفروا منه، وشبهاتهم حوله، واتهاماتهم له، ومقترحاتهم حول ما يرون بالنسبة إلى وسيلة تبليغ الله دينه للنّاس، لو شاء الله أن يُرْسل رسولاً، وجاء فيها المعالجة الرّبانية حول هذه القضايا، مع تربية الرسول وتسليته. وبيان وظيفته، والإشارة إلى الحكمة القاضية بعموم رسالته باعتبارها الرسالة الخاتمة. ثم بيان واجب الدّعاة الذين

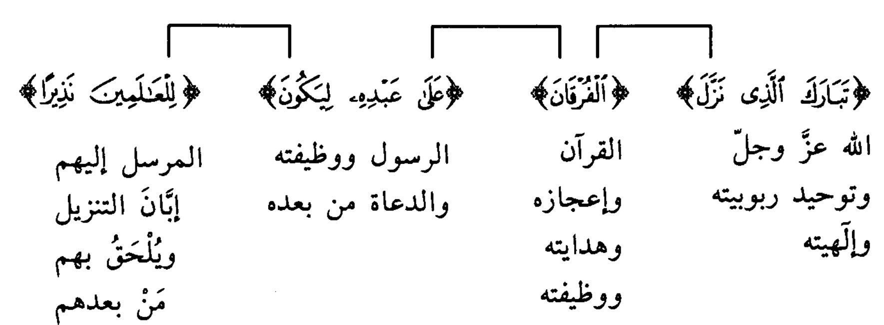
يحملون وظيفة الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من بعده، وما ينبغي أن يتحلَّوْا به من صفاتٍ حتى يكونوا بحقٍّ عباد الرحمن وأئمةً للمتقين.

والعنصر الرابع: المرسل إليهم إبّانَ التنزيل، وهم ينقسمون إلى منكرين جاحدين يطرحون جَدَليّات ومقترحَات، وآخرين مؤمنين متبعين، وهؤلاء قسمان رئيسان: متقون، وأئمة المتقين، إذ هم أبرار أو محسنون يحملون لقب «عباد الرحمن» ويلحق بهذه الأقسام أمثالهم عبر التاريخ.

وقد جاء في سورة (الفرقان) بيان الطور الذي وصل إليه مشركو مكة إبّان نزولها، ومواقفهم من قضايا الإيمان بالله ووحدانيته وصفاته، والإيمان بالقرآن وما جاء فيه، والإيمان بالرّسول وبلاغاته، وبيان طائفة من الإنذارات للكافرين، والبشريات للمؤمنين، والمعالجات الفكرية والنفسيّة.

ونجد هذه العناصر الأربعة مشاراً إليها في الآية الأولى من السورة، كأنّها تحدّد خُطُوطَ مَسِير آيات السورة حول هذِه العناصر، فيقولُ الله عزَّ وجلّ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾.



فالسورة تسير ضمن أربعة خطوط، وقد وُزّعَتْ فقراتُها على هذه الخطوط توزيعاً مفرّقاً، وآياتُها كمصابيح مدلّاةٍ من خطوط فكريّة غير منظورة في اللّفظ، كالرسم البياني التالي:

كلّيات كبرى من عناصر القاعدة الإِيمانية (في الآية الأولى)

الله
- الآيتان ① ②
- والآيات من (٤٥ ـ ٥٠)
- والآيات من (٥٣ ـ ٥٥)
- والآيات من (٥٩ ـ ٦٢)

القرآن
- الآيات من (٤ ـ ٦)
- وبالمشاركة مع الرسول في
- الآيات من (٣٠ ـ ٣٣)

الرسول والدعاة من بعده
- الآيات من (٧ ـ ١٠)
- ومن (٢٠ ـ ٢١)
- وبالمشاركة مع القرآن في الآيات من (٣٠ ـ ٣٣)
- ومن (٤١ ـ ٤٤)
- ومن (٥١ ـ ٥٢)
- ومن (٥٦ ـ ٥٨) وصفات الدعاة ونحوهم
- من (٦٣ ـ ٧٦)
- وآية (٧٧) في آخر خطاب للكافرين

المرسل إليهم
- الآيات من (١١ ـ ١٩)
- ومن (٢٢ ـ ٢٩)
- ومن (٣٤ ـ ٤٠) وبعض الآية (٤٢)



(٤)
بيان أطوار مواقف مشركي مكّة تُجاه عناصر موضوع السورة منذ بدء البعثة المحمّديّة حتىٰ نزول سورة الفرقان

دلّ استقراء وسَبْرُ معاني النصوص القرآنية النازلة قبل سورة (الفرقان) حتَّى نزولها على أنَّ مشركي مكة ومن ذهب مذهبهم ورأىٰ رأيهم، قد تطوّرت مواقفهم كما يلي:

الطَّور الأول: طور كان مع بدء الدعوة، إذ ظهرت محاولاتٌ أولَىٰ من بعضِ أفرادهم لمنع الرسول من الصلاة، وصدّه عنها، لئلا يفتتن الناس بصلاته، فيتبعوا دينه، وكان ذلك من أبي جهل، عَمْرو بْنِ هشام بن المغيرة المخزومي وطائفة من ملأ قريش.

دلّ على هذا الموقف قول الله عزَّ وجلّ في سورة (العلق/٩٦ مصحف/ ١ نزول):

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾.

الطور الثاني: ثم ظهر طورٌ بَرَزتْ فيه ظاهرتان:

الأولى: رغبة أكثر قيادات المشركين أن يداهنهم الرّسول في عقائدهم حتى يداهنوه فيما يدعو إليه.

الثانية: اتّهام بعض المشركين له بالجنون، مع اتخاذ وسيلة الهمز والنميمة وقول بعضهم عن القرآن: أساطير الأولين.

دلّ على هاتين الظاهرتين بعض ما جاء في سورة (القلم/٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

وقوله تعالى فيها لرسوله:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

الطور الثالث: ثمّ برزَ في كُفَّار مكّة بعضُ أصحاب الدّعايات الإعلاميّة المضادّة، وكان ذلك إبّان نزول بعض سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) إذْ جاء فيها عن الوليد بن المغيرة قول الله عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌۭ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

والدعاية الإعلاميّة في هذا هي اتّهام القرآن بأنه سِحرٌ يؤثر، وبأنّه قول البشر، ويظهر أنَّ هذا القسم نزل بعد نزول سورة القلم والله أعلم.

الطور الرابع: ثم برزَ طورُ بعضِ الحركاتِ العدائية القولية والعمليّة الفرديّة، دلّ عليه ما جاء في سورة (المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول) وما اشتملت عليه من الإشارة إلى أقوال وأعمال أبي لَهَبٍ وامرأته حمّالة الحطب.

الطور الخامس: ثمّ برز طَوْر تصيُّدِ بعض ما يمكن أن يُثِير بعضهم به حرْباً إعلاميّةً ضدّ دعوة الرسول ورسالته، وكان ذلك إبّان نزول سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول) إذْ قالُوا: إنَّ محمّداً قلاه ربّه.

الطور السّادس: ثمّ برز طورُ ظهورِ بعضِ المجاهرين ببغض الرسول محمد ﷺ، وكان ذلك إبّان نزول سورة (الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٥ نزول) إذْ جاء فيها قول الله لرسوله:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

أي: إنَّ مُبْغِضَكَ هو المقطوعُ من الخير الحقيرُ الذليل الخبيث.

الطور السَّابع: ثم بَرَزَ طَوْرُ المفَاوضَاتِ الاسْتِدْراجِيّة للرسول ﷺ، عسىٰ أن يتنازل عنْ بَعْضِ دَعْوَتهِ، وكانَ ذلك إبّان نزول سورة (الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول).

الطّور الثامن: ثم دارت حركات الحسد، ورغبات الكيد سرًّا، مع إطلاق الوساوس في صدور الناس، الصادّة عن دين الله، واتباع الرسول وكان ذلك إبّانَ نزول سورتي (الفلق/ ١١٣ مصحف/ ٢٠ نزول) و(الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول).

الطور التاسع: ثم برزَ طَوْر إعْلان التعجُّبِ من مبادئ التوحيد، وأنباء يوم الدّين، وأنباء رحلَتَي الإسراء والمعراج المعجزتين، وكان ذلك إبّان نزول سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) إذْ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

سامدون: أي: لاهون لاعبون، غافلون، مشتغلون بالغناء، متكبّرون بَطِرُون، جَامِدُون لا تَتَأَثّرون، أغبياء، مُتَحَيِّرون.

الطور العاشر: ثم برز طَوْرُ فتنةِ بعضِ جَبَابِرَةِ مُشْركي مكَّةَ لعبيدهم وإمائهم، بالتعذيب الشديد، لإكراهم على ترك الدِّين الذي آمنوا به، واتَّبعوا فيه رسول الله محمّداً ﷺ، وكان ذلِكَ إبّانَ نزول سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول).

وبدأ في هذا الطور استغراق هؤلاء الجبابرة في التكذيب، حتَّى كأنّ التكذيب محيط بهم.

دلّ على هذا الطور قصة أصحاب الأخدود الّتي جاءت في هذه السورة، وقول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

الطور الحادي عشر: ثمّ برز طورُ الْهَمْز واللّمزِ والطّعن الخفيّ للرّسول والذين آمنوا معه، من قِبَلِ ذوي الغنى والوجاهة من ملأ كفّار قريش، وكان ذلك إبّانَ نزول سورة (الهمزة/ ١٠٤ مصحف/ ٣٢ نزول).

الطّورُ الثاني عشر: ثمَّ برز طورُ إطلاقِ عباراتِ التكذيبِ الصريح العلَني الجازم، والاتّهام العلَني للرسول ﷺ بالافتراء على الله، وكان ذلك إبَّان نزول سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول): إذْ جاء في صدرها قول الله عزَّ وجلّ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

وجاء في أواخِرِهَا قول الله لرسوله:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

الطور الثالث عشر: ثمّ برز طورُ اتخاذِ أئمّة الكفر في مكة رسُول ربّهم فيها هَدَفاً وغَرَضاً، مُسْتَحِلِّين في البلَدِ الحرام إيذاءَهُ، غير مكترثين له، ولا عابئين بحرمة البلد الحرام الذي يعتقدون وجوب تقديسه والمحافظة على حرمته، ولكنّ ذلك لم يصِلْ إلى إعلان المواجهة بالقوّة الغالبة ذات السلطان، وكان ذلك إبّان نزول سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول).

دلّ على هذا الطور قول الله عزَّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾.

حلٌّ بهذا البلد: أي: قد اتّخذك بعض أئمته هدفاً وغرضاً، حتى صاروا يستحلُّون إيذاءك ورَمْيَ سِهَامهم إليك.

الطور الرابع عشر: ثمّ بَرَز طَوْرُ تدبير مَلأ كفّار قريشٍ المكايد ضدّ الرسول والذين آمنوا معه، وكان ذلك إبّان نزول سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول).

دلّ على هذا الطور قول الله عزَّ وجلّ فيها لرسوله:

﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ۝١٧﴾.

الطّور الخامس عشر: طَوْرٌ بَرزَ فيه الإِصْرارُ الْعَنيد علىٰ رَفضِ تصديق الرسول مع ظهور آية انشقاق القمر بناءً على طلَبهم أن يُريهم آيةً مادِّيّةً، وطورُ التوجُّه لإِعداد العدّة بغية التخلّص من الرسول ودعوته، خوف انتشارها، ووصول الذين يؤمنون بها إلى مستوى يعجز الذين كفروا عن قَمْعِه والانتصار عليه، وكان ذلك إبّان نزول سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول).

دلّ على هذا الطور ما جاء فيها مما هو مدنيّ التنزيل مكيُّ المناسبة، وهو قول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ۝٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾.

الطور السادس عشر: طورٌ بَرَزَ فيه استعراضِ القوى المادّية الغالبة، وإظهار العداء للرسول والذين آمنوا معه، وطورُ الوقوفِ في شِقٍّ مَنْ يَهُمُّ بأنْ يُعْلِنَ حرْباً، إذا استدعى الأمر ذلك، وكان ذلك إبّانَ نزول سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

دلّ على هذا الطور قول الله عزَّ وجلّ في صَدْرِها:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

ورافق هذا الطور إعلان الحرب الكلامية ضدّ الرسول ودعوته، فشتموا الرسول بأنّه ساحر كذّاب، وبأن له أغراضاً دنيوية خاصة من دعوته إلى التوحيد، وطرحوا التشكيك حول إمكان اختياره من دونهم لإنزال القرآن عليه.

نجد ذلك في الآيات الأولى من سورة (ص) نفسها:

﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا . . . ۝٨﴾.

الطور السّابع عشر: طَوْر ظهر فيه تجمُّع قيادات المشركين في مكة ضدّ الرسول حتى كادُوا يكُونُون عليه لبداً، وكان هذا الطَّوْر إبَّانَ نُزولِ سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).

الطور الثامن عشر: وكان إبّانَ نزول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) إذ تابع الذين كفروا الحربَ الكلاميَّة وتوجيه الشتائم للرسول، فقالوا عن القرآن: هو إفْكٌ، واتَّهموا الرسول بأنّه افتراه، وأعانه عليه قومٌ آخرون، وقالوا أساطير الأوّلين اكتَتَبها فهيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بكْرَةً وأصيلاً، وأثاروا جدليات، وقدّموا مقترحات، وقالوا للذين آمنوا: إنْ تَتَّبِعُونَ إلّا رجُلاً مَسْحُوراً.

وكان موقفهم هذَا لَهُ صفةُ التحرُّكِ الْجَماعي، لا الأعمال الفرديّة المتناثرة.



(٥)
دروس سورة الفرقان

تشتمل هذه السّورة على أحَدَ عَشَر درساً، موزَّعةً على فروع شجرة موضوعها توزيعاً بديعاً.

الدرس الأوّل:

يشتمل على بيانٍ لفُروع شجرة موضوعها، وهي تتعلّق بما يلي: (الله ـ القرآن ـ الرّسول ـ المرسل إليهم». وهذا الموضوع مبيّن في الآية الأولى من السورة.

ويشتمل على بيان ثلاث صفات عظمىٰ من صفات الله جلّ جلاله وعظم سلطانه، وهو في الآية الثانية من السورة، وهذه الصفات هي:

(١) ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

(٢) ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.

(٣) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾.

(٤) ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

وهذا يتعلّق بالفرع الأوّل من فروع موضوع السّورة.

ويشتمل على بيان أنّ المشركين (وهم القسم الهابط من المرسَلِ إليهم، الفرع الرابع من فروع موضوع السّورة) قد اتخذوا من دون الله آلِهَة، لا يخلقون شيئاً، وهم يُخْلَقُونَ، ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وهو في الآية الثالثة من السّورة.

وظاهرٌ أنَّ هذا الدرس يتعلّق بالفرع الأول من فروع موضوع السورة، مع قسم هابط من الفرع الرابع من فروع موضوعها، وهو قسم المشركين، وعقيدتهم حول الفرع الأول.

وهو الآيات من (١ ـ ٣).

الدرس الثاني:

يشتمل على بيان بعض الأقوال الافترائية التي قالَها قسم الكافرين الهابط من الفرع الرابع من فروع شجرة موضوع السورة (المرسل إليهم) بشأن القرآن (الفرع الثاني من فروع شجرة موضوعها) مع بيان بطلان أقوالهم، بطريقة يُدْركها الفطناء العقلاء.

وهو الآيات من (٤ ـ ٦).

الدرس الثالث:

يشتمل على بيان بعض الأقوال الاعتراضيّة والاقتراحيّة الّتي قالها قسم الكافرين الهابط، من الفرع الرابع من فروع موضوع السورة، بشأن الرسول (الفرع الثالث من فروع موضوعها).

مع بيان فساد أقوالهم بطريقة يدركها الفطناء العقلاء.

وهو الآيات من (٧ ـ ١٠).

الدرس الرابع:

يشتمل على بيان العلَّة النَّفْسيَّة لقسم الكافرين الهابط، من الفرع الرابع من فروع موضوع السورة، وأنّها ليْسَتْ قائمة على شكوك حقيقيّة، في الله، والقرآن، والرَّسُول، بل دافِعُها تكذِيبُهم بالسَّاعة الّتي يكون عندها بعثهم للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

ويشتمل على تقديم مشهد من مشاهد يوم الدين، المثيرة للرَّهب في قلوب أولي الألباب، من السّعِير في دار عذاب المجرمين.

ويشتمل على تقديم مشهد من مشاهد يوم الدّين، المثيرة للطّمع في قلوب أولي الألباب، بجَنَّةِ الخلْد الّتي وُعِدَ المتقون.

ويشتمل على عرض مشهد من مشاهد يوم الدّين، يتضمّن بيانَ سؤال الله للآلهة، الّذين كان المشركون في الدنيا يعْبُدونهم من دُون الله، وما يكون منهم من تنزيه الله، وتبرُّئِهِم من الذين كانوا يعبُدُونهم، وما يكون فيه من توجيه الخطاب للمشركين بأنهم كانوا هم المجرمين، إذْ كانوا يفترون على الله، وأنهم كاذبون في ادّعاء أنّ شركاءهم هُمُ الذين أضَلُّوهم.

إذن: فعليهم أن يُلاقوا عذابهم الذي كانوا يوعَدُونه.

وهو الآيات من (١١ ـ ١٩).

الدرس الخامس:

يشتمل على بيانٍ للرسول ﷺ (الفرع الثالث من فروع شجرة موضوع السورة) والمقصودُ به الرّدّ على تشكيك الكافرين برسالته، متعلِّلين بذَرِيعَة أنّه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لكسب معايشه، كسائر البشر.

ويشتمل على إقناعٍ وتسليةٍ للرَّسُول ﷺ وللمؤمنين، بأنّ من عناصر الابتلاء في الحياة الدنيا ابتلاء بعض الناس ببعض، وأنّ المطلوب منهم في هذا الابتلاء أنْ يصْبِرُوا، لينالوا أَجْرَ صَبْرِهم عند رَبّهم ثواباً عظيماً.

وهو الآية (٢٠) من السورة، وهذا الدَّرس يتعلّق بالفرع الثالث مِنْ فروع شجرة موضوعها (وهو الرَّسول) مع القِسْم الهابط من الفرع الرابع (وهم الكافرون الذين يؤذون الرسول والمؤمنين).

الدرس السادس:

يشتمل على عرض بعض أقوال الكافرين منكري الحياة الأخرى، الّتي يقترحون فيها إنزال الملائكة إليهم، واصطفاءهم بالوحي، كما اصطفى الله رسوله محمّداً، وهم القسم الهابط من الفرع الرابع من فروع موضوع السورة (المرسَلُ إليهم).

ويشتمل على إنذارهم بأنّهم حين يَرَوْنَ الملائكة عند موتهم، وبعد موتهم، ويوم الدين، فإنَّهم يلقَوْنهم مُعَذِّبين لهم، فلا بُشْرىٰ لهم، بخلاف أصحاب الجنَّة الّذين يكونُونَ يومئذٍ في سعادة برُؤيتهم لملائكة الرَّحمة.

ويشتمل على بيان الندم العظيم الذي يكون فيه الظالمون يوم الدين.

وهو الآيات من (٢١ ـ ٢٩).

الدرس السابع:

يشتمل على بيان شكوى الرسول ﷺ لربّه، بشأن اتخاذِ معظم قومه القرآن مهجوراً، مع كتمانه شكواه من عداوة مجرمي قومه له، ومعالجة الله ذلك بغاية العلاج الحكيم.

ويشتمل على بيان اعتراض الكافرين على تنزيل القرآن منجّماً، ومطالبتهم أن ينزل جُمْلَةً واحدة، مع بيان أن الحكْمَةَ اقتضت تنزيلَهُ منجّماً.

ويشتمل على إنذار الله للكافرين، بأنّهم إذا اسْتَمَرُّوا على كفرهم، وعنادهم، وإيذائهم لرسول ربّهم وللذين آمنوا به واتَّبَعُوه، أنزل الله بهم الهلاك كما أنزله على فرعون وملئه وجنوده، وعلى قوم نوح وعلى عادٍ وثمود وأصحاب الرَّس وقوم لوط، وغيرهم من مجرمي الأمم الغابرة.

ويشتمل على بيان مواقف الكافرين الاستهزائية بالرَّسول، وعلى بعض مقالاتهم، مع المعالجة الرَّبَّانية.

وهذا الدرس يتعلّق بالقسم الهابط من الفرع الرابع من فروع شجرة موضوع السورة «وهو المرسل إليهم» وبالفرع الثالث «وهو الرسول».

وهو الآيات من (٣٠ ـ ٤٤).

الدرس الثامن:

يشتمل على أدلّة من ظاهرات الكون تَدُلُّ على ربوبيّة اللّهِ الواحد

الأحد، وهي تتعلّق بالفرع الأول من فروع شجرة موضوع السورة، والمقصود بتوجيهها القسم الهابط من الفرع الرابع «وهو المرسل إليهم».

ويشتمل على علاج لهم بشأن بعض مقترحاتهم، وعلى بيان شركهم الباطل، إذ يعبُدونَ ما لا ينفعهم ولا يضُرُّهم، وعلى بيان أنهم يظاهرونَ عدوّ الله إبليس وجنوده من الجنّ والإنس.

ويشتمل على تربية الله رسُولَه بأن لا يطيع الكافرين، وعلى تعليم له بأن يُعْلِن لهم أنّه لا يسْألهم أجراً، وبأن يتوكَّلَ في قيامه بمهمَّاتِ رِسالته ووظائفها على ربه الحيّ الذي لا يموت، وبأن يَسَبّح بحمْدِ رَبّه، وبأن لا يهتمَّ لكُفْر الكافرين، فالله بصير بهم.

وهذا الدرس يتعلّقُ بالقسم الهابط من الفرع الرابع «وهو المرسل إليهم» مع الفرع الثالث «وهو الرسول» من فروع شجرة السُّورَة.

وهو الآيات من (٤٥ ـ ٥٨).

الدرس التاسع:

يشتمل على بيان كون الله الخالق للسماوات والأرض الذي يؤمن المشركون بكونه خالقاً لهما، هو الرحْمٰن الذي كان المشركون ينكرون كونه رَحْمَاناً، مع إقامة الدّليل الدالّ على رحمته جلّ جلاله بعباده.

وهو درس يتعَلَّقُ بالقسم الهابط من الفرع الرابع «وهو المرسل إليهم».

وهو الآيات من (٥٩ ـ ٦٢).

الدرس العاشر:

يشتمل على بيان صفات عباد الرحمن المرشّحين لأنْ يكونوا أئمةً للمتقين، والمتقون وأئمتهم هما القسمان الكريمان الشريفان الصاعدان من

الفرع الرابع من فروع شجرة موضوع السورة، وأئمة المتقين هم أهل مرتبتَي البرّ والإحسان.

وهي الآيات من (٦٣ ـ ٧٦).

الدرس الحادي عشر:

درس تعليميّ للرّسُول ولكل داع إلى الله من أُمته، بأسلوب التعليم الإفراديّ، أنْ يقول للكافرين المصرّين على كفرهم: ما يعبأُ بكُفْرِكُمْ رَبّي، مهما كفرتم، لأنّكُمْ لَا تَضُرُّونه شيئاً.

ولولا عنايتهُ بدَعْوَتكم إلى سلوك الصراط المستقيم الذي تنالُون بسُلُوكه السّعادة الأبديّة، لأهملكم ولم يَعْبأُ بكم، نظراً إلى أنكم كذَّبتم بالحقّ الذي جاءكم من رَبّكم جحوداً وعناداً، وإلىٰ أنّ جزاء هذا التكذيب سوف يكون ملازماً لكم.

وهو الآية الأخيرة (٧٧) من السورة.

وبهذا تنتهي دروس السورة.



(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الأوّل من دروس السورة
وهو الآيات من (١ ـ ٣)

قال الله عزّ وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

تمهيد:

هداني الله بالتأمُّل إلى أنّ موضوع السّورة مشارٌ إِلَيْهِ بالآية الأولى منها.

(١) وعُنْصُر توحيد الرُّبوبيَّة والإِلَهيَّة للَّهِ عزّ وجلّ وما يتعلّق به، قد جاءت الإشارة إليه في قول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾.

(٢) وعُنْصُر القرآن المنزّل كتاباً من عند الله، والمشتمل على أصول الدّين وكليّات فروعه، وما فيه من بيانات أخرى ربّانية، قد جاءت الإشارة إليه في قول الله تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

(٣) وعنصرُ الرّسُول محمّد ﷺ، وعموم رسالته، وما يتعلّق به من بيان وظيفته ووظيفة الدّعاة إلى سبيل ربّهم من بَعْدِه، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وما يَنْبغي لهم أن يتحلّوا به من صفات، قد جاءَت الإشارة إليه في قول الله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ﴾.

(٤) وعُنْصُر المرْسَلِ إليهم، ومواقفهم من قضايا الإيمان بالله، ووحدانيته، وسائر صفاته، بدءاً من المعنيِّين الأوّلين إبَّان التنزيل، والإيمان بالقرآن وما جاء فيه، والإيمان بالرسول وبلاغاته، وبيان طائفة من الإنذارات للكافرين، والبشريات للمؤمنين، مع المعالجات الفكريّة والنفسيَّة، قد جاءت الإشارة إليه في قول الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ولـمَّا كان الإِنْذَارُ بعذاب الله للكافرين، الذين يَرْفضونَ الاستجابة لدعوة الحقّ الرَّبَّانيّة، إنَّما يكون بعد التّبليغ والبيان، واتّخاذ وسائلِ الإقناع

بالحكمة والنُّصْح والإرشاد والتذكير، وبعد الترغيب بالسعادة العاجلة والآجلة، لمن استجابَ فآمَنَ وأسْلَمَ وأطاع، كانَ ذكْرُ الإنْذَارِ الذي يكون في آخِرها بحَسَبِ سلسلة الترتيب الطبيعيّ، دليلاً عليها عن طريق تتبُّع اللّوازم العقلية، فهي من المطويات في الآية، والتي تدلُّ عليها دلالَةً عقليَّةً عبارة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

أي: ليكون للعالمين مبلّغاً، ومبيّناً، وشارحاً، ومتّخذاً وسائل الإقناع بالحكمة والنُّصْحِ والإرْشاد والتذكير، وواعظاً بالترغيب بالسَّعادة العاجلة والآجلة، لمن استجاب لدعوة الحقّ الرّبانيّة، فآمن وأسلم وأطاع واتَّبَعَ رضوان الله باتّباع رسوله.

ثم ليكون نذيراً بعذاب الله يومَ الدّين، مع احتمال عذاب معجّل في الدنيا، لمن عاند مكابراً جاحداً، متّبعاً أهواء نفسه وشهواتها من زِينات الحياة الدنيا، ومؤثراً العاجلة علَىٰ الآجلة، ومُتَّبِعاً خطواتِ الشيطان وجنوده من الجنّ والإنس، ومستجيباً لوساوسهم وتَسْويلاتهم.

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾:

﴿تَبَارَكَ﴾: على وزن «تفاعل» من البركة، والبركة في اللّغة: هي النَّمَاء والزيادة، سواءٌ أكانت مادّيّة تُدْرك بالحواسّ الظاهرة أمْ غير مادّيّة ممّا يُدرَك بالحواس الباطنة، وقال الزجاج: البركة هي الكثرة من كلّ خير.

أقول: البركة وكلّ تصاريف هذه المادّة في نصوص القرآن والسنّة تدلّ على الزيادات التي تأتي من وراء المنظور، دون أن تُدْرَكَ لها حدود، فهي فيض من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، أو زيادات في عالم الغيب بلا حدّ.

وفي عبارة ﴿تَبَارَكَ﴾ فعلاً ماضياً فاعله: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ وهو الله عزّ وجلّ، ثناء من الله عزَّ وجلّ على نفسه ليُعلّمنا صفاته، وليقدّم لنا الدليل عليها من آياته في كونه، وفيما أنزل من كتابه، فيصف نفسه بأنه ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تنامَىٰ وتزايد وتعاظم بالإطلاق العامّ عن كلّ ما يصفه به الواصفون من كمالات، والمعنى أنَّ كلَّ واصفٍ يَصِفُه بكمال ما فهو جلّ جلالُه أكثر وأعظم وأكبر.

وهذا يدُلُّ على أنَّه متّصفٌ بكلّ صفاتِ الكمال، ويلزم عقلاً من اتّصافه بصفات الكمال تنزُّهُه سبحانه عن كلّ صفات النقصان.

فمن كماله أنّه لا شريك له في ربُوبيَّته، فلا شريك له في الملك، ومن كماله أنّه لا ولد له ولا صاحبة، ومن كمال صفاته كمال علمه وقدرته وإرادته وحكمته، وهكذا إلى سائر صفات الكمال.

﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول، وهو كناية عن موصوف لم يُقْصد إلى ذكر اسمه، وإنما قُصِدَ إلى ذكر صفته التي تظهر في الجملة التالية له، أو شبه الجملة، والتي هي صلةُ الموصول.

والمعنى: تَبارَكَ الغيبيُّ عن حواسّكُم الظاهرة الذي دلّت عليه وعلى صفاته وأسمائه الحسنىٰ آياتُهُ فيما أَنْزل على رسوله محمّد من كتاب هو فرقان، وفيما خلق وبرأ من كائنات تشاهدونها، وتُدْرِكون بعقولكم أنّها آثار خالقٍ له كلُّ صفات الكمال، وهو منزَّهٌ عن كلّ صفات النقصان، فهو الذي له الحمدُ كلُّه، والثناءُ كلُّه لأنَّه تبارك في كلّ وصف كمال، وهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كلّ شيء، وأكمل من كلّ ذي كمال، وهو منزَّه عن كلّ نقص.

فعْل «نَزَّلَ» مثل فِعْلِ «أنزل».

فِعْلُ ﴿نَزَّلَ﴾: مثلُ «أنزل» وما يُقالُ من التفريق بين «نَزَّلَ» و«أَنْزَلَ» لم يُثْبِتْه الاستقراء والسَّبْرُ لما جاء في القرآن من فِعْلَيْ أنزل ونزّل.

فقد جاء في القرآن استعمال فعل «أنزل» للقرآن، كما جاء فيه استعمال فعل «نزّل»، فمن ذلك ما يلي:

(١) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾.

(٢) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ... ۝١٠٥﴾.

والإنزال والتَّنْزيل معلوم، وهو يُفيد أنَّ الفاعل المنزل هو في مكان العلوّ، ومن العقائد الإيمانية في الإسلام أنّ الله عزَّ وجلّ هو المتعالي، وهو العليّ الأعلى. وهو يُفيد أيضاً أنَّ المنزَّلَ عليه هو في المكان المقابل لجهة العلوّ، فهو في الجهة الدنيا.

وبناء على هذا فكلّ عطاءٍ من عطاءات الرُّبوبيّة تنزيلٌ، لأنّ الله عزَّ وجلّ لا يُشَاركه في علوّه أحد، والكلُّ مخلوق له، فكلُّ عطائه تنزيل وإنزال، سواءٌ أكان ذلك العطاء مادّيًا مُحَسًّا، أمْ معنويًّا مُدرَكاً بالعقل، ولذلك جاء في القرآن المجيد التعبيرُ بالإنزال والتنزيل بجانب كثير من العطاءات الرّبّانيّة، للإعلام بأنّ عطاءاته كلَّها تنزيل، مثل:

(١) قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿... وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ... ۝٦﴾.

(٢) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ... ۝٤﴾.

(٣) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ... ﴿١٧﴾﴾.

(٤) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لبني إسرائيل:

﴿... وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ... ﴿٥٧﴾﴾.

(٥) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ... ﴿٢٦﴾﴾.

(٦) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿... وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ... ﴿٢٥﴾﴾.

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: مصدَرُ فَرَقَ، تقول لغةً: فَرَقَ بينَ الشيئين أو الأشياء يَفْرُق فَرْقاً وفُرْقاناً إذا فَصَل وميّزَ بينهما، وفَرَقَ بين الخصوم إذا حكَمَ وفَصَل. وفرَق بين المتشابِهَيْنِ إذَا بيّن أوجُه الخلاف بينهما، وهكذا.

وقد أُطلق لفظ الفرقان هنا مراداً به القرآن المجيد، فهو أحد أوصافه، حتَّى اشتَهَرَ اسماً من أسمائه.

وقد وصف الله عزَّ وجلّ القرآن بهذا الوصف لأنَّه يَفْرُقُ بين الحقّ والباطل، وبين الخير والشر، وبين الهدى والضلال، وبين الغيِّ والرَّشاد، وبين الحلال والحرام وسائر الأحكام، وبين ما أمر الله به وما نهى عنه، ويَفْرُقُ بين المتشابهات، ويُبيّن لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه، وما دخل في كُتبِهم وعقائدهم وشرائعهم من تحريفات عمّا أنْزَلَ اللّهُ إليهم.

وفي وصف القرآن بأنّه فرقان إشارةٌ إلى ما في القرآن من إعجازٍ فُرقانِيّ لا يمكن أن يأتي بمثله بشر، وأنّ هذا الإعجاز الفرقاني فيه دليلٌ على كمالِ مُنَزِّلِه، في صفات الربوبيّة وصفات الإلَهيّة، ودليلٌ أيضاً على أنّ المبلّغ له عن ربّه صادقٌ في أنّه نبيٌّ ورسولٌ وأمينٌ فيما يبلّغ عن الله عزَّ وجلّ.

وقد أُطْلِقَ لفظُ الفرقان في القرآن على النصر الذي وهبه الله للرسول والذين آمنوا معه على المشركين يوم معركة بدر، لأنّ هذا النصر قد فرق بين الحقّ والباطل، فأبان أن الرسول والذين آمنوا معه هُم أهل الحقّ، وأنّ المشركين مبطلون، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنفال/٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿... وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

وأُطْلِقَ لفظُ الفرقان أيضاً على الْبُرْهَان والمعجزة والأحكام والسُّنَّة، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

فالكتاب هو التوراة، فيكون الفرقان ما آتى الله موسى من حجّة، وآياتٍ معجزاتٍ بيّناتٍ، وأحكامٍ وعِلْمٍ يفصلُ بِهِ بين الأمور في إدارته وسياسته ونصائحه ووصاياه وسُنَنِه.

وكذلك قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

وربما يكون هنا وصفاً للكتاب الذي أَنْزَلَهُ الله على موسى، فما أُنْزِلَ على موسىٰ قد آتاه الله أيضاً لِهَارُونَ باعتباره وزيراً له في الرسالة، فالتوراة هو فرقان وهو ضياء وهو ذكْرٌ للمتّقين، والمراد من كونه ضياءً أنّه يهدي إلى سواء السبيلِ المنجي والموصلِ إلى السعادة الخالدة.

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: أي: على عبده محمّد ﷺ، وإنزالُ الفرقان «أي: القرآن» عليه يَدُلُّ باللّزوم العقليّ على قضيّتين:

القضية الأولى: أنّه نبيّ، لأنّه لا يكون هذا التنزيل من الله إلّا بالوحي إليه، والوحي من خصائص النبوّة.

القضية الثانية: أنّه رسول، لأنَّ القرآن يشتمل على بلاغات للناس، وقد جاء فيه تكليفه أن يبلّغه للناس، وأن يكون لهم بشيراً ونَذيراً، وذلك من أخصّ خصائص الرسالة.

وقد شرّف الله رسوله محمّداً ﷺ بأن جعله عبْدَهُ، فأضافه إلى نفسه، وهذا يتضمَّن أن الرسول قد حقَّق في نفسه أوصاف العبوديّة التامة لله تعالى، فمنحه الله هذا الوصف تشريفاً له.

هذه العبوديَّةُ الخاصّة غير العبوديّة العامّة التي هي لازم طبيعيٌّ للخلْقِ والْمِلْك، فالعبوديّة العامّة يشترك فيها كلُّ من خلق الله من إنسٍ وجنٍّ وملائكة، ولكنّ الكافرين لم يحقّقوا في أنفسهم باختيارهم الحرِّ عبوديّتَهُم لله عزَّ وجلّ، فالله تعالى يُخْرِجهم من دائرة الانتساب التشريفيّ إليه بالعبوديّة، كما يخرج الأب ولده العاقّ من دائرة البنوَّة المكرّمة.

والعصاة من المؤمنين يبتعدون عن مكان القرب التشريفي والتكريميّ بالعبوديّة لله عزَّ وجلّ، على مقادير معاصيهم شدَّةً وضعفاً، كثرةً وقلّة.

والمطيعون العُبَّادُ لله يزدلفون إلى مقام القرب إلى الله على مقادير طاعاتهم وقُرُبَاتهم.

روى البخاري بسنده عن أنس عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربّه عزَّ وجلّ «حديث قدسي»:

«إذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعاً، وإذا تقرَّبَ إلَيَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ بَاعاً، وإذَا أَتَانِي يَمْشِي أتيْتُهُ هَرْوَلةً».

وروي البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «حديث قدسي»:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَال:

مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بالْحَرْبِ، وَمَا تَقرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، ولَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ».

آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ: أي: أَعْلَمْتُه بأنّي محاربٌ له دفاعاً عن وَلِيّي.

وقد وصف الله عزَّ وجلّ الملائكة بأنّهم عبادٌ مُكْرَمُونَ، ووصفَ طائفةً من رُسُلِهِ بأنّهم عِبادُهُ تَشْرِيفاً لهم، كما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشأن داوُد وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل.

﴿لِيَكُونَ﴾: الضمير المستتر يعود على «عَبْدِهِ» أي: على الرسول محمّد ﷺ، ولا مانع من عوده أيضاً على «الفرقان» أي: القرآن، وذلك لأنّ القرآن بنصوصه الدائمة المتلوّة يتجدّد على ألسنة التالين، حاملاً وصف تبليغ مضامينه ومنها الإنذار، للعالمين المكلّفينَ أن يُؤمنوا ويُسْلِمُوا جَمِيعاً.

فالرَّسول مبلّغ ونذير، والقرآن فيه بلاغ وهو نذير للعالمين.

وقد جاء في القرآن وصف الرسول بأنّه نذير، ووصف القرآن بأنّه نذير، فالوصف صالح لهما كما سيأتي تفصيلُهُ إنْ شاء الله.

﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾: العالَمُونَ جمعُ مفرده «العالَم» بفتح اللّام، وكلمةُ «عَالَم» تُطْلَقُ على كلّ موجودٍ سوى الله عزَّ وجلّ، وهُو مأخُوذٌ من «الْعَلَم» و«الْعَلَامَة» بمعنى الشيءِ الذي يُوضعُ ليكونَ دالًّا علىٰ شيءٍ آخر، كالأعلام الّتي توضع للدلالة على الطُرقِ أو حُدُودِ الأرض، أو غير ذلك.

وقد دلَّ الفكر على أنّ كلّ ما سوى الله عزَّ وجلّ من كائنات، هي مخلوقاتٌ دالّاتٌ على خالقها، وعلى جملةٍ من صفاته الحسنى، فهي آيات وعلامات دالّاتٌ عليه، فكان من المناسب أن يُطْلَقَ على ما سوى الله عزَّ وجلّ لفظةُ «عَالَم».

وإذا أردنا أن نجمع لفظة «عَالَم» بمعنى أجناس وأنواع وأصنافِ الموجودات سوىٰ اللَّهِ عزَّ وجلّ قلنا: «عوالم» كما نقول في جمع موجود «موجودات» بصيغة جمعٍ لغير العقلاء.

وإذا أَرَدْنَا أن نجمع لفظة «عالم» بمعْنَىٰ أنواع الموجودات الحيّة العاقلة، قلنا «عَالَمِين» بصيغة جمع العقلاء، كما نقول في جمع موجود عاقل «موجودين».

وقد يُراد من العقلاء بعضُهم في النّصّ، فيحملُ اللّفظ على المراد بدلالة القرائن، فقد يراد بالعالَمِينَ الإِنسُ والجنّ، وقد يرادُ بالعالمين الإِنْسُ فقط.

فممّا جاء في القرآن ممّا يمكن حملُ لفظ «العالَمِينَ» فيه على كلِّ ذي إدراكٍ وفَـهْـمٍ أو عـقـل، قـول الله عـزَّ وجـلّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فيدخل فيه الإِنس والجنّ والملائكة.

وممّا جاء في القرآن ممّا يُحْمَلُ فيه لفظ «العالَمِينَ» على الإِنس والجنّ فقط، قول الله عزَّ وجلّ في الآية الّتي نتدبَّرُها: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ وذلك لأنّ الرسول مبعوث للإِنْس وللجنّ، وكذلك القرآن هو للإِنس وللجنّ.

وممّا جاء في القرآن مما يُحْمَلُ فيه لفظ «العالَمِين» على الناس فقط، قول الله عزَّ وجلّ حكايةً لمقالة قوم لوطٍ له في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾؟.

أي: عن ملاقاة الناس جميع الناس، مَنْعاً له عن دعوة الناس إلى دينه الذي دعاهم إليه، وهذه طريقة كلِّ ذوي السلطان من الطغاة في الأرض، إذا خافُوا على جماهيرهم من داع يدعو إلى غير ملّتهم، أو مذهبهم، الديني، أو السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، ولو كان صاحبَ حقّ، وكانوا هم المبطلين.

وقد اختلفت أقوال المفسّرين في تفسير لفظة «الْعَالَمِين» في القرآن:

- فمنهم من قال: كلّ موجود سِوَىٰ الله.
- ومنهم من قال: هم كلّ من يعقل.
- وقال ابن عباس: هم الجنّ والإِنْسُ فقط، لأنّهم هم الذين بُعِثَ رَسُولُ الله محمّد ﷺ إليهم. ورُوي عنه في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كلُّ الخلق.

أقول: والسبب في هذا الاختلاف يرجع إلى اعتبار المفرد، وهو لفظ «الْعَالَم» وإلى دَلَالَةِ بعض النصوص، لكِنَّ ما انتهيْتُ إِلَيْهِ ممّا سَبَقَ بيانُه هو ما هداني إليه الاستقراء والسَّبْرُ للنصوصِ القرآنية التي جاءت فيها كلمةُ «الْعَالَمِين»، مع النظر إلى أصل معنى كلمة «الْعَالَم» في اللُّغَة.

وأُنَبِّهُ على أنَّه لَمْ يَأْتِ لفظ «عَالَم» في القرآن مفرداً، ولا مجموعاً على «عَوَالم»، وإنّما جاء مجموعاً جمع العقلاء.

﴿نَذِيرًا﴾: أي: مُنْذِراً مُبلِّغاً أن الله سَيُعَاقِبُ الكافرين المكذبين لرسوله، والمشركين به، عقاباً يومَ الدّين وعقاباً معجّلاً إذا اقتضت حكمتُه ذلك.

يقال لغةً: أَنْذَرَ يُنْذِرُ إنْذاراً بكذا، إِذَا أعلَمَ بما يُحْذَرُ ويُخَافُ مِنه، قالوا: الإِنذارُ هو الإِبْلاغُ ولا يكونُ إلّا في التخويف.

ولفظ «نَذِير» يأتي بمعني مُنْذِر «فَعِيل» بمعنى «مُفْعل» ويُجْمَعُ علىٰ «نُذُر» ومنه قولُ الله عزَّ وجلّ لرسوله محمد في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

ويأتي لفظ «نَذِير» اسمَ مصدرٍ بمعنى «الإِنْذَارِ» ويُجْمَعُ أيضاً علىٰ «نُذُرٍ» ومنه قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾.

أي: كيف نَذِيري بمعنى إنْذارِي.

ومن جَمْعِه علَىٰ «نُذُر» قولُ الله عزَّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ونُذُرِي، بِمَعنىٰ إنْذاراتي.

وقد تُسكَّنُ الذّال، فيقالُ: «نُذْر» ومنه قول الله عزَّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾.

أي: إعْذاراً أو إنذاراً.

فمعنى «أنْذَرَهُ بالأمر» خوّفه وحذّره من سوءٍ أو شرٍّ أو عقاب أو هلاكٍ أو نحو ذلك.

وجاء وصف القرآن في القرآن بأنّ من مهمّاته الإِنْذار، وجاء وصفُه بأنه بشير ونذير، فمن ذلك ما يلي:

قول الله عزَّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾.

وبناءً على أنَّه قد جاء في القرآن وصفُ الرَّسُولِ بأنّه نذير، وجاء فيه وصف القرآن بأنّه نذير، كما يُقال: متكلّم بليغ، وكلامٌ بليغ، فالذي أراه أن يُحْمَلَ النصّ في الآية التي نتدبَّرُها على أنّ المعنيينِ مُرادان، وهذا من بديع الإيجاز في القرآن، أَنْ يكونَ للنصّ الواحد دلالتان أو أكثر، وأن تكون كلُّها مُرادة، ما دامت صيغة اللفظ قابلةً بأدائها العربي للدلالة على المعنَيْينِ أو المعاني دُونَ تعارض، وهذا ما ذهب إليه فريق من كبار الأئمة[١].

فنقول: تبارك الذي نزّلَ الفرقان علىٰ عبده محمّد ليكون (كلٌّ من الفرقانِ وعَبْدِه) للعالمين نذيراً.

فالرّسول محمّد ﷺ هو الرسول الخاتم المبعوثُ للعالمين كافة (الإنس والجنّ).

والقرآن هو الكتاب الخاتم المنزّل للناس كافة (الإنس والجنّ).

واقتصرت الآية هنا على وصف كلّ من الرسول والقرآن بأنّه نذير، لأنَّ هذه الصفة هي الصفة المناسبة لكلّ العالمين، إذْ فيهم من لم يؤمن، وسيكونُ فيهم من لا يؤمنُ حتماً، ويكونُ الرسول وكذلك القرآن بالنسبة

(١) انظر القاعدة (٢٨) من كتاب «قواعد التدبّر الأمثل» للمؤلف.

إليهم مُنْذِراً فقط، ولأَنَّ حالَ الكافرين إبَّانَ نُزول سورة (الفرقان) التي تناولت بتفصيلِ عَرْض مواقفهم التَّعَنُّتيّة تُجاهَ التوحيد، وتجاه القرآن، وتجاه الرسول، إنما يلائمهم معها من الرسالة الإنذار الذي هو آخر المراحل لا البشارة.

يضاف إلى ذلك أنّه يمكن للذّهن أن يقدّر وظيفة البشارة التي ينتفع بها المتقون الذين يؤمنون، والتي جاء بيانها في نصوص أخرى من القرآن المجيد، والتي جاء بيان بعض مضمونها في سورة (الفرقان) نفسها، فكان من الحكمة البيانيّة التركيز في الآية الأولى منها على الإنذار، مع ما سبق بيانُهُ من دلالة اللوازم العقلية على المطويّات في النّص.

ومن استقراء وسَبْرِ النصوص القرآنية التي جاء فيها استعمال مادّتي التبشير والإنذار، نلاحظ ما يلي:

(١) ـ «ثلاثة عشر نصًّا» جاء فيها تقديم التبشير على الإنذار، مثل: «بشيراً ونذيراً ـ مبشّراً ونذيراً ـ مبشرين ومنذرين».

(٢) ـ «نصّان» جاء فيهما تقديم الإنذار على البشارة هما:

- قول الله عزَّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾.

- وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝١٨٨﴾.

وقد رُوعِيَ في هذين النَّصَّيْن حالُ أكثر القوم المخاطبين الذين يغلبُ فيهم الكفرة، مع بيان تخصيص البِشَارة بالمؤمنين في الثاني منهما.

(٣) ـ (٣١) نصًّا جاء فيها ذكر الإنذار دون التبشير، لأنّ المتحدَّث عنهم فيها كفرةٌ ماتُوا على الكفر، أو عانَدُوا وأصرّوا على الكفر وصار إيمانهم ميئوساً منه.

فلا يلائمهم من الرسالة إلّا الإنذار.

دلالة هذا الاستقراء والسّبر للدعوة:

من هذا الاستقراء وَالسَّبْر يَتَبيّن لَنا في الدعوة أنّ على الداعي أن يُقَدِّم في أكثر أحواله البشارةَ على الإنذار، وأن يضربَ على أوتار الطمع بثواب الله الجزيل قبل أن يَضْربَ على أوتار الخوف، حتّىٰ إذا يئس من استجابة المدعوّين، وظهر له عنادُهم وكفرُهم وجّه لهم الإنذارات والتحذيرات بعذابِ الله ونقمتِه في العاجلة والآجلة على مقدار ما يرىٰ من عنادهم وإصرارهم علَىٰ الكفر، ومهما وجَدَ لَدَيْهم ولو قليلاً من لِين الجانب نحو قبول الحقّ فَتَح لهم أبواب الطمع بعفو الله وغُفْرَانِهِ، وقدّم البشريات المرتبطات بإيمانهم واتّباعهم للحقّ.

ملاحظة أخيرة حول هذه الآية:

ويلاحظُ في هذه الآية الأولى من السورة أنّها قدّمت الدليل على كمال صفات الموجود الغيبيّ الّذِي نزّل القرآن على محمّد بن عبد الله ﷺ بالتوجيه لتدبُّر القرآنِ نفسِه الذي هو فرقان، وبفُرْقانيَّتِه يَدُلّ لَدَىٰ من تدبّره وأمعن التفكُّرَ فيه عَلَىٰ أنّه تنزيل من عزيز حكيم، وأنّه ليس كلاماً من كلام البشر.

فهو بذلك يحمل دلالَتَيْن:

الدلالة الأولى: أنَّ مُنَزّله عَزِيزٌ حكيم وليس بشراً، ولا خلقاً من خلق الله.

الدلالة الثانية: أن المبلغ له صادق في نبوّته ورسالته، وأمين فيما يبلّغ عن ربّه.

إجمال معاني الآية «الأولى» بوجه عامّ:

بعد التحليل اللّفظيّ لما جاء في هذه الآية نستطيع بعون الله عزَّ وجلّ أن نُقَدِّم تفسيراً عامًّا لها فيما يلي:

تنامَىٰ وتزايَدَ وتَعاظَمَ عَنْ كلِّ تصوُّرٍ يَتَصَوَّرُه المتصوّرون، ويُقَدِّرُهُ المقدِّرُون، الموجودُ الغيبيُّ عن إدراك الأبصار، في كمالاته، وتَنَزَّهَ عن كلِّ ما لا يليق به، في ربوبيّته الأحديّة، وفي كونه لا إلَه إلّا هو، الّذي نَزَّلَ الكتابَ الفرقانَ الذي يَفْرِقُ بيْنَ الحقّ والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والغيّ والرشاد، والحلال والحرام وسائرِ الأحكام، والْحَسَنِ والقبيح من أعمال العباد. وهذه الصفة الفرقانيّة في هذا الكتاب صفةٌ معجزةٌ، وهي آية دالّةٌ على أنّ مُنَزِّلَهُ غَيْرَ المشهودِ لِلْعِباد مُتَحلٍّ بكلّ صفات الكمال، ومنزَّهٌ عن كلّ صفات النقصان، وهو الله عزَّ وجلّ، ودالّةٌ على أنّ مبلّغه عن ربّه صادقٌ في نبوّته ورسالته، وأمينٌ فيما يُبَلّغ عن ربّه، وهو الرسول محمّد بن عبد الله ﷺ، الذي تحقّق بعبوديَّتِه الكاملة لله عزَّ وجلّ فاستَحقَّ أنْ يُمْدَحَ بأنّه عبدٌ حَقًّا لِمُنَزِّلِ الْفُرْقان، تكريماً له وتشريفاً، وقد أنزل الله هذا الْفُرقَانَ عَلَيه ليكونَ للعالَمِين كُلِّ العالَمِينَ نبيًّا رسُولاً وليكونَ الْفُرقَانُ الذي أُنْزل عليه بلاغاً عامًّا للعالَمِين، إنْسِهِمْ وجنّهِم، فالبلاغُ القرآنيّ عامٌّ للعالمين، والرسولُ المبلّغ له رسولٌ للعالمين جميعاً. وكلٌّ منهما نذير للعالمين، وبشيرٌ للمؤمنين المتقين مِنْهُمْ.

فرسالة الرَّسُولِ عامّةٌ للعالمين إنسِهِم وجنّهم، وبلاغ القرآن عامٌّ للعالَمين إنْسِهِمْ وجِنِّهِمْ.

قول الله تعالى:

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

الضميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ يَعُودُ على ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ واللام الجارة هنا معناها المِلْك، كما ذكر النحاة، فالمعنى: أنّ السماوات والأرض وما فيهما ملكُه.

﴿لَهُۥ﴾ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم، و ﴿مُلْكُ﴾ مبتدأ مؤخّر. وقد أفاد التقديم حَصْر ملك السماوات والأرض به تبارك وتعالى.

﴿مُلْكُ﴾: يُقَال لغة: مَلَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مُلكاً بضم الميم، وفتحها، وكَسْرها، أي: حازه، وانفرد بالتصرُّف فيه، وكان له عليه سلطان، وقدْرَةٌ على التصرُّف.

والله عزّ وجلّ الذي نزّل الفرقان على عبده هو مالك كل شيء، لأنَّه هو خالقه، والمتصرّف فيه، وهو الْمَلكُ عليه ذو السلطان الذي لَا يُشاركه في سلطانه أحد.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جمع سماء، ولفظ السماء يُطْلَقُ لغة على كلّ ما كان في جهة العلوّ بالنسبة إلى اعتباراتنا التي نرى فيها الأرض تحتنا، فكلّ ما هو مقابل لها فهو في جهة العلوّ.

وقد أعلمنا الله عزَّ وجلّ أنه خلَقَ فوْقَنَا سبْعَ سماواتٍ طباقاً، أي: بعضها فوق بعض، يقال لُغةً: طابقَ بين قميصَيْنِ إذا لَبِسَ أحدَهُمَا فوق الآخر. وأعلمنا الله أنه جعل في السماء بُروجاً وأنّه جعل فيها سِراجاً وهي الشمس، وقمراً منيراً، وأعلمنا أنّه خلق سَبْعَ سماوات طباقاً وجَعَلَ القمر فيهنّ نوراً، وجعل الشمس سراجاً، كما جاء في سورة «نوح» وقرأ حمزة والكسائي وخلف «سُرُجاً» بالجمع في قوله تعالى في سورة (الفرقان):

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

وأعلمنا أنّه زَيّنَ السّمَاءَ الدُّنْيا بمصابيح.

فكون الشمس والقمر في السماء دليلٌ على أنَّ السماء محيطة بهما، وهما من دون النجوم التي هي مصابيح زيّن الله بها السماء، ولا يلزم عقلاً كونُ الزِّينَةِ خارجَ جِرْم المُزَيَّن، فاللَّهُ قَدْ زَيّن وجوه الناس بالعيون والحواجب والأنوف والخدود والأفواه، وزين الأفواه بالأسنان الجميلة، والنَّسَّاجُ يُزَيِّن الْقُمَاش بالألوان والرُّسُوم والخطوط وهي جزءٌ منه.

فالله أعلم بالمراد من حقيقة السماوات السبع الطباق، وتحديد أبعادها، وتحديد كلّ سماء منها، والبحثُ العلميّ الكوني لم يصل إلّا إلى النزر القليل منها.

ونحن نلاحظ في جهة العلوّ بالنسبة إلَيْنا نجوماً وكواكب ومجرّات، وأبعاداً يُقدِّرها علماء الفلك ببلايين السنين الضوئية، دون أن تَقْدِر وسائل المعرفة لديهم على الإحاطة بها، فلا يَستطيعون التعرّف إلّا على القدر اليسير جدًّا منها، وهو القدر الذي تكشفه المجاهر، وتُقَدّمه الصور الملتقطة بوساطة الأجهزة المرسلة في المركبات التي تُرسل إلى الكواكب القريبة من أرضنا.

وقد جاء في القرآن إطلاق لفظ «السماء» على السُّحُب التي يَنْزِلُ منها المطر والثلْجُ والبرد.

وجاء في القرآن لفظ «السماء» مفرداً، وجاء مجموعاً على «سماوات» ولكنّ لفظ الأرض لم يأتِ في القرآن إلّا مفرداً.

وأعلمنا الله أن طبيعة الأرض التي هي مستقَرُّنا في هذه الحياة الدنيا تُشْبِه طبيعةَ السماوات، فقال تبارك وتعالى في سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴿١٢﴾﴾.

ويكفي لتحقيق المماثلة أن تكون طبيعة الأرض في تكوينها وفي كونها مخلوقةً لله عزَّ وجلّ شبيهةً للسماوات في ذلك، أمّا العدد فلا تشترط المماثلة فيه، فلا يلزَمُ أن تُوجَدَ سبعُ أرضين إحداهنّ أرضنا هذه، إذْ يلزم أن تكون السماوات السبع فوقَهُنَّ طباقاً أيضاً، كما هو واقع حال أرضنا، ولا داعِيَ للسَّبْحِ الخياليِّ الذي لا دليل عليه من نصِّ المبلِّغِ المعصوم.

أمّا ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنْ أَرْضٍ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

فالمراد منه سبعُ طبقاتٍ منها، وهي الطبقات التي يمكن أن تعتبرَ ملكاً لمالِكِ الأرض. والمعنى أنّ ما وراء هذه الطبقات يدخل في الأملاك العامّة، والله أعلم.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: هذا الكوكب الذي نعيش عليه في هذه الحياة الدنيا، وهي التي منها خلقنا الله، وفيها يعيدنا، ومنها يخرجنا تارةً أُخرى.

ويطلق لفظ «الأرض» على جزءٍ ما من عموم الأرض.

وأرض كلّ شيءٍ أسفله، والأرض في اللّغة مؤنثة، وتجّمع على: «أَرَضِين ـ وأَرْضِين ـ وأَرَاضٍ ـ وأُرُوضٍ».

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.

أي: ولم يجعلْ سبحانه لنفسه ممّا خلق من عباده ولداً.

إنّ نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، لها احتمالان:

الأول: أن تتضمّن ادّعاء أنّ الله انفصل عن ذاته ولد، نظير ما جعل للأحياء من خلقه من نظام التوالد، وهو نظام جعله الله في خطّة التكوين للحوادث ومن خصائصها، ودليلاً على حدوثها.

الثاني: أن تتضمّن ادّعاءَ أنّ الله خلق عباداً من عباده، واتّخذ منهم أولاداً لنفسه بالتبنّي، وهم خلقٌ من خلقه، وليسوا أبناءً حقيقةً له.

واتّخاذ الولد بالتبنّي: إمّا أنْ يكون ناشئاً عن حاجة عاطفيّة إلى أن يكون له ولد، وبما أنّه لا يمكن أن يكون له ولد مشتقٌ من ذاته، فليتّخِذْ ولداً يخلقه هو. وإمّا أن يكون ناشئاً عن حاجةٍ إلى معينٍ له في ربوبيّته، فهو يخلق لنفسه هذا الولد المعين.

وكلّ ذلك نقصٌ لا يَلِيق بكمال صفات الله عزَّ وجلّ.

وقد أثبت الله عزَّ وجلّ تنزُّهَهُ عن أَنْ يكون له ولدٌ مشتقٌ من ذاته حقيقة، ومنفصل عنه، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

وقال الله عزَّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧١﴾.

وقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾.

وأثبت سُبحانه غِناهُ عن اتِّخاذِ ولد، فقال في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾.

فاتّخاذ الولد يكون بناءً على الحاجة إلى الولد، لكنَّ اللَّهَ غنيٌّ بذاته عن الولد، ولو اتّخذ ولداً وهو الْغَنِيُّ عنه، لكان اتّخاذه له عبثاً، والله الذي تبارك في ذاته وفي صفاته مُنَزَّه عن العبث.

فتمّ بذلك الحصار الفكريُّ لإسقاط أوهام مُدَّعِي أنّ لله ولداً، منفصلاً من ذاته، أو أنّه اتّخَذَ لنفسه ممّا خلق من عباده ولداً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾:

أي: مَا كَان له شريك في مُلكِ السَّماواتِ والأَرْض أزلاً، ولا يَكُونُ له شريكٌ في الملك فيما لا يَزَال، ولَا يكون له شريك في الملك أبداً، لأنّه هو وَحْدَه الخالق ذو السلطان المالك لكل شيءٍ.

إنَّ الدليلَ العقليَّ الذي دلّ على أنّه ليس له شريكٌ في الْمُلْكِ أزلاً، يدلُّ أيضاً على أنّه ليس له شريك في المُلْكِ فيما لَا يَزال، ويَدُلّ أيضاً علَىٰ أنّه ليْسَ له شريكٌ في الْمُلْكِ أبداً، إذْ لا شريك له في الخلق ولا في الأزليّة، ولا شريكَ لَهُ في الأبديّة الذّاتية.

والفعل الماضي إيجاباً أو سلباً قد يستعمل فيما له الكينونة الدائمة، من الأزل إلى الأبد، ويكثر هذا في صفات الله عزَّ وجلّ، مثل: «وكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ـ إنّ الله كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ـ وكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيراً»[١].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾:

الخلْقُ: يأتي في اللّغة بمعنيَيْن:

(١) انظر القاعدة «الثلاثين» من «قواعد التدبّر الأمثل» للمؤلف.

المعنى الأول: التقدير، وهذا المعنى قد يكون من غير الله عزَّ وجلّ، بالتمكين القدري الذي يمنحه الله عبادَه، ومنه قول الله عزَّ وجلّ خطاباً لعيسىٰ عليه السلام كما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى . . . ﴿١١٠﴾﴾.

أي: وإذْ تُقَدِّر فتصوّر وتصنَعُ وفق التقدير.

المعنى الثاني: الإِبداع والإِيجاد من العدم، على غير مثالٍ سبق، ويدخل التقدير لُزوماً في معنى الإِبداع، إذْ لا يكون إبداعٌ من دون تقدير للعناصر، والأشكال، والصور، وكلّ ما يخضع للمقادير، كذلك يفعل كلّ حكيم.

ولمّا كان التقدير والتصوير والصّنع للأشياء من موادّ مكّنَ الله عزَّ وجلّ عبادَه من أعمالٍ ما فيها بتمكينه القدري في نظام الكون، تُسَمَّىٰ خَلْقاً في لسان العرب، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿. . . فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

فنسب إلى غيره خلقاً على هذا المعنى الذي مكَّنَ عباده منه.

أمّا الخَلْقُ بمعنى إبداع الأشياء وإيجادها من العدم المحض، فهو من صفات الربّ عزَّ وجلّ، التي لا يشاركه فيها أحد، ولم يُعطِ الله أحداً من خلقه هذا التمكين.

فالكائناتُ كلُّها خلْقُه إبداعاً وإيجاداً من العدم، فهي جميعها ملكُه، لا يُشاركُه فيها أحد، وهذه هي وحدةُ الله عزَّ وجلّ في ربوبيته.

ووحدة الرّبوبيّة تستلزم عقلاً وحدة الإِلَٰهيّة، فالذي هو سبحانه الرّبّ

الخالق، هو وحده المستحقّ لأن يكون الإِلَه المعبود، فلا إِلَه إلّا الله، لأنّه لا ربّ إلّا الله.

﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾.

أي: فقدَّر بالإِيجاد الفعليّ التنفيذي، مَا قَدَّر بعلمه وقضىٰ بإرادتِه أن يُوجِدَهُ، تقديراً دقيقاً مُحْكَماً دَالًّا على عظمته وجلاله وبديع صنعه.

التقدير: يدلُّ في اللّغة على تحديد مقادير الأشياء بالإِرادة، أو بالحُكْم، أو بالتصوّر، أو بالفعل والتنفيذ العملي للمراد.

وكلُّ شيءٍ يُمكن تجزئته إلى أقسام أو وحدات صغرى، أو قابل للقسمة ولو في التصوّر الذهني، هو ذو مقادير.

فالزمن ذو مقادير، والمكان ذو مقادير، والأعداد ذاتُ مقادير، والحرارة ذات مقادير، وكلّ جسم أو سطح أو خطّ ذو مقادير، وكلّ كائنٍ ذي أبعادٍ أو ذي أجزاء فهو ذو مقادير، إلى غير ذلك.

والمقادير تبدأ من أصغر وحدة ممكنة في الوجود، أو في التصور، ثم هي قابلة للتزايد من غير حصر في عالم الممكنات.

والله عزَّ وجلّ قد خلق كلّ شيءٍ له وجودٌ ما من الموجودات الممكنةِ فجعل مقادير كلّ عنصر من عناصره، وأجزائه مهما كانت صغيرة، على وفق الحكمة التامّة منها، وبالمقادير التي تؤدي فيها وظائفها في الكائن على أحسن وجه، وأكثره حكمة.

ويدلُّ الاستنتاج العقليُّ على أنَّ هذا لا يتمّ إلّا بأن يكون من صفات الله عزَّ وجلّ ما يلي:

(١) أنّه محيطٌ بكلّ شيءٍ علماً.

(٢) أنّ له إرادةً مختارة مبدعة، فهو يختار من الممكنات ما يشاء إيجاده، بلا جبر ولا ضرورة.

(٣) أنّ له الحكمة البالغة في تحديد وتقدير وتنفيذ كلّ صغير وكبير على وفق الغاية المقصودة منه.

(٤) أنّ له القدرة العظيمة القادرة على إيجاد كلّ ما سبق في قضائه وقدره.

ولعُلَماء الكون بحوثٌ مستفيضة مذهلة حول قضيّة مقادير العناصر في المخلوقات، سواءٌ أكانت من المتناهيات في الصغر، أم من الكائنات العظمىٰ. ففي العين ودقائق عناصرها، وفي الهرمونات ومقاديرها الصغرى، وفي الخليّة، وفي الذرّة، ما يحيّر ألباب أولي الألباب من أهل البحث العلمي.

فدلّ التّوجيه لقضيّة كون الله عزَّ وجلّ خلَقَ كُلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً، على أنّ النظر في الكون يهدي المتفكّرين الباحثين إلى جملةٍ من صفات الخالق، تجعلهم يشهدون له بوحدانيّته في ربُوبيّته.

ولمّا كان توحيد الربوبيّة يلزم عنه عقلاً توحيد الإِلَٰهية للربّ الخالق، وجدنا أنّ طريقة القرآن في إثبات توحيد الإِلَٰهيّة لله عزَّ وجلّ هو إثبات الرُّبوبيّة له، وإثبات انفراده وتوحُّدِه بها، ثمّ التنبيه على أنّ برهان العقل يقضي بأنّ من تفرّد بالرّبوبيّة فكان هو وحده الربّ الخالق، لا بدّ أن يكون هو وحده المتفرّد بالإِلَٰهيّة، فلا يُعْبَدُ معه سواه، كائناً ما كان، وكائناً من كان، لأنّ العبادة والتأليه حقّ الرّبّ الخالق وحده عقلاً، فلا يَصحُّ عقلاً أن يُعْبَدَ غيره، ولا أن يُعبَدَ معه أحد، لأَنّ الإِشراك في العبادة يقتضي الإِشْراكَ في الربوبيّة. أوْ أَنَّ اللَّهَ أَذِنَ بعبادَة غيْرِه، وهذا لم يكُنْ بل أمرَ الله بِعبادَتِه وحْدَهُ، وَنَهَىٰ عن عِبَادَةِ غيْرِه.

إجمال معاني هذه الآية:

وتبارك الذي له مُلْكُ السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما،

ويلزم عقلاً أنّه لا يكون له هذا الملك إلّا بوصف كونه هو الخالق وحده، وهو الرب وحده لكل ما سواه، ويلزم من هذا أيضاً أنّه لا ولد له في الوجود قد انفصل عن ذاته، لأنّ كلّ ما سواه ملكه، والمنفصل عن الذات هو جزء منها فهو شريك.

وتبارك الذي لم يتَّخذ ممَّن خلَقَ من عباده ولداً، لاستغنائه بذاته عن اتخاذ الولد.

وتبارَكَ الذي خلق كلّ شيءٍ في الوجود من دونه، إبداعاً على غير مثالٍ سبق، بعظيم قدرته، على وفق علمه وإرادته المختارة، وحكمَتِه البالغة، فقدَّرَ كلّ صغير وكبير ممّا خلق بالإِيجاد التنفيذي الذي هو أثر قدرته العظيمة، تقديراً بالغ الدّقّة والإِتقان والإِحكام، على وفق ما كان قد حدّده بإرادته وحكمته، وقدّره وقضاهُ بعلمه وإرادته.

فاشتملت هذه الآية على أربع قضايا:

القضية الأولى: أنّ الذي نزّل الفرقان على عَبْدِهِ لَهُ مُلْكُ السّماوات والأرض (وهذه قضية تشتمل على تفرد الله بالربوبيّة).

القضية الثانية: أنّه سبحانه لم يتّخذ ولداً (وهذه قضيّةٌ تشتمل على تنزيه الرّب الخالق عمَّا افتراه عليه الذين جعلوا له ممّا خلق ولداً).

القضيّة الثالثة: أنّه سبحانه ليس له شريك في الملك (وهذه القضيّة تشتمل على تنزيه الرّب عَنْ أن يكون له شريك في ربوبيته، وتنزيهُهُ عَنْ أن يكون له شريك في إلَهيَّته باللّزوم العقلي).

القضية الرّابعة: أنه تَبَارَك وتَعَالَىٰ خَلَقَ كلَّ شيءٍ فقدره تقديراً دقيقاً محكماً دالاً على عِلْمِه المحيط بكلّ شيءٍ، وحكْمَتِه البالغة، وقدرته العظيمة (وهذه القضية تلفت نظر المتفكرين إلى بعض آيات الله في كَوْنِه الدالّة على وجوده وعظيم صفاته).

هذه القضايا الأربع قد اشتملت بدَلَالَاتِها النّصّيّة واللُّزوميَّة الذِّهْنِيّة على توحيد الربوبيَّةِ لمنزّل الفرقان علىٰ عَبْدِه، الذي لا تُدركُهُ الحواسّ، ولكِنْ تُقِرُّ به العقول، وتُؤْمِنُ به القلوب والنفوس السّلِيمة، ودلّت باللُّزومِ العقليّ على ضرورة توحيد الإِلَهيّة له، وعدم اتِّخاذ شريكٍ له في العبادة. وبهذا لَزِمَت أهلَ الفِكْرِ الحجَّةُ الرّبّانيَّة الدَّامِغة.



قول الله تعالى:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . . . ﴿٣﴾﴾.

﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾: اتَّخَذَ على وزن «افْتَعَل» من الأخذ، ومن معاني هذه الصيغة التكلّف والتَّصنُّع على خلاف طبيعة الأمر، أي: جعلوا بصُنْعٍ منهم آلهة لأنفسهم، وهي ليست بطبيعتها آلهة.

والضمير في «واتَّخَذُوا» لا يحتاج أن يعود على مذكورٍ في اللفظ، لأنَّ من طبيعة الذهن المفكر ـ بعد أن تتضح له دلالات القضايا الأربع في الآية السابقة ـ أن يستحضر تلقائيًا صُوَراً من واقع أحوال الناس، فيجد فيهم مؤمنين موحّدين، ويجد فيهم مشركين يَعبُدون من دون الله آلهة، فيأتي الضمير في «واتَّخَذُوا» منطبقاً على فريق المشركين دون أيّة قرينةٍ لفظيّة.

﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: أي: من أشياء غيرِه هي بطبيعتها تقع دونه، في مقابل اتّصافه بالفوقية المطلقة، والضمير في «مِنْ دُونه» يعود على الذي نزّل الفرقان على عبده، والذي له ملك السماوات والأرض. . .

وكلمة «دُون» في اللّغة تأتي في الأصل مقابل كلمة «فَوْق» فهي مثل «تحت». وكلٌّ من «فَوْق ودون» يستعملان في الحِسّيّات وفي المعنويات.

فمن الحسيات قول الله عزَّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: في جهة العلوّ الحسّي.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ أي: من تحتها.

ومن المعنويّات قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

أي: رفع بعضكم فوق بعضٍ درجات معنويّة، وأنْزَلَ بعضكم دون بعضٍ درجات معنوية.

ولذلك تستعمل «دون» في التحقير، فيقال: فلانٌ دُونٌ، أي: حقير خسيس.

قال أهل اللّغة: وتستعمل كلمة: «دون» في معانٍ كثيرة منها «قبل ـ أمام ـ وراء ـ تحت» إلى غير ذلك، والقرائن تحدّد المعنى.

ودرج المفسّرون على تفسير عبارة «من دونه» في القرآن بعبارة: من غيره.

وأقول: لمّا كان الله عزَّ وجلّ هو المتفرّد بالعلوّ المطلق الذي ليس فوقه علوّ، على كلّ معاني العلوّ والفوقيّة التي تليق بجلاله سبحانه، فلا يشاركه في العلوّ والفوقيّة شيء، كان كلّ ما عداه هو من دونه، وهذا يدلّ على معْنيَيْن:

المعنى الأول: المغايرة التي يُدَلُّ عليها بعبارة «من غيره».

المعنى الثاني: التحتيّة المقابلة للفوقية التي تدلّ عليها كلِمات منها: «تحت ـ أسفل ـ دون».

فتفسير عبارة «مِنْ دُونِه» بمعنى: «مِنْ غيرِه» فيه تقصير عن دلالة العبارة القرآنيّة المنتقاة بعناية، التي نجدها في زائد على مئة وعشرين نصًّا، بمناسبة اتّخاذ المشركين آلهة من دون الله.

لذا أرى أنْ تُفَسَّرَ الكلمة بحسب أصل معناها المقابل للفوق، لأنّه لا أحد يُشارك الله في فوقيّته، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

لكن قد تأتي بعض النصوص الّتي ينبغي تفسير «دون» فيها بمعنى «غير» فقط مثل ما جاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/٥٨ نزول):

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم... ﴿٤١﴾﴾.

﴿ءَالِهَةً﴾: جمع إلَه، أي: معبود، فهم يتخذون معبودين يعبدونهم من دون الله، ويتقرّبون إليهم بالقرابين، ويدعونهم، ويسألونهم أن يدفَعُوا عنهم ضرًّا، أو يجلُبُوا لهم نفعاً، فهم يتَّخذونهم شركاء للذي له ملك السماوات والأرض في الإِلَهيّة التي لا يستحقّها سواه، لا على سبيل الانْفِراد دونه، ولا على سبيل المشاركة له.

فالذين يعبدون من دون الله الملائكةَ أو أحداً من البشرِ أو الجنّ أو رموزاً من الأوثان والأحجار والأشجار والنجوم والكواكب وغَيْرِها، هم مشركون مع الله آلهة يعبدونهم من دون الله، وربّما يعبدونهم مُهْمِلين أو ناسين عبادة الله.

والذين يقدّسون المادَّةَ والقوانينَ الطبيعيّة، ويجعلون لها ما لله عزَّ وجلّ من خلقٍ وتقدير، ويكْفُرون بالربّ الخالق العليم الحكيم القدير الحيّ المريد الذي يفعل ما يشاء ويختار، هم مادّيون أو دهريون مُلْحِدُون يَجْحَدون الله عزَّ وجلّ، وهؤلاء لا يجعلون لله شريكاً أو شركاء، وإنَّما يكفرون بالله كفراً كليًّا، ويجعلونَ مَا لله من ربوبيّة، لأنظمته وسُنَنِه التي وضَعَها هو في كونه، أو للعناصر المادّيّة التي خَلَقها هو سبحانه، وهو مالكها والمسيّر لها والمتصرف فيها بحكمته في مقاديره، وهو الْمُمْسِكُ لها في الوجود لِئَلَّا تزول، ولو رفع عنها الإِمساك في الوجود لزالت، ولعادت كما كانت عدماً.

ولمّا كانت الآية تتحدّث عن واقِعِ حال المشركين الوثنيّين الذين كانوا هم الأكثريّة الغالبة في غير المؤمنين، جاء فيها وصف آلهة المشركين بأنَّهم لَا يخلقون شيئاً، وهُمْ يُخْلقُونَ، ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نُشُوراً.

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾: أي: لَا يُوجِدُون شيئاً ما صغيراً أَمْ كبيراً من العدم، لأنَّ الله لم يُعْطِ أحداً من خلقه شيئاً من ذلك، ولا يَسْتَطِيعون صُنْعَ شيءٍ ممّا مكّنَ الله منه بعض خلقه بقانونه القدري، إلَّا بتَمْكِين اللَّهِ وإرَادَتِه وإذْنِه، فلَوْ فعلوا شيئاً لَمْ يكُونُوا خالقين لَهُ حقيقة، بل اللَّهُ يَخْلُقُه وهم متّخذو أسباب، وأعمالُهم أعمالٌ تحويليّة بتمكين الله إيّاهم، وخَلْقِهِ لقدراتهم.

ولمّا كان المتحدَّثُ عنهم يَعبُدون أوثاناً هيَ رموزٌ لما يَعبُدون من ورائها، فإنّ أوثانهم لا تَفْعَلُ شيئاً مطلقاً، لا علَىٰ سبيلِ الْخَلْقِ الحقيقيّ، ولَا عَلَىٰ سَبِيل السَّبَبِيَّة، إنّما هي في الحقيقة عبادةٌ لأوهامٍ يصطنعونها في مخيّلاتهم، ويفترونها على الحقيقة افتراءً.

وكلمةُ «شيء» تُطْلَقُ على كلّ قابل لأن يُعْلَم، من مادّةٍ أو معنى، عظُمَ أَمْ صَغُر ودَقَّ، بدليل قول الله عزَّ وجلّ في آية الكرسي من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ... ﴿٢٥٥﴾﴾.

وعلْمُ اللَّهِ يشمَلُ الْمَوجُودَ والمعدومَ، الواجبَ والممكن والمستحيل، فلا يقتصر إطلاق كلمة «شيءٍ» على الموجود.

وكلمة «شيئاً» في قوله تعالى: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ جاءت نكرةً في سياق النفي، فهي تَعَمُّ كلَّ شيءٍ قابلٍ لأن يُخْلَقَ.

وذكر الله آلهة المشركين بضمير جمع العقلاء، لأنّ أوثانهم رموز وتماثيل من يَعبدونهم من العقلاء الأحياء أو الأموات، أو رموز وتماثيل من يتصوّرونهم كذلك.

ودلّ قول الله تعالى في وصف آلهة المشركين ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ على أنَّهم لم يكونُوا شركاءَ لله في الخَلقِ، وعلى أنّهم لا يمْلِكُون لِعُبَّادِهم شيئاً يحتاج خَلْقاً، فعبادتُهُمْ لشُرَكائِهم ظُلْمٌ عظيمٌ، إذْ يَجْعَلُون ما هُو حقٌّ لله وحْدَه مُوَّجهاً لغيره.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾: أي: وشُركَاؤُهُم هؤلاء هُمْ بأنْفُسِهم يُخْلَقُون ما تَجَدَّد بقَاؤُهم في الْوُجُودِ خَلْقاً منْ بَعْدِ خَلْقٍ، فهم مفْتَقِرُون في أصْلِ وُجُودِهمْ إلى الخالِقِ البارِئ عزَّ وجلَّ، ومفتَقِرُون في بَقاءِ وُجُودِهِمْ إلىٰ خَلْقِ البَارِئ لهم خلقاً من بعد خلْقٍ، مُمْسِكاً لَهُمْ في البقاء.

دلَّ على هذا استعمال صِيغَةِ الفعلِ المضَارع التي تَدُلُّ على الحدوث المتجدّد، فشَأْنُهُمْ كَشَأنِ كلِّ الباقِيَاتِ في الْوُجُودِ، إنّما تبقىٰ بعمليات الخلْق الرّبّاني المتجدّد لها، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

أي: ولئن تركَ إِمْسَاكَهُما في الوجُودِ لَعَادَتا إلى طَبِيعَتَيْهما، وهي العدم مع إمكان الوجود بقدرة الْمَوْجُودِ الأزليِّ الأبدِيِّ، فلا مُمْسِكَ لَهُما في الوجود من بعد الله الرّبّ الخالق.

قول الله تعالى:

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾:

أي: وهؤلاء الشركاء المعبودُون لا يملكونَ لأنفسهم دفع ضرّ على وجه العموم إذا أراد الله أن يُنْزِل بهم ضرًّا، ولا جلب نفع على وجه العموم إذا أراد الله أن يمنعه عنهم، فضلاً عن أن يَمْلِكُوا شيئاً من ذلك للّذِين يتّخِذُونَهُمْ شركاءَ لِلَّه، فهم يعبُدونَهُمْ رَجَاءَ دَفْعِ ضرّ أو جلب نفع بسَبَبِهم لأنفسهم، أو رجَاءَ جَلْبِ ضرّ أو منع نفع بسببهم لمَنْ يُعادونهم.

فالَّذِي لا يَمْلِكُ الشيءَ لنفسه لا يَمْلِكُه لغيره بداهةً.

وجاءت كلمتا «ضرًّا» و«نفعاً» نكرتين في سياق النفي ليَعُمّا كلَّ ضرّ وكلّ نَفْعٍ، جَلْباً أَوْ منعاً، وأَلْمَحَ النصّ إلى أن مالك النفع والضرّ هو الله وحده لا شريك له.

وجاء التعبير بنفي الملك ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ للدَّلَالة على أنَّهم لا يقدرون على التصرّف في الضرّ والنفع، لأنّ القادر على التصرف بشيءٍ ما لا بدّ أن يكون له فيه نوعُ ملكٍ، وَلَوْ بالتمليك والتمكين، لكن شركاءهم لا يملكون شيئاً من ذلك.

﴿ضَرًّا﴾: الضَّرُّ، والضُّرُّ، والضَّرَرُ: الأمر المكروه، يُقال: ضَرَّهُ، وضرَّ به، ضُرًّا وضَرًّا وضَرَراً، إِذَا أَلْحَقَ به مكروهاً.

والضُّرُّ والضِّرُّ: مَا كان من سُوء حالٍ أو فَقْرٍ أو شِدَّةٍ في البدن، ومنه قول إخوة يوسف عليه السلام له وهم لا يعرفون أنه أخوهم كما جاء في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿... قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ... ﴿٨٨﴾﴾.

﴿نَفْعًا﴾: النفع الخير، وكلّ ما يَتوصّل به المخلوق إلى مطلوب يسُرُّه.

قول الله تعالى:

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾:

أي: وهؤلاء الشركاء المعبودون من دون الله لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً لم يُرِدْهُ الله، من دفع موتٍ أو جَلْبِه، أو منعِ حياةٍ أو جلبها، أو إحياء بعد الموت.

﴿نُشُورًا﴾: أي: بَعْثاً إلى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْت. يقال لغةً: نَشَر اللَّهُ الميِّتَ يَنْشُرُه نَشْراً ونُشُوراً، ويقالُ أيضاً: أَنْشَرَهُ، فَنَشَرَ الميّتُ، إذا أحياه فَحَيِي.

وجاءت كلماتُ «مَوْتاً» و«حَيَاةً» و«نُشُوراً» نَكِرَاتٍ في سياق النفي لتعمَّ كلّ موتٍ وحياةٍ ونُشُورٍ، لأَنْفُسِهم وغَيْرِهم، وألْمَحَ النصّ إلى أنّ مالك الموت والحياة والنشور هو الله عزَّ وجلّ.

إجمال معاني هذه الآية بوجه عام:

واتخذ المشركون الكافرون اخْتِلاقاً واصطناعاً وافتراءً على الحقيقة من دون الذي له مُلْكُ السماوات والأرض الذي له الفوقيَّةُ الْمُطْلَقَةُ، معبودين سوى الله عزَّ وجلّ، فجعلوهم كذباً وزوراً آلهة يعبدونهم كعبادة الله، وهم لا يستحقون شيئاً من عناصر العبادة، لأنّهم مُجَرَّدونَ من الصفات التي يمكن أن يتوهَّمُها عابدوهم فيهم.

وقد ذكر الله عزَّ وجلّ من صفات الآلِهَةِ الذين يَعْبُدهم المشركون من دون الله أربع صفات، تقتضي فَسَادَ مذهبِ المشركين في اتّخاذهم إيّاهم آلهة، ومِنْ بديعِ البيان القرآنيّ أنَّ هذه الصفات الأربع قد ذُكِرتْ في مُقَابل الصّفات الأرْبع التي وصف الله بها نفسه في الآية الثانية من السورة.

الوصف الأوّل: أنّهم لَا يَخْلُقُون شيئاً ما، صغيراً كان أَمْ كبيراً.

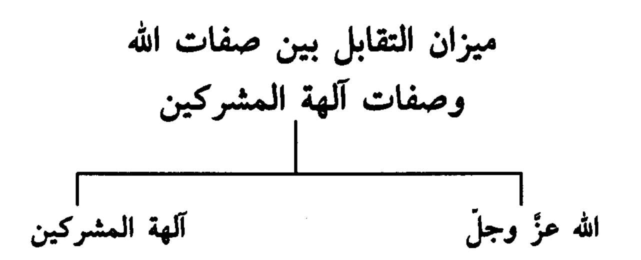
الوصف الثاني: أَنَّهُم يُخْلَقُونَ خَلْقاً من بعد خلق، ما داموا في الوجود، وذلك بإمساكِهِمْ فيه، وإمدادِهم بما يحتاجون إليه لاسْتِمْرار وُجُودهم، بعد أنْ بدأ خَلْقَهُمْ إذْ أوجدهم ولم يكونوا من قَبْلُ شيئاً مذكوراً.

الوصف الثالث: أنّهم لا يملكون لأنفسهم دفع ضرٍّ أو جلْب نفع، فهم لا يملكون لعُبَّادِهم شيئاً من ذلك بداهة، ومن باب أولى.

الوصف الرابع: أنَّهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم موتاً ولَا حياةً ولا نُشوراً.

فاتّخاذُهُمْ آلهةً مِنْ دُونِ الّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ والأرض عَمَلٌ باطل وافتراءٌ على الله في حقه على عباده.

إنَّ المشركين لو اسْتَبْصَروا الحقَّ وعقلُوا وأَنْصَفُوا، وهجروا تقاليدهم العمياء، وتعصُّبَهُم لما كان عليه آباؤهم، وتَركُوا عِنَادَهم واتّباعَهُمْ لأهوائهم، لاستغفروا الله لذُنوبهم، وتابوا إليه، وآمنوا بالله وبرسوله وبِكتَابه الّذي نزّله عليه، وأسْلَمُوا وعبدوا الله وَحْدَه نابِذين عبادَتَهُمْ لآلهَتِهِم الّذين اتّخذُوهُمْ شُرَكاء لله، ولفَعَلُوا كما فعل الذين آمنوا وأسلموا من قومهم.



الله عزّ وجلّ	آلهة المشركين
١ ـ له مُلْكُ السَّماوَاتِ والأرْض.	١ ـ لا يَخْلُقُونَ شيئاً.
٢ ـ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً.	٢ ـ وَهُمْ يُخْلَقُون.
٣ ـ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في الْمُلْكِ.	٣ ـ وَلَا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً.
٤ ـ وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً.	٤ ـ وَلَا يَمْلِكُون مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (٤ ـ ٦)

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

في هذا الدرس بيان موقف الذين كفروا من القرآن (الفرع الثاني) من فروع موضوع السورة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

المرادُ بالّذِينَ كَفَرُوا هُنَا عُتَاة مُشْرِكي مكة، وكذلك الّذين بلغتهم

دعوة الرَّسُول وقالوا مثل قولهم، فالسورة كما سبق بيانُه مكيّة التنزيل، وهي تتحدَّثُ عنهم.

من المثير للإعجاب التنويع البديع في العبارات لدى الحديث عن الكافرين المعنيّين في السورة.

- ففي الآية (٣) تحدَّث اللَّهُ عزّ وجلّ عنهم بعبارة: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾.
- وفي الآية (٤) تحدّث الله عزّ وجلّ عنهم بعبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.
- وفي الآية (٢١) تحدّث الله عزّ وجلّ عنهم بعبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾.
- وفي الآية (٣٢) تحدّث الله عنهم بعبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ومع ما في هذا التنويع من تَفنُّنٍ بديع في التعبير عنهم نُلاحظ الملاءمة بين العبارة المختارة وما جاء بعدها من موضوع.

فعبارة: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ اقترنت ببيان ما كانوا عليه قبل عرض موقفهم من القرآن والرسول والدّعوة الجديدة في بيئتهم.

وعبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ اقترنت ببيان موقفهم من القرآن والرسول والدِّين الجديد، إذْ هو موقف الكفر ورفض الحجج والبراهين الإيمانية.

وعبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يخافون لقاء الله، اقترنت ببيان مطالَبَتِهم بإنْزال الملائكة عليهم، أو برؤية ربّهم، مع أنّهم لو حَقَّقَ الله طَلَبَهُمُ لكان بذلك هلاكهم، بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

﴿كَفَرُوٓاْ﴾: يأتي الكُفر في اللّغة بمعنى جُحُودِ النّعمة، وهو ضِدُّ الشكر، يقال: كَفَر بالنّعمةِ إذَا جَحَدها وسَتَرها.

وأصلُ معنى الكُفْرِ في اللّغة تَغْطِيَةُ الشيءِ تغطيةً تَسْتهلكُهُ، وكلُّ من سَتَرَ شيئاً فقد كَفَرَهُ وكَفَّرَهُ، ولذلك يقالُ للزَّرَّاع كافر، وتسمِّي الْعَربُ الزُّرَّاع كُفّاراً، لأنّهم يَكْفُرُونَ الحبَّ الْمَبْذُورَ بتراب الأرض.

فينبغي أن يكون الكافر في الدِّين هو الذي سَتَرَ أدِلّة الإِيمان وجَحَدهَا، بعد أن وضحَتْ له، وليس الكافرُ هو مَنْ كَانَ خَالِيَ الذهن من أدلّة الإِيمان، ولا الباحثُ عنها، ولا المتريثُ حتَّىٰ تتّضح له أدلّة الإِيمان، بل هو العارف بحقائق عناصر الإِيمان الساتِرُ لها.

ومِنْ هذا يتّضح لنا أنَّ الكُفْر في مفهوم الدين هو موقف الرَّفْضِ والْجُحود، بعد معرفة الحقّ ببراهينه، وهذا ما تدلّ عليه الاستعمالات القرآنية، مثل: «**إنّ الذين كفروا ـ وقال الذين كفروا ـ وقال الكافرون ـ والذين كفروا ـ من كَفَر فعليه كُفْرُه ـ ومن كَفَر فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ**» إلى غير ذلك.

﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾:

أي: ما هذا القرآن إلّا إفْكٌ افْتَرَاهُ محمّد بنُ عبد الله على ربّه.

﴿إِنْ﴾: حرفُ نفي بمعنى «ما» النافية. والمشار إليه باسم الإِشارة «هذا» القرآن الذي جاء الحديث عنه في الآية الأولى من السورة تحت عنوان (الفرقان).

﴿إِفْكٌ﴾: الإِفْكُ الحديث والكلامُ الكذب بوجه عامّ، سواءٌ أكان عن عمْدٍ واختلاقٍ من المحدّث به، أم عن غير عمد منه، كأن كان متوهّماً أو ناقلاً.

يُقَالُ لُغَةً: أَفَكَ يَأْفِكُ أَفْكاً وَإِفْكاً وَأُفُوكاً، ويُقالُ أيضاً: أَفِكَ يأْفَكُ إفكاً، إذا كذبَ، أوْ حدَّث بكلامٍ كَذِب.

وأصْل الإفْكِ في اللّغةِ: صَرْفُ الشَّيْءِ عن وجهه الذي ينبغي أن يكون عليه. فيقالُ: أَفَكَ فُلَانٌ فُلاناً عن الشيءِ أَفْكاً إذا صرفه عنه، ومنه قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾: أي: يُصْرَفُ عنه مَنْ صُرِفَ.

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي: اختلقه عن عَمْدٍ، يُقالُ لغة: افترى الحديثَ افتراءً، إذا اختلقه كذِباً عن عَمْد. ويقال أيضاً: فَرَىٰ فُلانٌ الكذِبَ يَفْرِيهِ إذا اخْتَلَقه واصطنعه كذباً.

والاسم منه «الْفِرْية» وجمعُها «الْفِرَىٰ».

وأصْلُ معنى الْفَرْي قَطْعُ الْجِلد، ومنه سُمّيَ قَطَّاعُ الجلودِ فَرّاءً، ويكون للإِصلاح، ولصنع أشياء نافعةٍ من الجلد.

أمّا الإِفراء فهو قطع الجلد في الإِفساد، وهو مصدر أَفْرَىٰ الرّجُلُ الْجِلْدَ إذا قَطَعَهُ مُفْسداً له.

ويُقالُ: افترىٰ الرجلُ الجِلْدَ افتراءً، ويَغلبُ في هذا أن يستعمل في الإِفساد، وقد يُستعمل في الإِصلاح.

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾:

هذه مقولة بيَّنَ الله عزَّ وجلّ أنَّهم قالوها، والظّاهر أنّها مقولة قالها بعضهم، وأقَرّها من بَلَغَتْه منهم، ولم يواجهوا بها الرسول، وقد جعلها الله قرآنا يُتْلَىٰ ليفضح ما يَهْمِسُون به، ويتحدّثون به فيما بينهم، دون أيّ دليل، ليكشِفَ لِلْعُمُومِ افتراءاتهم السّخيفات، وتعلّلاتهم الباطلات.

إنّه لو وُجِد قومٌ يُعِينُونَهُ على وضْعِ آياتِ القرآن وسُوَرِهِ فإنَّهُمْ لا بُدَّ أن يكونوا أحد فريقين:

- فإمّا أن يكونوا من الكَافِرين به المجافين لِدينِه، وهؤلاء لا بُدَّ أن يكشفوا سرّه.

• وإمَّا أن يكونوا من المتابعين له، وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا صادقين في الإيمان به، ولا بُدَّ أنْ يفرضوا عليه أن يكُونُوا شُرَكَاءَ له في قيادة الدعوة وتأسيسها واستثمارها، ثمّ لا بدّ أن يختلفوا معه وينْفَصِلُوا عنه، ويصنعوا لأنفسهم كتاباً مستقلًّا.

لكنّ شيئاً من ذلك لم يَحْدُث البتّة، فقد كَانَ متابعوه متفانين في مناصرته، غير طالبين لأنْفُسِهم من الزعامة الدينيّة شيئاً، وكانوا مُضَحِّين بأنفسهم في سبيل دعوته، وهذا ما كان عليه جَمِيعُ مؤمني العهد المكيّ.

إنّها مقولة طرحوها جزافاً على سبيل الاحتمال التوهّمي، دون أن يُشِيروا فيما يهمسون به إلى أشخاص بأعيانهم. لذلك كان الردّ القرآني مقتصراً على بيان أنّهم في قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ ظالمون ومدّعون ادّعاءً زوراً.

فقال الله تعالى:

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾:

الظُّلْمُ: الجورُ ومجاوزة الحدّ، ووضع الشيء في غير موضعه، والعدوان على حقّ ذي حقّ ما.

الزُّور: الباطل، وشهادة الباطل، والكذب.

إنّ قول الذين كفروا الذي عرضته الآية الرابعة من السورة يشتمل على ثلاث قضايا:

القضية الأولى: قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾.

أي: ادّعاء كونه كلامَ الله ادّعاءٌ كذب، فكل ما يشتمل عليه ليس من عند الله.

إنّ هذا القول منهم ظلم للحقيقة القرآنية، فما اشتمل عليه القرآن من

حقائق وبيانات معجزات دليل على أنّه ليس كلام بشر، ودليلٌ على أنّه تنزيل من حكيم حميد.

فقولهم: «إنَّه إفكٌ» جورٌ ومجاوزة للحدّ، ووضعٌ للشَّيْء في غير موضعه، وعدوانٌ على حقّ الله في أنّ هذا القرآن كتابه، أنزله على عبده محمد بن عبد الله ﷺ.

القضية الثانية: قولُهم عن الرسول: «إنّه افترى القرآن من عند نفسه، ونَسَبَهُ إلى الله عزَّ وجلّ».

وفي هذا القول اتهامٌ منهم للرسول بالافتراء على الله، وهذا الاتّهام منهم فيه ظلم لخُلُقِ الرسول الصادق الأمين، وفيه شهادةُ زورٍ عليه بأنّه مفترٍ.

فهم ظلْمٌ من جهة، وزورٌ من جهة أخرى.

القضية الثالثة: قولُهُمْ عن الرسول: «أعانه على وضع القرآن وتأليفه قومٌ آخرون» هو من قبيل شهادة الزور الكاذبة.

لذلك كان البيان القرآني في غاية الدّقة، إذْ ذكر أنّ ما جاءوا به ظلمٌ وزور، فقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

المجيء: الإتيان، يُقالُ لغةً: جَاءَ يَجيءُ جَيْئاً وَمَجِيئاً وجَيْئَةً، أي: أَتَى. ويقال نحو: جاء النذيرُ القومَ، أي: أتاهم. ويُقال: جاءَ إليه، إذا أتى إليه. وجاء بالشيءِ إذا أتى به. ويقال: جاءَ الغَيْثُ، إذا نَزَل. وَجاءَ الأمْرُ، إذا حَدَثَ وتحقّق. ويقال: جاءَ الرَّجلُ العملَ الفلانيّ، إذا فعله، وعلى هذا الأخير يُحْمَل قولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾: أي: فقد فعلوا ظلماً وزوراً.

ونظيره قول الله عزَّ وجلّ حكاية لمقالة موسى للخضر في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿... قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾.

أي: لقد فعلْتَ شيئاً مُنْكراً.

وبناءً على هذا يكون فعل «جاءَ» قد نصبَ «ظُلْماً وَزُوراً» على سبيل التعدية المباشرة، والمرادُ من مجيء الإِنسانِ الشيءَ فِعلُه له، أو كأنَّه قَد جاءَ مكانه فتَلَّبسَ به، فلا داعي لما قاله الزجاج من أنّ «ظُلْماً» منصوب بنزع الخافض، وأنّ أصل الكلام: جاءُوا بظلم وزور.

وظاهرٌ أنَّ ادّعاءَهم أنّ قوماً آخرين قد أعانوا محمّداً على تأليف القرآن ادّعاءٌ توهُّميّ افترائيٌ لا أساس له، ولا شبهةَ ترافقه، كما سبق في التحليل المنطقيّ.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾:

هذه مقالة أخرى قالوها بشأن القرآن، وهي لا تنسجم مع مقولتهم السابقة من أنّه إفكٌ افتراه من عنده وأعانه على تأليفه قومٌ آخرون.

فهذه المقالة تتضمّن أنّه ينقل من كتب الأوّلين، لا يضع من عند نفسه، ويفتري على الله.

لكنّ الكافرين يطرحون الأقوال المتعارضة فيما بينها لمجرّد التشكيك، والتعلّل للتكذيب بالحقّ.

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: تأتي في اللّغة بمعنيَيْن:

• فتأتي بمعنى: أباطيل، وأحاديث لا نظام لها، واحدتها: إِسْطارٌ، وإِسْطارةٌ، وأَسْطُورٌ، وأُسْطُورَة.

• وتأتي بمعْنى: مكتوبات الأوّلين ومسطوراتهم، قال أبو عبيدة: جُمِع «سَطْرٌ» على «أَسْطُرٍ» ثمّ جمع «أَسْطُر» على «أساطير».

أقول: فيمكن حمل قول الذين كفروا عن القرآن: «أَسَاطِيرُ الأوّلِينَ اكْتَتَبَها» على المعنيَيْن معاً.

• فمنهم من لم يتدبّر ما جاء في القرآن فزعم أنّه أباطيل الأوّلين، وأحاديثهم التخريفيّة التي لا نظام لها.

• ومنهم من أدرك ما فيه من علم وحكمة وبلاغة رائعة، فزعم أنّه منقولٌ من مكتوبات الأوّلين، أي: من كتب أهل الكتاب.

﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾: أي: طَلَبَ أن تكتبَ له، لأنهم يعلمون أنّه أُمِّيٌّ لا يَقْرأ ولا يكتبُ.

﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾: أي: فهي تقرأ عليه فيأمر كاتبه بكتابتها. الإِملاءُ، والإِمْلَالُ، في اللّغة: إلقاءُ القول أو قراءته على الكاتب ليكتبه كما أُمْلِيَ عليه.

يقال لغةً: أَمْلَىٰ القولَ، وأَمْلَلَهُ، إذا قاله، فكتبه له الكاتب كما قاله.

قال الفرّاء: أَمْلَلْتُ، في لُغة أهل الحجاز وبني أسد، وأَمْلَيْتُ لُغةُ بني تميم وقيس.

ويقال أيضاً: أَمَلَّ عليهِ شيئاً ليكتُبَه، أي: أمْلَاهُ عليه.

﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾: **الْبُكْرَةُ**: أَوّل النّهارِ إلى طُلوع الشمس.

والأصيل: الوقت حين تصفَرُّ الشمس لمغربها، ويُجْمع على أُصُل، وأُصْلَان، وآصَال، وأصائل.

وقد حدّدوا وقْتَي الْبُكرَة والأصيل للإِيهام بأنَّ محمّداً يختار هذين الوقتين اللّذين تكونُ الطرقات فيهما غير مراقبة من الناس، فهو يتسلّل فيهما بعيداً عن الرّقباء، ليَكْتتِب ما لدى بعض أهل الكتاب الموجودين في مكة آنئِذٍ، أو ليكتتب خرافات وأباطيل الأوّلين.

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

في هذا النصّ يُعَلِّمُ الله عزَّ وجلّ رسوله وكلّ داعٍ إلى دين الله من بعده الرّدّ الذي يُجِيبُ به على من يَزْعُمُ أنّ القرآن اكتتبه محمّد من أساطير الأوّلين.

ومن الملاحظ أن هذه المقولةَ الجاهليَّة نفسَها يُرَدِّدها في عصورنا اليوم المبشرون والمستشرقون من اليهود والنصارى، على الرغم من سقوطها وبُطْلَانها تماماً بَعْدَ النظر المقارن بين القرآن وبين كلّ مكتوبات الأوّلين، إذ يَتَبَيَّنُ لكلّ باحثٍ أو قارئٍ عاديّ أنّها مقولة باطلة لا قيمة لها مطلقاً، وهي لا تزيد على كونها افتراءً يُكَذِّبه الواقع.

أما قَوْلُ من يزعم أنّ القرآن أباطيل وأحاديث لا نظام لها، فهو قولٌ يُسْقِطُه بداهةً استماعُ القرآن فقط، والتفكُّرُ العاديُّ في دلالاته، فإعجازُ القرآن في مبناه وفي معناه ينسف هذا الزعْمَ نَسْفاً، فهو لا يحتاج إلى ردّ.

وأمّا الرّدّ على من يزعم أنّ القرآن منقول من كُتب أهل الكتاب الأوّلين، فيتخلّص ببيان أنّه أَنْزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السّرَّ في السماوات والأرض.

ولنفْهَم مضمون هذا الرّدّ لا بدّ أن نُحلّل العناصر التي جاء بها القرآن، ولا بدّ أيضاً أن ننظر في أحوال أصحاب القول، وما يَعْلَمُ الله من أسرارهم التي يكتمونها.

• أمّا النظر من جهة تحليل العناصر الفكريّة الَّتي اشتمل عليها القرآن، والعناصر البلاغية التي اشتملت عليها مبانيه اللّفظية، فإنّه يَهْدِي الباحث إلى ما يلي:

أولاً: لا تشابُهَ مطلقاً بين ما جاء في القرآن من أسلوب بيانيّ معجز، وبين أيّ مكتوباتٍ سابقات جاءت قبل القرآن بصفةٍ عامّة، وهذا يدلّ على نفي الاقتباس اللّفظي حتماً.

ثانياً: إنّ ما جاء في القرآن من قضايا الدّين الّتي سبق إنزال معانيها

في الكتب الرّبّانيّة السابقة (صحف إبراهيم وموسى والتوراة والزبور والإنجيل وغيرها) يؤكّد أَنَّ الْمُنَزِّل واحد، هو الله عزَّ وجلَّ، لو أنَّ هذه الكتب السابقة قد بقيت كما أُنْزِلَتْ غَيْرَ محرّفة، ولا مُبدَّلة، ولا ضَائِعةِ الأصول.

لكنّ ما يتداوله أهل الكتاب إنَّما هو مكتوبات مُحَرَّفَةٌ مُبَدَّلَة عن أصولها الصحيحة، بتغييرٍ وزيادَةٍ ونقصٍ، فلا تطابق بين واقعها الذي هو في أيدي أهل الكتاب وبين ما جاء في القرآن، باستثناء القدر القليل غير المحرّف منها.

والأصولُ الصحيحةُ للكتب الّتي أنزلها الله عزّ وجلّ على الرسل السابقين قد أصبحت سِرًّا مخفيًّا من الأسرار، وبما أنّ دين الله واحد لكل الرسل فلا بُدّ أن تتطابق مضامين رسالات الرّسل المبعوثين من الله عزَّ وجلّ، لكنّ هذه الكتب مفقودة، فلا يستطيع أحد من الناس أن ينقل منها وهي سرٌّ من الأسرار.

وهذا يدلّ على أنّ القرآن قد أنزله الذي يعلَمُ السرّ في السماوات والأرض، فالقرآن مهيمن على ما لدى أهل الكتاب من كتب يقولون: هي من عند الله، فهو يُصحّحُ أغاليطها، ويكشف ما فيها من تحريفات، ويُثْبت ما ضاع منها، ويُضِيف ما اقتضاه تكميل الدين أو تعديل بعض ما فيه ممّا اقتضت الحكمة تعديله لمراعاة أحوال التطوّر البشري.

فالجواب الملائم على هذا ما جاء في التعليم الرّبّانيّ:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ثالثاً: قد جاء فيما نزل من القرآن قضايا هي حقائق من أسرار السماوات حول عوالم الأفلاك والكواكب والنجوم، ومن أسرار الأرض حول الأشياء والأحياء، ومنها الإنسان، وهذه من خصائص القرآن وأنواع

إعجازه، وهي غير موجودة في الكتب السماويّة السابقة، وهذه لا يعلمها من الناس أحد إبّان التنزيل، ووجودها في القرآن دليل على أنّ منزّله هو الذي يعلَمُ السّرّ في السماوات والأرض، فالجواب الملائم للتنبيه على هذه القضايا هو ما جاء في التعليم الرّبّاني:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

رابعاً: إنّ الّذين قالوا: (أَسَاطِيرُ الأوّلين اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) يعلمون من حقيقة أنفسهم أنّهم كاذبون، وأنّهم لا بيّنةَ لهُمْ على ما يدّعون، وأنَّهم يقولون قولهم هذا لتضليل أتباعهم، وصَرْفِهم عن التأثر بالقرآن واتّباع الرسول.

فالجواب التهديديّ الملائم لحالتهم هذه ما جاء في التعليم الرّباني:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: فاحذروا عِقابه وعذابه ونقمته على شهادات الزور التي تَفْترونها على رسوله، وعلى أنواع الظلم التي ترتكبونها.

وبعد هذا التهديد أطمعهم الله بمغفرته ورحمته إذا استغفروه وتابوا إليه، وآمنوا واتّبعوا الرسول، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾:

أي: إنّه غفور رحيم دواماً، فَفِعْلُ الكينونة ولو جاء فعلاً ماضياً له دلالة الديمومة والاستمرار في بيان صفات الله عزّ وجلّ، لأنّ ما كان لله من الصّفات فهو أزليٌّ، وما هو أزليٌّ هو أَبَدِيٌّ باللُّزوم العقلي.

غَفُور: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «غافر»، أي: كثير الغفران وعظيمه، وأصل الْغَفْرِ في اللّغة السَّتْر. فهو سبحانه يَسْتُرُ ذُنُوبَ عباده.

ويأتي فوق الغفران «التكفير» الذي يدلّ على معنى الستر بالدفن،

ويأتي فوقه (العفْوُ) الذي يدلّ على معنى محو الأثر، ويأتي فوقه (رَفْعُ الْجُنَاح) الذي يدلّ على اعتبار الذنب كأن لم يكن، ويأتي فوقه (تبديل السيِّئات حسنات) وهذا أعلى المراتب التي يتفضّل الله بها على عباده[١].

ويظهرُ أنّ الذين كَفَرُوا لم يكونوا إبّانَ نزول سورة (الفرقان) يشيرون إلى أحد من الناس، يزعمون أنّه يُمْلِي على محمد ﷺ أساطير الأوّلين من كتب أهل الكتاب، لذلك لم يتعرّض النصّ هنا إلى الحديث عنهم، لكشف سُقُوط ادّعاء الذين كفروا، إذْ ينسبُون إليهم أنّهم يُمْلُون على الرسول ما لديهم من مكتوبات الأوّلين.

لكنّهم بعد مدّة من الزمن وجدوا لأنفسهم ذريعة، حين رأوا الرسول ﷺ ربّما مرّ لبعض مصالحه على بعض أهل الكتاب في مكّة، فكرّروا مقالتهم، وذكروا اسم أعجميّ جلس عنده الرسول أحياناً يدعوه إلى دين الله، فأنزل الله عزَّ وجلّ قولَه في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

وقد نزل بعد سورة (الفرقان) وقبل سورة (النحل) سبع وعشرون سورة مكيّة.

يُلْحِدُونَ إِلَيه: أي: يميلُون إلى ادّعاء أنّه هو الذي يُعلّمه، بعد أن ألْقَوْا قَوْلَهم السابق جُزافاً، دون أن يستطيعوا الإشارةَ إلى واحدٍ بعينه.

وفي اختيار عبارة «يُلْحِدُون» في هذه المناسبة براعة إلماحيّة، تفيد أن ميلهم هذا إلحاد، أي: دَفْنٌ للحقّ وانحراف عن سواء السبيل.

---

(١) انظر المثال الثاني من أمثلة القاعدة (١٨) من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ» للمؤلف.

فاللّحدُ هو الشقّ الذي يكون في جانب القبر، لوضع الميت فيه، وسمّي لحداً لأنَّه قَدْ أُمِيلَ عن وسطه إلى جانبه. يقال: أَلْحَدَ في الدّين ولَحَدَ، أي: حَادَ عنه. قال ابن السِّكِّيت: المُلْحِدُ الْعَادِلُ عن الحقّ الْمُدْخِلُ فيه ما ليس فيه.

ومادّة الكلمة تدور حول الميل عن الحق، والجور، والظلم والمجادلة بالباطل. ولشَنَاعَةِ الجَوْرِ في مكة سُمِّيَ الجائرُ فيها مُلْحداً.

والرّدّ هنا في هذه الآية من سورة (النحل) واضح جَلِيٌّ، وهو أنّ القرآن مُنَزَّلٌ بلسانٍ عربيّ مبين، وبيانٍ عربيّ معجز، والرسولُ لا يَعلمُ اللّسَانَ الأعجميّ، والأعجميّ المشارُ إليه لا يُحسِنُ العربية، وحين يتكلّم شيئاً منها يتكلّمه بصعوبة بالغة ولُكْنَةٍ ولَحْنٍ، وبأساليبَ بعيدة عن أساليب العرب أصلاً، فادّعاء أنّ الأعجميّ المشار إليه هو الذي يُعلّمه القرآن ادّعاء ساقط جدًّا، لا يقبله ذو عقل منصف.

وفي بيان هذا الرجل الذي زعم الكافرون أنّ الرسول ﷺ كان يتعلّم منه القرآن، وردت بعض روايات.

(١) رُوِي عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُ قَيْناً (أي: حَدّاداً) بمكة، وكان اسمه «بَلْعَام» وكان أعجميّ اللّسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنّما يُعَلِّمُهُ بلعام، فأنزل الله عزَّ وجلّ الآية من سورة (النحل).

(٢) وقال محمد بن إسحاق في السيرة: كان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلامٍ نصراني يقالُ له: جَبْر، عَبْدٍ لبعضِ بني الحضرمي.

وكذا قال عبد الله بن كثير، وعن عكرمة وقتادة: كان اسمه «يَعِيش».

وروي غير ذلك والله أعلم.

إجمال معاني هذا الدّرس:

وقال الذين كفروا من مشركي العرب بشأن القرآن إبّان نزول سورة (الفرقان) أربعة أقوال:

القول الأول: إنّ هذا القرآن الذي يقول محمّد إنّ الله ينزّله عليه، ما هو إلّا كذب لم ينزّله الله.

وليس في هذا القول إلّا التكذيب بغير دليل.

القول الثاني: هذا القرآن افتراه محمّد من عنده، وزعم أنّ الله ينزّله عليه.

وهذا القول الثاني اتهام غير مقترن بدليل، فهو اتّهام باطل ظالم، وشهادة زور.

القول الثالث: يوجد قومٌ آخرون أعانوا محمّداً على تأليف القرآن. وهذا القول الثالث لم يقترن ببيان ولا بتحديد القوم المتهمين بمعاونة محمّد على تأليف القرآن أو ابتكاره.

فارتكبوا بأقوالهم الثلاثة هذه جريمتين: جريمة الظلم لحقّ القرآن، وحق الرسول، وجريمة شهادة الزور ضدّ الرسول بأنّه مفتر، وبأنّه يعينه على افترائه على الله قومٌ آخرون.

القول الرابع: هذا القرآن منقولٌ عن أساطير الأوّلين، أباطيلهم أو مكتوباتهم، طلب محمّد إملأها عليه من بعض العارفين بمكتوبات الأوّلين، فهو يذهب إليه بُكْرَةً وأصيلاً، وهو يطلب من كتّابه أن يكتبوها له.

فردّ الله عليهم بأنّ مضامين القرآن تكذّب هذا القول من أقوالهم، لأنّ فيه حقائق وعلوماً لا يَعلَمُها أحَدٌ من الناس، وهو منْ أسرار العلم،

وبأنّ الله مطّلع على ما يسِرُّونه في أنفسهم، من أنّهم يكذبون على الرسول في ادّعائهم هذا، ويضلّلون أتباعهم به، وقد أجمل الله عزَّ وجلّ هذا الرّدّ بقوله:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وأخيراً أطمعهم الله عزَّ وجلّ بغفرانه ورحمته، إذا استغفروا وتابوا وآمنوا واتّبعُوا الرسول، فقال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

فهو سبحانه كثير الغفران لعباده، عظيم الرحمة بهم.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الثاني من دروس السورة.

بعون الله ومدَدِه وتوفيقه وفتحه.



(٨)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (٧ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾:

القراءات:

(٩) • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَفٌ: [جنَّةٌ نَأْكُلُ مِنْها] بضمير المتكلمين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ بضمير الغائب العائد على الرسول ﷺ.

وبين القراءتين تكامل في تأدية المعنى المراد، إذْ عبّرتا عن قولهم، يأكُلُ الرَّسول منها، ونأكلُ نَحنُ منها أيضاً. فأغنت القراءتان في كلمة واحدة عن ذكر الكلمتين في بناء الجملة[١].

(١٠) • قرأ ابْنُ كثير، وابْنُ عامِرٍ، وشُعْبَةُ: **[وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُوراً]** برفع فعل «يَجْعَلُ» على الاستئناف، أي: وهو يَجْعَلُ لك قصوراً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ بجزم فعل «يَجْعَل» عطفاً على محلِّ «جَعَلَ» وهو الجزم، باعتباره جواب الشرط.

والقراءتان وجهان عربيان جائزان، ومؤدّاهما واحدٌ.

تمهيد:

هذا الدرس متعلقّ بالفرع الثّالث من فروع شجرة السُّورة: (وهو الرسول) مع القسم الهابط من قسْمَيْ الفرع الرابع (وهو المرسل إليهم).

وقد تضمّن هذا الدرس بيان تعلُّل المشركين ببشَرِيَّة الرسول محمّد ﷺ، الّتي من مظاهرها أنّهُ يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق لكسب معاشه، وقدموا مقترحات زعَمُوا أنّها لازمة لو كان رسولاً حقًّا، فردّ الله عليهم بما يكفي لإقناع أولي الألباب.

---

(١) انظر القاعدة (٤٠) من كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل» للمؤلف.

التدبر التحليلي:

لقد اتَّخذُوا كونَه بشراً من البشر ذريعة لإنكار نبوّته ورسالته، وتكذيبه فيهما، والكفر به وبما جاء به عن ربّه، دلّ على هذا قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾:

أي: وقالوا مستفهمين استفهاماً تَعَجُّبِيًا من ادِّعاءِ كونه رَسُولاً، والحالُ الثابتُ له أنّه يأكُلُ الطعامَ ويَمْشِي في الأَسْواق، والمعنى أنّ الرَّسُول الْمَبْعُوثَ من عِنْدِ الله لا ينبغي له أن يَكونَ بَشَراً يأكُلُ الطّعَامَ ويمشي في الأَسْواق كسائر البشر، فهٰذان أمرانِ مُتَنَافِيَان، فما هو الشَّيْءُ الَّذِي اختصّ به فجَعَلَهُ يخرج عمّا ينبغي للرّسول كما نفهم، فيكون رسولاً مع أنّ حاله الظاهرة أنّه يَأكُل الطعام كسائر البشر، ويمشي في الأسواق كآحاد النّاس.

فلفظ [مَا] اسم استفهام، وهو مبتدأ. وعبارة [لِهَذا] متعلّقة بمحذوف هو خبر المبتدأ. وكلمة [الرَّسُول] بدَل أو عطف بيان من اسم الإشارة [هذا] ومرادُهم: ما لهذا الذي يدّعي أنه رسول. واللّام في [لِهذا] بمعنى المِلْكِ أو الاختصاص.

ومعنى الجملة: أيُّ شيءٍ امتلكه محمّد أو اختصّ به حتى استطاع بسببه أن يكون نبيًا رسولاً مع أن حاله أنّه يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، هذا أمرٌ يدعو إلى العَجَب منه، والإنكار عليه، فهو إذن ليس نبيًا ولا رسولاً.

هذا هو منطقهم الذي قَدّمُوه في هذه الجدليّة الباطلة، الَّتِي تَوَلَّى القرآن الرّدّ عليها فيما بعدُ في الآية (٢٠) من السورة.

بعد هذا الاعتراض على بشرية الرّسول محمّد ﷺ الذي رأوا أنّه من القوّة بحيث يُبْطِلُ في أذهان من يتأثّر به صِحَّةَ ادّعاء كونه نبيًا رسولاً، قَدَّموا مُقْتَرحَاتٍ زعَمُوا أنّه لو أُوتِيَها أو بعضاً منها لكان قد مَلَكَ بذلك

شيئاً يجعل ادّعَاءَه أنّه نبيٌّ رسُولٌ أمراً صالحاً لأن يُقبل، ويُنْظَرَ فيه باهتمام من أهل الفكر والنظر.

الاقتراحُ الأوّل:

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾:

﴿لَوْلَآ﴾: هنا حرفُ تحضِيضٍ بمعنى «هَلَّا».

والمعنى: هَلَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ يؤيّدهُ في كونه نبيًّا رسولاً، فيكونَ هذا الْمَلَكُ مَعَهُ مُبَلغاً ومبشراً ونَذِيراً، وعندئذٍ نُصَدِّقُه، إذْ يكون الْملَكُ معه بمثابة شاهدٍ له من عند الله، يشْهَدُ له بصدق نبوّته ورسالته، وصدق تلقّيه الوحيَ عن الله، وأنّ له مع عالم الملائكةِ الغيبيِّ صلةً تُؤهِّلُهُ لأن يكون نبيًّا رسولاً.

الاقتراح الثاني:

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾:

أي: أو يُلْقَىٰ إليه بعطاءٍ من الله كنْزٌ يحوي مالاً وفيراً يُنْفق منه على نفسه وعلى أهله وعلى قومه، ولا يكونُ بحاجة إلى كسب رزقه كسائر الناس، نظير إلقاء الذكر أو إنْزَال الذّكْرِ عليه كما يدَّعي. فالقادر على إنزال الذكر عليه لو أنّه كان كلام الله حقًّا قادرٌ على إلقاء كَنْزٍ من السماء إليه.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ﴾: الإلقاء لشيءٍ ما يكون بدفعه مرّةً واحدة، لا على سبيل التجزئة والتدرّج.

وقد اقترحوا إلقاء الكنز إِلَيْهِ، لأنَّهم كَانُوا يعلمون أنّه ليس ذا مالٍ واسع، فهم يريدون أن يُفاجئهم بأنّه أُلقيَ إليه كنْزٌ من عند الله، لا أن يأتِيَه الغنىٰ واليَسار على سبيل التدرّج، كما يَجْمع الناس ثرواتهم، ليكون

هذا العطاء الرّباني بمثابة شَاهِدٍ له من الله يشهد بأنه نبيٌّ رسول صادق فيما يبلّغ عن ربه، ولعلّهم يُصيبون من عطاءاته المالية من الكنز الذي يُلقىٰ إليه.

الاقتراح الثالث:

﴿... أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ ...﴾:

ويأكلون هم منها أيضاً، بدليل القراءة الأخرى.

﴿جَنَّةٞ﴾: أي: بستان فيه أشجار كثيرة ساترة وثمارٌ وزروع.

وهذا الاقتراح طَلَبُوا فيه أن يخصَّه الله بهذه الجنَّةِ في مكة الَّتي لم يكن بها زرْعٌ ولا بَسَاتين، على سبيل العطاء الرّبّاني المفاجئ وعلى خلاف مجرىٰ السُّنَن المعتادة، ليكون هذا العطاء الرّبّانيّ له بمثابة شاهد له من الله، يشهد بأنه نبيٌّ رسولٌ صادقٌ فيما يُبَلّغ عن ربّه.

أي: وبما أنّه لم يُنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فيكُونَ مَعَهُ مبلغاً ومبشراً ونَذِيراً، ولم يُلْقَ إِلَيْهِ كَنْزٌ من عنْدِ رَبّه بطريقة مفاجئة، ولَمْ تَكُنْ له جَنَّةٌ في مكّة على خلاف مجرى العادات يخصُّهُ اللَّهُ بها، فهو إذن ليس نبيًّا ولا رسولاً صادقاً.

فاعترضوا على بشريّة محمّد التي تتنافىٰ بحسب زعمهم مع النبوة والرسالة، ثُمّ قدّموا مقترحات إصلاح الوضع ليَقْبَلُوه رسولاً على الرغم من بشريته.

فلم يستجب الله لمقترحاتهم لأنها منافيّة للحِكمة، وردّ على اعتراضهم بأنّ كلّ الرسل السابقين قد كانوا يأكُلون الطّعَام ويمشون في الأسواق كما جاء في الآية العشرين من السّورة، وردّ على مقترحاتهم بأنّه لو شاء لأعطىٰ رسولَهُ محمّداً أكثرَ مِمّا اقترحوا بكثير، لكنّ حكمته سبحانه

جَعَلَتْهُ لَا يَشَاءُ ذلك، وهذا الرّدّ قد جاء في الآية العاشرة من السورة.

أمّا مقترحاتهم فقد ورد في الخبر عنها ما يلي:

روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس: أنّ عتبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضرَ بن الحارث، وأبا البَخْتَري والأسود بن عبد المطلّب، وزمعة بن الأسود، والوليدَ بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أميّة، وأمية بنَ خلف، والعاص بن وائل، ونَبِيهَ بن الحجّاج، ومُنَبِّه بن الحجّاج، اجتمعوا، فقال بعضُهم لبعضٍ:

«ابعثُوا إلى محمّد، وكلِّمُوه، وخاصِمُوه، حتَّىٰ تُعذِروا مِنْهُ».

فبعثوا إليه: إنّ أشراف قومكَ قد اجتمعوا لك ليُكَلِّموكَ.

قال: فجاءهم رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمّد! إنّا بعثْنَا إلَيْكَ، لِنعذِر منك، فإن كُنتَ إنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلُبُ به الشرف فنحن نسوِّدُك، وإنّ كنْتَ تُريدُ به مُلكاً ملَّكْنَاكَ.

فقال رسول الله ﷺ:

«ما بي ما تقولون، ما جئْتكُمْ بما جئتكم به أطلُبُ أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا المُلْكَ عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزلَ عليّ كتاباً، وأمرني أن أكُونَ لكم بَشِيراً ونذيراً، فبلّغتُكُمْ رِسالة ربّي، ونصَحْتُ لكم، فإنْ تقبلُوا منّي ما جئتكُمْ به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصْبِرْ لأمْرِ الله، حتَّىٰ يحكُمَ اللَّهُ بيني وبينكم».

قالوا: يا محمّد! فإنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابلٍ مِنَّا شيئاً ممّا عَرَضْنَا عليك، أو قالوا: فإذا لم تفعل هذا فَسَلْ لِنَفْسِكَ وَسَلْ لرَبّك أن يبعثَ مَعَكَ مَلَكاً

يُصَدِّقُكَ بما تقول، ويراجعُنا عنك، وسَلْهُ أنْ يجعلَ لك جِنَاناً وقُصُوراً من ذهب وفضّةٍ تغنيكَ عمّا نراك تبتغي، فإنّكَ تقوم في الأسواق، وتلتمسُ المعاش، كما نلتمسه، حتى نعرف فضلَكَ ومنزلتك من ربّك إنْ كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالّذي يسأل ربّه هذا، وما بُعِثْتُ إليكم بهذا، ولكنَّ الله بعثني بشيراً ونذيراً». فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ...﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾؟.

وبعد الاعتراض، والمقترحات، وعدم الاستجابة لها، وجد الكافرون ذريعة لأنفسهم أنْ يَتّهِمُوا الرّسُول محمّداً ﷺ بأنّه رجُلٌ مَسْحُور، فجاءوا إلى جماعات من المؤمنين به، وقالوا لهم عن الرسول ظلماً وعدواناً: إنْ تَتّبِعُونَ إلّا رَجُلاً مَسْحُوراً. عَسَىٰ أن يرتدّوا عن دينهم الّذِي آمنوا به استجابةً لدعْوَةِ الرسول.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾:

﴿إِن﴾: حرْفُ نفي بمعنى «ما» النافية، أي: ما تَتّبِعُونَ أيّها المؤمنون به، المطِيعُون له، إلّا رجلاً مَسْحُوراً، والمعْنَى أنَّه ليس نبيًّا ولا رسولاً، بل هو رجل مَسْحور.

المسْحُور: هو الذي أصابه سِحْر السَّحَرة، ويريدون من ذلك أنّه يتصرّف بغير إرادَةٍ واعيةٍ منه، وهذا تراجعٌ منهم عن اتّهامهم الأوّل له: بأنّه مفترٍ على ربّه، كذّاب يَصْنَع الكذب، وعن اتهامهم له بأنّه سَاحِر، لأنّ الساحر ذكيٌّ خبيثٌ شيطان، وهو يتصرّف بتصنّعٍ وَوَعْي كامل، بخلاف المسحور.

ففي سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) وصفوه بأنّه ساحر كذّاب، إذ جاء فيها قول الله عزَّ وجلّ بشأنهم:

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

ويظهر أنّ هذا الاتّهام لم تستَجبْ له الجماهير، لا من أتباع الرسول محمّد ﷺ، ولا من أتباع الذين كفروا، فالرَّسول لم يظهر عليه شيءٌ من الكذب، ولم تظهر عليه أيّة أمارَةٍ تدُلُّ على أنه ساحر.

فتراجعوا عن مقالهم الأول إبّان نزول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) فزعَمُوا أنّه رجلٌ مَسْحُورٌ يتصرّف بغير وعيٍ منه.

وهكذا تذبذبت أقوالهم وتردَّدَتْ بَيْنَ المتناقضات والأضداد، في تخبُّطٍ يُثير العجب حقًّا.

وقد ذكرهم الله عزَّ وجلّ بوصف «الظالمين» في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

لأنّ الصفة البارزة هنا فيما طرحوه من اتّهام الرسول بأنّه مسحور، هي صفةُ الظلم لشخص الرسول ﷺ، الذي يتلّقىٰ الوحي عن ربّه، ولا يَستطيع السَّحَرَةُ أَنْ يُؤَثّرُوا على شيءٍ من قدراته الفكريّة والنفسيّة، يُضاف إلى ذلك أنّه لم يظهر عليه شيْءٌ يدلُّ على أنّه مسْحُور، فلا اضطراب في عقله، ولا اضطراب في نفسه، ولا اختلال في تصرّفاته، فادّعاء أنه مسحور ظلم واضح جليّ لكلّ مُشَاهِدٍ للرسول محمّدٍ ومخالِطٍ له، أو مُتَلَقٍ منه دعوةً وهداية. ويُضَافُ إلى ذلك أيضاً أنّ الحقائق الفكرية والعلميَّةَ الّتي يَعْرِضُها عليهم تُثْبِت للجميع أنّها حقّ وهدايةٌ ورُشْدٌ، وقَضَايا مقرونةٌ ببراهينها الفكريّة والتجريبيَّة والمشاهَدِيَّة، وهذه أمور لا يأتي بها مَسْحُور، فادّعاء أنّه مسحور ظُلْمٌ له ولما جاء به من حقائق.

فوصْفُهُمْ بأنّهُمْ ظالمون هو الوصف الملائم في هذا الموضوع، والألف واللام في ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للكمال، أي: فالظُّلْمُ فيهم قد بلغ دركته القصوىٰ التي جمعوا فيها أقبح الظلم وأخَسَّه.

❀ ❀ ❀

الرّدّ القرآني على مقترحاتهم واتّهامهم للرّسول بأنه مَسْحُور:

جاء التعقيب المباشر على أقوال الذين كفروا بالرّدّ على مقترحاتهم وعلى اتّهامهم للرسول ﷺ بأنَّهُ مَسْحُور، وبدأ القرآن بالرّدّ على قضيّة اتّهامهم للرسول تطييباً لقلبه، ومواساةً له، واهتماماً بالدّفاع عنه، وثنّى بالرّدّ على قضيّة مقترحاتهم.

أما الرّدُ على تعلُّلِهم بِبَشَرِيَّةِ الرّسول، فقد جاء بعد عشر آيات من السورة، في الآية العشرين منها، إشعاراً بأنَّ هذا التعلُّل أمرٌ لا قيمة له ما دام كُلُّ الرّسُل السابقين في تاريخ البشريّة رجالٌ بشَرٌ يأْكُلُونَ الطَّعَامَ ويَمْشُون في الأسواق، ولهم كلّ صفات البشر، باستثناء اصطفاء الله لهم بالنبوّة والرّسالة، وتكليفهم تبليغ رسالات الله التي يُوحي بها إليهم لِيُبلِّغوها للناس، أمّا الرّدُّ على اقتراحهم تدعيم رسالته بإنزال ملك من السماء إليه يشاهدونه معه، فقد جاء في الآية (٢٢) من السورة.

أولاً: ففي الرّد على قول الكافرين للمؤمنين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ قال الله عزَّ وجلّ:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾:

خاطَبَ الله بهذا الرّدّ رسُولَهُ، تطييباً لقلبه ونفسِه، ومَسْحاً لما أحدثه اتّهامُهُمْ لَهُ في نفسِه من أثَر، وإشعاراً لأصحاب الاتّهام بأنّهم مُجْرمون في حقِّ الرسول، لا يَسْتَحِقُّون مواجهةَ الله لهم بالخطاب، لأنّ في الخطاب نوع تقدير وتكريم.

﴿أَنظُرْ﴾: تُستعْمَل مادة «النظر» ويرادُ بها توجيهُ حاسَّة البصر «العين» لرؤية الأشياء الحسّيّة، وهذا هو الأصل في مادّة الكلمة.

وتُسْتَعْمَلُ ويُراد بها توجيه الفكر لإدراك قضيّةٍ فكرية إدراكاً واضحاً وضوح الأشياء التي تُدْرَكُ بحاسّة البصر «العين».

وقد وردت نصُوصٌ قرآنيّة متعدّدة فيها استعمال النظر بمعنى النظر الفكريّ للأمور التي يكون إدراكُها سهلاً، لا يحتاج إلى تفكير عميق، ومنها ما يلي:

(١) قولُ الله عزَّ وجلّ في سورة (الإِسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿أَنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

إنّ تفضيل الناسِ بعضِهم على بعض في الحياة الدنيا لا يحتاج إلى تفكُّرٍ عميقٍ دقيقٍ، بل تكفي فيه الملاحظة الفكريّةُ الأُولى، التي تُشْبه نظر العيْن، لذلك جاء التوجيه بعبارة ﴿أَنظُرْ﴾.

(٢) وقول الله عزَّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

إنّهم إبّانَ نُزول سورة (الإِسراء) كرَّروا مَقَالَتَهُمْ فِي الرَّسول بأنّه رجُلٌ مَسْحُور، يفتِنُونَ بِها بعض المؤمنين، وبعضَ الذين بدأَتْ قُلوبُهم تميلُ إلى الإِيمان وإلى اتّباع الرّسول، يقولون ذلك لهم على سبيل المناجاةِ السّرّيّة فيما بينهم، ففضح الله أمرهم، فكرَّرَ ما سبَقَ أنْ أنزلَهُ بشأنهم في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٣) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بشأن المشركين الذين يحْلِفُون بالله ربِّهم يوم الحساب أنّهم ما كانوا في الدنيا مشركين، فيكْذِبُونَ على أنفسِهِم كذباً واضحاً، تشهدُ عَلَيْهم بضدّه جوارحُهم، ولا يستطيعون أن يكذبوا بذلك على الله.

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾.

إنّ وضوح هذا الأمر لا يحتاج إلَّا إلَىٰ أقلّ تفكيرٍ يُشبه توجيه نظر العين.

(٤) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بشأن اليهود الذين يُزَكُّونَ أَنْفُسَهم، ويَزْعُمُون أَنَّهم أتقياء أطهارٌ، وهُمْ غارقون في الكفر، فيَفْتَرُون بذلك الكَذِبَ على الله، الذي يُزَكّي مَنْ يشاء ولا يَظْلمُ أحداً شيئاً:

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠)﴾.

وظاهر أنّ حالهم لا يحتاج أكثر من توجيه الملاحظة الفكريّة الأولى، التي تُشْبه نظر العين.

(٥) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بشأن النصارى الذينَ ألَّهُوا عيسَىٰ ابْنَ مريم وأمَّهُ، مع أنهما كانا يأكلان الطعام، ومن البدهيّ أنّ من يأكُلُ الطعام لا يَصِحّ عقلاً أنْ يكون إلَهاً ولا جزءاً من الإِلَه، وهذه القضيّة لا تحتاج أكثر من توجيه الملاحظة الفكريّة الأولى، التي تشبه نظر العين:

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾.

أي: انظر بفكرك نظراً يشبه نظر العين: كيف نُبَيِّنُ لهم العلامات الظاهرات الدالّات على حقائق الأمور. ثم انْظُرْ كَيْفَ يُصْرَفُون عن هذه العلامات وما تدُلُّ عليه من حقائق.

﴿كَيْفَ﴾: اسم يستفهم به عن حالة الشيء، وهو مبنيٌّ على الفتح. والاستفهام بها هنا للاستنكار.

﴿ضَرَبُوا۟﴾: أصل الضرب في وضْع اللّغة: توجيه شَيْءٍ لِشَيْءٍ آخر بِقُوَّةٍ حَتَّىٰ يصطدم به، ويكونُ بعضوٍ من أعضاء الجسد، أو بوسيلة ما، كالعصا أو الحجر أو غير ذلك.

ولمّا كان المسافر يضرب رجليه في الأرض، أو تضرب دابّتُه يَدَيْها ورِجْلَيْهَا في الأَرْضِ، سُمِّي السّفَرُ ضَرْباً في الأرض، سواءٌ أكان للتّجارة، أم الْغَزْو، أم العلم، أم غير ذلك.

ولمَّا كانت صناعة الدّراهم والدنانير تتمّ عن طريق ضرب صفائح الفضة والذهب بقوالب حديديّة صُلْبة حُفرت فيها أمثلتها، أو ضمن قوالب يدخل بعضها في بعض، قالوا: ضَرَبَ فلانٌ الدراهمَ أو الدنانيرَ، إذا طبع معدنهما على المثال المحفور في القالب.

ثم حصل توسُّعٌ في معنى الضرب، فقالوا: ضَرَبَ مثلاً، أي: ذكَرَ أم صَنَعَ أم فَعَل مثلاً، أم مثَّلَ مثلاً.

﴿لَكَ﴾: أي لِوَصْفِكَ يا محمّد.

﴿ٱلْأَمْثَٰلَ﴾: «الأمثال» جمع «الْمَثَل» وكلمات: «مِثْل، ومَثَل، ومَثِيل» تستعمل للدلالة على معنى التسوية، فهي نظير «شِبْه، وَشَبَه، وَشَبِيهٍ».

يُقالُ لغةً: هذا مِثْلُ هذا، ومَثَلُهُ، وَمَثِيلُهُ، كما يُقَالُ: شِبْهُهُ وَشَبَهُهُ وشَبِيهُهُ.

ويجمع «مثل» على «أمثال».

ويُطْلَق «الْمَثَلُ» على الشَّيْء الّذي يُضْربُ لشيءٍ آخر للدلالةِ على أنّه شبيهُهُ، فَيُدَّعَىٰ أَنَّهُ مِثْلُه.

وقال الجوهري: ومَثَلُ الشيء صِفَتُه، ومنه قول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا . . . ﴿٣٥﴾﴾.

أي: صفة الجنة.

أقول: ومنه قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) في وصف أصحاب محمّد ﷺ ورضي عنهم:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: وصْفُهُمْ في التوراة، ووَصْفُهُمْ في الإِنْجيل.

وكما قال الجوهري قال أبو إسحاق من أهل اللّغة. قال اللّيث: مَثَلُها هو الخَبَرُ عنها.

أقول: والّذي أراه: أنّ المثل يُراد به وصف الشيء بعبارةٍ كلاميّة، نظراً إلى أنَّ الأوصاف الكلاميّة الّتي تُذْكَرُ لشيءٍ ما، إنَّما تَرْسُم له مِثَالاً وصْفِيًّا بدَلَالَاتٍ تعبيريّة.

فمعنى قوله تعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾:

انْظُر يا محمّد بفكرك الذي لا تحتاج معه إلى تأمُّلٍ وتَدْقيق وتعمُّق، متعجّباً مستنكراً كيف اصطنعوا كذباً وافتراءً لكَ أوصافاً يكشف الفكرُ القريبُ بطلانها، لمنافاتها لصفاتك العظيمة التي تتحلّىٰ بها، ويُدْرِكُها كلّ ذي فكرٍ، ولو لم يكن فَطناً ولا ألمعيًّا، ولا باحثاً متعمّقاً. والخطابُ للرسول خطاب لكلّ ذي نظرَ.

ويَردُ هنا سؤال: لِمَ جمع الله الأمثال، مع أنّ الذي ذكره النّصّ هنا هو قولهم عنه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. وهذا مَثَلٌ واحد (أي: وصف واحد) لا أمثال؟

ويمكن أن نجيب على هذا السؤال بأنّ الذين كفروا قد سبق لهم قبل نزول سورة (الفرقان) أنْ وصفوا الرّسُول بأنه ساحر كذّاب، ووصفوه بأنّه مجنون، وفي الآية الرابعة من سورة (الفرقان) وصفوه بأنّه مُفْتَرٍ مُتَقَوِّلٌ عَلَىٰ الله، فكان من المناسب الإشارة إلى كلّ هذه الأقوال بعبارة ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾.

والناظر في أقوالهم يلاحظ أنّها متناقضة متعارضة، فكيف يستقيم لهم منطق سديد وهم يطرحون هذه الأقوال المتعارضة.

إنّ المفتري الكذّاب السّاحر لا يكون مسحوراً، وذلك لأنّ المسحور تجري الأشياء على لسانه وحركاته بدون إرادته، بخلاف المفتري الكذّاب الساحر، كيف يكون المسحور ساحراً، هذا تناقض، والتناقض من الأمور المثيرة للتعجب، إذ التّناقض لا يقبله العقلاء على أنفسهم، فكيف يقبله أئمة المشركين، وهم يرون أنَّهم أصحابُ عقلٍ وفطنةٍ وَذَكاء.

ونلمح في عبارة ﴿ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ إبداعاً قائماً على عكس التشبيه.

فمسيرة التشبيه العاديّة أن يُقَال: جعلوكَ مِثْلَ المَسْحور، أو مثْلَ السَّاحر، أو مِثلَ المجنون، أو مِثْلَ المفتري الكذّاب.

لكنّ النصّ القرآني كرّم الرّسول عن هذا، فعبّر عن عملهم بأنّهم اخترعوا من عندهم رُسومات، وضرَبُوها كما تُضْربُ النقود تثبيتاً لها، وادَّعَوْا أنَّها تُشْبهُ الرّسُول محمّداً، وهذا أسلوبٌ من تكريم الرّسول عن شتائم الكافرين له عجيب.

فَلْتَبْقَ رُسُومُهم عندهم، وأمْثَالُهُمْ عندهم، في أوهامهم وأقوالهم، لا يَمَسُّ الرَّسُولَ مِنْهَا شيْءٌ، ولا سيّما وهي فيما بينها متعارضات متناقضات.

وبناءً على أنّ الّذين كفروا قد وصَفُوا الرّسول بهذه الصفات المتعارضات المتناقضات، التي لا يمكن اجتماعها في شخص واحد، فإنّهم قد وضعوا أنفسهم في متاهةٍ فكريّة مظلمة، بعيدةٍ عن سبيل الحق.

ومن وضع نفسه في متاهة فكريّة، رافضاً سبيل الحق الواضح الوحيد، فإنّه لا يستطيع أن يجد لنفسه سبيلاً منطقيًّا علميًّا آخر، مهما بحث وفتَّشَ ضِمْن متاهته، إذ ليس بعد سبيل الحق الوحيد إلّا الضلال.

أمّا الذكاء فمهما بلغ فإنّه لا ينفع في إيجاد المعدوم، والسبيلُ الحقُّ معدوم في المتاهاتِ والْمَضَلَّات، فلن يجده فيها الباحثون المفتشون.

ثانياً: وفي الرّدّ على اقتراحهم أن يُلْقىٰ للرّسُولِ كَنْزٌ، أو تكون لَهُ جنَّةٌ يَأكُلُ منها، ويأكلون هم منها، قال الله عزَّ وجلّ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾: تَزَايَدَ وتَعَاظَمَ وَتَنَامَىٰ فَوْقَ كلّ وصْفِ كمالٍ يصفه به الواصفون.

﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾: أي: لكنّه لم يَشَأْ، لأنّ حكمته تعالى اقتضت أن لا يشاء أن يجعلك ذا ثراءٍ واسِعٍ وجنّاتٍ وقصورٍ في الدّنيا، كما اقترح الذين كفروا.

﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾: أي خيراً من ذَلِكَ الَّذِي اقترحوه لَكَ من ثَرَاءٍ واسِعٍ في الدّنيا.

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: أي: بساتين مستورة بالأشجار الوارفةِ الظلال، الكثيرة الجمال، المملوءة بما لذّ وطاب من مأكول، ومشموم، ومُشَاهَد.

ويَجْعَل لَّكَ: فيها قراءتان، فقرأ جمهور القرّاء العشرة بالجزم «وَيَجْعَلْ» عطفاً على محلّ جواب الشرط ﴿جَعَلَ لَكَ﴾ الذي هو الجزم.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وشعبة عن عاصم: ﴿وَيَجْعَلُ لَّكَ﴾ بالرفع، وهو أحد وَجهَيْن جائِزين في العطف على جواب الشرط بالواو أو بالفاء.

﴿قُصُورًۢا﴾: جمع قَصْر، والقصر هو البناء العظيم الواسع المحصَّنُ، وسُمِّيَ قصراً، لأنّه تُقْصَرُ فيه الْحُرَمُ، أي: تُحْبَسُ وتُمْنَعُ ويُمْنَعُ عَنْها.

والمعنى: تزايد وتعاظم وتنامىٰ في كلّ صفات الكمال عن تصوّرات وأقوال الواصفين، وتنَزَّهَ عن كلّ صفات النقصان، ومنها العبث وفعل ما لا يليق بحكمته، الغنيُّ الجليلُ الذي إن قَضَتْ حكمتُه وشَاءَ أن يَجْعَلَكَ يا محمّد من أهل الغنىٰ الكثير، والثراء الوفير في الدنيا، جَعَلَ لَكَ أكْثرَ بكثير ممّا اقترح لَكَ الّذين كفروا من إلْقاءِ كَنْزٍ إلَيْكَ، أو هِبَةِ ربّك لك بطريقة معجزة جَنَّةً تَأْكُلُ مِنْها وَيَأْكلونَ هم مِنْها، فهو إنْ شاء جعلَ لَكَ خيراً من ذلك الذي اقْتَرحُوه عليك، جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار لا جَنَّةً واحدة، ويجعل لَكَ قُصُوراً تتجدّد دواماً، مباني وأثاثاً ورياشاً وزينةً، دلّ على هذا استعمالُ الفعل المضارع ﴿وَيَجْعَل﴾ الدّالّ على التجدّد.

أي: لكنّ الله عزّ وجلّ لم يشأ ذلك، لأنّه تباركَ وتعالى قضت حكمتُه أن يكونَ نبيُّهُ ورسُولُه محمّد بن عبد الله خاتمُ الأنبياء والمرسلين

عبداً داعياً إلى سبيل ربّه، ببراهينِ العقلِ، وأدلّةِ العلم، وأَنْوارِ الحكمة، ليكونَ أُسْوَةً وقُدْوَةً حسنةً للنّاسِ أجمعين، أغنيائِهم وفقرائِهم ومساكِينهم، ولتَكُونَ الاستجابةُ لما يدعو إليه استجابةً من أَجْلِ مضْمُونِ دعوتِه الحقّ الّتِي يدعو إليها، لَا مِنْ أجل مُلْكِه وسلطانه وغِنَاه، وليكون المؤمنون المسلمون جميعاً من بعده دعاةً هُداةً إلىٰ الإيمان وفعل الخير، ولئلا تكون تطلُّعَاتُ المؤمنينَ مِنْ بَعْدِه لزينة الحياة الدنيا، والتكاثُرِ من أموالها وما فيها من متاعٍ فَانٍ، ظانِّين أنّ الرَّسُولَ أُسْوَتُهُمْ في ذلك.

إن نموذَجَ داودَ وسليمانَ عليهما السلام جَعَلَ بني إسرائيل باحثين عن المالِ والمُلك والسُّلطان، في كلّ ما يَعْمَلونَه ويفكّرون فيه ويهتَمُّون له، حتّى جعلهم ذلك شُيوخَ الفسَادِ وأئمَّةَ المفْسِدِين في الأرض، ولم يجعلْهم باحثين عن الحقّ والخير، وفضائلِ الإيمانِ، والعملِ الصَّالح في الحياة الدنيا، للظفر يوم الدين بجنّاتِ النعيم، والخيراتِ الحسان عنْدَ ربِّ العالمين، ولم يجْعَلْهُمْ دُعاةً هُداةً إلى الإيمانِ بالحَقِّ، ونُصْرَةِ الحَقِّ، وإقامَةِ العَدْلِ وفعلِ الخيرِ وتَقْوَىٰ الله والبرّ والإحسان.

وفي هذا توجيه للدّعاة إلى الله بأن لا تكون الدُّنْيا أكْبَرَ همّهم، أو شغلهم الشاغل، وبأن لا يكونوا باحثين عن متاع الحياة الدنيا أو العلوّ في الأرض، بَلْ أَنْ يكونوا عاملين جَاهدين مجاهدين من أجل نشر دين الله والعمل به، مُضَحِّين في ذلك بأنْفُسِهم وبأموالهم.

إجمال معاني الدرس الثالث من دروس السورة

تضمّن هذا الدّرس من السورة خمس قضايا:

القضية الأولى: بيان اعتراض كفّار عرب مكة إبّان التنزيل على بشريّة الرسول محمّد ﷺ، بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

أي: ما هو الشيءُ الذي ميّز محمّداً فجعله يخرج عمّا ينبغي للرّسول، فيكون رسولاً مع أنّه إنسانٌ بشَرٌ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كما يمشي سائر الناس، ساعين لكسب أرزاقهم وقضاء حاجاتِ أمور دنياهم؟!

القضية الثانية: بيان مقترحات قدّموها لسدّ ثُغرة بشريته بحسب زعمهم، وتكميل النقص عمّا ينبغي أن يكون عليه الرّسول، حتّى يُصدّقوه بأنّه رسول الله حقًّا.

الاقتراح الأول: أن يُنْزِل الله إليه ملكاً، فيكون مَعَهُ مرافقاً له، مبلّغاً دين الله، ومبشراً من آمن وأطاع، ومنذراً من خالف وكفر وعصى.

وقد قدّموا هذا الاقتراح بطريقة فيها حضّ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

الاقتراح الثاني: أن يُلقَىٰ إلَيْه منْ عِنْدِ الله بطريقة خارقة للعادة كنْزٌ يستغني به عن الكَسْبِ، ويوزّع منه على من ينتمي إليه.

وقد قدّموا هذا الاقتراح أيضاً بطريقة فيها حضّ، لأنّه جاء في النصّ معطوفاً على الاقتراح الأول، بحرف العطف «أو» التخييريّة: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾.

الاقتراح الثالث: أن تكون له جَنّة يأكُلُ هو وأهله منها، ويأكُلون هُم منها أيضاً، وقد دلّت على الأمرين القراءتان ﴿يَأْكُلُ﴾ و﴿نَأْكُلَ﴾.

وقد جاء هذا الاقتراح كسابقه معطوفاً بحرف العطف «أو» التخييريّة، فشمله التحضيض.

القضية الثالثة: بيان ظُلْمِهم له باتّهامهم إياه بين صُفُوفِ المؤمنين به بأنّه رجلٌ مسحور، يتصرّف تصرّفاته بادّعاء أنّه رسولٌ لِلَّه بغير إرادة واعيةٍ

منه، بعد أن اتّهموه قبل ذلك في مرحلة سابقة من مراحل دعوته بأنه ساحر، وفي هذا تقلّبٌ منهم في المواقف بين الأضداد.

وغرضهم من هذا الاتهام الجديد تحريض المؤمنين على الرِّدة عن دينه، والانصراف عن اتّباعهم له، مستثيرين فيهم الأنفة عن اتّباع رجل مسحورٍ مغلوبٍ على أمره، وهو يتوهّم أنه صادق.

القضيّة الرابعة: تطييبُ قلب الرسول ﷺ بالنسبة إلى اتهاماتهم له، بأنّ أمرهم جديرٌ بأن يَتَعَجَّبَ منه المتعجُّبون، نظراً إلى أنّهم ضلّوا في متاهات الأوصاف المتناقضة المتعارضة، فهم في متاهاتهم وضلالاتهم لا يستطيعون أن يجدوا سبيلاً حقًّا واضحاً يسلكونه، لذلك فهم يَتَنَقَّلُون في ضلالات متناقضات لدى اتّهامهم له، ليوهموا بأقوالهم المتعارضة المتناقضة أنّه ليس نبيًّا ولا رسولاً، فقال الله تعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾.

أي: انظر مُتَعَجِّباً من أحوالهم المتقلّبة المحرومة من المنطق السليم، والفكر القويم، إذْ يصفونك بالمتناقضات والأضداد التي لا تجتمع.

ومن عجيب البيان القرآنيّ أنّ النصّ لم يأت فيه أنهم مثّلوهُ وشَبَّهُوهُ بنحوِ سَاحرٍ ومُفْتَرٍ ومجنونٍ ومسحورٍ، بل قَلَبَ النصُّ التَّشْبيه تكريماً له، فقال: ﴿ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: حاولوا أن يصْنَعُوا أمْثلةً لكَ من عند أنفسهم، يزعمون أَنَّها تُشْبهُكَ، كمن يأتي إلى صخرة فيَنْحَتُ فيها صورةً مشوّهةً لحيوانٍ حقيرٍ، ثُم يزْعُمُ أنَّها تِمْثَالٌ مطابقٌ لأكمل أسدٍ عرفه الناس.

إنّ هذا القلْبَ لصورة التشبيه من أبدع الأساليب الأدبيّة، والغرضُ منه تكريمُ الرّسُول عن حكاية ما فعلوه في تشبيههم له، وجعلُ ما فعلوه نقصاً في اصطناعهم الذي اصطنعوه، فبقي الرسول في قِمَّتِهِ لَمْ يَمَسَّهُ شيءٌ ممّا اصطنعوه، فوقع تطييب قلبه موقع العلاج الشافي.

القضية الخامسة: تعظيم الله وتنزيهه، وبيانُ أنّه لو قضت حكمته بالاستجابة لمقترحاتهم، لأعطى رسوله أكثر ممّا اقترحوه بكثير، فقال الله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

وبهذا انتهينا من تدّبر الدرس الثالث على ما فتح الله به، والحمد لله على معونته وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

(٩)
التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١١ - ١٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

القراءات:

(١٣) • قرأ ابنُ كَثِير: [ضَيقاً] بإسكان الياء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ضَيِّقًا﴾ بتَشْدِيد الياء.

ضيِّقاً وضَيْقاً: لغتان معناهما واحد، وهما في الصيغة مثل: «هيِّن وهَيْن ـ وليِّنْ ولَيْن».

(١٧) • قرأ ابن كثير، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء، والفاعل هو الله عزّ وجل، وهو ضمير يعود على معلوم غير مذكور في اللفظ فيما سبق.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَيَوْمَ نَحْشُرُهم] بنون المتكلّم العظيم.

وبين القراءتين تكامل بياني، ومؤدّاهما واحد.

(١٧) • قرأ ابنُ عامر: [فنَقُولُ] بنون المتكلّم العظيم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَيَقُولُ﴾ بضمير الغائب، وهو يعود على معلوم غير مذكور في اللّفظ وهو الله جلّ جلاله.

وبين القراءتين تكامل بيانيٌّ، ومؤدّاهما واحد.

(١٨) • قرأ أبو جَعْفر: [أَنْ نُتَّخَذَ مِنْ دُونِكَ] بالفِعْل المبني لما لم يُسَمَّ فاعله.

وقرأ باقي القُرّاء العشرة: ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾ بالفِعْل المبني للمعلوم.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنىٰ المراد، إذ هم ينزّهون الله عن أن يَتَّخذوا من دونه أولياءَ لهم، ويُنَزِّهُون الله عَنْ رِضَاهم بأنْ يتّخِذَهُمْ أَحَدٌ أَوْلِيَاءَ من دُونه.

(١٩) • قرأ حفْص: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وقرأ باقي القرّاء العشَرَةِ: ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بيَاء الغائبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

تمهيد:

في هذا الدرس بيانٌ للعلَّة النفسيَّة الداخليّة، الّتي في المعنِيّين من الكافرين المشركين الذين يجادلون في القرآن، وفي الرسول، وهي تكذيبهم بيوم الدّين.

وفيه معالجتهم بعرض صورٍ من الترهيب والترغيب، الّتي تستثير أفئدة أولي الألْبَاب للإيمان والإسلام والطاعة، بما فيها من تقديم لقطاتٍ مؤثراتٍ مِنْ مَشاهِدِ يوم الدين.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾.

﴿بَلۡ﴾: هي في اللّغة حرف على وجهين:

الأول: «بل» الابتدائية، وهي التي تليها جملة، ومعناها الإضراب.

والإضراب: إمّا أنْ يكون معناه الإبطال، مثل قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: لم يتخذ الرحمن ولداً، بل الملائكة عبادٌ مكرمون.

وإمّا أنْ يكون معنى الإضراب الانتقالُ من غرضٍ إلى آخر، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴿١٦﴾﴾.

الثاني: «بل» العاطفة، ومعناها الإضراب عن الأوّل، والإثباتُ

للتالي، ولا تكون حرف عطف إلَّا بشرطين: أن يكون معطوفُها مفرداً لا جملة. وأن تُسْبق بإيجابٍ أو أمرٍ أو نفيٍ أَوْ نَهْيٍ.

و«بل» في النّص هنا هي الابتدائية، لا العاطفة، وهي حرفٌ لا محلّ له من الإعراب، والإِضراب فيها إضرابُ إبطالٍ لما قَبْلَها وإثباتٍ لما بعدها، لا إضراب انتقال من غرض إلى غرض فيما أرى.

قد يسهُل على الناظر دون تعمُّق أن يقول: هي للانتقال من غرضٍ إلى غرضٍ آخر، وينتهي بذلك البحثُ لَدَيْه، ولا يُفَكِّر في رَوَابِطِ النصّ الفكريّة.

ولكنّ المتدبّر لمَا جاءَ قَبْلَها يُلاحظُ أنَّ الكَافِرِينَ الْمتَحَدَّثَ عَنْهُمْ، قد جادلوا في الرّسول، وفي كون القرآن من عند الله، وطرحوا بأقوالهم تشكيكاتٍ مختلفاتٍ حول الرسول، وحول القرآن، فزعموا أنّ البشريّة تتنافى مع النبوّة والرّسالة، وزعموا أنّ القرآن قد افتراه محمّد، وزعموا أنّه أساطير الأوّلين اكتتبها، فهل كانوا حقيقةً شاكّين من عُمْق أفئدتهم في صدق الرسول، الذي يعرفون صدقه وأمانته وأنّه على خُلُق عظيم، ويعلَمُون كمالَ عَقْلِه وفِطْنَتِه؟ وهلْ كانوا حَقِيقةً يتصوَّرُون أنّ القرآن أباطيل، أَوْ أنَّه منقولٌ عن كُتب أهل الكتاب الأول؟ أم كانوا يتَظَاهَرون بهٰذِهِ التعلّلات مُمَاراةً جدليّةً فقط، وهم غير مقتنعين بأنّ ما يطرحونه قولٌ سديد، أو شكوكٌ حقيقية ينبغي أَنْ تُزالَ حتّى يؤمِنُوا بالرسُول وبالقرآن؟

الواقع أنّ ما كانوا عليه قد كان من قبيل الْمُمَاراة الجدليّة فقط، وليس لديهم قناعات بما يقولون.

إذنْ: فالإِضرابُ بحرف «بل» بعْدَ هذا يكون معناه الإِبطالَ، لا مُجرَّد الانتقال من غرض إلى آخر.

والمعنى: ليسوا مقتنعين بما قدّموا من تعلُّلاتٍ، وتشكيكاتٍ،

وجدلياتٍ، بل اتَّخذوها ذرائع، وعلَّتُهم الداخليّةُ أنّهم كذّبوا بالسَّاعة، أي: بيوم الدين وما فيه من جزاء بالثواب في جنّات النَّعيم، وبالعِقَابِ الأَلِيم فِي الْجَحِيم، وبِالْبَعْثِ بعد الموت للحياة الأخرى.

﴿بِٱلسَّاعَةِ﴾: أُطلِقَ لفظ الساعة في القرآن على وقت إنهاء ظروف هذه الحياة الدنيا. وأُطلِقَ على وقت بعث الناس من أجداثهم إلى الحياة الأخرىٰ. وأُطْلِقَ على مُدَّةٍ زمَنِيَّةٍ قليلة وَفْقَ مَفْهُومِ العرب للسّاعة. يقول العربيُّ: جلَسْتُ ساعةً، أو مَرَّ بي فلانٌ في ساعة، يُريد بذلك وقتاً ما قليلاً.

والعرب كانوا يقسّمون النهار واللّيل إلى أربع وعشرين جزءاً، ويجعلون كلّ جزءٍ منها ساعة، وهذا ما عليه اصطلاح الناس جميعاً حتّى اليوم. وتُجْمَعُ ساعة على ساعاتٍ وعلى ساعٍ، وتصغّر على سُويعة.

ومعنى ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾: جعلوا خبر الساعة خبراً كذباً ليس له مطابق في الواقع الذي سوف يحدث، وتكذيبهم هذا لا دليل لهم عليه مطلقاً، فهو مجرّد رَفْضٍ للخبر وتكذيبٍ به.

يقال لغةً: كَذَّبَ فُلانٌ فلاناً تكذيباً وَكِذَّاباً، إِذَا نَسَبَهُ إلى الكذبِ فيما أخبر به، واتّهمه بالكذب.

ويقالُ: كذَّبَ بالخبر تكذيباً وَكِذَّاباً إذا جعَلَه أو اعتبره خبراً كَذِباً غيرَ مُطابقٍ للواقع.

ولذلك نجد في القرآن أنّ فعل التكذيب، إذا كان معمولُهُ مُبَلِّغَ الخبر جاء الفعل متعدّياً بنفسه إلى المفعول به، دون حرف الجرّ «الباء»، مثل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ـ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ـ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ـ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ـ فَإِن كَذَّبُوكَ ـ فَكَذَّبُوهُمَا﴾.

وإذا كان التكذيب للخبر نفسه جاء الفعل متعدياً بالباء، مثل: ﴿ٱلَّذِينَ

كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ـ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ـ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ـ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾.

والذي يظهر أنّ أصل الكلام في هذا: كذّبوا المخبِرَ بما أخبر به، فَكَذَّبوا الرَّسُولَ بما جاء به عن ربّه، وقد دلّ على هذا التقدير قول الله عزَّ وجلّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾.

ولدى الاستعمالات الكثيرة نلاحظ أنه قد يحذف من الكلام الباء وما دخلت عليه، وقد يحذف منه الْمُخْبِرُ بالخبر، وفي كلتا الحالتين يحسُن بمتدبّر كلام الله أن يتصوّر لدى تدبّره المحذوف منهما. وقد يحذفان معاً، ويُقْتَصر في النّص على ذكر التكذيب فقط، ومنه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ـ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ـ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

بعد هذا أقول: إنّ تكذيب الذين كفروا بنَبأ الساعة الذي جاء به رُسُل الله، هو الذي دفعهم إلى اصْطِناع جدليَّاتِهم وتعلُّلاتِهم حوْلَ الرسُولِ وحَوْلَ القرآن.

والساعةُ التي كذّبوا بها هي بالدرجة الأولى ساعَةُ البعْثِ إلى الحياة بعد الموت لِلْحِسَابِ والجزَاءِ، ويَجُرُّ هَذَا التكذيبُ إلى التكذيب بساعة إنْهاء ظروف هذه الحياة الدنيا، بإماتة الخلائق جَمِيعاً وإفنائِهم وتَغْيير هذا النّظام القائم.

والكافرون الّذِين يؤمنون بالرّب الخالق يرون أنّ أعمال خلقه قاصرةٌ على ظروف هذه الحياة الدنيا، فهم لا يَرَوْنَ لأنفُسِهِم بقاءً إلّا ما يَحْيَوْنَه في هذه الحياة، فلا شيء بعد ذلك، ومن أجل هذا تكُونُ أعْمَالُهم وتصرّفاتهم دائرةً في حدود ما يُصِيبُون مِنْ خيرٍ أو شرّ في هذه الحياة، ولا يَتصَوَّرون لأنفسهم حياةً غَيْرَها.

فكلُّ دليلٍ أو آيةٍ أو برهانٍ عقليّ يتضمّن إخراجهم من هذه الدائرة التي يتصوّرونَها يُحَاوِلُون التشكيكَ فيه، وإيجادَ الذَّرائع التّعلُّليّةِ لرفْضِهِ والتكذيبِ به.

هذه هي عِلَّتهُم الداخليّة، وقد كَشَفَها الله عزَّ وجلّ بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾.

أمّا الباعث على تكذيبهم بالسَّاعة فَيَرْجع إلى نَوازِع الْهَوى واتّباع الشهوات ورَغَباتِ الفجور الوقِحِ في الأرض، دُونَ خَوْفٍ منْ مَصِير، ولا شُعُورٍ بوَخْزِ ضمير.

لكنَّ الجزاءَ وعدْلَ الله وحكْمَتَه في خَلْقه قد سَبَق بيانُ ما يَدُلُّ عليها فيما نزل من قرآن قبل نزول سورة (الفرقان).

وبما أنّ الذين كفروا لم يطْرَحُوا بعْدُ جَدَلِيَّاتِهم حول الْبَعْثِ للحياة بعد الموت، اقتصر النصّ هنا على بَيَانِ تكذيبهم، وتهديدِهم بالوعِيدِ بعذاب السعير، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: «أعْتَد» بمعنى «أَعَدَّ» وهيَّأ. ويُقَالُ: شيءٌ عَتِيدٌ: أي: مُعَدٌّ حَاضِرٌ. و«الْعَتَادُ» الشيء يُعَدُّ لأمرٍ ما ويُهَيَّأُ له. ويقال: أخَذَ للأمْرِ عُدَّتَهُ وَعَتادَه: أي: أُهْبَتَهُ وآلَتَهُ ومَا يُحْتَاجُ فيه إليه.

﴿سَعِيرًا﴾: السَّعير في اللغة يأتي بمعنى النار، وقيل: السعير لَهَبُ النار. ويُقَالُ: نَارٌ سعِيرٌ، أي: نارٌ مَسْعُورة، بمعنى مُوقَدَة. ويقال: سَعَرَ النَّارَ يَسْعَرُها، وأَسْعَرَهَا وَسَعَّرَها، إذَا أوقَدَهَا، وَهيّجَها.

فالمعنى: وأعْدَدْنا وَهَيَّأنا ناراً مُلْتهبةً مَسْعُورةً مُوقَدةً، لتَعْذِيب مَنْ كذّب بالأخبار الرّبّانية الواردةِ عن السَّاعَة، التي تكون بها قِيامَةُ الأمْوَاتِ من أجداثِهِمْ أحياءً، قد بَعَثَهُم الله عزَّ وجلّ للحساب والجزاء.

وقد جاء ذكر السّعير كنايةً عن دار العذاب الّتي فيها هذا السعير الملْتهِبُ.

قول الله تعالى:

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾:

﴿تَغَيُّظًا﴾: التغيّظ[1]: شِدّة الغيظ، والغيظ هو الغضب الشديد، فالمعنى: أشدُّ الغضب. وصيغة «تَفَعَّلَ تَفَعُّلاً» من معانيها التكلّف والمبالغة، فيدُلُّ تغيّظُ النّار على غليانٍ وتفجّراتٍ في داخلها لأشياءَ صُلْبَةٍ قاسيةٍ لا تتفجّر إلّا بقوّةٍ مُفَجِّرَةٍ شديدة.

والمراد: سمعوا صوت تَغَيُّظِها، يقال لغة: تغيّظتِ الهاجرة إذا اشتَدَّ حَمْيُها.

وقال الله تعالى في وصف جهنَّمَ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ... ﴿٨﴾﴾.

أي: تكاد تتمزّقُ وتَتَفرّقُ مُتَنَاثِرَةً من أشدّ الْغَضَب الذي في داخلها.

ووَصْفُ النارِ بأنّها ذاتُ غيظٍ استعارةٌ قائمة على تشبيهِ حركةٍ مادّيّةٍ في الأشياء غيرِ ذات الإِحساس، بحركةٍ نَفْسِيَّةٍ في الأحياء التي تَنْفَعِل بالغضب، وتُحِسُّ به.

وبما أنّ المخاطَبِينَ من الناس يُدْرِكون مشاعر الغضب الشديد في

---

(١) التغيظ: مصدر تغيّظ، مطاوع غيَّظه فتغيظ، والغيظ إنفعال نفسيٌّ يضغط على الصدر، قد يكون له مظاهر صوتية. وقالوا: اغتاظت النار، إذا اشتَدَّ توقدها حتى سمعت منها أصوات تفجّراتها.

نفوسهم، فإنّ استعارةَ مادّةِ التغيُّظ لما يكون في النار من غليانٍ وتفجُّراتٍ تَجْعَلُهُمْ يَتَصوَّرُون ذلك بصورةٍ أفْضَلَ من الْمَشاهِدِ الْبَصَرِيّةِ، وأكْثَرَ رَهْبَةً، معَ مَا تَحْمِلُ هٰذِه الصُّورة النفسيّة من دلالَةٍ علىٰ مغْنَى الحِرْصِ علىٰ الانتقام والنّكاية والتنكيل بالذين سيعذّبون فيها، فهي كالمغتاظة منهم، تستَعِدّ للتنكيل بهم.

﴿وَزَفِيرًا﴾: الزّفِيرُ مَدُّ النَّفَسِ بقُوَّةٍ حتَّىٰ الْغَايَة، وإخراجُهُ من الصَّدر، أمّا الشَّهِيق فَهُو أخذ النَّفَسِ بقوَّة إلَىٰ دَاخِلِ الصّدْرِ حتَّىٰ امْتِلاء الرئتَيْنِ به.

قال ابن سِيدَه: زَفَرَ يَزْفِرُ زَفْراً وَزَفِيراً، أخْرجَ نَفَسَهُ بَعْدَ مَدِّه إيّاه.

ويقال لغة: زَفَرَتِ النّار، إذا سُمِعَ لاتّقادها صوت.

ويُطْلَق الشهيقُ والزّفير على ما يكون في النار من دُخول الرياح إلى باطنها، وخروجها حارَّةً من باطِنِها على سبيل التوسُّع في الاستعمال القائم على تشبيه ما يحْدُثُ في الأشياء غَيْرِ ذات الحياة، بما يَحْدُثُ في الأحياء التي تَتَنَفَّسُ الرياح.

ولزَفِير النّارِ صَوْتٌ غَيْرُ صَوْتِ التغيّظ الذي تُحْدِثُه التفجّراتُ الناريّة، وكذلك للشهيق صوت آخر.

ونُلاحظُ أنَّ التعبير في قَوْلِ الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قد جاء بإسْنَادِ الرُّؤْيةِ إلى السَّعِير، وهي النار المُلْتَهِبة الموقَدَة، ولم يأْتِ بإسناد الرُّؤْيةِ إلى المكذبين بالسَّاعَةِ الذين يَسْمَعُون تغيُّظَها وَزَفِيرَها، مع أنّ الرُّؤْية إنّما تُسْنَدُ لذي عَيْنَيْنِ تَرَيَان وتُحِسَّانِ، والنَّارُ كَائِنٌ غيْرُ ذي حياةٍ وإحساسٍ بحَسَبِ الظاهِرِ المأْلُوفِ، لكِنْ إذَا شَاءَ اللَّهُ أنْ يَجْعَلَ لَهَا ذَلِك جَعَلَهُ لها بقدرته.

فإذا اعتبرنا هذا الإسناد مُراعَى فيهِ وَاقعُ حَالِ المأْلُوفِ من الأشياء الّتي ليس لها أدواتٌ تُحِسُّ بها، فالإسنادُ هُنَا هُوَ من قبيل المجاز العقلي

«وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة من علاقات المجاز الكثيرة» والعلاقة هنا «الفاعليّة والمفعوليّة» فَأُسْنِدَ ما هو للْفَاعِلِ لِلْمَفْعول.

ومن أساليب العرب قولُهُمْ في المتَبَاعِدَيْن: لا تَتَرَاءَىٰ نَارَاهُما، أي: لا ترى كلٌّ منْهُمَا الأخرى، للبُعْدِ الشاسع بينهما.

ونَتَساءَلُ هُنَا: هل يدُلّ التعبيرُ الّذي جاءَ في الآية على أنّ المكذِّبين بالسَّاعَةِ يكونُونَ في هذِه الحَالَةِ عُمْياناً لا يَرَوْنَ النَّار، إلّا أَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي مَوْقِعِ مَنْ يَراهَا لَوْ كَانَ بَصِيراً، بدليلِ التعبيرِ بأَنَّ النَّارَ تَرَاهم؟

أقول: هذا من الاحتمالاتِ المقْبُولَة، وقد يؤكّده أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ صَوْتَ تغيُّظِها، ويَسْمَعُونَ زَفِيرَها. ولم يُذْكَرِ الشَّهيق، إمّا إيجازاً لأنّ الزّفيرَ يَدُلُّ عليه، وإمّا لأنّ الشَّهِيق يكُونُ الصَّوْتُ مَعَهُ أَخْفَضَ، إذْ يَدْخُلُ إِلَىٰ النَّارِ بِرِفْقٍ، فهم لا يسمعونه من ذلك الْبُعْدِ الْمُشَارِ إليه في النصّ.

وبنَظْرةٍ عامَّةٍ حوْلَ واقعِ حالِ الحَوَاسِّ الثَّلاث للمُسوقين إلىٰ العذَابِ يومَ الدِّين (البصر، والسمع، والنطق) استنباطاً ممّا جاء في القرآن، نلاحظ ما يلي:

(١) جاء في بعض النصوص ما يُثْبِتُ أنّهم يحشرون على وجوههم عُمْياً وبُكْماً وَصُمًّا.

(٢) وجاء بالنسبة إلىٰ مَنْ أَعْرَضَ عن ذِكْرِ الله بَعْدَ مَعْرِفَتِه، وسلوك سبيله، بأنّه يُحْشَرُ يوْمَ القيامَةِ أعْمَىٰ، ولم يأت أنه يُحْشَرُ أيضاً أصمّ ولا أبكم، بل جاء أنه يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾[1].

أي: كنت من أهل الإيمان، فيقول الله لَهُ كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

(١) (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) آية ١٢٥.

﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ... ﴿١٢٦﴾﴾.

أي: فعلنا بك مثل ذلك الذي كان مِنْكَ في الحياة الدّنيا، أَتَتْكَ آياتنا فتبلَّغْتَها، وأخَذْتَها، وذَكَرْتَهَا مِقْداراً ما من الزمن، ثُمَّ أعرضت عنها إعراضاً تامًّا، فصِرْتَ كَمَنْ عَمِيَ عَنْهَا، حتّى نَسِيتَهَا.

فَبِمِثْل ذلك الذي كان منْكَ في الدّنيا نُعاقِبُكَ اليوم، وذلك بأن تُحْشَر أعْمَىٰ كما عَمِيتَ عَنْ آياتنا بعْدَ أَنْ رأيتها، ونُهْمِلُكَ الْيَوْمَ ونتركُكَ مِثْلَ أهل العمىٰ من الكافرين، كما أَهْمَلْتَ آياتِنَا وهَجَرْتَها، حتى نَسِيتَها.

(٣) وجاء في سائر النصوص ما يُثْبِتُ سلامَةَ حواسِّهم عند البعث، وعقب البعث، وعند السؤال والحساب، وعند إيقافِهِمْ علىٰ النار، وبعد دُخولهم فيها، فهم يتعارفون بينهم، ويقرأون كتبهم، ويتكلمون.

والجمع بين هذه النصوص يكون بأن نفهم أَنَّ سَلْبَ الكافرين حواسَّهُمْ الثلاثَ (البصر، والسمع، والنطق) وسَلْبَ المعْرِضين عن ذكر الله أبصارهم فقط يكون في بعض أحوالهم يوم الدّين.

ويظهر أنّ ذلك يكون في مُدَّةٍ وُسْطَىٰ، وهم في الحشر، بعد زمن ما من وقت بعثهم، الله أعلم به، إذْ يُبعثُون بحواسّهم سَلِيمة، ثم تُطْمَسُ أَبْصَارُ وأَسْمَاعُ وأَلْسِنَةُ الكافرين، وتُطْمَسُ أبصار الذين أعرضوا عن ذكر الله في الدنيا إعراضاً تامًّا، بعد أن كانوا مؤمنين من أهل الذكر، مَسُوقين إلى الْحَشْر.

وعند الحساب وفصل القضاء تُرَدُّ إليهم حواسُّهم، فقد ثبت في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) أنّ بصَر المسوق إلى موقف الحساب يكون بصراً حَدِيداً، أي: قويًّا.

ويحتمل أنّ الكافرين بعد الحساب وإصدار أحكام مجازاتهم، تُطْمَسُ أبصارهم مرّةً أخرى، وتبقى لهم أسماعهم، حتّى يُساقُوا ويُوقَفُوا على

النار، عندئذٍ تُرَدُّ إليهم أبصارهم لِيَرَوْا مَصِيرهم فيها، وهذا الاحتمال يمكن أن يكون هو المراد المدلولَ عليه ضمناً في قول الله تعالى:

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

وقد ذكر القرطبي «شمسُ الدين محمد بن أحمد الأنصاري» صاحب التفسيرِ المشهور، في كتابه «التّذْكِرَة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» جمعاً بين الآيات الواردات في أحوال الكافرين في الآخرة، ما خلاصته أنّ الناس لا يكونون يوم الدّين على حالةٍ واحدةٍ دواماً، بل لهم أحوال، وأنّ اختلاف بعض النصوص عن بعضها، ليسَ تعارضاً فيما بينها، ولكنّ بعضَها يتحدَّثُ عن بعض الأحوال، وبعضَها الآخر يتحدّثُ عن أحوال أُخرىٰ.

وهذا الذي ذكره القرطبي حقّ وواضح من دلالات النصوص.

ثم ذكر خمس أحوال، هي: (١ ـ حالة البعث من القبور. ٢ ـ حالة السوق إلى موضع الحساب. ٣ ـ حالة المحاسبة. ٤ ـ حالة السوق إلى دار الجزاء. ٥ ـ حالة الإقامة في دار الجزاء).

ووجّه طائفةً من النصوص القرآنية لبعض هذه الأحوال، وذكر أنّ قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

يُرادُ به حشْرُ الْكَافِرِينَ عُمْياً وبكماً وصُمًّا في حالة السَّوْقِ إلى دار الجزاء.

ثمّ قال بعد توجيهاته لطائفةٍ من النصوص: فهذا وجه الجمْعِ بين الآيات، على ما قاله عُلَماؤنا، والله أعلم.

أقول: تَعْيِينُ أنَّ حشر الكافرين عُمْياً وبُكْماً وصُمَّا هو في حالة السَّوْق إلى دار الجزاء، لا دليل عليه من النصّ، بل قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الفرقان) التي نتدبّرها:

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

يدلُّ على أنَّهم لا يكونون صُمَّا حين سوقهم إلى دار الجزاء، بل يسمعون تغيُّظَها وزفيرها، إذِ اقْترابُهُمْ منها يكون عند سوقهم إليها.

والظاهر أنّ انطماس حواسّهم الثلاث يكون كما ذكرتُ آنفاً، في موقف الحشر، الذي يكون فيه الانتظار الطويلِ للحساب وفصْل القضاء، وهو الذي يتلاءم معه قول المعْرِضِ عن ذكر الله في الدنيا، كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿... رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ... ﴿١٢٥﴾﴾.

أمّا في حالة سوق الكافرين إلى النار، فيكونون عُمْياً، ولا يكونون صُمَّا. ودلّ على أنّ سماعهم لتغيُّظها وزَفيرها يكون عند سوقهم إليها، مَا جاء عقب هذا البيان، وهو قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾:

فالترتيب في البيانِ يُشعرُ بالترتيب في الواقع، والله أعلم.

فمعنىٰ الآيَةَ بعد هذا البيان التحليليّ:

إذا كان المكذّبون بالساعة يوم الدين في مكان يمكن أن يَرَوْا فيه النار، لو كانوا ذوي أبصار، لم يُسْلَبُوا القُدْرَةَ على الرؤية بها، سَمِعُوا أصواتَ غَلَيَانِ وفورانِ المنصهرات فيها، وسمعوا ما فيها من تَفجُّرَات، وسمعوا أصْواتَ الأنْفاسِ والرِّياحِ السّموم التي تَدْفَعُ بها عند الزَّفِير.

ولو أنهم كانوا يَرَوْن لرأوا حتماً لهب النار، لأنّ مدى قدرة الأبصار

على الرؤية أبعد من مدى قدرة الأسماع على السمع، ويحتمل أن تكون بينهم وبين النار حُجُبٌ غيْرُ انطماس أبصارهم، فهي التي تمنعهم من رؤيتها، والله أعلم.

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿أُلْقُوا۟﴾: فعل ماضٍ مبني للمجهول، والضمير فيه نائب عن الفاعل.

الإِلقاء: هو الرمْيُ الذي يكون دفعةً واحدة، كإلقاء صَخْرةٍ من شاهقٍ في الهواء، وتركها حتى تصطدم بما تقع عليه من شيءٍ.

﴿مِنْهَا﴾: أي: من السعير «النار» التي جاء ذكرها في الآية «١١» والجار والمجرور متعلقان بمحذوفٍ هو في الأصل صفة لـ«مكاناً» فلمّا قُدّم عليه صار حالاً.

أي: إذا أُلقُوا في مكانٍ ضيِّقٍ كائنٍ من السَّعير.

﴿مَكَانًا﴾: أي: في مكان، فلفظ «مكاناً» منصوبٌ بنزع الخافض منه، الذي هو لفظ «في» الظرفية.

﴿ضَيِّقًا﴾: صفة للمكان، فالمكذّبون بالساعة يُلْقَوْنَ في مكانٍ ضيّقٍ من النار غير واسع، لكي يكون أشدّ تعذيباً لهم.

يقال لغة: ضَاقَ المكانُ، أي: لم يتَّسِعْ للحالّ فيه، يَضِيقُ ضِيقاً وَضَيْقاً، فهو ضَيِّقٌ، وضَيْقٌ، وضَائق، أي: ذو ضيقٍ.

قَرَأَ الْجُمْهُور ﴿ضَيِّقًا﴾ بِتَشديد الياء، وقرأ ابن كثير **[ضَيْقاً]** بِسكونِ الياء، وهما في المعنى سواءٌ لغة، مثل: هَيْنٍ وَهَيِّنٍ، ولَيْنٍ ولَيِّنٍ، فالضَّيْقُ تخفيفٌ في اللّفظ للضَّيِّق.

وإذا قُلنا: إنّ ضَيْقاً مصدَرُ ضَاقَ، فتكونُ المبالغة آتيةً من الوصف بالمصدر.

والمعنى على كُلٍّ: أنّه مكان فيه ضِيقٌ شَديدٌ مؤلمٌ لِمَنْ يُلْقَىٰ فيه، فيزيدُ ضِيقُه من عذابه.

﴿مُقَرَّنِينَ﴾: منصوبٌ على الحال من الضمير في ﴿أُلْقُوا﴾ العائد على الَّذِين كذّبوا بالساعة. وهو جمع «مُقَرَّنٍ». والْمُقَرَّنُ هو المشدود بقوّةٍ إلى غيره بحبْلٍ أو نحوه.

«الْقَرَنَ» بفتح الراء هو الحبلُ الذي يُشدُّ به الأسير أو السجين ونحوهما، وجمعه «أَقْران». والْقَرِينُ: الأسير، وكلّ مُقارن ملازم.

يُقال لغة: قَرَنَ الشيءَ بالشيءِ، وقَرَنَهُ إليه يَقْرِنُهُ ويَقْرُنُهُ قَرْناً، إذا شدّهُ إليه.

ويُقال: قُرِّنَتِ الأُسَارَىٰ بالحبالِ إِذَا شُدَّتْ بكثرة، شُدِّد لفظ الفعل للدلالة على الكثرة والمبالغة.

قال الأصمعي: الْقَرْنُ جَمْعُكَ بَيْن دابتَيْنِ في حبل، والْحَبْلُ الّذِي يُلَزَّانِ به يُدْعَىٰ «قَرَناً».

قال ابن شُمَيل: قَرَنْتُ بين البعيرين، وقرنْتُهُما، إذا جمعتَ بينهما في حبلٍ قَرْناً.

والمعنى: أنّ المكذبين بالساعة يُشَدُّون بالحبال ويُسْحَبُونَ إلى عذاب السَّعِير، فَيُلْقَوْن فيها، وقد يُجْمَعُون معاً أزواجاً أو أكثر من ذلك، ويُلْقَوْنَ في مكانٍ ضَيِّقٍ من النار، لينالُوا عذاب ما كذّبوا به في الحياة الدنيا.

﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾: أي: نادَوْا هنالك بأعلى أصواتهم، طالبين خلاصهم بالهلاك العام الشامل. أو نَدَبُوا هنالك هلاكهم كما يُنْدَبُ الميّت

بِتعداد محاسنه، والتفجُّعِ والتوجُّعِ لفقده. فهم يندبون الهلاكَ لأنّه أفضل لهم ممّا هم فيه، ويتوجّعون لفقده وحرمانهم منه، فيقولون: يَا ثُبوراه، يا هَلاكاه.

الدُّعاء في اللّغة: النّداء بصوت عالٍ، يقال لغةً: دعا فلاناً إذا ناداه صائحاً به. **والدُّعاءُ**: النُّدْبَةُ بذكرِ محاسن المندوب والتفجُّع عليه، يُقَالُ: دَعَا الميّتَ إذا نَدَبَه.

وأُشِيرَ في النصّ إلى المكان الّذِي يُلْقَىٰ فِيه المكذِّبُونَ بالساعة بإشارة البعيد «هُنَالِكَ» لِشِدَّةِ بُعْدِهِ عن مَهَابِطِ تَنَزُّلِ رحماتِ الباري عزَّ وجلّ.

﴿ثُبُورًا﴾: الثبورُ: الهلاك، يُقَالُ لُغةً: ثَبَرَ فُلانٌ يَثْبُرُ ثَبراً وثُبوراً، إذَا هَلَكَ، ويُقَالُ: ثَبَرَهُ الله، إذا أهلكَهُ.

فالثُّبور: مصدرُ «ثَبَرَ» بمعنى هَلَك، وبمعنى أهلك.

ولفظ ﴿ثُبُورًا﴾ منصوبٌ على أنه مفعول به لفعل **[نَادَوا]**.

والمعنى أنهم يقولون: يا ثبوراً، أي: يا هلاكاً أدْرِكْنا من هذا العذاب الذي نحن فيه. أوْ يا إهلاكاً من ربّنا أدْركنا. أو يا ثُبورَاهُ ما أحسنك وما أفضلك بالنسبة إلى ما نحن فيه. وهذه المعاني كلُّها صالحة، ويمكن أن تَصْدُر جَمِيعُها عنهم، وهذا من الإِيجاز البديع في القرآن.

فيقال لهم:

﴿لَا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: لا خلاص لكم من العذاب الذي أنتم فيه، فلو أنّكم أُهْلِكْتُمْ لأُعِدْتُمْ إلى الحياة لتنالُوا عذابكم بالعدل، فتدعونَ ثُبوراً آخر، وهكذا دواماً. ثمّ إنّكم مع كلّ عذاب جديد ستَتَمَنَّوْنَ الخلاصَ منه، بأن تدعوا الثبور، وتَنْدُبُوه، وتَسْأَلوه ربّكُمْ، وهكذا تكراراً ومِرَاراً.

ويَحْمِلُ التعبيرُ أيضاً الدَّلالة على المعنى التالي: لا يكفيكم للخلاص من عذابكم هلاكٌ واحد من نوع واحد، بل أنواعٌ من الهلاك كثيرة، لأنّكم تحتاجون مع كلّ نوع إلى أن تدعوا نوعاً من الهلاك ليُرِيحكم منه، وهي فكرةٌ بديعةٌ تدلُّ على أنّ الآلام تأتيهم مُتَنَوِّعَةً بكثرة، فهم مع كلّ نوع منها يحتاجون أن يدعوا ثبوراً، على سبيل الطلب، أو على سبيل النُّدْبة.

فمعنى الآية: وَإِذَا أُلْقُوا عِنْدَ تَنْفِيذِ أمْرِ تعذيبهم في مكان ضيِّقٍ من النّار، حالَة كوْنِهم مُقَيّدِين أسرى، مسوقين إلى العذاب، صَاحُوا مُنَادين هُنَالك في ذلك المكان البعيد عن مَهَابِطِ تَنَزُّلِ رَحَمَاتِ الله، يا هلاكاً أَقْبِلْ وأرِحْنا ممّا نحن فيه، وَيا رَبّنا أَهْلِكْنَا لتُرِيحَنا ممّا نَحْنُ فيه، ويَا ثُبوراهُ ويا هَلَاكَاهُ مَا أَفْضَلَكَ بالنّسبَةِ إلىٰ ما نَحْنُ فيه.

فيُقَالُ لهم رَفْضاً لدُعَائِهم وتَيْئِيساً: لا تدعوا (نداءً أوْ طلباً أوْ نُدْبَةً) هلاكاً واحداً، وادْعُوا هلاكاً كثيراً، فطلبكم مرفوض، ودعاؤكم مردود عليكم، فكرّروه كثيراً مع الأزمان، ومع أنواع العذاب، واندبوا هلاكَكُمْ دواماً، أي: فإذا كان النداء يُرِيحُكم فكرّروه ما شئتم، ولا حظّ لكم في الهلاك الذي تَدْعُونه، لأنّ الله عزَّ وجلّ قضى بأنّه لا موت بعد البعث إلى يوم الدّين.

روى الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«يُؤْتَى بالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامة، فَيُوقَفُ عَلَى الصّراط، فيقالُ: يَا أَهْلَ الجنّةِ، فيَطَّلِعُونَ خَائفين وَجِلِينَ أَنْ يُخرَجُوا مِنْ مَكانِهِمُ الّذِي هُمْ فيه. ثُمّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النّارِ، فَيَطّلِعُوْنَ مُسْتَبْشِرِينَ فَرِحِينَ، أَنْ يُخرَجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الّذِي هُمْ فيه، فيُقَالُ: هَلْ تَعرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْفَرِيقَيْنِ: كِلَاهُمَا خُلُودٌ فيما تَجِدُون، لَا مَوْت فِيهَا أبداً».

وأمَّا ما ورَدَ من مَوْتِ المعذَّبين بالنار من أهل الجنة موتةً مؤقّتَةً في النار، فينبغي أن يُحْمَلَ علَى الْغَيْبُوبَةِ الّتي تُشْبِه الموت، وهي ليسَتْ مَوْتاً حقيقيًّا، وتكونُ لهم للتخفيف من عذابهم قبل إخراجهم من النار، وسَوْقِهِم إلى الجنّة، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿قُلْ﴾: خطابٌ للرسول فلكلّ داعٍ إلى الله من بعده، بأنْ يقول للّذين كذّبوا بالساعة (أي: بيوم الدين وما فيه من جزاء، إذْ يكون بعدها، وهو المقصود من التصديق بالسّاعة والإيمان بها).

﴿أَذَٰلِكَ﴾: أي: أذلِكَ العذاب المقرّر للمكذبين، الذي سبق بيان لقطاتٍ منه.

﴿خَيْرٌ﴾: أي: أَخيَرُ، بمعنى أنه أكثر خيراً، فهو «أَفْعَلُ» تفضيل، جاء على هذه الصيغة «خير» بغير همزة، خروجاً عن القياس، لكثرة الاستعمال، ونظيره في الخروج عن قياس «أفْعَل» مع استعماله في التفضيل، كلمة «شرّ» فيقال: هذا خيرٌ من هذا، وهذا شرٌّ من هذا[1].

أمّا السؤال عن الأَخْيَرِيَّةِ بَيْنَ أمرين أحدهما لا خير فيه مطلقاً،

---

(١) ومع هذا الشذوذ عن قياس «أفعل» فهما أيضاً لا فعل لكلّ منهما، وهذا شذوذ آخر فيهما، لأنّ «أفعل» التفضيل له شروطٌ حتّىٰ يكون قياسيًّا، وهو أن يُصاغ من فِعْلٍ ثلاثيٍّ، مبنيٍّ للمعلوم، متصرِّفٍ، تامٍّ، قابلٍ للتفاوت، غير منفي، وليس الوصْفُ منه على أفعل وفعلاء، مثل: أحمر وحمراء.

والآخر لا شرّ فيه مطلقاً، فسؤالٌ فيه التعجيب من أمرهم، واسْتِثَارةُ ما لديهم من تمييزٍ بين الخير والشرّ، لم تطمسه الأهواء والشهوات وحبُّ العاجلةِ ورغباتُ الفجور، أو الكبرُ والعنادُ وحبُّ الاستعلاء في الأرض.

ومثل هذا الأسلوب مستعمل في عبارات الناس، فيقول ذو السلطان لأحد الذين كانوا من المقرّبين لديه، وله مكانة وحظوة، فخرج عليه، فحكم عليه بالسجن والتعذيب، وأمر بتنفيذ الحكم فيه: أترى هذا العذاب خيراً لك، أم ما كنت فيه من نعمة ومكانةٍ لدَيْنا، ومطَالِبَ مستجابة؟!

ويحتمل أن يكُونَ المشارُ إليه في ﴿أَذَٰلِكَ﴾ مجموع حالهم الشاملة لما كانوا عليه في الحياة الدنيا، وما سيصيرون إليه من عذابِ يَوْمَ الدين، إذْ يَرَوْنَ أنّ ما هم فيه في الحياة الدنيا يشتمل على خير يُحبُّونه، من مالٍ وسلطانٍ واستمتاعٍ بلذّاتِ تحقيقِ شهواتِهم وأهوائهم، فَلَدَيْهِمْ بِحَسَب رُؤْيَتهم قدْرٌ كبيرٌ من الْخيْر، يَصْلُح للمشاركةِ في التَّفَاضُل بيْنَ خيرَيْن.

أمّا مُقَابِلُهُ فهو حال المؤمنين الذين يَرَوْنهم دُونَهُمْ في متاعِ الحياة الدنيا وزينتها وخيراتِها، لكنَّهُمْ صائِرون بفضل الله إلى جنَّةِ الْخُلْدِ الّتي وعَدَهُمُ اللَّهُ عزَّ وجلّ أن يكونُوا خالدين فيها يوْمَ الدّين.

وعلىٰ هذا الاحتمال يكون السؤال عن الأخيريّة لا إشكال فيه، ولا يحتاج تأويلاً، إذْ هو يلفت نظرهم إلى جميع حياتَيْهِم معاً، في العاجلة والآجلة، لحثّهم على التبصُّر بأمرهم.

والاستفهام في ﴿أَذَٰلِكَ؟!﴾ للإنكار التوبيخيّ التَّعْجِيبيّ من أمرهم، وفيه استثارةُ بواعِثِهِم لترك التكذيب بالساعة ويوم الدين، واختيارِ الإِيمان والعمل بمقتضاه، عن طريق التنبيه الشديد المقرون بالتَّلْوِيم.

﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾؟!: أي: أيُّهما أفضل لكم: الانطلاقُ في الحياة الدنيا على أهوائِكم وشهواتِكم، ثم عذابٌ أليم في السعير، أم استقامةٌ

وطاعة لله ورسوله في الحياة، وضبْطٌ للأهواء والشهوات، ثُمّ نعيمٌ مقيمٌ في جنّةِ الْخُلْدِ التي وُعِدَهَا المتّقون؟!

﴿ٱلْخُلْدِ﴾: المراد به هنا البقاءُ الدائم الذي لا نهاية له، وهو معنى الخلود المضاف إلى يوم الدّين، وقد تُطلَق مادّة: «خَلَدَ يَخْلُدُ خُلْداً وخُلُوداً» بمعنى طول البقاء النِّسْبِيّ، حتّى كأنّه لا نِهايَةَ له، ومنه أطلق العرب على الجبال والحجارة والصخور: الخوالد، لطول بقائها بعد دُرُوسِ الأطلال.

وإضافة «الجنة» إلى «الخلد» هي على معنى اللّام، الّتي تفيد الاختصاص، أي: الجنة المختصة بالبقاء الدائم الذي لا نهاية له.

﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: صفة للجنّة، والمعنى: أذلك الحال الذي يصير إلى عذاب السعير خيرٌ، أم حال المؤمنين المتقين الذي يصير إلى الظفر بجنَّة الْخلدِ التي وُعِدَهَا المتقون خير؟

والجواب الذي لا يختلف عليه عاقلان، هو أنّ حال المؤمنين المتقين خير حتماً.

والمتقون على درجات، أدناها من اتّقىٰ الخلود في عذاب النار، بالإيمان الصحيح الصادق وإعلان الشهادتين، وأعلاها يكون بعد الإيمان الصحيح بفعل الواجبات وتركِ المحرّمات، وفوقَ مَرْتَبَةِ التقوى مرتبةُ البرِّ فمرتبةُ الإِحْسَانِ.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾: أي: حالة كون الجنة للمتقين جزاءً ومصيراً، على رأي الكوفيين والأخفش من البصريين، الذين لا يشترطون في الجملة الفعلية الحالية التي فعلها فعلٌ ماضٍ اقترانَه بحرف «قد». أمّا البصريون فيشترطون ذلك، لكنّ المعنى في كثير من النّصوص القرآنية يرجّح رأي الكوفيين في هذه المسألة.

﴿جَزَآءً﴾: يُطلق الجزاء لغةً على كلٍّ من الثواب والعقاب، فجزاء الحسنة يكون بالحسنة، وجزاءُ السيّئة يكونُ بالسيّئة. وقد يكون الجزاء بالحسنة تفضُّلاً على حسنةٍ لم تنفع المجازِيَ بشيء، وقد يكون الجزاء بالسيّئة عدلاً مقابل سيّئةٍ لم تضُرَّ المجازي بشيْءٍ، وجزاء الله بالثواب هو فضل منه دواماً، يستحقُّهُ الْمُحْسِنُ بوعْدِ الله الحقّ، وجزاء الله بالعقاب هو عدلٌ من الله دواماً يستحقُّه الْمُسِيءُ بعمله.

﴿وَمَصِيرًا﴾: يأتي لفظ «مصير» مصدراً، يقال: صار الأمر إلى كذا يَصِيرُ صَيْراً ومَصِيراً وصَيْرُورة. ويأتي «المصير» بمعنى الموضع الذي تصير إليه المياه، فهو اسم مكان، ويأتي بمعنى المنزل الطيّب، يقال: أين مصيرُكم؟ أي: أيْنَ منزلكُمْ؟

والمصيرُ قياساً اسم المكان الذي يُصارُ إليه طيّباً كان أَمْ خبيثاً.

قال أهل اللّغة: مَصِير الأمر مُنتهاهُ وعاقبته، قال الأزهري: وأمّا «صار» فهي على ضربين: بلوغٍ في الحال، وبلوغٍ في المكان.

أقول: فالجنة التي وُعِدَها المتّقون، هي جزاءٌ بالثواب على ما قدّموا من عمل صالح في الدنيا، وهي منتهاهم وعاقبتُهم، إذْ هي آخر ما ينالونه من أنواع ثواب، بعد ثواب الدنيا، وبعد ما ينالونه من نعيم في البرزخ، إن كانوا من أهله، وبعد ما يكافؤون به في مدّة الحشر والعرض والحساب، كالشرب من ماء الكوثر، والاسْتِظْلالِ بظلّ العرش، وهي أيضاً آخر ما يناله المؤمنون العصاة من جزاء، بعد تَطْهيرهم من ذنُوبهم بالعقاب الذي يستحقّونه بالعدل. ثم تكون الجنة هي المنزل الطيب لهم آخر الأمر.

ولم يأتِ في القرآن لفظ «مصير» وصفاً للجنّة إلّا في هذه الآية، أمّا دار العذاب يوم الدين فقد جاء في القرآن وصفها بنحو: «بئس المصير ـ وساءت مصيراً» أربع عشرة مرّة.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾: أي: يَمْتَلِكُ المتّقون في الجنّة يوم الدين ما يشاءون، مهما يكُنْ ذلك الشيءُ الذي يشاءونه، أو يقدَّمُ لَهُمْ فيها ما يشاءون.

فهم يستطيعون التَّنَعُّم بما يشاءون من أنواع نعيم مهما بالغوا في التخيُّل والتصوُّر، لأنّهم مالكوه، ويُقَدَّم لهم متى شاءوا، ويأتى إليهم بما يَطْلبُون.

وجاء في نُصوصٍ أخْرَىٰ أنّ الله عزَّ وجلّ يَزِيدُهُمْ من لَدُنْه نعيماً لا يخطر على قلوبهم، ولا تستطيع تخيُّلاتُهم أن تخْتَرِعَه، فمن ذلك قول الله عزَّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾.

﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال مقدَّرة، أي: حالة كونهم سيخلدون فيها.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾: أي: كان هذا الجزاء في الجنّة التي لهم فيها ما يشاءون حقًّا على ربّك، أوجَبَهُ اللَّهُ على نفسه بوعْدِه التفضُّلِيّ الكريم. فمن حقِّ الذين وعَدَهُم الله هذا الوعْدَ أن يسألُوهُ ربَّهُمْ داعِينَ ومُطَالِبينَ بأنْ يحقّقه لهم.

والتعبير بكونه وَعْداً مسؤولاً كنايةٌ عن تحقُّقِ وقوعه، لأنّ الله عزَّ وجلّ لَا يُخْلِفُ الميعاد، فمن حقّ العباد على ربّهم الذي منحهم إيّاه أنْ يسألوه تحقيق ما وعدهم من ثوابٍ تفضُّلِيٍّ كريم.

وقد أبان الله عزَّ وجلّ في نصٍّ لاحقٍ بحسب ترتيب النُّزُولِ: أنّ الذين يحملون العرش ومَنْ حَولَهُ من الملائكة يسألون الله داعين للذين آمنوا بأن يُدْخلهم جنّات عدنٍ الّتِي وعَدَهُم، دلّ على هذا قول الله عزَّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

ومن لطيف البيان أنّه جاء التوجيه لعرض الجزاء بالثواب في جنَّة الْخُلْدِ للمتَّقِينَ المقابلِ للجزاء بالسَّعير للذين كذّبوا بالساعة، مُعَلِّماً استِخدامَ أسلوب الاستفهام عن المقارنة والموازنة بين حالَي المكذّبين والمتقين، مع شمول هذين الحَالَيْنِ حياةَ الابتلاء في الدُّنيا، وحياةَ الجَزَاء يَوْمَ الدّين، والاستفهامُ من شأنه أن يُحرّك عوامل التفكير والتأمل، أكثر من الحديث الخبريّ الذي ليس فيه تحريك المخاطبين للمشاركة في التفكير والتأمّل في القضايا المعروضة.

والسبب في ذلك أنّ الإنسان يحبُّ أن يكون فاعِلاً، وكثيراً ما يَكْرَه أن يكون مجرّد متلَقٍّ منفعل.

فعلى الدعاة إلى الله أن يلاحظوا هذه الفِطْرَةَ من فِطَرِ الناس، وأن يراعوا التَّوْجيهَ الرّبّانيّ في هذا المجال، ولا يَقْتَصِرُوا على مجرّد الأمر والنهي والإخبار والتوجيه التكليفيّ والتأنيب والتلويم، فقد تكون هذه منفّرات، والمطلوبُ تأليف القلوب والنفوس، لتقبُّل التوجيه، والاستجابةِ لمضمونه.

وقد وُصِفَت جَنَّةُ الْخُلْدِ في الآيَتَيْنِ (١٥ ـ ١٦) من السورة بأربع جُمل:

الجملة الأولى: ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ﴾ أي: التي وُعِدَهَا المتَّقُون،

ومعلومٌ أنّ الذي وَعَدَهُمْ بها هو الله عزَّ وجلّ في كتابه وفيما أنزل على رسُلِه جميعاً.

الجملة الثانية: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ أي: فهي ثوابُهم يوم الدين، بوعد الله الكريم، وهي النهاية والمصير الذي هم إليه صائرون، بعد البرزخ، والبعث، والحساب، وفصل القضاء.

الجملة الثالثة: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَالِدِينَ﴾ أي: لهم في جنّة الخُلْدِ كلُّ مَا يشاءُون بالغاً ما بلغ، حَالة كونهم خالدين خلوداً أبديًّا لا نهاية له.

الجملة الرابعة: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ أي: وهذا الجزاء في جنة الخلد للمتقين حقٌّ على ربّك أوجبه على نفسه، وجَعَلَ لعبادِهِ بوَعْدِه الكريم الحقَّ في أن يسألوه إيّاه ويطالبوه به، كما جَعَل سبحانَهُ حمَلَةَ العرش ومَنْ حَوْلَه من الملائكة يدعون به لذوي درجة مرتفعة من المؤمنين، فيسألُون الله أن يُدْخِلَهم جنّاتِ عدْنٍ التي وعَدَهم.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾:

تمهيد:

في هذه الفقرة عرض لمشهد من مشاهد الحساب يوم الدين، يتضمّن بيان ما سيكون بأسلوبين:

• بصيغة الفعل المضارع الذي يُتحَدَّثُ به عن المستقبل.

• فبصيغة الفعل الماضي الذي يُتَحَدَّثُ به عن أمر وقع ومضى، للدلالة على تحقُّقِ وُقوعه. والإبداعُ البياني في هذا قائم على الاستعلاء فوق الزمن، ماضيه وحاضره ومستقبله، واقتطاعِ الحدث من المستقبل، وتقديمه في صورة أمْرٍ وقع وَتَمَّ، للإشعار بأنّه لا مَحَالةَ سيقع.

التدبّر التحليلي:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾: الحَشْرُ: هو الجمع والسَّوْق، يقال لغةً: حشَرَ الأمير جُنْدَهُ يَحْشُرُهُمْ وَيَحْشِرُهم حَشْراً، إذا جمعهم وساقهم.

ويَوْمُ المَحْشَرِ، ويَوْمُ الحَشْر، هو يوم جمع الناس للحساب والجزاء يوم القيامة.

الْمَحْشَرُ، والمحْشِرُ: بفتح الشين وكسرها، المجمَعُ الذي يُحْشَرُ إليه القوم.

ويُقال لغةً: حَشَرَ الإبلَ إذا جمعها.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: من كائنٍ مَا غَيْرِ الله، وكلّ الكائنات سوى الله تقع دونه، في مقابل اتّصافهِ بالفوقية المطلقة.

وقد سبق شرح كلمة «دون» عند تحليل الآية (٣) من السُّورة.

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾:

أي: فيقول الله عزَّ وجلّ عند محاسبةِ المشركين الذين كانوا يعبدون من دون الله، والمعبودين الذين اتّخذَهُم المشركون آلهةً يعبُدونهُمْ كعبادة الله: أَأَنتم أَضْلَلْتُمْ...

ويكون توجيه السؤال أولاً للمعبودين، لأخذ شهادتهم، باعتبار أنَّهم

لو كانوا قد أَضَلُّوا عابديهم بوسائلهم، فاتَّخَذُوا أنفسهم آلهةً من دون الله، وجعلوا أتباعهم يعبدونهم، لكانوا أكْثَرَ جُرْماً، إذْ تطاولوا إلى مقام الرّبُوبيّة والإلَهيّة، وهم مخلوقون لله، وعبيدٌ من عبيده، فَجَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ شُركَاء لله، وجمعوا إلى ضلالهم القبيح، واستعلائهم إلى مقام الرّب جلّ وعلا، إضْلالَ الّذِين عَبَدُوهُمْ.

الضلال والإضلال: كلّ منهما يستعمل للدلالة على معانٍ متعدّدة:

• فالضلال: يأتي بمعنى الجهل بالشيء، لخلوّ الذهن من معرفته، وعلى هذا المعنى ما جاء في قول الله تعالى لرسوله محمّد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ أي: جاهلاً فعلّمك.

• ويأتي الضلال بمعنى عدم الاهتداء إلى الحق، أو إلى السبيل السويّ الذي تكون فيه السلامة والنجاة، وينتهي بتحقيق المحبوب أو المرغوب فيه، وقد يقترن هذا الضلال بإرادَةِ التوصُّلِ إلى الحقّ أو إلى السبيل السويّ، وهذا يُعذَر به صاحبه، إنْ لم يَكُنْ لإرادَتِه تدخُلٌ في الإعراض عن الحق أو سبيل الرشاد.

• ويأتي الضلال بمعنى الضّياع في متاهات الباطل والشرّ، ويكونُ هذا ناشئاً عن إعراضٍ إراديٍّ عن الحق، أو عن السبيل السويّ، أو عن الآيات الدّالّات عليهما، بتأثير الأهواء والشهوات، أو التقاليد العمياء، والعصبيَّاتِ الذَّمِيمَةِ، أو بسبب مُعَانَدة الحقّ، ورَفْضِ إرْشَادِ المرشدين، والاستنكاف عن هداية الدالّين على الحقّ وسواء السبيل.

وأمّا الإضلال: فيأتي للدلالة على معانٍ متعدِّدة أيضاً، فمنها ما يلي:

(١) التّجهِيل، بالصَّدِّ والصَّرْفِ عن الاتّجاه لمعرفة الحقّ، أو معرفة السبيل السويّ، أو الأخذ بهما.

(٢) الإغواء بمختلف وسائل الإغواء القوليّة الزخرفيّة، ووسائل

الإغواء العملية التي تُسْتَرْضىٰ بها الأهواء والشهوات ونوازغُ النفوس ونوازعُها ودوافعها، لمجافاة الحقّ والتزام الباطل، ومجافاة السبيل القويم، والانطلاق في متاهات الظلم والبغي والعدوان والفجور في الأرض، للاستمتاع بزينة الحياة الدنيا.

(٣) الحكم على الضّالّ بالضلال، فإضلالُه هو الحكْمُ عليه بأنَّه ضال، كتجريم القاضي المجرم بالحُكْمِ عَلَيْهِ بأنّه مُجْرِمٌ، استناداً إلى أدلّة إدَانَتِه بالْجَرِيمَة.

والملائم للنصّ الذي نتدبّره من معاني الضلال والإِضلال، هو الإِضلال بمعنى الإِغواء، بمختلف الوسائل القوليَّة، أو العمليَّة، لحمْلِ المستجيب على الدخول في المتاهات التي فيها الظُّلْمُ والعُدوانُ والبَغْيُ فِي الأَرْض، والفِسْق، والفجور، ومعصيةُ الله ورسوله.

والضلال بمعنى العدول الإِراديّ عن الحقّ وعن السبيل القويم، إلى المتاهات التي فيها ظلم وعدوان وبغيٌ في الأرض وفسق وفجور ومعصيةٌ لله والرّسول.

﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟﴾: «أَمْ»: هي هُنَا «أم» المتصلة، وهي التي لا يكون الكلام بها إلَّا استفهاماً، وقد تأتي مسبوقَةً بهمزة الاستفهام، فيكون المعنى قائماً على ادّعاء وجود أحد الأمرين أو الأمور المستفهم عنها على الأقل، وقد تجتمع، والمراد بالاستفهام تعيين الواقع.

فالمعنى من سؤالهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟﴾: أنّ ضَلال هَؤُلاءِ المشركينَ أمْرٌ واقع، ولكن لا يخلو الأمر من أن يكون ضلالُهم ناشئاً عن إضلالكُمْ لَهُمْ بالإِغواء والإغراء، أو ناشئاً عن اختيارهم بأنفسهم الانطلاق في متاهات الضلال الاعتقاديّ والعمليّ بالشِّرْكِ الذي كَانُوا عليه، أو ناشئاً عن الأمرين معاً، فأنتم أضْلَلْتُمُوهُمْ بالإِغواء

والإِغراء، وهم قد ضَلُّوا معَ عِلْمِهِم بأنّهم مُجَانِبُون للحقّ وللسبيل القويم، إذْ رأَوْا في هذا الضلال ما يسْتَطِيبُونَهُ مِنْ لذّات الحياة الدنيا، وأهوائها، ومتاعها، وزينتها، أو يُرضِي نُفُوسَهُمْ وَرَغَباتِها.

وتُوجَدُ «أَمْ» المنقطعة، وهي التي تكون بمعنى «بل» وهذه قد جاءت في نصوصٍ قرآنيّةٍ كثيرة.

وبعد طرح هذا السؤال يُجِيبُ المعْبُودُونَ من دون الله، الذين لم يكُنْ منهم ما يُؤَاخَذُونَ عَلَيْهِ من إضلالٍ بإغواءٍ أو إغراءٍ ما، كالمَلَائِكَة، وعيسَىٰ عليه السلام، وأمّه، والْعُزَير، والرّجَالِ الصالحين الذين اتّخَذَ لَهُم أقوامُهُم مِنْ بَعْدِهِمْ أوثاناً على صُوَرِهِمْ، فعَبدُوهَا مِنْ دُونِ الله، وجَعَلُوا يُقَرِّبُونَ لَها الْقرَابِينَ، كما قال الله عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ . . . ﴿١٨﴾﴾.

﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾: أيْ: تَنَزَّهْتَ وَتَعَاليتَ يا رَبَّنا عن أن يكُونَ لكَ شُرَكَاءُ في ربُوبيَّتِك، أو شركاءُ في إِلَهِيَّتِك، فنحن مؤمنون بك ربًّا وإلٰهاً واحداً أحداً لا شريك لك، ومُؤْمِنُون بفَضْلِكَ وعَدْلِكَ، فَلَمْ يكُنْ منّا إضلالٌ لهم بإغواءٍ أو إغراء.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾: أي: ما كان يَصْلُحُ لَنَا ونَحْنُ خلْقٌ من خَلْقِك، وعَبِيدٌ من عبيدِكِ، ومؤمنون بك إيماناً كاملاً، أن نتطاول إلى مقام الرُّبوبيّة أو الإِلَهية، فَنَتَخِذَ لأَنْفُسِنا من دونك من أولياء، ولَا أَنْ نُتَّخَذَ ولو بغير علم مِنَّا من دُونِكَ من أولياء.

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: جمع «ولي» والوليّ يأتي في اللّغة بمعانٍ كثيرة، منها: «الرَّبّ ـ المالك ـ السيّد ـ المنعِم ـ الْمُعْتِق ـ الناصر والنصير ـ المحبّ ـ التابع ـ الصِّهر ـ الْعَبْد ـ المعتَقُ ـ المنْعَمُ عليه ـ الصديق ـ وكلّ من عَبَدَ شيئاً فقد اتّخذَهُ وليًّا».

وأصل مادّة الكلمة يدور حول معنى الاتِّباع، فكلمة «وليّ» تطلق على التابع والمتبوع «فعيل» بمعنى «فاعل» أو بمعنى «مفعول» وجرى استعمال الكلمة بتوسّع في مختلف المعاني، لأنها جميعها تدور حول كون «الوليّ» تابعاً أو متبوعاً، فيشْملَ المتبوع الرّبّ، وهكذا تنازلاً حتّى الرفيق والصديق وأيّ مَتْبُوعٍ. ويشمل التابعَ العبْدَ الذي يَعْبُد ربّه، وهكذا حتى الْمُتَابع والمنَاصِر من كُلِّ المستويات.

والمراد هنا في النصّ: تنزَّهْتَ يا رَبَّنا عن الشُّركاء، ما كان ينبغي لنا دواماً وأبداً أن نَتَخِذَ أَتْباعاً يعْبُدوننا من دُونِك، ولا أَنْ نُتَّخَذَ مِنْ دُونِك آلهةً نُعْبَد، يَتْبعُنَا تابعون، يسْتَنْصِرُون بنا، ويلْتَمِسُون عندنا جَلْبَ نفع، أو دفع ضرّ، ونحن مؤمنون بك رَبًّا واحِداً، وإلَهاً لَا شَرِيكَ لكَ، فلَا يَليقُ بنَا، ولا يَصْلُح لَنَا ونَحْنُ نؤمن بك هذا الايمانَ، أَنْ نُؤَلِّه أنفسنا، أو يُؤَلِّهَنا أحدٌ من خلقك، ونحن في المقام الدُّون، وأنت العليّ الأعلىٰ، فلا يُدانِيكَ أحَدٌ، ولكنّ هؤلاء عَبَدُوا مِنْ دُونِكَ مَا لَيْس لَهُم أن يَعبدُوه، ولَمْ يَكُنْ مِنَّا تأثيرٌ مَا عَلَيهم بإرادَةٍ منّا.

وبَعْدَ أنْ تبرّؤوا من إضلالهم، ومن التأثير عليهم بشيء، ذكروا علّة إشراكهم، لإبعاد كلّ تُهمةٍ عن أَنْفُسِهم مهما كانت صغيرةً، فقالوا كما أخبرنا الله:

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾:

﴿مَّتَّعْتَهُمْ﴾: أي: جعلْتَهُمْ يستَمْتِعُون بأنواعٍ من متَاعِ الحياةِ الدُّنيا مُدَّةً مُتَطَاوِلة، والمتاعُ كلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ويُتَبَلَّغُ به والفَناءُ يأتي عليه في الدنيا.

وقد سمَّىٰ الله ما تشتهيه الأنفس من الحياة الدنيا متاعاً، لأنَّه زائلٌ لا دَوامَ له، وقليل كمًّا وكَيْفاً، ووَصَفَ الحياةَ الدُّنْيَا بأنّها مَتَاعُ الْغُرورِ،

أي: المتاع الذي يَتَعلَّقُ به غرور الأَنْفُسِ، أمّا ذو العقل الراجح والإِيمانِ بيوم الدِّين فلا يَنْخَدع به.

وسمَّىٰ الله ما فِي الجنة يوم الدين من لذّاتٍ نَعِيماً، وَوَصَفَهُ بأنَّهُ مُقِيمٌ، فدلّ ذلك على الفرق الكبير جدًّا بين ما في الدنيا من متاعٍ قليل إلى حين، وما في الجنّة من نعيم مقيم خالد.

﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾: أي: حتَّىٰ تَهَاوَنُوا في الْقِيام بمَا أَمَرْتَهُمْ به ونَهَيْتَهُمْ عنه، في الذِّكْرِ الذي أنْزَلْته إليهم، وبَلغَهُمْ إيَّاه رُسُلُهُمْ، ثمّ أعرضوا عن الذّكر إعراضاً تامًّا، حتَّىٰ نَسُوهُ ولَمْ يَبْقَ في ذاكراتِهِمْ منْه شيء، فدخَلَتْ إلَيْهِمُ الْخُرافَاتُ، واسْتَوْلَتْ على أَفْكَارِهِمْ الأباطيل، وتعلَّقوا بأوهامٍ جَسَّدوها، وجَعَلُوهَا شُركَاءَ لله عزَّ وجلّ، وعَبَدُوها من دون الله البارِيءِ المحْيِي الْمُمِيتِ الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾: أي: وكانوا قوماً فاسدين لا خير فيهم، وفسادُهُم يُفْضِي بهم إلى أن يكونوا هالكين.

﴿بُورًا﴾: يقال: «بُور» للواحد والاثنين والْجَمْعِ والمذَكَّر والمؤنّث. وقد يكون جمع «بائر»[١].

والْبَوارُ في اللُّغة الهَلَاكُ، فالْبُورُ الْهَلْكَىٰ. قالَ الجوهري: الرَّجُلُ الْبُور، الفاسِدُ الْهَالِكُ الّذِي لا خَيْرَ فيه.

أقول: ويمكن أن نفهم أنّ كلّ ذي فَسَادٍ يؤدّي به فسادُه إلى الهلاك فهو «بُور» واللَّفْظُ يَسْتَوِي فِيه الواحِدُ وغَيْرُه كما سبق.

وعلَىٰ هذا نَفْهَمُ معنىٰ ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: وكَانُوا قَوْماً فاسدين لا

---

(١) يقال لغة: بَار يَبُور بَوْراً، أي: هلك. وأبارَهُ الله إذا أهلكه.

خير فيهم، ولا بُدَّ أَنْ يُؤدِّيَ بهِمْ فسَادُهم إلىٰ أَنْ يَكُونُوا هَالِكِين، تَحُلُّ عَلَيْهِم نَقْمَةُ الله وعذابهُ في الدنيا، وأن يكونوا من الخالدين في العذاب يوم الدين.

ومن مجموع عبارة التَّعْلِيل الَّتِي يذْكُرُهَا المعْبُودُونَ من الْمَلائِكَةِ والأَنْبِياء والصالحين، لتبرئَةِ أنْفسِهم في مَوْقِفِ الحِسَابِ، ومِنْ لَوازِمِها الفكريَّة نستطيع أن نستخرج المَعانِيَ التالية:

لَقَدْ كانَ لَدىٰ هؤلاء الْقَوم يَا رَبَّنا ذِكْرٌ مُنَزَّلٌ منْ لدُنْكَ، أبَانَهُ لَهُمْ رُسُلُهُم، وتَلَقَّوْهُ عنهم، وفَهِمُوهُ، وعَمِلوا بمَقْتَضاه، فعَبَدُوك أوَّلَ الأمر وحْدَك.

ولكِنَّ أجيالَهُمْ المتَتَابِعَةَ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ يتقَلَّبُونَ في مَتَاعٍ مِنْ زِينَةِ الحياة الدُّنيا، بفضلٍ منْك، فشغَلَهُمْ ما هُمْ فيه من مَتَاعٍ عنْ العَملِ بمَا أنزلْتَ إلَيْهِمْ مِنْ ذِكْر، فصَارَ هَمَّهُمْ أن يَسْتَغِلُوا من دُنْيَاهم أوسَعَ مَتاعٍ، وتَحَوَّلَ الدِّينُ عِنْدَهُمْ مِنْ كوْنِه عملاً بمرضاةِ اللَّهِ للظَّفَرِ بالسعادة الأخرويّة يَوْمَ الدّين، إلى كوْنِهِ وسيلةً للاستزادة من مَتَاعِ الحَياةِ الدنيا.

ومن طبيعة الإنسان إذا أهْمَلَ الْعَمَلَ بالتَّعَاليم أن يَصْرِفَها عَنْ ذَاكِرَتِه، ويَسْتَبْعِدَها، وهذا يجرُّ إلى نِسْيَانها، وعندئذٍ تَنْبُتُ في النَّفْسِ مَفَاهِيمُ دَخِيلَةٌ منْ شَأْنِها أن تَخْدُمَ مطالِبَها منَ الحَيَاةِ الدُّنيا، ومِنْ هَذِهِ المفَاهِيم الاسْتِغْنَاءُ بالوُسَطاءِ شُفَعاءَ لهم عند الله، وابتداعُ وسائلَ ما أنْزَلَ الله بها مِنْ سُلْطان، للتَّقَرُّب إلى هؤلاء الوسطاء، ويَبَدأُ التحريفُ في الدّين، مِنْ عِبادَةِ الله إلىٰ تَعْظِيمِ الْوُسَطَاءِ، ثُمَّ إلىٰ عِبادَتِهم.

وعِلَّتُهُم الأولَىٰ أنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ أنْ يدخُلَ إليهم الشّركُ قَوْماً فاسدين، طُلّابَ متاعِ الحياةِ الدُّنيا، لا هَمَّ لهم غَيْرُ الحصول على لذّاتهم منها، والدِّينُ لَدَيْهِم وسيلةٌ لتحصيل الدنيا فقط، ومن طبيعة هذا النوع من الدِّين أن تَدْخُلَ إليه البدَعُ والتحريفاتُ والخرافاتُ والشّرْكيَّاتُ، وجَعْلُ المعَاصِي

مِنَ الْعِبَادَاتِ، أَوْ مِنَ الأُمُورِ التي تُكَفِّرُها الشِّرْكِيّاتُ، أَوْ يَتحمَّلُها الْوُسَطاءُ الشُّفعاء، إلى غير ذلك من ضلالات.

وهل للذِّكْر الرّبّاني الْحقِّ المنزّل من عند الله على رُسُلِ الله نصيبٌ لدى هَؤلاء؟!

إنّه لا بُدَّ أن يُهْمَلَ، ثُمَّ يُنْسَىٰ، وهم مَسْؤُولون عن إهماله ونسيانه، إذْ تدخلّتْ إراداتُهم فيما وصلوا إليه، وكانوا قوماً فاسدين لا خيرَ فيهم، عصاةً مُجْرِمين، يَتّبِعُون أهواءهم وشهواتهم، التي تَقُودُها الشياطين.

❋ ❋ ❋

ويظهر أنّ المشركين في موقف الحساب يُدافعون عن أنفسهم، بأنّ الّذين كَانُوا يَجْعَلُونَهُمْ شُركاءَ لله، هُمُ الذين كانوا أَغْوَوْهُم وأَغْروْهُم بهذا الشرك بوسائلهم، كأن يقول عُبَّاد الملائكة إنّ الملائكة كَانُوا يظْهَرُون لَنَا بِكَذا وكَذا، ويفعلون لنا كذا وكذا، عن طريق بعض البَشَرِ منا، فيَردُّ الملائكة بأنّ هؤلاء الذين كانوا يَظْهَرُون لهم كانوا شَيَاطِينَ مِنَ الْجِنِّ، ولَمْ يَكُونُوا من الملائكة، ورُبّما كذَبُوا عليهم فادّعَوْا أنّهم من الملائكة.

ويُدانُ المشرِكُون بمخالفة تَعَالِيم الذِّكْرِ الرّبّانيّ وعدَمِ الرجوعِ إليه.

وكأَنْ يزعَمُ النصارىٰ أَنَّ في إنْجيلِهِمْ وكتُبِهم الأُخْرَىٰ مَا يدُلُّ على أنّ عيسى عليه السلام هو ابن الله، وهو جُزْءٌ منه، وأنّ عَلَيْهِمْ أن يَعْبُدُوه ويَجْعَلُوهُ شَريكاً لله في العبادة، فَيُكَذِّبهُمْ سيِّدُنا عيسَىٰ عليه السلام بذلك، ويُثْبِتُ أنّ هذا من التحريفات الّتِي أَدْخَلُوها في الدِّين، وليْسَ مِنَ الذِّكْرِ الذي أُنْزِلَ إليهم.

ويُدَانُون بمُخَالَفَة بُرْهَانِ الْعَقْلِ، ومُخَالَفةِ تَعَالِيمِ الذِّكْرِ الرَّبَّانِيّ، وَعَدَمِ الرُّجُوعِ إلىٰ الأُصُولِ الصَّحِيحَةِ الْمُنَزَّلَة.

دلَّ علىٰ هذا قولُ الله عزَّ وجلّ خطاباً لهم في موقف الحساب:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ... ﴿١٩﴾﴾.

أي: فقد كَذّبَتْكُمْ آلهتُكُمُ الّذين تعبُدونهم من دون الله، من ملائكة، وأنبياء، وصالحين، ونحوهم.

فالباء في ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ للتعدية، أي: أَثْبَتُوا أنّ قولكم الذي قُلْتُمْ بشأنهم قولٌ كذب عليهم. وبما أنّهم كذّبوكم بما تَقُولُونَ فقَدْ سَقَطَتْ كُلُّ الذّرائِعِ الّتي تَتَصَوَّرُونَ أنّها تَنْفَعُكُمْ فِي الاحْتِجَاجِ للدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِكم، فلم يبق إلّا أن يُقْضىٰ عليكم بالشرك وعقوبته.

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾: أي: فما تستطيعون أنْ تَتَّخِذُوا حِيلَةً تَصْرِفُونَ بها عن أنفسكم حُكْمَ عِقَابِ الله.

﴿وَلَا نَصْرًا﴾: أي: وما تستطيعون تحقيق نَصْرٍ يَدْفَعُ عَنْكُمْ عذابَ الله.

فالمعنى: وبعد إصدار الحكم مَا تَسْتَطِيعُونَ صرف العقاب عنكم بمعاذير أو شفعاء أو ملاجئ، وما تستطيعون مُغَالَبَةَ مُنَفِّذِي الْعِقَاب فيكم والانتصارَ عليهم، إذْ أنتم مسوقون إلى عذابكُمْ بالْقَهْر.

وجاء في قراءة جمهور القرّاء: [**فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً**].

والقراءتان ـ كما سبق بيانه ـ متكاملتان في الأداء البياني.

بعد هذه اللّقطة المقتَطَعة من موقف الحِسَابِ يوم الدين، والَّتي يَعْرِضُ الله فيها حالةَ الْمُحَاسَبِين منْ عبَّادِ الملائكة والأنْبياءِ والصَّالِحِين، وجّه الله عزَّ وجلّ للمشركينَ الظَّالِمين لأنْفُسِهم، والّذين لم يَتُوبوا وَلَمْ يَسْتَغْفِروا قبل موتهم، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: ومن يَظْلِم منكم بالشّركِ فَبما هو أشدّ منه من أنواع الكفر،

ويَسْلُكْ مَسْلَكَ المشْرِكينَ السَّابِقين أو أشدّ منه نُذِقْهُ عذاباً كبيراً، فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء واتّخذُوهُمْ شُركَاءَ لله يكُونُ حَالهُم كما سبق، فكيف أنتم؟!

نُذِقْهُ: أَصْلُ الذّوق يكون للطعام بحاسّة الذوق في الفم، يُقال: ذاقَ الطّعامَ يَذُوقه ذوقاً وذوقاناً ومَذَاقاً، إذا اختبر طعمه أو أحسّ به.

ثمّ حصل توسُّع في اللّفظ، فصار يُطْلَق على الإحساس باللّذة، والإحساس بالألم.

وأَذَاقَه: إذا جَعَلَه يَذُوق، فمعنى ﴿نُذِقْهُ﴾ نُنْزِلْ به العذابَ حتّى يُحِسّ بآلامه.

وفي وصْفِ اللّهِ عزَّ وجلّ العذابَ بأنّه كَبِيرٌ دلالةٌ على عِظَمِ قَدْره كمًّا وكيفاً.

فالألَمُ منْهُ مَا هُو كَثِير في توالي الأوقات، وهذا الكثير إذا نظرنا إليه نظرةً واحدةً وَجدناه كبيراً في حجمه أيضاً، فالْعَذَابُ الكبيرُ قَويُّ الشدّةِ في الْوَقْتِ الواحد عَظِيمُ المقدار في تَوالي الأوقات.

إنّ الألم الكَبِيرَ فِي ثَانِيةٍ يَكُونُ عَظِيماً لَا يُطَاقُ، فإذَا اسْتَمَرَّ على تَوالِي الأوقات كانَ أشدّ وأعْظَم، وأحْرَىٰ أن يَسْتَنْفِدَ كلَّ طَاقَاتِ الصَّبْر.

عَذَاباً: العذابُ والعقابُ والنَّكالُ في اللُّغَةِ بمعنى إنزال المكروه المؤلم الموجِع بالْمُذْنِبِ الْمُسِيء، جزاءً لَهُ علَىٰ ما اقْتَرفَ من إثم بإرادته.

وحين يكون العذابُ مُعجَّلاً في الدنيا، فإنَّه قَدْ يَتَضَمَّنُ مَعَ تَحْقِيق مبدأ العدل، معنى الرّدْع عن الإثم للمذنب إذا لم يُهْلِكْهُ العذاب، فلغيره ممّن تحدّثه نفسه بأن يَقْتَرِفَ مِثْلَ الإثم الذي اقترفه.

والمراد بـ: ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ نُذِقْهُ أَلَمَ عَذَابٍ كبير، وقد جاء

لفظ عذاب مُنَكَّراً، لأنّ أَنْواعَ العَذَابِ كثيرةٌ جدًّا، ولأنَّ نِسَبَ مقاديرها متفاوتة متفاضلةٌ جدًّا، ويَحْصُلُ الإِنْذَارُ الْمُخِيفُ والرادِعُ لأُولِي الأَلْبَابِ بوَصْفِهِ بأنّه كبير.

إجمالُ مَعَاني الدرس الرابع من دروس السورة

اشتمل هذا الدرسُ من دروس السورة على خمس قضايا:

القضية الأولى: بَيَانُ العِلَّة الدّاخِليّة الّتي جَعَلَتْ الْمُشْرِكينَ يُجَادِلُون في الرسُولِ والقرآن، وهي تَكْذِيبُهم بالسَّاعة، أي: بالبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِيَوْمِ الدِّين، يَوْمِ الحساب. وفَصْلِ القَضاء، وتَنْفِيذ الجزاء، والخلودِ، فقال تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾.

وقد دلّ هَذا علَىٰ أنَّ البَاعِثَ علَىٰ التَّشْكِيك في القرآن، والتشكِيكِ في صدق نبوّة محمّد ورسالته، لَيْسَ هُوَ منْ شَيءٍ في القرآن نَفْسِه، ولَا مِنْ شَيْءٍ في الرسول نفسه، ولَكِنْ مِنْ شَيْءٍ آخر هو أنّهم لَا يُرِيدُون أَنْ يُصَدِّقوا بِيَوْمِ الدِّين، لئلّا يَمْنَعَهُمْ ذَلِك عن الانطِلاقِ علَىٰ أهْوائِهم ورغَباتِهم وشَهَواتِهم منَ الدنيا، فهم لذلك يَطْرَحُون التعلُّلَاتِ ضِدَّ القُرْآن الْحَامِلِ لبيانَاتِ الدّين وتكاليفِه، وضِدَّ الرَّسُول مبلّغِ هَذِه البيانات والتكاليفِ عَنْ رَبّ العالمين.

القضية الثانية: إنْذارُ وتَحْذِيرُ مَنْ كَذَّبَ بالسَّاعَةِ ويَوْمِ الدِّين، بأنّ الله عزَّ وجلّ قد اعْتَد لَهُمْ سَعِيراً، واقْتَرَنَ هَذا الإِنذارُ بعَرْضِ لَقَطاتٍ مُوجَزاتٍ مِنْ بَعْضِ صُوَرِ العذَابِ في السَّعِير، ولقَطاتٍ من حَالِ الْمُعَذَّبِينَ يَوْمَئِذٍ فيها، فقال تعالى:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا

وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

فَدَارُ تعذيب المكذِّبينَ بيومِ الدين، وهي السعير (النار الموقدة الملْتَهِبَةُ) قد أَعْتَدَهَا اللَّهُ بِعِنَايَةٍ لإِقامة الْعَدْلِ دُونَ ظُلْمٍ ولا جور.

ومن أحوالهم معها ما يلي:

أولاً: إِذَا اقْتَرَبَتْ منهم اقْتِراباً مَا، بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَراهَا الرَّائِي في مكانهم، أو يَرَاهُمُ الرَّائِي في مَكَانِهَا، وهو مكان بعيدٌ نِسْبِيًّا، سمعوا أَصْوَاتَ غَلَيَانِها وتفجُّرَاتِها الَّتِي تُشْبِهُ غَيْظَ النُّفُوسِ والْقُلُوبِ الْمُغْتَاظَة، وأَصْوَاتَ انْدِفَاعِ الرِّيَاحِ السَّمُوم من داخلها الَّذِي يُشْبه الزفيرَ في تنفُّسِ الأحياء، وذلكَ دليلٌ علَىٰ شِدَّة الأصْواتِ، إِذْ هي تُسْمَعُ من أقصىٰ بُعْدٍ يُدْرِكُهُ البصر، والمعروفُ في أنظمةِ الحَواسِّ أنّ الأشياء تُرىٰ بالْبَصَرِ، وقَدْ لَا تُسْمَعُ أَصْواتُها الشّديدة، لأنّ مكان بعدها يَسْمَحُ بالإِدراك البصري، ولا يَسْمَحُ بالإِدْراكِ السَّمْعِي. ويَدلُّ إسنادُ الرُّؤية إلى النَّارِ على أنّهم يكونون في تلك الحالة عُمْيَاناً، وَلَوْلَا ذلكَ لقَالَ تعالى: إِذَا رَأَوْها مِنْ مَكَانٍ بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً، أو على أَنَّ بَيْنَهُمْ وبَيْنَها حِجَاباً يمنعهم من رؤيتها.

ثانياً: إذا أُلْقُوا مِنْهَا إِلْقَاءً بإهانَةٍ وَإِذْلالٍ في مكانٍ ضَيِّقٍ لتَعْذِيبهم، حالَةَ كَوْنِهِم مشْدُودِينَ بالحبال والسَّلَاسِل، مجموعين مع نظرائهم، دعَوْا هُنالِكَ فِي ذَلِكَ المَكَانِ البَعِيدِ السَّحِيقِ الْمَهِين: هَلَاكاً مَا أن يَحُلَّ بِهم للخَلاصِ ممَّا هُمْ فِيه مِنْ عَذَابٍ، ويَسْأَلُونَ الله ذَلِكَ الْهَلاكَ، ويَنْدُبُونَ ذَلِكَ الْهَلاكَ تَحَسُّراً علَىٰ فَقْدِه وحِرْمَانِهِمْ مِنْهُ، لأَنَّهُمْ فِي عَذَابٍ مُسْتَمِرّ، ولَوْ نَزَل بهم الهلاكُ لكَانَ ذَلِكَ رَاحَةً لهُم، لكنّهم لَا يَمْلِكُونَ التَّخَلُّصَ مِنْ حَيَاتِهم، ولا يملكُونَ إماتَةَ أَنْفُسِهِمْ.

فَيُقَالُ لهم: إنّ أَنْوَاعَ عَذَابِكُمْ مُتعدِّدَةُ، ومُتَجَدِّدَة، فلا يكْفِيكُمْ أَنْ تَدْعوا ثُبُوراً واحداً، بلْ تَحْتَاجُون أَنْ تَدْعُوا ثبوراً كثيراً، فمَعَ كلِّ نَوْعِ عَذَابِ تَدْعُون ثبوراً، ومع كلّ مُتَجَدِّدِ عذابٍ تَدعُونَ ثبوراً.

الثُّبور: كما سبق بيانه هو الهلاك، بمعنى الْمَوْتِ والْفَنَاءِ، وفي تمنّي الكافر لنفسه الهلاك قال الله تعالى في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

القضية الثالثة: عرضُ البشَارَة الّتي بَشَّرَ الله بها المتَّقِين، بأنْ وَعَدَهُمْ أن تكونَ جَنَّةُ الْخُلْدِ جزاءً لهُمْ على تَقْواهُمْ، تَفَضُّلاً مِنْهُ بهَا عَلَيْهِم، وأَنْ تَكُونَ مَصِيراً يَصِيرُونَ في نِهَايَةِ مراحِلهم إليه، فهي مَنْزِلُهم الطيّبُ الدائم الخالِدُ، ولَهُمْ فيها ما يَشاءُون، وجَعَلَ الله من حَقِّهِمْ أنْ يُطالِبوا به.

وجاء هذا العَرْضُ بأسْلُوبِ الاسْتِفْهامِ الْمَطْلُوبِ تَوْجِيهَهُ لِلْمُكَذِّبينَ بِيَوم الدِّين، حَوْلَ المقارنةِ والْمُوازَنَةِ بين حالِ المكذبين وحالِ المتّقين، بدءاً من حياة الابتلاء، ومآلاً في حياة الجزاء، والغرضُ مِنْ هذا السؤال الاستفهاميّ استثارتُهم للتفكير الذّاتِي، والاسْتِبْصَارِ فِي حَقيقَةِ الأمر، بَعِيداً عن الْعَقَبةِ النفسِيَّة، التي يَرْفُضُ بعضُ النَّاسِ بسَبَبِها التَّوْجِيهَ الْمُبَاشِر التَّعْلِيميَّ، لَكِّنهم لا يَرْفُضُونَ الْمُشَارَكَةَ في التَّفْكِير واسْتِخْلاصِ الحَقائقِ بالتأمُّل، فقال الله عزَّ وجلّ للرسُول ولكُلِّ داعٍ مِنْ بَعْدِه إلى سَبيلِ الله:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

ونلاحظ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾ أنّ الله يوجّه الخطاب لِلْمُفْرَدِ، ويأمره بأنْ يخاطب المفرد، إذْ لم يَقُلْ: قُلْ: أذلكُمْ. وفي هذا

إشعار بأنّ الإقناع يَحْسُنُ أن يكُونَ بأُسْلُوب الإقناعِ الإفرادي، لا الإقناعِ الْجَمَاعِيّ، فهُوَ منَ الْوَسَائِلِ الفضلىٰ في كثير من الأحيان.

وعلى الدُّعَاة أن يَتَنَبَّهُوا إلى هذه القضية من قضايا الدّعوة.

القضية الرابعة: عرضُ مَشْهدٍ من مشاهِدِ موْقِفِ حِسَابٍ ومحاكَمَةِ المشركين الذين اتَّخَذُوا من الملائكة والأنبياء والصالحين آلهةً، وفيه بيانٌ سُؤَالِ معبُودِيهم في مجلس المحاكمة، لإظهار براءَةِ المعبودين من إضلالهم للعابدين، فَدَلّ هذا على أن هؤلاء المعْبُودِين الذين يُسألون هُمْ ملائكةٌ أو أنبياء أو صَالِحُون ونَحْوُهم من الذين لم يكن منهم إضلالٌ مَا بإغواءٍ أو إغراءٍ للعَابِدِين الذين اتّخذوهم شركاء من دون الله، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾.

لقد دَلَّ هذا المشْهَدُ المقتطعُ من موقف حسابٍ ومحاكَمَةِ المشركين يومَ الدّين، على أَنّ المعْبُودِين من الملائكة والأنبياءِ والصالحين ونَحْوِهم يَتَبَرَّؤون من اتّخاذ أَيَّةِ وسيلةٍ لإغْوَاءٍ وإِغْرَاءِ عابِدِيهم منْ دُونِ الله، فالْعَابِدُون هُمُ المَدِينُونَ وحْدَهُمْ في الشِّركِ الّذي كانَ مِنْهُم، إذ يَقُولون لربّهم عزَّ وجلّ:

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: تنزَّهْتَ عن الشركاء في ربوبيّتك، وفي إلٰهيتك. ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ أي: ما كان يليق بنا ولا يُلائمنا ولا يُناسِبُ عُبوديتنا لَكَ ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أَتْباعاً يَعْبُدُونَنَا، ولا [**أَنْ نُتَّخَذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء**] مَتْبُوعِين مَعْبُودِين نُعْبَدُ مِنْ دُونك.

ولكنّ علّةَ هؤلاء المشركين الدّاخليّة أنّهم قومٌ فاسدون لا خير فيهم،

وجَدُوا أَنفُسَهم يَتَمتَّعون بما وسَّعتَ يا ربّنا عليهم من متاع الحياة الدنيا، هم وآباؤهم، فاستغرقوا فيها، وأهملوا تَطْبِيق تَعَالِيمِ الذّكْرِ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ إِلَيْهِم على لسان رُسُلهم، حتّى أفضىٰ بهم الأمر إلى نِسْيان الذّكْر نسياناً كلّيًا، وابتداعِ مُخْتَرَعَاتٍ في الدّين جرّتْهُمْ إلى الشّرْكِ، ظانّينَ أن الشُّرَكَاء يُحَقّقُون لَهُمْ مَطَالِبَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ويَكُونُونَ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ الرَّبّ الأعلى، فقالوا:

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾.

ويُدافِعُ المشرِكون عن أنفسهم باتّهام شُرَكائِهم بأَنَّهُمْ قَد كَانَ مِنْهُمْ إضلالٌ لهم، فَيَقُولُ الله لَهُم:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾: أي: فحقَّ عليكم أنّكم كنتُمْ أنْتُمْ الْمُجْرمين، وصَدَر في حَقِّكُمْ الْقَضَاءُ العادِل بمؤاخذتكم، وتعذيبكم على وفق سابق الإنذار الذي بلّغكُمْ إيّاه رُسُلكُمْ، فانصَرِفوا، أو فانطلقوا إلى السَّعِير دَارِ تَعْذِيبِكُمْ، مُقَرَّنِينَ مَشْدُودِينَ بالْحِبالِ والسَّلاسِلِ.

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾: لِلْعَذَابِ عَنْكُم، ومَا تَسْتَطِيعُونَ مُقَاومَةً تُحَقّقُونَ بِها ﴿نَصْرًا﴾.

القضيّة الخامسة: تَوْجِيهُ الإِنْذَارِ لكُلِّ مَنْ يَظْلِمُ، فَيُشْرِكُ بالله، أوْ يكْفُرُ بكفرٍ آخَرَ أَشَدَّ من الشِّرْكِ، منْ كلّ من يبلُغُهُ الخطابُ بِآياتِ الْقُرْآنِ، بأنَّ الله يُذِيقُهُ يوْمَ الدِّينِ عَذَاباً كَبِيراً كَيْفاً وكَمًّا.

نسأل الله السلامة وحسن الاستقامة.

وبهذا تم تدبّر الدرس الرابع من دروس السورة على ما فتح الله به.

❁ ❁ ❁

(١٠)
التدبُّر التحليلي للدرس الخامس من دروس السورة وهو الآية (٢٠)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

تمهيد:

تضمَّنَ هذا الدرْسُ الرَّدّ على قول المشركين المذكور في الآية (٧) الذي دلَّ علىٰ رفْضِهِمُ الإيمان بالرَّسول محمّد ﷺ، وبما جاء به عن ربّه، بسبب كونه بشراً من البشر.

وتضمَّنَ مُعالَجَة حالَةِ الرَّسولِ النَّفْسيَّةِ بِشأْنِ هذه القضيّة، وتُقاسَ على حالة الرسول هذه، أحْوالُ نُفوسِ الدُّعاة إلى الله من بَعْدِه، المشابهة لهذه الحالة.

فهو متعلّق بالفرع الثالث (وهو الرسول) من فروع شجرة موضوع السورة.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . . .﴾:

﴿أَرْسَلْنَا﴾: أي: أوحينا إلى نَبِيٍّ وَأَمَرْنَاه بأنْ يتوجَّهَ حَامِلاً رِسَالَةً مِنَّا لِيُبلِّغَها، ويَقُومَ فيمن وُجِّه لهم بما كلَّفْنَاهُ من وظائف.

الإِرسال: التوجيه لأداء مُهِمَّة مَا بتُؤَدَةٍ وَتَرَفُّقٍ وأَنَاةٍ وَتَعَقُّلٍ وحِكْمَة.

والرّسول: هو الذي يُتَابع أخبارَ الّذِي أَرْسَلَه، ويَقُومُ بمهمّاتِه مُتَتَابِعَةً، أَخْذاً مِنْ قول العرب: جاءَتِ الإِبِلُ رَسَلاً، أي: جاءَتْ مُتَتَابعَةً، ومادّةُ الكلمة تدور حول التوجيه برفق وتُؤَدَةٍ وتَتَابُعٍ وأَنَاةٍ، كتوجيه الرَّسَلِ من الإبل والغنم، قطيعاً بعد قطيع برفق ويُسرٍ، لا بشدَّةٍ وعُنْفٍ.

ويُقالُ: أَرْسَلْتُ فُلاناً في رسالةٍ، فهو مُرْسَلٌ وَرَسُول.

ويأتي الإِرسالُ في اللّغة بمعنى: الإِطلاق والإِهمال، وتَرْكِ الْمُرْسَلِ يتصرّف بنفسه على ما يُريد، ويُحْمَل على هذا المعنى قول الله عزَّ وجلّ في سورة (مَرْيم/١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾.

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أيْ: تهزّهم وتُحرّكهم وتُغْرِيهم وتُهيّجُهُمْ بِشدَّة، وتوسوس لهم راغبةً في استثارتهم لارتكاب الآثام والشرور.

والمعنى: تركنا الشياطين تفعَلُ ما تريد بالكافرين، دون رعايةٍ مِنّا للكافرين بعصمة، بسبب أنّهم كفروا بإراداتٍ جازمات منهم، لم يكونوا فيها مجبورين ولا مُكْرَهين.

قول الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾:

الجملة فيها حصر، بالنفي والاستثناء، والمعنى: وما أرْسَلْنَا جميع المرسَلِينَ قبلَكَ يا مُحَمَّد إلّا متّصِفينَ بأَنَّهُمْ يأكُلونَ الطّعام ويَمْشُونَ فِي الأسْواق مثْلَكَ.

وجاء تأكيد الخبر بالمؤكدات التّاليات «إنّ، والجملة الاسمية،

واللّام المزحلقة» رعايةً لِحَالِ المشركين المعترضين على كون محمّد يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، مُوهِمِينَ باعتراضهم أنّ هذا الوصفَ لا يليقُ بحال نبيٍّ يَبْعَثُهُ الله رسولاً.

﴿وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِۗ﴾: أي: ويمشُونَ في الأسواق طَلَباً لمعاشهم، واكتساب أرْزاقهم بالبيع والشراء ونحوهما، وليس المراد مُجَرَّدَ المشي في الأسواق داعين إلى سبيل ربّهم، فهذا أمْرٌ لا يُعْقَل أن يكون محلّ اعتراض أحد، لأنّ كلّ رسول لا بدّ أن يَغْشَىٰ قوْمَه في مواطِنِ تجمّعَاتِهم، والأسواقُ منها، وهُمْ قَدْ طَلَبُوا إنزال ملائكة يشاهدونهم ويبلّغونَهُمُ الذِّكر.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ...﴾:

﴿وَجَعَلْنَا﴾: الضمير في هذا الفعل ضمير المتكلّم العظيم، وهو الله عزَّ وجلّ، وقد جاء في القرآن استعمال فعل «جَعَلَ» للدّلالة على عدّةِ معانٍ، أبرَزُها المعاني التالية:

المعنى الأول: الخلْق والتكوين، وهو الذي عليه معظم الآيات التي وردت فيها مادَّةُ «جعل» ومن هذه النصوص قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ... ﴿٢٦﴾﴾.

وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

ويَنْبغِي أَنْ نَعْلَمَ أنّ هذا الجعل التكوينيّ الخَلْقِيَّ الّذي يتناوَلُ التنظيم

العامّ لسُنَن الله في كونه، لا يَتَنَافَىٰ مع مِنْحَةِ حرّيّة الاختيار للمكلّفين المخيَّرِينَ، لأنّ هذا الْجَعْلَ يشْتَمِلُ على طريقي الخيْر والشرّ، والإنسان المكلف المختار المُمْتحَن، إذا اختار مثلاً الكفر وانعقدت عليه إرادته الحرّة، حجبه الله عن الإصغاء لآيات القرآن، وجعله غير قادر على أن يفْقَه معانِيَها، وجَعَله نافراً عن الاستماع إليها. أمّا إذا اختار الإيمان وانعقدت عليه إرادتُه الحرَّةُ الصَّادِقَةُ، فإنّ الله عزَّ وجلّ يشرح صدره للإصغاء لآيات القرآن، ويُنَوِّر قلبه لتدبّر معَانِيها وفَهْمِها، ويجعل سمْعَه ميّالاً لاستماعها ومُنْجَذِباً إليها.

وهذا المعنى هو المعنى الملائم للنصّ الذي نتدبَّره، إذِ امْتِحانُ النّاسِ بَعْضِهِم ببَعْضٍ من سُنَن الله في ظروف الحياة الدّنيا.

المعنى الثاني: الجعل بمعنى الحكم الدِّيني، الذي يَمْتَحِنُ الله الناس به، وقد وردت عدّة نصُوص قرآنية يدلُّ فيها الجعل على معنى الحكم الديني، ومن هذه النصوص قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ... ﴿٣٣﴾﴾.

أيْ: فقد جَعَلْنَا في أحكام الشريعة الإسلاميّة حكماً يَضْمَنُ حقَّ وليِّ الْقَتِيلِ الَّذِي قُتل مظلوماً.

المعنى الثالث: الجعل بمعنى الحكم الإنسانيّ الصادر عن تَصَوُّرٍ بَشَرِيّ، أصَابَ فِيه صَاحِبُه أمْ أخطأ، وضمن هذه الدلالة وردت عدّة نصوص قرآنيّة، ومن هذه النصوص قول الله عزَّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: حكمتم بحسب تصوُّركم الباطل.

المعنى الرابع: الجعل بمعنى الفعل ذي الأثر من أيّ مَخْلوق، سواءٌ أكان صَادِراً عن إرادة، أم عن غير إرادة.

فمن الأول قول الله عزَّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

ومِنَ الثاني قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

جعلته كالرّميم: أي: كالشيء البالِي المتَفتِّتِ الّذِي صار قطعاً صغيرة، كحبَّاتِ التراب والرّمل.

قوله تعالى: ﴿فِتْنَةً﴾: أي: مادَّةً من موادّ امْتِحَانِكُمْ في الحياة الدنيا.

الفتنة: في اللّغة تدور حول معنى الابتلاء والامْتِحَان والاختبار. قال الأزهريُّ وغيره: جِمَاعُ معنَىٰ الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصْلُها مأخوذٌ مِنْ قولك: فَتَنْتُ الفِضَّةَ والذَّهَبَ إذا أَذَبْتَهُمَا بالنَّارِ، لِتُميِّزَ الرّديء من الجيّد.

ويأتي الْفَتْنُ في اللُّغة بمعنى الإحراق، ويُسَمَّى الصائغُ الْفَتَّانَ، لأنّ صنعته قائمة على تعريض ما يَصُوغُ مِنْ مَعَادِنَ لِلَهَبِ النّار، ويُحْمَل على هذا المعنى قول الله عزَّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) بشأن أصحاب الأخدود:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿أَتَصْبِرُونَ؟﴾: استفهامٌ بمعنى الحضّ والحثّ، أو الأمر، أي: هلّا صبرتم، أو اصْبِرُوا. والصبْرُ هو ضبط النفس في تحمُّل المكاره.

ومعنى الحضّ هو الأولَىٰ فيما أرى، لأنّ الخطاب موجّه للرسول وللدعاة من بَعْدِه.

وهذا من أمثلة الاستفهام الذي خرج عن أصل دلالَتِه، وهي طلب الإفهام.

ويُلاحظ أنّ الله عزَّ وجلّ قد أمر رسوله محمّداً ﷺ بالصبْرِ في مراحل التنزيل قبل نزول سورة الفرقان ثلاث مرّات:

أولاً: ففي سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) قال الله عزَّ وجلّ لرسوله مع بدايات تكليفه مسؤولية التبليغ والإنذار:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾.

فكان ما جاء في هذا النصّ أوّل أمْرٍ بالصَّبْرِ مُوَجّه من الله لرسوله محمّد ﷺ، وإعداداً له حتّى يَتلقَّىٰ ما يَتَلقَّاه من قومه، وهو يُبَلّغهم رسالَةَ رَبّه، ويَقُومُ فيهم بوظائفها، صَابِراً لأَجْلِ رَبّه، وابتغاءَ مرْضَاتِه.

ثانياً: ثمَّ أنزل الله عزَّ وجلّ عليه في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ١٤ نزول) قوله تعالى:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)﴾.

وقد أمر الله رسوله بالصَّبْر في هذه المرحلة الّتِي نزلت فيها سورة (ق) تثبيتاً له، في مُقَابِل ما تعرَّضَ الرّسولُ لَهُ مِنْ تكْذِيبٍ واتّهامات وشتائِمَ وأنواعٍ من الأذى، تُقِضُّ مَضاجعَ عُظَماء الأبطال، وأرشده إلى الدَّواءِ الْمُسَاعِدِ، وهو أن يُسَبّح بحمد ربّه فيما حدّد له من أوقات.

ثالثاً: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلّ عليه في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) قوله تعالى:

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾.

وقد أمر الله رسوله بالصبرِ في هذه المرحلة التي نزلت فيها سورة (ص) تثبيتاً آخَرَ لَهُ، في مُقَابل تصاعُدِ اتّهامات كُبَراءِ قَوْمِهِ له، بأنّه مُفْتَرٍ وكذَّاب وساحر، وفي مُقابلِ وقُوفِهم منه ومن دعوته ومن الّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوه مَوْقِفَ المعادي الذي استعَدَّ للْقَمْعِ بالْعُنْفِ واستِخْدَامِ السلاح والْحَرْبِ، مُعْتَزًّا بقوّته العسكريّة الحربيّة، ومُعْلِناً عِداءَهُ السَّافر.

ومع الأَمْر بالصّبر قدّم الله عزَّ وجلّ نَمَاذِجَ من قِصَصِ الرُّسُل السابقين، ومَا تَعرَّضُوا لَهُ مِنْ مَكارِهِ صَبَرُوا فيها ابتغاء مرضاة الله.

رابعاً: ثم أنزل الله عزّ وجلّ عليه هذا التوجيه الرّابع للصّبر الذي نتدبَّرُهُ من سورة (الفرقان) بصيغة: ﴿أَتَصْبِرُونَ؟﴾ فضمّ الله عزَّ وجلّ مع تَوْجِيه رسولِهِ للصبْر تَوجيهَ الدّعاة من أتْباعِ الرّسول للصّبر صراحةً، لِمَا كَانُوا يلْقَوْنه من أذًى من قومهم واضطهادٍ، ولَا سيَّما الضعفاءُ منهم، ويدخل في هذا العموم كلُّ داعٍ إلى الله من أمّتِهِ.

أما قبل هذا النصّ فكان تَوجِيهُ الدُّعَاة للصّبْرِ يُفْهَمُ ضِمْناً من توجيه الرسول له.

وإذَا قال قائل: إنَّنا نَجِدُ في سورة (القلم/٦٨ مصحف/٤ نزول) قول الله عزّ وجلّ لرسوله.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾.

ونَجِدُ في سورة (المزّمّل/٧٣ مصحف/٣ نزول) قول الله عزّ وجلّ لرسُوله:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾.

فلِمَ لَمْ تَذْكُرْهُما ضِمْن مراحل التنزيل السابقة؟

فالجواب: أنّ هذيْنِ النّصّيْنِ مَدَنيّان تنزيلاً، ضُمًّا إلى سورتين هُمَا من أوائل التنزيل المكي. والحكمة من ذلِكَ أنَّ الرّسول إبَّان نُزُولِ سورتي القلم والمزّمّل لم يكن بحاجَةٍ في شخصِهِ إلى مثل هذا التوجيه الشَّدِيد للصَّبْر، فقد كان مُحَقّقاً في ذاته هذه الصفة.

لكنّ هذه المرحلة سَيُصَادفُ الدعاة إلىٰ الله نظيرَهَا في مَسِيرَةِ دَعْوَتِهم، وهم بحاجةٍ إلى توجيههم للصَّبْرِ عِنْدَها، فكَانَ من الحِكْمَةِ البيانيّة التربَوِيّة توجيهُهُمْ للصبرْ على ما ينالون من أذًى وضُرّ فِي دَعْوَتِهم إلى سبيل ربّهم.

واقْتَضَىٰ الأُسْلُوبَ التربويّ أن يُوجَّهَ الأَمْرُ بالصَّبر لرسولِ الله أوَّلِ المسلمين، الذي حقّق المطلوب منه فعلاً قبل توجيه الأمر له، ليَفْهَمَ الدُّعاةُ من بَعْدِهِ أَنَّهُمْ هُمُ المَقْصُودُونَ بالتوجيه، وأنّ الأمر بالصَّبْرِ عامٌّ شاملٌ لكلّ داعٍ إلى الله ابتداءً من الرسول أوَّلِ الدّعاةِ، حتى آخِرِ داعٍ إلى الله ما توالت القرونُ من بعده.

وليفهم المجتهدون الْمُسْتَنْبِطُون للأحكام أن الأوامِرَ والنواهِيَ الموجَّهَةَ للرّسول هي أوامِرُ ونواهٍ مُوَجَّهةٌ لكلّ تابعٍ لَهُ من أمّته، ما لم يكن الأمْرُ والنَّهْيُ مِنْ خُصُوصِيَّات الرّسول بالنّص.

دلَّ علىٰ كلّ ذلك هذا الإجراءُ الدّقيقُ في حركة تأخير إنزال النّصّ وضمِّه إلى سورة سابقة التنزيل، إذْ مَرْحلةُ نُزُولِها تستدعي أن يكون فيها هذا النصّ بالنسبة إلى الدعاة دون الرّسول، وكان هذا الإجراءُ الحَكِيمُ مُراعاة للاقتضاءَيْن معاً[1].

قول الله تعالى:

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

فيه وعد ضمني للصابرين على أذى الكافرين في مجال دعوتهم إلى سبيل ربّهم بمعونة الله لهم، وإعطائهم العاقبة الّتِي تُرْضِيهِمْ في الدُّنْيا والآخرة مهما قدّموا من تَضْحِيَاتٍ، وتحمَّلُوا من مكاره، وواجهوا من عقبات ومشكلات، ومهما نالهم من ضُرٍّ وأذى عبر المسيرة، ومهما سقط منهم من شهداء.

فالرّب البصير، حكيم عليم قدير، وهُوَ لأَوْلِيائه المجاهدين في سبيله نصير.

ولا يخفى ما في هذا الأسلوب البياني غير المباشر من أدبٍ رفيعٍ، وفنٍّ بديع، وهو من الكنايات التي يُدْرِكها الفطناء.



إجمال معاني هذا الدرس

في هذه الآية الّتي هي الدرس الخامس من دروس السورة قضيتان:

القضية الأولى: الرّدّ من الله عزَّ وجلّ على قول المشركين الذي جاء بيانه في قوله تعالى في الآية (٧) من السورة:

---

(١) انظر ما جاء في القاعدة العاشرة من كتاب: «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ» للمؤلف.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

أي: لو كان رسولاً يوحي الله إليه لأغناه الله عن أكل الطعام كما يأكل الناس، ولأغناه عن المشْيِ في الأَسْواق لتَحْصِيل رِزقه واكْتِسَابِ معَاشِه كما يفعل سائر الناس.

وقد جاء ردُّ الله عزَّ وجلّ على مقالتهم هذه بأسلوب توجيه الخطاب لرسوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأمْرَين:

(١) الاهتمام بالْبَدْء بمعالَجَةِ نفس الرسول التي توالت عليها طَعَنات الاتّهام الموجّهة من كُبَراء قومه لِصِدْقِه وأمانَتِه وكمال عقله وفطنته، مع عدم استجابة الله لأيّ مقترح من المقْتَرحاتِ التي أوردوها، لإِقْنَاعِ عامّتهم، أو لكَشْفِ أنّ مقترحاتهم إنّما هي مطالب تعنُّتِيَّةٌ، ولَيْسَتْ في الحَقِيقَةِ مطالبَ يَقْصِدُون بِهَا التحقُّقَ مِنْ صِدْقِ نبوّته ورسالته.

(٢) الإِعراضُ عَنْ مُواجَهَةِ قومه بالخطاب، مع إسْمَاعِهِم إيّاه عن طريق خِطَابِ الرّسول، لإشعارهم بأنّهم مُتَعَنِّتُون، وأنّ مواجهتهم بالخطاب لا يُغَيِّر شيئاً من موقفهم، ولإشعارهم بأنّ المقْصُودَ معالجة نفس الرسول، وأنّ الرّسول قَدْ تَطَلَّعَتْ نفسه لأنْ يستجيبِ الله لبَعْضِ مطالبهم، حرصاً منه على إيمانهم وإنقاذهم من الكفر وعَذَابِ الله، ولكنَّ حِكْمةَ اللَّهِ فِي سُنَّتِه الثَّابِتَةِ تأبىٰ ذلك.

فما أرْسَلَ اللَّهُ أحداً قبل محمّد من المرسلين إلَّا كان من صفاته الّتي عرفتْها فيه أُمَّتُه وتناقَلَتْها الأجيالُ من بعدهم، أنَّه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كما يمشي سائر الناس طالبين وسائل معاشهم.

فالبشريَّةُ وأكْلُ الطَّعَامِ والمشْيُ فِي الأَسْوَاقِ لَمْ تَكُنْ مُنَافِيَةً لِلاصْطِفاء بالنبوّة والرِّسالة.

واللَّهُ عزَّ وجلّ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُوحِيَ إلى بَشَرٍ أَوْ كَائِنٍ آخر من حيوانٍ

أو نباتٍ أو جماد. إنّه سُبْحانه متى شاء ذلك جَعَلَ في ذات مُتلقِّي وَحْيِه الاسْتِعْدَادَ لِتَلَقِّي الوحْيِ، فَيُوحِي إلَيْهِ، دُونَ أَنْ يَسْلُبَهُ صِفَاتِه الْعَامَّة السَّابِقَة.

والمُنكِرُ لِهَذَا بَعْدَ ثُبُوتهِ بالبرهان العقْلِيّ يتّهم الرّبّ الخالق سبحانه بالعجز عن شيءٍ هو من صلاحيّات قدرته.

وبما أنّ هذِه هي سُنَّةُ الله في جَمِيع المرسلين السابِقين بدون استثناء، فإنّه سُبْحانه لا يغيّر سُنّتَه هذِه استرضاءً منه لتَشّهِيَات الكافرين التعنتيّة العناديّة، الّتي لا تستند إلى مُقْتَضٍ عَقْلِي، أَوْ إلَىٰ مُقْتَضٍ منْ سَوابِقِ أَحْوالِ الأنْبِيَاءِ والمُرْسَلين.

بعد هذا يَظْهَرُ لنَا أنّ أصْحَابَ المقالة: إنْ كانوا يَجْهَلُون أنّ الرسل السابقين كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كسائر الناس لكسب أرزاقهم وتحصيل معايشهم، فباستطاعتهم أن يسألوا أهل الكتاب من قبلهم، ليعلموا منهم أن رُسُل بني إسرائيل كانوا كذلك.

لكنَّهُمْ لا يجهلون هذه الحقيقة، فهم إذنْ مُتَعنِّتُون، وحَسْبُهم أن يَسْمَعُوا جوابهم من خلال خطاب الله لرسوله، دون أن يَسْتَحِقُّوا المواجَهةَ بالخطاب، فالذي هو أهلٌ لأنْ يُوَاجه بالخِطَاب ينْبَغِي أن تكونَ لَدَيْه شُبْهَةٌ حَقِيقيّةٌ، لا تَعِلَّةٌ تَعَنُّتِيَّة.

القضية الثانية: معالجةُ نفسِ الرسول ﷺ مع تربية الدّعاة إلى سبيل الله من بعده تجاه جُمْلَةِ مقالاتِ الكافرين فيه وأعمالِهم، منْهَا ما سبق بيانه فيما أنزل قبل سورة (الفرقان) ومنها ما جَاء بيانه في سورة (الفرقان) ومِنْها أَنْوَاعُ أذىً لَمْ يَذْكُرْها القرآن.

وهذِه المعالَجَةُ مَعَ تَرْبِيةِ الدُّعاة إلى سبيل الله من بعد الرّسول كان من الحكمة الرّبّانيّة فيها بَيَانُ حَقِيقةٍ من حقائق حكْمَةِ الله فِي إيجادِ ظُروفِ هذِه الحياة الدنيا.

هذه الحقيقة هِيَ أنّ الرّسُول وسَائِرَ النَّاسِ مُمْتَحَنُونَ فِي هذِهِ الحياة الدنيا، والمطلوبُ في هذَا الامْتِحَانِ تُجاهَ الْمَكَارِهِ الَّتِي تَأْتِي من قِبَلِ الذين لم يَسْتجيبُوا للدَّعْوة هو الصَّبْرَ، فَمَنْ صَبَر اجْتَازَ هذا الامتحان بنجاحٍ عظيم.

وظاهِرٌ أَنَّ هذا النوعَ من أنْواعِ الامْتِحان في ظروف الحياة الدنيا، يَشْمَل كُلَّ الدّعاة إلى سَبِيل ربّهم من بعد الرسول ﷺ، ولذلِكَ كَانَ مِنَ الحِكْمَة في البيان التَّنْبِيهُ على قضيةٍ كلّيّة من قَضَايَا سُنّةِ الله في خلقه، وهِيَ أنَّ مِنْ مَوادِّ الامْتِحانِ في ظُرُوفِ هذه الحياة الدنيا بوجه عامّ، فِي شَبَكَةِ عَلَاقَاتِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، أنّ اللّهَ قَدْ جَعَلَ هذِهِ الْعَلَاقَاتِ بما فيها من أُمُورٍ مؤلماتٍ نَكِدَاتٍ، وما فيها من أمور سارَّاتٍ هيِّناتٍ، هِيَ مِنْ عَنَاصِر امتحانِ النَّاسِ فِي ظُروفِ هذِه الحَيَاةِ الدُّنيا.

ومعْلُومٌ أنّ مِنْها مَا يَحْتَاج صَبْراً، والنَجَاحُ فِيه يكُونُ بالصَّبْرِ، ومنْها ما يَسْتَدْعِي شكراً، والنجَاحُ فِيه يكُونُ بالشُّكر.

وبما أنّ ما تعرَّضَ لَهُ الرَّسُول من قِبَلِ كُفَّار قَوْمِه، ويَتَعَرَّضُ له الدُّعاة إلى سبيل الله دواماً في مَسِيراتهم دَاعِين إلىٰ الله بيْنَ النَّاسِ، ممّا يحتاج قدراً كبيراً من الصَّبْر، قال الله عزَّ وجلّ: في بيان هذه القضيّة الكليّة:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾؟.

فجاء التوجيه للصبر بأسلوب الاستفهام الذي فيه معنى الحض والحث والطلب، وجاء بصيغة عامَّةٍ تَشْمَلُ الرسُولَ والدُّعَاةَ مِنْ بَعْدِه.

وترغيباً في الأجر العظيم الذي تدلُّ عليه لوازم مشاهدة الله للصابرين ختم الله الآية بقولِه بأسلوب خطاب المفرد للدلالة على أنّ كلّ فرد واقع تحت نظر الله:

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه العبارة كنايةٌ عن الأجْرِ العظيم، والنَّصْرِ المبين الّذَيْنِ يمنَحُهمَا الله عزّ وجلّ لأوليائه الصابرين من الدُّعاة، فمن لوازم كَوْن الرَّبّ جلّ جلاله بصيراً بهم، أن يكون ولو بَعْدَ حين ناصراً لهم، ومؤيداً لهم، إضافةً إلى ما يَكْتُبُه لهم من أجْرٍ جزيل على صَبْرِهم، وهو ما بينته نصوص قرآنيةٌ كثيرة.



(١١)
التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة وهو الآيات من (٢١ ـ ٢٩)

في هذا الدرس بيان طلب الذين كفروا وكذَّبُوا بيوم الدين أن يُنَزِّل الله عليهم الملائكة ليَتَلَقَّوْا عنهم مُباشرةً وحْيَ السماء، أو يَرَوْا ربَّهُمْ عياناً، ويُبلِّغَهم ما يطلُب منهم في حياتهم. مع معالجة الله عزَّ وجلّ لطلبهم هذا، ببيان علّتهم النّفسية، وبعرض لَقَطات من خِطَّته المستقبليّة المقرَّرة التي جعل بحكمته من عناصرها رؤيتَهم للملائكة وملاقاتَهُمْ لربّهم في موقف الحساب وفصل القضاء، دون أن يَرَوْه، وفي تلك الأحوال يتمنَّوْن أن لا يَرَوْا الملائكة ولا يُلاقُوا ربّهم.



قال الله عزَّ وجلّ:

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً

مَنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

القراءات:

(٢٥) • قرأ أبو عمْرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ أصل الفعل «تَتَشَقق» حُذفت منه تاء الفعل تخفيفاً.

وقرأ باقي القراء العشرة **[وَيَوْمَ تَشَّقَّقُ]** أُدْغمت تاء الفعل بالشّين فصارت شيناً مُشدّدة.

والقراءتان وجهان متكافئان.

(٢٥) ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ ببناء الفعل لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، قراءة جمهور القرّاء العشرة.

[وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلاً] بالبناء للمعلوم من فعل أَنْزَلَ، والفاعل ضمير المتكلّم العظيم، ولفظ «الملائكة» منصوبٌ على أنّه مَفْعُولٌ به، قراءة ابن كثير.

والقراءتان وَجْهَانِ متكافئان من الأداء البياني، وقراءة ابن كثير تفيد أنّ ما جاء في القرآن مَبْنِيًّا لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله من أحداث الكون فالفاعل له هو الله عزَّ وجلّ، خلقاً أو أمراً، إلّا ما يَدُلّ السياقُ فيه على أنَّ الفاعل بعض مخلوقاته.

(٢٧) ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ بإسكان ياء المتكلّم، قراءة جمهور القرّاء.

[يَا لَيْتَنِيَ] بتحريك ياء المتكلّم بالفتح، قراءة أبي عمرو.

وهما وجهان عربيان متكافئان.

(٢٨) ﴿يَنوَيْلَتَىٰ﴾ في الوصل والوقف لجمهور القُرّاء العشرة.

[يَا وَيلَتَاهْ] بهاء السكْتِ مع المدّ الطويل عند الوقف، قراءة رُوَيْسٍ فقط.

والقراءتان وجهان عربيان متكافئان.

تمهيد:

تضمّن هذا الدَّرْسُ بيان طلَب الّذين كفروا وكَذَّبُوا بيَوْم الدّين، أن يُنزّلَ اللّهُ عليهُم الملائكة، ليتلَقَّوْا عَنهُمُ الْوَحْيَ الرَّبَّانِيّ، أَوْ يَروْا رَبَّهُمْ عِيَاناً، ويُبَلِّغَهُمْ مَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ في حياتهم.

وتضمّن أيضاً معالجة الله عزّ وجلّ لطلبهم هذا، ببيان عِلّتِهم النَّفْسِيّة، وبعَرْضِ لقطاتٍ من خُطّتِه المستقبليّة الّتي جعل بحكْمَته من عناصِرِهَا أنْ يَرَوْا الملائكة، وأن يُلاقوا ربَّهُمْ في مَوْقف الحساب وفَصْل القضاء، دون أنْ يَرَوْهُ ، وفي تِلْكَ الأحوال يتمنَّونَ أن لا يَرَوا الملائكة، وأنْ لا يُلاقوا ربّهم.

ومن الملاحظ تَدرُّجُ الّذين كفروا وكذّبوا الرسولَ وكذّبوا بالساعة، وجادلوا في صحة نُبوَّة الرسولِ ورسَالَتِه، متعلّلين ببشريته، منَ المُطالَبةِ بأن يُنْزِلَ الله إليه ملكاً فيكونَ معه رسولاً نذيراً، أو يُلْقَىٰ إليه كَنْزٌ أو تكون له جنّةٌ يأكُلُ هو وأهله منها، ويأكلون هم منها أيضاً، إلى المطَالَبَةِ بأن يُنَزّل الله عَلَيْهِم الملائكةَ، فيتَلَقَّوُا الوحْيَ منْهُمْ مُبَاشَرة، استكباراً عن أن يكُونَ بَلاغُ الدِّين إليهم بوسَاطَةِ بشَرٍ مِثْلِهم، أو أنْ يَرَوْا رَبَّهم مُباشَرةً رُؤْيةً بَصَرِيّة، فَيُبَلِّغَهُمْ دُونَ وِسَاطَةِ بشَرٍ ولَا مَلَائِكَةٍ بَلاغَاتِ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ... ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: أي: لا يَنْتَظِرون وَلَا يَتَوَقَّعُونَ ولا يَخافونَ لقاءَ الله يومَ الدِّين، في موقف الحساب وفصل القضاء، لتطبيق الجزاء بالعدل.

الضمير في «لقاءَنا» ضمير المتكلّم العظيم، وهو الله عزَّ وجلّ.

﴿لَا يَرْجُونَ﴾: الرَّجاءُ في اللّغة يأتي بمعنَيْين:

المعنى الأول: توقُّعُ حُصُولِ الأمْر، وترقُّبُه.

المعنى الثاني: الْخَوْفُ مِنَ الشَّيْء.

يقالُ لغة: رَجاه يَرْجُوهُ رَجْواً ورَجاءً، ويُقالُ أيضاً: رَجِيَه، وارْتَجاه وَتَرَجّاه.

• فمن الأول نحو قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ ـ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ـ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ﴾.

• ومن الثاني نَحْوُ قولِ الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ أي: ما لكم لا تخافون عظمة الله وقُدراته الجليلة.

ويجتمع المعْنَيَانِ في نحو قول الله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ـ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ـ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ ـ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾.

ويظهر من الاستعمالات القرآنية أنّ أَصْل معنىٰ الرَّجَاءِ هو مُطْلَقُ التَّوَقُّعِ للمرْغُوبِ فيه أو المخُوفِ منْه، ويُفْهَمُ من الرَّجَاءِ في كلّ نصٍّ بحَسَبه.

فالّذين لا يَرجُون لقاءَ الله، هم الّذين لا يتَوَقَّعُونَ هَذَا اللّقاءَ، فلا يرغَبُونَ في ثوابِ الله، ولا يَخافُونَ مِنْ عِقَابه.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: أي: هلّا أُنزِلَ علينا الملائكة، فَحَرْفُ «لولا» مستعمل هنا بمعنى التحضيض، مثل «هَلَّا».

وجاء وصْفُ أصْحَابِ القوْلِ هُنَا بأنّهم لا يَرْجُون لِقَاءَ الله رَغباً ولا رَهَباً، مناسباً لطلَبِهِمْ إنْزَالَ الملائِكَةِ عليهم، وهُمُ الَّذِينَ لَا تَكُونُ رُؤْيَتُهُم لهُم إلَّا بَعْدَ انْتِهاءِ ظُروفِ امْتِحانهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، فحِينَئذٍ يَرَوْنَ الملائِكَةَ الَّذِينَ يأْتُونَهُمْ بمَا يَكْرَهُونَ، منْ مُخِيفَاتٍ ومُحْزِنَاتٍ وصُوَرٍ مِنَ العَذابِ، وليْسَ فِي شيْءٍ من ذلك خَيْرٌ لَهُمْ أو بُشْرَىٰ.

﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾: أي: أو نَرَىٰ رَبَّنا رؤيَةً بَصَرِيّة فيأْمُرَنا ويَنْهانا مباشرةً، ويكلِّمَنَا بما يطلُبُ منا، ويُخاطِبَنا بالقرآن مُبَاشَرةً، دُونَ وِسَاطة رَسُولٍ مِنَ الْبَشَر، أو رَسُولٍ من الملائِكَةِ.

فَهُمْ بِهٰذَيْنِ المَطْلَبَيْنِ يقْتَرِحُون على ربّهم ما يُرِيدُون هُمْ مِنْ وَسِيلَةٍ لتَلَقّي مطَالبِ الرَّبِّ منْهُمْ وهُمْ عَبِيدُه، وخَلْقٌ منْ خَلْقِه، لقَدْ أَسْرَفُوا أيّما إسْرَافٍ في استِكْبَارِهِمْ وعنادهم وتعنُّتِهِمْ، وعُتُوِّهِم، لذلك قال اللَّهُ عزَّ وجلّ بشأنهم:

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾:

هَلْ يفْعَلُ النّاسُ مثْلَ هذَا بالنِّسْبَةِ إلىٰ مُلُوكِهِمْ منْ أهْلِ الأَرْضِ، فَيَرْفُضُونَ أوامِرَ ونَواهِيَ وبَلاغَاتِ الْمَلِكِ، حتَّىٰ يَبْعَثَ لَهُمْ الخَاصَّةَ مِنْ حَاشِيَتِه أهلِ قصره، أو يَظْهَر لَهُمْ جَمِيعاً فَيُخَاطِبَهُمْ بها؟!

إنّ هذا لَاسْتِكْبَارٌ حَقِيقةً وعُتُوٌّ كبير.

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: يؤكد رَبُّنا أنَّ الْبَاعِثَ لهم على طَلَبِ إنْزَالِ الملائكَةِ عليهم، أو ظُهورِ الرَّبِّ لَهُمْ حتَّىٰ يرَوْه، إنَّما هُوَ الكِبْرُ الْمُتَعَاظِمُ في أنْفُسِهم، والتأكيدُ جَاءَ باللّام، وَحَرْفِ «قد».

ومعنى «اسْتَكْبَرُوا في أَنْفُسِهِمْ» عَظُمَ الكِبْرُ واشْتَدَّ وقَوِيَ في أَنْفُسِهِم، فَمِنْ الْمَعَانِي الَّتِي تَدُلُّ علَيْهَا صِيغَةُ «اسْتَفْعَل» تعاظُمُ واشْتِدَادُ وقُوَّةُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مَادَّةُ الفِعْل.

إنّ فِعْلَ «كَبُر» يَدُلُّ على حُدُوثِ الكِبْرِ، أَمَّا صِيغَةُ «اسْتَكْبَر» فمِنْ مَعَانيها الدَّلَالَةُ علَىٰ أنّ هذا الكِبْرَ قَدْ تعاظَمَ واشْتَدَّ وقَوِيَ.

ونظيره فعل «غَلُظَ» النَّباتُ، إذا كَبرَ حجمه، واكتمل قوامُه، فإذا تَعَاظم واشْتَدّ وقوي قالوا: «اسْتَغْلَظَ».

وكذلِك فِعْل «حَبَّ» فلانٌ الشيءَ، إذا رغب فيه، وتعلَّقَ به، فإذا اشْتَدَّ حبُّهُ له وقَوِي حتَّى آثَرَهُ عَلَىٰ غَيْرِه، قالُوا: «اسْتَحَبَّهُ» أي: قوي حُبُّهُ لَهُ حَتَّىٰ آثَره، ومِنْهُ ما جاء في قول الله عزَّ وجلّ بشأنِ ثَمُودَ قومِ النبيّ صَالِحِ عليه السلام في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: اشتدّ حُبُّهم للكفر ولَوَازِمه، الَّذِي هو كَالْعَمَىٰ، حتى آثَرُوه بِإصْرارِ علَىٰ الإيمانِ ولوَازِمِه، والإِيمَانُ بمَا جَاءَ بِه الرَّسُولُ هُو الْهُدَىٰ.

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾: **العُتُوُ في اللُّغَة**: تَجَاوُزُ الْحَدّ، والتَّجَبُّر، **والْعَاتِي**: الجبَّار الْمُتَمرِّدُ الشَّدِيد الدخول فِي الْفَسَادِ، الّذِي لا يَقْبَلُ مَوْعِظَةً، وجَمْعُ الْعَاتِي: الْعُتَاة.

يُقال لغة: عَتَا يَعْتُو عُتُوًّا وَعِتِيًّا، إذا جاوز الحدّ، وتجبَّرَ وتمرّد، وعَانَدَ، وكانَ ذا فسادٍ عَريضٍ.

وبعد بيان هذا الدَّاءِ المسْتَحْكِم في أنفسهم، أَلَا وهو دَاءُ الاستكبار، والْعُتوّ الكبير، الذي جعَلَهُمْ يُطَالِبُونَ بأَنْ يَكُونُوا هُمُ الأَنْبِيَاء الَّذِين تُنَزَّل

عليهم الملائكةُ بالْوَحْي، أَوْ فَوْقَ الأنبياء بأن يَرَوا ربّهم جَهْرَة ويكلّمَهُمْ بما يَطْلُبُ مِنْهم، قال الله عزَّ وجلّ تعقيباً على ذلك:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: إنّ رؤيتهم للملائكة لا تكُونُ لهُمْ وهم في ظُروفِ هذه الحياة الدنيا، حياةِ الابْتِلَاء وهم يُخْتَبَرُون، لكِنْ تَبْدَأُ رُؤْيَتُهم للمَلَائِكَةِ مُنْذُ يَبْلُغُونَ عتَبَةَ الْمَوتِ، ويبدؤُون رِحْلَة البرْزَخ، وحينما يُبْعَثُون ويُسَاقُون إلى موقف الحساب وفَصْل القضاء، وحينما يُساقُون إلَىٰ عَذَابِهِم، وحِينَما يُكَبُّونَ في النَّارِ علىٰ وجُوهِهم ويَسْتَقِرُّون فيها.

وفي كلِّ هذه المراحل التي يَرَوْنَ فيها الملَائِكَةَ لَا تَكُونُ لهُمْ بُشْرَىٰ مطلقاً بالاسْتِغْرَاقِ الشّاملِ الذي دلَّت عليه كلمة «لا» النافية للجنس، في عبارة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

بل تكون لهم أحْزَانٌ وحَسَراتٌ ومخَاوفُ وآلامٌ، ممّا يمَسُّهُمْ، وممّا هُمْ إلَيْهِ صائرون، ويُعْلِنُونَ نَدمَهم، ويَنْدُبُون مَصَائِبَهُمْ، ويَتمنَّوْنَ أَمَانِيَّ لا تَتَحقَّق لهم.

﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾: **الْبُشْرَى**: اسم يُطْلَق على الشّيْءِ السّارّ الْمُفْرِح الذي يأتي به الْخَبَرُ أو العلم.

والتَّبْشِيرُ: الإخبار بما يَسُرُّ وَيُفْرِح، إذا جاء لفظ التبشير مطلقاً من غير قيد، وقد يُسْتَعْمَلُ مُقيّداً في ضدّه على سبيل التّهكّم، ومنه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ويُلَاحَظُ أنَّ جُمْلَة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قد جاءَتْ عَامّةً شاملةً لكلّ المجرمين، ويُفْهَمُ منْهَا دخولُ طالِبي رُؤْيَةِ الملائِكَةِ من مشركي مكة فيهم، إذْ هُمْ يدخلون في عموم الْمُجْرِمين.

ولقَصْدِ هذا التعميم على كُلِّ المجرمين جاءَ تَكْرِيرُ لفظ «يوم» في الجملة، والَّذي صَارَتْ به جملةً تامّة مُسْتَقِلّة، وهي جملة سَدَّتْ في المعنى مسَدَّ ما تُسْتَكْمَل به جُمْلَةُ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: هُمْ لَا بُشْرَىٰ لهم يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة، إذ هم داخلون في عموم المجرمين الذين لا بُشرىٰ لهم يومئذٍ.

وهُنا نقولُ: إنَّ نفي الْبُشرىٰ لهم لا يَسْتَلْزِمُ عقلاً إثْبَاتَ مُلاقَاتِهم لما يَكْرَهُون من محزناتٍ ومؤلماتٍ ومُخِيفاتٍ، فمن أيْنَ نفهم أنّ هذِه ستَكُونُ لَهُم يوم يَرَوْن الملائكة؟

ونجيب على هذا السؤال بأنّ قَوْلَ الله عزَّ وجلّ عقب ذلك:

﴿... وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ يَدُلُّ على أَنَّهُمْ يُشَاهِدُون ما يُخِيفُهُمْ ويُثِير الْهَلَع في قُلوبهم، فَيُطْلِقُونَ عبَارةَ الاستِعَاذَةِ هذِه، الّتي كَان مِنْ عادَتِهِمْ أَنْ يَقُولُوها عِنْدَ المَخَاوف.

﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أَصْل معنى «الحُجْر» في اللّغة «الْمَنْع».

يقال لغة: حَجَرَ عَلَيْهِ يَحْجُرُ حَجْراً وَحُجْراً وَحِجْراً وحُجْراناً وحِجْراناً، إذا مَنَعَهُ من التصرُّف.

ويُقالُ: لَا حُجْرَ عنه، أي: لا دفْعَ ولا مَنْعَ.

والعرَبُ تقولُ عنْدَ الأَمْرِ تُنكِرهُ: حُجْراً لَه، أي: دفعاً له.

ويُقالُ: حَجَر عليه القاضي يَحْجُر حَجْراً، إذا مَنَعَه من التصرّف في ماله.

ويُطْلَق لفظ «الحجْر» بفتح الحاء وكسرها وضمِّها بمعنى الحرام.

قال اللَّيث: كان الرجلُ في الجَاهِلِيَّة يَلْقَىٰ الرجُلَ يَخَافُه في الشّهر الحرام، فيقول: حِجْراً محْجُوراً، أي: حرامٌ مُحرّم عليك في هذا الشهر، فلا يبدؤه منه شرّ.

قال أبو عبيدة ـ كما نقل أبو حيان الأندلُسِي في تفسيره (البحر) ـ: هاتان اللّفظتان «حِجْراً محْجُوراً» عوذةٌ للعرب، يقولُها من خاف آخر (أي: إنساناً آخر) في الْحَرَمِ، أو في شَهْرٍ حَرام إذا لَقِيَهُ وبينهم تِرَةٌ.

التِرَة: هي حقّ أولياء القتيل على قاتله، والموتور هو الّذي يُطالب بالثأر، ويدُلُّ لفظ «التِّرَة» على الحفيظة التي في النفس، أو الحقد مع النزوع بغضب لطلب الثأر.

أقول: فيظهر أن عبارة «حِجْراً مَحْجُوراً» قد صارت عَوْذَةً دارجةً على ألسنة العرب، كلّمَا دَاهَمَهُمْ أمرٌ مَخُوف، مِنْ إنْسٍ أَوْ جِنٍّ أَوْ غَيْرِهِما.

بعد هذا نستَطِيعَ أن نَفْهم من الآية ما يَلِي:

بما أَنَّ مُجْرِمي مُشْركي مكَّة قد طَلَبُوا إنْزَالَ الْمَلَائِكَةِ عليهم لتَبْلِيغِهِمْ مُبَاشَرةً وحْيَ الله، رَافِضِينَ حِكْمَتَهُ في إرْسَالِ رسُولٍ بَشرٍ منهم، اسْتكباراً في أَنْفُسِهم، وعُتُوًّا كَبِيراً منهم، فلْيَعْلَموا أنَّهُمْ سَيَرَوْنَ الملائِكَةَ بعْدَ رحْلَة امْتِحانِهم في الحياة الدُّنيا، وسَيَكُونُ ذلك اليوم شَديداً علَيْهِم، مُخِيفاً لَهُمْ، وعنْدَ أوّلِ مُواجَهَةٍ يَرَوْن بها ملائِكَةَ اللَّهِ عنْدَ أوّل خُطْوَةٍ يخْطُونَها ساعَةَ الْمَوْتِ، منْتَقِلِين من حَياةِ الابتلاء، يُشاهِدُون مَشَاهِدَ مُرْعِبةً مخيفةً تَنْطَلقُ مَعَها أَلْسِنَتُهُمْ علَىٰ عَادَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا إذا واجَهُوا شَيْئاً مُخِيفاً مرعباً قائلين: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

أمّا أهْلُ الإيمان أولياءُ الله فإنّ لَهُمَ الْبُشْرىٰ، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

يدلُّ قول الله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ بصِيغَةِ الفِعْل المَاضِي، علَىٰ

أنّ الْبُشْرَىٰ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا لَهُمْ تَكُونُ بَعْدَ رحْلَةِ أعمالِ التَّقْوَىٰ، وهذه تبدأ عند النَّزْعِ قبل الْمَوْتِ معَ دُخُولِ عتَبةِ الْبَرْزَخِ، وهذِه اللّحَظَاتُ هِيَ مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا، والْبُشْرىٰ تكون للمؤمن المتقي بأَنْ يُكْشَفَ له حتّى يَرى مَنْزِلَهُ في جنّات النعيم، وبأنْ تُخْبِرَه الملائكة بما أَعَدَّ اللَّهُ له من عَاقبة حَسَنة.

وقد جاء في الصحيح عن النبيّ ﷺ ما يُثْبت هذه البشرىٰ، كما سيأتي إن شاء الله.

ووردَتْ عِدَّة روايات عن عبادة بن الصامت في سندها رجلٌ مجهول عن النبيّ ﷺ في تفسير: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بأنّها الرؤيا الصالحة يراها الْعَبْدُ أو تُرَى له.

أقول: لا مانع أن تكون الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ من الْبُشْرىٰ لهم في الحياة الدنيا، دُونَ أَنْ تَنْحَصِرَ فيها.

والْبُشْرَىٰ حَاصِلَةٌ لأهْلِ الإيمَانِ بمَا جَاء مِنْ تبشير لهم في القرآن، وفي أقوال الرسول محمّد ﷺ، وهذه في الحياة الدنيا، والنُّصوص في هذا كثيرة، منها قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

وأحسَنُ القول الذي يُسْتَمَعُ هو قول الله عزَّ وجلّ، ثمّ قول الرّسول ﷺ، فهم يَتّبِعُونَ ما جاء فيهما.

وتَتَنزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بالْبُشْرَىٰ على المؤمنين الذين استَقَامُوا بعدَ استقرار الإيمان في قُلُوبهم، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

فأثْبَتَ هذا النصّ أنّ الملائكةَ تَتَنَزَّل علَىٰ الّذين قَالُوا: ربُّنا اللَّهُ، فأعْلَنُوا إيمانهم به، ثمّ اسْتَقَامُوا على الطريقَةِ في الاتّجاهِ إلى مَرْضَاةِ رَبِّهم، لَمْ يَنْحَرفوا ولم يخرُجُوا عن الصِّراط، وفي التَّنزُّلاتِ التي تَتَنزَّلُ عَلَيْهم الملائكة تقول لهم بلغاتهم وألسنتهم مضمونَ: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ . . .﴾.

أمّا مَتىٰ يكُونُ هذا التنزُّل، فغَيْرُ ظاهِرٍ في أَحْوَالِ المؤمنين وهم في الحياة الدنيا قَبْلَ اقْتِرابِ حُلُولِ الأَجَلِ عِنْدَ نَزْعِ الرُّوح.

بقي أنْ نَفْهَم أنّه يكون بعد ذلك بدءاً من اللّحَظَاتِ الَّتِي يكُونُ عِنْدَها الْمَوْتُ.

قال ابن زيد ومُجَاهِدُ من أهل التأويل: تتنَزَّل عليهم عند الموت.

وقال قتادة: تتنزّل عليهم إذَا قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ عند البعث.

وقال وكيع: البشْرَىٰ فِي ثَلاثَةِ مواضِع: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث.

أقول: ما قاله وكيع هو الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ جُمْلَةُ النُّصُوص، ودلّ قول الله تعالى في هذا النصّ: ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ عَلَىٰ أنّ بِشَارَةَ الملائكة تكونُ بعد انتهاء رحلة الابتلاء في الْحَيَاةِ الدَّنيا، وهي تنتهي عند الغرغرة مع نزع الرُّوح.

وثبت أنّهم يُبَشَّرونَ وَهُمْ في الْمَوْقِف ويَوْمَ القِيامَة، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

مما ورد في السنّة:

(١) روى البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَه، ومَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَه».

فقالت عائشة ـ أو بعْضُ أزْواجِه ـ إنّا لنَكْرَهُ الموتَ، فقال: «لَيْسَ ذَاكِ، ولكِنَّ المؤمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ من اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ.

وإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بعَذَابِ اللَّهِ وعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

ورواه مسلم وابن ماجه عن عائشة، وأخرجه ابن المبارك من حديث أنس.

(٢) وروى الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «تَحْضُرُ الملائكة (أي: عند الموت):

• فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحاً قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطيّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بَرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وربٍّ رَاضٍ غير غَضْبَان. فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لها ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إلى السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فيُقَالُ: مَنْ هذا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. فَيُقَالُ: مَرْحَباً بالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ. أدْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ. فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيها اللَّهُ تَعالَىٰ.

• وإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالُوا: أَخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ

فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ. اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وأَبْشِرِي بحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لها ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إلى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فيُقَالُ: مَنْ هذا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ. فَيُقَالُ: لَا مَرْحَباً بالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الخَبِيثِ. ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فإنَّها لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَىٰ الْقَبْرِ».

(٣) وروى مسْلمٌ عن أبي هريرة قال:

«إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا».

قال حَمّادُ ـ وهو أحد الرُّواة في سند الحديث ـ:

فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا، وذَكَرَ الْمِسْكَ. قال:

«ويَقُولُ أَهْلُ السَّمَاء: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكِ وَعَلَىٰ جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، فيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَقُول: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَىٰ آخِرِ الأَجَلِ».

قال: «وإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ».

قال حَمَّاد: وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا، وذَكَرَ لَعْناً «ويَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ خَبِيثَةٌ جاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ».

قال: فيُقَالُ: «انْطَلِقُوا بِهِ إِلَىٰ آخِرِ الأَجَلِ».

قال أبو هريرة: فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَىٰ أَنْفِهِ هكذا.

الرَّيْطَةُ: كُلُّ ثَوْبٍ لَيِّنٍ رَقِيق. والْمُلَاءَة التي كُلُّها نَسْجٌ وَاحِدٌ وقِطْعَةٌ وَاحِدَة.

(٤) وروىٰ مسلم عن ابن عُمَر، أنّ رسول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ

أَهْلِ الْجَنَّةِ، وإِنْ كَانَ مِنْ أهل النار فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ القيامة».

(٥) وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[1] مِنْ حَنُوطِ الجنَّة، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ بَصَرِهِ.

ثُمَّ يَجِيءِ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَة، أخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ».

قال:

«فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقاء (أي: من فَم السِّقَاء) فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِه طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا في ذلِكَ الكَفَنِ، وفي ذلِكَ الْحَنُوط، ويَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَب نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا (يَعْنِي علَىٰ مَلأٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ) إِلَّا قالُوا: مَا هذِهِ الرُّوح الطَّيِّبَة؟

فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسَمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيا، فَيَسْتَفتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ له، فَيُشَيِّعُهُ من كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ».

---

(١) الْحَنُوط، والْحِنَاطُ: كُلُّ ما يُخْلَطُ من الطِّيب لأكفان الموتى وأجسادهم من مسك وورد وصندل وعنبر وكافور وغير ذلك.

قَال:

«فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟

فيقول: رَبِّي الله.

فيقولان له: وَمَا عِلْمُكَ؟

فيقول: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فآمَنْتُ به، وَصَدَّقْتُ.

فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَىٰ الْجَنَّةِ».

قَال:

«فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، ويُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مدَّ بَصَرِه، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيقول: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَأْتِي بالخَيْرِ.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةِ، حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي ومَالِي».

قال:

«وإنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ في انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ سُودُ الْوُجوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ[1]، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَر.

---

(١) الْمُسُوحُ: جَمْعُ «مِسْحٍ» وهو الكساء من شعر، وثوب خشن يَلْبَسُه الرّهْبَان.

ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأسِهِ، فيقول:

أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، ٱخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ».

قال:

«فَتَفْرَقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[1] مِنَ الصُّوفِ المَبْلُول، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حتَّىٰ يَجْعَلُوهَا في تِلْكَ الْمُسُوحِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيح جيفةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلأٍ مِنَ الملائِكَةِ إِلّا قَالُوا: مَا هذِهِ الرُّوحُ الخبيثة؟

فَيَقُولونَ: فُلَانُ بْنُ فُلان، بأقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا في الدُّنْيا، حتَّى يُنْتَهىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ.

ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول). [من الآية: ٤٠].

فيقولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ في الأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً، ثُمَّ قَرَأَ:

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول). [من الآية: ٣١].

فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، ويَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟

فيقولُ: هاه هاه، لا أدري.

---

(١) السَّفُّود: عودٌ من حَدِيد يُنظمُ فيه اللّحمُ لِيُشْوَىٰ.

فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّماءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وافْتَحُوا له بَاباً إِلَىٰ النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، ويَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فيقولُ: أَبْشِرْ بالَّذِي يَسُوؤُكَ، هذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

فيقول: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الّذِي يَجِيءُ بالشّرّ.

فيقولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ.

فيقولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ».

هذا الحديث رواه أيضاً أَبو دَاود من حديث الأعمش، ورواه النسائي وابن ماجه من حديث المِنْهَال بن عَمْرو.

❁ ❁ ❁

قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلّ:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ﴾: يقالُ لغة: قَدِمَ إلى الأمْرِ إذا قَصَده.

﴿مِنْ عَمَلٍ﴾: أي: من عَمَل حَسَنٍ من أعْمَالِ الخَيْرِ، ولفظ «مِنْ» بيانيّة، تُبيّن الإِبْهامَ فِي «مَا» من قوله «مَا عَمِلُوا» ودلّ على أنّ المراد أعمالُهُمُ الحَسَنةُ قرينة أنهم يحاسبون على أعمالهم السيئة وفي مقدمتها كفرهم.

﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً﴾: الهَبَاءُ دقائِقُ خفيفَةٌ تتطَايَرُ في الفضاء، تُرىٰ في أشعّة الشّمس الداخلةِ مِنْ كَوَّةٍ إلى مكانٍ مظلم.

﴿مَّنثُورًا﴾: الْمَنْثُورُ هُوَ الْمُفَرَّقُ بِلَا نِظَام، يُقَالُ لُغَةً: نَثَرَ الشيءَ نَثْراً، وَنِثَاراً، إذا رَمَىٰ به مُفَرَّقاً على غير نظام.

في هذا البيان جوابٌ علَىٰ سؤالٍ يطْرَحُهُ المشركون وكُلُّ مُتسائلٍ مِنْ غيرهم، عَنِ الأعْمَالِ الحَسَنةِ التي فِيهَا خَيرٌ فِي الحَياةِ الدُّنْيَا، والّتِي يَعْمَلُها المشْرِكُونَ وسَائِرُ أَهْلِ الكُفْر، أليسَ لها جزاءٌ عنْدَ اللَّهِ يومَ الدِّين بمُقْتَضَىٰ قانون الْعَدْلِ الرَّبّاني الذي لا يُضِيعُ مثقال ذَرَّةٍ؟

وخُلَاصَةُ الْجَوابِ: أنَّ أعْمَالَ أهْلِ الكُفْرِ الحَسَنَةَ، سَوَاءٌ أكانُوا مشْرِكينَ أوْ أحطَّ منْهُم دَرَكةً، أعْمَالٌ لَا قِيمَةَ لَها عنْدَ الله يَوْمَ الدّين، لأنها غَيرُ ذاتِ وزنٍ حتّىٰ تُوضَعَ في موازينِ أعْمَالِهِمْ الصَّالِحَةِ، إنَّهَا طَائِشةٌ بِطَبْعِها، أمّا المَظْهَرُ الَّذِي يَبْدُو لَهَا فَهُو مَظْهَرٌ خَادِعٌ مُتَشَكّلٌ مِنْ مِثل هَبَاءٍ يَتَجَمَّعُ بعضُه إلى بعْضٍ على صُورَةِ شيءٍ ذي قيمة، لكنَّهُ عِنْدَ كَشْفِ حَقِيقَتِه يظْهَرُ أنّه كَالْهَبَاءِ الْمَنْثُورِ المُتَطايِر الّذِي لَا وَزنَ له.

إنّ الأعْمَالَ الصَّالِحَةَ ذاتَ الوزْنِ عنْدَ اللَّهِ في موازينِ أعْمَالِ العِبَادِ يَوْمَ الدِّين، إنّما هِي الأعمالُ الّتي يَتَحقّق فِيها شرطان:

الشرط الأول: أن تكون مَبْنِيَّةً عَلَىٰ إيمان صَحِيحٍ، وخَالِصَةً لوَجْهِ اللَّهِ، يَبْتَغِي العامل بها طَاعَةَ اللَّهِ ورِضْوانَه، والتَّقَرُّبَ بِها إلَيْهِ. وذَلِكَ يكُونُ بصِحَّةِ النِّيّةِ فِيها، وصحّةُ النيّة تكُونُ بِعَقْدِ الْقَلْبِ عَلَىٰ طلَب الثوابِ عليها من الله عزَّ وجلّ وحده لا شَرِيكَ له، مِنْ مَعْبُودٍ مِنْ دُونهِ، أو مَصْلَحَةٍ دُنْيوية تُسْتَفَاد من النَّاسِ بِسَبَبِها.

وهذا ما يُعْرفُ بالإخلاص لله في العمل، فلا يَقْبَلُ الله الأعمالَ التي يعملُها المشركون لشركائهم، ولو كان فيها معنى التقرّب بها إلى الله عن طريق الشركاء، ولا يَقْبلُ اللَّهُ الأعمالَ التي يَعْمَلُها المراءُون لتَحْقِيقِ مَصَالِحَ دُنْيَوِيَّةٍ يُراءُونَ الناسَ بها، إنّ الله سبحانَه أغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«قال الله تعالى: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

وفي رواية: «فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ هُوَ لِلَّذِي عَمِلَهُ».

وروى الإمامُ أحْمَدُ والترمذيُّ وابنُ مَاجَهْ عَنِ أَبِي سَعْدِ بْنِ أَبِي فَضَالَةَ، عَنْ رَسول الله ﷺ قال:

«إِذَا جَمَعَ اللَّهُ النّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ نَادَىٰ مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ أَحَداً، فَلْيَطْلُبْ ثَوابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَىٰ الشّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ». (قال الترمذي: حديث حسن).

الشرط الثاني: أنْ تَكُونَ الأعْمَالُ مُوافِقَةً لِمَا شَرَعَ اللَّهُ لِعِبَادِه، أَوْ مَأْذُوناً بِها شَرْعاً، كالعَمَلِ باجْتِهَادٍ خاطِئٍ يُعْذَرُ فيه الْمُجْتَهِدُ الّذي هُو أَهْلٌ للاجْتِهَادِ في حُكْم الشَّرِيعَةِ الرّبّانيَّة.

فإذَا فُقِد هذَانِ الشَّرْطَانِ أَوْ أَحدُهما لم يكُنْ للأعمالِ الْحَسَنَةِ وَزْنٌ عنْد اللَّهِ يَوْمَ الدِّين، ويَكْشِفُ لمَنْ يُطالِبُ بأجْرِهِ عَلَيْها منْهُ أَنَّهَا فَاقِدَةُ الْوَزنِ فِي مَوازِينِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ عِنْدَه، باعْتِبارِ أَنَّها كانَتْ لشُرَكَائِهم، أو لِمَصَالِحِهم الدُّنْيَوِيَّةِ عنْدَ النَّاسِ، إذْ كانوا يُراءُونَ الناسَ بها.

وقد صَوَّر اللَّهُ حَقِيقةَ خِفّتِها وخُلُوّ بَاطِنِها من الْوَزْنِ الْحَقِيقيّ، بأنّه يأتِي إِلَى طَالِبِي الأجْر عَلَيْها عِنْده، فَيُظْهِر لهُمْ أنها كَصُورٍ مُتَجَمِّعَةٍ مِنْ هَباءٍ، فَهِي لَا وزْنَ لها ولا قيمةَ لها عَنْدَه، ومَنْ يَأْتي ليَقْبِضَ علَىٰ الْهَبَاءِ الّذِي يَرَاهُ خِلَال أشعَّةِ الشَّمْسِ الَّتِي تَدْخُلُ إِلَىٰ مَكَانٍ مُظْلمٍ، فإنّه لَا يَسْتَطِيعُ أن يُمْسِك منْهُ شَيْئاً.

وبمَا أنَّ منْ قانُونِ الأعْمَالِ الْحَسَنَةِ الَّذِي جعلَهُ الله فِي كَوْنِه، أَنَّهَا لَا تَكُونَ ذاتَ وزنٍ حقيقيٍّ يوْمَ الدّين إلّا إذَا كَانَتْ خالِصَةً لوَجْهه، ومُتَقَيِّدَةٍ بمَا شَرَعَهُ أوْ أَذِنَ به، وبما أنَّ هذا القَانُون مِنْ خَلْقِ الله وسُنَنِه الثابتَةِ، قال الله عزَّ وجلّ:

﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

أي: أَجْرَيْنَا فيه مُقْتَضَى القانُونِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلأعْمَالِ بخَلْقِنا، نَظِيرَ إجْرَاءِ قَانُونِ إحْرَاقِ النَّارِ جَسَدَ مَنْ دَخَل فِيها.

ويظهر أنّ إجراءَ مُقْتَضَىٰ هذا الْقَانُونِ بالنِّسْبَةِ إلى أَعْمَالِ الْمُشْرِكينَ وسَائِر الكَافِرينَ، بإلْغَاءِ أَثَرِها في موازينِ الله لِلْجَزَاء الأخْرَوِي، يكونُ منْذُ انْتِهَاء رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بالمَوْتِ، والدُّخُولِ في أحْوالِ الآخِرَةِ، بدْءاً مِنْ خُطْوَة الموت، فما بَعْدَ الْمَوتِ، وَهكذا حتّى الْمَصِير الأخِير، فلَا يَكُونُ لأعْمَالِهم الحَسَنَةِ الّتي عَمِلُوها في الحياةِ الدُّنيا أثَرٌ مَا في مَرْحَلةِ الْبَرْزَخ، ولا عِنْدَ البعثِ، ولا فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ، ولا فِي موْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ، ولَا في دَارِ عَذَابِهم يوْمَ الدِّينِ. ويَقْتَصِر أثَرُهَا على الآثار الَّتِي تَحْصُل بمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ الله في الْحَيَاةِ الدُّنيا، كَصِيتٍ حسَنٍ، ومكانةٍ عاليةٍ بَيْنَ النَّاسِ، وعَطَايَا مِنْ لذّاتٍ وأَمْوَالٍ وبَنِينَ ومَسَاكِنَ طَيِّبَةٍ، وَخَدَمٍ وأَنْصَارٍ وأعْوانٍ وَغَيْرِ ذَلِك.

❁ ❁ ❁

وبَعْدَ بيانِ ما يَتَعَلَّقُ بحَالِ الْمُشْرِكِينَ وَسائِرِ الْكَافِرينَ بَدْءاً مِنَ أَوّلِ لَحَظَاتِ رُؤْيَتِهِمْ للْمَلَائِكَةِ عنْدَ الْمَوْتِ، عرض الله عزَّ وجلّ بياناً يتَعلَّقُ بالْفَرِيقِ السَّعِيد، وهُمْ أصحابُ الجَنَّة، على طَرِيقَتِه في القرآن مِنَ الْجَمْع بين بَيَانَي الإنذار والْبِشَارة في النُّصُوص القرآنيَّة، فإذَا سَبَقَتِ المنْذِرَاتُ تَبِعَتْهَا الْمُبَشِّرات، وإذَا سَبقَتِ المبشراتُ جاءَتْ بَعْدَها المنْذِرات، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: أَهلُها الملازِمُونَ لَها مُلازَمةَ الصَّاحِب للصَّاحِب، قراراً ربّانياً قبل أن يدخلوها، وحقيقةً واقعةً قائمةً بعْدَ أنْ يَدْخُلُوها، وهُمُ المؤمنون المتّقون بدْءاً من أَدْنَى مستَوياتِ الإيمان المقبولِ

الذي يُتَّقَىٰ به الخلودُ في النار، حتّى أعلَىٰ درجات المحسنين، فهؤلاء هم أصحاب الجنّة بمقتضى دلالات نصوص كثيرة، فمنها ما سبَق إنزالُه في مراحل التنزيل، ومنها ما نزل بعد سورة (الفرقان).

﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: أي: يومَ إذْ يرَىٰ الناس الملائِكَةَ عنْدَ الْمَوْت فما بعد ذلك حتى دخول أهل الجنةِ الجنّةَ، ودخول أهل النارِ النارَ، فشَمَلَ هذا اليومُ كلّ أحوال اليوم الآخِر، بدءاً من انْتِهَاءِ رِحْلَةِ الإِنسان منصرفاً عَنْ حَيَاةِ الابْتِلاء، وداخلاً فِي يَوْمِ الحساب والجزاء.

والتنوين في ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ هو هنا تنوين العِوَضِ عَنْ جُمْلَة ﴿يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

﴿خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ۝٢٤﴾.

﴿خَيۡرٞ﴾: أفعل تفضيل، كما سبق بيانه في تحليل الآية (١٥) من السورة، وهو تفضيل علىٰ معنى التهكّم والتوبيخ الضمني، إذْ ليس في حال المجرمين خير، فلْيُرْجَع إلىٰ مَا سبق من بيان.

﴿مُّسۡتَقَرّٗا﴾: المستَقَرُّ هو مكان الاستقرار في معظم الأوقات أو كلّها، يقال: استقرّ في المكان إذا تمكّن فيه، واشتدّ ثُبُوتُه فيه. ويأتي مصدراً ميميًّا بمعنى القرار والثبوت.

﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾: المقيل هو المكان الذي يَنَامُ الإِنسان فيه نومَةَ الْقَيْلُولَة، من «قَالَ يَقِيلُ» إذَا نَام وَسَط النهار، ونَوْمَةُ وسَطِ النهار هذه تسمَّى «الْقَيْلُولة» فالمكان الذي يُنَامُ فيه وسط النّهار يُسمَّى «الْمَقِيل».

وظاهِرٌ أنَّ الجنَّةَ هيَ مستَقَرُّ أَهْلِها، على أنّ «مُسْتَقَراً» اسمُ مكان الاسْتقرار، وأنّ فِيها يَكونُ استِقْرارُهُمْ على أن «مُسْتَقَرًّا» مَصْدَرٌ مِيميٌّ بمَعْنَىٰ الاستقرار، فما هو المكان الذي يَقِيلونَ فيه؟ وكيف يَقِيلُون؟

نظرتُ في أقوال أهل التأويل فَلَمْ أَجِدْ فيها شيئاً مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، ولا كلاماً مؤيّداً بمفاهيم قرآنية، ورأيتُ أن القضيّة هي من الأمورِ الأُخْرَويّة الغيبيّة التي لا تُقال من قِبَلِ الرأي.

ثم نظرتُ في النصوص القرآنيّة فوجدتُ أنَّ الله وصَفَ الجنَّة بأنّها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقاماً، وَوَصَفَ النّارَ بأنها ساءت مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً، كما جاء في أواخر سورة (الفرقان) التي نتدبّرها، وقَدْ عَرَفْنا معنى كلمة «مستقر» أما كلمة «مُقام» فتُطْلَق بمعنَيْين:

المعنى الأول: الإقامة.

المعنى الثاني: موضع الإقامة.

وسمّى الله الجنّة «دار الْمُقَامَة» والْمُقَامةُ في اللّغة مثل الإِقَامَة، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) يَصِفُ حال أهل الجنّة في الجنَّة:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ۝٣٥﴾.

واستبعاداً للترادُفِ بَيْنَ كلمتَيْ «مُسْتَقَرّ» و«مُقَام» لا بدّ أنْ نفهم أنّ إحداهما تدلُّ على المكان، والأخرى تدلُّ على الحدث.

فكُلٌّ مِنَ الجنّةِ والنّار مَكانُ استقرار ومكانُ إقامة، وكلٌّ منهما يَحْصُل فيه استقرارٌ وإقامة.

ومن لطيف البيان الجمع بين الكلمتين لتُحْمَل إحداهما على معنى الْمَكَانِ، ولتُحْمَلَ الأُخْرَىٰ على معنى الْحَدَث، مع صلاحيّة كلٍّ مِنْهُمَا للمكان والحدث معاً.

ومنْ هذا نفْهَمُ أنَّ الْجنّة لا تكونُ مَقِيلاً، فلا تكون مكان نومٍ مؤقت، أو راحةٍ مؤقتة، بل هي مكان استقرار دائم، وإقامة دائمة.

وكذلك النّار لا تكون مكان قيلولة، لأنّ في القيلولة راحةً، ولا قَيلُولَةَ لأَهْلِ النار، ولَوْ كَان دُخُولُهُمْ إِلَيْها مؤقّتاً للتطهير من الذنوب.

إِذَنْ فَأَيْنَ يَكُونُ المَقِيل؟

تابعت النَّظَرَ في النُّصُوص القرآنيّة، فوجَدْتُ أنَّ الله عَزَّ وجلّ ذكَرَ أنّ النَّومَ والموت كلاهُما وفاة، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ووجدت أنّ الله عزَّ وجلّ وَصَفَ اللُّبْثَ في القبر (أي: في خزانةِ الأرض مُدَّةَ البرزخ) بين الموت والبعث، بأنَّهُ حالة تُشبهُ حالةَ الرُّقاد، وهو النوم، فالكافرون حين يُبْعَثُونَ يقولون كما جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ووجدت التأكيدات في القرآن على أنّ شُعور الناس عن المدّة الَّتي لبِثُوها بين الموت والبعث يساوي شُعورَ النَّائِم في قيلُولَتِه ساعةً من نَهارٍ، باعتبار أنّ حِسَّ الزّمن يُلْغَىٰ مِنْ مَراكِز إدْرَاكهم عَنْ هذِه المدّة، إذْ يَكُونُ وضْعُهُمْ كَوَضْعِ النَّائمِ وقت القَيْلُولَة فِي النّهار، ومن النصوص التي أكّدت هذه الصفةَ فِيهم، قولُ الله عزَّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ... (٥٥)﴾.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (٤٥)﴾.

وقولُ الله عزَّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿... كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٣٥)﴾.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) بشأن ساعة البعث:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا (٤٦)﴾.

بعْدَ هذه النظراتِ القرآنيّة ظَهر لِي أنّ المراد من الْمَقِيل في قول الله تعالى في سورة (الفرقان) التي نتدبَّرُها:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)﴾.

هو المكانُ الذي تَبْقَىٰ فيه أجسادُ الموتى ونفوسهم مُنْذُ الْمَوْتِ حتَّىٰ البعث إلى الحياة الأخرى.

فحالُ أصْحَابِ الجنة منذ بَدْءِ دُخولهم عتبةَ اليوم الآخر بالْمَوْتِ، حتَّىٰ المصير الأخير، خَيرٌ منْ حَالِ الَّذِين لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ الله عزَّ وجلّ، منْذُ بَدْءِ دُخُولِهِمْ أيضاً عتبة اليوم الآخر بالْمَوتِ، حتَّىٰ الْمَصِير الأَخِير في العذاب.

وهذه الأخْيَرِيّة تتناول مُسْتَقَرَّهُم الأخير في دار مُقَامهم، وتَتَنَاوَلُ وقت بقائهم فِي مَضَاجِعِهِمْ ومَرَاقدِهِمْ فِي قُبُورِهِم بعد الموت.

فَمُسْتَقَرُّ أصْحَابِ الجنّة الذي هو مكان إقامتهم الخالدة خيرٌ من مُسْتَقَرّ الذين لا يرْجُون لقَاءَ الله، الذي هو مكان إقامَتِهم الخالدة.

ومَقِيلُ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ الَّذِي هُوَ مَكَانُ بَقَاءِ أَجْسَادِهِم ونُفُوسِهم بين الموت والبعث، أَحْسَنُ مِنْ مَقِيلِ الَّذِين لا يَرْجُونَ لِقَاءَ الله، الَّذِي هُو مَكَانُ بقَاءِ أَجْسَادِهم ونُفُوسِهم بينَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ.

ويكون النصُّ بهَذا الْفَهْم أحَدَ الأدلَّةِ الّتي تُثْبِتُ مَا ينْزلُ مِنْ جَزَاءٍ حَسَنٍ أو سَيّءٍ فِي مدّة البرْزَخِ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ، بالْمُؤْمِنِينَ والكَافِرين.

وعلى هذا فالقبر (أي: مكان لُبْثِ الأجساد والنفوس) بين الْمَوْتِ والبَعْثِ، هو بمثابة رَوْضَةٍ من رياضِ الجنَّة أو حُفْرةٍ من حُفَر النّار، لكِنَّ إحْسَاسَ المبعُوثِينَ بَعْدَ البعْثِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ الزّمَنِ لا يَزِيدُ عَلَى إحْسَاسِ النَّائِمينَ سَاعَةً مِنْ نَهارٍ في وقت قَيْلُولتِهِم.

بعْدَ هذا انتقل النصُّ إلى بَيَان مَوْقِفٍ آخرَ يَرَىٰ الملائكةَ فِيه الذين قالوا: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

وهذا الموقف لا تَكون فيه أَيْضاً بُشْرَىٰ للْمُجْرِمينَ المكَذِّبينَ بِيَوْمِ الدِّينِ، بل يكُونُ لهم فيه ما هُو مُحْزِنٌ ومُخِيفٌ ومُؤلم.

﴿تَشَقَّقُ﴾ أو [تَشَّقَّقُ السَّمَاءُ] في القراءة الأخرى: أي: يحصل فيها تصدُّع، التصَدُّعُ هو الانقسام والانفصال الذي يَحْدُثُ فِي عدّة مواضع داخلَ جرم ملتئم الأجزاء، وقد دلّ على حدوث هذا التعدّد في الشقوق صيغة «تَفَعَّلَ يَتَفَعَّلُ».

لَقَدْ أبانَ الله عزَّ وجلّ أنّ هَذَا التَّشَقُّقَ فِي السَّمَاءِ سَيَحْدُثُ في المسْتَقْبَل، ويَكُونُ هذا التشقُّقُ مصْحُوباً بالْغَمام.

﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾: الغمامُ مُفْرَدُه «الْغَمَامة» وهي السحابة، وتُجْمَعُ أيضاً على «غَمَائِم» قال ابن عَرَفَةَ: الغمام الغيم الأبيض، وإنّما سُمّي غماماً لأنه يَغُمُّ السماء، أي: يَسْتُرها، وسُمِّي الغَمُّ لاشتماله على القلب.

أمّا الباء في: ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾، فهي في أظهر ما أرىٰ باءُ السَّببيَّة، والمعنى أنَّ التّشَقُّقَ يظهر في السماء بسبب هبوط غمامٍ من الأعلى مصحوبٍ بأفواج الملائكة، هابطين إلى أرض المحشر.

كما نقول انشقّت الأرض بالنَّبَات، أو انشقّت الأرض بالْبَرَاكِين والأبخرة الصَّاعِدَةِ منها.

ويدلُّ علَىٰ هذِه الصُّورة قول الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

فَتَنْزِيلُ الْمَلائِكَةِ يومئذٍ يكُونُ مصحوباً بظُلَلٍ مِنَ الْغَمَام، ونُزُولُ الرّبّ تبارَكَ وتعالى للحساب وفصل القضاء، يكُون يومئذٍ في ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وتنزل معه ملائكة الملأ الأعلى.

وممّا يدُلُّ على أنّ تَشَقُّقَ السَّماء وتنزيلَ الملائكة يكونُ يوم القيامة، والناسُ في انْتِظَارِ مَوْقِفِ الْحِسَاب وفَصْلِ الْقَضَاء قولُ الله عزَّ وجلّ عقب ذلك:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

فَيَوْمَ يَبْعَثُ الله الناس إلى الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ مِنْ أَجْدَاثِهم، تتَّجِهُ أنظارُهُمْ في دَهْشَةٍ يترقّبُون الأحْدَاث، فَيَرَوْن أنَّ السّماء على امتداد قُبّتِها تَتَشَقَّقُ بالْغَمام الذي يخرج من الشُّقوق، ويَهْبِط في اتّجاه الأَرْض، وتُنَزَّل

الملائكة بالأمْرِ الرّبّاني تَنزيلاً مُتَتَابعاً في أفواج، خِلَالَ الْغَمام المنْبَعِثِ من تَشَقُّقَات السماء.

لكنّ هذه المشاهدةَ للمَلَائِكَةِ تكُونُ مُشَاهَدَةً غير سارّةٍ للْمُجْرِمين، فلا بُشرىٰ لَهُمْ بها، بخِلَافِ حَالِ أصْحَاب الجنَّة.

إنّ الملائكة تُنَزَّلُ لِتَقُومَ بوَظَائِفِها في موْقِفِ الحِسَابِ وفَصْل القضاء، فرؤيةُ الْمُجْرِمينَ للْمَلَائِكَة يومئذٍ رؤيةُ همٍّ وغمٍّ وحَزَنٍ وخَوْفٍ شديد.

فالمعنى: ويوم تَشَقَّق السَّماءُ بالْغَمَام ونُزِّلَ الملائِكَةُ تَنْزِيلاً يَرَىٰ الْمُجْرِمُون الملائِكَةَ رُؤْيَةً غَيْرَ سَارّة، لا بُشْرَىٰ لهم معها.

وقول الله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ يدلُّ على أنّ الله عزَّ وجلّ يُلْغِي قَوانِينَ التَّسْخِيرِ الْمَعْرُوفَةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، والّتِي بمقْتَضَاها تَتَصَرَّفُ الأحياء بالْمَسَخَّرَاتِ، ويكونُ للَّهِ وَحْدَهُ الملْكُ الحقُّ الَّذِي لا تُصَاحِبُه ظَواهِرُ مُلْكٍ آخر للمَخْلُوقَاتِ مِنْ دُونه، فَلا إنْسَ ولَا جِنَّ تَسْتَطِيعُ أنْ تَفْعَلَ شيئاً بشيء، لأنَّ تَسْخِيرَ الأشياء لقُدْراتِهِم الَّذِي كانَ في الحَياةِ الدنيا يكُونُ قَدْ أُلْغِي وحَلّ لِتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ الْجَبْرِيّ فِي الْمُجْرِمِينَ دَوْرُ التَّحَرُّكِ الْجَبْرِي، أمّا المَلَائِكَةُ فلا يَفْعَلُونَ ولَا يَقُولُونَ إلّا مَا يُؤْمَرُون به، أو يُؤْذَنُ لَهُمْ بهِ منْ قَوْلٍ صَوابٍ، ومِنْ ذَلِك الشَّفَاعَةُ فَإنَّ أحداً لا يَشْفَعُ لأَحَدٍ إلّا بإذْنِ الله يومئذٍ.

ونَلْحَظُ مَعَ ذَلِكَ أنّ الْمَلِكَ الذي بيده الأمر كُلُّه هو «رَحْمَان» لذلك جاء في البيان اخْتِيارُ اسْمِ الله «الرّحمن» من أسماء الله الحسنى.

ويظهر أنّ الله عزَّ وجلّ يُعْطِي بعض ملائكته مُلْكاً صوريًا تَقُومُ فِيه بوظائفها بحَسَبِ أَمْرِهِ أو إذْنِه، لذلِكَ وصَفَ مُلْكَهُ تعالى بأنّهُ الْمُلْكُ الحقُّ، أمّا الْمُلْكُ الذي يُعْطِيه الله لبَعْضِ ملائكته، كرِضْوانِ خازِنِ الْجنَّةِ، ومالك خَازِنِ النَّار، فهو مُلْكٌ صُورِيٌّ، وليس مُلكاً حَقًّا، نظراً إلَىٰ أنَّهُمْ لا يَتحرَّكُونَ إلّا بالأمْرِ أو بالإذْنِ.

ثُمّ إذَا دَخَل أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ أَطْلَقَ الله لَهُمْ الْمَسَخَّرَاتِ، وأعْطَاهُمْ بقانون تسخيريٍّ واسِع مُلْكاً كَبِيراً، دلّ على هذا قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الإنسان/٧٦ مصحف/٩٨ نزول) في وصف أهل الجنّة:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾.

أي: وإذا رأيتَ هُنَاك في الجنة رأيتَ نعِيماً وَمُلْكاً كبيراً لأصحابها.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

﴿عَسِيرًا﴾: الْعَسِيرُ وَالْعَسِرُ: الصَّعْبُ الشديد، يُقالُ: عَسُرَ الأمْرُ، وعَسُرَ الزمانُ يَعْسُرُ عَسَراً، إذا صَعُبَ واشْتَدّ، وكانَ شاقاً، والْعُسْرُ ضِدُّ الْيُسْر.

ويقولُ الكافِرُون في ذلك الْيَوم: هَذا يَوْمٌ عَسِرٌ، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأنهم:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

ووصف الله عزَّ وجلّ ذلِكَ اليوم بأنّه يوم عَسِيرٌ على الكافرين غير يسير، مشيراً بهذا إلى أنّه لا يكون عَسِيراً على المؤمنين، فقال تعالى في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول):

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.



بعد هذا انتقل النصّ إلى بيان حَالةِ التحَسُّر والنَّدَم والأماني الَّتِي يكُونُ فيها المتحدَّثُ عَنْهم فيه، وجَاءَ هذا ضِمْنَ صِيغَةٍ تشمَلُ كُلَّ مُجْرِمٍ كَافِرٍ ظَالِمٍ يَوْمَئِذٍ، فَيُقَدِّمُ لقطةً من حَرَكاتِ الظّالم وأَقْوالِه بَعْدَ حِسَابه، وفَصْلِ القضاء بِشَأنه، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

ففِي هذا البيانِ لقْطَةٌ مِنْ مَشاهِدِ أحْوالِ الْكَافِرِ الظَّالِمِ يَوْمَ الدِّينِ، فبَعْدَ مُحَاسَبَتِهِ وفَصْلِ القضَاء بشأنه يُعْلِنُ ندَامَتَه وتحسُّرَهُ، ويَتَمَنَّىٰ أَمَانيَّ فَاتَ أوانُ تَحْقِيقِها، ولَا رَجْعَةَ لاسْتِئْنَافِ رِحْلَةِ الامْتِحَان.

أمّا نَدَمُه فَقَدْ جَاءَ التعبيرُ عَنْهُ بعبارة ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ إذِ العضُّ على الْيَدَيْن يكون أحياناً حركةً تِلْقَائِيَّةً فِي حالَةِ النَّدم والتَّحسُّر، فَحِينَ لَا يَجِدُ الظَّالِمُ لِنَفْسِه جِهةً غيرَ ذَاتِهِ يَطْرَحُ عَلَيْها غَضَبه، يتَّخِذُ وَسِيلَةً يُؤْلِمُ بها نفسَهُ بنَفْسِه، وأقربُ ذلك مع الاحتفاظ بمظهر الوقَارِ والثَّبَاتِ الْعَضُّ على الْيَدِ، وحين يؤلمه العض على إحداهما يتركها ويعضُّ على الأُخرى، وهكذا على سبيل التَّنَاوُبِ.

فالتعبيرُ بالعضّ علَىٰ الْيَدَينِ كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّة نَدَمِه وغَضَبِه مِنْ نَفْسِه، ولا يَلْزَمُ من هذه الكناية أنّ التَّعْبِير هُو من قَبيل الْمَجازِ لا الحقيقة، بَلْ هُو مُسْتَعْمَل على سبيل الحَقِيقَةِ، والمعنى الآخر يُفْهَمُ باللُّزوم الذهني كسائر الكنايات.

وجاء البيانُ شاملاً كلَّ ظَالم ليأخُذَ صِفَةَ القَضِيَّةِ الْعَامَّةِ، وليُدْرِكَ الْمُتَحدَّثُ عَنْهُمْ فِي السِّياقِ، وهُمْ المكذِّبُون بالساعة، الّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ الله، أنّهم داخلون في عُمُومِ الظَّالِمين.

وجاءَ البيانُ بالإفرادِ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ للدَّلَالَةِ علَىٰ أنَّ ظَوَاهِرِ النَّدَمِ والتَّحَسُّر وتَوْجِيهَ الأَمانِيِّ تَكُونُ بصِفةٍ إفراديّةٍ لَا جَمَاعِيَّة.

ولمَّا كان المؤمن العاصي يدخل في عُمُوم الظَّالِمِ لنفْسِه، فإنَّنا نَفْهَمُ أَنَّه يَحْدُثُ لَهُ النَّدَمُ والتَّحَسُّر والتَّمَنِّي يَوْمَئِذٍ أَيْضاً، وَلكِنْ بِنِسْبَةٍ أخفّ.

وحينَ يُعْلنُ الظَّالِمُ لِنَفْسِه تحسُّرَه ونَدَمَهُ، يَتَمَنّىٰ أَمَانيَّ فاتَ أَوَانُ تَحْقِيقِها، وغَدَتْ غَيْرَ مُمْكِنَةِ التَّحْقِيقِ، إذْ لَا رَجْعَةَ إلَىٰ زَمَنِ الابْتِلَاءِ بَعْدَ أَنْ جَاءَ زَمَنُ الْجَزاء.

الأمنيّةُ الأولَىٰ: تمنِّيهِ أنْ لو كان في الحَياةِ الدُّنْيا قَدِ اتّخذ في مَسِيرَتِه سَبِيلاً يكُونُ مُصَاحِباً فِيه رَسُولَ الله، ولا بدّ أن نَفْهَم أنّ كُلَّ مَنْ يَسِير عَلَىٰ مِنْهاجِ كتاب الله وسنَّة رَسُولِه هُوَ مَعَ الرَّسُولِ، ولو كَانَ آخِرَ مُسْلِمٍ وتَابعٍ مِنْ أَتْبَاعِه فِي تَعَاقُبِ الْقُرُون.

وفي هذا التمنّي يقول:

﴿يَـٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾.

﴿يَا﴾: حرف نداء، داخلٌ على عِبَارَةِ التّمني: ﴿لَيْتَنِي﴾ فأيَّ شيءٍ ينادي؟

قالوا: المنادى محْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ نَحْو: يا قَوْمِ، أَوْ يَا رَبِّ.

والأولىٰ من هذا قول بعض المفسّرين: هو نداءٌ للْكَلَامِ الدَّالِّ على التمنّي، بتنزيل الكَلِمَةِ منْزِلَةَ الْعَاقِلِ الذي يُطْلَبُ حُضُورُه، لأنّ الحاجة تدعو إليه في حالة الندامة.

وقيل: هو حرف تنبيه.

أقول: حرف «يَا» في مِثْلِ هذا الاسْتِعْمَالِ أَشْبَهُ بأَنْ يَكُونَ حَرْفَ نُدْبَة وتَحَسّرٍ وَتَفَجُّع أو تَوجُّع، فالَّذِي يقول: يا لَيْتَني فَعَلْتُ كَذا، أو لَمْ أفْعَلْ

كذا، فإنّه يُعلِنُ تفجُّعَهُ أوْ تَوجُّعَهُ من أجل أمنيَّةٍ تجاوزَتْ حَدَّ الْمُمْكِنَات، ودخَلَت في غَيْهَبِ المُسْتَحِيلاتِ أو الأمور التي لا يُمْكِنُ الْحُصُولُ عليها، وكذلك كلُّ مَنْدُوب يُتَفَجَّعُ عليه، ودُونَ ذَلك ما يُتَوَجَّعُ منْهُ، مثل: (واكبدي ـ واكبداه)، فكأنّه يقول متفجعاً متوجّعاً: وَاأُمْنِيَّتَاه التي لا سبيل إلى الوصول إليها، والحصول عليها، أو تكون جملة التمنّي واقِعةً مَوْقِعَ عبارة «مَصِيبَتِي الْعُظْمَى في أنّي لم أتَّخِذْ مع الرسُولِ سبيلاً» ولم يذكر النُّحاةُ ولا المفسِّرُون مثل هذا.

الأمنية الثانية: تَمَنِّيهِ أنْ لَا يَكُونَ قدِ اتَّخَذَ خَلِيلاً فلاناً الَّذِي كان قَدْ أضلّه في الدُّنيا، وصَرَفَهُ عَنْ الذِّكرِ المنزَّلِ منْ عِنْدِ الله، الّذِي جَاءَهُ عَلَىٰ لِسَانِ الرَّسُول، ويُعلِنُ هذِه الأمنيَّةَ مَسْبوقةً بالتَّوجُّع مِنْ آلامه، والتَفجُّعِ عَلَى نَفْسِه الصَّائِرَةِ إلى عَذَابِ النَّارِ وبِئْسَ الْمَصِير، فيقول:

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾: يَنْدُبُ نَفْسَهُ ويَتَحسَّرُ ويَتَوجَّعُ من الخَوْفِ الَّذِي نزَلَ بِه، ومن ترقُّب العذابِ الأليمِ الصَّائِرِ إلَيْهِ، والأَمْرِ الْفَظِيعِ الَّذِي دهَاه، بمَا جَنَىٰ عَلَىٰ نَفْسِه فِي الْحياةِ الدُّنيا، أصْلُها «يا وَيْلَتِي» قلبت كسرة التاء فتحة وقلبت الياء ألفاً، وهي إحدى وجوه عربية في المنادَىٰ المضاف إلى يَاء المتكلم.

الويل في اللّغة: يأتي بمعنى الحُزْنِ، والهَلَاكِ، والمشقة من العذاب. قال ابن سِيدَه: «وَيْلٌ كلمة عذاب». **والْوَيْلَة:** الفضيحة والْبَلِيَّة. وفي النُّدْبَة يقول القائل: يَا وَيْلَتَا، يَا وَيْلَتَاه، واويْلَتَاه، أي: وافَضِيحَتَاه، وابليَّتَاه، وهي عباراتٌ تحمل معنى التَّفجُّع والتحَسُّر والْحُزْنِ والتَّوجُّعِ.

ولمّا كَانَ لكُلِّ ظَالِمٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا خَلِيلٌ اشْتَرَكَ مَعَه فِي الظُّلْمِ

الَّذِي كان منه، وآزَرَهُ عَلَيْه، ورُبَّما شَجَّعَه، وربّما دفَعَهُ إليه، فإنّه يُحَاول أن يُلْقِيَ عليه تَبِعةَ إضلاله له، لِيُخفِّفَ مِنْ مَسْؤُولِيَّةِ نَفْسِه، فَيَتَمَنَّىٰ لَوْ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيا خَلِيلاً له، مُقَدِّراً فِي نَفْسِهِ أَنَّه لَوْ لَمْ يَكُنْ خَلِيلَهُ لمَا ضَلَّ عنِ الذِّكْرِ الرّبّاني الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُول، فيقول:

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

ولفظ «فُلان» كِنَايةٌ عَنْ عَلَم مُذَكَّرٍ عاقل، ومؤنّثه فُلَانَة.

والخَلِيلُ: الصَّدِيقُ الّذي تخلَّلَتْ موَدَّته قلْبَ صديقه، حتّى صار مُدَاخلاً مخالطاً يطّلع على بواطِنِه وأسْرَارِه.

فَهُو فِي تَمَنّيه يَذْكُر اسْمَ خَلِيلِه الَّذِي كانَ مُشَارِكاً لَهُ فِي ضَلَالِه، ونَفْهَمُ مِنْ هذا أنّ كُلّا من الخَلِيلَيْنِ يَتَمَنَّىٰ هذا التَّمَنِّي.

ويَذْكُر بَعْدَ هذا التمنّي أنّ خَلِيلَهُ قَدْ كانَ هُو السَّبَبَ فِي إضْلَالِه، فيقول:

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾.

فيؤكِّدُ أنّ خَلِيلَهُ الَّذِي سَمَّاهُ هُو الَّذِي أَضَلَّه عَنِ الذِّكْر، الذي هو كتاب الله المنزّل ومَا جَاءَ فِيه مِنْ هُدىً، ثم بياناتُ الرَّسُولِ له.

﴿أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾: أي: أضلني فِي طُرُقِ الغَوَاية، مُبْعِداً إياي عن كِتَابِ الله الَّذِي يَجِبُ أنْ يَكُونَ ذِكْراً دواماً لِلْعَمَلِ بمَا جَاءَ بِه.

﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾: «بَعْدَ» ظرْفٌ مَنْصُوبٌ علَىٰ الظَّرفِيَّةِ مُضَافٌ لـ«إذْ» التي هي ظَرْفٌ للزَّمَن الْمَاضِي، وهي مضافة لجملة «جاءني» والمعنى بعد زَمَنِ مجيئه إليّ.

إنَّ كلَّ مَنْ بلَغَهُ الذِّكْر عن ربّه علىٰ لسانِ الرّسُولِ أوْ عَنْ طَرِيقِ المبلِّغِينَ لِكِتَابِ اللَّهِ وسنَّة رسوله من بعده، فقد جاءه الذكر.

فكُلَّ ظَالِمٍ بَلَغَهُ كتابُ الله يَعْتَرِفُ يَوْمَ الدِّين بأنْ الذِّكْرَ قَدْ جاءَهُ، فَانْصَرَفَ عنه مُعْرِضاً، ومُتولّياً، فَضَلَّ في طُرُق الْغَوَاية.

الأمنية الثالثة: أمنيّة مطويّة في النصّ غَيْرُ مَذْكُورَة، وباستطاعة المتأمّل المتدبّر أن يستخرجها استنباطاً.

إنّه يقول فيها: يا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّبِعْ وسَاوِسَ الشيطانِ وتَسْوِيلَاتِه، ولم أسلك سُبُله.

وشَيْطَانُه فِيمَا يَظْهَرُ هُوَ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ الَّذِي كَانَ يُوَسْوِسُ لَه، ويَجْرِي منه مَجْرَىٰ الدَّمِ، وخَلِيلُهُ مِنَ الإِنْسِ هو الَّذِي وَسْوَسَ لَه واشْتَرَكَ مَعَهُ في الضلال.

بعد هذا التّمنّي يُخَاطِبُ خَلِيلَه الشَّيطانَ مِنَ الإِنْسِ أو الجن، فيقول له: أنت الذي أَغْوَيْتَنِي فأطْغَيْتَنِي، فأنْقِذْنِي اليوم، ويشكُوهُ لِرَبّه فيقول: رَبِّ هذا الَّذِي أَغْوَانِي فأَطْغَانِي، فزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّار، فيتبرّأُ مِنْهُ خَلِيلُهُ مِنَ الإِنْسِ.

ويقول قرينه من الجنّ، كما جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿... رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾.

فيقول الله عزَّ وجلّ كما جاء أيضاً في سورة (ق):

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

وهَكَذَا لَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إلّا الخِذْلَانُ، إنّه لَا يُرِيدُ أَنْ يَتَحَمَّلَ مِنَ مَسْؤُولِيَّةِ تَحْرِيضِه على الطُّغيانِ شَيْئاً، ويُحَاوِلُ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْه، وهِي طَرِيقَتُه الَّتِي أبَانَها الله عزَّ وجلّ في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

هذه المطويّات التي دلّت عليها نصوص أخرى، دلّ عَلَيْهَا آخِرُ هذا الدرسِ من دُروسِ سورة (الفرقان) التي نتدبَّرُها:

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: إبْلِيسُ الرَّئِيسُ ثمّ كلُّ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِهِ يُوَسْوِسُ، ولَا سِيَمَا قَرِينُ الإِنْسَانِ مِنَ الجِنّ الْمُلازِمُ لَهُ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ، وخَلِيلُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الإِنْسِ.

﴿خَذُولًا﴾: خَذُولٌ على وزن «فَعُول» صِيغة مبالغةٍ لخاذل. والخذلان هو التخلّي عَنِ الْمَعُونَةِ والنُّصْرَةِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ أو الحَاجَة.

يقال لغة: خَذَلَهُ يَخْذُلُهُ خَذْلاً وَخِذْلَاناً، إذا تخلّىٰ عنه وابتعد، فلم ينصُرْهُ ولم يُعِنْه.

والّذِي يَنْفَصِل عَنِ الْجَيْشِ فَلا يُشَارِكُ فِي القتالِ بعْدَ أَنْ خَرَجَ مَعَه، أَوْ لَا يَخْرُج مَعَهُ بعد أنْ يكون قَدْ وَعَدَهُ بأَنْ يَخْرُجَ مَعَه مُقَاتِلاً، هُو مُنْخَذِلٌ، وخَاذِل، وصيغة المبالغة «خَذُول».

وقَدْ جَاءَتْ هذه الجملة التي يُعبَّر بها عادةً في آخِرِ عَرْضِ قِصَّةٍ تتضمَّنُ طلَبَ المناصرة أو المعونة عند ضرورة تستدعي ذلك، فلا يكون من المستنصَرِ به أو المستَعَان به استجابة، وكان مِنْ قَبْلُ يَعِدُهُ ويُمَنِّيهِ أَيَّامَ الرَّخَاء، ويُلاطِفُه ويُظْهِر له الصَّدَاقَة والوَلَاء، ويُوافِقُه في الأعْمال والْمَفَاهِيم والآرَاءِ، كمَا قالَ الله عَزَّ وجلّ يَصِف الشيطان في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾: مُتَعَلِّقٌ بـ﴿خَذُولًا﴾ مَعْمُولٌ مُقَدَّمٌ على عَامِلِه، ويُفيد هذا التَّقْدِيمُ نوعاً مِنَ التَّخْصِيصِ، أي: إنّ الشيطانَ للإنسانِ عَلَىٰ وَجْهِ الْخُصُوصِ خَذُولٌ، نظراً إِلَىٰ أنّه عدوٌّ له ابتداءً، إذْ هو من جنود إبليس الذي رفض السجودَ لآدم، وأَصَرَّ على مَوْقِفِه، فَلعَنَهُ اللَّهُ، فأقْسَمَ أنْ يُغْوِيَ آدَمَ وذُرِّيَّته أجْمَعِين إلّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِين.

وفعل ﴿كَانَ﴾ في هذه الجملة يُفيد الكينونة الدائمة، والمعنى أنّ الشيطان خذولٌ دواماً للإنسان.

❁ ❁ ❁

كلمة يوم:

يظهر أنّ كلمة «يوم» يُرادُ بها في هذا النصّ وفي كثير من النصوص غيره مُطْلَقُ معنى الحين والوقت، الذي هو جزءٌ ما من اليوم الكبير المديد، الذي تجري فيه الأحداث بدءاً من اللّحظة الّتي يُواجه بها الإنسان عتبة الموت إلى ما لا نهاية له في الحياة الأخرى.

فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: أي: حين يرون الملائكة.

وقولُه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾: أي: وحين تشقق السماء بالغمام.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: الْمُلْكُ حينئذٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾: أي: وحين يعضُّ الظالم على يديه.

وعلى هذا المعنى يمكن أن نفهم مثل: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ - يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ - وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ - يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ - يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ ونحو ذلك.

ويأتي لفظ «اليوم» في القرآن بمعنى عموم يوم الدين يوم الحياة الأخرى، المقابل ليوم الحياة الدنيا كُلِّها، فزمن الحياة الدنيا كلِّها بجميع أيّامه هو «يوم». وزمن الحياة الأُخْرَىٰ على تواليه بلا نهاية هو «يومٌ» أيضاً، ويُحْمَل على هذا المعنى التعبيرُ باليوم الوارد في آيات كثيرات من القرآن المجيد، فأزمان الحياة الدنيا يجمعها كلَّها يومٌ واحد، هو اليوم الأول، والأزمَانُ غير المتناهية بعد انتهاء ظروف الحياة الدنيا جاء التعبير عنها باليوم الآخر.



إجمال معاني الدّرس السادس

ارتقى الَّذِين لا يتَرقَّبُون لقاءَ الله ولا يخافُونه وهم المشركون الّذين كذّبوا بالسَّاعَة في مطالبهم التعنتيّة، فطَلبُوا إنْزَال الملائكةِ عَلَيْهِم بالْوَحْيِ الْمُباشِر، أو رُؤية ربّهِمْ وتَلَقِّي الدِّين عَنْهُ مُبَاشَرةً، فأبانَ الله عزَّ وجلّ أنّ طلبهم هذا مظهر من مظاهر شِدَّةِ الكِبْرِ الذي في نفوسهم عَن اتِّبَاعِ مَنْ اصْطَفَاهُ اللَّهَ رَسُولاً، وتَلَقِّي وَحْيِ الله عنه، وتَطَاوُلٌ منهم إلى مَنْزِلَةٍ يُرِيدُون بها أن يكونوا هُمْ بَدَلَ النبيِّ الرَّسُولِ، وجَعَلوا ذلك شَرْطاً على الله عزَّ وجلّ حتَّىٰ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا، مع أَنَّهُمْ لَيْسُوا أهلاً لذلك بمُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ الله، ومَعَ أنّ الحِكْمَةَ فِي الامْتِحَانِ بعُقْدَةِ الإيمانِ بالْغَيْب، ، والْعَمَلِ بمُقْتَضَىٰ هذا الإيمان، أنْ يَكُونَ النَّاسُ الْمُمْتَحَنُونَ المَكلَّفُونَ مَحْجُوبِين عادةً عن هذا الغيب، ومسؤولين عن إدراك الحقّ المطلوب منهم بدلائل عقولهم عن طريق آيات الله في كونه، وبلاغات رسُلِهِ الذين يصطفيهم اصطفاءً خاصًّا، مَبْنِيًّا على علمه بهم بأنهم مؤمنون بالغيب الحقّ، إيماناً كاملاً، ومسلمون مطيعون لله، سواءٌ أشاهدوا بحواسّهم شيئاً من عالم الغيب أم لم يُشَاهدوا.

وأبان الله أنّ تعَنُّتَهُمْ هذا عُتُوٌّ كبيرٌ منهم، تَجاوَزُوا به أقصىٰ مدىً يَبْلُغُهُ الْمُعانِدُونَ الْمُتَعَنِّتون، إذْ هُمْ يَفْرِضُونَ شُرُوطَهُمْ عَلَى بَارِئِهِمْ، مع أنّ ما يُدْعَوْنَ إليه هُوَ لِسَعَادَتِهم، وأنّ إباءَهُمْ سَبَبٌ لِشَقَائِهم وتعاسَتِهم الأبدية.

وكان العلاج القرآنيّ لموقفهم هذا ببيانٍ حَوْلَ رُؤْيَتِهِمْ للملائكة، وببيانٍ آخر حَوْلَ عَدَمِ رؤْيَتِهِمْ رَبَّهُم وَأَنَّهُمْ محجوبون عنه، ولكن لم يأت في النصّ هنا هذا البيان بَلْ جَاءَ في سورة أخرى.

أمّا البيان الأول حول رؤيتهم للملائكة، فقد تضمّن أنّهم سَيَرْوْنَ الملائكة، ولكِنْ بعْدَ انتهاء ظُروفِ امْتِحَانِهم في الحياة الدنيا.

• إنّهم سيَرْوْنَ الملائكة عِنْدَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ يَخْطُونَها إلى عتبة الموت، وحينئذٍ لا تكون لهم بُشْرىٰ في هذه المشاهدة، بل هم يخافون منها إلى حدّ الذعر الشديد والْهَلَع، حتى يقولوا عندها: حِجْراً محجوراً مستعيذين من نزول العذاب فيهم، شأنهم كشأن سائر المجرمين، دلّ على هذا:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

وإنْ كانوا يتصوَّرُون أنَّ بعض أعمالهم الحسنة، كسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، تَنْفعُهُم بشيء، فَلْيَعْلَمُوا أنَّ أَعْمالَهُمْ الحَسنَة لا تُقْبَلُ منهم إلّا بَعْدَ إيمَانِهم الكامِلِ باللَّهِ وَحْدَهُ، وبِرَسُولِه، وبالكِتابِ الذي أُنزل عليه وبكلّ ما جاء فيه، ومن ذلك الإيمان بيَوْمِ الدّين، دلّ على هذا الحكم الرّبّاني الْمُبْرَم:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

أي: لا قيمةَ لكلِّ عملٍ حَسَنٍ عملوه في الدنيا غَيْرِ مَبْنِيٍّ على إيمانٍ صحيح، مع ابتِغَاءِ رِضْوانِ الله فيه، ولا وَزْنَ لَهُ حَتَّى يُوضَعَ فِي مَوَازِينَ أَعمالهم الصَّالِحَة.

واسْتَدْعَى بيان حالِهم ضِمْنَ حالِ سائر المجرمين، بَيَانَ حالِ فريق المؤمنين أصحاب الجنّة، فهم في حالٍ حسَنةٍ خَيْرٍ من حَالهم، سَواءٌ في المصير الذي يكون به استقرارُهم في جنّات النَّعيم، أم في مُدّة البرزخ بين الموت والبعث، حيث تبقى نفوسُهم في حَالةٍ تُشْبِهُ حَالَةَ النَّائِمِ في قَيْلُولَتِهِ، وَسَطَ النَّهَار، دلّ على هذا

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

• وإنّهم سَيَرَوْنَ الملائكة يَوْمَ القيامة، بَعْدَ بعثهم من قبورهم، وسَتَكُون رؤيتهم لهم حِينئذٍ كَارِثَةً، لأنّ الْمَلَائِكَةَ سَتَسُوقُهُمْ يومئذٍ إلَىٰ مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، ثمّ إِلَىٰ مَصِيرِهِمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ المعَدَّةِ لَهُمْ.

وَقَدَّمَ النصّ لقطةً تصويريَّةً تُمثِّل صورةَ تَنَزُّلِ الملائكة من السماء يومئذٍ، وهي صورةٌ تَتَشقَّقُ فيها السماء على أرجاءها، وتخرُجُ من الشُّقُوق سُحُبٌ بيضاءُ رقيقة، هابطةٌ من السماء في اتّجاه الأرض، ومعها أفواج الملائكة تتتابع، دلّ على هذه اللقطة التصويريّة:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

لكنّ المَلَائِكَة يُنَزَّلُونَ بالأمر الرّبّاني، ليقُومُوا بوظائفهم يَوْمَ الدِّين، على ما يُرِيدُ الله عزَّ وجلّ، فَلَا أحَد يومئذٍ غيرَ الله يفعلُ بحرّيّة، لا بحرّيّة مطلقةٍ، ولا بحرّيّة تخييريّة، ضِمْنَ حِكْمَةِ الامتحان، كما هو شأْنُ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، بل الأمر والْمُلْكُ كلُّه يومئذٍ لله وَحْدَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يَتَجلَّى عَلَىٰ عِبَادِهِ باسمه الرَّحْمٰن، لكنّه يومٌ عَسِيرٌ على الكفارين، يَسِيرٌ للمؤمنين، دل على ذلك:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

ويساقُ النَّاسُ لِلْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء، ويُلاقُون ربَّهم، ويحاسبُهُم على ما قدّمُوا في الْحَيَاةِ الدُّنيا، ويندم الظالمون، ويتحسَّرون، ولكنْ لا

ينفعهم ذلك شيئاً، فيتمنَّوْنَ الأماني، التي لا سبيل إلى تحقيق شيء منها.

وسكت النصّ هنا عن بيان عدم رؤية المجرمين لربّهم في ملاقاتهم له، ويحاولون طرح مسؤولية غَوايتهم على أخلّائهم في الدنيا، وعلى شياطينِهم الذين أغوَوْهم من الإنس والجنّ، ويستنجدون بهم، فيخذُلونهم، فلا ينصرونهم ولا يحملون عنهم شيئاً من مسؤولية ضَلالهم، ويَصْرُخونَ على أنفسهم بالويل، يَنْدُبونَ الهلاكَ لأنّه أهون عليهم من الْخُلُودِ في الْعَذابِ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِ، فَلا يُغِيثُهُم، دلّ على كلّ ذلك:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

- يتمَنَّى أنْ يكُونَ في الدُّنيا قَدْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ، وَسَلَكَ مَعَهُ سَبِيلَه
- ويتمنّى أنّه لَمْ يَكُنْ قَدِ اتَّخذَ فُلَاناً مِنَ الأَخِلَّاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، خليلاً، ويُسمِّيه باسْمِه، ويُعْلِنُ أنّه قدْ كانَ سَبَبَ ضَلَالِه.
- ويتمنّىٰ أن يَنْزِلَ به الهلاك وهو الموت، ليتخلّص من العذاب المقيم، ويصْرُخ بذلك نادباً نفسه قائلاً: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾.
- ويستَنصرُ بالشَّيْطانِ الَّذِي أغْواهُ، ويَسْتَعِينُ بِهِ، فيخذُلُهُ، وَكَانَ الشَّيْطانُ للإنسان خَذُولاً.



(١٢)
التدبر التحليلي للدرس السابع من دُرُوس السورة وهو الآيات من (٣٠ ـ ٤٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

القراءات:

(٣٠) • ﴿إِنَّ قَوْمِى﴾ بإسكان ياء المتكلّم، قراءة جمهور القرّاء العشرة.

[إِنَّ قَوْمِيَ] بفتح ياء المتكلّم في الوصل فقط، قراءة نافع، وأبي جعفر، والبزّي عن ابن كثير، وأبي عمرو، وروح عن يعقوب.

والقراءتان وجهان عربيان متكافئان، والإسكان أيسر في النطق.

(٣١) • قرأ نافع [نَبِيءٍ] وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿نَبِيٍّ﴾ وهما وجهان لنطْق الكلمة.

(٣٨) • ﴿وَثَمُودَاْ﴾ بفتح الدال من غير تنوين على أنَّ اللفظ ممنوعٌ من الصرف، قراءة حفْصٍ عن عاصم، وحمزة، ويعقوب، وعند الوقف يقف هؤلاء على الدّال ساكنة.

[وَثَمُوداً] بفتح الدال مع التنوين، على أنّ اللفظ مصْرُوفٌ، قراءة باقي القرّاء العشرة، وعند الوقف يقف هؤلاء بالألف المبدَلة من التنوين: ﴿وَثَمُودَا﴾ .

والقراءتان وجهان عربيان لكلمة «ثمود» فعند ملاحظة اسم القبيلة يكون اللفظ ممنوعاً من الصرف، وعند ملاحظة اسم جدِّها يكون اللفظ مَصْرُوفاً.

(٤١) ● قرأ حفْصٌ عن عاصم: ﴿هُزُوًا﴾. وقرأ حمزة، وخَلَفٌ: [هُزْءاً]، وقرأ باقي القرّاء العشرة: [هُزُءاً]، وهي وُجُوهٌ عربيّة لنُطْق الكلمة.

(٤٤) ● قرأ نافع، وابن كثير، وأَبُو عَمْرٍو، والكِسَائِيّ، وَخَلَفٌ: [أَمْ تَحْسِبُ] بِكَسْرِ السِّين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ بِفَتْحِ السِّين.

والقراءتان وجهان عَرَبيّان لنُطْقِ الكَلِمَةِ.

تمهيد:

اشتمل هذا الدرس على بيان شكوىٰ الرَّسُول محمّد ﷺ لربّه، من كَوْنِ مَلأ قَوْمِه الَّذِين لَمْ يُؤْمِنُوا به نبياً ورسولاً، لم يَكْتَرِثُوا لبَيَانَاتِ القرآن، ولَمْ يَعْبَؤُا بآيَاتِهِ، واتَّخَذُوه مهجوراً، بَعْدَ أن اسْتَمَعُوا إِلَيْهِ يَتْلُوهُ عَلَيهم، واسْتَبَانُوا كليَّاتِ الحقائق التي يَدْعُوا إليها، وعَلِمُوا ما فِيهِ مِنْ تَبْشِيرِ لِمَنْ آمَنَ بِهِ، وإنْذَارِ بِعَذَابِ أَلِيمِ لِمَنْ كَفر بِهِ وَعَصىٰ.

واشتمل على بيان اعتراضهم على كوْن القرآن لم يُنَزّلْ جُمْلَةً وَاحِدَةً، إنّما يُنَزَّلُ مُنَجَّماً مُفَرَّقاً، مع مطالبتِهِم على سَبِيلِ التحضيض بأنْ يُنَزَّلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً إنْ كان حقاً من عِنْدِ الله.

واشْتَمَلَ على الْمُعَالَجَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِهَذَا الموقف، وهذه المعالجة قد

لُوحِظَ فِيها مَا أَعْلَنَهُ الرَّسُول ﷺ، وما طَوَاهُ فِي نَفْسِهِ وَلَم يُعْلِنْهُ مِمَّا يتعلَّقُ بشَخْصِهِ فِي هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ من سِيرَةِ دَعْوَته. وهذه المعالجة موجَّهةٌ في وقتٍ وَاحِدٍ لِعِدَّةِ أهدافٍ:

(١) للرَّسُولِ ﷺ.

(٢) ولِمَنْ اتَّبَعَهُ من المؤمنين.

(٣) ولِمَنْ جَحَدَ وَجَادَلَ وَكَفَرَ.

(٤) وللدعاة إلى الله من أُمَّةِ مُحَمَّد ﷺ إذا واجه أَحَدُهُمْ مِثْلَ ما وَاجَهَ من قومه في هٰذِه الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نَزَلت فيها سورة (الفرقان).

وبالتَّأمل في هذا الدرس يَظْهَرُ للمتدبر ما يلي:

(١) أنّ الرسول ﷺ اشتكى لرَبِّه شكوَيَيْنِ بشأن القرآن:

الأولى: أن قومه «أي: معظمهم أو كبراءهم» في بلدة مكة، اتَّخَذُوا القرآن المنزَّلَ عليه مهجوراً.

الثانية: أنّ قومه اعترضوا على تنزيله منجَّماً مفرّقاً، وقالوا: لولا نُزّل عليه القرآن جملةً واحدةً.

(٢) وأنّ الرسول ﷺ سكت عن مواقف قومه من شخصه ومن الذين آمنوا به واتّبعون.

(٣) وأنّ الحكمة الرّبانية بدأتْ بمُعالَجَةِ مواقف قومه من شخصه ومن المؤمنين، وتتعلَّقُ بها الشكوىٰ التي سكت الرَّسُولُ عَنْها وطَواهَا، اهْتِماماً بِمَضْمُونِ رسالته، وابتعاداً عن تقديم الشّكوى فيما يتعلّق بشخصه وبالمؤمنين.

(٤) أنّ كُبراء قومه قد كان لهم في هذه المرحلة التي نزلت فيها سورة (الفرقان) موقفان:

الموقف الأول: مُعَادَاتُهُم له، واستعدادهم للإجهاز عليه وعلى المؤمنين به، وعلىٰ دعوته، ولو بالقتل، أو بالإخراج من مكّة وإلجائهم إلى الهجرة.

الموقف الثاني: اسْتِهْزَاؤُهم من حالة الضعف التي عليها الرَّسُول والمؤمنون، معَ عَدَمِ نُصْرَةِ الله لهم وهدايتهم إلى سُبُل حماية أنفسهم من اضطهاد أعدائهم لهم، أو الخَلاص منهم، فضلاً عن عجزهم عن مقاوَمَتِهِمْ والانتصار عليهم.

وهذا الاسْتِهْزَاءُ يحْمِلُ مَعْنَى أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا عَلَىٰ حَقٍّ مِنَ الله لَنَصَرَهُمْ، ولَمَا وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ ضَالّين عَنِ الاهْتِدَاءِ إلى سُبُلِ حِمَايَتِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ وانْتِصَارِهِمْ.

إنّ هٰذِهِ الظاهِرَةَ تتكرَّر في الناس دواماً، فلا يتأخّر نَصْرُ الله للمؤمنين به ضمن مَجَارِي حِكْمَتِهِ في امْتِحَانِ خَلْقِه، إلّا اتَّخَذَ الكَافِرُونَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً للاسْتِهْزَاءِ منهم، والتشْهِير بِهِمْ بأنّهُمْ لَيْسُوا عَلَىٰ حَقٍّ.

فَعَلَىٰ الدُّعاة إلىٰ الله في كلّ عَصْرٍ أَنْ يُهَيئوا أنْفُسَهُمْ لِمُوَاجَةِ مِثْلِ هٰذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَهٰذِهِ الظَّاهِرَةِ الْبَشَرِيَّةِ.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ۝٣١﴾.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾: أي: مُحَمَّدٌ ﷺ.

﴿يَٰرَبِّ﴾: بِحَذْفِ يَاءِ المتكلّم، والاكتِفاءِ بِالكَسْرَةِ، وهٰذا الحذفُ أَحَدُ وُجُوهٍ عَرَبِيَّةٍ جَائزةٍ في المنادَىٰ المضافِ إلى يَاءِ المتكلّم.

قال النحاة: وهذا الحذفُ أجْوَدُ الوجُوهِ الجائزة وَأَكْثَرُها وُرُوداً في القرآن الكريم.

ويلاحَظُ في هذا النداء أنَّ الرسُول ﷺ اسْتَعْمَلَ أداةَ نِدَاءِ الْبَعِيدِ مَعَ قُرْبه من رَبّه، ويظهر أنّ الغرض الدلالَةُ على مَعنىٰ شَكْوَىٰ المستغيث من أجْلِ رِسالَتِه، لا مِنْ أجْلِ نفسه.

ولم يأتِ في القرآن الكريم نداءُ الرَّسُولِ ﷺ رَبَّهُ بحَرْفِ النِدَاء «يَا» غير مَرَّتَيْنِ، وكلاهُما بمَعْنَىٰ الاستغاثة مِنْ أَجْلِ رِسالَتِه، لا من أجْلِ نفسه.

فالأولى: مَا جاء في هذا النصّ الذي نتدبَّرُه.

الأخرى: مَا جاء في أواخر سورة (الزُّخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقول الرسول ﷺ لرَبه.

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أيْ: لم يظهر مِنْهُم ما يَدُلُّ على أَنَّهُمْ مطْمُوعٌ بأنْ يُؤْمِنُوا مسْتقبلاً، والمعنيُّون هم الّذين ظهَرَتْ منهم المكابَرَةُ والعنادُ وجُحُودُ الحقّ مع ظُهُوره لهم.

أمّا سائر نداءات الرسول ﷺ، ونداءات المرسلين، فقد جاءت بصِيغَةِ «رَبّ» تعليماً أو بياناً، دون ذكْرِ أدَاةٍ ما من أدوات النداء، إشعاراً بقُرْب الرَّبّ جلّ جلالُهُ ممّن يَدْعُوه، إذ هو أقْرَبُ إلى من يَدْعُوه من حبْلِ الوَرِيد.

﴿إِنَّ قَوْمِى﴾ المرادُ الّذين كفروا منْهُمْ ووَلُّوا أدبارهم من ملأ قَوْمِهِ في مكة وأتباعُهُمْ، بدلاَلَة القرائن، إذ الَّذِين آمَنُوا من قومه واتَّبَعُوهُ لم يَتَّخِذُوا القُرآنَ مهجوراً، وكذلك الَّذِينَ لم تَبْلُغْهُمُ الدَّعْوَةُ بَعْدَ إبَّانَ نُزُولِ السُّورَةِ، أوْ لَمْ يَجْرِ بَيْنَهُمْ وبين الرسُولِ مُناظراتٌ واحْتِكاكات، أوْ لم يَصلُوا بَعْدُ إلىٰ دَرَكَة اتّخَاذِ القُرْآن مَهْجُوراً.

﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: أي: جَعَلُوا. صيغَةُ فِعْلِ «اتَّخذ» على وزْنِ «افْتَعَلَ» من

تصاريف فعل «أَخَذَ» أَصْلُهَا، «ائتَخَذَ» سُهِّلَتِ الهمزة فصارَت: «ايتخذ» ثمَّ أُبْدِلَتِ الْيَاءُ تاءً وأُدْغِمَتْ في التاء بَعْدَهَا، فَصَارَتْ «اتَّخَذَ».

أَصْلُ الأَخْذِ تَنَاوُلُ الشيْءِ والْقَبْضُ عَلَيْهِ وَحيازَتُه، ويَحْمِلُ الأَخْذُ أحياناً معنَىٰ ما يُؤخَذُ له الشيْءُ، فأَخْذُ المذْنِبِ يَحْمِلُ مَعْنَى معاقبتِه بذَنْبِهِ، ولو لَمْ يَحْصُلْ أَخْذٌ جَسَدِيٌّ له، ومنه قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾.

ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن ثَمُودَ قَوْم النبيّ الرَّسُول صالح عليه السّلام بَعْد أن عَقَرُوا الناقة وَعَتَوْا عَنْ أمْرِ رَبّهم وتحدَّوا رَسُوله:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾.

والمراد بالأخذ العِقَابُ ولو لم يكن أخذاً فِعْلِيّاً، وهذا من الكنايات التي يراد بها لازم ما دَلَّ عليه اللَّفْظِ مع بقاء دلالة اللفظ على أَصْل معناه.

والأمثلة القرآنيَّةُ على هذا كثيرة.

ويكون الأخذ للأشياء المعنوية أيضاً، كأخذ العهد والميثاق.

ومعنى «آخَذَهُ» عاقبه على ذنبه دون تساهل، فصيغة «فاعل» تدلّ على المبالغة في الْفِعْل، وأصلها الدلالة على معنى المشاركة، فحين لا تكون مشاركة في الواقع، فهي تدلّ على الزيادة في مضمون الفعل.

وحصل توسُّع لُغَويٌّ في معنى فعلِ «اتّخذ» فصار يُسْتعمل بمعنى «جَعَل» لذلك يَنْصِبُ مفعولين مثل «جعل».

﴿مَهْجُورًا﴾: اسم مفعُول من «هَجَرَ الشيءَ» إذَا تَركَه وتَباعَدَ عَنْه، ومَعْلُومٌ أنّ المتباعِدَ عَنِ الشَّيْءِ الهاجِرَ له لا يَبْحَثُ عَنْه، ولا يَنْظُر إليه، فإذَا كَانَ الْمَهْجُورُ كِتاباً يُتْلىٰ فَإنّ الهَاجِرَ لا يَخْطُر عَلىٰ بَالِه أنْ يُفَكّر فيما جاءَ فِيه مِنْ عِلْمٍ أو بياناتٍ أو مَواعِظَ أو أوامرَ ونواهي، وَلَوْ تُلِيَ عليه، والْهَجْرُ ضِدُّ الوصل ففيه معنى التباعد والترك بعد اللّقاء والمخالطة.

فدلت عبارة: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ على أنّ الرَّسُولَ يشكُو لربّه من تولّي الذين كَفروا من كُبَرَاء قومِه في مكّة عن مُتابَعَة التفكُّر في القرآن لتدبُّر وتفهُّم آياته، حتى جَعَلُوه مهجوراً بعد أن اسْتَمَعُوا ابتداءً له وَعَرَفُوا ما فيه من إعْجَاز، هذا ما يُفِيدُه معنى الْهَجْر، إذِ الْهَجْر إنّما يكُونَ بعْدَ اللّقاء والْمُخَالَطَةَ.

هَكَذا شكىٰ الرسول ﷺ شكوىٰ تتعلَّقُ بِهَجْرِ كفّار قومه للقرآن، وسكت عمّا يتعلّق بشخصه من معاداتهم له ولمن آمن به واتّبعه.

فكانت المعالجة الرّبّانيّة لهٰذهِ الشّكْوىٰ في التَّعْقِيبِ القرآني بأنْ تَجاوَزَ البيان قضيَّةَ اتِّخاذ قوْمِهِ القرآن مهْجُوراً، واهتمَّ مُباشَرَةً بما سَكَتَ عَنْهُ الرسولُ ممَّا يتعلّق بمعاداة قومِهِ لشَخْصِه ولِلَّذِين آمنوا به واتّبعُوه، وأَخَّرَ الْحَدِيثَ عن قضيّة الشكوىٰ إلى آخِرِ الفِقْرة، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

[وكذلك]: نتساءل: ما هو المشار إليه؟ وما هو المشبّه به؟

لو كَانَ المشَارُ إلَيْهِ اتِّخاذَ قوم الرسول القرآنَ مَهْجُوراً لكانَ المناسِبُ أن يُشَارَ إلَيْهِ باسْمِ الإشَارَةِ الموضُوعِ للقَرِيب، لا للبعيد، إذن فهو شيءٌ آخر غير المذكور في اللَّفْظِ، فما هو؟

بالتدبّر يظهر لنا أنّ المشبّه به في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ينبغي أنْ يَكُون مِنْ نَوْعِ المشبَّه بَعْدَها، وهو أنّ لِكُلِّ نبيٍّ سبَقَ فِي تَاريخِ البشريَّةِ عدوّاً من المجرمين.

لكنَّ المشبَّه به مَطْوِيٌ سَكَتَ عنه الرسول ﷺ، اهتماماً بقضيّة الدين، وكتماً للقضيّة الشخصيّة، على الرغم مِنْ أنّ هذا الذي كتمه يعيشُه في أحَاسِيسِه، ويتَردَّدُ في خاطره ونَفْسِه، فإذا أَرَدْنَا نَشْر هذا المطويّ قلنا:

وقال الرسول: يَا رَبِّ إنّ قَوْمي اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مهجوراً، واتَّخَذُوني وَمَنْ آمَن بِي أعداءً، فهم يتهيّؤون لِقَمْعِي والتخلُّصِ مِنّي ومنْ أتباعي.

وبِمَا أَنَّ الرسولَ قَدْ سَكَتَ عَنِ الأَمْرِ الثاني الشَّخْصِيّ، وأبْعَدَهُ عَنْ مَقَالَةِ اللِّسَانِ، كَانْ مِنْ دقَّةِ الأداء في البيان الإشارة إليه باسم الإشارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْبَعِيدِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أيْ: وكَذٰلِكَ الّذِي طويتَهُ وأبعدْتَهُ عن بَيَانِك في مقالِك جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً من المجرمين.

والمعنى: أنّك لسْتَ أوّل نبيٍّ عادَاهُ قَوْمُه، وأرَادُوا قَتْله والتخلّصَ مِنَ الَّذِين آمنوا به واتّبعوه، بل كلُّ نبيٍّ قَبْلَكَ واجَهَ مثْلَ هٰذا الأمْرَ مِنْ قوْمِه، فَتحمَّلْ كَمَا تَحمَّلُوا، واصْبَر كما صَبَروا.

ولَمْ يقْتَصِر النصّ علىٰ بَيانِ الأُسْوةِ الحَسَنَةِ مِنْ جَمِيعِ الأنْبِيَاءِ السّابِقِين، توجيهاً للصّبْر وتحمُّل المشقّات، بل أَلْمَحَ إلْمَاحاً يفهَمُه اللَّبيب إلى قَضيَّتين:

القضية الأولىٰ: وُجوبُ اتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ السَّبَبِيَّةِ المضادَّة الّتي تَمْنَعُ العدُوّ من تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنّ اتِّخَاذَ هٰذِهِ الوَسَائِلِ السَّبَبِيَّةِ يَحْتَاجُ تَفْكِيراً وَتَدْبِيراً وإعداداً عَمَلِيّاً، وليستْ هِي من الأُمور الْجَاهِزَةِ دَواماً، والموجُودَةِ عِنْدَ إرَادَةِ الاسْتِعْمَال، بل التوصُّل إليها لا يكُون إلّا بالاهْتِدَاءِ إلىٰ إدْرَاكِها فِكْرياً، ثُمَّ الاهْتِداءِ إلىٰ طُرُقِ الْحُصُولِ عَلَيْهَا عَمَلِياً، حتّى تكُونَ مُعَدَّةً جاهزةً للاسْتِعْمال، وعِنْدَئِذٍ يُمْكِنُ مُواجَهَةُ العَدُوّ بها، لإلقاء الرّعْبِ في قَلْبه، وَمنْعِه مِنْ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ، فَإذَا أَرَادَ الْمُوَاجَهَةَ بالقُوّةِ كَانَتِ الوسائلُ السببيَّةُ جاهزةً لمواجَهَتِه بالقوّة المكافئة.

ومن قواعد الفكر ومبادئ الدّين أنّ ما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب.

هذه القضيّة ألمَحَ الله عزَّ وجلّ إلَيْهَا بِقَوْلِهِ لرسوله:

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا...﴾.

والمعنى لعلّك تَقُولُ في نَفْسِك؛ لَيْسَ لديَّ القُدْرَةُ بِمُقْتَضَىٰ أَسْبَابِي الإِنْسَانِيَّةِ عَلَىٰ مَنْعِ عَدُوِّي من تحْقيقِ أهدافِه، فالجواب.

ابْدأ باتّخاذِ هٰذِهِ الأسْبَاب، وكَفَىٰ بربّك هَادياً يَهْدِيكَ سُبُلَكَ فِي الْحَيَاةِ، حتَّى تُعِدَّ مَا يَلْزَمُ لمُواجَهَةِ قُوَّة عَدُوِّكَ بقوّة مضادّةٍ مكافِئَةٍ أوْ فَائِقَةٍ عَلَيْهَا.

القضية الثانية: وُجُوبُ الاعْتِمَادِ والتوكُّلِ على الله، والثقَةِ بنَصْرِهِ بَعْدَ الْقِيَامِ باتّخاذِ الْوَسَائِلِ والأسْبَابِ المضادَّة الّتي تَقْضِي بها سُنَنُ الله في كَوْنه.

وقد ألمح الله عزَّ وجلّ إلىٰ هٰذِه القضيّة الثانية بعبارة: ﴿وَنَصِيرًا﴾ عَطْفاً على كلمة ﴿هَادِيًا﴾.

أي: وكَفَىٰ بربّك يا مُحَمّدُ هادِياً يهْديك إلىٰ اتّخاذِ الْوَسَائِلِ والأسباب المضادّة لوسائل وأسباب أعدائك.

أمّا تحليل الحالة النفسية لهؤلاء الكافرينَ ولأمثالِهم فقد أخّره الله إلىٰ آخِرِ الدرس فذَكَرَهُ في الآيتين (٤٣ و٤٤).

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ...﴾.

المراد من الجعل هُنا الجعلُ التكوينيّ الخَلْقِيُّ الّذِي يَتَنَاوَلُ التَّنْظِيم العامّ لسُنَن الله في كونه، والذي لا يتنافَىٰ مَعَ كَوْنِ النَّاسِ يَفْعَلُونَ أَفْعَالَهُمْ باخْتِيَارِهِم الحُرّ، فمن مقتَضىٰ جَعْلِ الله الناسَ أحْرَاراً في اخْتِيَاراتِهم أن يَخْتَارَ بَعْضُهم الإيمانَ فيكُونُوا أنْصاراً للحَقّ وللأنبياء والمُرْسَلِين، وأنْ يَخْتَارَ بُعْضُهُمُ الكُفْرَ فيكُونُوا أعْدَاءً للأنْبِياء والمُرْسَلِين، وأعداءً لأتْبَاعِهِم من المؤمنين، وَتَمْكِينُ النَّاسِ في سُنَنِ الله الكونيّة من اسْتِخْدَامِ الوسَائِلِ والأسْبَابِ لمَا اخْتَاروا مِنَ أعْمَالِ، هو من الْجَعْلِ التَّكْوِينيّ الرّبّاني، ولَيْسَ فِي شَيْءٍ من ذلك إجبارٌ لإرَادَاتِ النَّاسِ، بل يفعلونَ ما يفعلون باخْتِيَارِهِمُ الْحُرِّ، وَقَدْ سَخَّرَ الله لَهُمْ فِي سُنَنِهِ الثَّابِتَةِ بخَلْقِه الأسْبابَ الكَوْنِيَّة[1].

﴿عَدُوًّا﴾: العدوُّ: هُو الَّذِي يَعْدُو بالْمَكْرُوهُ ويَظْلِمُ، أصلُهُ مأخوذٌ من «عَدَا» عَلَيْهِ إذا أقْبَلَ إِلَيْهِ يَعْدُو لِيُنْزِلَ بِهِ مَكْرُوهَاً، أو لِيَظْلِمَه.

والعدوّ هو الّذي وصلَ بِه الحالُ إلى إِرَادةِ النِّكَايَةِ بِخَصْمِه، وإنْزَالِ الْمَكْرُوهِ فِيه، بأيّة وَسِيلَةٍ، وَلَوْ بِالقِتَالِ والْحَرْبِ.

ويُطلق لفظ «العدوّ» هكذا بالإفرادِ على المفرد، والمثنّى، والجمع، والمذكَّرِ والمؤنث، ويستعمل أيضاً على الأصل فيُثَنَّىٰ ويُجْمَعُ ويُؤَنَّث، فيقال: هو عدُوّ، وهُمَا عَدُوّان، وهم أعداء، وهُنَّ عَدُوّات.

﴿مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: جمع «المجرم» وهو المتعدّي بذنب كبير، يقال لُغَةً: «أَجْرَمَ يُجْرِمُ إجْرَاماً» إِذَا فَعَلَ ذَنْباً كَبِيراً، وتعدَّىٰ الْحُدُودَ الَّتي يَجِبُ أنْ يَقِفُ دُونَهَا.

ويقال: أجْرَمَ عَلىٰ الْقَوْمِ، وأَجْرَمَ إِلَيْهِمْ، أَيْ: جَنَىٰ عَلَيْهِمْ جِنَايَةً.

ويقال: جَرَمَ يَجْرِمُ جَرْماً، واجْتَرَمَ يَجْتَرِمُ اجْتِراماً.

---

(١) سبق تفصيل معاني الجعل في القرآن لدى تدبّر الآية رقم (٢٠) من هذه السورة.

وجاء لفظ الْمُجْرِمِينَ فِي القرآن عنواناً مقابلاً للمسلمين، ووصفاً للكافرين الذين أهْلَكَهُمْ الله في الدُّنيا، ووصفاً للْمُعَذَّبين في النَّار، فيظهر أنّ المراد بِهِمْ في الاصطلاح القرآني مُرْتَكِبُو الآثامِ مِنْ مُسْتَوىٰ الكفر، لذلك فَهُمْ مِنْ أَهْلِ النّار.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

التفكُّر في مجمل هذا الدرس الذي نتدَبَّرُهُ من السورة يرجّح لدينا أنّ جملة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾، فهي على هذا ممّا قاله الرسول لِرَبّه في شكْواه، وهي الشكوى الثانية التي اشتكاها الرَّسُول لربّه بشأن القرآن، وسكت صلوات الله عليه عمّا يتعلّق بشخصه، وعمّا يتعلّق بالّذين اتَّبعوه من المؤمنين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: هُم المتحدَّثُ عنهم مُنْذُ بِدَايَةِ السورة، كُبَراءُ كُفَّارِ قومِهِ في مكّة ومن اتّبعهم.

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾: أي: هَلَّا نُزِّل على مُحَمَّدٍ الْقُرآنُ كُلُّه دُفعَةً واحدةً، مجْتَمِعَ الآيَاتِ والسَّور.

جُمْلَةً وَاحدةً: أي مُجْتَمِع الآيات والسّور كلّها غَيْرَ مُفرّق.

والمراد: ما الدَّاعي إلى تنزيله مُفَرَّقاً مُنَجَّماً، إنّ تنزيله مُفَرَّقاً مُنْجَماً يَدْعو إلى الشّكّ في أنّه كلامُ الله، أليس الله عليماً بكلّ شيءٍ، قديراً على أن يُنَزّل القرآن كلّه في وقت واحدٍ؟!

هذه خلاصة اعتراض الذين كفروا على تنزيل القرآن منجّماً.

وعقب هذا جاء الرّدّ الرّبّاني ببيان الحكمة من تنزيله منجّماً مُفَرَّقاً، فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: نَزّلْناه كَذلِكَ التَّنْزِيلِ الّذي اعترض عليه الذين كفروا، وهو التنزيل المنجّم المفرّق، والاكتفاء بمثل عبارة «كذلك» للدلالة على ما هو مفهوم من سِبَاق وسِيَاق الكلام، وهو من الإيجاز الذي لا يخْفَىٰ إدْرَاكُه، فالكبراءُ والبلغاءُ يستعملون في كلامهم نظيره بكثرة، وربّما يقتصرون على الجواب دون الإشارة مطلقاً إلى الشيء الْمُعْتَرَضِ عليه، أو المسؤول عنه.

وقد تضمّن الجواب بيانَ حِكَمٍ ثلاثٍ اقْتَضَتْ تَنْزِيلَ القرآنِ مُنَجّماً، وهو موجّه لهدفين: إرشادِ الرسول إلى الحكمة، والردّ على مقولة الذين كفروا.

الحكمة الأولى: ما تضمّنه قولُ الله عزَّ وجلّ: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

الفؤاد: في مفهوم البيانات القرآنيّة هو أعمق دائرة من دوائر النفس الإنسانية، وهي تقَعُ ضمْنَ دائرة القلب[1]، وإذا ثبت القلب من عمقه ثبت سائره، وثبتت دوائر النفس كلها.

وتَثبِيتُ الفؤاد يكون بما يُورِثُه السكون والطُّمأنينة تُجاه ما يمكن أن يهزّه ويُقْلِقَه ويُزْعِجَهُ من أحداث يوميّة غير سارّة.

---

(١) انظر ما يتعلق بالفؤاد والقلب وسائر دوائر النفس في كتاب: «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف.

وكان الرسولُ ﷺ يتعرّض دواماً من قِبَلِ كُفّار قومه لأحداثٍ غير سارَّة تُقْلِق وتُزعِجُ أفئِدَةَ عُظَمَاءِ الرّجال، فإذا وَجَدَ نفسه على صِلَةٍ بالوحي من آنٍ لآخر، لم تُزعِجْه ولم تُقْلِقْهُ الأحداث، لأنّه يَشْعُر بأنّ الرّبّ الجليل الذي أرسله، وأنزل عليه جبريل بالوحي، لم يَتْرُكْهُ لنفسه يؤدّي وظائف رسالته، بل هو عَلَى صِلَة به، يُنَزِّل عليه الآيات القرآنيّة تباعاً، ويعالِجُ الأحداثَ التي يتعرّضُ لها تِباعاً، ويُقَدِّم له الوصايا والتعليمات الْهَادِيات له في مسيرته، وهو يقوم بوظائف رسالته، ويَشْعُرُ أيضاً بأنّه مدعُومٌ بقوَّةٍ عَظِيمَةٍ منَ الْغَيْبِ، تُتَابِعُهُ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَة.

ولهذا الأمر شأن عظيمٌ جدّاً في تَثْبِيتِ فُؤادِه، ليقُومَ بجَلائِل الأُمُورِ، ضِمْنَ قَوْمٍ يَخْشَىٰ أن يَتألَّبُوا عليه، ويمْنَعُوه بالْقُوَّةِ من متابعة تأدية وظائف رسالَتِه.

إنّ فُؤادَ حَامِلِ رسالَةٍ عَظِيمَةٍ، فِي قَوْمٍ هم أعداءٌ لَهَا، وَيَتَرَبَّصُونَ بهِ الدَّوَائر، يتعرَّضُ للقَلَقِ والاضطرابِ والانْفِعَالَاتِ المُزْعِجَةِ بَيْنَ حِينٍ وآخَر، فهو بِحَاجَةٍ ماسّةٍ إلىَّ ما يُثَبِّتُه.

وأعظَمُ سَبَبٍ للتّثْبِيت أَنْ تكُون الجهة القويّةُ العَظِيمَةُ الّتِي أرسلتْهُ ذاتَ صلةٍ به مِنْ حِينٍ لآخَر، كُلَّمَا بَدأَتْ لَدَيْهِ حَرَكَاتُ الْقَلَقِ والاضْطِرَاب.

الحكمة الثانية: ما تَضَمَّنه قولُ الله عزَّ وجلّ: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

التَّرْتِيلُ؛ هو التمهُّل والتأنّي في الكلام، والتبيينُ له للتَمْكين والتَّحْقِيق، وبناءِ المعْرِفَةِ في المتلقّين بناءً تكامليّاً، وذَلِكَ لا يَحْصُل بإنزاله جُمْلَةً واحدةً، بل يحصل بإنزالِه في دُروسٍ تَعْلِيمِيَّةٍ قِسْماً بَعْدَ قِسْم، مع الاستِفادَة من الأحْدَاثِ والمناسبات.

وقد جاء شرح هذه الحكمة في قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

فَرَقْنَاهُ: أي: جزّأناه، وفَصَّلْنَاهُ، وبيَّنّاهُ، وأصْلُ مَعْنَىٰ الْفَرْقِ الفصْلُ بين الشيئَيْن أو الأشياء، وتمييزُ بَعْضِها عن بَعْض، وأوضَحُ صُوَرِ هٰذا الفَصْلِ والتَّمْييزِ أنْ يُنزَّل الكِتابُ علَىٰ مراحِلَ زَمَنِيَّة مُتَفَاصِلة متباعدة.

عَلَىٰ مُكْثٍ: أي: على تَمَهُّلٍ، وَتوقُّفٍ وانْتِظَار، رَيْثَما تثبت معرفة القسم المنزّل.

يقال لغة: مَكَثَ بالمكانِ يَمْكُثُ مُكْثاً وَمَكْثاً وَمُكُوثاً، إذا توقف وانْتَظَر.

وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً: أي: ونَزَّلْنَاهُ تَنزيلاً بأَنَاةٍ وتَمَهُّلٍ وتَحْقِيقٍ مَعَ كُلِّ قِسْمٍ يُنَزَّلُ مِنْهُ، فالتأكِيدُ بالمفعُولِ المُطْلَقِ للإِشَارَةِ إِلَىٰ نَوْعِ التنزيل.

الحكمة الثالثة: ما تضمّنه قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: من حِكَم تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ مُنجّماً مُفرّقاً مُتَابَعةُ جَدليَّاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا فيما يُقَدِّمُونَه من أَمْثِلَةٍ يَصْطَنِعُونَها بآرَائِهِمْ، وَيَقْتَرِحُونَهَا، وَيَرَوْنَ أَنّها هي الصُّور الأفضل التي يَنْبَغي أنْ يَكُونَ عَلَيْهَا حَالُ الرَّسُول، أو حَالُ الْقُرْآن، أو حَالَ أحكام الشريعة والمنهاج.

فبهٰذه المتابعة يُقدّم الله فِي النصّ اللَّاحقِ ما يَكْشِفُ بِهِ وجْهَ الحقّ، لمن يَطْلُبُ الحقَّ بِصِدْق، إذَا كَانَ ما اقْتَرَحَهُ الكافرون من الأمُورِ الباطِلَة، ويقدّم في النصّ اللّاحق ما يتضمَّنُ تَفْسِير وَجْهِ الحِكْمَةِ للطَّرِيقَةِ الرّبّانيَّة المخْتَارة، إذَا كَانَ ما اقْتَرَحَهُ الكَافِرُونَ إحْدَىٰ الصُّور الْمُمْكِنَة غَيْر المَرْفُوضَةِ عَقلاً، لكِنَّ الاختيار الرّبّانيّ قدْ كَان هُو الأَفْضَل والأَحْسَن والأَحْكَم، فَيكُونُ تَفْسِيرُ ما جَاءَ مِنْ عِنْدِ الله في كلِّ ذلِكَ لملاءمَةِ الأفْضَلِ والأَحْسَنِ والأَحْكَم، أَحْسَنَ مِنْ تَفْسِير مَا اقْتَرحوه.

وحينما يَكُونُ تَفْسِير مَا أنْزل الله أحْسَن من تَفْسِير ما اقْتَرَحُوهُ، يكُونُ ما أنزلَ الله عزَّ وجلّ أحْسَنَ ممَّا اقْتَرَحُوه حَتْماً.

والمُرادُ بالمَثَلِ هنا: النموذَجُ المقترَحُ الّذي يُقَدِّمُه الكافرون، في اعْتِرَاضَاتِهم وجَدَلِيَّاتهم، حَوْلَ مَا يَنْبَغِي ـ بحَسَب آرائِهِم الْقَاصِرَةَ ـ أَنْ يكُونَ عَلَيْه الرَّسُول، أو يكونَ عَلَيْهِ الْقُرآن، أو يكُونُ عليه الْحُكْمُ الدِّيني، أو تكُونُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَةُ الرّبّانية فِي وَسِيْلَةِ التَّبْلِيغ، أَوْ غَيْر ذلك.

ولمّا كانَ كلُّ مُقْتَرحٍ مِنْ مُقْتَرحَاتِ النَّاسِ، بِمَثَابَةِ صُورَةٍ مَرْسُومَةٍ يُقَدِّمُونها، ليكُونَ الوَاقِعُ التَّطْبِيقي عَلى وفقِها، كانَ أدقُّ تَعْبيرٍ جَامِعٍ، هو التعبير عنها بأنّها «مَثَل».

والأمْثَالُ: إمّا أنْ تُقَدَّم لشَبَهِهَا بالأمر الواقع، بقَصْدِ تَقْرِيبِ الأمر الواقِع إلى الأذْهَانِ، وإمّا أنْ تُقدَّم اقْتِراحاً علَىٰ سَبِيل نَمُوذَجٍ، ليَكُونَ الأمْرُ الوَاقِعُ مُشَابِهاً لَها، وهذا «المَثَل» النَّمُوذَجُ المُقْتَرحُ، إمّا أَنْ يَقَدَّم بَدِيلاً لأمر واقِعٍ وُجِّه الاعْتِراضُ ضدّه، وإمّا أن يُقدّم ابْتِداءً قَبْلَ الْعَمَلِ ليَجْرِيَ الْعَمَلُ علىٰ وَفْقِه، كالنَّماذِجِ التي يُعِدُّها المهَنْدِسُون للمباني المقترحة.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِۚ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَاۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ

أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

تمهيد:

في هذه الآيات معالجةٌ لما يعتلج في نفس الرسول ﷺ ونفوسِ المؤمنين، ممّا كَتَمَهُ الرسولُ ولَمْ يذكُرْه في شكواه لربّه، لأنّه من القضايا الشخصيّة التي تُؤلمه من قومه.

ونُلاحِظُ في هذه الآيات أنّ الله تباركَ وتعالى عَالَجَ بَعْضَ هذا المطوي دون أن يَذْكُرَه، ونستطيع استنباطَهُ من الْعِلَاج، وذَكَرَ بعضاً آخر بالعِبارَةِ الصّريحَة، ثُمَّ أتْبَعَهُ بالعلاج الملائم. وختم الآيات بتحليلِ الحالة النفسيّة للكافرين الذين اشتكى الرسُولُ مِنْ كَوْنِهم اتّخذُوا الْقُرآنَ مَهْجُوراً، ومن قولهم: لولا نُزّل عليه القرآن جُمْلَةً واحدة، وهُم كُبُراء كفّار مكة وأتباعُهم، وجَاءَ بصِيغَةٍ عامَّةٍ للدَّلَالَةِ على أنّ من اتّصف بمِثْلِ ما اتَّصَفُوا به يُصَابُ بالدَّاءِ الَّذِي أُصِيبُوا به، وهوَ أنْ لَا يَسْمَعَ ولا يَعْقِلَ بيانات الهِدَايَة الرَّبَّانية التي تُوجّه له مهما كان شأنها.

● أمّا الشكوى المكتومة التي عالجها البيان القرآنيُ في هذه الآيات دون أن يَذْكُرها، ونَسْتَطِيعُ فهمها من العلاج، فَهِيَ الخواطر التي تُعبِّر عن حالَةِ اسْتِضْعَافِ كفَّارِ مكّة للرّسُول وللذين آمَنُوا به واتّبعوه، واحْتِقَارِهم لقُوَّتِهِم، وتصوّرِهم أنّ مُحَمَّداً لَوْ كان رسولاً لله حقّاً، لأمَدَّهُ اللَّهُ بالْقُوَّة، ولاتّخَذَ لَهُ مَخَارِجَ وسُبُلاً، تَحْمِيهِ وَتَحْمِي الذين آمنوا به ممّا يَتَعَرَّضُونَ لَهُ من اضطهادِ وإذْلَالٍ وَتَعْذيب، أو لَسَلَب أعْدَاءَهُ المشْرِكِينَ قُوَّتَهُمْ وعِزَّتَهُمْ وسُلْطَانَهُمْ، وهٰذِه الأفكَارُ كَان كُفّار مكَّة يتحدَّثون بها، فَتَعْتَلِجَ في نَفْسِ الرسُول صلوات الله عليه، دُونَ أنْ يُفْصِحَ عَنْها بِلِسَانِهِ.

● وأمّا الشكوى الأخرىٰ المكتومة التي ذَكَرَها البيانُ الْقُرآنِيُ وأتْبَعها بالْعِلاج، فهي ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا... ﴿٤٢﴾﴾.

وجاء العلاجُ القرآنيُّ مُوجّهاً لهدفين:

الهدفُ الأول: طمأنةُ قلْبِ الرَّسُول والذين آمنوا معه.

الهدفُ الثاني: تَهْدِيدُ الَّذِين كَفَرُوا بالْعَاقِبَة الوَخِيمَة.

وقد تضمَّن الْعِلَاجُ أربعة أمور:

الأمر الأول: بَيَانُ وَاقِعِ حالِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ الدِّين.

الأمر الثاني: بيانُ أنّ الْعَاقِبَةَ الْمُرْضِيَةَ سَتَكُون للرسولِ ولِلَّذِينَ آمَنُوا معه في الدُّنيا، حين يَنْصُرُه الله علَىٰ عدُوّه كمَا نَصرَ الرُّسُل السَّابِقِينَ مِنْ قبله.

الأمر الثالث: إعْلامُ اللَّهِ رسُوله بأنّه لَيْسَ مُكلّفاً أنْ يَكُونَ وَكِيلاً عَلَىٰ مَنِ اتَّخذَ إلٰهَهُ هَوَاهُ، لأنَّ هذا الكَافِرِ مسؤُولٌ مسؤوليَّةً تامَّة عَنْ أُمُورِ نَفْسِهِ، وما اخْتَار لها.

الأمر الرابع: بَيَانُ أَنَّ الَّذِينَ كَفَروا كُفْراً نَاتِجاً عن إصرارٍ وعنادٍ بَعْدَ بيانِ الحقّ لهم، ومُجَادَلَتِهم حوْلَه، أكْثَرُهُمْ لا يَسْمَعُونَ آيَاتِ القرآن التي تُتْلَى عليهم، ولا يَعْقِلُونَها، لأنّهُمْ مَصْرُوفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ عَنْهَا، مُتّبِعُونَ لأهوائِهم وَشَهَوَاتِهِمْ، غَارِقُونَ فِي لذَّاتِ أَجْسَادِهِمْ الْبَهِميَّة، فَهُمْ كالأنْعام، بل هُمْ أضلّ سبيلاً.



التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

هذا البيانُ الرّبّاني في هذا الدرس من دروس السُّورة، يُشعِر بأنّ المعنيّين من الذين كفروا، قد كان لهم موقفٌ من الرسول والمؤمنين

يُلائمه هذا البيان، وهذا الموقِفُ سكت عنه الرسول ولم يَشْكُهُ لربّه لأنّه من القضايا الشخصيَّة.

وعبارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ تَدُلُّ المتدبِّرَ علىٰ أنَّ موقفهم هذا هو موقف من يَحْتَقِر مكانةَ الرَّسُولِ والمؤمنين الاجتماعية، إذْ لَا قُوَّةَ لهم، ولا مَنَعَةَ ولا سلطان، ويَسْتَهِين بهم لأنَّهم لا يَهْتَدُون إلى سبيلٍ يُنْقذهم من الاضطهاد الذي يعانون منه، ويتّخِذُ هذا الواقع ذريعةً للتّشكِيكِ في صِدْقِ رِسَالَةِ الرَّسول.

فجاءت هذه الآية فأزاحَتِ السّتار لتكشف مكانةَ الذين كفروا حين يُحْشَرون على وُجُوهِهم مَسُوقِين إلىٰ جهنم، لا حول لهم، ولا قوّة تُنْقِذُهم من هذه المهانة مع العذاب الأليم.

فإذا أَدْرَكَ المؤمِنُون هذا وَجَدُوا أنهم الْيَوْمَ فِي عَافِيَةٍ عَظِيمَةٍ، على الرّغم من كلّ الّذي يُلاقونَ من عدُوّهم من اضطهاد.

ومَنْ مَسَحَ عن بصيرته الغشاوَةَ من الذين كفروا وَجَدَ في هذا البيان تهديداً مُخِيفاً من عَظِيمٍ جبّار، تَنْخَلِعُ له قلوبَ الجبابرة.

فالمعنى: لا تَهْتَمَّ يا محمَّدُ لِمَوْقِفِ الذين كفروا منْك وممّن اتّبعك اليوم، ولا تَكْتَرِثْ لِنَظَرَاتِ الاحْتِقَارِ والاسْتِضْعَافِ الّتي ينظرون بها إليكم، ويَرَوْنَ فيها أنّ مَكَانَكُمْ فِي مكَّةَ مكانُ المضطهَدِ المستَذَلّ، الذي لا يقْوىٰ على الدّفاع عن نَفْسِه، فإنّهم إذا لم يؤمنوا ولَمْ يتّبعوك فسَيُحْشَرونَ يوم القيامة على وجوههم مَسْحُوبين إلى جهنّم.

ولدى المقارنة بين ما هم عليه الآن وما سَيَصِيرُون إليه، وما أَنْتُمْ عَلَيْه وما سَتَصِيرُون إليه، يظهر أَنَّهُمْ شرٌّ مكاناً وأضلّ سبيلاً، لأنّهم لا يَجِدُون سبيلاً يومئذٍ إلىٰ نَجاتِهم.

﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: الحَشْرُ في اللّغة: الجمعُ والسَّوْقُ مع الاجتماع، أو للجمع، يُقال لغة: حشَرَ الله الخَلْقَ حشراً بعد

البعث، أي: ساقهم وجمعهم في أرض المحشر. وضُمّن فعل «يُحْشَرون» معنى فعل «يُسَاقُون» فَعُدِّي تعديته، فجاء التعبير: يُحُشَرُون إلى جَهَنَّم، بمعنى يُجْمَعُونَ مَسُوقين إلى جهنّم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: أولٰئِكَ الْبُعَدَاءُ عن رَحْمَةِ الله، المنحَطُّونَ إلى الأسفل البعيد.

﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾: شرّ بمعنى «أَشَرّ» أفعل تفضيل.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: يقالُ لغة: ضلّ الطريق إذا لم يهتَدِ إليه.

و«مكاناً» و«سبيلاً» منصوبان على التمييز.

والمعنى: أولئك البُعَداءُ عن رَحْمَةِ الله بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ العِنَادِيّ، ومَعَادَاتِهم للرسول والذين آمنوا معه، المنحطُّون إلى الأسفلِ الْبَعِيدِ، والذين لا يَسْتَحِقّونَ أن يُشار إليهم بإشارة القريب، هم أشدُّ من واقع حال المؤمنين اليوم نُزُولَ مكانَةٍ وضلالَ سبيل.

وقد تَسَاءَلَ صحابيٌّ: كيف يُحْشَرُ الكافر على وجهه؟ فأجابه الرّسول ﷺ بأنَّ الذي أَمْشَاهُ على الرجلين في الدنيا قادِرٌ على أن يُمَشِّيهُ على وجهه يوم القيامة.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن قتادة، قال: حدّثنا أنس بن مالك رضي الله عنه، أنّ رجلاً قال: يَا نَبِيَّ الله، كيفَ يُحْشَرُ الكافِرُ على وجهه؟ قال: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ علىٰ الرِّجْلَيْنِ في الدُّنْيَا قَادِراً عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!».

قال قتادة: بَلَىٰ وعِزَّةِ رَبِّنا.

وَيَظْهَر لِي أنّ هذا الحَشْرَ لِلْمُجْرِمِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إمّا أَنْ يَكُونَ لَدَىٰ جَمْعِهِمْ لَسَوْقِهِمْ إلَى جهنَّم بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَصْلِ القضاء، بدليل ما جاء في العبارة من أنّهم يُحْشَرُونَ إلىٰ جهنّم، وهذا يلزم عنه أنهم يُحْشَرُون قَبْلَ ذَلِكَ لِسَوْقِهم إلى الحساب وفَصْل القضاء، أو أن موقف حسابهم يكون

قريباً من جهنم التي حُشِرُوا إليها، فيُحَاسَبُون ويُفصل القضاء بشأنهم، ويُلقَون في جهنم.

وقد جاء في الحشرِ الأَوَّلِ بَعْدَ الْبَعْثِ للحِسَاب وفَصْل القضاء عدَّةُ نصوص قرآنية متكامِلَةُ الدلالة فيما بينهما.

(١) فجاء في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾؟؟

يُوزعُونَ: يُصَفُّونَ وَيُرَتَّبُونَ بحسب أفواجهم، لسَوقهم إلى موقف الحساب وفَصل القضاء.

فهذا الْحَشْرُ يكُونُ قَبْلَ الحساب وفَصْلِ القضاء، بدليل أن سؤالهم يكون بعده.

(٢) وجاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

وظاهر هنا أنّ الحشر في الآيتين يَكُونُ قَبْلَ الحِساب وفَصْل القضاء، لأنّ سؤالهم في موقف الحساب يَكُونُ بَعْدَه.

(٣) وجاء في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) قول الله عزَّ وجلّ يخاطِبُ الملائكةَ المكلَّفين أن يَسُوقوا الظالمين:

﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فالحشر هنا حشرٌ إلى مُقَدّمة صراط الجحيم الذي يكون عنده حسابُهم، وفَصْلُ قَضائهم، فهو حشرٌ قَبْلَ الحِسَاب.

(٤) وجاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) قول الله عزَّ وجل:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وظاهر أنَّ هذا الحشر يكون قبل موقِفِ الحِساب وفَصْل القضاء.

(٥) وجاء في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ...﴾.

يدلُّ هذا النصّ على أنّ موقف حساب هؤلاء الذين هم أعداءُ الله يكون على مَقْرُبةٍ من النَّار، لذلك يكون حشرهم وسَوْقُهم إلى موقف حسابهم حَشْراً وسَوْقاً إلى النار، فَيُحَاسَبُون ويُقْضَى عليهم وهم على مَقْرُبةٍ من مصيرهم في النار الذي هم إليه صائرون.

وهذا يدلّ على أنّ مواقف الْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء يَوْمَ القيامة

مَواقِفُ مُتَعَدِّدَة، بحسب أحوال الناس المُحَاسَبِين، والله أعلم، فتكاملت دلالات النصوص.

❋ ❋ ❋

قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾.

في هَاتَيْنِ الآيَتَيْن عرْضٌ لِلَقْطَةٍ منَ اللَّقَطَاتِ المتضمِّنَاتِ طمأنَةَ قَلْب الرسُول ﷺ وقلوب الذين آمَنُوا معه، إلى عاقبة أمْرِهِم في الدُّنيا، وأنَّهُمْ هُمُ المنْصُورُون أخيراً، وأنّ الكافرينَ هُمْ المُخْذُلُون بالإهلاك الربّانيّ لهم، كما حصل لفرعون وجنوده، أو بتَمْكِينِ أهْلِ الإيمانِ في الأَرْضِ، ونَصْرِهم على أعدائهم، مع ما فيها من تهديد للكافرين.

وقد جاءت هذه اللّقطة بصُورَةٍ مُوجَزَةٍ جدّاً مُؤدِّيَةٍ غَرضَ طَمْأَنَةِ المؤمِنين وتَهْدِيد الكافرين في هذه المرحلة التي نزلت فيها سورة (الفرقان) من مراحل دعوة الرسول.

﴿وَلَقَدْ﴾: جاء تأكيد مضْمُونِ هذِه اللَّقْطَةِ بمؤكدين: «اللَّام» وحرف «قد» مراعاة لِحَالِ المؤمِنِينَ المتطَلِّعِينَ بِلَهْفَةٍ للخلاص من الاضطهاد الذي يعانون منه، ولحَالِ الكَافِرينَ السَّادِرينَ في غَيِّهم، والغَالِينَ في عُتوِّهم، كأنَّهم لا عِلْم لهم بعظات التاريخ وما جرىٰ لمُكَذِّبي الرُّسُلِ من الأمم السالفة.

﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أتينا مُوسىٰ التوراة، وقد يكُونُ في هذا إشارة ضِمْنِيَّةٌ إلىٰ أنَّه قد أُنْزِلَ على موسى جُمْلَةً واحدة، ومع هذا فقد كذَّبَ بِهِ المكذّبون من قوم موسى.

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا﴾: أي: وجعلنا معه أخاه هارون نبيّاً رَسولاً على صفة وَزِيرٍ مُسَاعِدٍ لمُوسَىٰ، فقد طلب موسى ذلك من ربّه، لأنّه أفصح منه لساناً.

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾.

الّذين كَذَّبُوا بآيات الله: هم فرعون وملؤه وجُنُودُه.

ومعنى ﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أهْلَكْنَاهُمْ إهْلاكاً عَنِيفاً شديداً، وكان إهلاك فرعون وجنوده بالغرق كما هو معروف.

التدمير يأتي بمعنى الإهلاك المُسْتأْصِل للأحياء وهو أشدّ الإهلاك، ويستعمل التدمير بمعنى إِبَادَةِ الأشياء. وأصْلُ التَّدْمِير تحطيم الشيء على وجه لا يُرْجَىٰ بَعْدَهُ إصلاحه. فتدمير القوم يكون بإهلاكهم وإماتتهم بوسيلة إهلاك فيها عقابٌ كالإغراق، والحريق، والريح، والصيحة. وتدميرُ المباني والقصور يكون بتخريبها وإبادتها حتّى تكون دوارس، وتدمير الحقول والبساتين يكون بإتلاف ما فيها وتبديدها حتّى تُصْبحَ أرضاً جَرْدَاء، وهكذا.

يُقال لغة: دَمَرَ الْقَوْمُ يَدْمُرونَ دُمُوراً وَدَمَاراً إذا هلكُوا. ودَمَرَهُمُ الله، أي: أهْلَكَهُم، ودَمَرَ الْقَرْيَةَ، إذا أَبادَها حتّى دَرَسَت.

ويُقَالُ: دَمَّرَهُمْ اللَّهُ تَدْمِيراً، وَدَمَّر عَليهم، إذا أهلكهم، ودَمَّر اللَّهُ القريةَ ودَمَّرَ عليها، إذا أبادها وجعلها دراسة.

ومن عجيب الإيجاز الاختزالي في هذه الآية، التقاط ثلاث عبارات من قصة موسى وقومه الطويلة التي جاء تفصيلها موزعاً في قرابة ثلاثين سورة.

فعبارة ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى﴾، مقْتَطَعَةٌ من أوائل القصة.

وعبارة: ﴿إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، مُقْتَطَعَةٌ من أواخر القصة، فهم لَمْ يَكُونُوا مكذّبينَ عنْدَ بدَايَةِ الإِرسال، وإنّما ظهر تكذيبُهم العِنادِيّ الذي استحقّوا عليه الإهلال بعدَ عدة سنين.

وعبارةُ: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾، مقتطعة من ختام القصّة.

والفراغات بين هذه العبارات الثلاث تملؤُها قِصّةٌ طَوِيلَةٌ جدّاً، جَرَتْ أَحْدَاثُها في سنين عديدة، هي المدّة ما بين عودة موسى عليه السلام إلى مصر حتى خروجه ببني إسرائيل، ومتابعةِ فرعون وجنودِه لهم.

وفي هذا الاختزال ضُمَّ أوّل التكليف، إلى صفة القوم بعد مراحل القيام بوظائف التكْلِيفِ، وخُتِمَ ببيان العاقبة المعجّلة في الدنيا.

ولمّا كَانَ تَدْمِيرُهُمْ عَقِبَ آخر مراحِلِ تكذيبهم جاءَ عَطْفُه بالْفَاءِ الّتي تدلُّ على الترتيب مع التعقيب.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)﴾.

في هذه الآية عَرْضُ لَقْطَةٍ ثَانية من اللّقَطات المتضمّنَات طمأنَةَ قَلْبِ الرَّسُول ﷺ وقلوب الّذين آمنوا معه، إلى عاقبتهم في الدنيا، وأنهُمْ همُ المنصُورون أخِيراً، وأنّ الكافرين هم المَخْذُولُونَ معَ ما فِيها من تهديد للكافرين.

وجَاءَتْ هٰذِه اللّقْطَةُ بصُورَةٍ شَدِيدةِ الإيجاز، والاخْتِزَالِ أيضاً، لأنَّ الْغَرَضَ طَمْأَنَةُ المؤْمِنِينَ، وتَهْدِيدُ الكَافرين.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ هٰذه الجملة معطوفَةٌ عَلَىٰ جملة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

ٱلْكِتَٰبَ﴾. ولفْظُ ﴿وَقَوْمَ﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مَحْذُوف تقديرُه: وأغْرَقْنَا قَوْمَ نُوحٍ، وهٰذا الفعل المحذوف يُفَسِّرُهُ الْفِعْل الذي جاء بعد ذلك ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ لأَنَّهُ اشْتَغَلَ عن مَعْمُوله بضَمِيره كما يقولُ النحاة[1].

﴿لَمَّا﴾ هُنَا ظَرْفِيَّةٌ بمعنى «حين» أَوْ بِمَعْنَى «إِذْ» وتَخْتَصُّ بالماضي، وتقتضي جُمْلَتَيْنِ، وُجِدَتْ ثَانيتهما عِنْدَ وُجُودِ أولاهُما، ويكونُ جَوابُها فِعْلاً ماضِياً، أو جُمْلَةً اسْمِيَّةً مقرونة بـ«إِذَا» الفُجَائِيَّة، أو بالفاء، وتُسَمَّى: حَرْفَ وُجُودٍ لِوُجُودٍ.

أقول: الَّذي يَظْهَرُ من الاستعمالات أنها تَضُمُّ في معناها أَمْرَين: معنى الظرفية الزمانية، ومعنى «بَعْدَ» وكلُّ ما جاء في القرآن منها يَحْمِلُ هٰذين المعنَيَيْن: الْبَعْدِيَّة الزمنيّة، ولا يشتَرطُ في الْبَعْدِيَّة الزمنيَّة مُدَّةٌ مُعَيَّنَةٌ، بلْ كُلُّ زَمَنٍ يَكُونُ بَعْدَ حُدُوثِ مضمون الجملة الأولى صَالِحٌ لِحُدُوثِ مضمون الجملة الثانية، كأن نقول: لمّا كان اللَّهُ قادراً عليماً حكيماً خَلَقَ الإنسان في أحسن تقويم ـ لمَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ والأرض وقدَّر في الأرض أقواتها خَلَقَ الإنسان.

ولفظ ﴿لَمَّا﴾ في الآية مُضَافٌ، وجملة ﴿كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ مضاف إليه والمعنى: وقومَ نوحٍ بَعْدَ زمن تكذيبهم الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾: أي: وجعلْنَا إهْلاكَهمْ عَلامَةً قَائِمةً للنَّاسِ يَسْتَدِلُّونَ بها علَىٰ عدْلِ الله وحِكْمَتِهِ في مُعَاقَبَةِ الْمُجْرِمِينَ بالإِهْلاكِ الشَّامل.

وهٰذه الآية: (= العلامة) يتّعظ بها ويَعْتَبرُ بدلالاتها أولو الألباب الذين يخشون أن يُصيبهم ما أَصَابَ الأُمَمَ مِنْ قبلهم.

---

(١) أقول: هذه صناعة نحويَّة، ويمكنُ تعليل الكلام العربي بغير هذا، كأنْ نقولَ: فعل «أَغْرَقْنَا» المتأخِرَ نَصَبَ لفظ «قوم» وجاء الضمير مؤكّداً، ولا حاجة لتقدير فعل آخر.

وأفْهَمُ مِنْ قول الله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ بالجَمْعِ لَا بالإِفراد، أنَّ نوحاً عليه السلام قد كان آخِرَ مجموعة من الرُّسُل أُرْسِلُوا إلى قومه، أو أنه كان واحداً مِنْهم، إلَّا أنَّهُ كان أطْوَلهم عمْراً، أو كان المقدَّم فيهم، والرَّئيس لهم.

واستَبْعِدُ احتمالَ كوْنِ تكذيبهم لنوح بمثابة تكذيبهم لعدد من الرسل والله أعلم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: «أعْتَدَ» بمعنى: أعَدَّ وهَيَّأ ﴿عَذَابًا﴾: أي: عقاباً على ما قَدَّمُوا مِنْ عَمَلٍ سَيِّءٍ. ﴿أَلِيمًا﴾ على وزن «فَعِيل» من صِيَغ المبَالغة والتكثير.

والمعنى: وأعددنا وهيأنا لقوم نوح ولسائر الظالمين عذاباً مؤلماً يَوْمَ الدِّين.

وقد جاءت العبارة عامّة شاملة في سياق الحديث عن قَوْمِ نُوحٍ، للإِشعار بأنهم داخلون في عموم الظالمين الَّذين أعتَدَ الله لهم عذاباً أليماً.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨﴾.

في هٰذه الآية عَرْضٌ لِلَقْطَةٍ ثالثةٍ من اللَّقَطاتِ التاريخيَّات المتضمّنات طمأنَةَ قَلْبِ الرَّسُول ﷺ وقُلُوب المؤمنين إلى عَاقِبَتهم في الدُّنيا، وأنّهم هم المنصُورُون أخيراً، وأنَّ الكافرين هم المخذولون، مع ما فيها من تهديد للكافرين.

وقد بلغ الاختزال في هذه اللّقطة إلى الاكتفاء بذكر أسماء أقوام سبق إهلاكهم، وقد عُلِم من عطفهم على مَنْ ذُكِرَ قَبْلَهُمْ من المهلكين أنهم

كَانُوا مِثْلَهُمْ في تكذيب الرُّسل، وبعد ذكر أسْمَاءِ ثلاثةِ أقْوَامٍ جاءَتْ عبارةٌ عامّة.

وجاء النّصبُ متّسقاً مع نصب ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ وهو على تقدير: وأهلكنا عاداً وثمودَ وأَصْحَابَ الرَّسّ وقُرُوناً بين ذلك كثيراً.

أمّا عاد، فهم قوم النبي الرسول هود عليه السلام، وكانت مساكنهم في أرض الأحقاف[1].

وأمّا ثمود، فهم قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام، وكانت مساكنهم في الحِجْر[2]. وأمّا أصحاب الرّس، فللمفسّرين في بيانهم عدّة أقوال:

- قوم من بقايا ثمود.
- قوم كانوا في عَدَن.
- قوم شعيب عليه السلام، أو كانوا مع قوم شعيب.
- أهل أنطاكيّة.
- وقيل غير ذلك والله أعلم.

واتفق المفسّرون على أنّ «الرَّسّ» بئرٌ عظيمة، أو حفيرة كبيرة، ولفظ «الرّس» أطلقه العرب على أماكن كثيرة في بلادهم. ويُطلقُ أيضاً اسماً على أماكن أخرى في غير بلاد العرب.

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾: **قُروناً**: جمع قَرْن، والقرن من الزمان مئة سنة، ومن الناس أهل زمان واحد، دون تحديدٍ لمدّة الزَّمَن، ومنه ماجاء

---

(١) الأحقاف: بين حضرموت والربع الخالي.

(٢) الحِجْر: أرض معروفة بين الشام والحجاز، وفيها آثار مدائنهم التي تُسمَّى مدائن صالح.

في قول الرسول ﷺ الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد والطيالسي، عن عِمْران بن حصين:

«خَيْرُكُمْ قَرْني، ثُمَّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يَسْتَشِهَدُونَ، وَيَنْذُرُونَ ولَا يُوفُونَ، ويَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه ما سبق ذكره في النّص من أقوام أهلكت، فمن أساليب الكلام أن يَذْكُرَ المتكلّم أشياء مختلفة ثم يُشِيرُ إليها مجتمعةً بإشارة البعيد «ذٰلك».

﴿كَثِيرًا﴾: على وزن «فعيل» وقد جاءت هنا وصفاً لكلمة ﴿قُرُونًا﴾ ولفظها جمع، وكلّ جمع مؤنث، والأصل في فعيل بمعنى «فاعل» أن يؤنّث مع المؤنّث، ويذكّر مع المذكّر، فيقال: وقُروناً كثيرة، لكِنْ قد يجرّد من تاء التأنيث، فيصيرُ كفَعِيل بمعنى «مَفْعُولٍ» الذي يستوي فيه المذكر والمؤنث، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مراعاةً للفظ الجلالة في «رحمة الله» وللإشارة إلى أنَّ الله يكون هو برحمته قريباً من المحسنين.

وجاء هنا ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ مراعاةً لفواصل الآيات السابقة واللّاحقة.

وسيأتي في تدبر قوله تعالى: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ تفصيل يتضمن ترجيح جواز استعمال «فعيل» بمعنى «فاعل» كاستعمال «فعيل» بمعنى «مفعول» في أنه يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع، أخذاً من الاستقراء القرآني.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَكُلًّا﴾: التنوينُ في لفظ «كُلًّا» يُسمِّيه النحاة تنوين العوض، وهو عوض عن المضاف إليه المحذوف، أي: وَكُلَّ قَرنٍ منهم، وتنوينُ العوض هذا يلحقُ لفظتي «كلّ» و«بعض» إذا حذف المضاف إليه في كلٍّ منهما. ونُصِبَ لفظ ﴿كُلًّا﴾ في الآية بنزع الخافض وتنزيله منزلة المفعول به لفعل ﴿ضَرَبْنَا لَهُ﴾ أي: ولكلٍّ ضربنا له الأمثال.

﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾: أي: وصَفْنا لهُ أَحْوالُ الأُمَمِ السَّابقةِ الّتي أهلكناها، ليتَّعِظَ بها ويعتبر.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾: التَّتْبِير: التكسير الشديد للشيء حتَّى يصير فُتاتاً، فهو بمعنى التحطيم والتَّفْتِيت والإِهلاك.

«تتبيراً» مفعول مطلق لتأكيد حصول الفعل حقيقةً بكامل معناه. يقال لغة: تبَّره يُتبِّره، إذا كسَّره وحطَّمه وفتّته إلى أجزاء صغيرة.

❁ ❁ ❁

قوله الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآية عَرْضٌ لِلَقْطَةٍ رابعة ذات أهميّة تستحق أن يُذَكَّرَ بها بشكل خاص، من اللّقطات التاريخيَّة المتعلقةِ بالْمُهْلَكِين من أهل القرون الأولى، ويَبْرُزُ في عرض هذه اللّقطة التاريخيّة هدف تهديد الذين كفروا.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾: يؤكّد الله عزّ وجلّ أنّ الكافرين موضوعَ البيان في السورة، قد أتوا بلاد الشّام في رحلاتهم

التجاريّة مارّين مُشْرِفين في طريقهم على القرية التي دمَّرها الله، أي: فلِمَ لَمْ يعتبروا بها.

والمراد بهٰذِه الْقَرْيَة أرضُ سَدُوم حيث كانت مساكنُ قَوْمِ لُوطٍ المدمّرة، والتي غار معظمها في البحر الميّت من أرض الأردن.

قال المؤرخون: كانت لهم خمس قرى، هي: «صَبْغَة ـ عَمْرَة ـ أَدْما ـ صَبُويم ـ بالع» تجمعها أرضُ سَدُوم، أطلق الله عليها عنوان قرية.

وقد عرفنا أنّها هي المرادة بقَوْلِه تعالى في وصفها: ﴿ٱلَّتِىٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾ وقد سبق في نجوم التنزيل ذكر قومِ لوط في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وجاء فيها بيان أنّ الله أرسل عليهم حاصباً فأهلكهم، وهذا الحاصب هو مطر السَّوْء الَّذِي أنْزَلَهُ الله علَيْهِمْ، وقد جاء بَيَانُه بتَفْصِيل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿أَتَوۡاْ عَلَى﴾: فعل «أَتى» يَتَعَدَّى بنفسه، وعُدِّي هنا بحرف «على» لتضمينه معنى فعل «مَرَّ».

﴿أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾: المراد: أُمطِرَتْ حِجَارةً أُنْزِلَتْ عليها كالمطر العامّ الشامل.

يقال لغة: مَطَرَتِ السماءُ تُمْطُرُ مَطْراً وَمَطَراً، أي: نزل مطرها، فهي ماطرة. ومَطَرَتِ السماءُ القومَ، أي: أصابتهم بالمطر، وأمطرتِ السَّماءُ، إذا نَزَلَ مطَرُها، وأمطر اللّٰهُ السَّماءَ على القوم أو الأرض، إذا أنزل منها المطر عليهم.

السَّوْء: بفتح السين: اسم للضُّرّ، وسُوءِ الحالِ، والعذاب. الإضافة

في «مَطَرَ السَّوْءِ» بمعنى «اللَّام» أي: مَطَراً للضُّرّ والعذاب، أو بمعنى «مِنْ» أي: مطراً من العذاب.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾: استفهام على سبيل التعجيب من حالهم مع أنهم أتَوْا عليها. أي: أفلم يكونوا في رحلاتهم الكثيرة إلىٰ بِلَادِ الشَّامِ للتجارة يرون آثار أرْضِ قوْمِ لُوطٍ الّذِين أهلكهم الله، مع أنّها تقع في طريقهم، وهم يسيرون إلى البلاد التي يقصدونها للتجارة من بلاد الشام.

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾: بعد الاستفهام التعجيبي السابق جاء هذا التعقيب. أي: بل كانوا يرونها رؤيةَ غَيْرِ مُعْتَبَرٍ بها ولَا مُتّعِظٍ، لأنّهم كانُوا فِي مرّاتِ مُرُورِهِمْ لَا يَرْجُونَ نشوراً.

﴿لَا يَرْجُونَ﴾: بمعنى لا يَتَوَقَّعُونَ ولا يَتَرَقَّبُونَ ولَا يَخافُونَ[1].

﴿نُشُورًا﴾: النشور: هو الحياة بعد الموت، وهذا النشور إنّما يكون للحساب وفَصْلِ القضاء والجزاء.

يقال لغة: نشر الله الموتىٰ نَشْراً ونُشُوراً، أي: بعثهم وأحياهم.

❊ ❊ ❊

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

بعد أن طمأن الله رسوله والمؤمنين معه بأنّ عاقبة الظفر لهم في الدنيا والآخرة، وعاقبة الخيبة والهلاك والعذاب ستكون لأعدائهم الذين

---

(١) سبق الشرح اللّغوي لدى تحليل الآية رقم (٢١) من السورة.

يضطهدونهم، ويُدَبِّرون ما يُدَبّرون للتخلّص منهم، في الدنيا والآخرة أيضاً، دون أن يَذْكُرَ بالعبارة الصريحة ما يُعِدُّونه ضدّ الرّسول والمؤمنين معه، من وسائل كيديّة اضطهاديّة بالقوّة الماديّة للإجهاز عليهم، لتعليمنا ما يجب علينا من كتمان ما نعلَمُه ممّا يُدَبِّره أعداؤنا ضِدّنا، حتى نُحْكِمَ الخِطَطَ والتدبيرات المضادّة السّرّية.

بعد ذلك ذكر الله عزَّ وجلّ بالعبارة الصريحة ما يُجَاهرون به من اتّخاذ الرّسُول هُزُواً، قائلين بأسلوبِ احتقارِ قُوّتِه وازدرائها: أهذا الذي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً؟!

أي: أهذا الذي بعثه الله إلينا، حالَة كونه رسولاً، أو مُتَّخِذاً إيّاه رسُولاً، وهو لا ينصره ولا يؤيّده، ولا يُعْطيه قوّة التغلُّب على من يضطهدُه ويضطهد أتباعه المؤمنين به، ولا يهديه إلى السُّبل التي يُنْجي بها نفسه والذين آمنوا معه!؟

الاستفهام في عبارتهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ استفهام إنكاري فيه معنى الاحتقار والازدراء، أي: فهو ليس نبياً ولا رَسُولاً ما دامَ ربُّهُ لا ينْصُرُه.

فالظاهر من اتّخاذ الكافرين الرّسُولَ هزُواً في هذه المرحلة التي نزلت خلالها سورة (الفرقان) من مراحل دعوته في مكة، هو استهزاؤهم من عَدَمِ قُدْرَتِه على مقاومة اضطهادهم له وللذين آمنوا معه، وعَدَمِ قُدْرتِه على مدافعة إيذائهم له ولمن آمن به ولعشيرته، كالحصار الاقتصادي الذي آذوهم به.

والمعنى: كيف يكون رسولاً لله كما يدّعي وهو لا يَجِدُ من رّبه نُصْرةً تجعلُه يتفوّقُ بها علَىٰ أعْدائه، ولا يَهْدِيهِ إلَىٰ سَبِيلٍ يَسْلكُهُ لإنْقَاذ أتباعه؟!

واتَّخَذُوا من هذه الظاهرة دليلاً على عدم صدق نبوّة محمّد ورسالته ﷺ.

﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾: «إنْ» هُنا حرف نفي بمعنى «ما». والمعنى: ما يَتَّخِذُونَكَ إلَّا هُزُواً، أي: مَهْزوءاً بِكَ، استُعْمِلَ المصدر بمعنى اسم المفعول.

الهُزْؤ، والْهُزُؤُ في اللُّغة السُّخْرية، وتُقْرَأُ بوجوهٍ فَتُبْدَلُ الهمزةُ واواً مع ضمّ الزاي، وهي قراءة حفص، وتُقْرأُ هُزْءاً بإسكان الزاي وتحقيق الهمزة، وهي قراءة خلف، وتُقْرَأُ هُزُءاً بضم الزاي مع تحقيق الهمزة، وهي قراءة جمهور القراء العشرة، وكلّها لَهَجَاتٌ عربية.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

لَمَّا شَعَرُوا بأنهم هم الأقوى والأعزّ في مكّة، ظنّوا أنّ ذلك بسبب إصرارهم على التمسك بآلِهَتِهم والتّقرُّب إليها بالقرابين، والصَّبْرِ عَلَىٰ عِبادتها، وتذكّروا ما كانُوا قد تواصَوْا بِه من الصَّبْر على عبادة آلِهَتِهُم والتمسُّكِ بإلٰهِيَّتِها، الذي كان منهم إبّانَ نزول سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ بشأنهم:

﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾.

فبعد مرور مُدَّةٍ من الزّمن، دون أنْ يَتَغَيَّر من أوضاعهم شيء، ودون أن يَجِد الرَّسُولُ فيما يَرَوْنَ سبيلاً للانْتِصَارِ عليهم، ولَمْ يُمِدَّه الله بما يجعله هو الأَقْوَىٰ والأعزّ في مكّة، قالوا:

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

وفي هذا اعترافٌ مِنْهُمْ بِقُوَّةِ حُجَجه الفكريّة التي كان يحاجّهم بها، وبُرهانات القرآن التي كانُوا يَسْمَعُونَها، حتّى كادوا يتأثّرون بأقواله وبما جاء في القرآن، ويهجُرون آلهتهم، وظنُّوا أنّ في ذلِكَ ضلالاً لهم، بإبعادهم عن آلهتهم، فعبَّروا عن ذلك بهذه المقالة.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾؛ «إنْ» هنا في المخفّفة من الثقيلة «إنَّ» وهي مؤكِّدَةٌ لمضمون الجملة، وتأتي بعدها لام الابتداء، وتسمّى اللّام الفارقة، لأنّها تَفْرِقُ بين «إنْ» المخفَّفَةِ من الثقيلة وبين «إنْ» النافية.

كلمة ﴿لَوْلَآ﴾ هنا هي حرفٌ يدلُّ على امتناع جوابه لوجود تاليه، أي: لولا صبْرُنا على آلهتنا لَقَارَبَ محمدٌ ببيانه وحُجَجِهِ إبْعَادَنا عنها، وإخْرَاجَنَا إلى الضَّلال الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ.

فأوعَدَهُم الله عزَّ وجلّ بالعاقبةِ الوخيمة، ونَبَّهَهُمْ على أَنَّ مَعركتهُمْ معَ الرسُول ﷺ ومع المؤمنين لم تَنْتَهِ بَعْدُ، بل هي مسْتَمرَّة، وسَوْفَ يعلمون حين يَرَوْنَ العذابَ في الدنيا الذي يرافقه انتصار الرسول والذين آمنوا معه، والْعَذَابَ فِي الآخرة، مَنْ هُوَ أَضَلُّ سَبِيلاً، وأَبْعَدُ عن صِراطِ الهداية وسبُل النجاة للدُّنيا وللآخرة، إنَّهُمُ الكافرون بالله ورَسُولِهِ لا محالة.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

تمهيد:

ممّا كان يَعْتَلِجُ في قلب الرسول ﷺ في المرحلة التي نزلت فيها

سورة (الفرقان) تُجاه الذين أصَرُّوا على الكفر من قومه، حِرْصُهُ الشَّدِيدُ على اسْتِجَابَتِهِمْ لدَعْوَتِهِ، رَغْبَةً في تَحَوُّلِهِمْ عن سُبُلِ جَهَنَّمَ إلىٰ صِرَاطِ الجنّة، وإنقاذِهم من سُوءِ المَصِير الذي سَيَصِيرُون إليه حتماً، إذا استمرّوا علَىٰ ما هُمُ عليْهِ من كُفْر.

وربّما يَخْطُرُ فِي نَفْسِ الرسُولِ صلوات الله عليه أنّ رسالَتَهُ إلَيهم تحمِلُ أكْثَرَ من واجبِ تَبْلِيغِهم ونُصْحِهم وإقناعهم بالحقّ وإرشادِهِمْ والشَّفَقَةِ عليهم، فرُبَّما يَتَصَوَّرُ نَفْسَهُ أنّهُ بِمَثَابَةِ الْوَكِيلِ علىٰ قَاصِرِينَ، فهُوَ مسؤولٌ عنْ حِمَايَتِهُمْ وَرِعَايَتِهِمْ، وكَفِّ مَنْ يُعرِّضُ نفسَه منهم للأذى أو الضرّ أو الهلاك، بكلّ ما يستطيع من قوّة، ولو بالقَهْرِ والإلْزام، وهذا أمْرٌ لم يَجِدْ سبيلاً إليه، فهو لذلك يَحْمِلُ همَّ الشُّعُورِ بالتَّقْصِيرِ فِي الْقِيامِ بوَاجِبَاتِ رِسَالَتِهِ الَّتي أرسَلَهُ الله بها.

فاقتضى البيان الرَّبانيُّ في هذا الدّرس الذي اشتمل على عدّة عناصر علاجيّة للرسول ﷺ، ولكلِّ الدّعاة إلى الإسْلام مِنْ بَعْدِه، أنْ يكون ضِمْنَ هٰذِه العناصر التّخْفِيفُ عن نفس الرسول بأربعة أمور:

الأمر الأول: بيان أنّه ليس مسؤولاً عنْ تَحْوِيلهم إلى صِراطِ الله، لأنّه ليس وَكِيلاً عَلَيْهم، وإنّما هو مُبَلِّغٌ مُعلِّم ناصِحٌ مُرشِد، يجْتَهِد في إقناعهم بالحقّ على مقْدَارِ الاسْتِطَاعَة، ثمَّ إنّهُمْ هُمُ المسؤولون مَسْؤوليَّةً شخصيَّةً عَنِ اختيارِ طَرِيق سعَادَتِهم، والتحوّلِ عن سبيل شَقَائِهم، فإنْ لم يَفْعَلُوا اسْتَحقّوا المؤاخَذَةَ والعِقَاب.

الأمر الثاني: بيان علَّتِهم النفسيّةِ الّتي تجْعلهم يصُدُّون ابتِدَاءً عنِ الاسْتِجَابَةِ لدَعْوَةِ الرَّسُولِ الرشِيدة، وعَنِ الاسْتِماعِ الواعِي إلىٰ القرآن، وتدبُّرِ ما جاء فيه، حتّى كانَ فيهم مهجوراً.

إنّ علتهم النفسيّة هي أنّهم عَبِيدُ أهوائهم، فحواسُّهم مُسَخرةٌ لهٰذِهِ

الأَهْواء، لذلك فهم مُنْصَرِفُونَ نفِسيّاً عن الاستماع لأيّ حديث يتضمّن إخراجَهُمْ من عُبُودِيَّتهم لأهوائِهم، أمّا عُقُولُهم وأفكارُهُمْ وكلُّ قُدْراتِ الذَّكَاء فِيهم فَمشْدُودةٌ بِقُوّةٍ لخِدْمةِ أهْوائهم، لذلك فَهُمْ مُنْصَرِفون عَنْ إدراك أيَّةِ فكرةٍ تُخْرِجُهم من هذه البُؤْرة المُحِيطَةِ بهم.

الأمر الثالث: تأكيد أنّ وظِيفة الرَّسُول في الّذين يقومُ بدَعْوتِهم إلىٰ الإسلام وظيفةٌ تبليغيَّةٌ بيانيَّةٌ إقناعيَّة، لا وظيفةٌ تحويليّة.

وإعْلَامُ الرسُولِ بأنّ عليه أن يدَعَهُم لما يختَارون لأنفُسهم من إيمان أو كفر، فإذا أَقَامُوا دُونَ الإِصْغَاءِ إلىٰ دَعْوَتِهِ حِجَاباً فهٰذا شأنُهم بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبّهِمْ، وليسَ هُوَ مَسؤولاً عَنْ رَفْضِهم الاستِجابَةَ لدَعْوَتِهِ، وما عليه إلّا أن يَدَعَهُمْ ومَا اخْتَارُوا لأنفسهم، ويَدَعَ الْحُكْمَ بشَأْنِهم لله عزَّ وجلّ.

الأمر الرابع: بيانُ أنّ الَّذِينَ كَفَرُوا إصْراراً وعِناداً، إذْ عطَّلوا أسماعَهُمْ وأبْصَارَهُمْ وَعُقُولَهُمْ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقِّ، وعَنِ النَّظَرِ إِلَى المُسْتَقْبَلِ الْبَعِيدِ، بِسَبَبِ كَوْنِهمْ عَبِيدَ أَهْوَائِهم المرتَبِطَةِ بِزِينَةِ الحَيَاةِ الدُّنيا، قد نَزَلُوا عَنْ إنْسَانِيَّتِهم الّتي خُلِقَتْ في أحْسَنِ تَقْوِيم، إِلَى مُسْتَوىٰ الْمَخْلُوقَاتِ الّتِي لا تَعْرِفُ غَيْرَ شَهَوَاتِهَا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمطَالِب غَرَائِزِهَا.

إذَنْ: فَهُمْ كالأنْعَامِ أكْلاً وشُرْباً وَمَناماً وسِفَاداً وَنَحْوَ ذلك، وليس لهم هَمٌّ إلّا اتّخاذ الوَسَائِلِ لتَحْقِيقِ أَكْبَرَ اسْتِمْتَاعٍ بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

هذا بالنظر إلى التَّصَرُّفَاتِ المشهودَةِ بالْحَواسِ الظاهِرَةِ، أمّا في الحَقِيقَةِ فهم أضَلُّ سَبِيلاً مِنَ الأنْعَام، لأنّ الأنْعَامَ تَتَصَرَّفُ بِغَرَائِزِهَا عَلَى وِفْقِ الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْهَا، إذْ لَمْ يَهَبْهَا اللَّهُ قُدْرَاتِ التَّفْكِيرِ الْعُلْيَا، ولَمْ يَفْتَحْ لَهَا نَوافِذَ الْمَعْرِفَةِ، ولَمْ يُسَخِّرْ لَهَا طَاقَاتِ الكَوْنِ الكُبْرىٰ مِنْ حَوْلِهَا.

بخِلاف الإنسان، فقد وَهَبَهُ الله كلَّ ذَلِكَ، فَمَنْ عَطَّلَ مِنَ النَّاسِ مَا

وَهَبَهُ الله، فَلَمْ يَسْتَخْدِمْهُ فيمَا خُلِق من أجْله، فهو حتماً أضلّ سبيلاً من الأنْعَام.

هذه المفاهيم يستطيع المتدبّر بأناة أَنْ يَسْتَنْبِطها من هاتين الآيتين (٤٣) و(٤٤) من السورة، فإلىٰ التدبُّر التحليليّ لما جاء فيهما:

التدبر التحليلي:

﴿أَرَءَيْتَ﴾ الخطابُ للرَّسُولِ ولكُلّ دَاعٍ إلىٰ دِينِ الله مِنْ بَعْدِه، وفي هذه الجملة استفهامٌ عن حصول الرؤية القلبيّة العلميّة، والفِعْلُ علىٰ هذا من أفعال القلوب التي تِنْصِبُ مفعولين، والمعنى: «أظنَنْتَ».

﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: أي: مَنْ جَعَلَ مَعْبُودَهُ الذي يُوَجِّهُ لَهُ الطاعَةَ والانْقِيَادَ فِي أُمُورِهِ كُلِّها هَوَاه.

﴿ٱتَّخَذَ﴾: بمعنى «جعل» يَنْصِبُ مفعولين، والمفعولان هنا أصلهما مبتدأ وخبر كما يلي: «مَعْبُودُهُ هَوَاهُ» وكلٌّ منهما معرفة صالح لأن يكون هو المبتدأ.

أمّا أيُّهما أحقّ بأن يكونَ هُوَ المبتدأ فهذا يرجع إلى تحديد الأكْثَرِ منهما معرفةً بالنسبة إلى المتحدَّث عنه، فإنْ كانَ الأكثرُ مَعْرفة هو المعبودُ كانَ هو الأحقّ بالابتداء به، وكان هو الأحق بالتقديم، وإنْ كان الأكْثَرُ مَعْرِفَةً هو هواه كانَ هُو المُبْتدأ وكان هو الأحقّ بالتّقديم.

فإذا نظرنا إلى المشرك وجدنا مَعْبُودَه (= إلٰهه) هو الأكثر معرفة، ووجَدْنا «هَوَاهُ» الأمْرَ الخفيَّ هو المطلوبُ التعرّف عليه بأنّه المعبود.

وعلى هذا فالتعبيرُ قد جاء موافقاً تماماً للترتيب المنطقي الذي يُقَرِّرُه علماء المعاني حينما يكون المبتدأُ والخَبَرُ مَعْرِفَتَيْنِ، فلَا دَاعِي أصْلاً لما ذكره بعض المفسّرين من الْقَلْبِ في اللَّفْظِ، على اعتبار أنَّ أصل الكلام

اتَّخَذَ هَوَاهُ إِلٰهه، ولَا لِمَا جَاءَ عَلَىٰ هٰذَا الرَّأْيِ من تعقيبات، فالتعبيرُ الْقُرْآني هُوَ الذي ينبغي أَنْ يكون عليه البيان.

﴿مَنِ﴾: مفعول به أوّل لـ﴿رَأَيْتَ﴾، أمّا المفعول الثاني فمحذوف تُفَسِّرُه جملة: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؟! والتقدير: أَظَنَنْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ واحداً ممَّن أَنتَ عَلَيْهِ وكيلٌ من الْقَاصِرِينَ فَأَنْتَ مسْؤُولٌ عَنْ حِمَايَتِهِ وكلّ أموره؟

الواقع بخلاف ذلك، إنّه هُوَ المسْؤُول عنْ نَفْسِه مسؤوليّةً تامّة، وما عَلَيْكَ إِلَّا تَبْلِيغُه وتعليمُه واتّخاذُ الوسائلِ الإقناعيّة الكافية معه، سواءٌ استجاب أَمْ لَمْ يَسْتَجِبْ.

هذه هي حدود مسؤوليَّتك تُجَاهه.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؟!: أي: أفأنت تكُونُ بعد أنْ عرَفْتَ حُدُودَ مسؤُولِيَّتِكَ تُجَاهَهُ وَكِيلاً عَلَيْهِ مَسْؤُولاً عَنْ ضَلالِه، حَتَّىٰ تَشْعُرَ فِي نَفْسِكَ بِآلَامِ عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِ لِدَعْوَتِكَ وَمَا تَبْذُلُهُ مِنْ أَجْلِ هِدَايَتِهِ، كَمَا يَشْعُر المقصِّر في تَأْدِيَةِ وَظِيفَتِهِ تُجَاهَ مَنْ هُوَ وَكِيلٌ عَلَيْهِ مِنَ الْقَاصِرين؟!

والمعنىٰ: لسْتَ وَكِيلاً عَلَيْهِ، فالاستفهامُ للإعلامِ بأنّ الرّسُولَ ليس وكيلاً على قَوْمِه الّذين يَدْعُوهُمْ إلى دِينِ رَبّه.

إنّه متى بَلَّغَهُمْ ونَصَحُهُمْ وَأَرْشَدَهم، واتَّخَذَ الْوَسَائِلَ الكَافِيَةِ لإِقْنَاعِهِمْ فَقَدْ أَدَّىٰ وَظِيفَتَهُ تُجاهَهُمْ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ تماماً، فلا تَقْصِيرَ من قِبَلِهِ.

إِذَنْ: فَعَلَيْهِ أنْ لَا يَحْزَن ولا يَتَأَلَّمَ من أَجْلِ الَّذين كفروا مُعَانِدِينَ مُصِرِّينَ على اتّباع أهوائِهِمْ، وسُلُوكِ سُبُل الضلالة.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾؟: «أم» هُنَا هي «أم» المنقطعة، وهي بمنزلة «بل» مقرونةَ باسْتِفْهام، أيْ: بَلْ أَتَحْسَبُ؟ والمعنى

مع الجملة السابقة: أَظَنَنْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهه هَواهُ من الذين تدعُوهُم إلى صراط ربّك، بمنزلةِ مَنْ هُوَ تحتَ وِلايةِ وِكَالَتِكَ عَلَيْهِ؟! بَلْ أَتَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَ الَّذِينَ تَدْعُوهُمْ فَلا يَسْتَجيبُونَ يَسْمَعُونَ أو يَعْقلون؟!

إنَّ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهه هواه من الَّذِينَ دَعَوْتَهم لَسْتَ وَكِيلاً عَلَيْهِ، وإنّ أَكْثَرَ الَّذين تَدْعُوهُمْ إلىٰ صِراط ربّك لَا يَسْمَعُونَ بياناتِكَ ولَا آياتِ القرآن، وإِذَا سَمِعُوها بآذانِهم فإنّهم لا يَعْقِلُونَها ولا يُحَاوِلُونَ تفهُّمَهَا وتدبُّرها.

إنَّهُمْ مَعْزُولُونَ عن ذلك بِسَبَبِ أنّهم يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُم، ويُطِيعُونَ مَطَالِبَها طاعةَ الْعَابِدِ لمَعْبُودِهِ، فَقَامَ بِسَبَبِ ذَلِكَ بَيْنَهُمُ وَبَيْنَ الْحَقِّ وصِرَاطِ الله الْمُسْتَقِيمِ حِجَاب، وقَامَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اسْتِمَاعِ بَيَانَاتِ الحَقِّ وَالْهُدى وتعقُّلِها وتفهُّمِها حِجَاب.

فَلَا تَحْزَنْ مِنْ أَجْلِهِمْ، لأَنَّهُمْ يَتَصَرَّفُون بِاخْتِيَارِهم الحرّ.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾: «إنْ» حَرْفُ نَفْيٍ بمعنى «مَا» النافية، أيْ: ما هُمْ إلَّا كَالأنعام. ولدَىٰ النَّظَرِ فِي واقِعِ الأَنْعَام نَجِدُها لَا هَمَّ لَهَا في حَيَواتها إلّا الْبَحْثُ عَنْ تَلْبِيَةِ غَرَائِزِها الْجَسَدِيَّةِ والنفْسِيَّةِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، (طعام ـ شراب ـ منام ـ أمْن ـ سِفاد ـ وربّما حبُّ قيادة واستعلاء ـ وَوَالِدِيَّة ـ واجتماع) ونحو ذلك من مطالب.

ولدى النَّظَرِ أَيْضاً في الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِيَوْمِ الْحِسَابِ نَجِدُهُمْ لا هَمَّ لَهُمْ إلَّا ما يَدْخُلُ فِي دَوَائِرِ هٰذِهِ الأُمُورِ، مَعَ ارْتِقَاءِ الْمُسْتَوَىٰ في دَرَجَاتِ هٰذِهِ الْمَطَالِبِ، وفي السَّعْيِ لتَحْصِيلها، وفي طريقَةِ الاسْتِمْتَاعِ بها، باستِخْدَامِ قُدُرَاتِ الفِكْرِ والْعَمَلِ لَدَيْهِمْ فِي مُخْتَلِفِ تَصرُّفَاتِهم بَحْثاً وتَحْصِيلاً وجمْعاً واسْتِمْتَاعاً، مع زَائِدِ رَغَبَاتِ التَّفَاخُر والتَّنَافس، والتَّقَاتل، وهُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ لا يَخْرُجُون عن دَائِرَةِ البَحْثِ لتحْقِيق مطالب الجَسَدِ والنَّفْسِ من الحَياة الدُّنيا.

وبالمقارنة يظهر أنَّ شأنَهُمْ كشأنِ الأنعام.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وهذا يرجع إلى ملاحظة أمرين:

الأمر الأول: أنّ الأنعامَ لا تَمْلِكُ قُدُرَاتِ الفِكْرِ الَّتِي تَنْقُلُها مِنْ مَطَالِبِ الجَسَدِ والنَّفْسِ الدُّنْيَوِيَّة، إِلَىٰ كَمالاتِ الفِكْرِ، ومَعْرِفَةِ الْغَايَةِ مِنَ الْوُجُودِ فِي هٰذِهِ الْحَيَاة الدُّنْيا، والمسْؤولِيَّةِ الَّتي وَضَعَ الرّبّ الخالِقُ الناسَ فِيها، لِيَمْتَحِنَهُمْ، ثُمَّ لِيُحَاسِبَهم ويُجَازِيَهُم.

لذلِكَ فالأنعامُ مَعْذُورةٌ لأنَّها تَتَصَرَّف ضِمْنَ حُدُودِ غَرَائِزِهَا والفِطْرَةِ الّتي فَطَرَها الله عَلَيْهَا، لا تَتَعَدَّاها.

بخِلافِ الإِنْسَانِ الَّذِي يمْلِكُ تِلْكَ القُدُرَاتِ العَظِيمَةَ، ثُمّ يُعطّلُها عَمّا خُلِقَتْ مِنْ أَجْلِه، ويسْتَخْدِمُها مِنْ أَجْل غَرَائِزِ الجَسَدِ والنَّفْسِ البَهِمِيَّة.

الأمر الثاني: أنّ الإِنْسَانَ يَسْتَخْدِمُ قُدْرَاتِ الفِكْرِ لَدَيْهِ، ومَا سَخَّرَ الله لَهُ فِي الْكَوْنِ، فِي نَشْرِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ، وإِقَامَةِ الحُروب وسَفْكِ الدّماء، وظُلْمِ عبادِ الله، والاستِئْثَارِ بالأَمْوَالِ ولَوْ لَمْ يَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا، وفَرْضِ اسْتِعْلائِهِ وسُلْطَانِهِ فِي الأَرْضِ بالْقُوَّةِ، وارْتِكَابِ شُرُورٍ لا حَدَّ لها.

بخِلافِ الأَنْعَام، فإنّها متَى حقَّقَتْ مَطَالِبها الآنيَّة سَكَنَتْ وهدأَتْ، ولم يكن منها شرٌّ ولا ضُرٌّ ولا فَسَاد.

فثبت أنّ الإنسانَ الكَافِر الّذِي لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الدِّينَ أضَلُّ مِنَ الأَنْعَامِ سَبِيلاً.

❁ ❁ ❁

إجمال معاني هذا الدرس السابع من دروس السورة

في هذا الدرس مُعَالَجَةُ شَكَاوىٰ عبَّر الرَّسُول ﷺ عن بعضها لتعلُّقه بشأن رسالته، وكَتَمَ بَعْضَها لتعلُّقِه بشخْصِهِ وبأشْخَاصِ المؤمنين معه.

(١) يُخبِر الله عزَّ وجلّ أنّ الرسول محمّداً ﷺ نادى ربّه نداء الشّاكِي المسْتَغِيثِ، من أجْلِ رسالته، لَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِه قائلاً.

﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾.

أي: يَا رَبِّ إنّ مَلأ قَوْمِي في مكّة وأتْباعَهُمْ جعَلُوا هٰذا الْقُرْآن الذي تُنزِّله عليَّ مَهْجُوراً، لَا يَتفكَّرُون فيه، ولا يَتَدبّرونه، ولَا يُؤْمِنُونَ بِه، ولا يتَّبِعُونَ مَا جَاءَ فِيه، بعد أن بلّغتُهم ما أنزلْتَ عَليَّ مِنْه، وكرَّرتُ عَلَيْهِمْ تِلَاوَتَه، وأَدْرَكُوا بَعْضَ مَا فِيهِ مِنْ حقٍّ وَخَيْرٍ وَحِكْمَةٍ وإعْجَاز.

والهجرُ إنّما يَكُونُ بالتَّرْكِ والْمُبَاعَدَةِ بَعْدَ اللِّقَاءُ والْمُخَالَطَةِ، فَهُوَ ضدُّ الْوَصْلِ.

وهٰذِهِ الشَّكْوَى تَتَضَمَّنُ السُّؤَال عَمَّا يَفْعَلُ مَعَ قَوْمِهِ لِجَعْلِهِمْ يُخالِطُونَ القرآنَ ويتدبَّرون آيَاته، وتَتَضَمَّن الْخَوْفَ مِنْ كَوْنِهِ قَدْ قصَّر في أَمْرٍ مَا، كَانَ يَجِب عَلْيِهِ أن يَفْعَلَه، حَتَّىٰ لَا يَتَّخِذَ قَوْمُه الْمَعْنِيُّونَ فِي الشّكْوىٰ القرآنَ مَهْجُوراً.

(٢) وكَتَمَ الرَّسُولُ ﷺ فِي نَفْسِهِ أنّ مَنْ عَنَاهُمْ مِنْ قَوْمِهِ قَدْ وَقَفُوا مِنْهُ وممَّنْ آمن به واتَّبعه مَوْقِفَ العِدَاء، والاسْتِعْدَادِ لقَمْعِ الدَّعْوَةِ والدَّاعي إلَيْها، والذين آمنوا بها بالقوّة المسلّحة.

(٣) فبدأ البيان القرآنيُّ بمُعَالَجَةِ مَا كَتَمَهُ الرَّسُولُ وَلَمْ يُفْصِحْ عَنْهُ فِي شَكْوَاهُ.

فأبانَ اللَّهُ عزَّ وجلّ أنَّ هٰذه الظّاهِرَة هِيَ مِنْ سُنَن اللَّهِ التَّكْوِينيَّةِ في الاجتماع البشري، وهِيَ إِحدَىٰ اللَّوازِمِ الطَّبِيعِيَّة لَجَعْلِ النَّاسِ في الحَيَاةِ الدّنْيا مُخَيَّرِينَ، ذوي إراداتٍ حُرَّةٍ، لامْتِحَانِهم فيما يَخْتَارون مِنْ خَيْرٍ أو شرّ، وإحدىٰ اللَّوَازِمِ الطَّبيعيَّةِ لتَسْخِيرِ اللَّهِ الأشْيَاء للنَّاس المُخَيَّرين، حتَّىٰ يَتحقَّقَ امْتِحَانُهُمْ عَلَىٰ الْوَجْهِ الأمْثَلِ.

فَمَنْ اختارَ الإِيمانَ وسُلوكَ صِراطِ اللَّهِ المسْتَقيم أحَبَّ ذَلِكَ، واسْتَخْدَم ما سَخَّر اللَّهُ للنَّاسِ فِي كَوْنِهِ بالجَعْلِ التكْوينيّ العَامّ مِنْ أَسْبابٍ، في نُصْرَةِ الكُفْرِ، ونُصْرَةِ مَا يَقْتَضِيهِ الكُفْر، وفي سُلُوكِ سبُل الضَّلَالة والْغَوَاية، وفي مُعَادَاةِ الرَّسُولِ والمُؤْمِنِينَ، ومُحَارَبَتِهِم لقَمْعِهِمْ، ومُعَادَاةِ كلّ حقٍّ وخيرٍ وهدىً، ممّا يَصْطَدِمُ مَعَ أَهْوَائِهِ، وانْخرَط بِذَلِكَ فِي سَلْكِ الْمُجْرِمِينِ.

فَمِثْلُ ذٰلِكَ الَّذِي وَجَدْتَهُ مِنْ قَوْمِكَ يَا مُحمَّد جَعَلْنَا بِمُقْتَضَىٰ السُّنَنِ التَّكْوِينيَّة لكُلّ نبيٍّ أعْداءً من الْمُجْرِمِينَ، الَّذِينَ تَدْفَعُهُمْ رَغَباتُ أَنْفِسِهم لارتِكاب الآثام الكُبْرىٰ الَّتي تَجْعَل مُرْتَكِبيهَا مِنَ المُجْرِمِين.

وبمَا أنّ هٰذِهِ الظَّاهِرَةَ هِيَ إحْدَىٰ اللَّوازِم التَّكْوِينيّة لِحِكْمَتَي التَّخْيِيرِ والتَّسْخِيرِ، وهُمَا مَوْضُوعَانِ للنَّاسِ جَمِيعاً فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ، لِمَنْ آمَنَ، ولِمَنْ كَفَرَ، فَعَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ وَعَلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْ تَسْتَفِيدُوا مِنْ قَوَانِينِ تَسْخِيرِ المسخَراتِ للنَّاسِ، فتَتَّخِذُوا الوَسَائِلَ والأَسْبَابَ المضادَّةَ لِوَسَائِلِ وأَسْبَابِ أَعْدَائِكُمْ، فَتَدْفَعُوا بِوَسَائِلِكُمْ وأَسْبَابِكُمْ شُرُورَ أَعْدَائِكُمْ عَنْكُمْ، وَتَنْصُرُوا الْحَقَّ والخَيْرَ والهِدَايَةِ، وَتَنْصِرُوا الضُّعَفَاء من المؤمنين.

وإذا قُلْتُمْ: إنَّكُمْ الآنَ في مَوْقِفِ الْمُسْتَضْعَفِ الْمُسْتَذَلّ، ولَا تَجِدُونَ بحَسَبِ اسْتِطَاعَاتِكُمْ الْحَالِيَّةِ مَا يَهْدِيكُمْ إلىٰ السُّبل التي تَسْتَطِيعُونَ عن طريقها إعداد الوسائل والأسباب المضادّة لوسائل وأسباب أعدائكم، فإنّ عليكم أن تَبْدَؤُوا بالْعَمَلِ وتَجْمَعُوا ما يَتَيَسَّرُ لكُمْ وَتَسْتَعِينُوا باللَّهِ، فإذَا وَجَّهْتُمْ أَفْكَارَكُمْ وَطاقَاتِكم لهٰذا الأمر، فإنّ الله سيكُونُ هَادِياً يَهْدِيكم مَعَ كُلّ خُطَوةٍ تَخْطُونَها، حتّى تَصِلُوا إلى إعْدَادِ وَتَهْيِئَةِ الوَسَائِلِ والأَسْبَابِ المكافِئَةِ المضادَّة لوسَائِلِ وأَسْبَابِ أَعْدَائِكُم.

ثُمَّ إذَا اضطرِرتُم لمُواجَهَةِ أعْدَائِكُمْ بقواكم المادّيّة الحَرْبِيَّة، وحقَّقْتُمْ

في أنفُسِكُم مَا يأمُرَكُمْ الله بِهِ لِيُمِدَّكُمْ بِنَصْرٍ مِنْ عنده، فإنَّ الله عزَّ وجلّ سينصركم حتماً.

وكفَى بالله في الحالتين هادياً يهديكم، ونصيراً ينصركم.

كلّ هذه المعاني نستطيع استنباطها من قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

(٤) ويُخبِرُ الله عزَّ وجَلَّ أنّ الرَّسول محمّداً ﷺ شَكَا في ندائه لربّه اعْتِراضَ قَوْمِهِ المعنيّينَ في النّصّ، على تنزيل القرآنِ منجّماً مُفرّقاً، مُطَالِبينَ بأسْلُوبِ التحْضِيضِ أن يُنَزَّلَ جُمْلَةً واحَدةً، وفي هٰذه الشكّوىٰ إشارةٌ ضِمْنيّة إلى أنّهم اتّخذوا تَنْزِيلَهُ مفرّقاً ذريعةً للتشكيك في صحّة رِسَالَتِه، وفِي صدقه فيما يُبلّغ عن ربّه.

فعالَجَ الله عزَّ وجَلّ هٰذهِ الشكّوىٰ بِبَيَانِ ثلاثِ حِكَمٍ اقْتَضَتْ تنزيل القرآن منجّماً مُفَرَّقاً، وهي:

الحكمة الأولى: تَثْبِيتُ فؤاد الرسُول، بمُتابعة تَنَزُّلِ الوحي عليه بما يُثبّتُه من دلَالة آياتٍ قُرْآنيّة، كُلَّمَا تَعرّضَ لأحْداثٍ جِسَامٍ مُزْعِجَةٍ مُقْلِقَةٍ غَيْرِ سَارَّةٍ تأتِيهِ مِنْ قِبَلِ كُفّار قَوْمِهِ.

الحكمة الثانية: التمهُّلُ والتَأنّي في بَيَانِ مَفَاهِيم الدّينِ، وتَعَالِيمِ شَريعَةِ الله ومِنْهَاجِهِ، وفي تَنْويع وَسَائِلِ التَّعْلِيم والتَّرْبِيَةِ، لِبِنَاءِ الْمَعْرِفَةِ، بناءً تَكَامُلِيّاً، واسْتِخْدَامِ عَنَاصِرِ التَّرْبِيَةِ وفْقَ مُقْتَضَيَاتِ الْحِكْمَةِ الارتِقَائِيَّة، بما يتّفقُ وطَبَائِعَ النَّاس.

وفي التَّمهُّلِ والتَّأنّي تَمْكِينٌ لِلْمَعْرِفَة وتحقيقٌ لها وترسيخ.

والتَّمهُّلُ والتأنّي أرْجَىٰ لتأثِيرِ وَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ الارْتِقَائِيَّة.

الحكمة الثالثة: متابعة جَدَلِيَّاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيمَا يُقَدِّمُونَه من أَمْثِلَةٍ يَصْطَنِعُونَهَا بآرائِهِمْ ويَقْتَرِحُونَها، ويرَوْنَ أنَّها هِيَ الصُّوَرُ الأَفْضَلُ، الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا حَالُ الرَّسُولِ، أو حَال الْقُرآن، أَوْ حَالُ أحْكَامِ شَرِيعَةِ الله ومِنْهَاجِهِ.

فبهٰذِهِ المتَابَعةِ يُبَيِّن الله عزَّ وجلّ فِي النصّ اللَّاحِقِ وَجْهَ الحَقِّ، إذا كَانَ مَا قدّمه الكافرون باطلاً، ويُبَيِّنُ تفسيرَ وجه الحكمة من الطريقة الرّبانيّة المختارة، إذا كان ما قدّمه الكافرون إحدى الصُّوَر الممكنة غير المرفوضة عقلاً رفضاً كلّيّاً، إلاَّ أنّ الاختيار الرّبّاني قد كان هو الأفضل والأحسن والأحكم.

كلّ هٰذه المَعَانِي نَسْتَطيع استنباطها من قول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

(٥) وكتَمَ الرَّسُول ﷺ في نفسه ما يُزْعِجه من استِضعافِ قَوْمِه المعنيِّين في النصّ لهُ وللَّذِين آمَنُوا به واتّبَعُوه، واحْتِقَارِهِمْ وازْدِرَائِهِمْ لِقُوَّتِهِمْ، وتَصَوّرِهِمْ أنّ محمّداً لو كان رسولاً لله حقّاً، لأمدّه بالقوة الغالبة، ولاتّخذ له مخارجَ وسُبُلاً تحْمِيهِ وتَحْمِي الذين آمنوا به ممّا يتعرّضونَ لهُ مِنِ اضطهادٍ وإذْلالٍ وتعذيب، أو لَسَلَبَ أعْدَاءَه مِنْ قَوْمِهِ قُوَّتَهم وعِزَّتَهم وسُلْطَانَهُمْ.

فجَاءَ البيانُ القُرْآنِيُّ متضمّناً عِلاجَ هٰذَا الّذِي كَتَمه الرَّسُول في نَفْسِه، وفيه طمأنةُ قَلْبِ الرَّسُول والمؤمنين، وتهديدُ الذين كفروا بالعاقبة الوَخِيمَةِ الْمُعَجّلة في الدُّنيا، كَمَا حَصَل لِفَرْعُونَ وجنوده، ولقَوْمِ نوح وعاد وثمود وأصحاب الرسّ وغيرِهم وقومِ لوط.

وفيه أيضاً بيانُ وَاقع حَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ الدِّين، وَبَيَانُ أنّ الْعَاقِبة الحَسَنة ستَكُونُ للرسُولِ ولِلَّذِين آمَنُوا مَعَهُ في الدُّنيا، حينَ يَنْصُرُهُ الله علَىٰ أعْدَائِهِ، كما نَصَرَ الله رُسُله السَّابِقين.

ولَمْ يَذْكُر الله بالعِبَارةِ الصَّرِيحَةِ مَا يُعِدُّه الْكَافِرُونَ مِنْ وَسَائِلَ لِقَمْعِ الرَّسُولِ والمؤمنين، ليُعَلِّمنا بهذا وُجُوبَ كِتْمَانِ ما نَعْلَمُه من استِعْدَادَاتِ أعْدَائِنَا ضِدَّنَا مع اتّخَاذِ وَسَائِلَ وأَسْبَابِ دَفْعِها والتغلُّب عليها.

كلُّ هذه المعاني نَسْتَطِيعُ اسْتنباطها من قول الله عزَّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

(٦) بَعْدَ ذٰلِكَ ذَكَرَ الله عزَّ وجلّ بالعِبارَةِ الصَّرِيحَةِ ما يُجَاهِر به الَّذِين كَفَروا من اتّخَاذِ الرَّسُول هُزواً، إذْ لَمْ يُؤَيِّدْهُ رَبُّهُ وَلَمْ يَنْصُرْهُ حَتَّىٰ هٰذا التَّارِيخِ، مُتَّخِذِينَ ذٰلِكَ ذَرِيعةً للتَّشْكِيكِ في كَوْنِ محمَّدٍ رَسُولَ رَبّه حقّاً، بِمَعْنَىٰ أنّهُ لَوْ كَانَ رَسُولاً حَقّاً لما تَرَكَهُ رَبُّه هو ومن آمن به في حالَةِ ضَعْفٍ وذِلَّةٍ يَتَحَمَّلُون الاضطهادَ والأذىٰ والتَّعْذِيبَ حتّىٰ هٰذا التَّارِيخِ، مِنْ بَدْءِ الدَّعْوَةِ حَتَّىٰ نُزولِ سُورَةِ (الفرقان).

واسْتَرْجَعَ الذين كفروا في مقالهم قوّة بَيَانِ الرَّسُول، وما كان يقدِّمُهُ لَهُمْ من حجَجٍ وبَرَاهِينَ، حتّىٰ كَادَ أنْ يُضِلَّهُمْ بِها ـ بحَسَبِ زَعْمِهِم ـ وكادَ أنْ يَصْرِفَهُمْ بِهَا عَنْ آلِهَتِهِمْ، لَوْلَا أنْ نفَذُوا ما كَانُوا قَدْ تَوَاصَوْا بِهِ مِن الصَّبْرِ على الاسْتِمْسَاكِ بآلهتهم وعِبادَتِها.

فأبَانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لَهُمْ أنّ مَعْرَكَتَهُمْ ضِدَّ الرَّسُولِ والذين آمنوا لَمْ تَنْتَهِ بَعْدُ، وَأَشَارَ ضِمْناً إلى أنّه تبارَك وتعَالَى يُمْهِلُهُمْ بِحِكْمَتِهِ، لَعلَّهم يُدْركون رُشْدَهم، ويَسْتَغْفِرُونَ ربّهم.

لَكِنَّهُمْ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفرِهُمْ وَوُقُوفِهِمْ مِنَ الرَّسُولِ مَوْقِفَ الْعِدَاء، والاسْتِعْدَادِ لِلْقَمْعِ بِالْقُوَّةِ، فَسَيَنْصُرُ الله رسولَهُ والمؤمنين، وسيُمَكِّنُهم من التغلُّب علىٰ أَعْدَائِهِمْ، وعِنْدَئِذٍ يَعْلَمُ الذين كفروا أنَّهم كانُوا أضلَّ سبيلاً، وأجْهَلَ بالمَصْير الْوَخِيم والْعَاقِبَةِ السَّيِّئَةِ مِنْ كُلّ ضَالّ.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

(٧) وَجَاءَ فِي خَاتِمَةِ هٰذا الدرس من دروس السورة دور معالَجَةِ شَكْوَىٰ الرَّسُولِ مِنْ كَوْنِ قَوْمِهِ اتَّخَذُوا القرآنَ مَهْجُوراً، الدالَّةَ عَلَىٰ حِرْصِ الرسُولِ علىٰ اسْتِجَابَةِ كُلِّ قَوْمِهِ لدَعْوَتِهِ، وَخَوْفِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُقَصِّراً في أمْرٍ يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ يُخْرُجُون من الكُفْرِ الّذِي هُمْ فيهِ، ويَتَحَوّلُون إلىٰ الإِيمانِ واتّباعِ رَسُولِ رَبّهم.

وفي هٰذه المعالَجَةِ أبانَ الله عزَّ وجلّ ما يلي:

أولاً: أنّ العِلّة النفسيَّة لدَىٰ الّذِين كَفَروا أنّهم عَبِيد أهْوائهم.

ثانياً: أنّ الرَّسُولَ لَيْسَ مَسْؤولاً في رِسَالَتِهِ عَنْ تَحْوِيلِهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الله، لأنّه لَيْسَ وَكِيلاً عَلَيْهِمْ، كَوَكَالَةِ الْوَلِي علىٰ قَاصِرِينَ، وإِنَّمَا هُو مبلِّغٌ مُعَلِّم نَاصِحٌ مُرْشِد، يَجْتَهِدُ فِي إقناعِهِمْ بالْحَقّ على مِقْدَارِ الاستطاعة، ثم إنّهم هُمُ المسؤولون مسؤوليَّةً شخصيّة عن اخْتِياراتِهم.

ومثْلُ الرَّسُول في هذا كلّ داعٍ من بَعْدِهِ.

ثالثاً: أنَّ أَكْثَرَ من اتَّخَذَ إلٰهِهِ هَواهُ مُطِيعاً لَهُ فِي أُمُورِهِ ومُتَّبِعاً له، هُمْ محْجُوبُونُ عن استِماعِ بيَانَاتِ الحَقّ والْخَيْرِ والْهِدَايَةِ، وعَنْ إدْرَاكِ الْعِظَاتِ والْعِبَرِ، وعَنِ التَّفَكُّرِ فيها وتَعَقُّلها، وهُمْ أَيضاً لا يَسْتَطِيعُونَ ضَبْطَ نُفُوسِهِمْ عن اتِّبَاعِ أَهْوَائِها، بسَبَبِ أنَّ حَوَّاسَّهُمْ وعُقُولَهُمْ مُسَخَّرة لهٰذه الأهواء.

رابعاً: أنَّ الّذِينَ عَطّلُوا أسْمَاعَهُمْ وأبْصَارَهُمْ وعقولَهم عن إدْرَاكِ الحَقّ، وعن النّظَر إلى الْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيدِ، بِسبَبِ كونِهِمْ عبيد أهْوَائِهم المُرْتَبِطَةِ بزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَدْ نَزَلُوا عَنْ إِنْسَانِيَّتِهِم الّتي خُلِقَتْ فِي أحْسَنِ تَقْوِيمِ، إلَىٰ مُسْتَوىٰ الْمَخْلُوقَاتِ التي لا تَعْرِفُ غَيْر شَهَوَاتِهَا وَمَطَالِب غَرَائِزِها، فَهُمْ كَالأنعامِ ظَاهِراً، وأَضَلُّ مِنَ الأنْعَامِ حَقيقةً، لأنّ الأنْعَامَ تَتَصَرَّفُ بِغَرَائِزِها عَلىٰ وَفْقِ فِطَرِهَا، بخلاف هٰؤلاء الضَّالِّين، فإِنَّ الله قَدْ وَهَبَهُمْ مَا جَعَلَهُمْ بِهِ في أَحْسِنِ تَقْوِيم، فَعَطَّلُوا مَا وَهَبَهُمْ الله، ولَمْ يَسْتَعْمِلوهُ فِيمَا خُلِقَ مِنْ أَجْلِهِ، فَكَانُوا بِذٰلِكَ أضَلّ مِن الأنْعَامِ سَبِيلاً.

كلُّ هٰذه المَعَانِي نَسْتَطِيعَ اسْتِنْبَاطَها مِنْ قَوْلِ الله عزَّ وجلّ:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

وبهذا انتهى تدبر الدرس السابع من دروس السورة على ما فتح الله به وأعَانَ ويَسَّر.



(١٣)
التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دروس السّورة وهو الآيات من (٤٥ ـ ٥٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

القراءات:

(٤٧) و(٤٨) • قرأ قالُونُ، وأبُو عَمْرو، والكِسَائيُّ، وأبُو جَعْفر: [وَهْوَ] بإسكان الهاء. وقرأ باقي القرَّاء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضمّ الهاء.

وهما وجهان عربيّان في النُّطق.

(٤٨) • قرأ ابْنُ كثير: [الرِّيحَ] بالإفراد. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجمع. والقراءتان وجْهَانِ عَرَبيَّان متكافئان، فالقراءة الّتي بالإفراد مقترنة بأداة التعريف الّتي للجنس، فتَشْمَلُ أنواع الرّياح، فتكون قراءة ابْنِ كثير مؤدّية المعنى الَّذي أدّتْهُ قراءة جُمْهور القراء.

أداة التعريف الّتي للجنسِ بقُوَّة جمع المفرد، وهي في الرّياح لعموم أنواع الرّياح[1].

---

(١) كلّ ما جاء في القرآن بالجمع من لفظ: «الرياح» في إحدى القراءات، فقد قُرِئ أيضاً بالإفراد باستثناء قول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠): ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ... ﴿٤٦﴾﴾.

(٤٨) • قرأ عَاصم: ﴿بُشْرًا﴾ وهو مصْدَر بَشَرَهُ، أي: أَخْبَرَهُ بما يُفْرِحه ويَسُرُّه، أو هو مُخَفَّف «بُشُر» جمع «بَشُور» صيغة مبالغة اسم الفاعل «بَاشِر». وهذه القراءة تدلُّ على التبشير بالمطر.

وقرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [نُشُراً] وهو جَمْعُ «نَشُور» مثل: رَسُول ورُسُل، ولفظ: «نَشُور» على وزن «فَعُول» مبالغة اسم الفاعل «ناشر».

وقرأ ابْنُ عَامر: [نُشْراً] وهو جمع «نَشُور» مع تَسْكِين الشّين تخفيفاً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نَشْراً] وهو مصدر فعل «نَشَرَهُ يَنْشُرُهُ» إذا بسَطَهُ ومَدَّه. النَّشْرُ: خلاف الطيّ، وهو الْبَسْطُ والمدّ. والنَّشْرُ والنُّشُور: الإحياء بَعْدَ الموت.

وقراءتا «نُشُراً وَنُشْراً» بمعنى أن الرياح تَنْشُر ما تَحْمِلُه من بخار الماء، والسحاب، واللّقاحات، وذَرَّات الأتْرِبة والرمل، وأوْرَاق الأشجار وغير ذلك.

وفي بعض هذه القراءات تكامل في أداء المعنى المراد، وفي بعضها تكامل في الأداء البياني، وفي بعضها وجوهٌ عربيَّة متكافئة.

(٤٩) • قرأ أبو جَعْفر: [مَيِّتاً] بتَشْدِيد الياء. وقرأ جمهور الْقُرّاء العشرة: ﴿مَيْتًا﴾ بإسكان الياء. والقراءتان وجْهان عربيّان متكافئان.

(٥٠) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [لِيَذْكُرُوا]. وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ بتَشْدِيد الذال والكاف المفتوحتين. وفي هاتين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فبعض الناس يكفي أن يَذْكُرُوا ذِكْراً بحسب العادة، وآخرونَ تستَدْعي أحوالُهُمْ أن يتذكَّرُوا تذكُّراً زائداً بتكلُّف.

تمهيد:

في هذا الدّرس من دروس السورة ما يلي:

(١) عرض طائفة من آيات الله في الكون دليلاً على توحيد الربوبيّة لله عزَّ وجلّ، الذي يلزم عنه عقلاً توحيد الإِلَهيّة له.

ولهذا يتّصل بالعنصر الأول من عناصر موضوع السورة، وهو: (الله عزَّ وجلَّ منزّل القرآن وباعث الرسول محمد ﷺ للعالمين نذيراً). وقد جاء هذا العرض في الآيات (٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩) و(٥٣ ـ ٥٤).

(٢) بيان توزيع الأساليب والحجج وألوان التربية ووجوه العظة المختلفة، فيما أنزل الله عزَّ وجلّ من القرآن قبل إنزال سورة (الفرقان) فلم يكن من أكثر الناس المعنيّين، وهم كُبَراءُ مكَّة وأتباعُهم ومن حَوْلَها ممّن هم قريبون منها، إلّا المبالغة والتشدّد في الكفر، ستراً للحقائق الدّينيّة الرّبّانيّة وأدلّتها، وجُحُوداً لها، ولم يكن منهم إلَّا الإِصْرَارُ علىٰ مُوَاصَلَةِ عبادَتِهم لما اتَّخَذُوا من آلهة لا يُرجىٰ نفعُها ولا يُخشى ضرّها.

وهذا يتصل بالعنصر الثاني من عناصر موضوع السورة، وهو (الفرقان = القرآن) وبالعنصر الرابع من هذه العناصر وهو: (الْمُرْسَلُ إليهم).

وقد جاء هذا البيان في الآية (٥٠) والآية (٥٥).

(٣) بيان أنّ الله عزَّ وجلّ لو شاء لأَرْسَل في كلِّ قريَةٍ رسولاً يبلّغ أهلها رسالات ربه، ويُنْذِرُ من كفر منهم بعقاب الله المعجّل والمؤجّل، ولم يقتصر على رسول واحدٍ للعالمين جميعاً، ليكون خاتم المرسلين. ولكن ما شاء الله ذلك، ونفهم من عدم مشيئته، مع دلائل نصوص أخرى، ومع التأمُّلِ في مجَارِي حِكمتِه، أنّ حكمته سبحانه قضت بعد بعث الرسُل السابقين الأوّلين في الأمم السالفة، أن يختم الرسالات برَسُولٍ خاتم، تكون رسالته عامّةً للنّاس أجمعين.

واقْتَرَنَ بهَذَا الْبَيَانِ إعْلامُ الرَّسُولِ محمّد ﷺ بأمور:

الأول: ألّا يُطِيعَ الكَافِرينَ، فلا يتأثر بمقترحاتهم وما يطرحونه من تشكيكات، قد يرغب معها في الاستِجَابَةِ لبَعْضِ مطالِبِهِمْ، بتَقْدِير أَنَّها قَدْ تَقْطَعُ معَاذِيرَهُمْ، وتَمْنَعُ ورُودَ تَشْكِيكَاتِهم، فالمقترحاتُ والتشكيكات لا تَنْتَهِي احتمالاتها، ولا يصحّ أن تكون مقادير الحكمة الرّبانيّة أُلْعُوبَةً فِي أَيْدِي الْمُعَانِدِين، تتقاذفُها تشهّيَاتُهُمْ، بالنظر إلى أَنَّهُم لا تَنْقُصُهُمْ أدلّة الاقْتِنَاعِ بِالْحَقّ، وإنّما تَنْقُصُهم الإرادَةُ الْعَاقِلَة الحَازِمَةُ لاتّباعه بَعْد وضُوحِ أَدِلَّتِهِ، والتخَلُّصِ مِنْ مُؤَثّرَاتِ الأهْوَاءِ والشَّهَواتِ والتَّقَالِيدِ الْعَمْيَاء.

الثاني: أن يُجَاهِدَ الكَافِرين بالقرآن، أي: بمَفَاهِيمِهِ وحُجَجِه وبرَاهِينِه وبياناته الحقّ، وما فيه من تَرْغِيبٍ وتَرْهِيبٍ ووَسَائِلِ إِقْنَاعٍ وَتَرْبِيَةٍ، ويَتَلَخَّصُ ذَلِكَ بِالْإِقْنَاعِ الفكْرِيّ، وبوَسَائِل التَّرْغِيب والتَّرْهِيبِ والتربية.

الثالث: أنّ رسالَتَهُ رسالَةُ تكْليفٍ بالتَّبلِيغ والإقْناع والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ والتَّرْبِيَةِ، ثُمَّ الإنذار لمَنْ كفَر وعصَىٰ، وليْسَتْ رِسَالَتُهُ رسالةَ تَكْلِيفٍ أَنْ يُحَوِّلَ النَّاسَ مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإِيمَانِ.

إِذَنْ: فما عَلَيْهِ إِلّا أَنْ يكُونَ لمَنْ أَطَاعَ مُبَشِّراً، ولِمَنْ أَبَىٰ نذيراً.

الرابع: أن يُعْلن للجميع أنّه ما يَسْأَلُ النّاسَ أَجْراً علىٰ مَا يُقَدِّم لَهُمْ مِنَ هِدَاية وخير، وما يَبْذُلَ لَهُمْ مِنْ نُصْحٍ ومُجَاهِدَةٍ، تَحتَاجُ مِنْه تحمُّلَ مشقَّاتٍ كَثِيرَاتٍ، لكِنْ مَنْ شَاءَ مِنَ المؤْمِنينَ الّذِينَ اتبعُوه أَنْ يتقرَّبَ إِلَىٰ الله بَشْيءٍ ينالُ بِه عند الله ثواباً مضاعفاً أضعافاً كثيرة، فلَهُ أَنْ يُقَدِّمَ للرّسُولِ شَيْئاً، كالدُّعَاءِ لَهُ، والصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وكَهَدِيَّةٍ خَالصَةٍ لوَجْهِ الله، وكَمَعُونَةٍ فِي أَمْرٍ، ودِفَاعٍ عَنْه أوْ تَضْحِيَةٍ لحِمَايَتِه. فَالْبَاذِلُ لشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ يُتَاجِر مَعَ رَبِّه طَالباً الأَجْرَ الْعَظِيمَ عِنْدَه، ولا يُقَدِّم به أجراً للرسول ﷺ علىٰ رِسَالَتِه، فمَا أَجْرُ الرسُولِ إلّا على ربّه.

الخامس: أن يتوكّلَ في مَسِيرَتِه ذَاتِ الأَعْبَاءِ الشَّاقَّةِ عَلَىٰ الْحَيّ الَّذِي لا يَمُوت.

السادس: أن يُسَبّح بحَمْدِ الله، ليكُونَ لَهُ هٰذا التسبيحُ عِلاجاً لمَا قَدْ يَتَراكَمُ علَىٰ نَفْسِه مِنْ أُمُورٍ غَيْرِ سَارّة يَتَعَرَّضُ لَهَا مِنْ قِبَل كُفّارِ قَوْمِه، وطَاقةً يَسْتَمِدُّ مِنْها مَا يُجَدِّدُ بِه نَشَاطَهُ لِمُواصَلَةِ الاجْتِهَادِ مِنْ آنٍ لآخَر.

السابع: ألّا يَحْمِلَ هَمَّ مَا يُشَاهِد مِنْ ذُنوبِ عِبَادِ اللّهِ الكَثِيرَة، مُوقِناً بأنّ الله خَبِيرٌ بِهِم عَلِيمٌ بأحْوالِهم، وكفَىٰ بالله خَبِيراً بذنوب عباده.

وهذا البيان مع ما اقترن به مِنْ إعْلامٍ للرسول ﷺ يتّصل بالعنصر الثالث من عناصر موضوع السُّورة (الرسول ومهمّات رسالته) وقد جاء هذا البيان مع ما اقترن به في الآيات (٥١ ـ ٥٢) و(٥٦ ـ ٥٧ ـ ٥٨).

وعلَينا أنْ نَفْهَم أنّ هٰذِه الْوَصَايَا السّبَع الَّتِي أَوْصَىٰ الله بها رَسُولَه محمّداً ﷺ، هِيَ وَصَايَا موجّهةٌ لكلّ الدُّعَاة إلىٰ سَبِيل ربّهم من بعده، لأنّ الدّعاة من أتباع الرسول محمد ﷺ هُم المسؤولون في هذه الرّسالة الخاتمة عن تبليغ دين الله للناس أجمعين في كلّ مُدُنِهِم وقُرَاهُمْ وبَوادِيهِمْ، وتَحْمِيلُ الدُّعَاةِ هٰذِهِ المسؤوليّةَ هُو الْبَدِيلُ عَنْ بَعْثِ رسُولٍ نَذِير فِي كلّ قَرْيةٍ.

❀ ❀ ❀

التدبّر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي: أَلَمْ تعْلَمْ نَاظراً إِلَىٰ آثار صُنْع رَبِّكَ الّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شيءٍ. عُدّي فعل ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والمراد منه الرُّؤية العلمية القلبيّة، بحرف الجرّ: ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمينه معنى فِعْلِ «نَظَر» فاجْتَمَعَتْ في اللَّفْظِ دَلَالَتَان: إحداهُمَا بالْفِعْلِ المذْكُور بلفظه، والأُخْرَى عن طَرِيقِ حَرْفِ الْجَرّ

الذي حُذِف فعْلُه وذُكِرَتْ تَعْدِيته، فصَارَ المعنى: أَلَمْ تَعْلَم نَاظراً إِلَىٰ رَبّك، ودلّتْ الْقَرِيْنَة على أنّ الْمُرَاد النظَرُ إِلَىٰ آثارِ صُنْعِ ربِّك.

والمرادُ بالاستفهام الدعوةُ إلىٰ النَّظر فِي هٰذه الظَّاهِرَةِ مِنْ ظَواهر خَلْقِ الله، للتَّوصُّلِ إِلَىٰ الْعِلْم بِأَنَّ اللَّهَ هو الرَّبُ العَليمُ الحكيمُ الّذي أتقَنَ كلَّ شَيْءٍ بإرادَتِه وقُدْرَتِه، وأنّه واحدٌ لا شريكَ لَه في رُبُوبِيَّتِه، ويَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ عَقْلاً أَنَّهُ وَاحِدٌ فِي إِلَهِيَّتِه لَا شَرِيكَ لَه.

والدَّعْوَةُ إِلَىٰ النَّظَر المُوصِل إلى الْعِلْم بأسْلوبِ الاسْتِفْهام دعوةٌ تَقُومُ علَىٰ لَفْتِ النَّظَرِ بِرِفْقٍ شَدِيدٍ، وتَلَطُّفٍ فِي الْعَرْضِ، وهِيَ مِنْ الأَسَالِيبِ الحَكِيمَةِ الَّتِي يَحْسُن أَنْ يَبْتَعِد بِهَا الدَّاعِي عَنْ أُسْلُوبِ الأمْرِ أَوِ النَّهْيِ أو التَّحْضِيضِ، إلّا إذَا اسْتَدْعَىٰ حَالُ المُخَاطَبِ. أو المقصود بالخِطَاب شيئاً مِنْ ذلك.

والاستفهامُ كَثِيراً مَا يَخْرُجُ فِي أَسَالِيبِ الْبُلَغَاءِ عَن طَلَبِ الإفْهَام أَوِ التَّقْرِيرِ بالمسْتَفْهَمِ عَنْهُ إِلَىٰ مَعَانٍ كَثِيرَةٍ، أوْصَلَهَا عُلَمَاءُ الْبَلاغَةِ إِلَى نَحْو اثْنَيْنِ وثَلاثِينَ معنىً، ويُسْتَدَلُّ علَى المعنَى الْمُرَادِ بالقَرائِن.

[كَيْفَ مَدَّ الظِّلّ]: يَأْتِي لفْظُ «كَيْفَ» اسْمَ اسْتِفْهام، وهُو مبنيٌّ علىٰ الْفَتْحِ دواماً، ويَأْتِي عَلَىٰ وُجُوهٍ من الإعْرابِ بحَسَبِ الكَلَامِ، وقَدْ يُجَرَّدُ مِنْ مَعْنَىٰ الاستفهام ويَبْقَىٰ دالًّا علىٰ الكَيْفِيَّة.

والمعنى: أَلَمْ تَعْلَمْ طَائِفةً مِنْ صِفَاتِ رَبِّكَ نَاظِراً إِلَىٰ آثَارِ صُنْعِهِ الْبَدِيعِ الْمُشْتَمِلِ عَلَىٰ كَيْفِيَّةِ مَدِّه الظلّ.

الظلّ: هُوَ مَا يُرَىٰ في المَكَانِ إِذَا قَامَ حَاجِزٌ بَيْنَه وبَيْنَ مَنْبَعِ الضَّوْءِ، مَعَ وصُولِ مِقْدَارٍ مِنَ النُّورِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ بأَشِعَّتِه يَسْمَحُ بِالرُّؤْيَةِ، ولَوْ بِغَبَشٍ وَعَدَمِ وُضُوحٍ تامٍّ لِلْمَرْئِي.

ويكون الظلّ في الصباح بالنسبة إلى الشمس إلى جهة الغرب، فإذا تحوّل مساءً إلى جهة الشرق سُمِّيَ فيئاً، من «فَاءَ» إذا رجع.

أمّا المكان الذي لا تصلُ إليه أضواءٌ مباشرة بأشعتها ولا غير مباشرة فلا يُرىٰ منه شيء، فالذي يعمُّه هو الظّلام، والظُّلْمةُ، ودلت نصوص القرآن على أنّ الظلمات ذوات مستويات بعضها أشدّ من بعض، لاختلاط بعض النور بالظلمة، بنِسبٍ متفاوتة، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾.

وأثْبَتَ القرآن أنّ الظُّلُماتِ تحصُل بجَعْلٍ ربّاني، كما أنّ النور يتمّ بجَعْلِ الله له، ويحْتَمِلُ أنْ يكون الْجَعْلُ للظُّلُماتِ بسَبَبِ التَّفاوُتِ في نِسبِ الظُّلْمة فِيهَا، فَهِيَ تَتَفَاوَتُ بسَبَبِ مَا يَخْتَلِطُ فِيهَا مِنْ نُور، ويكُونُ ذَلِكَ بتَدْبِيرِ اللَّهِ عزَّ وجلّ، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾.

وبالنظر إلى أنّ الظّلّ هو ما يُرَىٰ في المَكَانِ إذا قام حاجزٌ بينه وبين منبع الضّوْءِ مع وصول مقدارٍ من النُّورِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ بأشِعَّتِهِ يسْمَحُ بالرُّؤية في مُسْتَوياتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، فإنّ باستطاعتنا أنْ نَعْتَبِرَ اللَيْلَ الَّذِي يَمْتَدّ علَىٰ الأرْضِ نَوعاً مِنَ الظِّلّ، لأنَّ أشِعَّةَ الشَّمْسِ الضَّارِبَةَ علَىٰ الأفُقِ الْبَعِيدِ تَنْعَكِسُ بمِقْدَارٍ قليلٍ يَسْمَحُ فِي اللَّيْلِ برُؤْيَةٍ مَا مصْحُوبَةٍ بغَبَشٍ، لأنّ نِسْبَةَ الأنْوَارِ المُنْعَكِسَةَ قَلِيلَةٌ، ويَتَزَايَدُ هٰذَا النُّورُ بَعْدَ الْفَجْرِ حَتَّىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فيكُونُ الظِلُّ فِي هٰذِهِ المُدَّةِ علىٰ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ من انكِشَافِ المَرْئِيَّاتِ فِيه، فَإذا أَخَذَتِ الشَّمْسُ تمْتَدُّ إِشْرَاقاً صارَتْ أَمَاكِنُ الظِّلّ أكْثَرَ انْكِشَافاً،

وتَمْشِي الشَّمْسُ بأَشْعَّتِهَا حتَّى يَقِلَّ الظلُّ جِدّاً على سَطْحِ الأَرْضِ المَكْشُوفَةِ وسَطَ النَّهَارِ، ثُمَّ يَفِيءُ الظِّلّ شيئاً فشيئاً إِلَىٰ جِهَةِ الشَّرْقِ حَتَّىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ، ويَحْدث علَىٰ الأرْضِ مِنَ الظِّلّ بُعَيْدَ الْغُرُوبِ نَظِيرَ الَّذِي حَدَثَ فِيها قُبَيْل الشُّروق.

ويُسمِّي العربُ المكانَ الَّذِي تمتدّ إِلَيْهِ أشِعّةُ الشّمْسِ «ضِحّاً» ويُسمُّونَ حَرَارَةَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ حَرُوراً.

ونُطالعُ في الْقُرآنِ حَوْلَ الظُّلُمَاتِ والنّورِ، والظِّلّ والْحَرُورِ، عِدَّة نُصُوصٍ، مِنْهَا ما يلي:

(١) قول الله عزَّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾.

(٢) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

داخرون: جمع «داخرٍ» وهو الذليلُ الصَّاغِر الخَاضِع.

(٣) وقول الله عزَّ جلّ في سورة (النحل) أيضاً:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

وقد وصف الله الجنّة بأنّها ذَاتُ ظلّ دائِمٍ، أي تُرى فيها الأشياء رؤية جميلة، دون إزعاج للأبْصارِ بأشعَّةِ الْمَنابعِ الضَّوْئِيَّةِ الَّتِي تُبْعِدُ عَنْهَا الظُّلْمَةَ فَهِي تَعْكِسُ أنْوارَهَا البارِدَةَ الْهَادِئَةَ عَلَىٰ أَحْسَنِ وَجْهٍ مُرِيحٍ للمَرَاكِزِ الْحِسِّيَّةِ فِي الأحْيَاءِ.

ولمّا كان الظّلُّ فِي الأَرْضِ يَتْبَعُ حَرَكَةَ دَوَرَانِ الأَرْض حَوْلَ نَفْسِهَا باتِّجَاهِ الشَّمْس، كانَ منْ مظَاهِرِه أنَّهُ بَعْدَ غُروبِ الشَّمْسِ يَكُونُ الظّلُّ مُمْتَدّاً شَاملاً، ويشتدُّ قليلاً قليلاً، ثم يَبْدأُ بالْوُضُوحِ بَعْدَ الْفَجْرِ شَيْئاً فشَيئاً، فإذَا أَشْرَقَتِ الشّمْسُ أخذَ الظِّلُّ مَعَ حَرَكَةِ دورَانِ الأرْضِ يَنْقَبِضُ شَيْئاً فشَيئاً، فيَزِيدُ الضِّحُّ ويَقِلُّ الظِّلُّ، وعند وصول الشمسِ إلىٰ وَسَطِ السّمَاءِ تَمَاماً لا يَبْقَىٰ في الأرْضِ إلّا أَقَلُّ الظّلّ، ثُمَّ يَفِيءُ الظِّلّ إلىٰ جِهَةِ الشَّرْقِ شَيئاً فشيئاً، حتَّىٰ يكُونَ عِنْدَ الغُروبِ مُمْتَدّاً شَاملاً.

ونلاحظ أنّ الله عزَّ وجلّ يُخَاطِب بالخِطَابِ الإفْرَادِيّ كُلَّ ذِي فِكْرٍ يَتَفَكّر وكُلَّ ذِي بَصَرٍ يَنْظُر، مِنَ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ لمُشَاهَدَةِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِه فَيقُولُ تَعالَىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: أي: كَيْفَ مَدَّ الظِّلّ عَلَىٰ وَجْهِ الأرض، حتَّىٰ تُرىٰ مَعَهُ الأشياءُ دُونَ انْزِعَاجٍ بأشِعَّةِ الشَّمْسِ الْمُبَاشِرة.

وجاء الاستغناء بعبَارَة: **[مدَّ الظلّ]** عن مقابلها وهي: تَقْلِيصُ الظِّلّ.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾: أي: ولو شَاءَ ربُّكَ لجَعَلَ الظِلَّ ثَابِتاً دَواماً غيْرَ مُتحرِّكٍ، ويكُونُ ذَلِكَ بِجَعْلِ نِظَام الأرْضِ والشَّمْسِ عَلَىٰ وَضْعٍ آخَر يَبْقَىٰ مَعَهُ الظّلُّ علىٰ الأرْضِ دَائِماً سَاكِناً لا يَتَحَرَّكُ.

ولكِنّه سبحانَهُ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ، لأنَّ حِكْمَتَه في نِظَامِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا قَدْ قَضَتْ ذلِكَ، فَجَعَلَتْ حَاجَاتٍ كثيراتٍ للنَّبَاتِ والأحْيَاءِ والأشْيَاءِ مُرْتَبِطَةً بوُصُولِ أشِعَّةِ الشَّمْسِ إلَيْهَا، ضِمْنَ النِّظَامِ الَّذِي وضَعَه لها.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ مدِّ الظّلّ طوالَ ليْلٍ كامل تُشرقُ الشَّمْس، فتدُلُّ على أنَّ الّذي كَانَ عَلَىٰ الأَرْضِ مِن انْكِشَافٍ مُخْتَلِفِ النّسب، منْذُ بدْءِ الْغروبِ حتَّىٰ الشُّروق، إنّمَا كَانَ مِنْ قِبَل أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الّتي تَنْعَكِسُ أضواؤها على الأرض مرْتدّةً مِنْ جِهَاتِ الأفق.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾: أي: ثم قبضنا الظلَّ قبضاً هيّناً ليّناً.

الْقَبْضُ الْيَسِيرُ: حَرَكَةُ ضَمِّ الشَّيْءِ الْمَبْسوطِ، فَيَقِلُّ امْتِدَادُه بذلك شيئاً فشيئاً، حتّى النِّهاية، كقَبْضِ أصَابِعِ الكَفِّ علَىٰ الكَفِّ حتّىٰ النهاية، والمرادُ نَسْخُ أشِعَّةِ الشّمس للظّلّ.

[إلَيْنَا]: أي: إلَىٰ الغيب المحجوب عن أنظار العباد.

ولمّا كَانَ القبْضُ للشّيْءِ يُخْفِيهِ عَنِ الأنْظَارِ، وكانَتْ الشمسُ آيَةً من آياتِ الله الضَّوْئِيّةِ، وكانَتْ هي السّبب النَّاسِخ القابض للظّلِّ والْمُخْفِيَ لَهُ قالَ تَعالَى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا﴾ أي: أخْفَيْنَاهُ إلىٰ جِهَةِ آيَتِنَا الضَّوْئِيَّةِ، الّتِي هي الشَّمْسُ، والشَّيْءُ الَّذِي يَنْعَدِمُ منَ الوُجُودِ يَذْهَبُ إِلَىٰ جِهَةِ بَارِئِه، إذْ هُوَ مَصْدَرُ خَلْقِه.

والصُّورَةُ تُمثِّلُ صُورَةَ أَصَابِع أَشِعَّةِ الشَّمْسِ تَأْتِي مِنْ أَعْلَىٰ الظِلِّ فَتَقْبِضُهُ إِلَىٰ دَاخِلِ رَاحَتِهَا مِنْ أَسْفل فَيَخْتَفِي، وهٰكَذَا بِتَتَابُعِ قَبْضاً يَسِيراً سَهْلاً قَلِيلاً قَلِيلاً، لَا يُدْرَكُ إِلَّا بَعْدَ ذَهابِ الظّلّ وامْتِدَادِ أَشِعَّةِ الشمس.

اليسير: في اللّغة يأْتِي بمَعْنَىٰ الهيِّنِ اللَّين، ويأْتِي بمَعْنَىٰ الْقَلِيل.

والْيُسْر في اللّغة ضِدُّ الْعُسْرِ، والمَادَّةُ فِي اللُّغَةِ تَدُورُ حَوْلَ مَعْنَىٰ اللَّيِّن والانْقِيَادِ والسُّهُولَة.

ومِنَ الظَّاهِرِ الْبدَهِيّ أنّ حَرَكَةَ انْقِبَاضِ الظلّ وامْتِدَادِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ إلَىٰ مواطِنِ انْقِباضِ الظّلّ تَتِمّ بغَايَةِ الْيُسْرِ واللّينِ والسُّهولَةِ، ويأْتِي بالتدرُّجِ قَلِيلاً قليلاً.

وفِي التَّوْجِيه الإفرادِي لِرُؤْيَةِ هٰذِهِ الآيَةِ الرّبّانِيَّةِ والتفكُّرِ فِيها حَثٌّ عَلَىٰ الْبَحْثِ العلْمِيّ فِي النِّظَامِ الكَوْنِيّ الَّذِي نَجَمَتْ عَنه هٰذِهِ الظاهِرَةِ. وهُو

النِّظَامُ الذي تمَّ بمَقْتَضَاه خَلْقُ الشَّمْسِ والأرْضِ، وجَعْلُ الشَّمْسِ جِرْماً حَرَارِيّاً بَاعِثاً للأَشِعَّةِ الضَّوْئِيَّةِ الحارَّةِ، وجَعْلُ الأَرْضِ كَوْكباً بَارِداً فيه كُلُّ مَا يَلْزَمُ لحياةِ الأحْيَاءِ عليها، ولحيَاةِ النَّاسِ طَوال أعْمارِهِم المقدَّرَةِ لامْتِحانِهِم فِي حَيَاتِهِم الأولى حَيَاةِ الابْتِلَاء، ومِنْ ذَلِكَ تَدَاوُل اللّيل والنَّهارِ عَلَيْهَا، وحَرَكَةِ الظّلّ والضّح عَلَيْهَا بانْتِظَامٍ مُتَعَاقِبٍ.

وبالدراسَةِ العلْمِيّة بالوسَائِل الإنْسَانِيّة تَوصّل الباحِثُونَ في الظواهر الكونيّة إلى عجائبَ مذْهلَةٍ معجزةٍ من آياتِ الله في كَونه، حولَ آيَةِ حَرَكَةِ الظِّلِّ والضّحّ عَلَى الأرْضِ، وأنّها مَظْهَر إتْقانٍ عَجِيبٍ لَمْ يَخْتلّ طَوالَ أُلُوفِ الْمَلَايِين مِنَ السِّنين، تمَّ بِه وضْعُ الأَرْضِ في بُعْدٍ معيّنٍ عن الشمس لو كَانَ عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ بُعْداً عن الشمس أو قرباً مِنْهَا لَمَا كَانَتِ الأرْضُ صَالِحةً لِظُهُورِ الْحَيَاةِ عَلَيْهَا، ولَا لِبَقَاءِ الحَياة على سَطْحِها، وتَمّ بِه تَحْرِيكُ الأَرْضِ بحَرَكَتَيْنِ تتحرّكَانِ مَعاً، حَرَكَةٍ حول نَفْسِهَا باتّجاه الشَّمْس، وحَرَكَةٍ أُخرى في مَسِيرِها في الفَلَكِ حوْلَ الشَّمْس، فَيَنْتُج عَن حَرَكَتِهَا حوْلَ نَفْسِهَا حركةً دورانيّةً فِي أربعٍ وعشرين ساعةً اللّيلُ والنهار، وينْتُجُ عن حركتها في مَدَارِها حَوْلَ الشَّمْسِ السنّةُ الشَّمْسيّة بفُصُولِها الأربع.

ولو كانت حركةُ الأرض في دَوَرَانِها حَوْلَ نفسها أبطأَ لطَال كُلٌّ مِنَ اللّيلِ والنهار، أَوْ أَسْرعَ لَقَصُر كلٌّ مِنَ اللّيل والنهار.

وهِي مُحَافِظَةٌ عَلَىٰ نِظَامِهَا دَواماً، لَمْ تَخْرِم مِنْهُ ثَانِيةً وَاحِدَةً طَوَالَ مَلايِينِ السِّنين.

ولوْ كَانَتِ الأَرْضُ ذاتَ مَدارٍ أَقْرَبَ إِلَىٰ الشَّمْسِ لاشْتَدَّتْ حَرَارَتُها وتَبَخّرَتْ مِياهُهَا، أَوْ أَبْعَدَ لاشْتَدَّتْ بُرُودَتُها ولصَارَتْ كُلُّ مِيَاهِهَا جَلِيداً، وتَنْعَدِمُ بذلك الشروطُ الصَّالِحَةُ للْحَيَاة.

وكَلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ علىٰ أَنَّ المُتْقِن المُنَظِّمَ المُهَيْمِنَ علىٰ نِظَام الأَرْضِ والشَّمْسِ خالقٌ ربٌّ واحدٌ لا شريكَ لَه في ربوبيّته.

فمَنْ وصَل إلىٰ إدْراك هٰذِه الحَقِيقةِ، وإلىٰ الْإيمانِ بها لَزِمَهُ عقلاً أَنْ يُؤْمِنَ بأنّه لَا يَسْتَحِقّ الْعِبَادة في الوجُودِ سِوَاهُ، فَلا شَرِيكَ لَهُ فِي إلَهِيّتِه، إذَنْ: فَيَجِبُ أَنْ يَعْبُده العِبادُ وَحْدَه لَا يُشْرِكُون بعبادِته أحداً.

❁ ❁ ❁

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ﴾: هذا الضّمير يعود على لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ في الآية السابقة.

﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾: سبقَ بيان معنَىٰ «الْجَعْل» في تحليل الآية (١٠).

﴿ٱلَّيْلَ﴾: اسم للزمن الكائن بين غُروبِ الشمس وطُلوع الفجر الصَّادق، في دَلَالاتِ النُّصُوصِ الدّينيَّة. وربّما اعْتَبَره العَرَبُ مُمْتَدّاً حتَّىٰ الإسْفَار الَّذِي يكُونُ قبل شُروق الشَّمْسِ بظُهُورِ قُرْصِها، لأنّ الظلمة عند الفجر وبعده بقليل تشبه الظلمة التي تكون بَعْدَ الْغُروبِ حتَّىٰ قُرْبِ مَغِيب الشَّفَقِ الأَحْمر.

﴿لِبَاسًا﴾: أي: كالِلّبَاسِ لأنَّهُ يُجَلّل الأشْيَاءَ ويَسْتُرها بِمَا فِيهِ مِنْ ظُلْمَةٍ، فَهُو كاللّبَاسِ الَّذِي يسْترُ منَ الأشياءِ الَّتِي يكونُ عَلَيْهَا بمِقْدارِ كَثَافَتِه الحَاجِبَة.

وقول الله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ هُو مِنْ قِبَيل التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ، لأَنَّهُ تَشْبِيهِ حذفت منه أداة التشبيه.

﴿وَٱلنَّوْمَ﴾: **النَّوْم**: حَاجَةٌ متكرِّرَة مَعْرُوفَةٌ مِنْ حَاجَاتِ الأحياء، وهُو فِي حَقِيقَتِه وَفَاةٌ صُغْرىٰ للنُّفوسِ، فَفِيه يَتَوَقَّفُ الحِسُّ الظاهر عن العمل، فيكون النائم كالميّت الذي لا يَسْتَجِيبُ لِشَيْءٍ ممَّا حَوْلَه.

وقد أبان الله عزَّ وجلّ أنّ النَّوْمَ جُزْءٌ مِنْ وفَاةِ الأَنْفُس، وأنّه وَفَاةٌ دُونَ وَفَاة الْمَوْتِ، إذْ تَعُود الأَنْفُسُ إلىٰ الْحَيَاةِ الْجَسَدِيَّةِ عِنْدَ الْيَقَظَةِ، وأمَّا الْمَوْتُ فَهُوَ وَفَاةٌ تَامَّةٌ للأَنْفُسِ، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ومن عَجِيبِ ظَاهِرَةِ النَّوْمِ أنّه عَرَضٌ يتمُّ في الإنسان عَنْ غَيْرِ طَرِيقِ سُلْطَانِ إرادَتِهِ، فهو لا يَمْلِك بإرادَتِه السيطرةَ علىٰ النَّوْمِ، وقَدْ يَتمنَّاه مُحْتَاجاً له فلَا يَسْتَطِيعُه، وقدْ يَشْتَهِي السَّهَر فَيَغْلِبُه سُلْطَانَ النَّوْم.

وقد اتّضَح للباحِثين من علماءِ الطَّبِيعة أنّ حَاجَةَ الإنْسان إلى النَّوْم مِثْلُ حاجته إلى الطعام والشَرابَ، ورُبّما تكونُ أشد.

ومن آيات الله التي اكتشفها العلماء الطبيعيّون في ظاهرة النوم، أنّ مَلايِينَ الخلايا في الْمُخّ تَنْفَصِلُ عَنْ مُقَابِلَاتِها حالَةَ النَّوْم، وَتَتّصِل فتتماسّ ببَعْضِها حالة اليقظة، فالحَادِثَةُ شَبيهَةٌ بِفَصْلِ مجمَّعٍ كَهْرَبَائِيّ ذِي أسْلَاكِ اتِّصَالٍ تُعَدُّ بالْمَلَايِين، وكُلٌّ مِنْهَا يُؤدّي وظيفةً خاصّةً تَتَّصِل بنَاحِيَةٍ مِنْ أنْحَاءِ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَة.

والأَحْيَاءُ الّتي جعل الله عزّ وجلّ من نظام حياتها أنَّها بحاجة إلى النَّوْم، يَدْفَعُنَا واقِعُ حالها إلى السؤال عَمَّنْ يُدَبِّر أمُورَ حياتها وهي نائمة؟!

إنّ منطق حقَائقِ هٰذا الكون يهدينا إلى ضَرُورَةِ وُجُودِ مَوْجُودٍ عظيم حيّ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ، وهُوَ ما بيَّنَه الله عزَّ وجلّ بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ... ﴿٢٥٥﴾﴾.

فالله عزَّ وجلّ يدبّرُ الأمْر كُلَّه بقيُّوميّته، ويحْفَظُ خَلائِقَه وَمَقَادِيرَ كُلِّ شَيْء فِي الكَوْنِ بِعِلْمه وقُدْرَتِه وحِكْمَته.

﴿سُبَاتًا﴾: السُّبَاتُ أصْلُهُ الرَّاحَة والسُّكُوْنَ، قَالَ الزجَّاجُ: السُّباتُ: أن ينقطع (أي: الْحَيُّ) عن الْحَرَكَةِ والرُّوحُ في بَدَنِه، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ أي: وجعلنا نومَكُمْ رَاحَةً لكم.

تقول لغة: سَبَتَ يَسْبُت، إذَا نَامَ لِيَنَالَ مَا يَحتَاجُهُ مِنَ الرَّاحَةِ.

أقول: النَّومُ نعْمةٌ من نعم الله، يكتسب به المخلوق الحيَّ راحَةَ جِسْمِهِ من متَاعِبِ الحَرَكَةِ والْعَمَلِ والْيَقَظَةِ الطَّويلَةِ، وَمَا يَتَرَسَّبُ بسَببها فِي الْجِسْم مِنْ عَنَاصِر كِيمِيَائِيَّةٍ ضَارّةٍ في مَواطِنَ النَّشَاطِ والحَرَكَةِ فِي الْعَضَلَاتِ أَوْ عَلَىٰ الأَعْصَاب.

وقد أثبت علماء الأحياء أنّ اسْتِرْخاء الجسم في حالة النّوْم يساعِد علىٰ تَنْظِيم الدَّوْرَةِ الدمويّة، ومَدِّهَا بالنَّشَاط الْجَدِيد، لِيُسَاعِدَ ذَلِكَ علىٰ طَرْد مَا عَلِقَ في أَنْحَاءِ الجِسْم من موادّ ضارَّةٍ، كانَ الْإِجْهَادُ أو اليَقَظَةُ الطَّوِيلَةُ السَّبَبَ فِي عُلُوقِهَا وَتَرَسُّبِها.

لذلك امتنّ الله علينا بأنّه جعلَ لنَا النَّوْمَ سُباتاً.

وقال الله عزَّ وجلّ أيضاً في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾: النُّشورُ الحياةُ بعْدَ المَوْتِ، ولمَّا كانَ النّومُ مثل المَوْتِ كانَ الَّذي يَصْحُو من نَوْمه مثْلَ الَّذِي يَحْيَىٰ بَعْدَ مَوْتِه.

ويَأتي النُّشور بمعنى التفرُّق.

ومما رُوي عن النبي ﷺ أنه كان من دعائه إذا أفاقَ مِنْ نَوْمِهِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَاً بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُور».

فالمعنى: وجعل النّهار وقتاً مُنَاسِباً لَيَنْتَشِرَ النَّاسُ فِيهِ من نوْمهم، وليَتَفَرَّقُوا فيه يَبْتَغونَ بأعْمَالِهِمْ فَضْلَ اللَّهِ، من أُمورِ دُنْياهم وأُخراهم.

قول الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿أَرۡسَلَ﴾: بالْفِعْلِ المَاضِي لبيَانِ ما سَبقَ أنْ حَدَثَ، وَجاء في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ ... ﴿٥٧﴾﴾.

بالفعل المضارع لبيان ما يحدث بتجدّد في ظاهرات تصاريف الله في كونه.

والإرسالُ فيه معنى البَعْثِ لمُهمَّةٍ، وقد جَاء التّعْبيرُ بالإرسال ليدُلَّ على أنّ بعْثَ الرِّيَاحِ مَقْصُودٌ به تَبْلِيغُ رِسَالةٍ من الله بمَقْدَمِ غَيْثٍ هُوَ مِنْ عَطاءِ رَحْمَتِه، مَعَ قِيامِهَا بوَظَائِفِهَا الْمَادِّيَّة.

﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾: إحْدَىٰ آياتِ اللَّهِ في كَوْنِه، وهي آيةٌ عَجِيبَةٌ ذَاتَ أَحْدَاثٍ كُبْرَىٰ في الكَوْنِ، فَمِنْهَا ما يأْتِي بالنَّفْعِ الْعَظِيم، ومِنْهَا مَا يأْتِي بالتَّدْمِيرِ والعَذَابِ الأليم.

وقد ذكر الله عزّ وجلّ في كتابه آية الرِّياح في نصوص كثيرة سبق أن أفردت لها ملحقاً خاصًّا، تابعاً لتدبُّر سورة (المرسلات).

﴿بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾: أي: إعلاماً ساراً بمقْدَم غَيْثٍ تَسُوقُهُ أوامر اللَّهِ الّتي هي من آثار رحْمَتِه جلَّ جلالُه.

وعلى قِرَاءَات: [نُشراً ونُشْراً وَنَشْراً] فالمعنى: أرسل الرياح ناشِرَةً ما

يَدُلُّ ذوي الحسّ والفكر، على أنَّ الغيْث من رحمة اللَّهِ قادِمٌ بَعْدَ هُبُوبها، وهٰذا من عنايَةِ الله بعباده.

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: أي: سابقاً ومتقدّماً ما ستأتي به رحْمَةُ الله بعباده، من غيثٍ أو غيره، ممّا جعل الله عزّ وجلّ الرّياح سبباً فيه، كَحَمْلِ غُبَار اللِّقَاحِ من ذُكور النباتات إلى إناثها، لإنضاج الثمار.

ومن الملاحظ أنّه يُرادُ بإطْلاقِ عبارة: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ وأشباهها في القرآن مَا أتَىٰ سابقاً، فكُلُّ مَا بَيْنَ يَدَي الإنْسَانِ أو الشيءِ، هُوَ ما كان سابقاً له فيما مضىٰ، بالنِّسْبَةِ إلى القضايَا الزمنية، أمّا ما هو خَلْفَ الإنسان أو الشيء في الزمنيات فَهُوَ المستقبل وكُلُّ ما فيه.

وقد وَرَدَ في القرآن المجيد استعمال مثل: [مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ ـ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ـ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ ـ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ ـ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ـ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ].

ومن استقراء وسَبْر معاني هٰذِهِ العبارات القرآنيّة ونظائرها، وتتبّع دَلَالاتها، ظهر لي أنَّ مَا بَيْنَ يَدَي المتحدَّثِ عَنْهُ، أو المتحدَّث له، وأنَّ ما خَلْفَهُ على وجهين:

الْوَجْهُ الأول: أن يكون زمانيًّا.

الوجْهُ الثاني: أن يكون مكانيًّا.

(١) فإذَا كانَ زمانيًّا، فما بين يدي المخلوق المخاطب بالكلام هو الماضي، لأنَّه هو المرئيُّ الذي سبَقَ أن كان مشهوداً له، أو لمثله، فهو الذي بيْنَ يَدَيْهِ، نظراً إلَىٰ أنَّ مركبة حياته في زمانه تسير به وظَهْرُهُ إلى مقدمتها، إذا المستقْبَلُ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إليه، ووجْهُه وصَدْرُهُ وبَصَرُهُ وكُلُّ حوَاسِه متوجِّهَةٌ لمؤخّرَتِها، يَرَىٰ ويُدْرِكُ ما تَسْتَطِيعُ حواسُّهُ أن تُدْرِكَهُ، ممّا

حَصَلَ ووقَعَ ومضَىٰ، بدْءاً من لحظَةِ الحاضِر فَما كان قَبْلَها، وآخِرُهَا في الترتيب الزمَنِيّ لحْظَةُ الحاضِر.

أمَّا ما سَيأتي فهو مجهولٌ وغيب.

وبناءً على هذا الْفَهْمِ يكونُ مَا خَلْفَهُ هو المستقبل بالنسْبَةِ إليه، وبمقْتَضىٰ هذا التحليل الكاشف للحق والواقع نَسْتَطِيعُ أن نفهم كُلَّ الاسْتِعْمَالات القرآنية التي يَكُونُ فيها ما بين يَدَي المخلوق وما خَلْفَهُ أمراً زمانيًّا، ومنْهَا عبارة: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ في النّصّ الذي نتدَبَّرُه، أي: قَبْلَ زمان نزول آثار رحمته، جلَّ جلالُه وَعظُمَ سُلْطانُه.

(٢) وإذا كان مكانيًّا، فما بين يدي المخلوق المخاطب بالكلام هو ما يقع إلى جهة وجْهِهِ وصَدْره، وما خلفه هو ما يقع إلى جهة ظهره.

ومن التوسّع في دلالة هذا الاستعمال اعتبار المرئي والمدرك هو من الذي بين يدي المخاطب مكانيًّا، واعتبار غير المرئي أو ما لا يقع في دائرة المتحدّث عنه، من الأشياء التي هي من خلفه، ولو كان غير المرئي هذا من الأشياء التي تقع مكانيًّا من جهة وجه الرائي وصدره، إذْ هو من خلف مرئيّاته ومدركاته.

وقد تكون المكانيّة مكانيّةً مجازيّةً مجازيّة.

(٣) وَما يصلُح للمكانيّة والزمانيّة معاً يُحْمَلُ عليهما(١).

❁ ❁ ❁

وقد عبّر الله عزَّ وجلّ عن الحالَةِ المقارِنَةِ أو السَّابِقَةِ لنُزُولِ الأمْطَارِ النَّافِعَةِ التي يُكْرِمُ الله بِهَا عِبادَه بأنّها رَحْمَةٌ مِنْه، فقال تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

---

(١) انظر القاعدة (٣٦) من كتاب: «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ» للمؤلف.

ونستَطِيعُ أن نُدْرِكَ أنَّ هٰذه الحَالَةَ الْمُقَارِنَة أو السَّابِقة هِيَ أَمْرُ التَّكْوِينِ بِإنْزَال المَطَر، وأمْرُ التَّكْوِين هذٰا أثَرٌ مِنْ آثَارِ صِفْةِ رَحْمَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ بعَبَادِه، وهٰذِه الصِّفَةُ هِيَ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِه عزَّ وجلّ.

فالتعبيرُ بالرَّحمَةِ هُوَ مِنْ إطْلاقِ اسْمِ السَّبَبِ عَلَىٰ الْمُسَبِّبِ، أو نقول: هو من إطْلَاق الصِّفَة علىٰ بَعْضِ آثارِها وما يَنْجُمُ عَنْها، وهو أمْرُ التكْوِينِ الّذِي تَتِمُّ بِه نعمةٌ مِنْ نِعَمِ الله علَىٰ عِبادِه.

فمَا هُوَ المْظَهرُ المادِّيُّ للأَمْرِ التكْوِينّي الّذي صَدر بمقْتَضَىٰ صِفَةِ الرَّحْمَةِ الّتِي جاءَتْ الرياحُ مُبَشِّرَةً بِه، وناشرةً الرِّسَالة الرّبّانيّة الْمُعْلِمَةَ به؟

لقد جاء الجواب في قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾.

عطفت هذه الجملة بالواو للدلالة على أنّ إنزال الماء من السماء هو شيءٌ آخر غير الذي أُطلِقَ علَيْه لفظ ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ وَهٰذا هو الَّذِي يُنَبِّهُ المتدَبِّرَ على أنَّ المُرادَ بـ ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ هُو أمْرُ التَّكْوِين الَّذِي يكون عَقِبَهُ مُبَاشَرَةً المأْمُورُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

ويُلاحظ أنّه جاء في النصّ التفاتٌ من ضَمِيرِ الْغَائِبِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾، إلىٰ ضَمِيرِ المَتَكلِّم الْعَظِيم في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، والغرضُ، التنويعُ الجَمَالِيُّ فِي الأداء الْبَيَانِيّ، والمواجهةُ بالامتنان على العِبادِ بإنزالِ المَاءِ الطَّهُورِ الَّذِي هُوَ المادّةُ الْعُظْمَىٰ مِنْ مَوَادِّ أرْزَاقِهِمْ الّتِي جعَلَ الله بِها بقاءَ حَياتهم، وربط بها كثيراً من مَنَافِعِهم فِي دُنْيَاهُم.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: من السحاب، فالسّماء في اللّغة هي كلّ ما عَلَا فأظلّ، وقد أثبتت المشاهدة أنّ الأمطارَ تَنْزِلُ من السُّحُب، وهي تتكون في

الغلاف الغازي المحيط بالأرض، نَتِيجَةَ تَبَخُّر المياه على سطحها وَسْوقِ الرِّياحِ لبخار الماء وللسُّحُب.

﴿طَهُورًا﴾: على وزن «فَعُول» إحدى صِيغ المبالغة لاسم الفاعل. واسم الفاعل من «طَهُرَ» يأتي بضيغة «طاهر».

وقد فهم الفقهاء من صيغة «طَهُور» وصفاً للماء، أنّه طاهر بذاته مُطهّرٌ لغيره.

قال الأزهري: الطَّهُور في اللّغة هو الطاهر المطهّر، لأنه لا يكون طَهُوراً إلَّا وهو يُتَطَهَّرُ به، كالْوَضوء هو الماءُ الذي يُتَوَضَّأُ به، والنَّشُوق ما يُستَنْشَقُ به، والْفَطُور ما يُفْطَرُ عليه من شراب و طعام.

وقال ابن الأثير: الطُّهُور بالضمّ التطهُّر، وبالفتح الماء الذي يُتَطهَّرُ به، كالوُضوء، والْوَضوء، والسُّحور والسَّحُور، وسئل رسول الله عن ماء البحر، فقال: «هو الطَّهُورُ ماؤه، الحلّ ميتته» أي: المطهّر، أراد أنه طاهر يُطهّر.

وقد أثبتت الدراسات العلميَّةُ الإِنْسَانِيَّة أنّ أنقى الماء هو الماء المقطّر، بالتبخّر والتقاطر بعد تَصَاعُدِ بُخَارِه، فهو بالتبخر يُصَفَّىٰ من كلّ الشوائب، ومن كلّ ما علق به مِنْ أدْرانٍ وأَوْسَاخٍ وغَيْرِ ذلك.

وقد أبان الله عزَّ وجلَّ أنّ المَاءَ المنزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ له ثلاث منافع:

المنفعة الأولى: أنّه مطهّر للأشياء، وهذه المنفعة جاء بيانها مُدْمَجاً في تسميته بأنّه طَهُور.

المنفعة الثانية: جاء بيانها في قول الله تعالى:

﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

وقد جاء التعبير بصيغة المتكلّم العظيم ﴿لِّنُحْـِۧىَ﴾ إشعاراً بأنّ هذا

الإِحْيَاءَ يدلُّ على عظمة الخالق جلَّ جلاله، والعبارة: بمعنى نُخْرِجُ بالماء نَباتَاتِ الأَرْضِ، بِمَا فِيهَا مِنْ نماءٍ وخُضْرَةٍ واسْتِجَابَاتٍ تَقَعُ فِي دَرَجَةٍ دُنْيا مِنْ دَرَجَاتِ سُلَّم الْحَيَاةِ.

ونلاحظ في القرآن المجيد إطلاقَ الحياةِ والموتِ على أقسامٍ ثلاثة:

القسم الأول: حياةُ الكائنات الحيّة المُتحَرِّكَةِ بالإِرَادَةِ ذات الإِحْسَاسِ بِمَا هُو مَرْغُوبٌ فِيه، وبِمَا هُوَ مَكْرُوهٌ، كالنَّاسِ والأَنْعَامِ والَّطيْرِ وسَائِرِ مَا يَدِبُّ عَلَىٰ الأَرْضِ، حتَّى الميكروبات الدّقيقة والفيْرُوسَات.

فإذا انْفَصَلَتْ أرْواحُها عَنْ أجْسَادِها، فأجْسَادُهَا ونُفُوسُها مَيّتَةٌ.

القسم الثاني: حياةُ الأَرْضِ بالنَّبَاتِ النَّامِي مِنَ الزُّرُوعِ والأشجار، فإذَا خَلَتِ الأرضُ من النّباتِ وصَارَتْ جَرْداءَ لا نَبَاتَ فيها فهي ميّتَة، والمُرادُ بحياة الأرض حياةٌ النَّباتِ فيها.

القسم الثالث: حَيَاةُ القُلُوبِ والنُّفُوسِ بالإيمان بالله وبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ الله، فإذا خَلَتْ مِن الْإِيمَانِ فكَانَتْ كَافِرَةً فَهِي مَيِّتَةٌ، لأنَّها مُنْقَطِعَةُ الصِّلَةِ بواهِبِ الحَيَاةِ لكُلِّ ذِي حَياةٍ.

أمّا الحَياةُ والموتُ فِي عُرْفِ النَّاسِ فَهُمَا مَا يَكُونُ لِلقِسْمِ الأَوَّلُ، وقد يُطْلِقُونَهما علَىٰ حَياةِ الأَرْضِ بالنَّباتِ، وعلَىٰ مَوْتِها بخلوّها منه، وعلى حَياةِ النَّبَاتِ حِينَ يَكُونُ نامياً نضراً، وعلى موته حين يكون يابساً لا نماء فيه ولا نضرة، فيقولون: شجرة حيّة وشجرة ميّتة لا حياة فيها، إذا صارت حطباً لا يخرج منها عرقٌ رطب نامٍ، ولا ورقة نامية رطبة.

أمّا نسبة الحياة والموت إلى النباتات فمن الظاهر أنّه على سبيل الحقيقة لا المجاز، لأنّ مفهوم الحياة والموت في حقيقة التكوين أوسع من تصوّرات الناس لهما.

إنّ الحياة ذات سُلَّم مختلف الدرجات، وهي متفاوتات بعضها أعلى من بعض، ومن مظاهرها النماء والحركة، والإحساس بالمؤثرات، وترتقي حتّى تصل إلى ما نعرفه ونحسّ به من حياتنا.

والعلوم الإنسانية تتوالى اكتِشَافَاتُها التي تَدُلّ على أن لبعض النبَاتَاتِ إحساسَاتٍ تُؤَثّر عليها، وبعضُ هٰذهِ الإحْسَاسَات تَتَجَاوزُ حُدُود الإِحْسَاسَاتِ الكيميائيّة أو الفيزيائيّة، إلى ما يُشْبِه الإِحْسَاسَاتِ النفسيّة.

وفوق كلّ ذي علمٍ علم.

﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: جاء في اللّغة لفظتا «بلد» بالتذكير، و«بلدة» بالتأنيث للدلالة على كلّ موضع أو قطعة أرضٍ ذات حدود ما، سواءٌ أكانت عامرة أم غير عامرة، مسكونةً أمْ غير مسكونة، ويجمع لفظ «بلد» على «بلاد» و«بلدان» وتطلق لفظتا «البلد» و«البلدة» على التراب. ويطلق لفظ «البلدة» على الأرض، تقول العرب: هذه بلدتنا، أي: هذه أرضنا.

ووصفت البلدة ولفظها مؤنث بلفظ «ميْت» ولفظه مذكّر، قال الزجاج: الميْتُ والميِّت بالتخفيف والتشديد والمعنى واحد، ويستوي فيه المذكر والمؤنث.

أقول: لمْ يَأت في القرآن وصف البلدة بالموتِ إلّا بصيغة: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وذلك في ثلاثة نصوص:

(١) في الآية (١١) من سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

(٢) وفي الآية (٤٥) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٣) وفي الآية (١١) من سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول).

وقد يؤنَّث لفظ «مَيّتٍ» مع المؤنث غير لفظ «البلْدة» ومنه قول الله تعالى في سورة (يسٓ/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)﴾.

وقيل: قال: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ولم يَقُلْ ميْتَةً، لأنّ البلدة في معنى البلد.

أقول: ما قاله الزجاج أحسن ممّا ذكره غيره من تأويلات لا داعي لها، فالاستعمال جارٍ في هذا اللفظ على ما يستعمله العرب، والقرآن شاهد عليه.

المنفعة الثالثة: جاء بيانها في قوله تعالى:

﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾.

السّقي والإِسقاء والتَّسْقِيةُ: تقديم الماء أو نحوه لمن يشرَبُه.

يقال لغة: سَقاهُ يَسْقِيه سَقْياً، وأَسْقَاهُ يُسْقِيه إِسْقاءً، وسَقَّاهُ يُسَقِّيه تَسْقِيَةً، وهذه الأفعال تَتعدَّىٰ إلى مفعولين، تقول: سَقَيْتُ وأَسْقَيْتُ وَسَقَّيْتُ الظمآنَ ماءً.

وتقول العرب في الدّعاء: سَقياً لَهُ وَرَعْياً، أيّ: سَقَاهُ اللّٰهُ ورَعَاه.

والضمير الظاهر في [نُسْقِيهِ] يعود على المَاء، وهو أَحَدُ مفعْولَيْ الفِعل، والمفعول به الآخر ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ﴾.

﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾: متعلق بمحذوف حال متقدّم على صَاحِبه، على قاعدة أنّ الوصف إذا تقدّم على الموصوف انقلب حالاً فانتصب.

الأنعام: هي الإبل والبقر والغنم.

الأناسي: جمع «إِنْسِيّ» وهو الواحد من البشر، قال الفرّاء: وإِنْ شئتَ جعلت الواحد «إِنْسَاناً» ثُمَّ جَمَعْتَه «أَنَاسِيّ» أَصْلُه «أَناسِين» قُلبَتِ النُّون يَاءً، كما قلبوا باء أرَانِب ياءً فقالوا: «أَرَانِي» ونُون «سَرَاحِينَ» ياءً فقالوا: «سَراحِيّ».

أقوال: والمادّة تدور حول معنى الأُنْسِ، وهُوَ ضِدُّ الْوَحْشَةِ، يُقَالُ: أَنِسَ واسْتَأْنَسَ وَتَأَنَّسَ.

ويُلاحظُ في البَيانِ ذكْر إحْيَاء الأرْضِ بالنَّباتِ قَبْل ذِكْر الأنْعَام، وذِكْرُ الأَنْعَامِ قَبْلَ ذِكْر الأنَاسِيّ، ولَا يَخْفَىٰ ما في هذا من مُراعاةٍ للتَّرْتِيبِ الطَّبِيعيِّ فِي الواقع وفي الخَلْقِ، فالمَاءُ يُنْبتُ النَّباتَاتِ، والأنعامُ تَأْكُل من النباتَاتِ وتَشْرَبُ مِن الماء، والأَنَاسِيُّ يأْكُلونَ مِن الَّزرْعِ ومنَ الأَنْعام، ويَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبانِ الأنْعَام ويَشْرَبُون مِن المَاء، فجَاء فِي البيَانِ امْتِنَانُ الله علىٰ النّاسِ بالْمَاءِ الذي يُنْبِتُ لَهُمْ بِه النَّباتَ، فيُقِيتُ ويَسْقِي لَهُم الأَنْعامَ، ويُقيتُهم من النباتِ والأَنْعَامِ ويُسقيهم، فمَا جَاء فِي النصّ هو التَّرتيبُ الْمُناسِبُ تماماً.

يضاف إلَىٰ هذا أنَّ مرحَلَة تكْوينِ إنْباتِ النَّباتِ فِي الأرض كانَتْ سَابقَةً لتَكْوينِ الأنعامِ، وأنّ مرحلةَ تكْوينِ الأَنْعَامِ والأحياء الأُخرىٰ كانَتْ سَابقَةً لتَكْوِينِ الإنْسَان، فجاءَ البيانُ مُلائِماً لهذا الواقِعِ أيْضاً.

كثيراً: يُقالُ لُغةً: كَثُر الشَّيءُ يكْثُر كَثْرَةً وكَثَارَةً فَهُو كَثِير، وكثَّر الله الشَّيْءَ جَعَلَهُ كثيراً.

ويلاحَظُ أنَّه جَاءَ وَصْفَ ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ﴾ فِي النّصّ بالمفرَدِ المذَكَّرِ «كَثيراً» فَما السبب؟.

قَالُوا: لفْظُ «كَثير» معْنَاهُ مَعْنَىٰ الْجَمْع، إذِ الكثرةُ المستفادةُ من مادَّةِ الكَلِمَةِ دلَّتْ علىٰ الْمَعْنى الذي يدلُّ عليه الْجَمْع، فأغْنَى الْمُفْردُ فيه عن الْجَمع.

أقول: يُضَافُ إلىٰ هذا ما سبق ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾. [من الآية: ٣٨] من أنّ صِيغَةَ «فَعِيل» ولو كَانَتْ بمَعْنَىٰ «فَاعِل» قَدْ تُعامَلُ مُعَامَلة صيغة «فَعِيلٍ» بمَعْنى «مَفْعُول» فَيَسْتَوى فيها المذكر

والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع، ومنه لفظ: «وَكِيلِ» فَيَجُوز أن يقال: هُمْ وَكِيلٌ، وهما وَكِيلٌ، وهي وكِيلٌ، وهكذا، ولفظ «كَفِيل» ومنه قولهم للجماعة: هم صَدِيقٌ، وهم فَرِيقٌ، ومن نظائره ما يلي:

(١) كلمةُ «ظَهِير» بمعنى معين، ومنه قوله تعالى في سورة: (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول): ﴿... وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾.

فلم يَقُلْ ظُهَراء.

٢ ـ كلمة «رفيق» ومنه قوله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول): ﴿... وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾.

فلم يَقُلْ رُفقاء.

وجاءت في القرآن لفظ «كثير» بالإفراد مع أن الموصوف بها جمع في النصوص التالية:

١ ـ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول): ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ... ۝١٤٦﴾.

٢ ـ وفي سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول): ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً... ۝١﴾.

٣ ـ وفي سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ... ۝٤٣﴾.

فجاء في هذه الآية أيضاً لفظ «قليل» بالإفراد وصفاً لجمع، وهو من هذا الباب.

فتكرار مثل هذا الاستعمال في القرآن يدلُّ على أنّ «فَعِيلاً» بمعنى «فاعل» قد يُعَامل معاملة «فعيل» بمعنى «مفعول»، وأنّ كلا الوجهين فيه جائزان، فيجوز فيه الإفراد مع التذكير، وتجوز فيه المطابقة، ونستغني بهذا عن التأويلات، والله أعلم.



قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾.

﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾: التَّصْرِيفُ هو التنويع والتغييرُ واتّخاذُ مخْتَلِف الوجوه الممكنة للوصُولِ إلى الْغَايَة، أو لِمُعَالَجَةِ الأَمْرِ الَذِي يُرادُ التأْثِير فِيه بأَحْسَنِ الْوَسَائِل والأسْبَابِ، ومنْ أَحْسَنِ الطُّرق، ويُرادُ الاحتيالُ عليه بمُخْتَلِفِ الحِيَلِ، وهٰذا في أَفْعَالِ العباد.

أمّا تَصْرِيفُ الله الرياحَ والْمِيَاهَ ونَحْوَ ذَلَكَ فيَكُونُ بتَغْيِير حركَاتِها لتؤدِّيَ وظَائِفَها في الكَوْنِ علىٰ مُرادِ الله فِي كُلِّ حركَةٍ، وفي كلِّ صُورَةِ تَغْيِير، إذْ إنّ أفعالَ الله منْضَبطَةٌ بحكْمَةٍ لَا تَجْرِيبَ فِيها، وتؤدِّي وظائفها علَىٰ أحْسَن وَجْهٍ. وأكملهُ، ومَا يَبْدو من تنويع الأساليب ولوْ مَعَ مُخَاطَبٍ بِعَيْنِهِ فالغَرَض منه إقامَةُ الحجةِ عَلَيْه.

وأمَّا تَصْرِيفُ الْقُرْآنِ فيكونُ بتَنْوِيعِ أسَاليبِ الحُجَجِ والبَراهِين والإِقْنَاعَاتِ، وبَتنْوِيع أسَاليبِ التَّرْغيب والتَّرْهيب والتَّرْبِيَةِ، بحَسَبِ اختِلَافِ طَبَائِع النَّاس، ومستَوَيَاتِ أسَاليبِ التَّرْغيب والتَّرْهيب والتَّرْبِيَةِ، بحَسَبِ اختِلَافِ طَبَائِع النَّاس، ومستَوَيَاتِ قُدْرَاتِ الْفَهْمِ لدَيْهم، وبحَسَبِ مَا لدَى أصْنافِهم من استِعْدَادَاتِ للاسْتِجَابة، وقدرةٍ على مُخَالفَة الأهْواءِ والشّهواتِ، ومخَالَفةِ المعْتَادِ المألوف من البَاطِل أو الشَّرِّ، أوْ مَا فِيه ضُرٌّ أوْ أذَى.

ويَسْتَوْفِي هذا التصريف كلَّ الاحْتِمالَاتِ الَّتِي يُرجَىٰ نَفْعُها ولَوْ لبَعْضِ الأَفْرادِ أو الجماعَاتِ، لقَطْعِ أعذار المكلَّفِين، حتَّى لا تَكُونَ لهُمْ حُجَّةٌ بين يدَيْ رَبِّهِم.

ولمّا كَانَ النَّاس مخيَّرين في أَصْل تكوينهم لامْتِحانهم فيما يَخْتَارُونَ لأنَفسِهم في الحياة الدنيا من طَاعةٍ أو عصيانٍ لبارئِهم، لم يكُنْ هذا التَّصْريفُ فِي الْقُرآن مؤثّراً فيهم تأثيراً جَبْرِيّاً، ولو أَنَّهُم كَانُوا مَجْبُورِين لكَانُوا جَمِيعاً مُؤْمِنين.

والّذِي يظْهَر لِي من خطوط موضوع سورة (الفرقان) أنّ ضَمِيرَ النَّصْبِ في «صَرَّفْنَاهُ» من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾، يعودُ على القرآن.

وقال تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾، ولم يَقُلْ: لهم، للإشارة إلى اخْتِلَاف طَبَائع الناس، ومستويَاتِ أفكارِهم وأَفْهامِهم واستِعْدَاداتِهم، حتّىٰ تَتَلاءَمَ الأَنْواعُ التَصْرِيفيةُ للقرآن معَ أنواعِ البَشَر فِي طَبائِعهم واخْتِلافِ مُسْتَوياتهم.

والمعنىٰ: أنَّ مَا سَبقَ من تَنْزِيلٍ قرآنيّ قبْلَ إنْزَال سورة (الفرقان) قد صرّف الله فِيه الحُجَجَ والبَراهِينِ والإِقْنَاعَاتِ ووَسَائِلَ الترغيب والترهيب لإِقْنَاعِهم بالحقّ.

﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾: وفي القراءة الأخرى [لِيَذْكُرُوا]، أي: ليضعوا البيانات الربّانية بَعْدَ أن يَتَبلَّغُوها ويَفْهَمُوا دَلالَاتِها في ذَاكِراتهم، فمنهم من يُوَجِّه عِنايةً شديدة ليتَذَكَّرها حتَّىٰ يعْمَل بوصَايَاهَا، ومنْهُمْ من يَذْكُرُها أَحْيَاناً علىٰ مِقْدَار تَقْواه إن كان من أهل الإِيمانِ والتقْوَىٰ، وآخرون يكْفُرون بِها فلا يُدْخِلُونَها في مُسَجِّلَاتِ ذَاكِراتهم ابتداءً، ولو تبلَّغُوهَا وفَهِمُوا دَلاَلَاتِها.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾: المرادُ من أَكْثَرُ النَّاسِ هنا كُفَّارُ مكّة ومن تُأَثّر بِهم، وهم الّذِين اشتَكَىٰ الرسُول ﷺ من اتِّخاذِهم الْقُرآن

مَهْجُوراً، كما جاء في الآية (٣٠) من السُّورة، والمُرَادُ بالناس هم من بلَّغَهُم الرسولُ القرآن يومئذٍ.

كُفُوراً: الكُفُور مصدرٌ بمعنى «الكُفْر» وهو أبلغ من الكُفْر أخذاً من زيادة المبنَىٰ الَّتي تَدُلُّ علىٰ زِيادَةِ المعنى.

والكُفْر: هو سَتْرُ الحَقّ وأدلَّةِ الحَقِّ وبراهِينِه بالْمُغَالَطَاتِ وزَخَارِفِ الأَقْوَالِ، وبالْجُحِودِ والْعِنَادِ وطَرْحِ التَّشْكِيكَاتِ.

وأَصْلُ الكُفْر فِي اللُّغَة هُو بمَعْنَى تَغْطِيَةِ الشَّيْءِ تَغْطِيةً تَسْتَهْلِكُه، يقال: كفَرَ يَكْفُرُ كُفْراً وَكُفُوراً وَكُفْراناً. وكَفَر النِّعْمَةَ وكَفَرَ بِهَا إذا جَحدَهَا وَسَتَرهَا. ويقالُ: كافَرَهُ حَقَّهُ إذا جَحَده.

ويُجْمَعُ «كافر» على «كُفَّار ـ وكَفَرَة ـ وكِفَار» وجَمْعُ كافرةٍ «كَوَافِر».

قال الأخفش: الكُفُور جمع «الكُفْر» مثل بُرْدٍ، وبُرود.

يُخبرُ الله عزَّ وجلّ في قوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ عن الّذِين كَفَرُوا بإصْرَارٍ وعِنادٍ مع أنّهم تلَقَّوا ما جَاء في القرآن من تَصْرِيفِ الأَدِلَّة والبيَانَاتِ والترغيب والتَّرهِيب والعِظَاتِ وضَرْبِ الأمثال قَبْلَ إنزل سورة (الفرقان) ويُبَيِّن أنّ أكْثَرهُمْ أبَىٰ إلّا الإِصْرارَ بِعنادٍ علَىٰ سَتْرِ الحَقِّ وأَدِلَّته، وعَلَىٰ الجُحُودِ ورَفْضِ الإِيْمَانِ والاتِّبَاع.

وقد سبق أنْ أنزل في آخر سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) قوله جلّ جلالُه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾.

أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الْحَدِيثِ، فلَا يُوجَدُ حَدِيثٌ بَيَانِيٌّ بَعْدَه أَكْثَرُ تأثيراً على النفوس حتَّىٰ يُؤْمِنُوا به، إذَا كَان ذَا مَضْمُونٍ حَقٍّ، كالمَضْمُونِ الَّذي تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ آيَاتُ الْقُرْآن.

ونستطيع اكتشافَ تَنْوِيع الأدِلَّةِ والبراهين والإقناعات، وضَربِ

الأَمْثَالِ، واسْتِثَارة مَحَاوِرِ الرَّغب والرَّهَب فِي النفوس، من تدبُّر السُّور الإِحْدَىٰ والأربعين التِّي نزلَتْ قبل سورة (الفرقان) ومن تتبُّع ما جاء فيها، ممّا يتعلَّق بذلك، لكَشْفِ كلِّ خَفَاء، وتَجْلِيه كُلِّ غَامِض، ودَفْع كلِّ شُبْهَة، وبَيَانِ وُجُوهِ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي كُلِّ ما اعترضَ عليه أهْلُ الكُفْرِ، حَوْلَ الرَّسُولِ، والقُرآن، وحَوْلَ الاصْطِفَاء بالنُّبُوَّة والرِّسَالَة، وطَرِيقَةِ إعْلامِ اللَّهِ عِبَادَهُ عَنْ طَرِيقِ رسُلِهِ من الْبَشَر.

❁ ❁ ❁

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١﴾.

إِذَا اسْتَرْجَعْنا مَا سَبَقَ أَنْ تَدبّرناه من هٰذِه السُّورة فإِنَّنا نُلَاحِظُ أَنَّها أشْتَمَلَتْ عَلَىٰ مُعَالَجَةِ طَائفةٍ من أَقْوَالِ كُبراءِ كُفَّار أهلِ مكَّة وأعْمَالِهم وتَحْلِيلِها ومُنَاقَشَتِها، وبَيانِ وجْهِ الحَقّ والحِكْمَةِ الربّانية حَوْلَ الْقَضَايَا الَّتِي أَثَارُوها فِي أَقْوالِهِمْ، ومِنْ هٰذِه الأَقْوَالِ ما صرَّحَتْ بِه السُّورَة، ومِنْهَا مَا لَمْ تُصَرِّحْ بِه. وإنَّمَا فَهِمْنَاه منْ مضْمُون المُعَالَجة، وكذلك بعضُ أعمالِهم جاء التَّعْقِيبُ علَيْهَا دُون التصريح بها، وقد فَهِمْناها من مضْمُون التعقيب، مثل قول الله عزّ وجلَّ فيها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾.

ويدلُّ هنا قول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١﴾ علَىٰ أنّ الذين أصَرُّوا على الكُفْرِ مِن كُبَراءِ أهل مكّة قد اعْتَرَضوا على قضية عموم رسالة الرسول محمَّدٍ ﷺ للعالَمِين جَمِيعاً، الّتِي جاء بيانُها في الآية الأولى من السورة، والّتِي اشْتَمَلَتْ علَىٰ عَنَاصِرِ مَوضُوعِها:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

لكنّ عبارةَ اعْتراضِهم مطويَّةٌ لم تُذكَرْ في السُّورَة، بَيْدَ أنّ الذِّهْنَ اللّمّاحَ يَسْتِدلُّ على الاعْتِراضِ مِنْ إيرَادِ الجَواب.

وفحْوَىٰ الاعْتِراضِ أنّ الَّذِين كَفَرُوا قَالُوا: ما هٰذِه الدَّعْوىٰ العريضة الواسعة التي يدَّعِي فِيها محمّدٌ أنَّه رسُولُ الله للنَّاسِ أجمعين عرَبِهم وعَجَمِهم، وفيهم إمبراطوريّات الرُّوم وفارِس والحَبَشَة، أمَا كانَ يكْفِيه أن يَكُونَ رَسُول الحِجَاز، أو رَسُولَ العَرب؟!.

فقال الله عزَّ وجلّ دُونَ أَنْ يَذْكُرَ اعْتِرَاضهم:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾.

ويَدلّ هذا الْجَوابُ مُقْتَرِناً بإدْراك صِفَات الله الربّ العليم الحكيم علىٰ أنَّ حِكْمَةَ الله قَضَتْ أنْ يَخْتِمَ رِسَالاَتِه للنَّاسِ أجْمَعِينَ بِرِسَالَةٍ خَاتِمَةٍ بَعَثَ بها محمّداً، ولذَلِكَ جَعَلَهُ رَسُولاً نَذِيراً للعالمين.

إنّ إرسالَ رسُولٍ واحدٍ للنَّاسِ أجْمَعِين أحَدُ الاحْتِمالاَتِ الْمُمْكِنَة بالنسبة إلى إرَادَةِ الله وقُدْرَته بوجّهِ عامّ، وهُوَ الاحتمالُ الّذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُه بَعْدَ أنْ بَعَثَ فِي أُممِ الأَرْضِ رسُلاً كَثِيرينَ فِي الْقُرُونِ الخَوالي، ووَصَلَ المجْتَمَعُ البَشَرِيّ إلىٰ مَرْحَلةٍ تَاريخِيَّةٍ تؤهِّلُه لِجَمْعِه على رَسُولٍ واحِدٍ، وكِتَابٍ وَاحِدٍ، برِسَالَةٍ عَامَّةٍ شَامِلَةٍ، مُسْتَوْفِيَةٍ كلَّ العناصِر المطْلُوبَةِ فِي الدّين للنَّاسِ أجمعين.

ولو شَاء الله أن يَبْعَثَ رَسُلاً مُتَعَدِّدين فِي القارَّاتِ لبَعَثَ كمَا حَصَلَ فِيما مضىٰ، حتّى لَوْ شَاء أنْ يَبْعَثَ فِي كُلِّ قريَةٍ رَسُولاً مُبَلّغاً دين الله للناس ودَاعياً إلى سبيل ربّه، ومبشراً ونذيراً، لَفَعَلَ جلَّ جلالَهُ وعظم سلطانه.

لكنّه لم يبعث، لأنه لم يَشَأ، فدلّ هذا الاخْتِيار الرّبّاني علىٰ أنّ مَالَمْ يشَأْهُ سبْحانه قد تركَه لأنَّ ضِدّه الّذِي شَاءَهُ هو الأَحْكَم مِنْ كُلِّ مَا سِواه، والأَكْثَرُ تَأْدِيَةً لأغْرَاضِ امْتِحَانِ الْبَشَرِ، بَعْدَ أنّ وَصَلَ النَّاسُ إلىٰ هٰذِه المرْحَلَةِ التَّارِيخيّة الَّتِي نَمَتْ فِيها الْعَلاَقَاتُ والْمُواصَلاَتُ، وَبَدأَتْ تَتَقَارَبُ

بيْنَهُم المسَافاتُ، وهُمْ جَمِيعاً مِنْ أَصْلٍ واحِدٍ، أَبُوهُمْ آدَم، وأُمُّهم حوَّاء، والأَصْلُ أنَّ يكُونُوا أُمَّةً واحِدةً لَا أُمَماً متَفرِّقَةً، وَإنَّ اخْتلفتْ لُغاتُهم وتَباعَدَتْ مَسَاكِنهم، وقَدْ كَان بَعْثُ رسُلٍ وأَنْبِياء متَعَدِّدين لَهُمْ أَمْراً اقْتَضَتْه ظُروفُ مَراحِلَ تاريخيَّةٍ مضَتْ.

لِكنَّ هٰذِه الظروفَ قد اخْتَلَفَتْ، واقتربَتْ المُجْتَمَعَاتُ البَشَرِيَّةُ من مرحَلَةِ تَشَابُكٍ عَالَمِيٍّ، فاقتضَتْ الحِكمَةُ الرّبّانيّةُ جَمْعَهُمْ عَلَىٰ رِسَالَةٍ وَاحِدَةٍ، ورسولٍ واحدٍ، وكِتَابٍ واحِدٍ، وهذِه الرِّسَالة لِهَا شَرِيعةٌ واحِدةٌ ومِنْهاجٌ واحِدٌ مُرَاعًى فيهما كمالُ الدينِ الّذي اصْطَفَاهُ الله للنَّاسِ أَجْمَعِين.

لقد دلَّتِ الآيَةُ بمَنْطُوقِها ومَفْهُومِها ولَوازِمِها الفِكْرِيَّة علَىٰ كلِّ هٰذَا، وتَنْكَشِفُ لنَا هٰذه المَفاهِيمُ واللّوازِم بالعرض التالي:

قوله الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾، أي: ما شِئْنا فَمَا بَعَثْنَا.

س: لِمَاذا لم تحدُثْ هذه المشيئة؟.

ج: لأنَّ الحِكْمَةَ المُقْتَرِنَةِ بالعِلْمِ المُحِيطِ بكُلِّ شَيْءٍ جَعَلَتِ المشيئَةَ تَخْتَارُ مَا هُو الأَحْكَمُ والأَصْلَح؟

س: ما هو الأَحْكَمْ والأَصْلَحُ؟.

ج: هُوَ إِرْسَالُ رَسُولٍ وَاحِدٍ للنَّاسِ أجمَعِين، خاتم للرسُل، برسَالَةٍ خَاتِمة، بعد أنْ وصَلَتِ البشريّة في تَنامِيها الاجتماعِي، وتَنَامِيها العدَدِي، وتَقَارُبِ الْمَسَافَاتِ بين شُعُوبِها، إلىٰ عَتَبةِ تَشَابُكٍ عالميّ.

وهٰذا هُو الَّذِي تَمَّتْ به المشيئةُ الربَّانيَّة، وتمَّ تنفِيذُه، بإرسالِ مُحَمَّدِ بن عبد الله نَذِيراً للعالمين، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ الفرقان.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ . . . ﴿٥٢﴾﴾.

س: نَتساءَل: مَا هِيَ صِلةُ هٰذا النَّهيِ للرسُولِ بِمَا جاء في السورة؟.

ج: لنُحْسنَ التدبُّرَ لا بُدَّ أن نَسْترجعَ ما جَاء فيها، فلَقَدَ جَاء فِيها عرْضُ بَعْضِ مُقْتَرَحَاتِ الّذِين كَفَرُوا، مُلوِّحِين فِيها بأنّها لَوْ تحقَّقَتْ لآمَنُوا واتّبعُوا الرَّسول، فقالوا في مقترحاتهم:

١ ـ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ.

٢ ـ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ.

٣ ـ أَوْ تَكُونُ لَهُ جنَّةٌ يأكُلُ مِنْها، ونَأْكُلُ مِنْها.

٤ ـ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلةً وَاحِدَةً.

أَمَامَ هٰذِه المقترحَاتِ التي وجّهها الذين كفروا، مع شدّة حرص الرسول ﷺ على إيمان قومه، لإنقاذهم من عذاب الله، فقد يَجِدُ في نفسه رغبةً في تلبية بعض مطالبهم الّتِي اقْترحوها، لعلَّ فريقاً يَجِدُ في تَحْقِيق هٰذِه المطالِبِ مَا يَدْفَعُه إلى تَصْدِيق الرسول والإيمان به وبما جَاء به. وهٰذِه الرغْبَة فِي نفْسِ الرسول قد تحرّكه لسؤال ربّه تَلْبِيَةَ بَعْضِ مطالبهم، وهذا من طاعتهم، إذْ لو فَعَلَ لكَانَ قد أطاعهم فِيمَا اسْتَدْرَجُوه إليه.

لكنَّ حِكْمَةَ الله تقتضي خِلَافَ ذلكَ، ولَا يُحِبُّ الله ردَّ سُؤالِ رَسُولِه المُجْتَبَىٰ فبادر تبارك وتعالى بقوله لرسوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

إن الله عزَّ وجلَّ عَلِيمٌ بمَا فِي قلوب القوم ونفوسهم، من عنادٍ وإصرار على الباطل، وعليمٌ بأنّهم ليسوا بحاجة إلى الاقْتِناع، وإنّما يطْرَحُون مطالبهم ومقترحاتِهم علَىٰ سَبِيل التَّشهِّي والتَّلَاعُبِ بسُنَنِ الله الثَّابِتَة، واخْتِيَارَاتِه الحَكِيمَةِ، وهو سبحانه لا يَجْعَلُ سُنَنَهُ واختياراته أُلْعوبَةً فِي أيدِي المتَلَاعِبين الّذِينَ يطْرَحُونَ تشهيّاتهم على بارئهم.

ففي هذه الجملة المصدّرة بالنهي تنبيهٌ للرسول ﷺ، حَوْلَ مَا يَعْتَلِجُ في صدره من رَغْبةٍ في تَلْبِيَةِ بعْضِ مَطَالِبهم، الأمْر الذي قد يَنْجُم عنْهُ سؤال الرسول ربّه شيئاً من ذلك ، فيتَعَّرضُ لِمْثلِ ما تَعرّضَ لَهُ نوحٌ عليه السلام إذْ سأل ربّه بشأن ابنه الكافر الغريق، وهو ما أبانه الله عزَّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بقوله:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

فبَادَر الله عزَّ وجلّ رسُولَهُ محمّداً بالنَّهْي قَبْلَ حُدُوثِ شَيْءٍ من الْمَنْهِيّ عنه فقال له: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

هذا ما تدلُّ عليه سَوابِقُ هذا النَّهْي فِي السُّورة، مع مُلَاحَظَة مَوْقِفِ الكَافِرِينَ فِي الْمَرْحلَةِ الّتِي وصَلُوا إلَيْها إبَّانَ نُزُولِها، ومُلاحَظَةِ حَالَةِ الرَّسُولِ النَّفْسِيَّةِ تُجَاه مُخْتَلفِ قضَايا رِسَالَتِه، وموقف قومه منها، والله أعلم.

وباستقراء ما نزل من قرآن قبل سورة (الفرقان) نُلاحِظ أنَّ هذا النَّهي هو ثَالِثُ نَهْي للرسول والدُّعاة إلى الإِسلام معه عن طاعة الكافرين:

فالنهي الأول قد جاء في سورة (العلق) أوّل سورة القرآن نزولاً:

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

والنهي الثاني قد جاء في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

❊ ❊ ❊

قول الله عزَّ وجلّ لرسوله:

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على القرآن الذي له فَرعٌ من فُروعِ موضوع السورة الأربعة وممّا ارتبط بهذا الفرع قُبَيْلَ هٰذه الجملة التكليفيّة للرسول قولُه تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

ومِمَّا ارْتَبَطَ به أيضاً قبل ذلك قوله تعالى لرسوله:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

وقد جاءت هذه الآية جواباً على شكوى الرسول لربّه الواردة في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

ولم يقطَعِ الله عزَّ وجلّ الرسول عَنْ قَابليَّةِ بعْضِ الّذين تحدّثَت السّورةُ عنْهم من قومه للاسْتِجابَةِ لدَعْوَتِه، إذْ قال له:

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

وإذْ قَالَ له:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ ... ﴿٤٤﴾﴾.

وذَلِكَ لأنَّه يُوجد في مُقَابل هذا الفريق الأكْثَر فريقٌ من قَوْمِه المتحدَّث عنهم في السُّورةِ لا تَزالُ لديه القابليَّة للاستِجابَةِ، ولم يَصِرْ بَعْدُ مَيْؤُوساً من اسْتِجابته.

وأمامَ هذا الموقفِ لا بدَّ أنْ تكُونَ من الخَواطِر الّتي تتردَّدُ في نَفْسِ

الرسول ﷺ ونفوس أنصاره في الدَّعوة، أن يَتحوَّل عن مُجاهَدةِ الّذِين ما زَالُوا مُصِرِّينَ علَىٰ الكُفْرِ من أهْلِ مكَّة بالقرآن بَعْدَ أنْ اتَّخذُوه مَهْجُوراً، وكان الله قَدْ أنْزَلَ عَلَيْهِ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) قوله:

﴿. . . فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: أمَّا الّذِي لَا يَخَافُ مُطْلَقاً وَعِيد اللَّهِ بالعذابِ فَلا فَائِدَةَ من تذكيره بالقرآن منْ حِينٍ لآخر.

وكانَ قَدْ أَنْزلَ عَلَيه أيضاً مِنْ قَبْلُ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾.

أي: فذكِّرْ إنْ كَانَ لَدَيْكَ رجاءٌ لِأَنْ تَنْفَعَ الذِّكْرىٰ، ولَمْ تَصِلْ إلى مرحلة اليأسِ التّامّ من نَفْعها بالنِّسْبَةِ إلى الفريق أو الْفَرد الّذي تُذَكِّرهُ.

ومَعَ حَالَة الانْزعاجِ من العِنَادِ الشَّديدِ الّذي وصَلَ إلَيْهِ كُفّارُ قَوْمِهِ، فقد يتَبادَرُ إلى ذِهْنُه أنّ مُقَابِلَ «الأكْثر» هُمُ الّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وأمَّا الّذينَ لَمْ يُؤْمِنُوا به حتَّى هٰذا التاريخِ فَهُم الّذِين أيأسَهُ الله مِنْهم، فالتَّوْجيه القُرْآنيُّ يُشْعِرُهُ بأنَّه ينبغي التحوُّلُ عنهم، قاطعاً طمَعَهُ في إصْلَاحِ أيّ فريقٍ مِنْهُم بَعْد هٰذه المرحلة.

ودَفْعاً لِهٰذِهِ الخَوَاطِر، مَعَ الإشَارَةِ إلىٰ أَنَّ بَعْضَهُمْ ما تَزال لَدَيْهِ الْقَابِليّة للاسْتِجابة، ولَكِنّه يَحْتَاجُ إلىٰ جِهاد كَبير بالبَيَانَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الإقْنَاعيَّة والترغيبيّة والترهيبيّة وسائرِ وسَائلِ التربيَةِ الّتي اشْتَمَلَ علَيها القرآن، جاءَ التَّوجِيهُ لمُجَاهَدَتِهم بالقرآن.

إذَنْ: فَالْحِكْمَةُ في الدعوة تَقْتَضي الصَّبْرَ عَلَيْهِم، ومُتَابَعَةَ مُجاهَدَتِهم بالدَّعْوةِ البيانيّة القُرآنيّة، حتَّىٰ دَرَجةِ اليأسِ الشّامل، أو الْقَرِيبِ منه، فقالَ الله عزَّ وجلّ له:

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

ونُلاحظُ هُنَا أنّ الله عزَّ وجلّ وصَفَ الجِهَاد المطلوبَ بالنسبة إلى هذا الْفَريق الذين ما زَالَ رجاءُ اسْتِجَابَتِهم لَمْ يَنْقَطِعْ بكَونِه «كَبيراً» ففِي هَذا تَوجيهٌ لمضاعفة الجَهْد والمُجاهَدة بالنِّسْبةِ إلَيْهم، مراعاةً لأحْوالِهم، فقد سَبقَتْ مُجَاهَدتُهم بالقُرآن، لكنَّهم لم يَصِلُوا بَعْدُ إلى حالَةٍ ميؤوسٍ منها، والحرصُ على إنْقَاذِهم وقَطْعِ كلّ أعذارهم يسْتَدعي توجيهُ مَزيدٍ من مُجَاهَدَتِهم بالْقُرآن، ويكونُ ذلك بالمتابَعةِ والصّبر مَعَ الحِكْمةِ والتعرُّفِ على المَدَاخِلِ المَفْتُوحَةِ إلىٰ نفوسهم، فهٰذِه أمورٌ يُرْجَىٰ معها استِنْقَاذُ بعْضِهم من أوْحَالِ الكُفْر والفُسُوقِ والعِصْيانِ، وضَمُّهُم إلىٰ رَكْبِ الْمُؤْمِنين.

الجهاد، كالمجاهدة: بَذْلُ جَهْدٍ، فيه معنَى المُغالَبة أو المنَافَسةِ لمُعَارِضٍ يشارك ببذل جَهْدٍ مُضَادٍّ لقوّة مُغَالبة أو مُنَافِسة أو مقاومة صادّة.

تقول لغة: جاهَدَ يُجاهد مُجَاهَدةً وجهاداً.

وقد فُهِمَتِ المغالبة أو المنافسة من صِيغَة «فَاعَل» الدالَّة على مَعْنَى المُشَاركة مع الضدِّيّة، أو النِدِّية، فَهِيَ تَكُونُ على سبيلِ المغالَبَةِ، مثل «صَارع وَقاتَل» أو المنافسة، مثل «سَابقَ وواثَبَ» أو مع مطلق المشاركة في العمل، مثل: «آكَلَ وشَارَبَ» أو على سبيل بذلِ الجَهْدِ من جهة، والمُقَاومَةِ له من جهة أخرى، وهذه المقاومة تحتاج إلىٰ مَزيدٍ من بَذْلِ الْجَهْد.

وَوُصِفَ الجهادُ بكونه كبيراً، معَ أنّ الجِهَاد بطبيعَتِه يحْتَاجُ مَزيد قوَّةٍ للمغَالَبة أو المنَافَسةِ أو التأثير ضِدّ المقاوَمَةِ الصّادّة، يُفيد أنّه جِهَادٌ من الدَّرجَةِ القُصوىٰ، التي تكُونُ بَعْدَها عادةً حالَةُ اليأْسِ، إذا لَمْ تَحصُلْ بِهذا الجِهادِ الكَبِير تأثيراتٌ نافعاتٌ.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿مَرَجَ﴾: يأتي فعل «مَرَج» بمعنيين:

١ ـ بمعنىٰ مزَجَ وخلَطَ.

٢ ـ وبمعنى أرْسَلَ.

﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾: أي: حُلوٌ شَدِيدُ الْعُذُوبَةِ مُسْتَطابٌ للشَّارِبِينَ.

﴿مِلْحٌ﴾: أيْ: مَالِحٌ، يقال: مَلُحَ الماءُ يَمْلُحُ مُلوحَةً ومَلَاحةً، فَهُوَ مِلْحٌ، ومَلِيحٌ، ومالِحٌ.

﴿أُجَاجٌ﴾: أي: يَلْذَعُ اللِّسَانَ بمَرَارَتِهِ أو مُلُوحَتِه.

﴿بَرْزَخًا﴾: البَرْزَخُ الحاجزُ، والْفَاصِل الماديُّ أو المعنويُّ بين شَيْئَيْنِ، وقَدْ يكُونُ الحَاجِزُ الماديُّ غَيْرَ مَنْظُور.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: الحِجْرُ: مصدر بمعنى المَنْعِ، من «حَجَرَ يَحْجُرُ حَجْراً، وحُجْراً، وحِجْراً» أي: مَنَعَ.

ويُطلق الحِجْر بمعنى العَقْلِ واللّبّ «= القوة المدْرِكَة الفَاهِمَةِ الوَاعِيَةِ» من إطْلاقِ المَصْدَر بمَعْنَى اسْمِ الفاعل «حَاجِر» لأنّ الْعَقْلَ يمْنَعُ صَاحِبَه من التورّط في المَهَالِك.

وحِجْرُ الإنْسَانِ هُوَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ ثَوْبِه، لأنّ الإنسان يُحِيطُ بِه ويَحْجُرُه.

ويُطْلَقُ «الحِجْر» بمعنى اسم المفعول «مَحْجُور» على كلّ شيءٍ قَدْ حُجِرَ بشَيْءٍ ما، فجُعِلَ مَفْصُولاً عن غَيْرِه، ويَلْزَمُ من ذَلِكَ أن يكُونَ هو

فاصِلاً أيضاً، ومنه سُمِّيَ «حِجْرُ إسْمَاعيل» وهو المكان المفْصُولُ بِجِدارٍ قَصِيرٍ إلى جانِب الكَعْبَة من جِهَةِ الشّمال، وهذا المعْنَى هو المناسب هنا.

أي: وجعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ فاصِلاً يمْنَعُ نُفُوذَ أَحَدِهما إلى الآخر.

﴿مَّحْجُورًا﴾: أي: وهذا الفاصلُ بين الْبَحْرَيْنِ هو أيضاً محجورٌ، بمعنَىٰ أنَّهُ مَمْنُوعٌ، وبالتأمُّلِ نُدْرِكُ أنَّهُ ممنوعٌ من الانْحِلال بهِما أو بأحَدِهما.

ما جاء في القرآن حول آيات الله في البحرين:

وقد جاء حول الموضوع العامّ الذي تحدَّثَتْ هذه الآيَةُ عَنْ جانبٍ منه ثلاثة نصوص أخرى، فهي جميعاً نصوصٌ أَرْبعة.

النصّ الأول منها: آيَةُ «الفرقان» الّتي نتدَبَّرُها.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

النَّصُّ الثالث: قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (النّمل٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

النَّصُّ الرابع: قَوْلُ اللّهِ عزّ وجلَّ في سورة (الرَّحْمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

هٰذه الآياتُ الأرْبَعُ تحدَّثت عمَّا علَيْهِ حَالُ الْبَحْرَيْنِ مَنْ تَفَاضُلٍ قَدْ تَمَّ بِقُدْرَة قادِرٍ عظيم عليم حَكيمٍ ذِي عِنَايَةٍ وَرَحْمَةٍ بِعبادِه.

فَمَا هُما البَحْرَان المشارُ إِلَيْهِما في كلٍّ من هذه الآيات الأربع، وقد جاءا فيها جميعاً مُعَرَّفَيْن؟.

• لكِنْ جاء في آية سورة (الفرقان) وصْفُ أَحَدِهِمَا بأنَّه عذْبٌ فُراتٌ، ووصْفُ الآخَرِ مِنْهما بأَنَّهُ مِلْحٌ أُجَاجٌ.

• وجاء في آية سورة (فاطر) أيضاً وصْفُ أَحَدِهِمَا بأنَّهُ عَذْبٌ فُراتٌ سَائِغٌ شرابُه، ووصْفُ الآخر مِنْهما بأَنَّهُ مِلْحٌ أُجَاجٌ، ووَصْفُهُما معاً بأن الناس يستخرجون من كل منهما لحماً طرياً، وهي الأحياء البحرية في المياه المالحَةِ والمياهِ الحلوة، ويَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُما حِلْيَةً يَلْبَسُونَها ليَتَزَيَّنُوا بها، وبأنَّهُما قابِلَان لأن تَجْرِي الْفُلْكُ المواخِرُ فيهما.

مَوَاخِر: أي: تَجْري شاقَّةً الماءَ شَقًّا. **المَخر**: الشَّقُّ، ومنْهُ شَقُّ النَّباتِ للأرْضِ حتَّىٰ يخْرُج.

• وجاء في آيَةِ سورة (النمل) تَرْكُ وَصْفِهِما، مع إثبات الحاجز بيْنَهُما..

• وجاء في نَصّ سورة (الرَّحْمٰن) بأنَّ الله عزّ وجَلَّ مَرَجَهُما، أي: جَعَلَ كُلًّا مِنْهُما مَزِيجاً مُخْتَلِطاً من عناصر، وبأنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَخْرُجُ مِنْهُ اللُّؤْلُؤُ والْمَرْجَانِ.

أقول: إذا تَدَبَّرْنا هٰذِهِ النُّصُوصَ الأرْبَعة ضِمْنَ قاعدة التَّكامُل بَيْنَ النصوص القرآنيّة، الواردة حول موضوعٍ عامٍّ واحدٍ، واسْتَبْعَدْنَا فِكْرَةَ التَّكْرارِ، اسْتَطَعْنَا أَنْ نَفْهَمَ ما يلي:

أولاً:

إنَّ آية سورة (الفرقان) قَدْ أَثْبَتَتِ لِلَّه عزَّ وجلَّ الخَلْقَ والتَّدْبير، في ظاهرَةٍ مِنْ ظاهرات آياتِه في الماء، إذْ تَحَدَّثَتْ عن الماء العذْبِ الْحُلْو، والماءِ الْمِلْحِ الأُجَاج.

إنَّهما فِي الأرْضِ بَحْرانِ عَظِيمان، خَلَقهما الله عزَّ وجلّ لمنافع الحياة والناس، وكلٌّ منهما ينبغي لتحقيق المنفعة منه حسب النظام العامّ للكون، أن يظلّ على وصفه في النسبة المزيجيّة التي جعله الله عليها.

ومعلوم أنّ الماءَ الْحُلْوَ فِيه عَنَاصِر مخلوطة ممزوجة، قد مَرَجَها الله عزَّ وجلّ، أي: خلَطَها وفق حِكْمَتِه بِنِسَبٍ صَالِحَةٍ لحَيَاةِ النَّاسِ والنَّباتِ، وأرسلها في الأرض، فاندفَعَتْ تُؤَدّي وظائفها. وأنّ الْمَاء المِلْح الأُجاج فيه عناصر إضافية مخلوطة ومَمْزُوجَةٌ فيه، قَدْ مَرَجَها اللَّهُ عزَّ وجلّ، أي: خلطها وأَرْسَلَها في الأرض، فانْدَفَعَتْ تؤدّي وظائفها المقدّرة لها.

وإيجازاً فِي التَّعْبِير استخدم في القرآن كَلِمَةُ «مَرَجَ» للدلالة على معنىٰ «خَلَطَ» العناصِرَ، حتى تتكوَّن ماءً حُلْواً، أو ماءً مِلْحاً أُجَاجاً، وعَلَىٰ معنى «أرسل» هذا الماء بوصفيه العذْبِ الفراتِ والمِلْح الأجاج، لِما في الماء من سيولة قابلة للتَّدَافُع المتلاحِق. كأنّ مُرْسِلاً أرسَلَه لِيُؤدّي وظائفه التي أُرْسِل من أجْلها.

ودلّت هذه الآية أيضاً على العناية الرّبّانيّة التي حفَّتْ هٰذين البحْرَيْنِ حتّى لا يمتزجا، فتذهب خصائص الماء العذب الفرات، التي بها حَيَاةُ الحَيوانِ والنَّبَات، ومصالِحُ أُخْرى كثيرةٌ للنَّاسِ والحياةِ، وذَلِكَ بأنْ جَعَل اللَّهُ عزَّ وجلّ بَيْنَ الْبَحْرَين حاجزاً، إذْ جعَلَ تَكْوينَ الأرْضِ في أَوْضَاعِها صَالِحةً لاحْتِواء الماءِ الْعَذْبِ الْفُرَات في تَجَاويفها ومَسَارِبها، ولإجْرائِهِ فِي السُّهُولِ والوِدْيَانِ، وإخْرَاجِه مِنَ الْعُيُون، وبذَلِكَ أقامَ الحَواجِزَ والفَواصِلَ الّتِي تفْصِل بَيْنَ البَحْريْنِ، حتَّىٰ لا يَنْتَهِي أمْرُهُما إلى الامْتِزاج

والاخْتِلاط ببعْضِهما، وتذْهَبَ الخصَائِصُ المطْلُوبَةُ، وقَدْ لَزِمَ لِذَلِكَ تَدْبِيرُ قَوانِينَ طَبِيعِيَّةٍ، والأمرُ التكوينيُّ بِجَعْلِهَا قوانين قَدَرِيَّة لازِمةً.

وهٰذِه الحواجِزُ الَّتِي عبَّرَ اللَّهُ عَنْهَا بالْبَرْزَخِ حَواجِزُ مشهُودَةٌ يَشْهَدُها الناس جميعاً، إذْ هِيَ جِبَالٌ وَسُهُولٌ وأتربة، ونحو ذلك.

ويَزِيدُ الباحثون العلميّون عَلىٰ ذَلِكَ ما تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ مِنْ قَوانِينَ تُفَسِّر ظَاهِرَةَ هذا البرْزَخِ وتَوابِعِه.

ووصَفَ الله عزّ وجلّ هٰذا البرزَخَ بأنَّهُ حِجْرٌ مَحْجُورٌ، أي: هو مانِعٌ من اختراقه إلى صِنْفِ الماءِ الآخر، وهو ممنوعٌ من الذَّوَبانِ والاختلاطِ بالماء، فلَوْ لم يكُنْ مانِعاً لاخْتَلط البحْرَان، ولو لم يكُنْ مَمْنُوعاً لاخْتَلَط هو بالماءَين.

وهذا الوصْفُ لهذا الْبَرْزخ، وهو أنَّهُ حجْرٌ مَحْجُورٌ يَدُلُّ على أنَّهُ مادَّةٌ ممَّا قَدْ يُتَصَوَّرُ فِيه الانْحِلَالُ في الماء، إلَّا أنَّهُ مَحْجُورٌ عَنْ ذلِكَ، بما جعلَ اللَّهُ عزّ وجلّ فيه من صفاتٍ وخَصَائص.

ثانياً:

وإنّ آية سورة (فاطر) قَدْ نَبَّهَتْ علىٰ مِنَّةِ اللَّهِ عَلَىٰ عباده باللَّحْمِ الطَّرِيّ الَّذِي يُسْتَخْرَجُ من الماء العذب، ويُسْتَخْرجُ مِنَ الماءِ المِلْحِ الأُجاج. ونَبَّهَتْ على مِنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِم باستخراج الْحُلِيِّ منهما.

فالمياهُ الْحُلْوةُ يُسْتَخْرَجُ مِنْ أنهارِها وسَواقيها الألماسُ، وبَعْضُ الحجارة الكريمة.

والمياه المالحة يُسْتَخْرَجُ مِنْ بحارها اللُّؤْلُؤُ والْمَرْجَان.

ثالثاً:

وإنَّ آيَةَ سورة (النَّمْل) قَدْ وَجَّهَتِ السُّؤَالَ للمشركين باللَّهِ في العبادة،

حوْلَ عِدَّةِ ظواهرَ كوْنِيَّة، هي من آثار رُبُوبيَّةِ الخالِق وحْدَهُ، ليَدُلَّ بذَلِك على أَنَّ من لَهُ الرُّبوبيَّة وحْدَهُ، وجَبَ عَقْلاً أَنْ يكُونَ هو الإلَهَ المعْبُودَ، فيُفْرَدَ بالإلَهيَّةِ.

وهذه الظواهر المذكورَةُ في الآية هي ما يلي:

(١) جَعْلُ الأرْضِ قراراً، أيْ: صَالِحةً للاسْتِقْرارِ عَلَيْهَا والتَّمكُّنِ، لَا قَلِقَةً مُضطَّربةً، لا تَصْلُحُ للثَّبَاتِ عَلَيْها.

(٢) إرسالُ المِيَاهِ الْحُلْوةِ الْعَذْبَةِ خِلالَها أنهاراً.

(٣) تَثْبيتُ قِشْرَةِ الأرْضِ بالجِبَالِ الرَّواسي، معَ مَا فِي الجِبَالِ مِنْ مِنَافِعَ أُخْرىٰ.

(٤) إِقَامَةُ الحَاجِزِ الفاصِلِ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ: العذب الفُراتِ، والمِلْح الأجاج.

ومن المفْرُوضِ أنْ يَأْتِي جَوَابُ السُّؤالِ مِنَ المُنْصِفِين الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالْحَقِّ عقلاءَ وعُلماء وحُكَماء، ولو بَعْدَ مَراحِل جَدَلِيَّة، أو مَراحِلَ زمنيّةٍ منَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيّ، بأنّ الْجَاعِلَ لِكُلِّ ذَلِكَ هو اللَّهُ الربُّ الخالِقُ وحْدَهُ لَا شَريك له.

إذن: وجَبَ أَنْ تكُونَ لَهُ وحْدَهُ الإلَهيّة، أي: أن تُوجَّهَ لَهُ وحْدَهُ عِبَادَةُ العَابِدين جميعاً.

والظاهرُ أنّ البحْرَيْنِ فِي هٰذه الآية هُمَا الْبَحْرَانِ الْمَذْكُورَانِ فِي آية (الفرقان) فَقَدْ جَاء الحديثُ عَنْهُمَا فِي آيةِ (النمل) علىٰ طَريقةِ سؤالِ المشْرِكِينَ عمّنْ جَعَلَ بَيْنَ هٰذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ هٰذا البرزَخُ، لانْتِزَاعِ الإِقْرَارِ مِنْهُمْ بأَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ الخَالِقُ، وسيلةً لإِلْزَامِهِم بتَرْكِ الشِّرْكِ، وَوُجُوبِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ.

رابعاً:

وأخيراً نزل نَصُّ سورَة (الرَّحْمٰنِ) في أوَاسِطِ المرحَلَةِ المَدَنِيَّةِ، وفيهِ حَدِيثٌ عن البَحْرَيْنِ اللّذِيْنَ يَلْتَقِيانِ، ومعَ الْتِقَائِهِمَا يُوجَدُ بَيْنَهما بْرزخٌ فَاصِلٌ، فَهوُ مَانِعٌ لَهُمَا من التَّمَازُجِ، لكِنَّهُ لَمْ يُوصَفْ بأنَّه مَحْجُورٌ، أيّ: مَمْنُوعٌ مِنْ أَنْ يَخْتَلِطَ هُوَ بِهِمَا، إِذْ لَيْس هو ممَّا يُظنُّ فَيه قَابليّةُ الانْحِلَالِ والاخْتِلاط. ومعَ الْتِقَاءِ هٰذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ أيضاً يظَلُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عِنْدَ حَدِّه، فَلَا يَبْغِي أَحَدُهُمَا، عَلَىٰ الآخَر، فيُغيِّرَ مِنْ خَصَائِصه، ومِنْ نِسْبَةِ الْعَنَاصِر الْمُخْتَلِطَةِ فيه.

وقَدْ وُصِفَ في هذا النّصّ هَذان الْبَحْرانِ بأنّهما يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ والْمَرْجَان، إشارَةً إلىٰ أنّ كُلًّا مِنهما مِلْحٌ أجاج، إذْ مِنَ الْمَعْرُوفِ أنّ اللُّؤلؤ والْمَرْجَانِ يُسْتَخْرَجَانِ عَادةً من الْبَحْرِ المِلْحِ الأجاج.

وتحيَّرَ الْمُفَسِّرُونَ فِي فَهْمِ الْمُرادِ بهَذِهِ الآية.

● هل المراد بالبحرين بَحْرُ الماء العذب الفرات، والمِلْح الأجاج، وذَلِك في ظاهرة دخول مياه الأنهر في مياه البحار، ونحو ذلك، إذْ يستمرّ الماء العذب الفرات على صِفَاتِه مَسَافةً طويلة قبل أن يمتزج بماء البحر؟.

وأخذ الباحثون من علماء العلوم الإنسانية يفسّرون هذه الظاهرة بما يُسمَّى بقانون «الْمَطّ السَّطْحِي» الذي يفصل بين السائلين، لأنّ تجَاذُبَ الْجُزَيْئَاتِ يختلف من سائل إلى آخر، ولهذا يحتفظ كلّ سائل باستقلاله في مجاله.

● أم الْمُرادُ شيءٌ آخر غير ذلك؟

ثم جاءت الكشوفُ العلميَّةُ الْمُعَاصِرَةُ، فأثبتت أنّ في البحار الموصوفة بأنّها مِلْحٌ أُجَاج ظَاهِرَةَ الْبَحْرَيْن اللّذَيْن يَلْتَقِيان، وبينهما برزخ، أي: فاصل، وهما لا يبغيان، أي: لا يَبْغِي كلّ واحِدٍ منهما على جَارِه، ويَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤلؤ والمرجان.

فَعَلِمْنَا أنّ وَصْفَ خروج اللّؤلؤ والمرجان من كُلٍّ مِنهُمَا قَدْ كَانَ مَقْصُوداً للإشارة إِلَىٰ أنّ كلًّا مِنهُمَا بَحْرٌ مِلْحٌ أُجاج، معَ مَا فِي ذِكْرِ هذا الوصْفِ من امْتِنانِ الله على عِبَادِهِ باللُّؤْلؤ والمرجان، اللّذين يَتّخِذُ النَّاسُ مِنْهُما حِلْيةً وزينةً ومنافع أخرى.

ذكر تَقْرِيرٌ لبَعْثَةٍ عِلْميَّةٍ بَيْنَ جَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ المِصْرِيّة، وجَامِعَةِ أَدَنْبَرَة الإنكليزيّة: أنّ مَاءَ الْبَحرِ فِي خَلِيجِ الْعَقَبة تَخْتَلِفُ خَواصُّهُ وتَراكِيبُهُ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ الأَحْمرَ.

واسْتَطاعَتِ البَعْثَةَ بوَسَاطَةِ قِيَاسِ الأَعْمَاقِ اكْتِشَافَ حَاجِزٍ مَغْمُورٍ عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، يَبْلُغُ ارْتِفَاعُه أَكْثَر مِنْ أَلْفِ مِتْر.

ولعلَّ مَجْمَع الْبَحْرَيْنِ هٰذا هُوَ مجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ المشارُ إِلَيْهِ فِي قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام، إذ انْطَلَق مَعَ فَتاهُ لِلِقَاءِ الْخَضِرِ، في القصّة المذْكُورَةِ في سورة (الكهف).

وكذٰلِكَ استطاعَتِ الْبَعْثَةُ العِلْمِيَّة الّتي اتَّجَهَتْ فِي الْبَحْرِ علَىٰ السَّفِينَةِ «مَبَاحِث» فِي رِحْلَتِها الأولَىٰ فِي الْمُحِيطِ الهِنْدِي والْبَحْرِ الأَحْمَر، إذْ توصّلت إلى اكْتِشَافِ حَاجِزٍ مَغْمُورٍ بَيْنَ الْبَحْرَيْن، وظهَر لَهَا بِالتَّحَالِيلِ أنَّ مَاءَ الْمُحِيطِ الهِنْدِيّ مُخْتَلِفٌ فِي خَواصّهِ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ الأَحْمَر[1].

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

---

(١) انظر: «الإسلام والنظر في آيات الله الكونية» تأليف د. محمد عبد الله الشرقاوي، كتاب سلسلة دعوة الحق ـ «العدد/ ٤٧ ـ طبع رابطة العالم الإسلامي ـ ص١١٦، ١١٧».

﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: المرادُ مِنْ جِنْسِ المَاء، فيَصْدُق بنوع من أنواعه الذي هو السَّائِلُ المَنَوِيُّ.

فمِن المعلُوم أنّ المَاء كُلّه عَلىٰ اخْتِلَافِ أنْواعِه مادَّةٌ سَائِلَةٌ مُرَكّبة من عُنْصُرَيْن أساسَيْن هما: الهيدروجين، والأكسجين، وعَناصِرَ أخرى مُخالِطَة من تُراب الأرض كالمِلْح، والكِلْس، والكِبْريتِ أحياناً، وبعض المعادن المنحلّة فيه، خلال مروره في مساربه من الأرض، وقد تُكَوَّنُ فيه خَلَايَا نَباتِيَّة مُتَفَتّتة أوْ مُنْحلَّة، وقد تكون فيه كَائِنَات حَيَّة صَغِيرَةٌ لَا تُرىٰ إلّا بالمجاهر.

وتَتَفَاوَتُ نِسَبُ الْعَناصِر المُخَالِطَةِ للّمَاء، من نَوْعٍ منْ أَنْواعِ المَاءِ إلىٰ نَوْعٍ آخَر، وبذَلِكَ تَخْتَلِفُ خَصَائِصُ المِيَاه، بحَسَبِ اخْتِلافِ العَنَاصِر المُخَالِطَةِ له، وبِحَسَبِ اخْتِلافِ نِسَبِها.

﴿بَشَرًا﴾: البشر اسْمُ للإنسان، ويطلق لفظ «بشر» على المذكر والمؤنث، والواحد والاثنين فأكثر، فلا يؤنث ولا يثنىٰ ولا يُجْمع، فتقول: هو بشر، وهي بشر، وهما بشر، وهنّ بشر، وهم بشر.

وقد يثنّى، ومنه قول الله عزَّ وجلّ حكايةً لمقالة فرعون وملئه عن موسى وهارون عليهما السلام، في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

وقد يجمع لفظ «بَشر» على «أَبْشار».

و«البشَرُ والْبَشَرَةُ» ظاهر جلد الإنسان، والجمع «أَبْشار». ومنه اشتقّ فعل: بَاشَرَهُ يُبَاشِرُهُ مُبَاشَرةً، إذا ألصق بشرة جَسَدِه ببشَرَة جَسَدِه، ومن هذا مباشرة الرجل للمرأة، لالتصاق أبشارهما.

﴿نَسَبًا﴾: النسبُ القَرابَةُ الَّتِي تَنْشأُ عَنْ طَرِيقِ التوالُدِ بَيْنَ الأحْيَاءِ، وهي أصُولٌ وفروع، وما اشْتُقّ من الأصُولِ والفروع، فيدخل فيما اشتُقَّ من الأصول الإِخوة والأخوات، والأعمام والعمّات، والأخوال والخالات، ولو عَلَتِ الدَّرجَاتُ. ويدْخلُ فيما اشتُقَّ مِنَ الْفُروعِ الأحْفَادُ والحَفِيدَاتُ.

قال الله عزَّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً . . . ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَصِهْرًا﴾: الصِّهْرُ هو على أَحْسَنِ أقوالِ أَهْلِ اللّغة اسْمٌ يُطلَقُ على أقارب الزوج وأقارب الزوجَةِ جَمِيعاً، وهٰذا هو المُلائِمُ للتَّقْسِيم الوَارِدِ في الآية التي نتدبّرُها.

ويُطْلَقُ على أقَارِبِ الزَّوْج: «أحْمَاء» والمفرد «حَمُو» و«حمَا» والمؤنث «حَمَاة».

ويُطْلَقُ علَىٰ أَقَارِبِ الزَّوْجَةِ: «أَخْتَان» والْمُفْردُ المُذَكَّرُ «خَتَن» والأنثىٰ «خَتَنَة».

ويُطْلَقُ أَيْضاً علَىٰ زَوْجُ البِنْتِ أو زَوْجِ الأُخْتِ لَفْظُ «خَتَن».

فعلاقات التواصل بين الناس في الإجتماع البشري بمقتضىٰ هذا التقسيم القرآني ترجع إلى أساسَيْن:

الأول: «النَّسَب»: وهي علاقَةُ رَحِم، منْشَؤُهَا مَا نظَّم الله عَزَّ وجَلَّ تَكَاثُر الأحْيَاءِ بِمُقْتَضاه، وهو التَّنَاسُلُ القائم على اشتقاق الأحياء بعضِها مِنَ بَعْضٍ.

الثاني: «الصِّهر»: وهي علاقَةٌ منشؤُها التَّزاوُجُ بيْنَ الذُّكُورِ والإِنَاثِ، وهي الْوَسِيلَةُ الْمُخْتَارَةُ فِي الْخَلْقِ لتناسُلِ الأحْيَاءِ، وبِالتَّزاوُجِ تَتَقاربُ

أُسْرَتَانِ مِنَ المجْتَمَعِ، فتحْصُلُ مُصَاهَرةٌ بينهما، تلتحم بها وشائج صلةٍ ذاتِ قوة، ولو لم تكن بينهما قرابة ملحوظة في شجرة القرابة البشريّة، نظراً إلى بُعْدِها، وعَدَم قُدْرَةِ الناسِ على تصوُّر خيُوطها التي ضعفت بالبُعْدِ.

فالقراباتُ النسبيّة كَلُّما ابْتَعَدَتْ ضَعْفَتْ خُيُوطُ التَّرابُطِ بَيْنَها، حتّىٰ تَكُونَ في تصوُّر الناسِ كالمنعدمة، ولا يَبْقَىٰ في أذهانِ النَّاسِ مِنْهَا إلّا العِلْمُ العامّ بالتِقَائِهم في الجَدِّ الأعْلَىٰ.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾: أي: وَربُّكَ قَدِيرٌ دَواماً مِنَ الأَزَلِ إلى الأبد، في الكينونة الدائمة، ذُو قُدْرَةٍ بَالِغَةٍ مُسْتَواهَا الأَقْصَىٰ.

إنّ هذه الجملَةَ تَتَحدَّثُ عن قضيّةٍ من قضايا صِفَاتِ الرَّبِّ عزَّ وجلّ بوجهٍ عامّ، وقد جَاءَ ذِكْرُهَا عَقِبَ بَيانِ أَنَّهُ تَبَارَكَ وتعالَىٰ خَلَقَ مِن الْمَاءِ بَشَراً، فجعله بعد آدم وحوَّاءَ يَنْقَسِمُ إلىٰ قِسْمَي النَّسَبِ والصِّهْرِ، لِلإِلْمَاحِ إلَىٰ أنّ نِظَامَ تَنَاسُلِ الأحْيَاءِ عن طَرِيقِ التّزاوُجِ الّذِي يَنْجُمُ عَنْهُ علاقات رَحِم نَسبيّة، وعلاقَاتُ مصاهَرَةٍ، هُوَ مِنْ عجَائِبِ التدّبيرِ الحَكِيم فِي الْخَلْق، الّذي لَا يتمّ إلّا بقُدرَةِ ربٍّ قَدِيرٍ، عَلِيم حَكِيم يفعلُ ما يَشَاءُ ويَخْتَار، ولا سِيمَا إذَا لَاحَظْنَا عَجَائِبَ الْخَلْقِ الربّانِيّ المُحْكَم المتقَنِ في تَكْوينِ النُّطِفِ فِي الذُّكُور، والْبُيَيْضَاتِ فِي الإِنَاثِ، وكيْفَ يَتِمُّ التَّوَاصُلُ والانْدِمَاجِ بَيْنَها، ثُمَّ التَّنَامِي، حَتَّىٰ يَنْشَأ الْمَخْلُوقُ الجَدِيدُ الابْن أو الابنة للزَوْجَيْن.

فمَن درسَ ذلك، وأحْسَنَ التفكُّر، لَمْ يَجِدْ وَسِيلةً يُعبِّر بها عن مشاعره إلّا أَنْ يُؤْمِنَ بالرَّبِ الخالق ويَحْمَدَه، ويَسْجُد لَه، ويتقرَّبَ إِلَيْهِ بمَرَاضِيه.

❀ ❀ ❀

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

بَعْدَ التَّنْبيه علىٰ بَعْضِ ظواهِرِ الخلْقِ الدّالّة على الرّبّ الْخَالِق للكَوْنِ كُلّه، بمَا فيه مِنْ دَقَائِقَ وعجائِبَ ومُتْقَناتٍ، والدَّالَّةِ علىٰ وَحّدانِيَّته فِي رُبُوبِيّتِه، التي يَلْزَمُ عَنها عقْلاً وحْدَانِيَّته فِي إلَهيّته، أبَانَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ واقِعَ حَالِ المشْرِكِينَ، القائم علىٰ عِبادَةِ الآلِهَةِ الّتي اتَّخَذُوها مِن دُون الله، كَمَا جَاءَ في الآية (٣) من السُّورة، والمَعْنَى أنَّهُمْ اصْطَنَعُوهَا آلِهةً منْ دُونِ اللَّهِ، مَعَ أنَّها تُخْلَقُ ولا تَخْلُقُ ولَا تَمْلِكُ لأنْفُسِها ضَرّاً ولا نَفْعاً، ولا تَمْلِكُ مَوْتاً ولَا حَياةً ولا نُشُوراً، ثُمّ عَبَدُوها من دُونِ الله، مع أنّها لا تنفَعُهم ولا تَضُرُّهم، فتَكَامَلَ النّصَّان في الدَّلَالَةِ المُرادِ بيانُها، وبَيْنَهما بياناتٌ كَاشِفاتٌ بِالأدِلّة بُطْلانَ هذا الذي اخْتارَهُ المشْرِكُون الكافرون لأَنْفُسِهم.

إنّه واقعٌ يسْتَدْعي عجَبَ المتَعَجِّبينَ، واسْتِنْكَارَ المُسْتَنْكِرينَ، فَظواهِرُ الْخَلْقِ فِي الكَوْنِ، وتَصَارِيفُ أحْدَاثِه، تُورِثُ اقْتِنَاعَ مُخْتَلِفِ مُسْتَويَاتِ النَّاسِ في أفْكارِهم ومَفَاهِيمِهِمْ، بأنَّ الرّبَّ الْخَالِقَ وَاحِدٌ، وبمَا أنَّ الأَمْرَ كذلك فَإنّه يَجِبُ أنْ يَكُونَ هُوَ الإلَه الواحِدَ، فَكَيْفَ يَعْبُدُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهم.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: ويَعْبُدُ الكَافِرُون المشْرِكُونَ آلِهةً اتَّخَذُوها لأنْفُسِهِمْ، هِيَ مِنْ دُونِ الله الرّبّ الخالق.

ودلّ الْفِعْلُ المُضَارِعُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ علىٰ أنَّ هٰذه العبادة منهم لآلِهتِهم مسْتَمِرَّة متكرِّرَة تَتَجَدّد دواماً على الرغمّ مِنْ كلِّ البيَانَاتِ الإقْنَاعِيَّةِ الّتِي وُجِّهَتْ لَهُمْ قَبْلَ نُزول سورة (الفرقان) بأنّها لا تَصْلُحُ لأنْ تَكُون آلهةً تُعْبَد أصلاً.

﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾: عَبَّرَ الله عنْ آلهَتِهِم باسْمِ المَوْصُولِ «مَا» الموضُوعِ لمَا لَا يَعْقِلِ وَلَا يَعْلَمُ، للدَّلَالَةِ علَىٰ أنَّ مَعْبُوداتِهِمْ لَا تَعْلَمُ عَنْ عَابِديها شَيْئاً، فهُمْ يَعْبُدونَ أَوْهَاماً اصْطَنَعوها فِي مُخيَّلَتِهم، إذْ هِيَ لَا تَنْفَعُهُمْ حَتَّىٰ يَعْبُدُوها فَيَسْتَزِيدُوا بِعِبَادتِهِمْ لهَا مَا لَدَيْها مِنْ نَفْع، وهِي لا تَضُرُّهم حتَّى يَعْبُدوها فَيَحْمُوا بِعِبَادَتِهم لهَا أَنْفُسَهُمْ مِنْ ضرّها.

هذا هو حَضيضُ السُّخْفِ، وفسَاد الرَّأْي، وضَلَال العَمَل.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾: كَلِمةُ «ظَهِير» تأتي في اللّغة بمعنَيْن:

(١) فتأتي بمعْنَى: «مُعِين» والأصْلُ فِي هذا الاستعمال أنّه يُقوّي من يُعينُه من جِهَةِ ظَهْرِه. ويَسْتَوِي في هذهِ الكَلِمَةِ المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع.

يقال: الكافر ظهيرٌ للشَّيْطانِ علَىٰ رَبّه، أي: مُعْينٌ للشيطان ضِدَّ مَرْضَاةِ رَبِّه.

(٢) وتأتي بمعنى: «شَديدٍ قَوِيّ الظَّهرِ لَا يُطَاوِعُ وَلَا يَلِين».

• فعلى أنّ «ظَهيراً» بِمَعْنَى «مُعِينٍ» يُمْكِنُ أن نَفْهَم أنّ الكَافِرَ قَد جَعَلَ نَفْسَه مُعِيناً للشَّيْطَانِ عَلَى مَعْصِيَةِ رَبِّه، ومُخَالَفةِ أمْرِه، فِيمَا تَعَهَّدَ به مِنْ إغْوَاء بني آدَمَ، إذْ قال لربّه كما جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وجعَل نَفْسَهُ مُعِيناً للشيطان إبْلِيس إذْ صَدَّقَ عَلَيْه إبليسُ ظَنَّهُ فيه، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (سبأ/٣٤ مصحف/٥٨ نزول) بشأن القبائل اليمنيّة الّتِي تَرْجِعُ إلَىٰ «سبأ» جدّها الأعلى والتي أرْسَلَ اللَّهُ عَلْيها سَيْلَ الْعَرِم:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

• وعلى أنّ «ظَهِيراً» بمعنى: «شَدِيدٍ قَوِيّ الظّهر لَا يُطاوع ولا يَلين» يُمْكِن أن نَفْهمَ أنَّ الكَافِر صُلبٌ مُعَانِدٌ لبيَانَاتِ رَبِّه الإِقْنَاعِيّة والتَّرغِيبِيَّةِ والتَّرهِيبِيَّةِ وسَائِر الوسَائلِ التَّربَوِيَّةِ، فلَا يَلِينُ لشَيءٍ مِنْها، ولا يُطَاوِع، معَ أنّ ربّه قد تلطّفَ به فصَرَّفَ له آيات الْقُرآن تصريفاً مخْتَلِفَ الأنْواعِ والصّوَرِ، ليَسْتَجيبَ لِلْحَقّ، ويَسْلُكَ سَبِيلَ الْهُدَى، ويُنقِذَ نَفْسَه من اسْتِحَقاق العِقَاب، فَلَمْ يَفْعَلْ.

وتكُون الجُمْلَةُ علَىٰ هذٰا بمَعْنى: وكَان الكَافِرُ مُعَانِداً قاسياً صُلْباً قويّ الظهر، مُسْتَعلِياً على بيَاناتِ رَبِّه غَيْرُ مُطاوعٍ لهَا، ولَا لَيِّن تُجاهَها.

وتَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ علىٰ عَامِله فِي عبارة ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ يُفِيد نَوْعاً من الْحَصْر، وهٰذا يَدلُّ علىٰ أنّه بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْرِ بيَانَاتِ ربِّهِ كوسَاوِسِ الشَّيَاطِين، وتَضْلِيلَاتِ الْمُضِلّينَ الَّذِين يُؤَثّرونَ عَلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ شَهَواتِه وأهْوَائِه هُوَ ضَعِيفٌ لَا قُوَّة لَه، ولا مُقَاوَمَة عنْدَه، إذْ إِنَّهُمْ يُؤَثّرون علَيْه بأَضْعَفِ الوَسَاوِسِ والتَّسْويلَاتِ.

ونَظِير هذا نقُولُ بالنّسْبة إلىٰ الْمَعْنى الأوَّل، فَهُو مُعِينٌ للشَّيْطَانِ عَلَى ربّه، ولا يُعِينُ علىٰ نُصْرَةِ الحَقّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ الَّتِي يُعِينُ عَلَىٰ نُصْرَتِها الْمُؤْمِنُونَ ابْتِغَاء مَرْضَاةِ الله.

ويُمْكِنُ حَمْلُ كَلِمَةِ «ظَهِير» فِي الآيَةَ عَلَىٰ المَعْنَيْينِ مَعاً، وقَدْ تأكّد لنَا أنّ حَمْلَ اللّفْظِ على الْمَعَانِي التي يَدُلّ عَلَيْها دُون تعارضُ فِي النُّصُوصِ الْقُرآنِيَّةِ ممّا يَنْبَغِي أن يَكُون إِحْدَىٰ الْقَوَاعِد الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْها المتدبِّر لِكِتَابِ الله عزَّ وجلّ[١].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر القاعدة (٢٨) حول استعمال الكلام في أكثر من معنى من كتاب «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ» للمؤلف.

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

تمهيد:

• جَاءَ فِي الآيَةِ الأُولَىٰ مِنَ السُّورَةِ بيانُ أنّ الله نَزَّلَ الفرقانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ليكُونَ للعالَمِين نَذِيراً، أي: مُنْذِراً بعذاب الله لمَنْ كَفَر وعَصَى، نَظَراً إلَىٰ أنّ أكْثَر الْعَالَمِين سَيَرفُضون الاسْتِجَابَةَ لدَعْوةِ الرَّسُول، فلا يَكُونُ لَهُمْ حَظٌّ منْ رِسَالَتِهِ أخِيراً إلّا الإنذارُ بعذاب الله المعجّل والمؤجّل إلى يوم الدين، بعد أن بلّغهم وأبَانَ لَهُمُ الحقّ وبشّرَهم بالسّعَادة الأبدية إذا آمنوا، واتبعوا ما أنزل الله إليهم.

• وجاء في الآية (٣٠) من السورة بيانُ شكْوىٰ الرَّسُولِ لرَبِّه منْ كَوْنِ مُعْظَم قَوْمِه فِي مكّةَ اتَّخَذُوا هٰذا الْقُرْآن مَهْجُوراً، بَعْدَ أَنْ بلَّغَهُمْ إيَّاهُ وأبَانَ لَهُمْ مَا فِيه مِنْ حقٍّ، ومَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ.

• وجَاءَ فِي الآية (٤٣) بَيَانُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ أنّه لَيْسَ وَكِيلاً عَلىٰ النَّاسِ حتّىٰ يتصَوَّرَ أنّه مَسْؤُولٌ عندَ الله عَنْ كُفْرِ مَنْ كَفَر منْهُم.

• وَجاء في الآية (٥٠) بَيَانُ أنّ الله عزَّ وجلَّ قَدْ نَوَّعَ أَسَالِيبَ الْإِقْنَاعِ والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ فِيمَا نَزَّلَ مِنَ القرآن قَبْلَ سُورَة (الفرقان) فَلَمْ يُؤْمِن من النَّاسِ فِي مَكَّةَ ومُلْحَقَاتِها إلّا الأقلّ، وأمّا أَكْثَرَ النّاس مِنْهُم فقد أَبَوْا إلّا كُفُوراً.

وهذا يَدُلُّ علَىٰ أنّ النَّاسَ قَدْ صَارُوا بالنِّسْبَةِ إلى الدَّعْوَةِ الإِسْلاميّة قِسْمَيْنِ: مؤمنين، وكافرين، وأَكْثَرُ الكَافِرينَ مُعَانِدُون مِنْ دَرَجَةِ المُتَشَدِّدِينَ فِي كُفْرِهِمْ.

• وفي الآية (٥٢) أَمَرَ الله عزَّ وجلّ رسُولَه بأمرين:

الأمر الأول: ألّا يُطِيع الكَافِرينَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَطَالِبهِم ومُقْتَرَحَاتِهِمْ التَّعَنُّتِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ فِي السُّورَةِ بيانُ طَائِفةٍ منها.

الأمر الثاني: أنْ يُضَاعِفَ مُجَاهَدَتَهُ لِلْكَافِرِينَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ إِقْنَاعٍ وترغيب وتَرْهِيبٍ وتَرْبِيَة، نظراً إلىٰ أَنَّهُ مَا زَالَ أَمْرُ اسْتِجَابَةِ بَعْضِهِم مَطْلَباً مرجوّاً، ولَمْ يَصِلْ بَعْدُ إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ منها.

• وبعد وُضُوح وُجُود مؤمِنين وكافِرين في أمّة الدّعوة جاءَتِ الآية (٥٦) تُبيّن للرَّسُول أنّ وظيفَتَهُ مُنْحَصِرَةٌ فِي كَوْنِهِ مُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَلَّ حَصْرُ وَظِيفَتِهِ فِي هَذَيْنِ الأمْرَيْنِ التَّبْشِيرِ والإنذار ـ وهما الْحَلْقَةُ الأخِيرَةُ مِنْ سِلْسِلَةِ التَّبْلِيغِ والتَّعْلِيمِ والإقْنَاعِ واتّخاذ كُلِّ الوَسَائِلِ الَّتِي يُرْجَىٰ بِهَا اسْتِجابة المدْعُوِّين، عَنْ طَرِيقِ اخْتِيارِهِمْ الحُرِّ، دُونَ إِكْرَاهٍ ولَا إِلْزَامٍ ولَا جَبْر ـ علىٰ أنّه صلوات الله عليه لَيْسَ مسؤولاً عَنِ التَّغْيِير والتَّحْوِيلِ في واقِعِ النَّاسِ، لأَنَّهُمْ مُمْتَحَنُونَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا، والْمُمْتَحَنُ لا بُدَّ أنْ يَكُونَ غَيْرَ مَجْبُورٍ ولا مُكْرَهٍ، إذِ الإيمانُ يَجِبُ أنْ يَكُونَ بالاخْتِيَارِ الْحُرِّ، وكذٰلكَ مُقْتَضِيَاتُ الإِيمَان، ومَنْ يَأْبَى فإنَّه يأبَىٰ أَيْضاً باخْتِيَارِهِ الْحُرِّ، فقال الله له:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

في هٰذه الْجُمْلَةِ حَصْرٌ لإرْسَالِ الرسُولِ بالتَّبْشِيرِ والإِنْذَار، ولكن لمَّا كَانَ التَّبْشِيرُ والإنذارُ إنّما يَكُونَانِ بَعْدَ سِلْسِلَةِ أعْمَالٍ يَقُومُ بها الرسول، يَبْرُزُ مِنْهَا التبلِيغُ والتَّعْلِيمُ والإِقْنَاعُ والصَّبْرُ عَلَى الأذىٰ، واتِّخَاذُ كُلِّ الْوَسَائِلِ الَّتِي يُرجَىٰ بها استجابةُ المدْعُوِّينَ عن طَرِيقِ اخْتِيَارِهِمْ الحُرِّ، فإنّ حَلْقَاتِ هٰذِهِ السِّلْسِلَةِ السَّابِقَةِ للتَّبْشِيرِ والإنْذَارِ دَاخِلَةٌ فِي المَحْصُور بأداة الحَصْرِ «ما» و«إلّا».

• ولتَأْكِيدِ إِزَالَةِ عَقَبةِ اتّهامِ الرَّسُولِ بالْمَصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّة مِنْ دَعْوَتِه،

واتّهامِهِ بأنّه يسْعَىٰ لِيَحْصَلَ عَلَيْهَا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ له، قَال الله عزّ وجلّ له:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ... ﴿٥٧﴾﴾.

فأَمَرَهُ أَنْ يُعْلِن للنَّاسِ بالْعِبَارةِ الصَّرِيحَةِ الواضْحَة أنَّهُ مَا يَسْأَلُ أحداً مِن النَّاسِ أَجْراً عَلَى مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ مُجَاهَدَةٍ لإِنقَاذِهِمْ مِنْ عَذَابِ الله، ولِهِدَايَتِهِم إلىٰ سَبِيلِ سَعَادَتِهم في الدُّنْيا والآخِرة.

﴿مِنْ أَجْرٍ﴾: «مِنْ» حَرفُ جرٍّ زيد للتَّنْصِيصِ علىٰ الْعُمُومِ، ولَفْظ «أَجْر» مفعول به منصوبٌ محلًّا مَجْرُورٌ لفظاً.

وَمَا جَاءَ فِي هٰذِهِ الآيَةِ هُوَ التَّكْلِيفُ الرَّبَّانِي الثَّانِي للرسُول حَوْلَ هذا الموضوع، أمّا التكْليفُ الأوَّلُ فقَدْ جَاءَ في سُورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) في قول الله عزَّ وجلّ له:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ... ﴿٨٦﴾﴾.

وقد جاءَ هٰذا تَعْقِيباً علَىٰ اتِّهَامِ مَلأِ قَوْمِه لَهُ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي صَدْرِ سورة (ص) بقوله تعالى فيها:

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾.

أي: يُرادُ لمصلحةٍ شخصيّة من أمُور الدُّنيا.

لكنّ التأْكِيدَ الّذي جاء في سورة (الفرقان) لم يكن مُجَرَّد تأكيد، بَلْ جَاءَ مُقْتَرِناً بإضَافَةٍ تَتَعَلَّقُ بالْمُؤْمِنِينَ، وهٰذِه الإِضَافَةُ قَدْ تَضَمَّنَتْ اسْتِثْنَاءَ مَا يُرِيدُ الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يَتَقَرَّبُوا بِهِ إِلَىٰ رَبِّهم، مِنْ إِكْرَامَاتٍ للرَّسُولِ قَدْ يَبْدُو فِي ظَاهِرِهَا أنَّهَا بِمَثَابَةِ الأَجْرِ لَهُ، عَلىٰ جِهَادِهِ مِنْ أَجْلِ خَيْرِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ، كالصَّلَاةِ والتَّسْلِيم عليه، والدُّعَاءِ لَهُ، وَكَتَقْدِيم بَعْضِ الْهَدَايَا والخَدَمَاتِ، والتَّضْحِيَاتِ مِنْ أَجلِ حِمَايَتِهِ وَنُصْرَتِهِ والدِّفَاعِ عَنهُ، ونَحْوِ ذلك، فقال الله عزَّ وجلّ له:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

أي: لَكِنْ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً فَلَهُ أَنْ يُقَدِّمَ للرَّسُولِ شَيْئاً مِمَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِقَبُولِهِ.

أو إِلَّا مَا يُقَدِّمُه مِنْ إِكْرَام للرَّسُولِ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً، وهٰذَا فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ أَجْراً للرَّسُولِ، لَكِنَّهُ عَمَلٌ يَتَقَرَّبُ بِهِ المُؤْمِنُ إِلىٰ رَبِّهِ لِيُعْطِيَهُ اللَّهُ أَضْعَافَ مَا قَدَّمَ لِرَسُولِهِ.

فَمَنْ صَلَّىٰ عَلىٰ النَّبيّ مرّة صلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً، وَمَنْ قَدَّمَ للرَّسُولِ خِدْمَةً أو إكراماً أعْطَاهُ الله بذَلِكَ أضْعَافاً مُضَاعَفةً.

ولَوْلا هٰذا الاستثْنَاءِ لَتَحَرَّجَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ مِنْ قَبُولِ أيّ شَيْءٍ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا. ولتحَرَّجَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ تَقْدِيمِ أيِّ شَيْءٍ للرَّسُولِ صلوات الله عليه.

وبِهٰذا نُلاحظ أنَّ البَيَانَ الْقُرْآنيَّ فِي مَرَاحِل تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ قَدْ جَاءَ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْبِنَاءِ الارْتِقَائِي فِي الأفْكَار.

وقَدْ دَعا إلىٰ هٰذِهِ الإضَافَةِ هُنَا فِي سُورةِ (الفرقان) الْمُنَاسَبَةُ الَّتِي أَوْضَحَتْ أنّ الرَّسُولَ قَدْ صَارَ لَهُ أتباعٌ مُؤمِنُونَ بِهِ، ويَحْرِصُونَ عَلَىٰ أَنْ يُقَدِّمُوا للرَّسُولِ أشْيَاءَ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَىٰ رَبِّهِمْ، ممّا يأذن الله به[1].

• وبِناءً علىٰ الإلمَاحِ السَّابق الَّذِي جَاءَ فِي الآية (٣١) مِنَ السُّورَةِ، الدَّالّ علىٰ أنّ الرَّسُولَ والمُؤمِنِينَ سَتقُومُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعَارِكَ قِتَالِيَّة، أَوْصَىٰ الله رسوله بثلاثةِ أُمُور:

---

(١) انظر تتمة هذا الموضوع القرآني في المثال السادس من القاعدة (٦) من «كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ» للمؤلف ص٩١.

الأمْرُ الأول: أن يَتَوَكَّلَ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ.

الأمر الثاني: أن يُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ.

الأمر الثالث: أن لا يَهتَمَّ لأحْوَالِ الكَافِرِينَ، وَمَعَاصِيهِمْ لِرَبِّهم، وذُنُوبِهِمْ، فالله عَلِيمٌ خَبِيرٌ بها، وكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً.

فقال الله له: :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

تمهيد:

أمّا التوكُّلُ عَلَىٰ الله فَهُوَ وظيفة قلبيّة نفسيّة، وهو ثمرةٌ من ثمرات صِدْقِ الإيمانِ وعُمْقِهِ في القَلْب.

وأمّا التسبيح بحمد الله فهو ذكْرٌ لِسَانيٌّ وفكريٌّ يُسَاعِدُ على شَغْل ساحة التصوّرات الْفِكْرِيَّة بِعَنَاصِرِ مِنَ القَاعِدَةِ الإيمانية، إنَّهُ تسبيحٌ لله ممتزجٌ بِحَمْدِهِ والثَّنَاءِ عليه.

وأمّا تَوْجِيهُهُ لِعَدَم الاهْتِمَام لأَحْوَالِ الكَافِرِينَ وَمَعَاصِيهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، بِدَافِعِ حِرْصِهِ عَلَىٰ أنْ يَكُونَ الناسُ جَمِيعاً مُؤْمِنِينَ بِرَبِّهِمْ، عَابِدِينَ لَهُ، يُؤَدُّونَ حقّه عَلَيْهِمْ، غيرةً مِنْ أَجْلِ رَبّه عزَّ وجلّ، فقد جاء بأسلوب أنّ الله الَّذِي هُوَ صَاحِبُ الْعَلَاقَةِ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِم خَبِيرٌ بِهِمْ، لَا يَحْتَاجُ إلى مَنْ يَهْتَمُّ لِقَضَايَاهُ، وإنّه مَتىٰ رَأىٰ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُعَاقِبَ عَاقَبَ، أَوْ أَنْ يَنْتَقِمَ انْتَقَمَ، وَبِمَا أنَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا كُلَّهَا حَيَاةُ امْتِحَانٍ فإنّ مِنَ حِكْمَةِ الله وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ أَنْ يُمْلِيَ لَهُمْ وَيُمْهِلَهُمْ، حَتَّىٰ لا يَتْرُكَ عُذْراً لِمُعْتَذِرِ.

التدبر التحليلي:

﴿وَتَوَكَّلْ﴾: فعلُ أمرٍ من: «تَوَكَّلَ يَتَوَكَّلُ تَوَكُّلاً» يُقَال: تَوَكَّلَ على الله إذَا اعْتَمَدَ عليه بقلبه اعتماداً صادقاً، مستسلماً لما يختاره له من أمْر، مع قيامِهِ بالأسْبَابِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتي لَمْ يَحرِّم اللَّهُ اتِّخَاذَها، دونَ تَفْرِيطٍ بشيءٍ منها، فالقيام بِهَا هُو مِنْ طَاعَةِ الله في تَراتيبِ أَنْظِمَتِه فِي كَوْنِه، ومَعَ قِيامِه بالأسْبَابِ التَّعبُّدِيَّةِ الَّتِي أوَصَىٰ الله بِهَا في كتابه، أَوْ أَوْصَىٰ بِهَا الرَّسُولُ فِي سُنَّتِه، كالذِّكْرِ والدُّعاءِ.

﴿عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾: هُوَ اللَّهُ عَزَّ وجَلّ، وقَدْ اخْتَارَ الله مِنْ أَسْمائِه وأَوْصَافِه هنا: «الحيّ الذي لا يموت» للتَّنْبِيهِ علَىٰ أنّ مَنْ تَوَكَّلَ عليه فإنّه لَا يَخِيبُ فِي حَالٍ من الأحْوَالِ، لأنَّهُ سُبْحَانَه وَتَعالَىٰ بَاقٍ دَواماً، حَيٌّ دَواماً لَا يَمُوتُ أبداً.

ويَدْخُل فِي عُمُوم الْمَوْتِ المنفيّ النَّوْمُ الَّذِي هُوَ شَبِيهٌ بالمَوْتِ، حَتَّى أَقَلّ دَرَجَاتِه وهِيَ «السِّنَةُ» وقَدْ جَاء التصريح بِهِمَا في آيَةِ الكُرْسِي من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ... ﴿٢٥٥﴾﴾.

والحيُّ الّذِي لَا يَمُوتُ الْمُحِيطُ بكُلِ شَيْءٍ عِلْماً، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ شَهِيداً عَلَىٰ عِبَادِهِ دَواماً، حَاضِراً مَعَهُمْ دَوَاماً، فَمَنْ تَوَكَّل عَلَيْهِ مَعَ طَاعَتِهِ باتِّخَاذِ الأسْبَابِ كَفَاهُ، ولا سِيمَا في الأمُور الّتي لا يَمْلِكُ جَلْبَها أَوْ دَفْعَهَا، فهو يُيَسِّرُ له الأسبابَ الخفيَّة، ويمِدُّهُ بمعُونَتِه، حتّىٰ يَقْضِيَ لَهُ بحِكْمَتِه مَا هُوَ لَهُ خَيْرٌ بحَسَبِ عِلْمِه الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، جلّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانه.

والتّعريفُ بالألِفِ واللّام في اسْم الله «الْحَيّ» للْكَمالِ، أي: الّذِي لَهُ كَمَالُ الْحياة، ومَنْ لَهُ كَمَالُ الْحَيَاةِ فَلَا بُدّ أنْ يَكُونَ ذَاتِيّ الْحَيَاةِ أزليَّها

وأَبَدِيَّها، ولا تَحْتَاجُ حَيَاتُه إِلَىٰ شَيْءٍ يُمِدُّهَا، كحَاجَةِ حَيَواتِ الكَائِنَاتِ الْمَخْلُوقَة.

فالرسُلُ والْمُؤْمِنُونَ باللَّهِ يتوكَّلُونَ عَلَىٰ اللَّهِ الحَيّ الَّذِي لا يَمُوتُ.

أمّا المشركُونَ وسَائِرُ الكَافِرينَ، فَهُمْ يَتوكَّلُونَ عَلَىٰ أَمْوَاتٍ غَيْرِ أَحْياءٍ، أَوْ أَحْياءٍ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيء، فإنْ كَانُوا جِنّاً زَادُوهُمْ رَهَقاً، أَوْ يَتَوَكّلُونَ عَلَىٰ أَسْبَابِ غَيْرِ حيّةٍ، وهٰذِه إنَّمَا تُعْطِي عَطَاءَاتِهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وقَدَرِه ضِمْنَ أَنْظِمَتِهَا العامَّةِ الْقَدَرِيّة، وَهِيَ مُسَخّرَة لِمَنْ أَحْسَنَ اسْتِخْدَامَهَا مِنْ مَفَاتِيحِهَا، تَوَكَّلَ بقلبه عليها أمْ لم يَتوكَّلْ، فَلَا تَزِيدُ مَنْ توكّل عَلَيْهَا شيئاً، لَكِنَّ توكُّلَه عَلَيْهَا يَخْدِشُ إيمَانَه بالرَّبِّ الْخَالِقِ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾: أَصْلُ السَّبْحِ فِي اللُّغَةِ الحَرَكَةُ السَّهْلَةُ الّتِي يَحْصُلَ بِهَا الانتقَالُ فِي المَاءِ أَوْ فِي الْهَوَاءِ بِرِفْقٍ ولِينٍ، ومِنْهُ سَبْحُ السَّمَكِ في الماء، وسَبْح الكَواكِبِ والنُّجُوم في مَسِيرَاتِها فِي أفلاكِها، وكذَلِكَ حَرَكَةُ اللَّيْلِ والنَّهار الدَّائِرةُ فِي فَلكِهَا سَبْحاً، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ولمّا كَانَتْ حَرَكَةُ الْخُيُولِ عِنْدَ جَرْيِها تُشْبِهُ بخِفَّتِها علَىٰ الأرْضِ حَرَكَةَ السَّبْحِ في الهواء، سمَّىٰ الْعَربُ جَرْيَها سَبْحاً، وقالُوا عَنِ الفرَسِ الّذِي يَجْرِي: «سَابح» و«سَبُوح».

والتّسْبِيحُ لله ذِكْرٌ يَتَضَمَّنُ معنىٰ تنزيه الله عمّا لا يليقُ بجَلالِه، مَعَ الحَرَكَةِ اللّسَانيّة والفِكْرِيّة التِّلْقَائيّة الّتِي تُشْبِه حَرَكَةَ السَّابِحِ فِي الْهَواءِ أوْ فِي الْمَاء.

وقَدْ خَلَق اللَّهُ الأشْيَاءَ والأَحْيَاءَ وفَطَرَ مَا كَانَ مَجْبُوراً مِنْها عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مُسَبِّحاً لِلَّهِ دواماً، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

وقَالَ فيها أيضاً:

﴿... يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

وقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿... وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ... ﴿٤٤﴾﴾.

والملائكة تُسَبِّحُ بحمْدِ الله دواماً بإرَادَةٍ فِطْرِيّةٍ فيها هي بمثابة الغريزة.

ولمّا أعطىٰ الله الإنس والجنّ إرادَاتٍ حُرّةً ليبْلُوهم لَمْ يَجْعَلْ مَا هُوَ مختارٌ فيهم مُسَبِّحاً بالفطرة، فأمَرَهُمْ تكْلِيفاً بأن يُسبِّحُوهُ، ليَدْخُلُوا بإراداتِهِمْ فِي عُمُومِ مَا يُسَبِّحُ لله بالْجَبْر أَوْ بِالْفِطْرة.

ولـمّا كَانَ التّسْبِيحُ لله ذكراً لله بمعنى تنزيهِهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِه، أمَرَ اللَّهُ عز وجلّ بأَنْ يَكُونَ التَّسْبِيحُ لَهُ مُقْتَرِناً ومُلْتَبِساً بحَمْدِه، أيْ: بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بصِفَاتِه الْعَظِيمَةِ وأسْمَائِه الْحُسْنَى، وبِكُلِّ مَا يَسْتَحِقُّ أنْ يُحْمَدَ عَلَيْهِ، ولمّا كَانَ لِلَّهِ عزَّ وجلّ كلُّ كَمَالٍ كَانَ لَهُ كُلُّ الْحَمْدِ.

وقـد تـكـرَّر فـي الـقـرآن نـحـو: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ـ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ـ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: وسَبِّحْ تَسْبِيحاً مُلْتَبِساً مُقْتَرِناً بحَمْدِه.

وجاء في السُّنّة تعليمُنَا كيف نُسَبِّحُ بِحمد الله بأن نقول نحو: **[سبحان الله وبحمده]** أي: أُسَبِّح سُبْحَانَ الله، وأَحْمَدُهُ بِحَمْدِهِ، والمعنى: أُنزّه الله كتنزيه الله لنفسه، وَأُثْنِي على الله بما أثْنَىٰ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِه.

وفي التسبيح بحمد الله الفوائد العظيمة التالية:

الفائدة الأولى: أنّه عبادةٌ لِلَّهِ ينالُ بِهَا الْعَابِد عِنْدَ اللَّهِ أَجْراً عظيماً، إذِ التَّسْبِيحُ المستوفي عَناصِرَهُ يَشْغَلُ لِسَانَ الذَّاكِر وفِكْرَهُ وقَلْبَهُ بِربّه.

الفائدة الثانية: أَنَّهُ يُذكِّر الْمُسَبِّحَ بحَمْدِ رَبّه على الوجه المطلوب، بعَنَاصِر القاعِدَةِ الإِيمَانِيَّة، وهذا التَّذْكِيرُ مَعَ حُضُورِ الْقَلْبِ وتَوَجُّهِهِ للتَّفَكُّرِ بِمَعَانِي تَنْزِيهِ اللَّهِ ومَعانِي الثَّنَاءِ عَلَيْه بصِفَاتِه الجَلِيلَة وأسْمَائه الحُسْنَى، يُوجِّهُ الْعَواطِفَ نَحْوَ طَاعَةِ الله والْتِزَام أوَامِره، واجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، فَيكُونُ الذَّاكِرُ المَسبِّحُ بحَمْدِ ربّه أكْثَر تقيُّداً بمُقْتَضَياتِ مَرْتَبةِ التَّقْوىٰ، ثُمَّ مقْتَضياتِ مَرْتَبةِ البِرّ، ثُمَّ مُقْتَضَيَاتِ مَرْتَبةِ الإِحْسَان.

الفائدة الثالثة: أَنَّهُ بِمَثَابَةِ الْعِلاجِ الَّذِي يُفَرِّغُ النَّفْسَ مِنَ الأحْزَانِ والْهُمُومِ والْمَخَاوِفِ، ويَصْرِفُ عَنْها وارِدَاتِها، فتَكْتَسِبُ نَفْسُ المُسَبِّح بحَمْدِ ربِّه عَافِيَتها، وتَسْتَجْمِعُ قُواهَا لِمُوَاجَهَةِ الصِّعَاب مَهْمَا كَانَ شَأْنُها.

الفائدة الرابعة: أنّه بمثَابَةِ السِّلْكِ الكَهْرُبَائِيِّ المُوصِلِ بمَصْدَرِ الطَّاقَةِ الحَقِيقِيَّةِ الكُبْرَىٰ فِي الْوُجُودِ، الّتي تُمِدُّ الْعِبَادَ بِالعَوْنِ والتَّوْفِيق والسَّدادِ والرَّشَاد.

وحَظُّ المُسبِّح بحَمْدِ ربِّه مِنْ هذِه الفوائد يَكُونُ بِمِقْدَارِ حُضُورِ قَلْبه ونَفْسِه وفِكْرِه مَعَ ربِّه فِي أوْقَاتِ ذِكْرِه، فتَنْقُصُ مِنْها الغَفَلاتُ، وتَنْقُصُ مِنهَا شَوَارِدُ الأفْكَارِ، وتنْقُصُ مِنْها عَوارِضُ الشَّهَواتِ والأَهْوَاءِ، ولَوْ كَانَ اللِّسَانُ مُشْتَغِلاً بالتَّسْبِيحِ والْحَمْدِ، ويزْدَادُ النَّقْصُ حَتَّى يُصْبِحَ الذِّكْرُ اللِّسَانِيّ حَرَكَةً آلِيَّةً لا يَتَجَاوَزُ تَأْثِيرُها الْعَضَلاتِ والأعْصَابَ المَادِيَّة الَّتِي تَتَحَرَّكُ بأَلْفَاظِ التَّسْبِيح بِحَمْدِ الله، وكَذَلِكَ كُلُّ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ وصُورِهِ الَّتِي يُؤَدِّيهَا الذَّاكِرُونَ لِلَّه عزَّ وجلّ.

❀ ❀ ❀

قول الله تعالى:

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

أي: كَفَىٰ اللَّهُ حَالَة كَوْنِه عَلِيماً خَبِيراً بذُنُوبِ عِبادِه، وهُو الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ دَواماً.

﴿وَكَفَىٰ﴾: فِعْلٌ مَاضٍ ﴿بِهِۦ﴾ الباء حَرْفُ جَرٍّ زَائِد يزاد في فَاعِلِ كَفَىٰ للتَّأْكِيد، والضَّميرُ العَائِدُ عَلَىٰ الله هُو الْفَاعِل، وهو مرفوعٌ محلًا علىٰ أنَّه مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ ضَمِير الرَّفْع.

﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾: مَعْمُولٌ تَقَدَّمَ علَىٰ عَامِله وهو لفظ «خَبِيراً» لمُراعَاةِ جَمَالِ التَّعْبير في الآيةِ الّذِي يَسْتَدْعِيه التَّنَاظُرُ فِي فَواصِلِ الآيَاتِ، مَعَ مَا فِي هذا التَّقديم مِنَ الدَّلالةِ علَىٰ تَخْصِيص الخبْرَةِ بأَعْمَالِ الْعِبَادِ الَّذِينَ مَنَحَهُمْ اللَّهُ إرَادَاتٍ حُرَّةً غَيْرِ خاضِعةٍ لبَرنَامج جَبْرِيّ سَابِقٍ ليَمْتَحِنُهمْ فِي رِحْلَةِ الحياةِ الدُّنيا، ومُرَاعَاةً لهذا الْمَعنىٰ تَكَرَّر في القرآنِ وصفُ الله عَزَّ وجلّ بأَنَّهُ خَبِيرٌ في مَوْضُوعِ أَعْمَالِ العِبَادِ الَّذِين منَحَهُمُ الله إرَادَاتٍ حرَّةً تتحرَّكُ باخْتِيارِهِمْ، لَا وَفْقَ برنَامَجٍ جَبْرِيٍّ سَابقٍ.

﴿خَبِيرًا﴾: خَبير على وزن «فَعِيل» مُبَالَغة لاسْمِ الفَاعل مِنَ الْخِبْرَةِ، وهِي العِلْمُ الحَاصِلُ عَنْ تَجْرِبَة.

ويظْهَر لَنَا مِنْ إيرَادِ هذِه الجُمْلَةِ غَرَضَانِ:

الغرض الأول: تأكِيدُ تَحْدِيدِ مَسْؤُولِيَّةِ الرَّسُولِ بأَنَّها مسْؤُوليَّة تَبشِيرِ وإنْذارٍ، ومَا يَسْبِقُهُما مِنْ تَبْلِيغٍ وتَعْلِيم وإقْناعٍ وتَربيةٍ ونَحْو ذلك، والتَّهْوِينُ علَىٰ نَفْسِه حتَّىٰ لا يَهْتَمَّ لِمَا عَلَيْهِ الْقَومُ مِنْ كفر وعِصيَان غَيْرةً مِنْ أَجْلِ رَبِّه، فالرَّبُّ الَّذِي أَمَرَ بالإِيمَانِ والطَّاعَةِ، وَوَعَدَ وأَوْعَد، وهُوَ الْقَدِيرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُعْجِزُه شَيْءٌ، ولَا يَنْقُصُ مِن مُلْكِهِ شَيء، خَبِيرٌ بِذُنُوبِ عِبادِه، لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْها شَيْءٌ، وحِينَ يَرىٰ الحِكْمَةَ فِي الْعِقَابِ فإنّه يُعَاقِب.

الغرض الثاني: تَهْدِيدُ الكَافِرِين بأنَّ اللَّهَ مُطَلِعٌ علَيْهم، خَبِيرٌ بِكُلِّ مَا يَكْتَسِبُونَ مِنْ ذُنُوبٍ وآثَامٍ، ويَلْزَمُ مِنْ خِبْرَته بِهِمْ وهُوَ الْحَكِيمُ الْعَدْلُ أَنَّهُ سَيُجازِيهِمْ عَلَىٰ ذُنُوبِهِمْ بِمَا يَسْتَحِقّونَ، مَتَىٰ حَانَ حِينُ الْجَزاء.

وهذا الغرض يناسب ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في السّورة:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.



إجمال معاني هذا الدرس الثامن

• بدأ هذا الدرسُ بتَوْجيهِ الفِكْرِ الَّذِي يَعْتَمِدُ على النَّظَرِ الْعِلْمِيِّ باسْتِخْدَام الْمُلاحَظَةِ عَنْ طَريقِ الْوَسَائِل الإِنْسَانِيَّة لِدِرَاسَةِ ظَاهِرَةِ الظِلّ مِنْ ظواهِر خلْقِ الله الَّذِي أتْقَن كلَّ شيْءٍ، وارْتِباطِ هذِه الظاهِرةِ في الأَرْضِ بالشَّمْسِ الَّتِي هِيَ فِي السَّمَاءِ، لأنّ هذِه الدّرَاسَةَ سَتَهْدِي أُولِي الأَلْبَابِ إِلَىٰ رُبُوبيَّةِ الرّبِّ الْخَالِق، ووَحْدَانِيَّتِه فِي رُبُوبِيَّتِه، للتَّوْصُّلِ مِنْ ذَلك إلى تَوْحِيدِ اللَّهِ فِي إِلَهِيَّتِه الَّذِي هُوَ اللَّازِمُ الْعَقْلِيُّ الأوَّلُ لِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِه.

إنّ دِراسَةَ الظّلّ من خَصائِصِ عُلَمَاءِ الْفِيزِيَاءِ، الَّذِين يَبْحَثُونَ في الضَّوْءِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ دَرَجَاتِه، ويَبْحَثُونَ فِي حَرَكَتِه، وسُرْعَتِه، وانْكِسَارَاتِه وانْعِكَاسَاتِه، وكُلِّ مَا يَتعلَّقُ بِه، ولَا بُدَّ أَنْ تَهْدِيَهُمْ بُحُوثُهُم إلَىٰ الإِيمَانِ بالرَّبِ الْوَاحِد.

ولمّا كَانَ الظِّلُّ في الأَرْضِ مِنْ أثرِ الشَّمْسِ، فإنَّ دِراسَتَه تَسْتَدْعِي نَظَرَ عُلَمَاءِ الْفَلَكَ الَّذِين يَبْحَثُون في النُّجُوم والكَواكِبِ وحَرَكَتِها وسَبْحِهَا في مَسِيرَاتِها، وقَدْ عَلِمْنا أنَّ بُحوثَهُمْ أوْصَلَتْهُمْ إلى عَجَائِبَ مِنْ إتقان صُنْعِ الله، مِنْها: حَرَكَةُ الأَرْضِ باتّجاه الشَّمْس حَوْل نَفْسِها، وحَوْل الشَّمْسِ فِي مَدارٍ مُعَيَّنٍ، ضِمْنَ بُعْدٍ مُعَيّنٍ لَا تَتَعَدَّاه، وذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا بسُلْطانِ ربٍّ خَالِقٍ وَاحِدٍ أحَدٍ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِه، فَلا شَرِيكَ لَهُ فِي إلَهِيَّتِه.

• وانتقل الدرسُ إلىٰ تَوْجيهِ الفِكْرِ الَّذي يَعْتَمِدُ علىٰ النَّظر العِلْمِي أيضاً، باسْتِخدام المُلَاحَظَةِ عنْ طَرِيقِ الوسائلِ الإنْسانيّة، لدِراسَة ظاهراتٍ ثلاث، من ظواهر خَلْقِ الرَّبِّ الواحِدِ الأحَدِ الَّذي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، وهِيَ اللَّيْلُ والنَّومُ والنَّهار، ودِرَاسَةُ هذه الظواهِر تَسْتَدْعِي نَظَر عُلَمَاءِ الفَلَكِ، وعُلَمَاء الطِّبِّ الْبَشَرِي، وعُلَماء النَّفْسِ والاجْتماع، الّذِين يَبْحَثُون في اللّيل والنهار باعْتبارِهِما أثَرَيْنِ لحَرَكَةِ الأرض في دورانها حَوْلَ نَفْسِها في اتّجاهِ الشَّمْس، ويَبْحَثُونَ في النَّوم وحَاجَةِ الأجْسَامِ له، والوَقْتِ الْمُفَضَّلِ لَهُ الَّذي يُلائِمُ صِحَّةَ الإنْسَان، وهُوَ اللَّيْل، ويَبْحثُونَ فِي النَّفْس الإنْسَانِيَّةِ، في حَالَتَي يَقْظَتِها ومَنَامِها، ويَبْحَثُون فِي النَّهَارِ ومَنَافِعِه لِلأرْضِ، ولانْتِشَارِ النّاسِ فيه، ويَبحثُون فِي اللّيْلِ ومَنَافِعه لِلأرْضِ ولِلنَّاس والدَّوابِّ، ومَا فِيه مِنْ سِتْرٍ يُمَثِّلُ حَاجَة ضَرُورِيَّةً مِنْ حَاجَاتِ الْبَشَرِيَّة.

• وانتقل الدرسُ إلى تَوجيهِ الْفِكْرِ الَّذِي يعْتَمِد على النظر أيضاً باستخدام الملاحظة عن طريق الوسائل الإنسانية، لِدِرَاسَةِ ظَاهرتَي الرِّياحِ ومِيَاه الأمْطار، إنّ دِرِاسَة هَاتَيْنِ الظَّاهِرتَيْن تَسْتَدْعِي نظَرَ عُلَماء الطّبيعةِ الَّذِينَ يبحثون في مَنْشأِ الرّياح، وحَرَكَتِها، وأنواعِها وأَصْنَافِها وسُرْعَاتِها وآثارِهَا ووظَائِفها في الكَوْنِ، ويَبْحَثُونَ في تَبخُّر المِياهِ وتَصَاعُدِهَا وتَكَوُّنِها سُحُباً، وسَوْقِ الرِّياح لها، وكيْفَ تَتَجَّمعُ، وكَيْفَ تَتقاطَر مَاءً أو تُنْزِلُ ثَلْجاً أَوْ بَرداً، ويَبْحَثُون فِي الآثَارِ النّافِعَةِ والضَّارّة لِهَاتَينِ الظاهرتَيْن، وقَدْ عَلِمنا أَنَّ بُحُوثَهُمْ أوْصَلَتْهُمْ إلَىٰ عَجَائِبَ مِنْ إتْقَانِ صُنْعِ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ، وهذِه الْعَجائِبُ تَهْدِي أُولِي الألْبابِ إلَىٰ الإيمَانِ بالرَّبِّ الخَالق الوَاحدِ الأحد الَّذِي لا شَرِيكَ له في رُبُوبيّته، فلَا شَريكَ لَهُ فِي إلَهيّته.

ومع تَوْجِيه الفكر إلى هاتَيْنِ الظاهرتَيْن العَظيمَتَيْن نبَّهَ هذا الدرسُ علَىٰ نِعْمَةِ الله علىٰ عِبادِه بالرياح وبالأمطار الّتي تَحْيا بِها الأرضُ، ويَشْربُ منها أنعامٌ وأناسيُّ كثير.

• وانتقل الدرسُ إلىٰ بَيانِ مَا اشْتَمل عَلَيْهِ الْقُرآنُ فِيما نَزَلَ قبْلَ سُورة (الفرقان) مِنْ تَنْويعٍ في الحُجَج والبَراهينِ وأسَالِيبِ الترْغِيب والترْهِيب والتربيةِ لإقْنَاعِ أهْلِ مَكَّةَ ومُلْحَقاتِها بأُسُسِ الدِّينِ، الَّذِي بَعَثَ الله بِه رَسُولَهُ مُحَمّداً، فآمَنَ بِهِ قَليلٌ مِنْهُمْ، وأبَىٰ أكْثَرُهُمْ إلّا كُفُوراً.

ونعْلَمُ أنَّه قَدْ كَان التَّركِيزُ الأوَّلُ عَلَيْهِم ليَكُونُوا قاعِدَةً بَشَرِيَّةً لانْطِلاقِ الدَّعْوةِ الإسْلامِيَّة للْعَالَمِين.

• وانتقل الدرسُ إلىٰ الإشَارة إلى حِكْمَةِ اللَّهِ في إرسَالِ رَسُولٍ خَاتِمٍ للرسالَاتِ السابقات، يكونُ لكُلّ الْعَالَمِين دَاعِياً هَادِياً مُبَلّغاً مُبَشّراً لِمَنْ أطَاعَهُ، ومُنْذِراً لِمَنْ أبَىٰ اتّباعَهُ وعَصَاه، ودلَّتْ هذِه الإشَارَةُ علىٰ أنَّ الّذِين كَفَرُوا قَدْ رأَوْا أنّ ادّعَاءَ مُحمَّدٍ قَدْ زادَ عَلَىٰ مَا كَانَ يَأْتِي به الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِه، إذِ ادَّعَىٰ أنَّهُ رسُولٌ للْعَالَمِين جَمِيعاً وأنَّهُ الرَّسُولُ الخَاتِم، فأطْلَقُوا ألْسِنَتَهُمْ بتَكْذِيبِه، مُتَّخِذينَ مِن ادّعَائِه أنّه نَذِيرٌ للْعَالَمِين ذَرِيعةً للإقْناعِ بأنَّه تَجَاوَزَ حُدُودَ الرسُلِ مِنْ قَبْلِه فَهُو فيما يدَّعِيه غَيْرُ صَادِق.

• وانتَقلَ الدرس إلَىٰ تَنْبِيه الرَّسُولِ علَىٰ مَا يَنْبَغِي لَهُ أنْ يفْعَلَه في هذِه المَرْحَلةِ الّتي نزلَتْ فيها سورة (الفرقان) واشْتَمَلَ هذا التَّنبِيهُ على أمرين:

الأول: ألّا يُطيعَ الكَافِرينَ فِي مَطالِبهم ومُقْتَرحَاتِهم، فيسْألَ ربَّه شَيْئاً مِنْها، رجَاءَ أنْ يُؤْمِنُوا ويَتَّبِعُوه.

أي: فمِثْلُ هذا الأمْرِ مُنافٍ للْحِكْمَةِ، لأنَّهُمْ يَتَشَهَّوْنَ ولَيْسُوا بِحَاجَةٍ إلَىٰ أدِلَّة.

الثاني: أنْ يُضَاعِفَ مُجَاهَدتَه لَهُمْ بِمَا فِي القُرْآنِ مِنْ حُجَجٍ وبيَانَاتٍ وتَرْغِيبٍ وتَرْهِيب وَوَسَائِل تَرْبَوِيّة أُخْرَىٰ.

• ثم اسْتَأْنف الدرسُ تَوْجِيه الفِكْرِ الَّذِي يَعْتَمِدُ علَىٰ النَّظَرِ الْعِلْمِّي

باسْتِخْدَام الملاحَظَة عن طَريق الوسائل الإنسانية، لِدِرَاسَةِ ظاهرتَيْنِ مِنْ ظَوَاهِر الْخَلْقِ الرَّبَّانِيّ، الدّالّ عَلَىٰ أَنَّ الرَّبَّ عَلِيمُ حَكِيمٌ قَدِيرٌ أتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ، وأنَّهُ وَاحِدٌ أحدٌ لا شريكَ له في ربوبيَّتِه، فيجب أنْ لَا يكُونَ له شَرِيكٌ في إلَهيَّته.

الظاهرة الأولى: ظاهرَةُ الْبَحْرَينِ فِي الأَرْضِ، العذْبِ الْفُراتِ، والمِلْح الأُجَاج، بما لَهُمَا مِنْ خَصَائِص يَبْرُزُ مِنْها تَحْلِيلُ عنَاصِر كلِّ نَوْعٍ منْهُما، ومَا اشْتَمَلا عَلَيْهِ مِنْ منَافِعَ ومَصَالِحَ للأَحْيَاءِ، هِي مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ الله بِعبَادِه. ويَبْرُزُ مِنْهَا فَصْلُهُمَا عَنْ بَعْضِهِما بفَاصِلٍ يَمْنَعُ تَمَازُجَهُمَا، ليبقىٰ كلٌّ منهما يؤدّي وظائِفه الَّتِي أَرْسَلَهُ الله في الأرض لِيَقُومَ بها.

الظاهرة الثانية: ظاهِرَةُ خَلْقِ الْبَشَرِ منْ نَوْعٍ منْ أَنْوَاعِ الْمَاء، وهُوَ المَنِيّ، الَّذِي هُو أُعْجُوبَةٌ عَظِيمةٌ منْ أعَاجِيبِ الْخَلْقِ الربَّانِيّ، بمَا فِيه منْ خَصَائِصَ مُذْهِلَةٍ. ومَا فِي هذهِ الظاهِرَة الّتِي تَعْتَمِدُ علىٰ التزاوج، مِنْ عَلاقَاتٍ اجْتِمَاعِيَّة في الاجْتِماعِ البَشَرِيّ تنقَسِم إلى قِسْمَيْن:

القسم الأول: العلاقَةُ القائِمَةُ علَى رَابِطَةِ النَّسَبِ الْمُشْتَقَّةِ مِنَ الرَّحِم.

القسم الثاني: العلاقَةُ القائِمَةُ علَى رَابِطَةِ الصِّهْرِ، الَّتِي يُسَبِّبُها التَّزَاوج.

ودراسَةُ هاتَيْنِ الظاهِرَتَيْن تَسْتَدْعِي نَظَرَ عُلَمَاء الكِيمياءِ، والْجُيُولُوجْيَا وعُلَمَاء الأَحْياء، وعُلَمَاء الاجْتِماع.

ومن يُطَالع ما توصّل إليه هؤلَاءِ العُلَماءُ حَوْلَ هَاتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْنِ يَجِد مَا يَمْلَؤُهُ دَهْشَةً بعَظَمَةِ الْخَالِقِ الْعَلِيم الحَكِيم الْقَدِير الّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْء، وهذِه الدَّهْشَةُ تَدْفَعه إلى الإيْمَانِ به، والخُضُوع لجَلَالِه، والعِلْم بأنَّه وَاحِدٌ أحَدٌ في ربُوبِيَّتِه لا شَرِيكَ له، فَيَعْبُدُه وحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِعبادَتِه أَحَداً.

- وبَعْدَ مَا سَبق مِنْ تَوْجِيهِ الْفِكْرِ لِدراسَةِ قَدْرٍ كَافٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ في

كَوْنِه لإقْناع أشدّ المتعَنِّتين الْمُتَمَسِّكِينَ بالشُّبُهاتِ، حوْلَ انْفِرادِ اللَّهِ بالرُّبُوبِيَّة في الْوُجُودِ، الذي يَلْزَمُ عَنْهُ عَقْلاً وجُوبُ إفْرادِه بالعبادة، فلا يُعْبَد معه أحَدٌ، إذْ لا يُشارِكُه في ربُوبيَّتِه أحَدٌ. أبانَ الله عزَّ وجلّ في هذا الدرسِ أنَّ الْمُشْرِكينَ الَّذِين كَفَرُوا لَا يَزَالُون يَعْبُدونَ بإصْرَارٍ وعِنَادٍ ما لَا يَنْفَعُهُم ولَا يَضُرُّهُمْ، فلَمْ تُلَيِّنْ عِنَادَهُم الْمُتَصَلِّبَ المتشدِّد أشَدُّ الْبَراهِين، فكَانُوا بعِنَادِهِمْ وتَصَلُّبِهم وتَشَدُّدِهِمْ مُظَاهِرِين لإبْلِيسَ فِيمَا تَعَهَّد به لرَبِّهِ إذْ قالَ لَهُ، مَا جاء بيانُهُ في قول الله عزَّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

• وأخيراً حدَّد الله عزَّ وجلّ لرسُولِه وظِيفَتَه، فأبَانَ لَهُ أنَّه مَا أَرْسَله إلّا مُبَشِّراً ونَذِيراً، أيْ: لَيْسَ عَلَيْهِ منْ وَظِيفَةٍ بعْدَ أنْ يُبَلِّغ ويُبَيِّن ويُعَلِّم ويَنْصَحَ ويَسْتَخْدِمَ كُلَّ وسَائِلِ الإقْناعِ والتَّرْبِيةِ إلّا أنْ يُبَشرَ مَنْ آمَن بِه واتَّبَعُه، ويُنْذِر مَنْ كَفَر وأبىٰ، والمعْنَىٰ أنَّه لَيْسَ مَسْؤُولاً عَنْ تَحْوِيلِ النَّاسِ بالإكْرَاهِ والإلْزَامِ والْجَبْرِ إلَىٰ مَا هُوَ مَطلُوبٌ مِنْهُمْ في الدّين، فَهُمْ مُزَوَّدُون بإرادَات حُرَّةٍ، وهُمْ مُمْتَحَنُونَ، والْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ أنْ يَخْتَارُوا بِحُرِّيّاتِهم مَا يَشَاءُون، والله بَعْدَ ذَلِكَ يُجَازِيهِمْ علَىٰ أعْمَالِهم الَّتِي قَدَّمُوهَا باخْتِيَارِهِمُ الحرّ. إنّه الاخْتِيَارُ الْمُسْتَتْبَعُ بالمَسْؤُولِيَّةِ والجَزاء.

وبعْدَ أَنْ حدَّدَ الله لِرَسُولِه مَسْؤُولِيَّتَه، وجَّهَه لأرْبَعِ قضايا:

القضيةُ الأولى: أن يُعْلِنَ للْجَمِيع فيقول: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قَلَّ أَمْ كَثُرَ، إلّا مَنْ شَاءَ أنْ يَتَّخِذَ إلى ربّه سَبيلاً، حتَّى يُثيبَهُ اللَّهُ علَىٰ ما يُقَدِّمُه لرَسُولِه مِمَّا قَدْ يُوهِمُ فِي ظَاهِرِه أَنَّهُ أجْر للرَّسُول علَىٰ مَا يَبْذُلُ لأمَّتِه مِنْ نُصْح وتَعْلِيم وَتَرْبِيَةٍ وحِرْصٍ عَلَىٰ نَجَاتِهم وسَعَادَتِهم وَتَضْحُيَاتٍ مِنْ أَجْلِهم، فَلهُ أَنْ يَفْعَل ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّه.

القضيةُ الثانية: أنْ يتوكَّل فِي أَمْرِهِ كُلِّه عَلىٰ الحَيِّ الّذي لا يَمُوت، مَعَ اتّخَاذِه الأَسْبَابَ الكَونيّة والدِّينيَّة لتَحْقِيقِ مَا يَرْجُو مِنْ خَيْرٍ في مَسِيرَةِ دَعْوَتِه.

القضيةُ الثالثة: أَنْ يُسبِّح بحَمْدِ الله مَعَ أَدَائِه رِسَالَتَه فِي قَوْمِه، لِمَا للتَّسْبِيح بحَمْدِ الله مِنْ فَوائِدَ جَلِيلَةٍ إيمَانِيَّة، ونَفْسِيَّةٍ، وجَزَائِيَّةٌ مُعَجَّلَةٍ ومُؤَجَّلَة.

القضيةُ الرابعة: ألّا يَهْتَمَّ لمَا عَلَيْه الْكَافِرُون مِنْ كُفْرٍ وعِصْيانٍ، فاللَّهُ صَاحِبُ الشَّأْن خَبِيرٌ بِهِمْ، وكَفَىٰ بِه بذُنُوبِ عِبَادِه خَبِيراً.

وفي هذا التوجيه تأْكِيدٌ لتَحْديدِ مَسْؤُولِيَّةِ الرّسُول، وتَهْدِيدٌ للكَافِرِينَ بأَنَّ العِقَابَ آتِيهم لا مَحَالة إذَا لَمْ يَتُوبوا ويَسْتَغْفِروا ربَّهُمْ.

وبهذا انتهى تدبّر الدّرْس الثامن من دُروس السورة على ما فتح الله به، وأمَدَّ، وأعان، ويسَّر.



(١٤)
التدبّر التحليلي للدَّرْسِ التاسِعِ من دُروس السورة
وهو الآيات من (٥٩ ـ ٦٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

القراءات:

(٥٩) • قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائِيُّ، وخَلَفٌ في اختياره: **[فَسَلْ]** بحَذْف الهمزة ونقل حَرَكَتِها إلى السّين، وهو وجْهٌ عَرَبي. وهي قراءة حمزة في الوقف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَسْئَلْ﴾ على أصل القاعدة في التصريف دون حذف.

(٦٠) • قرأ حمزة، والكِسَائي: **[يَأْمُرُنَا]** بضَمِير الغائب، يقْصِدُون الرسول محمّداً ﷺ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تَأْمُرُنَا﴾ خطاباً للرسول ﷺ.

والقراءتان تدُلّان على أنّهم واجَهُوا الرَّسُولَ بقولهم له: **[أَنَسْجُدُ لِمَا تأمُرنَا]** وأنَّهُمْ قَالُوا في غيابه: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا﴾ فبَيْنَ القراءتين تكامُلٌ في حكايَةِ ما جَرىٰ من مشركي مكة الّذين كانوا ينكرون أنّ «الرَّحْمٰن» من أسماء الله عزَّ وجل.

(٦١) • قرأ حمزة، وَالكِسَائِيُّ، وخَلَفٌ: **[سُرُجاً]** بالْجَمْع، وهي تَدُلُّ على الشَّمْسِ مع النجوم البعيدة عنَّا في السَّماء، فهي كالشَّمْسِ أجرامٌ ناريّة ملتهبة، ومنها ما هو أعظم وأكبر من الشمس.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿سِرَاجًا﴾ بالإفراد، مراداً به الشَّمْسُ القريبة منا.

فبَيْن القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد.

(٦٢) • قرأ حمزة وخلف: **[لِمَنْ أرادَ أنْ يَذْكُر]** من فِعْلِ «ذَكر».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ من فعلِ «تذكّر».

وفي هاتَيْن القراءتَيْن تكاملٌ فكرِيٌّ، إذْ من أهْل الإيمان من يكُونُ ذَا

إيمانٍ قويّ، وحِرْصٍ على الارتقاء إلى دَرَجَاتِ التقوىٰ العليا، فإلى دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ البرّ، فدَرَجَاتِ مرتبة الإحسان، فيريدُ زِيَادة الاهتمام والعناية بالتَّذَكُّر، وهذا الصنف تُناسبُ حالَهُ قراءة: ﴿يَذَّكَّرَ﴾ ومن أهل الإيمان من تقصُرُ همَّتُهُ، فيُرِيدُ أن يَذْكُرُ أحياناً، وهذا الصّنْفُ تناسبُ حَالَهُ قراءَة: [يَذْكُرَ] وفي كلّ من الصنفين درجات.

تمهيد:

في هذا الدرس بيانُ مَوْقِفِ كُبَراء كُفّار مكّة من صِفَةِ الرَّحْمَة لله عزَّ وجلّ، ومن اسْمِه المشْتَقّ مِنْها، وهو اسم الله الرحْمٰن، ويَتْبَعُهُ اسْمُ الله الرَّحِيم، إنَّهُم يُنْكِرون ذلك، وإنكارُهُمْ لَهُ يدلُّ عَلَىٰ أنّهم يُنْكَرُونَ بَعْضَ عَناصِر رُبُوبِيَّةِ الله عزَّ وجلّ، وهو ما يتَّصِل بعنايَتِه بهم.

وهذا الدَّرْسُ من السورة يُعالِجَ هذِه القضيَّةَ من قَضايا كُفّار مكّة إبّانَ تَنْزِيل سُورَةِ (الفرقان).

إنّ كُفّار مكَّةَ يُؤْمِنُونَ بأَنَّ الله عزَّ وجلّ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ورَبُّهُما، لكِنَّهُمْ يُنْكِرُون مِنْ صِفَاتِه أَنَّهُ الرَّحْمٰن.

لِذَلِكَ فَهُمْ يَلْتَمِسُونَ الرَّحْمَةَ مِنْ آلِهَتِهِم الَّتي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ الله، مَعَ أنّها في الحَقِيقَةِ لا تَرْحَمُهُم، فَلَا تَجْلُبُ لهم نفعاً، ولا تَدْفَعُ عَنْهم ضرًّا. ولا يَلْتَمِسون الرَّحْمَةَ مِن الله خَالِقِهِم الّذِي يشْمَلُهُم بفُيُوضِ عَطَاءَاتِه رَحْمَةً بِهِمْ، وإذَا دَعَوْهُ مضطَّرِّين اسْتَجَابَ لَهُمْ ولَوْ كَانُوا كَافِرِينَ بِه.

وظَلُّوا مُصِرِّينَ عَلَىٰ إنْكَارِ أنّ مِنْ صِفَاتِه عزَّ وجلّ صِفَةَ الرَّحْمةِ، وأنّ مِنْ أَسْمَائِه تبارك وتعالى أَنَّه الرَّحَمَنُ الرَّحيم.

وممّا يَدُلُّ علىٰ هذا أنَّ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرو رَسُولَ قُرَيْشٍ إلَىٰ النبيِّ ﷺ في صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذي كانَ فِي آخِرِ سَنَةِ سِتٍّ للهِجْرَة، أَنْكَرَ أَنْ يَبْدأ الرسُول ﷺ كِتَابَ الصُّلْحِ بـ«**بسم الله الرحمن الرحيم**».

فبَعْدَ الاتّفَاقِ علَىٰ أنْ يَرْجِعَ الرسُولُ وأصْحَابُه مِنْ عَامِهِمْ ذَلِكَ، دُونَ أَنْ يُؤدُّوا عُمْرَتَهُم، دَعَا رسُولُ الله ﷺ عليَّ بنْ أَبِي طالبٍ فقال: اكْتُبْ: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم.

فقالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمرو: لَا أعْرِفُ هذا، ولَكِن اكْتُبْ: باسْمِكَ اللّهُمّ.

فقال رسولُ الله ﷺ: اكْتُبْ: باسْمِكَ اللّهُمَّ، فكَتَبَها...

إنّ كُفَّارَ مكَّةَ ومثْلُهُم كَثِيرُ مِنْ كُفَّارِ العَرَبِ كَانُوا يؤمنون بأنّ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ والأَرْضَ هُو الله، لَكِنَّهُمْ يُنْكِرُون مِنْ صِفَاتِه مَا لَهُ تعلُّقٌ بِهِمْ مِنْ مَظَاهِر الرَّحْمَةِ، كالرّزق، والنَّصْرِ، والشِّفَاء والْعَافِيَةِ، وجَلْبِ المَنَافِعِ ودَفْعِ المَضَار. ويَجْعَلُونَ هذِه لآلِهَتِم الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ الله، فَهُمْ يَعْبُدُونَها مِنْ أَجْلِ ذَلِك، وهذا إِشْرَاكٌ فِي رُبُوبِيَّةِ الله.



التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾.

اسم الموصول مع صلته وما عطف عليها، مبتدأ، خبره: «الرّحمٰنُ» وقد سبق إلى أذهان كثيرٍ من أهل التأويل أَنَّ اسم الموصول في هذه الآية صفة لـ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ الوارد في الآية السابقة، فجعلوا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: هو الرحمن، فابْتَعَدُوا بهذا عَنِ الْغَرضِ الّذِي جاءَتِ الآيةُ لمُعَالَجتِه، وهو إقْنَاعُ الْمُشركِينَ بأَنَّ الَّذِي يُؤْمِنُونَ به خَالِقاً للسَّمَاوَاتِ والأرضِ ومَا بَيْنَهما هُوَ الَّذِي لَهُ صِفَةُ الرَّحْمَةِ الّتِي يَرْحَمُ بِها عِبادَه، فَهُو الّذِي إنْ شَاءَ دَفَعَ عَنْهُم الضُّرّ وجَلَبُ لَهُمُ النَّفْعَ، علَىٰ خِلَافِ زَعْمِهِم مِنْ إِسْنَادِ ذَلِكَ إلى مَا اتَّخذُوه مِنْ آلِهَةٍ مِنْ دُونِه.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أي: فِي سِتَّةِ أحقَابٍ زَمَنِيَّة، الله أعْلَمُ بِمِقْدَارِ كُلِّ حِقْبَةٍ مِنها.

إنّ لَفْظَ «الْيومِ» قد جاءَ في القرآنِ علَىٰ أَنْواعٍ، منْها يَوْمُ النَّاسِ في الأرْض، ومنْها يَوْمُ الْحياة الدُّنْيا، ومنْهَا يَوْمُ الدِّين، ومِنْهَا يَوْمٌ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ممّا يَعُدُّ النَّاسُ، ومِنْها يَوْمٌ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ ممَّا يَعُدُّ النَّاسُ، وجَاءَ إطْلَاقُ لَفظِ الْيَوْمِ علَىٰ مُطْلقِ زَمَنٍ مَا.

وبمَا أنّ قَضِيَّةَ الأيَّام السِّتَّةِ هِيَ مِنَ أُمُورِ الْغَيْبِ الْمَاضِي، ولَمْ يَأْتِ عَنِ الشَّارِعِ بَيَانُ نَوْعِ هذِهِ الأيَّامِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا السَّمَاوَاتِ والأرْضَ ومَا بَيْنَهُما، وقَدْ تَنَوَّعَتْ مَفَاهِيمُ الْيومِ فِي عِبَارَاتِ الشَّارِعِ، فَمن الواجب علىٰ الْمُؤْمِنِ التَّسْلِيمُ بمَا جَاءَ في النصِّ مِنْ تَحْدِيدِ سِتَّةِ أَيَّامٍ، دُون تَحْدِيدِ مُدَّةِ كُلِّ يَوْمٍ منها.

ولعُلَمَاء البَحْثِ الكَوْني تَقْدِيرَاتٌ زَمَنِيَّة لَا تَسْتَطِيع الأذْهَانُ تَصَوُّر أَرْقَامِها، لَدَىٰ تَقْرِيبِ مَقَادِيرِ الأَزْمَانِ الَّتِي تَمَّتْ خِلالَها التحوُّلَاتُ في الكَوْنِ، ممَّا كَانَ عَلَيْهِ سَدِيماً، حتَّى صَارَ إلىٰ مَا وَصَلَ إلَيْهِ عِنْدَ ظُهورِ الْحَيَاةِ عَلَىٰ الأرض.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ﴾: اسْتِوَاءُ الله على العرش شَيْءٌ وَصَفَ الله بِهِ نَفْسَه، وَإنَّ أَحْسَنَ بَيانٍ حَوْلَ هذا الْوَصْف مَا قَالُه الإمام مالك: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والاسْتِواءُ غَيْرُ مَجْهُول، والإِيمَانُ بِه وَاجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَة».

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: اسمُ من أسماء الله مشتقٌّ من الرَّحْمَةِ كالرَّحِيم، وهُمَا وَصْفَانِ دَاخِلان فِيمَا يُسَمِّيه عُلَماءُ العربيّة «الصِّفَةَ المشبّهة باسْمِ الْفَاعِل».

ولا شكّ أن «الرَّحمٰن» و«الرَّحِيم» أبْلَغُ من اسم الفَاعِل «رَاحِم» لزيادة مَبْنَاهُما، فَزِيَادَةُ الْمَبْنَىٰ فِي لسَانِ الْعَربِ تَدُلُّ غَالباً عَلىٰ زِيادَةِ المَعْنَىٰ.

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾: أيْ: فاسْأَلْ عَنْه خَبِيراً، فَحَرْفُ البَاء هُنَا فِي ﴿بِهِۦ﴾ بِمَعْنَىٰ «عَنْ» ونظيره قولُ الشَّاعِرِ عَلْقَمة:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي   خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

أي: فإن تَسأَلُونِي عَنِ النِّساء.

ونَتساءَلُ: مَنْ هُو الْخَبِيرُ الّذِي يُفيدُ الْمُشْرِكَ إذَا سَأَلَهُ عن كَوْنِ الله عَظِيم الرَّحْمَة بعباده؟

أقول: الْخَبِير في اللّغة هو الْعَالِمُ بالأَمْرِ عَنْ تَجْرِبَةٍ ومُمَارَسة.

ويقولون: الْمَخْبَرُ خِلَافُ المنْظَر، أي: ما تُظْهِرُه التَّجْرِبَةُ مِنَ الوَاقِعِ الْخَفِيّ خِلافُ ما يُبْدِيه المنْظَر للعُيُونِ.

ويقال: صدَّقَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ، أي: صَدَّقَ الْعِلْمُ الْمُسْتَنِدُ إِلَىٰ اخْتِبارٍ وتَجْرِبَةٍ ما حدَّثَ بِه الْمُخْبِر فِي خَبَرِه.

وقال أبو الدرداء: وجَدْتُ النّاسَ: اخْبُرْ تَقْلَهُ، أيْ: إذا امْتَحَنْت واحِداً منهم بالتَّجْرِبَة والاخْتِبارِ قَلَيْتَه، بمَعْنَىٰ هَجَرْتَهُ أوْ أبْغضْتَه.

فقولُه تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، يُرْشِدُ إلىٰ اسْتِخْدَام طَرِيقَةِ اسْتِقْراء الْخُبَراء، الَّذِين جَرَّبُوا فِي حَيَاتِهِم رَبّهم عَنْ طَرِيقِ الدُّعَاء، والتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ في الْمُلِمَّاتِ والأَزَمَات والضَّرُورَاتِ، فإِنَّهُمْ سَيُخْبِرُون بمَا جَرىٰ لَهُمْ فِي تَجَارِبِهِمْ مع ربِّهم، ويُثْبِتُون أنَّه قَدْ رَحِمَهُمْ فاسْتَجَابَ لَهُمْ لمَّا الْتَجؤوا إِلَيْه متَضَرِّعِينَ دَاعِين عَابِدين.

فَإِنْ كَانُوا في ضُرٍّ رَحِمَهُم فَكَشَفَ عَنْهُم الضُّرّ، لأَنَّه الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيم، وإن كانوا في ضَرُورَةٍ رَحِمَهُمْ فَاسْتَجَابَ لَهُم، فآتَاهُمْ مَا دَفَعَ بهِ ضَرُوراتِهم، لأَنَّه الرَّحْمَنُ الرّحِيم.

ومِنَ الْحَقّ أَنّ إجَابَةَ الله لمُضْطَّرٍ إذا دعاه مخْلِصاً لَهُ الدُّعَاء، إحْدَىٰ

الأدِلَّةِ القويَّة التَّجْرِيبيَّةِ الدّالَّةِ علىٰ وُجودِه سُبْحانَه، والدَّالَّةِ علىٰ رَحْمَتِه وعِنَايَتِه بِعِبَادِه، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول):

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وهذا البرهَانُ التَّجْرِيبيُّ يسْتَطِيع أنْ يَخْتَبِرَهُ كُلُّ إنْسَانٍ رَاغِبٍ فِي التَّحقُّق من وجُودِ الرّبّ الخالق عزَّ وجلّ، صَادِقٍ في الْبَحْثِ عَنِ الْحَقّ ليُؤْمِنَ بِه، غير مُتَشَهٍ في المَطَالِب، ولَا مُتلاعِبٍ فِي الْمَقَادِير والسُّنَن الرَّبَّانِيّة، بشَرْطِ أنْ يَكُونَ مُخْلِصاً للَّهِ فِي دُعَائِه لَا يُشْرِكُ بِه شيئاً.

إنّ تَجَارِبَ النَّاس الْمُتَكرِّرَة لِهذِه الظَّاهِرَةِ لَا تُحْصَىٰ ولَا تُسْتَقْصَىٰ، وأَكَادُ أُأَكِّدُ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مَرَّتْ فِي حَيَاتِه ضَرُورَةٌ، والْتَجَأَ فِيها إلى ربّه دَاعِياً مُتَضَرِّعاً، إلّا اسْتَجَابَ الله لَهُ.

لكِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ، كُلَّمَا الْتَجأ إلىٰ رَبِّه فِي شِدَّةٍ أَحَاطَتْ به، ليَكْشِفَ عَنْه الضُّرَّ، ثمّ كَشَفَ الله عَنْه مَا أَحَاطَ بِهِ، مُسْتَجِيباً لِدُعَائِه، عَادَ إِلَىٰ جُحُودِه، وكُفْرَانِ نِعْمَةِ الله عَلَيْه، ويُعلِّلُ كَشْفَ ما أَحَاطَ بِه مِنْ بَلاءٍ بالأَسْبَابِ والْمُصَادَفَات.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: قَالُوا: لَا نَسْجُدُ للرَّحْمٰن، وَمَا الرَّحْمٰنُ؟ دلَّ عَلَىٰ هَذا الكَلَامِ الْمَحْذُوفِ وجُودُ حَرْفِ الْعَطْفِ (الواو) في صَدْرِ جُمْلة: وَمَا الرَّحْمٰن؟

ولَوْلَا ذَلكَ لكَانَ يَنْبَغِي أن يكون التعبير: قالوا: مَا الرحمٰن، بدُونِ حَرْفِ العطف.

إنَّ الإيمان بربُوبيَّة الله عزَّ وجلّ لا يكون تامًّا حتى يكون شاملاً لكلّ عناصر ربوبيته التي تدلُّ عليها صفاته وأسماؤه الحسنى، ومنها اسم الله الرحمن الدالّ على رحمته التي وسعت كلّ شيءٍ، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

ولمّا كَانَ كفّارُ مكَّةَ يَوْمئذٍ غير مؤمنينَ بهَذَا الْعُنْصِر مِنْ عَنَاصِر رُبُوبِيَّةِ الله عَزَّ وَجَلّ أَنْكَرُوا اسْمَ اللَّهِ الرَّحْمٰن، وإذَا قِيل لَهُم اسْجُدوا للرّحْمَنِ قَالوا: لَا نَسْجُدُ للرّحْمٰن، ومَا الرَّحْمَن؟

إنّهُمْ لَا يَجْهَلُون الْمَعْنَى الَّذِي يَدُلُّ عليه لَفْظُ «الرَّحْمَن» المشْتَقُّ مِنَ الرَّحْمَةِ، ولَا يَجْهَلُون أَنَّ مَنْ يتّصِفُ بالرَّحْمَةِ الْعَظِيمة الوَاسِعَةِ يُطْلَق عَلَيْهِ أَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم.

لكنَّهُم غَيْر مُؤمنين بأنّ اللَّهَ الْخَالِقَ يتَّصِفُ بالرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ الْوَاسِعَةِ، إنَّهُم يرَوْنَه خَالِقاً قويًّا عزيزاً، أَمَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَلِك رَحْماناً رحِيماً فهٰذا بَعيدٌ عن تصوُّرِهم، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُون أنَّ مطَالِبَهُم فِي حَيَاتِهِمْ تَقْضِيهَا لَهُمْ آلِهَتُهم الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ الله.

ثُمّ لمّا قَالَ لَهُم الرَّسُول: اسْجُدُوا لله الرَّحْمٰنِ الّذي يَشْمَلُكُمْ برَحْمَتِه، فَيرْزُقُكُم ويُمِدُّكُمْ بفُيُوضِ عَطَاءَاتِه لَمْ يَقُولُوا: ومَنِ الرَّحْمٰنِ؟ بَلْ قَالُوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾.

لأنَّ لَفْظَة «مَا» يُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنْ أَعْيَانِ الأشياء، الَّتِي لا تَعْقِلُ ولا تَعْلَمُ، أَوْ عَنْ أَجْنَاسِها وصِفَاتِها، أَوْ عَنْ أَجْنَاسِ أُولِي الْعِلْم وأَنْواعِهِم وصِفَاتِهِم، ولا يُسْتَفْهَمُ بها عَنْ أَعْيَانِ أُولي العِلْم.

فقولهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ؟﴾ يَدُلُّ علَىٰ أنّهم يَسْتَفْهِمُونَ عَنِ الظَّواهِرِ الَّتِي تَدلُّ علَىٰ أنّ الله القويَّ الْعَزِيزَ مُتّصِفٌ حَقِيقةً بالرَّحْمَةِ، أيْ: ومَا هِيَ ظَواهِرُ كَوْنِ الله رَحْمَاناً؟

لذَلِكَ جَاء في الآيَتَيْنِ التالِيَتَيْنِ لِهَذِهِ الآية بَيَانُ بَعْضِ ظَواهِرِ رَحْمَتِه عزَّ وجلّ، وبَعْضِ آيَاتِه فِي كَوْنِه الدَّالَّةِ علىٰ أنَّه هو الرَّحْمَنُ الرَّحِيم.

فلَقَدْ جَعَل مِنْ رَحْمَتِه بعبادِهِ في السَّمَاءِ بُروجاً، وجَعَلَ فِيهَا سِراجاً وقَمَراً مُنِيراً، وجَعَل اللّيلَ والنَّهارَ يَتَعَاقَبان بِنِظامٍ دَقِيقٍ، وفي كُلِّ ذَلِك منَافِعُ كَثِيرَةٌ للنَّاسِ، وهِيَ مِنْ عِنَاية اللَّهِ ورَحْمَتِه بِعِبادِه.

ومِنْ حِكْمَةِ الله أنَّهُ اخْتَار تَقْدِيمَ ظَواهِرَ وآياتٍ سَمَاوِيَّةٍ ذَاتِ آثَارٍ أَرْضِيَّةٍ، لأنّ آلِهَتَهُم أرْضِيُّونَ لَا يَصِلُونَ إلَىٰ التَّصرُّفِ بمَا فِي السَّمَاءِ بحَسَبِ مُعْتَقَدَاتِهِم، ولَوْ أنّه اخْتَار ظَواهِرَ وآيَاتٍ أرْضِيّة لَقَالُوا: هَذِه مِنْ رَحْمَة آلِهَتِهم بِهِم، ولَجَادَلُوا فيها.

﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ أو [أَنسجُدُ لِمَا يأمُرنا]: أيْ: أَنَسْجُدُ لِوَصْفٍ تَأْمُرنا أنْ نَسْجُدَ لله مِنْ أجْلِه ـ وأنَسْجُدُ لوَصْفٍ يأمُرنا مَحَمَّدٌ أنْ نَسْجُدَ للَّهِ مِنْ أجْلِه، ونَحْنُ لَا نعلَمُهُ، ولَا نَجِدُ لَهُ أثَراً فِي حَيَاتِنَا؟!

وسَبَبُ إنْكَارِهِمْ هذا أنّهُم يَعْتَقِدُونَ أنَّ آلِهَتَهُمْ الَّتي يَعْبدُونَها منْ دُونِ الله هِيَ الَّتِي تَجْلُبُ لَهُمْ المَنَافِعَ فِي حَيَاتِهم، وتَدْفَعُ عَنْهُم الْمَضارّ.

ولذلك قالَ أَبُو سُفْيان قَائِدُ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَة أُحُدٍ، بَعدَ أَنِ انْكَشَفَ المُسْلِمون، وتحوَّلَتْ عَنْهُم رِياحُ النَّصْرِ: أُعْلُ هُبَل، زَاعِماً أنّ انْتِصَارَ الْمُشْرِكِينَ قد كَانَ بِسَبب إمْدَادِ الصَّنَم الْمَعْروفِ «هُبَل» لَهُمْ بالنَّصر.

فأَجَابَه عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِي الله عَنهُ بقَولِه: اللَّهُ أعلَىٰ وأجلّ.

﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾: أيْ: وزَادَهُمْ الرَّسُولُ إذْ قَال لَهُمْ: اسْجُدُوا للرَّحْمٰنِ، نُفُوراً عَنِ السُّجُودِ لله عزَّ وجَلّ.

النُّفُور: الإعْرَاضُ والصَّدُّ والابْتِعَادُ كحَالَةِ الْمَذْعُورِ الشَّارِدِ، أَو الْمُتَمَنِّع المتَراجِعِ بِحِران.

وبيانُ زِيَادةِ نُفُورِهم عنْدَ دَعْوَتِهم إِلَىٰ السُّجُودِ للرَّحْمَنِ يدُلُّ علَىٰ أنَّهم حينَ كَانَ يُقال لَهُم: اسْجُدوا لله خَالِقِكُم وخَالِقِ السَّماوَاتِ والأَرْضِ كانُوا يُعْرِضُونَ ويَتولَّوْن ويَنْفِرُون، مَعَ إيمَانِهم بأنَّه خَالِقُهم وخَالِقُ السَّماواتِ والأَرضِ، وذَلِكَ بسَبَبِ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ فِي سُجُودِهم لله فَائِدَةً لَهُمْ، فَحِينَ أُثِيرَتْ قَضِيّة سُجُودِهِم للرّحمن زَادَهُمْ ذَلِكَ نُفوراً، ذَلِكَ لأنَّهُمْ لا يُؤمِنُون بأنّ الرَّحْمَةَ مِنْ صِفَاتِه.

وقَدْ سَبَقَ أنْ أَمَرَهُمْ الله بالسُّجُود لَهُ فِي سُورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) فقالَ تعَالى لَهُم:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾.

لكنَّهُمْ لم يَسْتَجِيبُوا لهٰذا التَّكْلِيف، فلَمْ يُؤْمِنُوا ولَمْ يَسْجُدوا.

❁ ❁ ❁

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾: أيْ: تَنامَى وتَزَايَدَ وتَعَاظَم بالإطْلَاقِ العَامِّ عَنْ كُلّ مَا يَصِفُه الواصِفُونَ مِنْ كَمَالَاتٍ، لأنَّه أجَلُّ وأَكْبَر وأَعْظَمُ وأكْثر.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾: **الْبُروجُ**: هِيَ مَنَازِلُ الكَوَاكِبِ والنُّجُومِ السيَّارَة، وأَصْلُ مَعْنَى البُروجِ فِي اللُّغَة الْقُصُورُ الْعَالِية الْمُشْرِفَة الظاهِرَة الْمُتَطَاوِلَة فِي السَّمَاءِ، وسُمِيَّتْ مَنازِلُ السيَّاراتِ فِي السَّماء بُروجاً، لأنَّها لِهذِه السَّيَّارَاتِ بمَثَابَةِ الْقُصُورِ الْعَالِية المُشْرِفة لِسُكَانِها.

ويقال لغة: بَرَجَ الشيءُ يَبْرُجُ بُروجاً إذَا ارْتَفَع وظَهَر، ويقال: تبرَّجَت السَّماء، أي: تزيّنَتْ بالكَواكِب. وتبرَّجَتِ الْمَرأة، إذَا أَظْهَرَتْ مَحَاسِنها وتَزَيَّنَتْ، ومَا يَحْتَاجُ مِنْها لإبْرازِ جَمَالِه إلىٰ رَفْعٍ رَفَعَتْهُ وأَعَلَتْهُ وأَظْهَرَتْهُ.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾: أيْ: وجَعَلَ فِي الْبُروجِ أوْ فِي السَّمَاءِ لأنّ البُروجَ هِيَ أيْضاً فِي السَّمَاء ـ سِرَاجاً، وهِيَ الشَّمْسُ الَّتِي هِيَ كالسِّرَاجِ، إذْ هِيَ كَوْكَبٌ ناريٌّ مُشْتَعِلٌ ذُو لَهَب. وقَمَراً منيراً، أيْ: ذَا نُورٍ، وقَدْ كَشَفَتِ الدّرَاسَاتُ الإنْسَانِيَّةُ ثُمَّ الْمُشَاهَدَة أنّ الْقَمَر كَوْكَبٌ بارِدٌ، وأنّ النُّورَ الذي يَنْبَعِثُ مِنْه هُو انْعِكَاس ضَوْءِ الشَّمْسِ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَىٰ سَطْحِه.

وفي الشَّمس والقَمر قال الله عزَّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا... ۝٥﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾.

فدلّتْ هذِه النُّصُوصُ علَىٰ مَا أَثْبَتَتْه الْمَعَارِفُ الإنْسَانِيَّة الَّتِي جَاءَتْ مُتَأَخِّرَةً مِنْ أنّ الْقَمَر عَاكِسُ نُورٍ فَقَطْ، ولَيْسَ لَهُ ضِياءٌ ذَاتِيٌّ صَادِرٌ عَنْه.

وقد أَثْبَتَتِ الْمَعَارِفُ الإنْسَانِيَّة أنَّ الطَّاقَة الشَّمْسِيَّةَ الّتي تَصِلُ إلَى الأَرْضِ هِيَ سَبَبُ كُلِّ مظاهِر الحَيَاةِ فِيها، ولَوْلَا الطَّاقَةُ الشَّمْسِيَّةُ لبَرَدَتْ وجَمَدَتْ، ولمَا كَانَتْ صَالِحةً لظُهورِ الحَياةِ عليها.

ولا شَكّ أنّ كُلًّا مِنَ الشَّمْسِ والقَمَر مُسَخّرٌ برَحْمَةِ اللّهِ وعِنَايَتِه لمَصَالِحِ الأحْيَاءِ علَىٰ الأَرْضِ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾: أيْ: جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهارَ يَتَعَاقَبان فيَخْلُفُ كلٌّ مِنْهُما الآخر.

يقال لغة: رَجلَانِ خِلْفَةٌ، أيْ: يَخْلُفُ أَحَدُهُما الآخر.

إنّ تَعَاقَبَ اللَّيْلُ والنَّهار مِنْ نِعَم اللَّهِ الظَّاهِرَةِ فِي الأَرْضِ، بتَأْثِيرِ نِظَامِ حَرَكَةِ الأرْضِ حَوْلَ نَفْسِها، وهَذا النِّظَامُ مُرْتَبِطٌ بالشَّمْسِ الَّتِي هِيَ فِي السماء.

فَثَبَتَ بهَذا أَنَّ الله الّذِي يَعْتَقِدُ الْمُشْرِكُونَ أَنّه خَالِقٌ عَزِيزٌ عَليم، هو أَيْضاً رَحمانٌ رَحِيمٌ بِعبادِه، فَمِنْ مَظَاهِرِ عِنَايَتِه ورَحْمَتِه بِعبادِه رَبْطُ أَسْبَابِ حَيَاتِهِمْ ومَعَايِشِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ فِي الْأَرْضِ، بمَا يَعْتَقِدُون أَنَّه خَاضِعٌ لسُلْطَانِهِ فِي السَّمَاءِ.

وهٰذِه حُجَّةٌ دَامِغَةٌ، فِيهَا إِلْزَامٌ للمُنْكِرِ مِنْ خِلَالِ الأَشْيَاءِ الَّتِي يَعْتَقِدُ هُو بِهَا.

وَبَعْدَ أَنِ اسْتَكْمَلَ الدَّلِيلُ عَنَاصِرَهُ قال الله عزَّ وجلّ:

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾: أيُّ: هٰذِهِ الظَّواهِرُ والآيَاتُ هِيَ مِنْ نِعَم اللَّهِ علىٰ النَّاسِ فِي الأَرْضِ، مَعَ أَنَّهَا خَاضِعَةٌ لُسْلَطَانِهِ فِي السَّمَاءِ كَمَا يَعْتَقِدُ المشركون، وقد جعلها الله ضمن أنظمته ليتذكر من أراد أن يتذكر، أي ليضعها في ذَاكِرَته بعِنَاية، فَتكُونَ دَافِعةً لَهُ إِلىٰ الإِيمانِ بالله، والاسْتِجابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُول، ونِدَاءَاتِ الْقُرآن، فَيكُون مِنَ الْمُتَّقِين.

وليَشْكُرَ مَنْ أَرادَ شُكُوراً، فَهُو يَزيدُ مِنَ الْقُربَاتِ وَنَوَافِلِ الطَّاعَاتِ رَجاءَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الأَبْرَارِ أَوِ الْمُحْسِنين.

❁ ❁ ❁

إجمال معاني هٰذا الدّرس التاسع

• يُبَيّنُ الله عزَّ وجلّ في هذا الدَّرس أنَّ اللَّهَ الرَّبَّ الخالِقَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاواتِ والأرْضَ وما بَيْنَهُما فِي ستَّةِ أيَّام ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ هُوَ نَفْسُه الرَّحْمَنُ، عَلَىٰ خِلَافِ مَا يَزْعُمُه مُشْرِكُو مكَّةَ مِنْ أنّه لا يَتّصِفُ بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ، لذَلِك فَهُمْ لاَ يَلْتَمِسون رَحْمَته، ولَا يُطْلِقُون عَلَيْهِ اسْمَ الرَّحْمٰن أو اسْمَ الرَّحِيم، بَلْ يُنْكِرُون ذلك.

• وبعْدَ بَيانِ أنَّ الله الخَالِقَ للسَّماوات والأَرْض وما بَينهما هُوَ الرّحْمٰن أيضاً، أرشَدَ الله إلى اسْتِخْدامِ طَرِيقَةِ سُؤال أَهْلِ الْخِبْرَةِ الْمُجَرِّبين، الَّذِين جَرَّبوا في حَيَاتِهم رَبَّهُمْ عَنْ طَرِيقِ الدُّعَاء والتضرُّع إلَيه في المُلِمَّاتِ والضَّرُورَاتِ، فَإنّهُمْ سَيُخبِرونَ بِمَا جَرَىٰ لَهُم، والنَّتائِجُ سَتُثْبِتُ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الرَّحْمٰنُ، لأنّه قَدْ رَحِمَهُم فاسْتَجَابَ لَهُمْ، وهٰذَا مَا دَلّ عَلَيْهِ قَولَهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

• وبَعْدَ ذَلِكَ أَبَانَ الله عَزَّ وجَلَّ وَاقِعَ حَالِ مُشْركي مكة وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ مَذْهَبِهم فِي إنْكَارِ عُنْصُرِ الرَّحْمَةِ مِنْ عَنَاصِر رُبُوبِيَّةِ الله عَزَّ وجَلَّ. فَهُمْ إذا قِيل لَهُم: اسْجُدُوا للرّحْمٰن، أي: لِلَّه الذِي مِنْ أَسْمَائِه الرَّحْمٰن، لأَنَّهُ مُتَّصِفٌ بصِفَةِ الرَّحْمَة، قالوا: لا نَسْجُدُ للرَّحْمٰنِ، وَمَا هِيَ حَقِيقة الرَّحْمَةِ الَّتِي تُدَّعَىٰ للَّهِ حَتَّىٰ يُسَمّىٰ الرّحْمٰن، وَمَا دَلَائِلُها وآثارُها؟! وَقَالُوا للرَّسُول: أَنَسْجُدُ لِوَصْفٍ لَا نَعْرِفُه ولاسْمٍ لَا نَعْرِفُهُ لله؟! أَنَسْجُدُ لاسْمٍ أَنْتَ تَأْمُرنَا أَنْ نَسْجُدَ لَهُ، ونَحْنُ لَا نُؤْمِنُ بِه؟!

لَقَدْ كَانُوا نَافِرِينَ مِنْ أَنْ يَسْجُدُوا لله خَالِقِ السَّمَاوَاتِ الرَّبِّ الْعَزِيزِ الْعَلِيم، فَلَمَّا دَعَاهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ بوَصْفِهِ الرَّحْمٰنِ زَادَهُمْ ذَلِكَ نُفُوراً.

• وبعْدَ ذَلِكَ عرَض الله عزَّ وجلّ بعْضَ آيَاتِ كَوْنِه الدَّالّاتِ علَىٰ أَنّه رَحْمَانٌ رَحِيمٌ، مُخْتاراً مِنْهَا مَا يَعْتَقِد الْمُشْرِكُون أنّها خَاضِعَةٌ لسُلْطَانِ الله

وتَدْبِيرِه، إذْ هِيَ فِي السَّماء، لكِنَّ لَهَا آثاراً في الأَرْضِ، وهٰذِه الآثَارُ مُرْتَبِطَةٌ بأَرْزَاقِ الأَحْيَاءِ فِي الأَرْضِ، ومصالحهم وكلِّ شؤون حياتهم، ولولا هذه الآيات التي هي في السماء والخاضعة لسُلْطَانِ اللَّهِ وتَدْبِيرِهِ، لانْعَدَمَتْ كُلُّ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ فِي الأَرْضِ. أَفَلا تَكْفِي هٰذِه ضِمْنَ مَفَاهِيم الْمُشْرِكِينَ لإِثْبَاتِ أنّ الله الْخَالِقَ هُوَ الرَّحْمٰن الرَّحِيم؟!

إنّ الشَّمْسَ الَّتِي في السَّماء، وقَدْ شبَّهها الله بالسِّرَاجِ، إشارةً إِلَىٰ أَنَّها كُتْلَةٌ ناريَّةٌ مُلْتَهِبةٌ، هِي الْمُمِدَّةُ للأرضِ بالطَّاقَةِ، الّتِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا كُلُّ مظَاهِرِ الْحَياةِ فِي الأرْض.

وإنّ الْقَمَر الْمُنِير في السَّمَاءِ قَدْ جَعَلَه اللَّهُ كَوْكَباً مُنِيراً لمَنافِعِ النَّاسِ سُكَّانِ الأَرْضِ، فِي إِنَارَتِه وفِي تَنْظِيم حَرَكَتِه ضِمْنَ بُرُوجِه وظُهُورِهِ أَهِلَّةً مُتَزايدَة فَبَدْراً فأهِلَّة مُتَنَاقِصَةً، حَتَّىٰ اخْتِفَائِه، ثُمَّ عَوْدَتِه، وفِي مَنَافِعه الأُخْرَىٰ الَّتِي يَظْهَر مِنْهَا المَدُّ والْجَزْرُ فِي الْبِحَار.

وإنّ تَداوُلَ اللَّيْل والنَّهَارِ عَلَىٰ الأرض من آثَارِ التَّنْظِيم الْمُتَكامِل بَيْنَ الشَّمْس وَحرَكَةِ الأرْضِ. وظَاهِرٌ أنّ تَدَاوُلَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ عَلَىٰ الأرض يُحَقِّق مَنَافِعَ كثيرةً للأحياء علَيْها، وهِي مِنْ آثار رَحْمَةِ المدبّر الخالق.

أفَلا يَجِبُ علىٰ الْمُتَفَكِّرينَ بَعْدَ أَنْ يُدْرِكُوا كُلَّ هٰذَا أَنْ يُؤْمِنُوا بأنَّ الله الْخَالِقَ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيم؟!

فَمَنْ أرَادَ أَنْ يَسْتَفِيد مِنْ دَلَالَاتِ آيَاتِ اللَّهِ في كَوْنِه جَعَل هٰذِه الآيَاتِ مُتَحرِّكَةً بتَدَاوُلٍ فِي ذَاكِرَتِه، لتَكُونَ هَادِيَةً لَه إلىٰ الإِيمَانِ بصِفَاتِ الله الْعَلِيم الحَكِيم الْعَزِيز الْقَدِير الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم، ودَافِعةً لَهُ إِلَىٰ الإِسْلَامِ لَهُ، والْخُضُوعِ لجَلَالِه وطَاعَتِهِ، وعبادَتِه وحْدَه لا يُشْرِكُ بعبادَتِه أحداً.

ومن أَرادَ أَنْ يَكُونَ شاكراً لأَنْعُم الله اسْتَفَادَ من آيات الله في كَوْنه الدّالّاتِ عَلَىٰ رَحْمَتِه بعِبَادِهِ، وعِنَايَتِهِ بِهِم، وإنعامِه عليهم، فدَفَعَهُ التَّفَكُّر

فِيها إلىٰ الْقِيام بَمَا يُعَبِّرُ بِه عَنْ شُكْرِه لربِّه عَلَىٰ نِعَمِه الكَثِيرَةِ الّتِي لَا يَسْتَطِيعُ إحْصَاءَها.

ويَتَفَاضَلُ الْمُتَذَكِّرون فِي دَرَجاتِ التَّذَكُّر، ويَتَفَاضَلُ الشّاكِرُونَ فِي دَرَجاتِ الشُّكْر، فمِنْهُم المتَّقُون، ومِنْهُم الأبْرارُ، ومِنْهُم الْمُحْسِنُون.

أمّا مَنْ لَمْ يُرِدْ أنْ يَتَذَكَّر، ولَمْ يُرِدْ أنْ يَكُونَ شَاكِراً لأنْعُم الله عَلَيه، فإنّه يَتقَلَّبُ فِي نِعَم الله الَّتِي هِي مِنْ آثارِ رَحْمَتِه، ويُشاهِدُ آيَاتِ الله فِي كَوْنِه مُعْرِضاً عَنْ دَلَالَاتِها، ولَا يَرَىٰ مِنْهَا إلّا صُوراً جَمَالِيَّةً للْمُتْعَةِ والزِّينَةِ، كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُوَ أضَلُّ سَبِيلاً.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس التاسع من دروس السورة على ما فتح الله به، وأَمَدَّ وأعَانَ وَوَفّق، والْحَمْد لَهُ عَلَىٰ ما وهبَ.



(١٥)
التدبّر التحليليّ للدرس العاشر من دروس السورة وهو الآيات من (٦٣ ـ ٧٦)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا

فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

القراءات:

(٦٧) • قرأ نافع، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفر: [وَلَمْ يُقْتِرُوا] من فعل «أَقْتَر يُقْتِرُ إقتاراً».

وقرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [وَلَمْ يَقْتِرُوا] من فِعْلِ «قَتَرَ يَقْتِرُ» كضَرَبَ يَضْرِب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ من فعل «قَتَرَ يَقْتُرُ قَتْراً».

وهي لُغَات عربيّة، والمعنى فيها واحد، أي: لم يُضَيِّقُوا النَّفَقَة على أنفسهم ولا على من تجبُ عليهم نفقتهم، ولم يجعلوها أقلَّ من الحاجة.

(٦٩) • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوب: [يُضَعَّفْ ويَخْلُدْ] بجزم الفِعْلَيْن، وفي الأوّل من فعل: «ضَعَّفَ يُضَعِّفُ».

وقرأ ابْنُ عامر: [يُضَعَّفُ. . . ويَخْلُدُ] برَفع الفِعْلَين، وفي الأول كالقراءة السابقة.

وقرأ شُعْبة: [يُضَاعَفُ. . . ويَخْلُدُ] برَفْع الفِعْلَيْنِ، وفي الأوّل من فعل: «ضاعَفَ يُضَاعِفُ» ومؤدَّىٰ «ضاعَفُ» مثل «ضَعَّفَ».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يُضَاعَفْ. . . ويَخْلُدْ] بِجَزِم الفعلين، وفي الأوّل كقِرَاءة شعبة في الصيغة.

والقراءات الأرْبَعُ هٰذِه وجُوهٌ عربيّةٌ ونحوية جائزة ومتكافئة.

(٦٩) • قرأ ابْنُ كثير، وحفص ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾ بصِلَةِ هاء ﴿فِيهِۦ﴾.

وقرأ باقي الْقُرّاء العشرة بترك الصِّلَة.

وهما وجهان من الأداء في اللّسان العربي.

(٧٤) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: ﴿وَذُرِّيَّـٰتِنَا﴾ بصِيغَة الجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَذُرِّيَّتِنَا] بصيغة الإفراد.

وهما قراءتان مُتكافِئَتان، لأنَّ الإفراد في الذُّرِّية مع الإضافة بمعنى الجمع، لما فيها من الدلالة على العموم.

(٧٥) • قرأ شُعبَةُ، وحَمْزة، والكِسائي، وخلَف: [وَيَلْقَوْنَ] من فعل: «لَقِيَ يَلْقَىٰ».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ من فعل: «لَقَّاهُ يُلَقِّيهِ».

وفي القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني، فَعِبَاد الرحْمٰنِ يُلَقَّوْنَ من قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ والْحُورِ الْعِينِ والوِلْدَانِ المخلَّدِين تَحِيَّةً وسَلاماً، ويَلْقَوْنَ مستقْبِلين مِنْهُمْ تحيَّةً وسلاماً، وهذا نظير أعطاني وأخَذْتُ.

تمهيد:

في هذا الدرس من دروس السورة بيانُ جملة من صِفَاتِ عباد الرَّحْمٰن، المرشّحين لأنْ يكُونوا أئِمَّةً للمتقين، بمعنَى أنَّهُمْ قد ارْتَقَوْا فَوْقَ أعْلَىٰ دَرَجات المتقين، وتوجَّهوا صاعِدِينَ يَتَرَقَوْنَ في دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ الأبْرار، ورُبَّما اجتازوها عُلُواً وتوجَّهُوا صَاعِدِينَ في دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ المحسنين التي ارتقي الأنبياء والمرسلون إلى ذروتها، أو إلى قريب من الذورة.

ومن هؤلاء الذين هم «**عباد الرحْمٰن وأئمة المتَّقِين**» زُمْرَة الدُّعاة إلى سبيل ربّهم، الحامِلُونَ رِسَالَةَ تَبْلِيغ دين الله للنّاس أجْمَعِين، ومنهم الناصِحُون، والمرْشِدُون، والوعاظ، والمذَكِّرُون، ومنهم الآمِرُون بالمعروف النَّاهون عن المنكر داخل صفوف المسلمين.

وجاء في عدّة سُوَرٍ أخرى من القرآن المجيد بيان طائفة أخرى من صفاتهم، وبدراسة هذه النصوص الموزَّعَةِ في القرآن، مع دراسة ما جاء في سورة (الفرقان) عن صفاتهم، مجموعةً مع صفات المتقين الواردة في القرآن، نظراً إلى أنّ عباد الرَّحْمٰن هم أئمةُ المتقين، فَلَا بُدَّ أنْ تتحقَّقَ فيهم صفات المتقين مع الصفات الأخرى التي هي من مرْتَبَتَي الأبرار والمحسنين.

ولدى هذه الدراسة المتكاملة نستطيع استخراج كلّ الصفات التي ينْبَغي أن يتحلَّىٰ بها المؤمن، حتَّىٰ يكون من زُمْرَةِ عباد الرحْمٰن.



التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

العطْفُ بالواو في مطلع ذكر عباد الرحْمٰن وصِفاتِهم، يُلاحظُ فيه أنّ ما جاء قبله يتضمّن دَعْوَة النّاسِ إلَىٰ أَنْ يَكُونُوا من المتَّقِين، فيؤمنوا بالله، ولا يُشْرِكُوا به شيئاً، ويؤمنوا بالقرآنِ المنزّل من عند الله، ويؤمنوا بالرّسول ويَتَّبِعُوه، فإذا فعلوا ذلك دخلوا في زُمَرِ عباد الله المتقين عَلَىٰ تَفَاضُلِ درجاتهم.

ولَكِنْ فَوْقَ زُمَرِ المتقين يأْتِي فَرِيقُ عِبَادِ الرَّحْمٰن الجامعُ لزُمَرِ الأبْرَارِ، ولزُمَر الْمُحْسِنين علَىٰ تَفاضُلِ دَرَجاتِ كلٍّ منهم، وصِفَاتُهُمْ فِيمَا يَلي: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا . . .﴾. إلى آخر النص.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

عِباد: جمْعٌ مُفْردُه «عَبْد» ويُجْمَعُ أَيْضاً على عَبِيدٍ، وأعْبُدُ، وعُبْدَان.

والأَصْلُ فِي الْعَبْدِ أَنَّه الإِنسان الْمَمْلُوكُ، وهو خِلَافُ الحرّ، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الإِنسانِ حُرّاً كَانَ أَمْ مملوكاً.

ولمَّا كَانَ النَّاسُ جَمِيعاً مَمْلُوكِين لربِّهم الخَالِقِ البارِئِ المُصَوّر المُمِدّ بالحياة والرّزْق ومَطالِب الْحَيَاةِ، كانُوا جَمِيعاً عِباداً لَهُ، أي: مَمْلُوكِين لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وكذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ والْجِنُّ.

كما قال الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

[**ومَنْ عِنْدَهُ**]: وهم الملائكة.

[**لاَ يَسْتَحْسِرُونَ**]: أيْ: لا يَكِلُّون ولَا يَتْعبُونَ.

وكما قال تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مَنْ في السماوات والأرْض: هُمْ كلّ ذي علم من الملائكة والإِنْس والجنّ.

كلٌّ لَهُ قَانِتُونَ: أي: كلٌّ لَه خَاضِعُونَ مُطِيعُون لِأَمْرِ الله، إمّا بالاخْتِيارِ وإمَّا بالْجَبْر، فمن لم يكن مطيعاً لأمْرِ اللّهِ التَّكْلِيفي كانَ مُطِيعاً وَخَاضِعاً لأمْرِ الله التكْوِيني بالْقَهْرِ والْجَبْر.

ووصف الله عزّ وجلّ الملائكة بأنَّهم عباد الرحمٰن، أي: هُمْ يَتَحلَّونَ بأعْلَىٰ درجات الطاعة لله برّاً وإحْسَاناً، فقال تعالى في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول) بشأنِ بعض عقائد المشركين في الملائكة:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

الرّحمٰن: اسم من أسماء الله الحسنى «كالرحيم». ولفظ رَحْمان صفة مشبَّهة باسم الفاعل على وزن «فَعْلان» للمبالغة، مأخوذةٌ من الرحمة، تقول لغة: «رَحِمَه يَرْحَمُه رَحْمَةً ورُحْماً ومَرْحَمَةً فهو راحم».

قالوا: ولفظ الرحمٰن خاصّ بالله تعالى، فلا يُسْتَعْمَلُ في وصْفِ غيره، فأشبه أن يكون عَلَماً له.

وفي لفظ «رحمان» قولان: **الأول**: أنّه مصروف. **والثاني**: أنّه غير مصروف. ومال السعد التفتازاني إلى جواز الأمرين فيه.

وعباد الرحمٰن فريق متفوّق من المؤمنين ارتقوا فوق كلّ درجات مرتبة المتقين، فيدخل فيهم الأبرار والمحسنون.

وقد أضَاف الله عزَّ وجلّ هذا الفريق من عباده إلى اسْمِه الرَّحْمٰن، إشارة إلى أنّ **حَظَّهم** الأوْفَر من أسماء الله الحسنى، هو من اسمه «الرَّحْمٰن» لأنّهم علّقُوا إرادَاتِهم بأَسْبَابِ الطَّاعَات والعِبَادَاتِ، والسَّعْي لِلْعَمَلِ بمَراضِي الله، الَّتِي يَسْتَدرُّون بها فُيوض رحماتِ الله، مع التعلُّق باسْمَي الله «الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم» فاستَحقُّوا أَنْ يَظْفَرُوا بجَائِزَةٍ رَبّانيَّة خَاصَّة بِهم، عُنوانُها: «عِبَادُ الرَّحْمٰنِ».

وهم يحْمِلُون بهٰذا الْوَصْفِ لِيَوْمِ الدِّين وثيقةً يَنالُونَ بِها الثَّوابَ الْعَظِيمَ الْخَاصَّ بعِبادِ الرَّحْمٰنِ.

وقد جَاءَ في القرآن الْمَجيد وَصْفٌ مفصَّلٌ لِفَريق عبادِ الرحمٰن، باعْتِبار أنَّهُمْ فَرِيقٌ ذُو تَفوُّقٍ من الْمُؤمِنِين، يَتحلَّوْنَ بطَائِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ الإِيمانِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، يَظْفَرُونَ بِسَبِبها بِرَحْمَةٍ خَاصَّةٍ من رَحَمات الله العظِيمَةِ الْجَليلة، ويَسْتَحِقُّون بها شَرَفَ النِّسْبَةِ إِلَىٰ اسْم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ، ويَأْخُذونَ بِها شَهَادَةَ تفوُّقٍ خَاصَّة عُنْوانُها عند الله عزَّ وجلّ: «عِبَادُ الرَّحْمٰن».

الرَّحْمَةُ فِي الْمَخْلُوقِ رِقَّةٌ فِي الْقَلْبِ مِنْ آثَارِهَا الْعَطْفُ وَالْإِحْسَانُ وَالْعَطاء، وَهِيَ فِي الْخَالِقِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِه عزَّ وجلّ، نُؤمِنُ بأَنَّها لَهُ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِذَاتِه، وهِي صِفَةٌ تَسْتَلْزِم الإِنعامَ والإِحْسَانَ والإِكْرامَ، وهي أَجَلُّ صِفَةٍ تَتَدَفَّقُ بفَيْضِ الْعَطاءِ دُونَ حِسَاب، فمَنْ كان من عباد الرحمٰن حقّاً كان مؤهّلاً لأنْ تَتَدَفَّقَ عَلَيْه من ربّه فُيُوضُ عطاء، لا يَسْتَطِيعُ الْمُحْصُونَ إِحْصَاءَها، ولا يستطيع الواصفون الْإِحَاطة بوَصْفِها، ولا بَيَانَ مَقَادِيرِهَا، ولا تَصَوُّرَ حَقِيقَتِها.

ولَقَدْ وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ رَحْمِةً وعِلْماً، فَبِرَحْمَتِه هدَىٰ عِبادَهُ إلى سَبِيلِ سَعَادَتِهم، وبرَحْمَتِه أَنْزَلَ عَلَيْهِم الشَّرِيعةَ الكَفِيلَةَ بِتَحْقِيقِ الْخَيْرِ والسَّعَادَةِ لَهُمْ فِي دُنْياهُم وأُخراهم، وبِرَحْمَتِه يُدْخِلُ الْمُؤْمِنينَ فِي جَنَّتِه دَارِ النَّعِيم، ويَغْفِرُ لِلْمُسِيئِينَ، ويَسْتَجِيبُ للمُضطرِّين.

ولَقَدَ كتَبَ اللَّهُ عَلَىٰ نَفْسِه الرَّحْمَةَ، وَوَصَفَ نَفْسَه بأَنَّهُ أَرْحَمُ الرّاحِمينَ، وبأنّه خَيْرُ الرّاحِمينَ.

وأبَانَ الرَّسُولُ ﷺ مَبْلَغَ عَظَمَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ بالنِّسْبَة إِلَىٰ كُلّ الرَّحْمَةِ الْمَوْجُودَةِ لَدَىٰ جَمِيعِ خَلْقِ اللَّهِ لَوْ جُمِعَتْ، بِأَنَّهَا جَمِيعَها جُزْءٌ مِنْ مِئَةِ جُزْءٍ مِنْ رَحْمَةِ الله.

روى البخاريُّ ومُسْلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ

والْهَوَامّ، فبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَىٰ وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي رِوَاية:

«جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءاً وَاحِداً، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّىٰ تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».

وَمَنْ كَانَ بعبودِيَّتِه فِي ظِلّ اسْم الله «الرَّحْمٰن» وتَحَلَّىٰ بصِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ صَادِقاً مُخْلِصاً، كَانَ مِنْ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» وتَدَفَّقَ عَلَيْه مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فَيْضٌ عَظِيمٌ، وَكَانَ سَعِيداً فِي الدُّنيا، سَعِيداً في الآخِرَةِ، وتَوَالَىٰ عَلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشر.

والخلْقُ كلُّهم عِبَاد اللَّهِ، مَمْلُوكُونَ لَهُ، لِأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَهُوَ وَحْدَه الّذِي يَرْزُقُهم ويُحْيِيهِم، ويُمِدُّهُمْ بمُخْتَلِف عَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِه وهُوَ وَحْدَه الَّذِي يُمِيتُهُم، ثُمّ يَبْعَثُهم ويُحَاسِبُهُمْ عَلَىٰ أَعْمَالِهم، ضِمْنَ قَانُون عَدْلِه وَفُيوضِ فَضْلِه.

وعلى الرغم مِنْ خُضُوعِ جَمِيعِ الْخَلْقِ الْقَهْرِيّ لِسُلْطَانِ رُبُوبِيَّة اللَّهِ لَهُم، وعُبُودِيَّتِهِمْ لَهُ، تَخْتَلِفُ حُظُوظُهُمْ مِنْ أَسْمَائِه الْحُسْنَىٰ.

فَحَظُّ بَعْضِ عِبَادِ اللَّهِ الأوْفَرِ مِنْ أَسْمَاءِ الله الْحُسْنَى هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ: «الْمُنْتَقِم الجبّار القهّار» لأنّهم لم يعترفوا له بالرُّبوبيّة، أو بالوحدانية، أو اتخذوا له شريكاً في ربوبيّته أَوْ فِي إلَهيَّتِه.

وحظُّ بَعْضِ عِبادِ الله الأَوْفَر من أسماء الله الحسنى يَنَالُهم مِنْ أَسْمَاءِ: «الْعَفُوِّ، الْغفورِ، الْغَفَّارِ، التَّوابِ» لأَنَّهُمْ كَثِيرو الذُّنُوب والْمَعَاصِي، وهُمْ يُتْبِعُونَهَا بالاسْتِغْفَار والتَّوْبَةِ والنَّدَمِ وطَلَبِ الْعَفْوِ، فَهُمْ مُؤْمِنُون، ولَكِنَّهُمْ مِنَ الّذين أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهم.

وَحَظُّ عِبادِ الرَّحْمٰن الأَوْفَر هو مِن اسْم الله الرَّحْمٰن.

وبَابُ: «عِبَادِ الرَّحْمٰن» مفتوحٌ لكلِّ مَنْ أرادَ صادقاً أنْ يكونَ وَاحِداً مِنْهم، وعَمِلَ بتَوْفِيق اللَّهِ لِتَحْقِيق مَا أَرَادَ.

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ... ﴿٦٣﴾﴾.

الْمَشْي: هو انْتِقَال الكَائِن بِحَرَكَةٍ مُتَتَابِعَةٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَا بَعْدَه، وهُو يُطْلَقُ علَىٰ الانْتِقَالِ بِرفْقٍ ورَصَانَةٍ، دُون تَباطُؤٍ ولَا سُرْعة.

وفَوْقَ الْمَشْي السَّعْيُ الَّذِي هُو حَرَكَةُ انْتِقَال بِهِمّةٍ ونَشَاطٍ وجِدّ، وفَوْقَ السَّعْي الرّمَل (= الْهَرْوَلَة) ثُمّ يأتي فوق الرَّمَل الرَّكْض، وهُوَ الْعَدْوُ بِسْرعة.

هَوْناً: الْهَوْنُ الخِفَّةُ والرِّفْق، والسَّكِينَةُ والْوَقَار، والْعَمَلُ والتَّصرُّفُ بِرِفْقٍ وسَمْتٍ حَسَنٍ، وعَقْل ورَوِيّةٍ.

فَمِنْ صِفاتِ عِبادِ الرَّحْمٰن الّتي يُلاحِظُها النَّاظِر إِلَيْهِم مُنْذُ أَوَّلِ مُشَاهَدَةٍ لِحَرَكَتِهم فِي حَيَاتِهم، أَنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأرْضِ هَوْناً، أي: يَمْشُونَ لقَضَاءِ شُؤُون حَيَاتِهم الدُّنْيا عَلَىٰ الأَرْضِ برِفْقٍ وسَمْتٍ حَسَنٍ، وعَقْلٍ ورَوِيّة، ويَطْلُبُون أَرزَاقَهُم بأن يَمْشُوا فِي مَناكِبِ الأَرْضِ هوناً.

وضِدُّ ذَلِكَ السَّعْيُ، والْهَرْوَلَةُ والرَّكْضُ دُونَ مُقْتَضٍ لذَلِكَ، وضِدُّ ذَلِكَ أَيْضاً الْمَشْيُ بعُنْفٍ أَو اسْتِكْبارٍ، وضَرْبٍ لِلأرْضِ وتَطاوُلٍ فِي السَّمَاءِ، وَكَذَلِكَ الْمَشْيُ بضَعْفٍ وَتَمَاوُتٍ، أَوْ خِفّةٍ ورُعُونَةٍ، أَوْ خَفْقٍ سَرِيعٍ بِغَيْرِ رَوِيّةٍ ولَا عَقْل.

وضِدُّ ذَلِك أَيْضاً السَّعْيُ لِطَلَبِ الدُّنْيا بإِسْرَاعٍ ومُغَالَبَةٍ ومُقَاتَلةٍ ومُنَازَعَةٍ لأَهْلِها.

فأضدَادُ مَشْيِ الْهُونِ لمَطَالِب الْحَيَاةِ الدُّنيا لَيْسَتْ مِنْ صِفاتِ عبادِ الرَّحْمٰن.

أمّا الآخِرَةُ فإنَّهم يَسْعَونَ لَهَا سَعْيَها بِهِمَّةٍ ونَشَاطٍ وقُوَّةٍ، ويُسَارِعُونَ فِي طَلَبِ الْخَيْرَاتِ، ويُسَابِقُونَ لِاغْتِنَامِ رِضْوَانِ اللَّهِ، كَمَا قال الله عزَّ وجلّ بشأن الْحُضورِ إلى صلاة الجمعة في سورة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾.

وكما قال تعالى بشَأْنِ طَلَبِ ثَوابِ الآخِرَةِ فِي جنَّاتِ النَّعِيمِ فِي سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾.

فَعِبادُ الرَّحْمٰنِ يَمْشُون علَىٰ الأَرْضِ بخفَّةٍ ورِفْقٍ وسَكِينةٍ ووَقَارٍ، ويَطْلُبُون مَطَالِبَهُمْ لِدُنْيَاهُمْ بِالْمَشْيِ الرَّفِيق في مَناكِبِ الأَرْضِ، وإنِ اقْتَضَىٰ مِنْهُمْ كَدّاً وجَهْداً، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الْمُلْك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾.

وعبادُ الرحْمٰنِ لَا يَمْشُون عَلَىٰ الأرض بعُنْفٍ، ومَرَحٍ، واسْتِكْبَارٍ، وبَطَرٍ، وتَبَختُرٍ، وتَعَاظُم، وضَرْبٍ علَىٰ الْأَرْضِ، وتَطَاوِلٍ في السّماء، كما يفعل الجبَّارون.

ولا يَسْعَوْنَ فِي الأرض سَعْياً، لِطَلَبِ الدُّنْيا ومَا فِيها مِنْ متَاع، ولذَّاتٍ، وشهَواتٍ، ومَا تَهْوَىٰ الأَنْفُسُ مِنْ فَانِياتٍ، بَلْ يَجْعَلُونَ هٰذَا السَّعْيَ لطَلَبِ الآخِرَة، ويُجْمِلُونَ فِي طَلَبِ أَرْزَاقِهم وحَاجَاتِ دُنْيَاهُمْ، دُونَ شَرَهٍ، ولا جَشَعٍ وَلَا مَعْصِيةٍ للّهِ عزَّ وجلّ.

ولا يَسْعُون فِي الأرْضِ فَسَاداً، أَوْ طَلباً لِلْعُلوّ فِي الأَرْضِ، والاسْتِئْثَارِ بحُظُوظِها الْفَانِيَة، كَمَا يَفْعَلُ طُلَّابُ الدُّنيا، من الفاسِقِين والفاجِرين والطُّغَاةِ والْمُتَكَبِّرِينَ وعُبَّادِ الشَّهَواتِ والأَهْواء.

إنَّ عِبَادَ الرَّحْمٰن متواضِعُون لله، هَيِّنُون لَينُون، لَا جَبَّارُونَ وَلَا مُسْتَكبِرُون.

لَقَدْ سَمِعُوا نَهْيَ الله عزَّ وجلّ عَنْ مِشْيَةِ المرَحِ (أي: الْبَطَرِ والكِبْرِ) في قوله تعالى في سورة (الإِسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

فأطَاعُوا، تَحْقِيقاً لعُبُودِيَّتِهم للرحمٰن، وعَلِموا أنّ الْغَايَةَ مِنْ هٰذا النّهي أَنْ لا يَكُونُوا مُسْتَكبِرين مُتعاظِمينَ عَلَىٰ عِبَادِ اللّهِ، فَوَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ لأَنْ يَجْتَنِبوا كُلَّ مَظْهَرٍ مِنْ الْمَظاهِرِ الدّالّة على الكِبْر والْعُجْبِ بالنفس.

وأَدْرَكُوا أنَّ مِشْيَةَ الْخُيَلاءِ يُبْغِضُها الله، فَهُمْ يَجْتَنِبُونَها، عَلَىٰ أنّ خُلُقَهُمْ يُلْجِمُهُم عن أن يكُونُوا مستكْبِرين علَىٰ عِبَادِ الله.

لقَدْ كَشَفَ الله عزَّ وجلّ فِي هٰذه الآيَةِ من سورة (الإسراء) للمُسْتَكْبِر الّذِي يتبخْتَر ويَمْشِي علَىٰ الأَرْضِ مَرحاً وَاقِعَ حَالِه الصَّغِيرِ، فأبَانَ لَهُ أنَّه حِينَ يَضْرِبُ الأرضَ بِرِجْلِه، ويتَطَاوَلُ مُسْتَعْلِياً بقَامَتِه علَىٰ النَّاس، فَإنّه لَنْ يَسْتَطِيع أنْ يَخْرِقَ الأرْضَ، فَهِي أصْلَبُ مِنْه، ولن يَستطِيعَ أنْ يَبْلُغ الجبال طُولاً، فَهِي أَعْظَمُ وأَطْوَلُ جِسْماً منه.

وفِي هٰذا إمْعَانٌ إيمَائِيٌّ بتَحْقِيرِ المُسْتَكْبِر، قائلاً له: إنَّ الأَرْضَ الّتِي تَمْشِي علَيْها أصْلَبُ مِنْ قُوَّتك، وإنَّ الصُّخُورَ الْجَامِدَةِ المكَدَّسَةَ جِبالاً أَطْوَلُ مِنْ قَامَتِك مَهْمَا تطاولتَ بها، فَلَا تَظُنَّنَّ أنّ شِدَّةَ وَطْئِكَ عَلَىٰ الأَرْضِ، وأنَّ تَطاوُلَكَ بِجِسْمِكَ يَمْنَحانِكَ عِظَماً حَقِيقِيّاً، وقائلاً له: مَهْلاً

بِنَفسِكَ أيُّهَا الْمُسْتَكبِر الْمُتَبَخْتِر، إلَىٰ أيْنَ أنْتَ ذَاهِبٌ بنَفْسِك مُتَطَاوِلاً؟ إلَىٰ جِهَةِ الأرْضِ فَتَضْرِبُها بَقَدَمَيْكَ، أو إلَىٰ جِهَةِ السَّماءِ فَتَنْطَحُها بِرَأْسِكَ، هَوِّنْ عَلَيْكَ، إنّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ أنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ مَهْمَا تَبَخْتَرْتَ عَلَيْهَا، إنّكَ إنْ تَحَدَّيْتَها هَشَّمْتَ جِسْمَكَ وحَطّمْتَه، ثمّ إنّكَ مَهْما تَطَاوَلْتَ بجِسْمِكَ إلَىٰ الأعْلَىٰ فَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً.

إنّ الْجِبَالَ مَهْمَا عَلَتْ بأجْسَامِها عَنْ مُسْتَوى الأَرْضِ فَهِيَ أَقَلُّ قِيمَةً مِنَ الْإِنْسَانِ الّذي فضَّلَهُ اللَّهُ بالصِّفَاتِ الَّتِي مَنَحَهُ إيَّاهَا، وَهِيَ مِنْ دَرَجاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَلَا تُحَاوِلْ أن تَكْسِبَ المَجْدَ بالانْتِفَاخِ الجَسَدِيِّ والتَّعَاظُمِ، أوْ بِالتَّبَخْتُر والْخُيَلَاءِ والاسْتِكْبار عَلَىٰ خَلْقِ الله.

إنّ المَجْدَ الإنْسَانِيَّ لَا يَكُونُ بطُولِ الأجْسَامِ ولَا بِعَرْضِها، ولَا بِتَبَخْتُرِهَا وضَرْبِها الأَرْضَ بأقْدامِها حِينَ مَشْيِها.

يَا لِهَذَا مِنْ تَبْكِيتٍ بَدِيعٍ ورَائعٍ للْمُسْتَكْبِرين!

وَعِبادُ الرَّحْمٰن لا يُسْرِعُونَ إسْراعاً يَدُلُّ عَلَىٰ الخِفَّةِ والطَّيْشِ، ولا يُبطِّئُون تبطيئاً يدُلُّ عَلَىٰ الكَسَلِ والْخُمُولِ والتَّمَاوُتِ، بَلْ يَمْشُونَ هَوْناً بِهِمَّةٍ وعَزْمٍ ورُجُولَةٍ وفُتُوَّة، ويَعْمَلُونَ بِوَصِيَّةِ لُقْمَان لِابْنِه فِي قولِه لَهُ كَمَا أَخْبَرَنَا الله عَزَّ وجَلّ بقَوْلِه في سورة(لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ . . . ﴿١٩﴾﴾.

القَصْدُ: هو الاعْتِدال فِي الأَمْرِ دُونَ إفْراطٍ ولَا تَفْرِيط.

والنّاشِئُ الّذي يَمْشِي عَلَىٰ الأرْضِ هوناً تدلُّ بدايته على أنّه مُرَشّح لأن يكون مستقبلاً من عباد الرحمٰن، إذا كان مؤمناً متّقِياً متأسّياً بالأَبْرَارِ والْمَحْسِنين.

قول الله تعالى:

﴿... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾.

خَاطَبَهُمْ: أي: جَعَلَ يُراجِعُ مَعَهُمْ الكَلَامَ، يقال لغة: خاطبَهُ بالكَلَامِ مُخَاطَبَةً وخِطَاباً، إذا تَرَاجَعا الكَلَامَ بَيْنَهُما في خَطْبٍ مَا، أي: في أَمْرٍ مَا، أو شأنٍ ما، فالخطب هو الأمْرُ والشَّأْنُ والْحَالُ أيّاً كَانَ، سَواءُ أكان كبيراً أمْ صغيراً. فالمخَاطَبَةُ مراجَعَةُ الكَلَام.

الجاهلون: المُراد بهمْ هُنا الَّذِينَ لَا عَقْلَ لَهُم يُمْسِكُهُمْ عَنِ السَّفه والغَضَبِ، وإطْلَاقِ الشَّتَائِم والألْفَاظِ الْقَبِيحَةِ، الأمْرِ الَّذِي قَدْ يَجُرُّ إِلَىٰ التَّقَاتُلِ، ومِنْه مَقَالَةُ العربيّ الجاهلي:

أَلَا لَا يَـجْـهَـلَـنْ أَحَـدٌ عَـلَـيْـنَـا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

إنَّ هٰذا التَّعْلِيمَ الجَاهِلِيَّ الَّذِي يَحُضُّ أَفْرَادَ الْقَبِيلَةِ أو الْعَشِيرَةِ عَلَىٰ مُقَابَلَةِ الشَّتَائِم وقَبائِحِ الأَقْوَالِ والانْفِعَالَاتِ الْغَضَبِيَّة الَّتِي لَا يَضْبِطُها عَقْلٌ إراديٌّ حَازِم، بأَشَدَّ منها، ويُنذِرُ الآخَرِينَ بأَنَّ أَحداً مِنْهُمْ إذَا قَابَلَهُمْ بسَفَاهَةٍ رَدُّوا عَلَيْهِ بِأَقْبَحَ مِنْهَا، قَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ بإلْغَائِه، وشَرَعَ لِلْمُسْلِمِينَ تَعْلِيماً آخر، يَنْبُعُ مِنْ مَنَابع الأَخْلاقِ الإِيمانِيَّة، الَّتي مِنْهَا الحلْمُ، وعَدَمُ مقَابلَةِ الجَهَالَةِ بمِثْلِها، وإعْلَانُ أنّ المجْتَمع الإِسْلامِيَّ مجْتَمع سَلام، مجْتَمَعٌ آمِنٌ، لَا مَكَان فِيه لِلْجَاهلين وأَهْلِ الْغَضَبِ، أنْ يُثِيرُوا الفِتَن الدَّاخِلِيَّة، ويَبْذُروا بُزُورَ الْعَداوَاتِ والخُصُومَاتِ، ولا مكان فِيه للسُّفَهَاءِ الَّذِين يتَعرَّضُون لَكَرَامَاتِ الْمُسْلِمِينَ بالإِهَانَةِ.

فعِبادُ الرحْمٰن إذا خَاطَبَهُم الْجَاهِلُون بجَهَالَةٍ وسَفَهٍ، مُسْتَثِيرين غَضَبَهُم قَالُوا لهم: سَلَاماً، فيُفَارِقُون بإعْلَان السَّلَامَ مَجْلِسَ الْجَاهِلين.

والسَّلَامُ يَشْمَلُ سَلامة الْعِرْضِ والْجِسْمِ والمَالِ، وكُلِّ مَا يُهِمُّ الإِنْسَانَ سَلَامَتُهُ.

والْمُسْلِمُونَ إذَا لَقِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً تَلاقَوْا بِالسَّلَامِ، فيُكَرِّمُ بعضُهُم بَعْضاً بالتَّحِيَّة، ويُعْلِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ شِعَارَ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِم، ألَا وَهُو شِعَارُ الأَمْنِ والسَّلَام بَيْنَهم.

وَعبادُ الرَّحْمٰن بَعْدَ سَلَامِ اللِّقَاء إِذَا رأَوْا جَهَالَةً مِنْ جَاهِلٍ، أَوْ سَفَاهَةً مِنْ سَفِيهٍ، قَطَعُوا جَهَالَتَهُ بالْحِلْم، وَبِمُفَارِقَةِ مَجْلِسهِ بَعْدَ تَذْكِيرِه بحَقِ الْمُسْلِم عَلَىٰ الْمُسْلِم، وهُوَ السَّلَام والأَمْنُ، الَّذِي يُعْلِنَهُ الْمُسْلِمُونَ فِيمَا بَيْنَهُم عِنْدَ اللِّقَاء، وهو مَا تَضَمَّنَتْهُ عِبَارَةُ السَّلَام.

وقد بيّن الرَّسُول ﷺ أنّ مِنَ الصِّفَاتِ الأساسِيّةِ لِلْمُسْلِمِ، أَنْ يَسْلَمَ أَخَوُهُ الْمِسْلِمُ منْ لِسَانِه ويَدِه.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبيّ ﷺ قال: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ويَدِهِ، والْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ».

فمَنْ لَمْ يَتَحقَّقْ بِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ هٰذَا الاسْمِ حقّاً، ولَمْ يَكُنْ مُلْتَزِماً مُقْتَضَيات نِسْبَتِه الشَّرِيفَةِ للإِسْلَام.

فَمِن صِفاتِ عِبادِ الرَّحْمٰن هٰذه الظَّاهِرَةُ فِي السُّلوك: إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُون قالوا: سَلاماً. فلا يُقابلُونَ السَّيِّئَةَ بالسَّيِّئَةِ، وَلَوْ كَانَتْ هذِهِ الْمقَابَلَةُ لَا تُنَافِي حُقُوقَ مَرْتَبةِ التقوى، إلَّا أنّها تُنافِي حُقُوقَ مَرْتَبَتي البرِّ والإِحْسان.

إنّها ظَاهِرَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ خُلُقِ الحِلْم الْمُتَأَصِّل فِي ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ وَكِيَانِهِمْ الدّاخِلِيّ، وتَدُلُّ عَلَىٰ رُجْحَان الْعَقْلِ لدَيْهِم، فلا يَسْتَثِيرُهم جَهْلُ الجَاهِلين، ولَا يَدْفَعُ بِهِم إلىٰ مَواقِع الْحَمَاقَةِ والرُّعُونَة، بَلْ يَضْبِطُونَ أَلْسِنَتَهُمْ، ولَا يُقَابِلُون الجَهَالَةَ الْقَوْلِيّة بمِثْلِها، ويَضْبِطُون أعْصَابَهُمْ، فَلَا يَتَصَرَّفُونَ تَصَرُّفاً غَيْرَ مَحْمُودٍ.

إِنَّهُمْ يَقْطَعُونَ عَلَىٰ الجَاهِلِين طَرِيقَ الْفِتْنَةِ والشَّرِّ، ويُطْفِئُونَ الشَّرَارَةَ الأُولَىٰ الَّتِي لَوْ قُوبِلَتْ بِمِثْلِها لَكَانَتْ ناراً متأَجِّجة، قد تَجُرُّ إِلَىٰ قِتالٍ كَبِير، وشَرٍّ مُسْتَطِير.

إنّ عِبادَ الرحْمٰنِ بِدافِعٍ مِنْ إيمانِهم وحُسْنِ إسْلامِهم، إِذَا خَاطَبَهُمْ الجاهِلُون بجَهَالَةٍ تُثِيرُ الْغَضَبَ مَلكُوا أنْفُسَهم بِبُطولَةِ الْحِلْم، وبُطولةُ الحلْمِ هٰذِه هي الْبُطُولَةُ حقّاً.

إنّ البُطُولَةَ فِي مَقَايِيس مَكَارِم الأَخْلاقِ لَيْسَتْ بِقُوَّةِ الْجِسْمِ، والْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْغَلَبِ فِي الْمُصارَعَةِ، وَهٰذَا مَا أَوْضَحَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِبَيانِه البَدِيع.

رَوَىٰ مسلم عن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فيكُمْ؟».

فقالُوا: الّذِي لَا تَصْرَعُهُ الرِّجَالُ.

فقال: «وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ».

إِنَّ العَرَبَ يُطْلِقُونَ علَىٰ بَطَلِ الْمُصَارَعَةِ الّذِي يُصَارِعُ النَّاسَ فَيَغْلِبُهُمْ كَلِمَةَ «صُرَعَة» ويُكَبِّرُون أَمْرَه، ويُعَظِّمُون شَأْنه، فَاسْتَغَلَّ الرَّسُولُ ﷺ إعْجَابَ النَّاسِ به، وتَقْدِيرَهُمْ لَهُ، ثُمَّ حَوَّلَهُمْ عَنْه إِلَىٰ الْبَطَلِ الحَقِيقيّ وهو الّذِي يَمْلِكُ نَفْسَه عِنْد الغَضَب، وذَلِكَ لِأنّ مَلْكَ النّفْسِ عِنْدَ الغَضبِ بُطُولَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ فِعْلاً، تَعْتَمِدُ عَلَىٰ الْعَقْلِ وَقُوَّةِ الْإِرَادَةِ.

أَمّا بُطُولَةُ الْمُصارَعَةِ فَهِي امْتِيَازٌ جَسَدِيٌّ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ قُوَّةِ الْعَضَلَاتِ، والأَعْصَابِ، والتَّدْرِيبِ الجَسَدِيّ، والْحِيلَة.

وهٰذه الصِّفَةُ الّتِي هِيَ مِنْ صِفَاتِ عِباد الرَّحْمٰنِ مَعَ سَائِرِ صِفَاتِهِمْ تُرَشِّحُ مَنْ تَحلّىٰ بِهَا أَنْ يَكُونَ إِمَاماً لِلْمُتَّقِينَ، لأَنَّهُ بها قد ارتقىٰ إلى مَرْتبة الأبرار وَرُبَّما قد ارتقىٰ أيضاً إلى مَرْتبة المحسنين.

ولمَّا كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ قِمَّةَ عِبادِ الرَّحْمٰنِ جَمِيعاً، كَانَ أَكْثَرَالنَّاسِ حِلْماً، وَكَانَ لَا يَزِيدُهُ جَهْلُ الجَاهِلِينَ إِلَّا حِلْماً.

فَمِنْ رَوائِعِ حِلْمِ الرَّسُولِ ﷺ أنّ أَعْرَابِيّاً جاءَ إِلَيْهِ يَطْلُبُ مِنْه عَطاءً، فأَعْطاهُ الرسُولُ، ثُمَّ قَالَ له:

«أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟».

قال الأعْرَابِيّ: لَا، وَلَا أَجْمَلَتَ. (اسْتَقَلَّ العَطاءَ) فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ وَقَامُوا إِلَيْهِ، وقَدْ هَمُّوا أَنْ يُؤَدِّبُوه بالْعُنْفِ، فأشَارَ إِلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ كُفُّوا. ثُمَّ قَامَ وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، وزَادَهُ شَيْئاً، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

«أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟».

قَالَ: نَعَمْ، فَجزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلٍ وَعِشيرَةٍ خَيْراً. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

«إِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ آنِفاً، وَفِي نَفْسِ أَصْحَابِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ، حَتَّىٰ يَذْهَبَ مَا فِي صُدُورِهِمْ عَنْكَ».

قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ جَاء، فقال النبيّ ﷺ:

«إِنَّ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ قَالَ مَا قَالَ فَزِدْنَاهُ، فَزَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ، أَكَذَلِكَ؟».

قَالَ: نَعَمْ، فجزاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلٍ وعَشِيرةٍ خَيْراً.

فقال الرسول ﷺ لأصحابه:

«مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا، كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَأَتْبَعَهَا النَّاسُ، فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نُفُوراً، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا، فَقَالَ لَهُمْ: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي، فَإِنِّي أَرْفَقُ بِهَا مِنْكُمْ وأَعْلَمُ، فَتوجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَأَخَذَ مِنْ قُمَامِ الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا، حَتَّىٰ جَاءَتْ واسْتَنَاخَتْ، وشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، واسْتَوَىٰ عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ».

قُمَامُ الْأَرْضِ: الْقُمَامُ جَمْعُ القُمَامَة، وهِيَ الكُنَاسَةُ الّتِي تُجْمَعُ لإبْعَادِهَا عَنِ البُيُوتِ والطُّرُقِ، وتَنْظِيفِ الأَرْضِ مِنْهَا، شَبَّهَ الرَّسُولُ الْمَالَ بالْقُمَامِ.

صلواتُ الله عليك يا رسول الله ما أَحْلَمَكَ! وما أَعْلَمَكَ! وما أَحْكَمَكَ!.

وإذْ وصَفَ الله عزَّ وجلّ عبادَ الرّحْمٰنِ بأنّهم إذَا خَاطَبَهُم الجاهلون قالوا: سلاماً، فقد دَلَّ بِذَلكَ علَىٰ أنَّ تعامُلَهُمْ مَعَ النَّاسِ تَعَامُلٌ بالْخُلُقِ الْحَسَنِ، إذْ فِي قِمَّةِ ذَلِكَ الحِلْمُ والصَّبْرُ عَلَىٰ الْأَذَىٰ، وإعْلَانُ السَّلَامِ.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾.

يَبِيتُون: أيْ: يَدْخُلُ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ. قال الزَّجّاج: كُلُّ مَنْ أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ. فقد بات، نَامَ أَمْ لَمْ يَنَمْ.

ويُقال لُغةً: باتَ يَفْعَلُ كَذا، أيْ: دَخَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ، وهُوَ فِيه يَفْعَلُ كَذا، كَمَا يُقَالُ: ظَلَّ يفْعَل كَذا، أيْ: هُوَ يَفْعَل كَذَا فِي النَّهار. ويرىٰ الفرّاء أنّ فعل «بَات» يدلُّ على السّهر في اللّيل.

سُجّدًا: جَمْعُ «سَاجِدٍ» وأَصْلُ السُّجُودِ الْخُضُوعُ وَطَأْطَأَةُ الرَّأْسِ، ويُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَىٰ الخُضُوعِ التَّام، أوْ غَايَةِ الخُضُوعِ، ومِنْهُ سُجُودٌ بالاخْتِيار، كسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِلَّهِ عزَّ وجلّ، وكَسُجُودِ الْعُبّادِ من الإنس والْجِنّ لَهُ. ومنه سُجُودٌ بالْجَبْرِ لأَمْرِ الله التَّكْوِينِيّ، وهُوَ خُضُوعُ كُلِّ شَيْءٍ لأَمْرِ اللَّهِ التَّكوِيني: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ وفِيهِمَا يقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

وفِي سُجُودِ الدَّوابِّ والْمَلَائِكَةِ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ بِمَعْنىٰ غَايَةِ الْخُضُوعِ لَهُ تَبَارَكَ وتعالى، يقول الله تعالى في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول):

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

وفي سُجُودِ النَّبَاتِ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ الله تعالى في سورة (الرحمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾.

النَّجْمُ: مِنَ النبات مَا لَا سَاقَ لَهُ. **والشَّجَرُ**: من النَّبَاتِ مَا قَامَ عَلَى سَاقٍ صُلْبَةٍ.

وفِي آيَةٍ جَامِعَةٍ يقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

فمَنْ فِي السَّمَاواتِ يَسْجُدونَ لله سُجوداً جبْرِيّاً وسُجوداً اخْتِيارِيّاً، ومَنْ فِي الأرْضِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَذٰلِكَ، والشَّمْسُ والْقَمَر والنُّجُوم والْجِبَال والشَّجَرُ والدَّوَابُّ تَسْجُدُ لِلَّهِ سُجوداً جَبْرِيّاً بِمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْخُضُوعِ الْكَامِلِ لله عَزَّ وجَلَّ. وَمَنْ فِي الأرْضِ مِنَ الإِنْسِ والْجِنِّ يَسْجُدُونَ جَمِيعاً لِلَّهِ سُجوداً جَبْرِيّاً فِي كُلِّ مَا يُرِيدُ مِنْهُمْ بالإِرَادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ. ومِنْهُمْ مُؤْمِنُون يَسْجُدون لِلَّه سُجوداً اخْتِيارِيّاً فِي عِبَادَاتِهِمْ له. وَمِنْهُمْ كَافِرُون لَا

يَسْجُدُونَ سُجُوداً اخْتِيارِيّاً لِأَمْرِ اللَّهِ التَّكْلِيفِي، وهَؤُلَاءِ قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْعَذَابُ، ومَع هذا الْعَذاب لَهُمْ عقاباً عَلَىٰ استكْبَارِهِم عن السجود الاخْتِيارِيّ لِبَارِئهم، فإنَّ الله عَزَّ وجل يُهِينُهُم يَوْمَ الدِّين ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾.

هٰذا فِي السُّجُودِ العامِّ بِمَعْنَىٰ غَايَةِ الخُضُوعِ لأمْرِ الله التكويني، وأمْرِ اللَّهِ التَّكْلِيفيّ.

أمّا السُّجُودُ فِي عِبَادَةِ الصَّلاةِ، فَلَهُ صِفَةٌ خاصَّةٌ مَعْرُوفَةٌ، تُوضَعُ فِيه الْجَبْهَةُ والكفّان والرُّكْبَتَان ومُقَدَّمُ الْقَدَمَيْنِ عَلَى الْأَرْضِ. وَهٰذَا السُّجُودُ الجَسَدِيّ يَتَضَمَّنُ تَعْبِيراً مَادِّيّاً جِسْمِيّاً عَنْ غَايَةِ الْخُضُوعِ الْإِرَادِيِّ لِلَّهِ عَزَّ وجلّ في عبادته.

وقِياماً: قِياماً: جَمْعُ «قائم» وَيُجْمَعُ أَيْضاً عَلَىٰ قُوَّم، وقُيَّم وقُوَّام، وقُيَّام.

وفي تَقْدِيم ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ على ﴿سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ حَصْرٌ وقَصْرٌ، أي: يَسْجُدُونَ ويَقُومُونَ لِلَّهِ وَحْدَه.

والمعنَىٰ: أنَّ مِنْ صِفَاتِ عِبادِ الرَّحْمٰنِ أنّهُم يَتَفرَّغُون فِي لَيالِيهِم لعِبادَةِ رَبِّهم، يَتَهَجَّدُونَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ وَحْدَه، وكَثْرَةِ الْقِيَامِ لِلَّهِ وَحْدَه، ذَاكِرِينَ اللَّهَ عزَّ وجلّ، بِأَلْسِنَتِهِم، وقُلُوبِهِمْ، وأَفْكَارِهِم، يُمَجِّدُونَه، ويَحْمَدُونَه، ويُسَبِّحُونَ بِحَمْدِه، ويُقَدِّسُونَ له، ويَسْأَلُونَه خَوْفاً وطَمَعاً، يَخْشَوْنَ عَذَابَه، ويَرْجُونَ ثَوابَه.

إِنَّهُمْ عُبَّادٌ لِرَبِّهِم وَحْدَه، لَا يُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِه أَحَداً، وهُمْ فِي غَايَةِ الْخُضُوعِ لَه بِصِدْقٍ وإخْلاصٍ، إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِم اللَّيْلُ انْتَهَزُوا فُرْصَتَه لِلْخَلْوَةِ بِرَبِّهِم، فَبَاتُوا سُجّداً لَهُ وقياماً له وحْدَه، ولَمْ يَبِيتُوا لِأَهْوَائِهِم وشَهَواتِهِم.

إِنَّهُمْ يَجْعَلُون لَيْلَهُم لِرَبِّهم، أيْ: لِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ، حَالَةَ كَوْنِهم سُجَّداً

وَقِياماً، أَوْ هُمْ يَبِيتُونَ سُجَّداً وَقِياماً لِرَبِّهم، وعلَىٰ هٰذَا الْفَهْم فَقَدْ قُدِّم الْمَعْمُولُ عَلَىٰ الْعَامِلِ لِلْحَصْر، والْمَعْنَىٰ أَنَّهُم لا يَسجُدُونَ وَلَا يَقُومُون لِغَيْرِه، لأنَّهُمْ مُوَحِّدُونَ لَا يُشْرِكُونَ بِعِبَادَةِ رَبّهم أحداً.

ومعْلَومٌ أَنَّ صَلاةَ الْعَابِد خَالِياً بِرَبِّه فِي جَوْفِ اللّيْلِ أَقْرَبُ إِلَىٰ الصِّدْقِ والإِخْلَاصِ لله، والبُعْدِ عَنِ الرِّياءِ والسُّمْعَة.

إنّ سَاعَاتِ خَلْوَة «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ، مَشْغُولَةٌ بِالتَّوَجُّهِ لِله، يَعْبُدُونَه، لَا يُشْرِكُون بعبادَتِه أَحَداً، لأنَّهُم يَعْلَمُون مَا فِي الْعِبَادَةِ لله عَزَّ وجَلّ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ، بَعِيداً عَنْ كُلِّ رِيَاءٍ ورَغْبَةٍ فِي سُمْعَةٍ أَوْ مَغَانِم، مِنْ سَعَادَةٍ لِقُلُوبِهِمْ، وطُمَأْنِينَةٍ لنفُوسِهم، وَتَنْوِيرٍ لبَصَائِرِهِمْ، وشَحْنٍ لِقُواهُم الْمَعْنَوِيَّةِ، بِطَاقَاتٍ رُوحِيَّةٍ عَظِيمَةٍ، لَا يَظْفُرونَ بِها إِلَّا بالْعِبَادَةِ الْمُخْلِصَةِ لله عَزَّ وَجلّ، وَبالصِّلَةِ الرُّوحِيَّةِ الَّتي تَكُونُ لَهُمْ حِينَما يَقِفُونَ بَيْنَ يَدَي اللَّهِ، ويُوَجِّهُونَ وُجُوهَهُمْ لَهُ، يُصَلُّونَ قَائِمين وَرَاكِعِينَ وسَاجِدِينَ، يَذْكُرُونَه، ويُنَاجُونَه، ويَتْلُونَ آيَاتِه آنَاءَ اللَّيْلِ.

إنّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» يَعْلَمُونَ ذَلِكَ بِإِرْشَادِ كِتَابِ اللَّهِ، وإِرْشَادِ سُنَّةِ رَسُولِه، وبالْمُمَارَسَةِ الَّتِي يَذُوقُونَ بِهَا حَلَاوَةَ الْإِيمَان، وحَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ، وحَلَاوَةَ الصِّلَةِ بِاللَّهِ، وحَلَاوَةَ الأُنْسِ به، وحَلَاوَةَ انْفِتَاحِ الْبَصِيرَةِ لإِدْرَاكِ مَعَارِفَ لَا يَنَالُهَا إِلَّا مَنْ نَوَّرَ اللَّهُ بَصَائِرَهم، وفَتَحَ مَغَالِيقَ قُلُوبِهِمْ وأَفْكَارِهم، وأَمَدَّهُمْ بِعَطَاءٍ مِنْ عِنْدِه، وأَدْنَاهُمْ إِلَيْهِ بالْقُرْبِ والْمَحَبَّةِ.

إنّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» الّذِين تَشَرَّفُوا بِوِسَامِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ مُسْتَظِلِّينَ بِظِلِّ رَحْمَةِ اللَّهِ عزَّ وجلّ، وبظِلّ اسم اللَّهِ «الرَّحْمٰنِ» يَبِيتُونَ فِي لَيَالِيهِمْ مَا تَجَدَّدَتْ، لِرَبِّهم وَحْدَه، سُجَّداً وَقِياماً، فَهٰذَ الْوَصْفُ مُلازِمٌ لَهُمْ غَالِباً كُلَّما بَاتُوا، ودَخَلَ عَلَيْهِمْ اللَّيْلُ، وخَلَوْا بِأَنْفُسِهِم لِرَبِّهِم. (دلَّ عَلَىٰ هَذا فِعْلُ «يَبِيتُونَ» لِأَنّهُ فعْلٌ مُضَارِع يَدُلُّ عَلَىٰ التجدُّدِ والتَّكْرَارِ).

ويتحَقَّقُ فِي «عبادِ الرحمٰنِ» هٰذا الوصْفُ بأَنْ يَقُومُوا مُتَهَجِّدينَ بَعْضَ اللَّيْل، ولا يُشْتَرَطُ أنْ يَقُومُوا اللّيلَ كُلَّه، فالرَّسُولُ الأعْظَمُ وهو سيِّدُ عِبادِ الرحمٰنِ وإمَامُهُم الأعْظَمُ، لَمْ يَكَلِّفْه اللَّهُ أَنْ يَقُومَ كُلَّ اللَّيْلِ، فقد أنْزَلَ عَلَيْه فِي أَوائِل مَا أَنْزَلَ مِنْ قُرآنٍ قولَه عزَّ وجلّ في سورة (المزّمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

فناشِئَةُ اللّيلِ ـ وَهِيَ سَاعَاتُه وَآنَاؤُه ـ هِيَ أَثْبَتُ لِلْقِيَام بِطَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِه، وَهِيَ أَبْعَدُ عَنِ الْقَلَقِ والتّذَبْذُبِ فِي اتِّجَاهِ الرِّيَاءِ والسُّمْعَةِ وأَهْوَاءِ النَّفْسِ، وطلَبِ الدُّنيا مِنَ النَّاسِ بِمَظَاهِر الْعِبَادَةِ، وَهِيَ أَقْوَمُ قِيلاً، أي: أَصَحُّ قَوْلاً وَمُنَاجَاة لِلَّهِ عزَّ وجلّ، بِسَبَبِ صَفَاءِ الذِّهنِ، وسُكُونِ النَّفسِ، وهُدُوءِ الجَوِّ مِنَ الأصْوَاتِ، فَهِيَ أَكْثَرُ تَحْقِيقاً لِلْخَلْوَةِ بِالله، ومُنَاجَاتِه بالذِّكْرِ والدُّعَاءِ وتِلَاوَةِ الْقُرْآن.

وَمِنَ المجرَّبِ أنَّ الفِكْرَ الصَّافِي، والْجوَّ السَّاكِنَ، والنَّفْسَ الهَادِئَةَ الْمُطْمَئِنَّةَ، شُرُوطٌ تُهَيِّىءُ أفْضَلَ الأوقاتِ لأنْ يَقُولَ الإِنْسَانُ قَوْلاً قَوِيماً، فَإذا كَانَ فِي مجَالِ البَحْثِ الْعِلْمِيّ قَالَ أَقْوَمَ الكَلِم المُتَضَمِّنِ لِلْعِلْم الصَّحِيح أَوْ الأَقْرَبَ إِلَىٰ الصِّحَّةِ، وإذَا كَانَ فِي مَجَالِ الدُّعَاءِ دَعَا بأَقْوَمِ الْقَوْلِ المُتَضَمِّنِ أكْرَمَ المطَالِب وأحْسَنَها، وطلَبَ سَعَادَتَي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وإذا كَانَ فِي مَجَالِ الذِّكْرِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بأَقْوَمِ الْقَوْلِ المتضمِّنِ تَوْحِيدَ اللَّهِ والتَّسبِيحَ بحَمْدِه، والثناءَ عَلَيْه بالمَحَامِد الْعَظِيمَةِ الّتِي تَلِيقُ بجَلَالِه، وإذا كانَ فِي مَجَالِ مُنَاجَاةِ اللَّهِ نَاجَىٰ اللَّهَ بأَقْوَم الْقَوْلِ فِي الْمُنَاجَاةِ، فَتَلا آيَاتِ اللَّهِ بتَرْتيلٍ، وتدبُّر.

حتَّىٰ الكَاتِبُ والشَّاعِرُ يجِدُ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ ولَا سِيمَا الثُّلُثُ الأخِيرُ منه أفْضَل الأَوْقَاتِ لِتوارُدِ أَفْضَلِ الأَفْكَارِ وأَحْسَنِها، وأَفْضَل الْكَلِمِ وأَقْوَمِهِ.

و«عِبادُ الرَّحْمٰنِ» إذْ يَبيتُونَ لِرَبِّهم سُجَّدًا وَقِياماً، يَتَذَوَّقُونَ مَعَانِيَ التَّوْحِيدِ الْكَامِلِ لِلَّهِ عَزَّ وجلّ، فَهُمْ يَسْجُدُونَ وَيَقُومُونَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لا شَرِيكَ لَهُ، بدَلَالَة تَقْدِيمِ [**لِرَبِّهِمْ**] على [**سُجَّداً وَقِياماً**] كما سبَقَ بيانه.

وقَدْ جَاء فِي الآية تَقْدِيمُ السُّجُودِ عَلَىٰ الْقِيَامِ مَعَ أنّ التَّرْتِيب فِي الصَّلاةِ مَبْنِيٌّ علىٰ تَقْدِيم الْقِيام عَلَىٰ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، لِأنّ الْعَبْدَ يَكُونُ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ مِنْ رَبِّهِ وهُو سَاجِد، ولِأنّ عِبَادَ الرَّحْمٰنِ يُكْثِرُون مِنَ السُّجُودِ ويُطِيلُونَ فِيه، لِيَسْتَمْتِعُوا بِحَالَاتِ الْقُرْبِ مِن الله تَعالَىٰ، ولِأنَّ السُّجُودَ تَعْبِيرٌ مادِّيٌّ جَسَدِيٌّ عَنْ كَمَالِ الخُضُوعِ والطَّاعَةِ لله تَعالَىٰ فِي ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ، وفِي أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ، وَمَا دَامَ سُجُودُهُمْ هٰذَا فِي لَيَالِيهِمْ وخَلَواتِهِمْ مَعَ بَارِئهم الرَّحْمٰنِ، فهو سُجُودٌ صَادِق التَّعْبِيرِ، صَادقُ الدَّلَالَةِ علىٰ مَعْنَىٰ خُضُوعِهِم القلْبِيّ والنَّفْسِي لله تَعَالَىٰ.

ومنَ الْمَعْلُوم أنّ قِيامَ اللّيلِ علَىٰ الْوَجْهِ الّذِي سبَقَ بَيَانُه هُو مِنْ صِفَاتِ الأَبْرارِ والْمُحْسِنين، الّذِين ارْتَقَوا فَوْقَ سَقْفِ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

من صِفات عِبادِ الرحمٰن أنّهم يَدْعُونَ رَبَّهُمْ آنَاءَ اللَّيْل والنّهارِ مَا تَعاقَبَتْ عَلَيْهِم الأَيَامُ بِأَنْ يَصْرفَ عَنْهم عَذَابَ جَهَنَّمَ.

﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾: أي: ربَّنا رُدّ عنَّا عِقابَ جهنَّم، وأبْعِدْه وحَوِّلْهُ عنّا. وهٰذا يُدُلُّ عَلَىٰ أنّهُمْ يَعْتَرِفُون بخَطَايَا قَد ارْتَكَبُوها، فَهُمْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَصْرِفَ فَيَرُدَّ عَنْهُمْ الْعِقَابَ الأُخْرَوِيَّ عَلَيْهَا فِي جَهَنَّمَ، وَيَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِم بِالْحِفْظِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي والآثَامِ، وبِذَلِكَ يَصْرِفُ عَنْهُمْ عَذَابَ جهنّم.

﴿جَهَنَّمَ﴾: اسْمٌ عَلَمٌ عَلَىٰ دَارِ الْعَذَابِ الّتِي أَعْتَدَهَا اللّٰهُ عَزَّ وجَلَّ لِلْمُجْرِمِين، ولِلْعُصَاةِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْعَذَابَ يَوْمَ الدِّينِ فِيها، إذَا لَمْ تَشْمَلْهُم رحْمَةُ اللّهِ بالْعَفْو أو الْغُفْرانِ.

ولفظ: «جَهنّم» يُطْلَقُ عَلَىٰ القَعْرِ الْبَعِيدِ، يقالُ لغَةً: بئْرٌ جَهَنّم، وَجِهِنّام، أي: بَعِيدَةُ القَعْر. وهُوَ مَمْنُوع من الصَّرْف، قيلَ: لِلْعَلَمِيَّةِ والتَّأْنِيثِ، وقِيلَ: لِلْعَلَمِيَّة والعُجْمَة، والأوَّلُ فِيمَا أرَىٰ أرْجَحُ، لأنَّ اللَّفْظ مُسْتَعْمَلُ فِي العربيّةِ وَصْفاً بمَعْنَىٰ القَعْرِ الْبَعِيد، ولا دَاعِيَ لِأَنْ نَقُولَ: هُو تَعْرِيبٌ لِلَفْظِ «كِهِنَّام» فِي الْعِبْرَانِيَّة، فاللّغات تَشْتَرِكُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الألْفَاظ، ولا سيما ذَواتُ الأُصُولِ الواحِدة.

﴿غَرَامًا﴾: جاءَ فِي التَّفْسِير أنّه الْعَذَابُ الْمُلَازم، وأنّه الْعَذَابُ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ التَّخلُصُ مِنْه. وجَاءَ أنّه الْهَلَاك، ويُبْعِدُ هذَا الأَخِيرَ أنّ الهَلَاكَ الْمَوْتُ والفَنَاء، وعَذَابُ جهَنَّمَ يَومَ الدِّين لا مَوْتَ فِيه ولا فَناء يرافِقُه.

وأَحْسَنُ مَا أَرَى فِي تَفْسِيرِ «غراماً» مَا قَالَهُ الزَّجاج: الْغَرَامُ أَشَدُّ الْعَذَابِ فِي اللّغة، وهٰذا يَنْطَبِقُ تَماماً عَلَىٰ عَذَابِ جهَنَّم سَواءٌ أكان عذاباً ملازماً أبداً، أمْ كَانَ عَذَاباً مؤقّتاً وهو الّذِي يَكُونُ لِعُصَاةِ المؤمنين.

﴿سَآءَتْ﴾: فِعْلٌ منْ أَفْعَالِ الذَّمّ، مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعُجُّبِ، أيْ: مَا أَسْوأَ جَهَنّم مُسْتَقراً ومُقَاماً.

﴿مُسْتَقَرًّا﴾: أي: مَكانَ اسْتِقْرارٍ دَائِمٍ، والاسْتِقْرار هُوَ الْبَقَاءُ الدَّائِمُ

فِي الْقَرَارِ (وهو المكانُ الْمُنْخَفِض) أو هُو الْبَقَاءُ الطَّويلُ الأَمَدِ، لأنّ الشيْءَ متَىٰ لَصِقَ فِي مَكَانِه وثَبتَ أُطْلِقَ عَلَيْه فِي اللّغة أنَّهُ مُسْتَقِرٌ فِيه، وتَقُولُ العربُ لِمَا يَلْصَقُ مِنَ الطَّبْخ بِأَسْفَلِ القِدْر قَرَارَةٌ وقِرَارَة وقُرُورَة، لأنَّها تَلْصَقُ وتَسْتَقِرُّ ولَا تَخرُجُ إلّا اقْتِلَاعاً.

﴿وَمُقَامًا﴾: أي: ومَكَانَ إِقَامَةٍ، والْإِقَامَةُ هي بَقاءٌ نِسْبِيٌّ لا يُشْتَرَطُ فِيهِ الدَّوَامُ الطّويلِ.

ومنْهُ مَقَالَةُ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُنَافِقين فِي غَزْوَةِ «الْخَنْدَقِ»: يَا أَهْل يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فارْجِعُوا، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآيِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ ... ﴿١٣﴾﴾.

ومعلومٌ أنَّ الإقامَةَ فِي الْغَزْوَة إقامةٌ مَحْدُودَةٌ بِحُدُودِ مَعَارِكِها السَّالِمَةِ أَوِ الظَّافِرَة، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تكُونُ العَوْدَة، بِخِلَافِ الاسْتِقْرَارِ فِي الْمَكَان.

فَمِنْ صِفاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» أَنَّهُم يَشْعُرون دَواماً بِتَقْصِيرَاتِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ، وأَنَّهُمْ يستَحِقُّونَ بِسَبَبِ مَعَاصِيهمْ ومُخَالَفَاتِهم وتَقْصِيراتِهم الّتِي قَدْ تَقَعُ مِنْهُمْ، أَنْ يُعَذَّبُوا بعَذابِ جهَنَّمَ، ولَوْ كَانَ عَذَابَ مُقِيم إِقَامَةً قَلِيلَةً، لَا عَذَابَ مُسْتَقِرٌ خَالِدٍ فيها، وهُمْ يتخوَّفُونَ مِنْ أنّ تَنقلبَ أحْوَالُهُمْ مُسْتَقبلاً إلىٰ مِثلِ أَحْوالِ الْعُصَاةِ، فَيَسْأَلُونَ رَبَّهُمُ الْحِفْظَ والْعِصْمِة.

لذَلِكَ فَهُمْ يَسْأَلونَ اللَّهَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، وأَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ، وأنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ بِفَضْلِه وامْتِنَانِه عَذَابَ جهَنَّم، الَّذِي قَدْ يَسْتَحِقُّونَهُ بِأَعْمَالِهم، ويسألون ربّهم أيضاً أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيهِم بالحِفْظِ مِنَ الْمَعَاصِي والآثام مُسْتَقْبَلًا.

وبهٰذا يَظْهَرُ لَنا أنَّ الْوُقُوعَ فِي الْمَعَاصِي أحياناً لَا يَتَنَافَىٰ مَعَ كَوْنِ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِم مِنْ فَرِيقِ «عباد الرَّحْمٰن» علَىٰ وَجْهِ الْعُمُومِ، لأَنَّهُمْ بشَرٌ،

وهُمْ لَيْسُوا بِمَعْصُومِين، وهٰذا المَعْنَىٰ يُؤَيِّدُهُ قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢١﴾.

أي: ولَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالْحِفْظِ والتَّوْفِيق، ورَحْمَتُه إيَّاكُمْ بالْغُفْرَانِ والْعَفْو، مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً، بَلْ لَكَانَ كلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مُدَنَّساً بِأَرْجاسِ المعَاصِي والآثام.

فهٰذا التَّعْمِيمُ يَشْمَلُ المتَّقين والأبْرارَ والْمُحْسِنينَ، ومنَ الأبْرَار والْمُحْسِنِينَ عِبادُ الرَّحْمٰن مَهْمَا اسْتَقَامُوا، لِذَلِكَ فَهُمْ بحَاجَةٍ دَائِمَةٍ إلَىٰ الاسْتِغْفَارِ، وسُؤَالِ الله أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ، بالْحِفْظِ مَنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي، وهُوَ فَضْلٌ مِنَ الله، أو الْغُفْرانِ والْعَفْوِ بَعْدَ الْوقُوعِ فِي الْمَعَاصِي، وَتِلْكَ رَحْمَةٌ مِنَ الله.

وفي مقالة «عباد الرحمٰن» فِي دُعَائِهم إنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً، إشارةٌ إلى مَواطِنِ تَخَوُّفِهِمْ، فَهُمْ يَخَافُونَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ مُسْتَقراً بِالشِّرْكِ أو مَا هُوَ شَرٌّ مِنْه، ويَخَافُون أَنْ تكُون لَهُمْ مُقَاماً، بِالْمَعَاصِي الَّتِي لَا تَكُونُ مَشْمُولَةً بِعفْوِ الله، أَوْ غُفْرانِه.

وفي ذِكْرِ هٰذِهِ الْمَقَالَةِ ضِمْنَ دُعَائِهم معْنَىٰ الاسْتِعْطَافِ، واسْتِدْرَارِ رَحْمَةِ الله، مَعَ التَّعْبِير عَنْ إيمَانِهم بهٰذِه الْقَضِيَّةِ مِنْ قَضَايَا يَوْمِ الدِّين.

ومنْ هٰذَا الْبَيان يَتَّضِحُ لَنا أَنَّ الاسْتِقْرَارَ فِي جَهَنَّمَ يَكُونُ لأَهْلِ الكُفْرِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ مَنَازِلِهِمْ ودَرَكَاتِهِمْ، ولِأَهْلِ النِّفَاقِ الَّذِينَ هُمْ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَل مِنَ النَّارِ، وأَنَّ الإِقَامَةَ فِي جَهَنمَ تَكُونُ لِلْعُصَاة والَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ، عَلَىٰ أنّ جَهَنَّمَ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهَا قَدْ سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً، وسَاءَتْ مُقَاماً.

و«عِبَادُ الرّحمٰنِ» يَسْأَلُونَ الله عزَّ وجلّ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ عَذَابَ جهنَّمَ كُلَّه، سَوَاءٌ أَكَانَ عَذَابَ أَهْلِ الاسْتِقَرارِ فِيها، أمْ عَذَابَ أَهْلِ الْإِقَامَة.

وهٰذَا الدُّعَاءُ يَتَضَمَّنُ عَنْ طَرِيقِ اللُّزُومِ الذِّهْنِيّ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ عَزَّ وجلّ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ بِمَعُونَتِه وتَوْفِيقِه مَا يَستَحقّون بِهِ أنْ يَعذِّبَهُم فِي جَهَنَّم، فَهُو دَعاءٌ بِصَرْفِ الأَسْبَابِ الَّتِي تَقْتَضِي تَعْذِيبَهُم، ويكُونُ هٰذا الصَّرْفُ بتَوْفِيقِهِمْ للإِيمَان الصَّادِق الصَّحِيح، والْعَمَلِ الصَّالِح، فَبِالْإِيمَانِ يَحْمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الكُفْرِ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ عَنْهُمْ الاسْتِقْرَار فِي جَهَنم، وبالْعَمَلِ الصَّالِح يَحْمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْفُسُوقِ والْعِصْيَانِ، فَيَصْرِفُ الله عَنْهُمُ الْإِقَامَة فِي جهَنّمَ، ولَوْ كَانَتْ إِقَامَةً قَلِيلَةً ويَسِيرَةً.

وما دَامَ كلُّ ذلك لا يتِمُّ إلّا بتَوْفِيقِ الله ومَعْونَتِه، بَعْدَ صِحَّةِ إرادَةِ الْعَبْدِ، وصِدْقِ عَزِيمَتِه، فإنَّ «عِبَادَ الرَّحْمٰن» يُعْلِنُون عَنْ صِحَّةِ إرَادَاتِهم، وصِدْقِ عَزائِمِهِمْ، فَيَدْعُونَ الله مَعَ عِبَادَاتِهم لِرَبّهم آنا بَعْدَ آنٍ، أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ عَذَابَ جهَنّم كلَّه دَائِمَهُ ومؤقَّتَهُ.

ويتَضَمَّنُ دُعَاؤهُمْ هٰذا أَيْضاً معَنَىٰ تَوْفِيقِهِمْ للتَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ والإِنَابَةِ إِلَىٰ الله، كُلَّما بَدرتْ مِنْهُمْ بَادِرَةُ مَعْصِيَةٍ، أَوْ وَقَعَتْ مِنْهُمْ خَطِيئَةٌ، حتَّى يُكفِّرَ اللَّهُ عَنْهُم ذُنُوبَهُمْ وخَطَايَاهُمْ، ويَعْفُو عَنْهُم بفَضْلِه، فَيَأْتُون بَارِئَهُمْ بِصَحَائِفَ لَيْسَ فِيها مَا يَقْتَضِي تَعْذِيبَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّم.

ومَعْلُومٌ أنّ الَّذِينَ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ أَنْ يَصْرِفَ اللَّهُ عَنْهُم كُلَّ عَذَابِ جهَنّم، لَا بُدَّ أَنْ يَجْتَهِدوا حَتَّىٰ يَسْتَوفُوا حُقُوقَ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، بِكُلِّ دَرَجَاتِها، لِأَنَّهُمْ لَا يَرْتَقُونَ إِلَىٰ مَا فَوْقَهَا حتَّى يَسْتَوْفُوا حُقُوقَها، فَاسْتِيفَاءُ حُقُوقِ الْمَرْتبَةِ الدُّنْيا شَرْطٌ للارْتِقَاءِ إِلَىٰ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي فَوْقَهَا.

❋ ❋ ❋

قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أَنفَقُوا۟﴾: أي: بَذَلُوا مِنْ أموالِهم فيمَا أذِن الله بِبَذْلِ المالِ فيه مِنْ وُجوه، وهٰذا شَأن عَامَّةِ الْمُتَّقِين، وسُمِّي بَذْلُ المَالِ إنفَاقاً لأَنَّهُ يُؤَدّي إلَىٰ نَفَادِهِ وفَنَائِه، فالإِنْفَاقُ فِي اللُّغة الْفَقْرُ والإِمْلاقُ بِنَفَادِ المَالِ، ويقالُ: نَفَقَ الشيءُ يَنْفُقُ نَفْقاً إِذَا نَفِد، وكذلِكَ نَفَق الزّادُ، ولكنّ المال الذي يُنْفقه المنْفِقُ في سبيل الله وطاعته فإنّ الله يُخْلِفُه.

﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾: أيْ لَمْ يَتَجَاوَزوا حدَّ الحِكْمَةِ فِي الإِنْفَاق، يُقَالُ لُغَةً: أَسْرَف فِي المال، أوْ فِي الكلام، أو فِي الْقَتْل، أو نَحْوِ ذٰلِك، إذَا تَجَاوَزَ حدَّ الحَقِّ، أو الْحِكْمَةِ أو ما يَقْتَضِيه الْعَقْلُ الرَّاجِحُ.

﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [وَلَمْ يَقْتِرُوا] [وَلَمْ يُقْتِرُوا]: في القراءات الثلاث، أي: لم يُضَيِّقُوا النفقة على أنفسهم، وعلى من تجب عليهم نَفَقَتُهم، ولم يجعلوها أقلّ من المطلوب منهم أو أقلّ من الحاجة.

يقال لغة: قَتَرَ الرَّجُلُ عَلَىٰ عِيَاله يَقْتُر ويَقْتِرُ قَتْراً، وأَقْتَرَ عليهم وقَتَّر عليهم، إذا بَخِل وضَيَّقَ عليهم في النَّفَقَة.

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾: أي: وكَان بَيْنَ الإِسْرَافِ والتَّقْتِيرِ وسَطاً مُعْتَدِلاً مُسْتَقِيماً غَيْرَ مَائِلٍ ولاَ مُعْوَجّ.

الْقَوَامُ في اللّغة: العدل، ويُقالُ: رُمْحٌ قَوَام، إذَا كَان مُسْتَقِيماً مُعْتَدِلاً.

فدَلّ هٰذَا عَلَى أنّ كُلًّا مِنَ الْإِسْرَافِ والتَّقْتِير انْحِرَافٌ واعْوِجَاجٌ عَمَّا تَقْتَضِيه الحِكْمَةُ مِنَ الاسْتِقَامَةِ والْعَدْل.

فَمِنْ صِفَات «عبادِ الرَّحْمٰن» أنَّهُم عُقَلاءُ حُكَمَاءُ فِي الإِنْفَاق مِنْ أَمْوَالِهم، لا يَتأَثَّرُون بدَوَافِع الْبَذْلِ مِنْ أهواءِ وشَهَواتٍ وعَواطِفَ فَيُسْرِفُونَ،

ولَا يَتَأَثَّرُون بِدَاوَافِعِ الإِمْسَاكِ مِنْ بُخْلٍ وشُحٍّ وخَوْفٍ مِن الْفَقْرِ فَيُقَتِّرُون، وهٰذا سُلُوكٌ فِي حَياةِ بَعْضِ النَّاس، يدُلّ عَلَىٰ تَعادُلٍ فِي شَخْصِيَّاتِهِم يُرَشِّحُهُمْ لأَنْ يَرْتَقُوا فِي الدَّرَجات، حَتَّىٰ يَكُونُوا مِن عبادِ الرحمٰنِ حَقًّا نَظِير سُلُوكِ الّذِينَ يَمْشُونَ علىٰ الأَرْضِ هَوْناً وَإذَا خَاطِبَهُمُ الْجَاهِلُون قالوا: سَلاماً.

وكِلَا السُّلُوكَيْن هُمَا مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَتِي الأَبْرَارِ والْمُحْسِنين، لِأَنَّ الْإِسْرَافَ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ لا يُخِلُّ بِحُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، والتَّقْتِيرَ مِنْ غَيْرِ مَنْعٍ للْحَقِّ والْوَاجِب، لا يُخِلّ أيضاً بحُقُوقِها، فالْقَوَامُ فِي الإِنْفَاقِ هُوَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ مَرْتَبَتِي الأَبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ، الْجَامِعَتَيْنِ لفَرِيقِ عِبادِ الرّحْمٰن.

ومَنْ لَمْ يَكُنْ في أصْلِ خُلُقِه هٰذانِ السُّلُوكَانِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهِما إذَا أَرَادَ أَنْ يَكُونَ من «عِبادِ الرحْمٰن» حقاً.

و«عِبَاد الرّحْمٰن» حِينَما يَكُونُ إنْفَاقُهُمْ لِأمْوالِهِمْ وَسَطاً مُعْتَدِلاً قَوَاماً لَا إسْرَافَ فِيه ولَا تَضْيِيقَ، فإنّهم يَتَحَلَّوْنَ بهٰذِه الصِّفَةِ الْتِزَاماً بِمَنْهَجِ الإِسْلَامِ فِي إنْفَاقِ الأَمْوال، فإذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ببَذْلِ أمْوالِهم في الْمَعَاصِي والتَّرَفِ والرَّفَاهِيَةِ الزَّائِدَة، زُهْداً بمَتَاعِ الحَياة الدُّنيا، واسْتِخْداماً لِلْمال فِيما خُلِقَ مِنْ أَجْلِه، ولم يَقْتُروا عَلَىٰ أَنْفُسِهم وأَهْلِيهِمْ، بَلْ مَنْهَجُهُم مَنْهَجُ وَسَط لَا إسْرَافَ فِيهِ ولَا تَقْتِير.

ومع تَحلِّيهِمْ بهٰذِه الصِّفَة فإنّهم يُدْرِكُونَ قِيمَةَ الْمَالِ فِي الإِسْلَام، وأَنَّه قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ قِياماً لِلنَّاسِ، فِيه قِيَامُ مَعَاشِهم.

لقد أوْصَىٰ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ الإِنْسَانَ الْمُؤْمِن الْمُسْلِمَ بقوله في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ

ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

فَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ يَعْمَلُون بِهٰذِهِ الوَصِيَّة الرَّبَّانِيَّة، فَلَا يَكُونُونَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الْمُبَذِّرِين إذا أَنْفَقُوا، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أنّ الْمُبَذِّرِينَ إِخْوَانُ الشَّيَاطِين، وذَلِكَ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ تَأْمُر بالْفَحْشَاءِ والْمُنْكَر، وهٰذِه تَسْتَدْعِي بَذْلاً بإِسْرَافٍ فِي الْمَعَاصِي، وَمَنْ سَارَ فِي هٰذِه الطَّرِيقِ الْمُنْحَدِرَة إِلَىٰ الْمَهَالِك، لَمْ يَجِدْ مَعَهُ إِلّا رُفَقَاءَ السُّوءِ، وشَيَاطِينُ الإِنْسِ والْجِنِّ تَسْتَهْوِيه وَتَسْتَدْرِجُه، حَتّى تَقْذِفَ بِهِ فِي حَمْأَةِ الْإِثْمِ والْمَرَضِ والْمَذَلّة، ثُمَّ فِي أَودِيَةِ سَخَطِ اللَّهِ، ثُمّ إِلَىٰ جَهَنَّم وبِئْسَ الْمَصِير.

أمّا الإِنْفَاقُ فِي الْخَيْرِ وفِي طَاعَاتِ اللَّهِ، فَلَا يَكُونُ مِنَ الْإِسْرَافِ والتَّبْذِيرِ بَالِغاً ما بَلَغ، بشَرْطِ أَنْ تُؤدَّىٰ من الْأَمْوَال الْحُقُوقُ والْوَاجِبَاتُ أوّلاً، وأن لَا يكون فيه تعْرِيض أسْرَة المنفق إِلَىٰ الفقر والحاجة من بَعْدِه.

والقرآنُ يُعَلّمُ المؤمِنِينَ قاعِدَةَ الاقتِصَادِ الكُبْرَىٰ فِي الإِنْفَاقِ، وهِيَ التَّوسُّط والاعْتِدَالُ بَيْنَ الْقَبْضِ الشَّدِيدِ والْبَسْطِ الشَّدِيدِ، فَمَنْ أَسْرَف فِي الْقَبْض، أو أسْرَفَ فِي الإِنفاقِ والْبَسْطِ، قَعَدَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ حَزِيناً، شَدِيدَ النَّدَم، مَلُوماً عَلَىٰ بُخْلِه بالْوَاجِب إِذَا بَخِلَ، وَمُلوماً علَىٰ إِسْرَافِه وتَبْذِيرِهِ إِذَا أَسْرَفَ، مِنَ الْخَالِق، ومِنْ المخْلُوقِين، ومِنْ نَفْسِه، ومَحْسُوراً لِمَا فَرَّط فِي جَنْبِ الله، بِإِمْسَاكِه مَا أَوْجبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْفَاقَه، ولِمَا فَرّط أيضاً بإِسْرَافِه وتَبْذِيرِه بالإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ الله ومَرَاضِيه، وَفِي تَضْيِيعِه مَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ مَالٍ فِيمَا لَا فَائِدَةَ مِنه، ولَا نَفْعَ فِيه.

الْمَحْسُورُ: هُوَ الكالُّ الّذِي أَصَابَهُ الْعَجْزُ فأَقْعَدَهُ عَنْ مَتابَعَةِ السَّيْر، وكَذٰلِكَ مَنْ جَنَىٰ عَلَىٰ نَفْسِه بسُوءِ تَصَرُّفِه حتَّىٰ قَعَد عَاجِزاً ضَعِيفاً، وبَاتَ حَزِيناً كَئِيباً نَادِماً عَلَىٰ مَا فَاتَه، يَلُومُ نَفْسَه علَىٰ مَا كَانَ مِنْهُ، ويَحْمِلُ هٰذا

الوَصْفُ أيْضاً مغنَىٰ انْحِسَارِ الثَّوابِ والأَجْرِ عَنْه، وانْحِسَارِ مَالِه عَنْه فِي حالَةِ التَّبْذيرِ، وانْحِسَارِ النَّاسِ عَنْهُ فِي حَالَةِ الْبُخْل.

وقد أبانَ الرَّسُول ﷺ فَائِدَةَ الالْتِزَام بقَاعِدِة الاقْتِصَاد الكُبْرَىٰ فِي الإنْفَاق، وهِيَ قَاعِدَةُ الاعْتِدالَ والتَّوَسُّطِ بَيْنَ الْقَبْضِ والْبَسْطِ، فَقَدْ رَوَىٰ الإمَامُ أَحْمَد عن عَبْدِ الله بن مَسْعُود قال: قال رسول الله ﷺ.

«مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ».

أي: مَا افْتَقَرَ ومَا مَسَّتْهُ الْحَاجَةُ مَنِ اقْتصَدَ فِي مَعِيشَتِه. والْقَصْدُ والاقْتِصَادُ هو الاعْتِدَالُ مِنْ غَيْرِ إفْرَاطٍ ولَا تَفْرِيطٍ.

وهٰذا الاعْتِدَالُ الّذي أَرْشَد إلَيْهِ الإسْلَامُ فِي الإنْفَاقِ قَدْ أَكَّدَتْهُ نُصوصُ النَّهْي عَنِ الْبُخْلِ والشُّحّ، ونصُوصُ الأَمْرِ بالإنْفَاقِ فِي الْخَيْرِ، وفِي سَبِيلِ اللَّهِ، ونُصُوصُ الأَمْرِ بإيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ واليتامَىٰ والْمَسَاكِينِ وأَبْنَاءِ السَّبِيلِ والْفُقَراءِ وغَيرِ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْخَيْر.

وأَكَّدَتْهُ أَيْضاً نُصوصُ النَّهْيِ عَنِ الإسْرَافِ والتَّبْذِيرِ.

فإذا كان البُخْلُ والشُّحُّ يَقَعَانِ فِي أَقْصَىٰ طَرَفِ الشِّمَالِ، وكانَ الإسْرَافُ والتَّبْذِيرُ يَقَعَانِ فِي أقصَىٰ طَرَفِ الْيَمِينِ، فإنَّ الاعْتَدَالَ الَّذِي حَدَّدَه الإسْلَامُ مَنْهجاً لِلإنْفَاقِ يَقَعُ فِي قِمَّةٍ مُتَوَسِّطَةٍ بَيْنَهُمَا، وهٰذَا الْمَنْهَجُ الْمُتَوَسِّطُ هُو مَا تَقْتَضِيه الحِكْمَةُ، ومَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً.

ولَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ يُمثِّلُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ قِمَّةَ دُعَاةِ الشّرِّ والسُّوء والْفِتْنَةِ، ومُجَافَاةِ سَبِيلِ الحِكْمَةِ، وكَانَ الرَّحْمٰنُ مَصْدَر كُلِّ دَعْوَةٍ إلَىٰ الْخَير والْفَضِيلَةِ والأَخْذِ بالْحِكْمَةِ النَّافِعَة، قال الله عزَّ وجلّ في سورة البقرة: (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بعد أنْ حَثَّ علَىٰ الإنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وأَبَانَ وَاجِبَاتِه وآدَابَه:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

أي: إنَّ الشَّيْطَانَ يَنْهَاكُمْ عَنِ الإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، إذْ يخوِّفكُمْ مِنَ الفَقْرِ إِذَا اتّجهتُمْ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، ويَأْمُرُكُم بالْفَحْشَاءِ مَهْمَا كَانَتْ سُبُلُ الْفَحْشَاءِ تَقْتَضِي مِنْ سَالِكِيهَا إسْرَافاً وتَبْذِيراً.

فَفِي وُجُوهِ الْخَيْرِ يُبَخِّلُكُمْ، وفِي وُجُوهِ الشَّرّ يَحُضُّكُمْ عَلَىٰ الْبَذْلِ والْإِنْفَاقِ بإِسْرَافٍ وتَبْذِيرٍ.

أمّا الله عزَّ وَجلّ الرَّحِيمُ الرَّحْمٰنُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ فَهُو إنْ وَقَعْتُمْ فِي الْإِثْمِ بغَلَبَةِ الْهَوىٰ والشَّهْوة دَعَاكُمْ إِلَىٰ التَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ، وهُو يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ، وإِنْ بَذَلْتُم فِي سَبِيل اللَّهِ عَوَّضَكُمْ خَيْراً وأَخْلَفَ لَكُمْ، وهُو يَعِدُكُم فَضْلاً مِنْه. واللَّهُ عزَّ وجلّ يُرشِدُكُمْ دَائِماً إِلَىٰ الْحِكْمَةِ فِي الأَمْرِ، وذٰلِكَ بأَنْ تُنْفِقُوا كُلَّما كَانَ الإِنْفَاقُ يَجْلُبُ لَكُمْ ثَمرَاتٍ طَيّباتٍ، وبِأَنْ تُمْسِكُوا عَنِ الإِنْفَاقِ كُلَّمَا كَانَ الإِنْفَاقُ إِسْرَافاً وتَبْذِيراً، وجَالِباً لَكُمْ شَرّاً وإِثْماً.

و«عِبَادُ الرَّحْمٰنِ» يُذْرِكُونَ هٰذِهِ الْحَقَائِقَ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا الْبَيَانَاتُ والْوَصَايَا الرَّبَّانِيَّةُ، والْبَيَانَاتُ والوصَايَا النَّبويَّة، فَيلْتَزِمُونَ فِي تَصَرُّفَاتِهم فِي الأَمْوَالِ مَنْهجَ الحِكْمَة، وهُوَ الْمَنْهَج الرّبّانِيُّ الْمَتوسِّطُ الْمُعْتَدِلُ بَيْنَ الْقَبْضِ والْبَسْطِ، لذٰلِكَ فَهُمْ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتِرُوا وَكَان بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً.

❀ ❀ ❀

قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

(١) ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾:

أي: لَا يَسألُونَ لِمَطالِب دُنْياهُمْ وأُخْراهُم مَعَ سُؤالِهِم اللَّهَ عَزَّ وجلّ إلَهاً آخَرَ يَجْعَلُونَه شَرِيكاً لله.

فالدُّعَاء والدَّعْوَىٰ والدَّعْوَةُ والدَّعْوُ: السُّؤَالُ والطَّلَبُ لأيِّ أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ، وقَدْ يَكُونُ مَصْحُوباً بِالنِّدَاء وَرفْعِ الصَّوْتِ.

يُقالُ لغةً: دَعَا اللَّهَ يَدْعُوهُ دَعْواً ودَعْوَةً ودُعاءً ودَعْوَىٰ، أي: سَأَلَهُ ورَغِبَ إِلَيْه، وطَلَبَ مِنْهُ.

ويقال: دَعَا فُلاناً، إذَا اسْتَعَانَ بِهِ أَوِ اسْتَغَاث.

ويُقَالُ: دَعا بالشَّيء إذَا طَلَبَ إحْضَارَه. ودَعَا إِلَىٰ فِكْرَةٍ مَا، أَوْ مَذْهَبٍ ما أَوْ طريقة ما، إذَا طَلَبَ الْتِزَامَ ذَلك.

فالْمَادَّة تَدُور حَوْلَ مَعْنَى الطَّلَبِ والسُّؤَالِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ دَرَجَاتِه مِنَ الأدْنَىٰ إِلَىٰ الأَعْلَىٰ أَوْ بِالْعَكْسِ، أَوْ مِنَ الْمُسَاوِي، وفِي الدُّعَاء عُمُوماً مَعْنَىٰ تَكْرِيم الْمَدْعوِّ وسُؤَالِهِ بِرِفْقٍ، وقَدْ يَصِلُ إِلَىٰ مَسْتَوىٰ الاسْتِعْطَافِ فَالتَّذَلُّلِ والتَّضَرُّعِ.

ولَمَّا كَانَ دُعَاءُ الْعَبْدِ ربّه مِنْ أَجَلِّ عَنَاصِرِ عِبادَتِه لَهُ، حَمَلَ هٰذا الدُّعَاءُ معْنَىٰ الْعِبادَةِ، فَقَدْ يُطْلَق الدُّعَاءَ ويُرَادُ بِهِ مُطْلَقُ العِبادَة، ويَدْخُل فِيها السُّؤَالُ والطَّلَبُ مِنَ الله، أو مِنْ آلِهَةِ الْمُشْرِكينَ إذَا كَانَ مُوَجَّهاً لَها.

و«عِبَادُ الرَّحْمٰنِ» مِنْ أَوْصَافِهِم أَنَّهُمْ لا يَعْبُدُونَ مَعَ الله إلَهاً آخَر، بأيِّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ، وفِي مُقَدَّمَتِها السُّؤَالُ والطَّلَبُ عَلَىٰ سَبِيل التَّضَرُّعِ

والتَّذَلُّلِ واعْتِقَادِ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ التَّصرُّفِ فِي الْغَيْبِيَّاتِ، فَلَا يَسْأَلُونَ لِمَطَالِب دُنْيَاهُمْ أَوْ آخِرَتِهم مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخر.

وهٰذا الْوَصْفُ هُوَ مِنْ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، ولَكِنْ لمَّا كَانَتْ شُرُوطُ مَرْتبَةِ الْمُتَّقِينَ كُلُّهَا شُرُوطاً أَسَاسِيَّةً لِمَرْتَبَةِ الأَبْرارِ ولِمَرْتَبَةِ الْمُحْسِنين، وعِبَادُ الرَّحْمٰنِ هُمْ مِنَ الأَبْرَارِ أَوْ الْمُحْسِنينِ، كانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ الكُلِّيَّاتِ الكُبْرىٰ المَطْلُوبَةِ لِمَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، ضِمْنَ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ ارْتَقَوْا فَوْقَ مَرْتَبَةِ المُتَّقِينَ لِيَكُونُوا أئِمَّةً لَهُمْ، باعْتِبارِ أَنْ شُرُوطَ الْمَرْتَبَةِ الأَدْنَىٰ هِيَ شُرُوط طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَراتِبِ الَّتِي فَوْقَها.

وقَدْ يَزِيد «عِبادُ الرَّحْمٰنِ» مِنْ مُسْتَوىٰ حَذَرِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ الْخَفِيِّ، الَّذِي رُبَّمَا يَقَعُ بِهِ بَعْضُ الْمُتَّقِين وهُمْ لَا يَشْعُرونَ.

لَقَدْ عَرَفُوا أَنَّه لَا خَالِقَ فِي الْوُجُودِ إلّا اللَّهُ، ولَا رَازِقَ إلَّا اللَّهُ، ولَا مُحْيِيَ إلّا اللَّهُ، ولَا مُمِيتَ إلّا اللَّهُ، ولَا شَافِيَ ولَا مُتَصرِّفَ فِي الكَوْنِ كله إلّا اللَّهُ، فَآمَنُوا بِه إيماناً خَالِصاً صَادِقاً، وعَلَّقُوا قُلُوبَهُمْ بِهِ وَحْدَهُ.

إنّهم نظروا إلى ظواهر نظام الكون، فعرفوا أنّ كلّ مُؤَثِّرَاتِها أَسْبَابٌ تَخْضَعُ لِلْمُهَيْمِن العَزِيزِ الجَبَّارِ، فَلَا تُؤَثِّر إلّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَ فِيها خَصَائِصَها وصِفَاتِهَا، ويُمِدُّهَا دَوَاماً بِمَا بِه تُؤثّر، أَوْ أَسْبَابُها أَسْبَابٌ فِي الصُّورَةِ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا تَمْلِكُ تَأْثِيراً، إِنَّمَا يُجْرِي اللَّهُ مَقَادِيرَهُ مِنْ خِلَالِها، فَيَجْعَلُها عند مَظْهَرِ التَّأْثِيرِ تُؤَثِّرُ بأمْرِهِ وخَلْقِهِ الْمَسْبُوق بقَضَائِه وقَدَرِهِ وتَدْبِيرِهِ، وهٰذَا مَا تَدُلُّ علَيْهِ نُصُوصٌ مُتَعَدِّدَةٌ إذا تَدَبَّرْنَاها بِبَصِيرَةٍ مُتَعَمِّقة.

وعَرَفَ «عِبَادُ الرَّحْمٰن» أنَّ الإِنْسَ والْجِنَّ لَو اجْتَمَعُوا علَىٰ أَنْ يَنْفَعُوا أَحَداً بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوه إلّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَهُ، ولَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوا أَحَداً بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوه إلّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

لِذٰلك فَهُمْ يُبَاشِرُون اتّخاذَ الوَسَائِلِ والأَسْبَابِ طَاعةً لأَمْرِ اللَّهِ، ولَا يُعَلِّقُونَ قُلُوبَهمْ بالوسَائِلِ والأَسْبَابِ، بَلْ بِخَالِقِ الوَسَائِلِ ومَسَبِّبِ الأَسْبَابِ، فَهُوَ الّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، والْأَسْبابُ والوسَائلُ لا تؤثّر إلّا بِإِذْنِه، أَوْ بأَمْرِه التّكْوِيني الْخَلَّاقِ.

إِنّهُمْ فِي ظَواهِرِ الأَعْمَالِ سَبَبِيُّونَ، وفِي أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ مَتَوَكِّلُونَ عَلَىٰ اللَّهِ وحْدَهُ، يُبَاشِرُونَ الْأَسْبَابَ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يُحَقِّقَ لَهُمْ مَا يَرْجُونَ مِنْ نَتَائِجَ، وَهٰذَا مَا يَفْرِضُهُ عَلَيْهِمْ وَاجِبُ الْإِيْمَانِ باللَّهِ، وَواجِبُ الطَّاعَةِ لأَوَامِرِ اللَّهِ، فَهُمْ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهاً آخر، مِنَ الْإِنْسِ، أو الْجِنِّ، أو المَلَائِكَةِ، أَو الأَوْثَانِ، أو الْمَوْتَىٰ وأَهْلِ الْقُبُورِ، أَوْ قَوانِينِ الطَّبِيعَةِ وأَسْبَابِ الْكَوْنِ، لِأَنَّهُمْ يَعلَمُونَ أَنَّ كُلّ شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ خَاضِعٌ لأَمْره وسُلْطَانِه، وهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ، ولَا يَكُونُ لَهُ عَمَلٌ ولَا تَصَرُّفٌ إلّا بِإِذْنِه، أَوْ بِقَضَائِه وقَدَرِهِ مُبَاشَرة وخَلْقِهِ.

هكذَا كُلُّ عِبادِ الرحْمٰنِ مِنَ الأنْبياءِ والْمُرْسَلِين والْمُحْسِنين والْمُقَرَّبِينَ والأَبْرَارِ والشُّهَداءِ والصَّالِحِين.

ومِنْ آثَارِ تَوْحِيد اللَّهِ فِي قُلُوبِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» أَنْ يَحْكُمُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، ولَا يَتَّخِذُوا لِأَنْفُسِهِمْ حَاكِماً يَحْكُمُ بِغَيْرِ حُكْمِهِ، لأَنَّهُمْ يَعْلَمُون أنَّ مِنْ مُقْتَضَىٰ إيمانِهم بأنَّه لَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ وَحْدَه، أن يُؤْمِنُوا بأنّه لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّه، وَلِمَنْ أَذِنَ لَهُ اللَّهُ.

إِنّ الْحَاكِمِيَّة فِي عَقِيدَتِهِمْ الرَّاسِخَةِ هِيَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَهُوَ يَأْمُرُ بِمَا يَشَاءُ، وَيَنْهَىٰ عمّا يَشَاء، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، دَلِيلُهُمْ فِي ذٰلِكَ أَنَّ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ الأَمْرُ، وَمِنْ طَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ طَاعَةُ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ، ضِمْنَ الشُّرُوطِ الّتِي حَدَّدَها لِهٰذِهِ الطَّاعَةِ، إِذْ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِق.

هٰذِه الصِّفَةُ الإِيمَانِيّة الّتِي يَتحلّىٰ بِها عِبادُ الرحمٰنِ، قَدْ أَعْلَنَهَا مِنْ قَبلُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْه الصَّلاة والسَّلام، قالَ الله عزَّ وجلّ في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

فَأَعْلَنَ إبراهيمُ عليه السلام أنَّ الله عزَّ وجلّ هُو الخَالقُ، وهُو الْهَادِي، وهُو الّذي يُطعِمُ ويَسْقِي، وهُو الّذِي يُدَاوِي ويَشْفِي، وهُوَ الَّذِي يُمِيتُ ويُحْيِي، وهُو الّذِي يَغْفِرُ الْخَطَايَا.

إِذَنْ: فأَيَّةُ فَائِدَةٍ مِنْ دُعاءِ غير الله عزَّ وجلّ، وكُلُّ مَا سِواهُ لا نَفْعَ عِنْدَه ولَا ضُرّ.

وهٰذه الصِّفَةُ الإيمَانيّة قَدْ عَلَّمَهَا الرّسولُ ﷺ أُمَّته فِي رَوائِعِ بَيَانَاتِه.

فعَنْ عَبْدِ الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيّ ﷺ يوماً، فَقَالَ:

«يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وإِنْ اجْتَمعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

رواه الترمذي، وقال: هو حديث حسن صحيح.

وفي رواية عند غير الترمذي:

احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَىٰ اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمعا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً».

(٢) ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ . . . ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ومِنْ صِفَاتِ «عِبادِ الرَّحْمٰنِ» أنَّهم لا يَقْتُلونَ النّفس الّتِي حَرَّم اللَّهُ قَتْلَها، مَهْمَا تحرّكَتْ فِي نُفُوسِهِمْ الدَّواعِي إِلَىٰ ذَلِك، إلّا بِالْحَقِّ الّذِي أَمَر بِه اللَّهُ عَزَّ وجلّ، أَوْ أَذِن به، كَحَدٍّ، أَوْ قِصاصٍ، أَوْ قِتالٍ لإعْلاء كَلِمَةِ الله، أو دِفَاعٍ عَنِ النَّفْس، الّتي جَاء بَيانُها فِيما نَزل بَعْدَ سُورَة (الفرقان).

إنّ الْقَتْلَ الّذِي لَمْ يَأْذَنْ بِه اللَّهُ لإِنْسَانٍ مَعْصُومِ الدَّمِ، هُوَ مِنَ الكَبَائِر الكُبْرَىٰ، فعِبادُ الرَّحْمٰنِ شَدِيدُو الْحَذَرِ مِنَ الْوُقُوعِ بِه.

وهٰذا الْوَصْفُ هُوَ مِنْ أَوْصَافِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، وأَقُولُ هُنا كَمَا قُلْتُ فِي صِفَة: «أَنَّهُم لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَر»:

إنّ صِفَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين هِي شُروطٌ طَبِيعيّة لِلْمَرَاتِبِ الَّتِي فَوْقَها، وذِكْرُ بَعْضِها ضِمْنَ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ هُوَ للتّنْبِيهِ عَلَىٰ هٰذِه الْحَقِيقَةِ، فالأَصْلُ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ أَلَّا يَقْتُل النَّفْسَ الّتِي حَرَّمَ اللَّه قَتْلَها إلّا بِالْحَقِّ.

وذلِك لِأَنَّ الأَصْلَ فِي النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ أَنَّهُ يَحْرُم قَتْلُها فِي دِين اللَّهِ، مَهْمَا كَانَ شأنُها، لأنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلّ قَدْ خَلَقَهَا وأَمَدَّها بالْحَياةِ، لِتُؤَدِّي دَوْرَهَا فِي الابْتِلَاء، ولِتَجْتَاز مَرْحَلَةَ امْتِحَانها الّتِي قَضَىٰ اللَّهُ أَنْ تَجْتَازَها، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِك يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ حِسَابُها وجَزَاؤُها.

ولَكِنَّ مَصْلَحَة الْمُجْتَمِع الْبَشَرِيّ قَدْ تَقْتَضِي عِقَابَ بَعْضِ النُّفُوسِ الإِنْسَانِيَّةِ بالْقَتْل، فَشَرَعَ الله الْقَتْلَ فِي الأَحْوالِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تُوجِبُ الْحِكْمَةُ الْقَتْلَ فِيها، والْقَتْلُ فِي هٰذِهِ الأَحْوالِ يَكُونُ قَتْلاً بِالْحَقّ.

«وعِبَادُ الرَّحْمٰنِ» مِنْ أَوْصَافِهم أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله قَتْلَها إلّا بالْحَقّ، وقَد جَاءَ هٰذا فِي سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) تَوْجِيهاً بِصِيغَةِ الْخَبَرِ لَا بِصِيغَةِ النَّهْي، لِيَتَضَمَّن مَعْنَىٰ الثَّنَاءِ عَلَيْهِم بأَنَّهُمْ مُتَحَقِّقُونَ بهٰذَا الْوَصْفِ، وبأنّ الوَصْفَ الْخَبَرِيّ يَكْفِي بالنِّسْبَةِ إلَيْهِم ـ وهُمْ أَصْحَابُ مَرْتَبَةَ الأَبْرَارِ أَوْ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنين ـ عَنْ تَوْجِيه النَّهْي لَهُمْ.

وهٰذا الّذي جَاءَ بَيَاناً وصفيّاً لِفَريقِ «عِبادِ الرَّحْمٰنِ»، جَاءَ تَكْلِيفاً بالنَّهْي الصَّريحِ لعامَّةِ الْمُؤْمِنِين، فيمَا نزَلَ بعده في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) بقَولِ الله عزَّ وجَلّ:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

ثـم أنزلَ الله عزَّ وجلّ مَا يَدُلُّ بصَرَاحةٍ على أنّ هـذا النّهي نهيّ تَحْرِيمٍ، فقال تعالىٰ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لرَسُولِه:

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

وهذه الآية من سورة (الأنعام) مدنية التنزيل مع أن السورة مكيّة في معظمها.

ثُمَّ تَتَابعَتِ البيَانَاتُ التَّفْصِيلِيَّة فِي الْقُرآنِ والسُّنَّة فِي مَرَاحِلِ دَعْوَةِ

الرَّسُول ﷺ حَوْلَ أَحْكَامِ الْقَتْلِ الْمَأْذُون به وغَيْرِ المأْذُون بِهِ، وأَحْكَامِ الْعُقُوبَاتِ بالْقَتْلِ، وأَحْكَام الْقِصَاصِ، ومنها ما يلي:

(أ) روَىٰ البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، والنَّفْسُ بالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ».

(ب) وروى البُخاريُّ ومسلم عن ٱبْنِ عمر رضي الله عنهما، أنّ رسول اللَّهِ ﷺ قال:

«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، ويُقِيمُوا الصَّلَاةَ، ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَٰلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَام، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ».

قوله ﷺ: «حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله...» لَيْسَ بياناً لعلَّةِ الأَمْرِ بالْقِتَالِ، حتى يُعْتَبَرَ الْقِتَالُ إِكْرَاهاً عَلَىٰ الإِسْلَام، فَعِلَّة الأمر بالْقِتَال تَرْجِعُ إِلَىٰ أَسْبَابٍ أُخرَىٰ، كَتَأْمِين تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيّةِ، والدِّفَاعِ عَنِ حُقُوقِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ، والدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ، وإِقَامَةِ الْعَدْلِ، ولَكِنَّهُ لِبَيَانِ الْغَايَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَوقَّفَ عَنْدَهَا القِتال، نظير قول الجنود: أُمِرْنَا أن نُقَاتِل قُطَّاعَ الطَّريقِ حتى حدود الدُّوَلِ المجاورة لدَوْلَتِنا.

وقد جَاءَ فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ بَيَانُ الْحَقِّ الَّذِي يُشْرَعُ فِيه قَتْلُ النَّفْس.

• فالْقَاتِلُ ظُلْماً وعُدْواناً يُقْتلُ قَوَداً، أي: قِصَاصاً.

• والزَّانِي الْمُحْصَنُ يُقتل رَجْماً، إِذَا ثَبَتَ عَلَيْهِ ذَلِكَ باعْتِرَافِهِ دُونَ إِكْرَاهٍ، أو بشَهَادَةِ أَرْبعَةِ شُهُودٍ عُدُولٍ، تَوَافَرَتْ فِيهِمْ شُرُوطُ الشَّهَادَةِ والْمُشَاهَدَة.

• والْمُرتَدُّ عَنْ دِينِ الإِسْلَامِ، يُقْتَل حِمَايةً للْمُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيّ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَلاعِبِينَ الْفَتَّانِينَ.

• والّذِينَ يَسعَوْن فِي الأَرْضِ فَساداً، فَيَقْطَعُونَ الطُّرُقِ، فَيَقْتُلُونَ وَيَسْلُبُونَ، هٰؤلَاءِ يُقَتَّلُونَ ويُصَلَّبُون وتُقَطَّعُ أَيْدِيهم وأرجُلُهم مِنْ خِلَافٍ، عَلَىٰ حَسَبِ أَحْوَالِهِمْ.

• والْمُحَارِبُونَ لِلْمُسْلِمِينَ، الوَاقِفُونَ فِي طَرِيقِ دَعْوةِ الْأَسْلَام يَمْنَعُونَ تَبْلِيغَها وانْتِشَارَها بالْقَهْرِ والْقُوَّة، يُقَاتَلُون لِإزَاحَتِهِم عَنْ طَرِيقِ الدّعْوَةِ إلَىٰ الله.

(ج) وصَانَ اللَّهُ عزَّ وَجلَّ أرْواحَ النَّاسِ في نِظَام الْإِسْلَامِ بأَحْكَامِ الْقِصَاصِ، فأنزل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾.

فَمَنْ كَانَ مِنْ أولي الألْبَاب، ومِنَ الْحَرِيصَيْنِ عَلَىٰ حِمَايةِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ وَعِقَابه، لَمْ يَعْتَدِ عَلَىٰ أحَدٍ بالْقَتْل، إلّا بِحَقّ الإسْلَام، ولَمْ يُعَرِّضْ نَفْسَهُ لِعُقُوبَةِ القِصَاصِ، ولَمْ يُعَرِّضْ نَفْسَه لِلْعَذَابِ الأَلِيم الذي تَوعَّدَ اللَّهُ بِهِ مَنْ قَتَلَ مُؤمِناً ظُلْماً وعُدْواناً.

وحُكْمُ القِصَاصِ حُكْمٌ رَادِعٌ لِكُلّ مَنْ يَحْرِصُ عَلَىٰ أَنْ يَقِيَ نَفْسَهُ عُقَوبَتَهُ فِي الدُّنيا، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الّذِين يَتَّقُون عِقَابَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّين.

وفي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ في هذا النصّ من سورة (البقرة): ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بيان بديعٌ رائع، يُرْشِد إلى نظام صيانة المجتمع من المجرمين القتلة. وذلك لأنّ العاقل إذا علم أَنّه إذا قَتل عمداً وعدواناً اقْتُصَّ منه بالقتل، لم يتجرّأ أنْ يُقْدِمَ على هذه الجريمة، بلْ يحسُبُ قَبْلَ أنْ يُقدِمَ عَلَيْها ألْفَ حسابٍ، يُلْجِمُهُ أَنَّهُ يخشَىٰ أنْ يُقْتَل قِصَاصاً.

فإعْلانُ حُكْمِ الْقِصَاصِ فِي الإِسْلَام وتَطبِيقُه مِنْ شَأْنِه أَنْ يَمْنَحَ الْمُسْلِمينَ الحَياةَ الآمِنَة البَعِيدَةَ عَنْ قَلَقِ الْخَوْفِ مِن جَرَائِمِ الْقَتْلِ.

ولَوْ أَنَّ أَحْكَامَ الإِسْلَام تُطَبَّقُ عَلَىٰ وَجْهِها كَمَا أَمَر اللَّهُ، لعَاشَ النَّاسُ فِي دُنْيَاهُمْ عَيْشاً آمِناً سَعِيداً.

(د) وفي بيَانه أنّ قَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَها مِنَ الكَبَائِر الكُبْرَىٰ، أَنْزَلَ الله عَزَّ وجلّ فِي سُورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قوله:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

وَهلْ يَجْرُؤُ عَلَىٰ اقْتِحَامِ هٰذا الْخَطَرِ الْعَظِيمِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ من الْعَقْل ومِنَ التَّقْوىٰ؟

إنَّه خَطَرٌ مؤلَّفٌ مِنْ أرْبَعَةِ عَناصِر، وهِي: إقامةٌ طويلةٌ في جَهَنَّم، وغَضَبٌ مِنَ اللَّهِ، وَطَردٌ مِنْ رَحْمَتِه، وعَذَابٌ عَظِيمٌ.

(هـ) وجَاء فِي بَيانِ عِظَم كَبِيرَة الْقَتْلِ فِي الإِسْلَامِ، مَا رُوي عَنِ الرسول ﷺ مِنْ أنَّ زَوال الدُّنْيا أَهْوَنُ عَلَىٰ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ.

روى الترمذي والنسائي عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرو بن العاص أن النبي ﷺ قال:

«لَزَوَالُ الدُّنْيَا أهْوَنُ عَلَىٰ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ.

قال في المشكاة: والأَصَحُّ أنَّه مَوْقُوف.

(٣) ﴿وَلَا يَزْنُونَ ... ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ومِنْ صِفَاتِ «عِبادِ الرَّحْمٰنِ» أَنَّهُمْ لَا يَزْنُون، لأنَّهُم شَدِيدُو الحِرْصِ علَىٰ اجْتِنَابِ كَبَائِر الإِثْم، فَهُمْ يَبْتَعِدُون عَنِ الْمَواطِنِ الّتِي تَجُرُّهُم إلىٰ السُّقُوطِ فِي كَبِيرَةِ الزِّنىٰ، ويَتّخِذُونَ الْوَسَائِلَ الّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، لِيَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَىٰ الإِمْسَاكِ بِحَبْلِ الْعِفَّة.

وإذَا كَانُوا لَا يَزْنُونَ فَهُمْ لَا يَرْتَكِبُونَ مِنَ الفَواحِشِ مَا هُو أَقْبَحُ مِنَ الزِّنَىٰ، كاللِّواطِ، وقَدْ جَاء هٰذا التَّوْجِيهُ بِصِيغَةِ الْخَبَر لَا بِصِيغَةِ النَّهْي، لِيَتَضَمَّنَ مَعْنَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِم، وأنَّ الوَصْفَ الْخَبَرِيّ يَكْفِي بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِم.

﴿يَزْنُونَ﴾: يُقالُ لغةً: زنَىٰ يَزْنِي زِنًى (بالْقَصْر) وزِناءً (بالمَدّ) ويُقَال: زَانَىٰ يُزَانِي مُزَانَاةً، ويُقَالُ: زَنَّىٰ يُزَنِّي تَزْنِيَةً، كلُّ ذَلِكَ بِمَعْنَىٰ الْجِمَاعِ بَيْنَ الرَّجُلِ والْمَرْأَة عَلَىٰ الوَجْهِ الطَّبِيعِيّ دُون نِكَاحٍ وَلَا شُبْهَةٍ.

وهٰذَ الَّذِي جَاء بَياناً وَصْفِيًّا لِفَرِيقِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» فِي سُورَةِ (الْفُرْقَانِ) جَاءَ تَكْلِيفاً بِالنَّهْيِ الصَّرِيحِ لِعَامّة الْمُؤْمِنِين، بقَوْلِ اللَّه عزَّ وجلّ فِيمَا نَزَلَ بَعْدَهُ فِي سورة (الإِسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

فِي هٰذا النّصّ نَهَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلّ عَنِ الاقْتِرَابِ مِنَ الزنَىٰ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ النَّهْيِ عَنْ مُمَارَسَةِ أَسْبَابِه، ومُقَدِّماتِه، ودَواعِيهِ، فَهُمْ يَكُفّونَ أَبْصَارَهُمْ وأَيْدِيَهُمْ وأَسْمَاعَهُمْ وسَائِرَ حواسِّهِمْ عَنِ الْمَعَاصِي، الّتِي قَدْ تَسْتَدْرِجُهُمْ إِلَىٰ ارْتِكَابِ فَاحِشَةِ الزِّنَىٰ، والسُّقوطِ فيها.

ووصَفَ اللَّهُ الزِّنَىٰ بأنَّه فَاحِشَةٌ، أيْ: ذَنْبٌ عَظِيمٌ، وإِثْمٌ كَبِيرٌ.

الفَاحِشَةُ، والْفَحْشَاءُ، والْفُحْشُ: فِي اللّغة: كُلُّ قَبِيحٍ مِنَ الْقَوْلِ والْفِعْلِ، وجَمْعُها «الْفَواحِشُ» وكُلُّ أمْرٍ لَا يَكُونُ مُوافِقاً لِلْحَقّ والْقَدْرِ الْمُنَاسِبِ فهُوَ فَاحِشَة.

ووَصَفَ اللَّهُ الزِّنىٰ بأَنَّهُ سَاءَ سَبِيلاً، أيْ: قَبُحَ وخَبُثَ سَبِيلاً لِقَضَاءِ وَطَرِ الشَّهْوَةِ إِلَىٰ الْجِمَاعِ، أيْ: فَمَا أَسْوَءَهُ سَبِيلاً.

أَمّا كَوْنه فَاحِشَةً: أي: ذَنْباً عظيماً وَإِثماً كبيراً، فَلِأَنّ اللَّهَ عزَّ وجلّ شدَّدَ النَّهْيَ عنه، وشَدَّدَ الْعُقُوبَةَ عَلَيْهِ، وجَعَلَهُ مُحَرَّماً فِي كُلِّ مَا أَنْزَلَ مِنْ

شَرَائِعَ عَلَىٰ عِبَادِه، مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّىٰ خَاتَمِ رسُلِه مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقدْ جَعَل اللَّهُ عزَّ وجلّ ضَبْطَ النَّفْسِ ومَلْكَ شَهْوَةِ الْغَرِيزَةِ فِي هٰذَا الْمَجَالِ، والْتِزَامَ جَانِبِ العِفَّةِ، مِنَ الأُمُورِ الكُبْرَىٰ الَّتِي وُضِعَتْ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ فِيهَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ هٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

والامْتِحَانُ وَمَا يَسْتَتِبْعُهُ هُو الْغَايَةُ مِنْ خَلْقِ الإِنْسَانِ مُزَوَّداً بِخَصَائِصِهِ الَّتِي هو عَلَيْهَا.

وأمّا كَوْنُهُ سَاءَ سَبيلاً: فذَلِكَ لِأَنّ الله عزَّ وجَلّ لمَّا شَاءَ أَنْ يُحَرِّمَ الزِّنَىٰ، ويَجْعَلَهُ مَادّةً كُبْرَىٰ مِنْ مَوادِّ ابْتِلَاءِ إِرَادَةِ الإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَضَعَ فِيه مِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ نَتَائِج وَخِيمَةٍ مَا يَجْعَلُه سَبِيلاً سَيِّئاً مِنْ سُبُل مُمَارَسَةِ قَضَاءِ الْوَطَر.

فَمِن النَّاحِيَةِ الصِّحيَّةِ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وجلّ انْتِشَارَ طَائِفَةٍ مِنَ الأَمْرَاضِ الْخَطِيرَةِ الْمُؤْلِمَةِ، والأَوْبِئَةِ الْقَاتِلَةِ، مَنُوطاً بِانْتِشَارِ فاحشة الزِّنىٰ فِي الْمُجْتَمَع، وهٰذِهِ حَقِيقَةٌ أثبتَتْها الدّرَاسَاتُ الطِّبيَّة، والْمُؤسَّسَاتُ الصِّحِّيَّة الْعَالَمِيَّة، ولَا يُجَادِلُ فِي هٰذَا مُجَادِلٌ لَدْيهِ اطِّلاعٌ مَا عَلَىٰ مَا يُقَرِّرُه الطِّبُّ فِي هٰذا المَجالِ، وفِي آخِر سِلْسِلَةِ هٰذِهِ الأمراض الخطيرة التِّي ظَهَرَتْ، مَرَضُ فَقَدْ الْمَناعَةِ الْمُكْتَسَبِ الْمُسَمَّىٰ «الإِيدْز».

ومِنَ النَّاحِية الاجْتِمَاعيَّة جَعَلَ اللَّهُ عزَّ وجلّ نِظَامَ الْمُجْتَمَعِ البشَرِيّ مَبْنِيًّا علَىٰ خلَايا الأُسَرِ الْمُتَرَابِطَةِ بالأنْسَابِ، ورَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ حُقُوقَ التَّكَافُلِ الاجْتِمَاعِيّ بالنَّفَقَةِ الوَاجِبَةِ عَلَى الأَقْرَبِينَ، وحُقُوقَ التَّوارُثِ بالْقَرَابَةِ والْمُصَاهرَةِ، وأَوْجَدَ فِي فِطَرِ النَّاس لدَعْمِ التَّرابُطِ الأُسْرِيّ عَواطِفَ الْقَرَابَةِ النَّسَبِيَّة.

هٰذا النِّظَامُ الرَّبّانِيُّ الْمُتَمَاسِكُ بالْفِطْرَةِ وبِالتَّشْرِيعِ الدِّينِيِّ، يَخْتَلُّ مَتَىٰ شَاعَ الزِّنَىٰ فِي الْمُجْتَمعِ، إِذْ تُحْرَمُ الأُسْرَةُ مِنَ الثِّقَةِ بِصِحَّةِ الْقَرَابَةِ النسَبِيَّة،

فَتَنْعَدِمُ الْعَاطِفَةُ الصَّادِقَةُ، فَيَنْحَلُّ الالْتِزَامُ بِوَاجِبِ التَّكَافُلِ، وبذَلِكَ يَنْهَارُ نِظَامُ الأُسْرَةِ، وَمَا يَرْتَبِطُ بِها مِنْ وَاجِبَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ. وَمَتَىٰ شَاعَ الزِّنَىٰ كَثُرَ اللُّقَطَاءُ الّذِينَ لَا يُعْرَفُ لَهُمْ آباءٌ يُسْأَلُون عَنْهُمْ، لِاخْتِلَاطِ الأَمْرِ، وَمَتَىٰ كَثُرَ اللُّقطاء كَثُرَ الجَانِحُونَ والْمُشَرَّدُونَ، وَكَانُوا مادّةً لإِفْسادِ الْمُجْتَمع.

وقد أَوْجَزَ اللَّهُ التَّعْبِيرَ عَنِ الْقَبَائِحِ والسَّيِّئَات الصِّحِّيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّة، بقَوْلِهِ عَزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧):

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

مِنْ أَجْلِ ما سبَق بيانُه صَانَ اللَّهُ الْمُجْتَمَعَ الإِسْلَامِيَّ عَنِ انْتِشَارِ الزِّنَىٰ فِيهِ، بالنَّصَائِحِ الْوِقَائيّة، وبِالأَحْكَام الشَّرْعِيّة، وبِالْقَاعِدَةِ الإِيمَانِيّة، وبِالْعُقُوبَاتِ الْمُقَرّرَة الّتِي تُنفّذُها الإِدَارَةُ الْمُسْلِمَةُ بِسُلْطَانِها، وهِيَ الْجَلْدُ عَلَناً لِلزَّانِي غَيْرِ الْمُحصَنِ، والرَّجْمُ عَلَناً حَتَّىٰ الْمَوْتِ للزّانِي الْمُحْصَن.

بهذه الوَسائِل تَخِفُّ فَاحِشَةُ الزِّنَىٰ فِي الْمُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيّ إِلَىٰ أَقَلِّ نِسْبَةٍ مُمْكِنَةٍ فِي الْمُجْتَمَعِ الْبَشَرِيّ.

ولا بُدَّ مِنْ مُلاحَظَةِ أَنَّهُ لَا يَتِمُّ إثباتُ الزِّنَىٰ قَضَاءً إلّا باعْتِرَافِ الزّانِي وهُوَ مُتَّصِفٌ بكُلّ حُرّيّتِهِ وكَامِلِ عَقْلِه، أوْ بِشَهَادَةِ أَرْبَعَةِ شُهُودٍ يَشْهَدُون عَلَيْهِ أَنَّهُ زَنَىٰ، وأَنَّهُمْ رَأَوْا ذَلِكَ مِنْهُ بأَعْيُنِهِمْ دُونَ شُبْهَةٍ مِنْهُمْ فِي الرُّؤْيَةِ، أَوْ شُبْهَةٍ مِنْهُ فِي الْعَمَلِ، وتَكَادُ هَذه البيِّنَةُ أَنْ تَكُونَ مُتَعَذِّرَةِ الوُقُوع.

وفي بَيانِ عُقُوبَةِ الزَّانِيَةِ والزّانِي غَيْرِ الْمُحْصَنِين، قال الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

(٤) ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: الْمُشَارُ إِلَيْهِ باسْمِ الإِشَارَة «ذَٰلِكَ» الكَبَائِرُ الثَّلَاثُ الَّتِي سَبَقَ فِي النَّصّ ذِكْرُها مَعَ بَيَانِ أَنَّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» لَا يَفْعَلُونَها، وَهِي:

١ ـ الشركُ بأَنْ يَدْعُوَ الدَّاعِي إِلَهاً آخَرَ مَعَ الله.

٢ ـ قَتْلُ النفس الَّتِي حَرَّم اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

٣ ـ الزِّنَىٰ.

﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾: فِعْلُ «يَلْقَ» مَجْزُومٌ بحَذْفِ حَرْفِ العِلَّة، لأَنَّهُ جَوابُ الشَّرْطِ «مَنْ» والْمَعْنَىٰ: وَمَنْ يَفْعَلْ هٰذِهِ الكَبَائِرَ يَسْتَقْبِلْ فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِ وَيَجِدْ أَثاماً.

أَثَاماً: مَصْدَر «أَثِمَ» يقالُ لغةً: «أَثِمَ يَأْثَمُ أَثَماً، وإِثْماً، وَأَثَاماً، ومَأْثماً» إِذَا وَقَعَ فِي الإِثْم، فهو «أَثِمٌ وآثِمٌ وَأَثِيمٌ وَأَثَّامٌ وَأَثُوم».

الإِثْمُ: هو الذَّنْبُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ مُرْتكِبُه الْعُقُوبَة عَلَيْه.

ويأْتِي لَفْظُ «أَثَام» بمَعْنَىٰ جَزَاءِ الإِثْم، قال الْفَرّاء: أَثَمَهُ اللَّهُ يَأْثِمُهُ إِثْماً وَأَثَاماً، إِذَا جَازَاهُ جَزَاءَ الإِثْم، فالعبْدُ مأْثوم، أي: مجزيٌّ جَزَاءَ إِثْمه، وهذا المعنى هو الملائم للنصّ هنا. فالمعنى: ومن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ جَزَاءَ إِثْمِه.

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ضِعْفُ الشَّيْءِ مِثْلُهُ، فَمُضَاعَفَةُ الْعَدَدِ تَكُونُ بِإِضَافَةِ مِثْلِهِ إِلَيْهِ.

فما الحِكْمَةُ من مُضَاعَفَة العَذَابِ لَمَنْ سَقَطَ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ في بَعْض كَبَائِرِ الشِّرْكِ وَالْقَتْلِ والزّنا؟

أقول: إنّ الْجَزَاءَ بالْعَدْلِ عَلَى السَّيِّئَاتِ الْمبَيَّنَ فِي نُصُوصِ الْقُرآن والسُّنّة، هو أَنّ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلّا مِثْلَها، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا، والَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها. فَيَنْبَغِي أَنْ

نَفْهَمَ أنَّ مُضاعَفَةَ الْعَذَابِ فِي هٰذا النّصِّ خَاصٌّ بِعِبَادِ الرَّحْمٰنِ الَّذِين ارْتَقَوْا فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، وَصَارُوا مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، أَوْ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِين، وأَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمَةِ الْبَصِيرَةِ مَا أفَاضَ، وعَرَفُوا مِنَ الدِّينِ أَكْثَر مِمَّا عَرَفَ عَامَّةُ الْمُؤْمِنِينَ، وصَارُوا فِي نظر العامّة قُدْوَةً وأُسْوَةً حَسَنَة. فَكَانَ جَزَاءُ كَبَائِرِهِمْ الْمَسَاوِي لها مُضَاعَفاً بِقَدْرِ مِثْلَيْن لِمَنْ هُمْ دُونَهُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ، فِي مُقَابِلِ أنّ أُجورَهُمْ عَلَىٰ صَالِحَاتِ أَعْمَالِهِمْ مُضَاعَفَةٌ أَيْضاً.

ونظير هذا ما جاء في قَوْلِ الله عزَّ وجلّ في سورة (الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول) خطاباً لنساء النبيّ:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

ومِنْ هٰذا يَظْهَرُ لَنَا أنَّ زِيَادَةَ الغُرْمِ قَدْ جاءَتْ فِي مُقَابِلِ زِيَادَةِ الْغُنْم، وهُوَ مِنَ الْعَدْل.

فَمَنْ وَصَلَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ كَان سُقُوطُهُ فِي كَبِيرَةِ الشِّرْكِ، أو الْقَتْل، أو الزِّنَىٰ، ذَا حَجْم مُضَاعَفٍ عَمَّا لَوْ سَقَط بِها وَاحِدٌ مِنْ عَامَّةِ المؤمِنين، فَالْعِقَابُ بالْعَدْلِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِقَدْرِ هٰذَا الْحَجْمِ الْمُضَاعَفِ.

وهٰذا الْعَذَابُ الْمُضَاعَفُ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إذَا مَاتَ مُرْتَكِبُ هٰذِهِ الكَبَائِرِ الَّذِي ارْتَقَىٰ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، دُونَ تَوْبَةٍ صَحِيحَةٍ صادقةٍ ممّا سَقَطَ فِيه، فَهُوَ بِشِرْكِه كأنّما خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَهوتْ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ، وَيَجُرُّهُ شِرْكُهُ إِلَىٰ الْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وارْتِكَاب فَاحِشَةِ الزّنىٰ بِفُجُورٍ.

لذَلِك كَانَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ يَخْلُدَ فِي عَذَابِه الْمُضَاعَفِ مُهاناً.

﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾: أمّا خُلُودُهُ فِي الْعَذَابِ فَبِسَبَبِ مَوْتِه وهُوَ مُشْرِكٌ

لَمْ يَتُبْ مِنْ شِرْكِه. وأمَّا إهَانَتُه، فَهُو أَنَّهُ قَابَلَ تَكْرِيمَ اللَّهِ لَهُ إِذْ كَانَ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، بالانْتِكَاسِ الَّذِي انْتَكَسَهُ، فَكَفَرَ إِذْ أَشْرَك، وارْتَكَبَ أَقْبَحَ الكَبَائِر، الْقَتْلَ وَالزِّنَىٰ.

وإهانَتُه تكون بوضْعِه في مواضِع يَكُونُ بِها أحْقَرَ مِنْ عامّة المشركين الْعُصاة، جزَاءَ انتكاسِهِ وارْتِكاسِه بَعْدَ ارْتِقَائِهِ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰن.

ونَتَسَاءَلُ: كَيْفَ يَسْقُطُ مَنْ وَصَلَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» فِي كَبَائِرِ الشِّرْكِ والْقَتْلِ والزِّنَىٰ، ولَوْ كَانَ شِرْكُهُ مِنْ أخفّ دَرَكَاتِ الشِّرْكِ وأَوَّلِهَا انْحِداراً؟!

ويُمْكِنُ أَنْ نُجِيبَ بِأَنَّ حَمَلَةَ جَائِزَةِ التَّفَوُّقِ هٰذِهِ يَكُونُونَ مُرَشَّحِينَ لِمَنَاصِبَ دِينِيَّةٍ رَفِيعَةٍ، فَإِذَا قَبِلُوهَا كَانُوا عُرْضَةً لِضُغُوطٍ كَثِيرةٍ سُلْطَانِيَّةٍ وغَيْرِ سُلْطَانِيَّة، وهٰذِهِ الضُّغُوط تَجْعَلُهُمْ يَسْقُطُونَ فِي ارْتِكابِ هٰذِهِ الكَبَائِر، فَيَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ، مُداراةً لِسُلْطَانٍ ظَالِمٍ طَاغٍ، أو خوفاً على مَنَاصِبِهِمْ.

فكَانَ مِنَ الحِكْمَةِ بَيَانُ احْتِمالِ سُقُوطِ بَعْضِ «عِبَادِ الرَّحْمٰن» بِهٰذِهِ الكبيرة ضِمْنَ بيانِ صِفَاتِهِمْ.

وقَدْ تَجْعَلُهُمُ الضُّغُوطُ يُفْتُونَ بإهْدَار دَم مُعَارِضٍ للسُّلْطَانِ مُعَارَضَةً لَا تَقْتَضِي إهْدَارَ دَمِه، فتكُونُ فَتْواهُمْ مُشَارَكَةً مِنْهُمْ فِي الْقَتْلِ الّذِي حرَّمَهُ اللَّهُ.

وَقَدْ يَفْتِنُهُمْ مَا هُمْ فِيهِ منْ سُلْطانٍ فَيَقْتُلُونَ مُنَافِسِيهِمْ فيه بِغَيْرِ حَقٍّ، لِيَسْلَمَ لَهُمْ سُلْطَانُهُم.

وقَدْ يَتَعَرَّضُونَ وهُمْ فِي مَنَاصِبِهِمْ لِفِتْنَةٍ قَوِيَّةٍ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ النِّسَاءِ الْحَسْنَاوات، وقَدْ يَجِدُ بَعْضُهُمْ نَفْسه مُنْهَارَ الْمُقَاوَمَة، فَيَقَعُ فِي كَبِيرَة الزِّنَىٰ.

فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّنْبيهُ على احْتِمالِ سُقُوطِ بَعْضِ «عِبَادِ الرَّحْمٰن» فِي هٰذِهِ الكَبائِر ضِمْنَ بَيَانِ جُمْلَةِ صِفَاتهم.

(٥) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

بهذا الاسْتِثْنَاء الّذي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هٰذِهِ الآيَة، يفْتَحُ اللَّهُ عَزَّ سُلْطَانُهُ وعَظُمَ جُودُهُ وإحْسَانُه، لِمَنْ كَانَ مِنْ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» فَسَقَطَ فِي شَرَكِ الشِّرْكِ الّذِي جَرَّهُ إِلَى كَبِيرتَي الْقَتْلِ والزِّنىٰ، بَابَ التَّوْبَةِ والرَّجْعَةِ إِلَىٰ مَا كَان فِيه مِنْ مَرْتَبَةٍ، ويُبَيِّنُ اللَّهُ جلَّ جَلاَلُهُ أَنَّ هٰذِهِ التَّوْبَة لَهَا ثَلاَثَةُ شُرُوط:

الشَّرْطُ الأوَّل: صِدْقُ التَّوْبَةِ، دَلّ عَلَيْهِ عبارة: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾.

الشَّرْطَ الثاني: تَجْدِيدُ الإيمان للتخلُّصِ مِنِ انْتِكَاسَةِ الشِّرك، دَلَّتْ عَلَيْهِ عبارة: ﴿وَءَامَنَ﴾.

الشَّرْطُ الثَالِثُ: التَّعْبِيرُ الْمَادِّيُّ عَنِ التَّوْبَةِ وصِدْقِ الإيمَان، بالْعَمَلِ الصَّالِحِ الّذِي يُبْتَغَىٰ بِهِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَزَّ وجَلّ، دَلت عليه عبارة: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

وبَعْدَ أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَعَدَهُمْ وَعْداً كَرِيماً، بِأَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ، فَيُبَدِّلَ سَيِّئَاتِهِمْ الَّتِي سَقَطُوا فِيها فَيَجْعَلَهَا لَهُمْ حَسَنَات، دَلَّ عَلَىٰ هذا قولُهُ تَعالىٰ في الآيَةِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: وبِذَلِكَ يَعُودُونَ إِلَىٰ مَرْتَبَتِهم الَّتِي كَانُوا فيها، ودَرَجَتِهم الّتِي كانُوا فيها، ومَا كُتِبَ فِي سِجِل أعْمَالِهِمْ زَمَنَ الانْتِكَاس من سَيِّئَاتٍ يَمْحُوهُ اللَّهُ بفَضْلِهِ، ويَجْعَلُ بَدَلَهُ حَسَنَاتٍ، لِئَلَّا تَبْقَىٰ سُطُورُ ذلِكَ الزَّمَنِ فَارِغَةً يُشِيرُ فَراغُها إِلَىٰ أنّها سَيِّئَاتٌ أمَرَ الله بِمَحْوِها.

وهٰذا كَرَمٌ مِنَ اللَّهِ عظيم، وفَضْلٌ مِنْهُ جَسِيمٌ، وإغْرَاءٌ عَجِيبٌ بالتَّوْبَةِ في قواعِدِ الْحِسَابِ والجزاء، إنَّهُ فَوْقَ تَكْفِير السَّيِّئاتِ، وَالغُفْران والْعَفْو، بِدَرَجاتٍ رَفِيعَاتٍ، إِنَّهُ قَلْبٌ للدَّرَكاتِ بِجَعْلِها دَرجات، فَمَا أعْظَمَ فَضْلَ اللَّهِ عَلَىٰ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ».

وجاءت الإشارةُ إلَيْهم بِلَفْظِ [أُولَئِكَ] في الآية، الّذِي يُسْتَعْمَلُ بحَسَب الوضْعِ اللُّغَوِيّ في الإشارة إلى المشَارِ إلَيْهِ الْبَعِيدِ، للدَّلَالَة علَىٰ عَوْدَتِهِمْ إلَىٰ مَنْزِلَتِهم الرَّفِيعَةِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، بَعْدَ انْتِكَاسَتِهم إلىٰ الْمَنْزِلةِ الوضِيعَةِ التي انْحَدَروا إليها.

(٦) ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾:

يبيِّنُ الله عزَّ وجلّ فِي هذه الآيةِ قَاعِدَةَ المَتَاب الصَّادِق النَّصُوح، فالْمَتَابُ الصَّادِق النَّصُوح هُوَ مَا تَبِعَهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، ويَكُونُ ذَلِكَ بالإِقْلَاعِ عَنْ فِعْلِ مَا تَابَ عَنْ فَعْلِهِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، وبالْمُوَاظَبَةِ عَلَىٰ فِعْلِ مَا تَابَ عَنْ تَرْكِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ.

وجَاءَ تَنْكِيرُ ﴿مَتَابًا﴾ إشَارَةً إلَىٰ أَنَّهُ مَتَابٌ حَسَنُ الْمَكَانَةِ، وَهُوَ الْمَتَابُ الصَّادِقُ النَّصُوح.

فالْمَعْنَى: والْمَتَابُ الصَّحِيحُ الصَّادِقُ النَّصُوحُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مِمَّنْ تَابَ حَقّاً مِنْ عُمْقِ قَلْبِهِ، وَعَبَّرَ عَنْ تَوْبَتِهِ الصَّادِقَةِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ المُلائِمِ لِمُقْتَضَيَاتِ هٰذِهِ التَّوْبَة.

﴿تَابَ﴾: في اللُّغة بمعنىٰ رَجَعَ، يقال: تَابَ الْعَبْدُ إلَىٰ رَبِّهِ، أَيْ: عَزَمَ عَلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَىٰ الطَّاعَةِ والاسْتِقَامَةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِه، أَيْ: قَبِلَ رَجْعَتَهُ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ بِفَضْلِ الْعَطَاءِ وَالْغُفْرَانِ والْعَفْوِ.

تَقُولُ لغةً: «تَابَ يَتُوبُ، تَوْباً، وتَوْبةً، وَمَتَاباً، وتَابَةً». فلَفْظُ «مَتَاب» أَحَدُ مَصَادِرِ «تَابَ».

قَالُوا: وَالتَّوْبَةُ الصَّحِيحَةُ تَكُونُ بأَنْ يُقْلِعَ الْمُذْنِبُ عَنْ ذَنْبِهِ، وَيَنْدَمُ عَلَىٰ مَا فَرَّطَ فِي جَنْبِ اللَّهِ، ويَعْزِمَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَعُودَ.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾:

(١) ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾:

فعل «شَهِدَ يَشْهَدُ شُهُوداً» يأتِي بِمَعْنَى حَضَر، يقال: شَهِدَ الْجُمَعَةَ إذا حَضَرَها، فَهُوَ شَاهِدٌ، وَهُمْ شُهُود أي: حُضُور. وشَهِدَ الْمَشَاهِدَ، أيْ: حَضَرَهَا. والشَّاهِدُ والشَّهِيدُ الْحَاضِر، والجمعُ شُهَدَاء، وشُهُود، وأشْهَاد، وشُهَّد.

وفعل «شَهِدَ يَشْهَدُ شَهَادَةً» يأْتِي بِمَعْنَى الْإِخْبَارِ بأنّهُ يَعْلَمُ بأنَّ الْوَاقِعَ هُوَ مَا يُقَدِّمُهُ فِي شَهَادَتِهِ مِنْ خبر.

﴿الزُّورَ﴾: الْبَاطِلُ، والكَذِبُ، وشَهَادَةُ الْبَاطِل، ولَعَلَّ أَصْلَه مِنَ الإزْوِرَارِ، وَهُوَ الْعُدُولُ عَنِ الشَّيْءِ، والْمَيْلُ عَنْه، والكذبُ والباطلُ وشهادةُ الباطِلِ كُلُّها مَائِلَةٌ ومُزْوَرَّةٌ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ والصِّدْقِ.

فَعَلَىٰ الْمَعْنَى الأوَّلِ لِفِعْلِ «شَهِدَ» بمعنىٰ «حَضَر» يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أنّ مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ أنَّهُمْ لَا يَحْضُرُونَ الْبَاطِلَ، كَمَجَالِسِ أَهْلِ الشِّرْكِ والضَّلَالِ، الَّتِي يَكُونُ فِيهَا أُمُورٌ بَاطِلَةٌ وأَكَاذِيبُ وَمَعَاصٍ، فَهُمْ يِنزِّهُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ حُضُورِهَا وَمُشَاهَدَتِها، ولَوْ لَمْ يُشَارِكُوا فِيهَا، لأنَّ مُجَرَّدَ شُهُودِهَا مَعْصِيَةٌ.

وعَلَىٰ الْمَعْنَى الآخَرِ لِفِعْلِ «شَهِدَ» أيْ: أَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ بأنَّ الْوَاقِعَ هُوَ مَا يُقَدِّمُهُ فِي شَهَادَتِهِ مِنْ خَبَرٍ، يَكُونُ الْمُرَادُ أنّ مِنْ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰن» أنّهم لا يُخْبِرُونَ فِي شَهَادَاتِهِمْ إلَّا بِمَا يَعْلَمُونَ، فَلَا يَشْهَدُونَ بالْبَاطِلِ، ولَا بِالْكَذِبِ، مُدَّعِينَ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي يَعْلَمُونَه.

ومَنْ يَشْهَدُ بِشَيْءٍ هُوَ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، هُوَ كَاذِبٌ فِي شَهَادَتِهِ، ولَوْ كَانَ

ذَلِكَ الشَّيْءُ حقّاً في وَاقِعِ أَمْرِهِ، ولِذَلَكَ قَال الله عزَّ وجلّ بشَأْنِ الْمُنَافِقِين في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ①﴾.

فأبَانَ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي شَهَادَتِهِمْ، مَعَ أنّ مَا قَالُوهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، لأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِمَا قَالُوا وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ كَاذِبُونَ مُنَافِقُونَ، لَا يُؤْمِنُونَ بأنّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، فالكَذِبُ فِي ادّعَاءِ مُطَابَقَةِ الاعْتِقَادِ لِلْقَوْلِ، لَا فِي مُطَابَقَةِ الْقَول لِلْوَاقِعِ، إِذِ الْقَولُ مُطَابقٌ لِلحَقِّ وَالْواقِعِ.

فقولُ اللَّهِ عزَّ وجلّ فِي وَصْفِ «عِبَاد الرَّحْمَنِ»: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَل عَلَىٰ الْمَعْنَيَيْنِ مَعاً، عَمَلاً بِقَاعِدَةِ «اسْتِعْمَال الكَلَامِ فِي أَكْثَر مِنْ مَعْنىً معاً» إذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ المَعَانِي تَضَادّ[1].

أمّا الْمَعْنَى الأَوّلُ وَهُوَ عَدَمُ حُضُورِهِمْ الْبَاطِلَ، فَظَاهِرُ الْعِبَارَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ دونَ حَاجَةٍ إِلَىٰ تَخْرِيجِ نَحْوِي، يُقَالُ: «شَهِدَ الزّور» إذا حَضَرَهُ، «ولا يَشْهَدُ الزُّورَ» أَيْ: لَا يَحْضُرُه.

وأمّا الْمَعْنَىٰ الآخَرُ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ بِالْبَاطِلِ والكَذِبَ، فالْعِبَارَةُ تَدُلّ عَلَيْهِ عَلَىٰ تَقْدِير أَنّ لَفْظَ «الزُّورِ» مَنْصُوبٌ بنَزْعِ الْخَافِضِ، أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَىٰ أَنَّهُ نَائِبٌ عَنْ الْمَفْعُولِ المُطْلَقِ الْمَحْذُوفِ، أَيْ: لَا يَشْهَدُونَ الشَّهَادَةَ الزُّورَ، فالمَفْعُولُ الْمُطْلَقُ هُنا مُبَيِّنٌ للنَّوْعِ.

كَيْفَ يَشْهَدُ «عِبادُ الرَّحْمٰنِ» شَهَادَةَ الزّورِ، وَهِيَ فِي حَيَاةِ النَّاسِ نَوْعٌ خَطِيرٌ مِنَ الكَذِبِ، شَدِيدُ القُبْحِ، سَيِّءُ الأَثَرِ؟!

إِنَّ الأَصْلَ فِي الشَّهَادَةِ أَنْ تَكُونَ سَنَداً لِجَانِبِ الحَقِّ، وَمُعِينَةً لِلْقَضَاءِ

---

(١) انظر القاعدة (٢٨) من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ» للمؤلف.

عَلَىٰ إِقَامَةِ الْعَدلِ، والحُكم عَلَىٰ الْجُنَاةِ الَّذِينَ تَنْحَرِفُ بِهِمْ أَهْوَاؤُهُمْ وشَهَوَاتُهُمْ، فَيَظْلِمُونَ. أَوْ يَبْغُونَ، أَوْ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، فَإِذَا تَحَوَّلَتِ الشَّهَادَةُ عَنْ وَظِيفَتِهَا فَكَانَتْ سَنَداً لِلْبَاطِلِ، ومُضَلِّلَةً لِلْقَضَاءِ، حَتَّىٰ يَحْكُمَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، اسْتِنَاداً إِلَىٰ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ إِثْبَاتٍ أَوْ نَفْيٍ، فَإِنَّهَا تَحْمِلُ حِينَئِذٍ إِثْمَ جَرِيمَتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ فِي آنٍ وَاحِدٍ.

الجريمةُ الأولَى: عَدَمُ تَأْدِيَتِهَا وَظِيفَتَها الطَّبِيعِيَّة، وهِيَ من هٰذه الناحيَةِ أَسْوأُ حَالاً مِنْ كِتْمَانِ الشَهَادة.

الجريمة الثَّانية: قِيَامُهَا بعُدْوَانٍ إيجَابِيّ، تُهْضَمُ فِيهِ الْحُقُوقُ، ويُظْلَمُ فِيهِ الْبُرَآءُ، ويُسْتَعانُ بِهِ عَلَىٰ الإِثْمِ وَالْبَغْيِ وَظُلْمِ عِبَادِ اللَّهِ.

فَهِيَ فِي هٰذَا كَالْقَاضِي الَّذِي بِيَدِهِ سُلْطَةُ الْقَضَاءِ لِيَحْكُمَ بِالْعَدْلِ، فَيَحْكُمُ بِالْجَوْرِ وَالظُّلْمِ والْعُدْوَانَ، وَيَنْصُرُ الظَّالِمَ عَلَى الْمَظْلُوم، وَيَشُدُّ عَضُدَ الْبَاغِي، اتِّبَاعاً لِلْهَوَىٰ، أَوْ طَمَعاً بِعَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الْحَياةِ الدُّنْيَا، أَو تأثُّراً بِقَرَابَةٍ، أَوِ اسْتِجَابَةً لِشَهْوَةٍ، أَوْ تَلْبِيَةً لِرَغْبَةِ ذِي سُلْطَانٍ، أَوْ ذِي جَاهٍ فِي قَوْمِهِ.

وَهِيَ فِي هٰذَا كَالْمسْتَأْمَنِ الّذِي يَخُونُ مَنِ اسْتَأْمَنَهُ.

إنّ الْجَرِيمَةَ فِي كُلِّ ذَلِكَ بِجَرِيمَتَيْنِ، والظُّلْمَ بِظُلْمَيْنِ، ولِكُلٍّ مِنْ أَصْحَابِ هٰذِهِ الْجَرَائِمِ كِفْلَانِ مِنَ الْعِقَابِ.

إنّ شَهَادَةَ الزُّورِ مِنَ الكَذِبِ الْمُفْتَرَىٰ، وَلَوْ لَمْ يُلَاحَظْ فِيهَا اشْتِمَالُهَا عَلَىٰ جَرِيمَتَيْنِ، وَقَدْ أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجلّ أَنّهُ لَا يَفْتَرِي الكَذِبَ إِلَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَقَالَ الله عزَّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول).

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ (١٠٥)﴾.

فَدَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ حَصْرِ افْتِرَاءِ الكَذِبِ فِي الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ، وأقْبَحُ أَنْوَاعِ الكَذِبِ افْتِرَاءُ الكَذِبِ عَلَىٰ اللَّهِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ.

وأَبَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَكُونُ كَذّاباً، فقد رَوَىٰ الإِمَامُ مَالِكٌ فِي الموطّأ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْم، أنَّهُ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَاناً؟. قَالَ: «نَعَمْ» فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلاً؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَقِيلَ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذّاباً؟ قال: «لَا».

فَدَلَّ هٰذَا الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنّ الْمُؤْمِنُ لَا يَكُونُ كَذّاباً، أَيْ: لَا يَصِلُ إِلَىٰ مُسْتَوىٰ تَحَرِّي الكَذِبِ، حَتَّى يُدْمَغَ بَأَنَّهُ كَذّابٌ، خُلُقُهُ الْكَذِب.

وقَدْ عَلِّمنا أنَّ شَهَادَةَ الزُّورِ مِنْ أَقْبَحِ صُوَرِ الْكَذب، فَهِيَ لا تَصْدُرُ عَنْ آحَادِ الْمُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ الْعَادَةِ، فَضْلاً عَنْ أَنْ تَصْدُرَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ زُمْرَةِ عِبادِ الرَّحْمٰنِ.

وفي التَّحْذِيرِ مِنْ شَهَادَةِ الزُّورِ، روَىٰ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِم عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» قلنا: بلىٰ يا رسول الله، قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجلَسَ فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُها حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ.

ورَوىٰ أَبُو دَاوُدَ وابْنُ مَاجَهْ، عَن خُرَيْم بْنِ فَاتِك، قَالَ: صَلَّىٰ رَسُولُ الله ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَامَ قَائِماً فَقَالَ:

«عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ باللَّهِ، عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالإِشْرَاكِ بالله، عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ».

ثم قرأ قول الله تعالى في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿... فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ... ﴿٣١﴾﴾.

ومَعْلُومٌ أنّ قَوْلَ الزورِ، وَشَهَادَة الزُّورِ مِنَ الْكَبَائِرِ فِي حُدُودِ مَرْتَبَةِ المتَّقِين، فاجتِنَابُهما مِنْ حُقُوق هذه المرتبة، ولمَّا كانت حُقُوقُ مرتبة المتقينَ كُلُّها حُقوقاً أَسَاسِيَّةً لِمَرْتَبَتَي الأبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ، الجَامِعَتَيْنِ لِفَرِيقِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ ضِمْنَ عَرْضِ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ عِبَادَ الرَّحْمٰنِ مِنْ شَأْنِهِمْ أَلَّا يَسْقُطُوا فِي كَبِيرَتَيْ قَوْلِ الزورِ وَشَهَادَةِ الزورِ، لأنّ ذَلِكَ يَجْعَلُهُمْ يَهْبِطُونَ عَنْ دَرَجَاتِهِم، إِلَىٰ دَرَجَاتِ عُصَاةِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ.

(٢) ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢﴾:

﴿مَرُّوا﴾: يقال لغة: مرَّ فُلَاناً، ومرَّ بِهِ، ومرَّ عَلَيْه، إذَا أَقْبَلَ إليه، واقْتَرَبَ مِنْهُ أَوْ خَالَطَهُ ثُمَّ اجْتَازَهُ، وَأَرَىٰ أَنّ عِبَارَةَ «مَرَّ بِهِ» فِيها بالإِضَافَةِ إِلَىٰ مَعْنَى الإِقْبَالِ والاجْتِيَازِ مَعْنىً مِنْ مَعَانِي الْبَاءِ كَالظَّرْفِيَّةِ والمُلَابَسَةِ والإِلْصَاقِ، وأنّ عِبارَةَ «مَرَّ عَلَيْهِ» فِيهَا مَعْنَى الاسْتِعْلَاءِ، الَّذِي يَدلّ عَلَيْهِ حَرْفُ «عَلَىٰ».

﴿بِاللَّغْوِ﴾: اللَّغْوُ في اللُّغَةِ: هُوَ كُلُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْغَىٰ ويُتْرَكَ، لِعَدَمِ تَحْصِيلِ فَائِدَةٍ منه، أُخْرَوِيَّةٍ أو دُنْيَوِيَّة.

قَال أهلُ اللُّغة: اللَّغْوِ السّقَطُ، وَمَا لَا يُعتَدّ بِهِ مِنْ كَلَامٍ وَغَيْرِهِ، ولا يُحْصَلُ مِنْهُ عَلَىٰ فَائِدَةٍ أَوْ نَفْعٍ.

وفَرِيقُ «عِبادِ الرَّحْمٰنِ» إذا مَرُّوا باللَّغْوِ، دُخولاً فِي مُجَالِسِهِ، أَوْ اقْتِرَاباً مِنْهَا، أَوْ مُلَابَسَةً لِلَّغْوِ بِبَعْضِ مَا هُوَ مِنْهُ، مِنْ أَقْوَالٍ أَوْ أَعْمَالٍ، فَإِنَّهُمْ يَمُرُّونَ مُرُورَ الْكِرَام فِي نُفُوسِهِمْ، يُكَرِّمُونَهَا عَنْ تَضْيِيعِ الْوَقْتِ فِي اللَّغْوِ، سَوَاءٌ أَكَانَ قَوْلاً أَمْ عَمَلاً.

إنّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» يُدْرِكُونَ قِيمَةَ الْوَقْتِ، وَيَعْلَمُونَ أنّ الزَّمَنَ الَّذِي يَمُرُّ عَلَيهِم هُوَ رَأْسُ مَالِهِمْ فِي هٰذِهِ الْحَيَاةِ، مَعَ مَا وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِنْ طَاقَاتٍ جَسَدِيَّةٍ وفِكْرِيَّة وَنَفْسِيَّة، فإذَا سَمَحُوا لأوْقَاتِهِمْ أَنْ تَضِيعَ فِي اللَّغْوِ الَّذِي لَا

فَائِدَةَ مِنْهُ لِدُنْيَاهُمْ أَوْ أُخْرَاهُمْ، فَقَدْ بَدَّدُوا مِنْ رُؤُوس أَمْوَالِهِمْ بِمِقْدَارِ الزَّمَنِ الَّذِي أَنْفَقُوهُ فِي اللَّغْوِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنّ الْخَسَارَةَ الَّتِي يَخْسَرُونَهَا بِذَلِكَ لَا تُعَوَّضُ، ولمَّا كَانُوا عُقَلَاءَ، وأَهْلَ بَصِيرَةٍ فَإِنَّهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَخْسَرُوا هٰذِهِ الخَسَارَةَ الَّتِي لا تُعَوَّضُ، مَهْمَا حَاوَلَ الإِنْسَانُ ذَلِكَ، لأنَّ الْعُمْرَ مَحْدُودٌ، وَمَهْمَا طَلَب الإِنْسَانُ التَّأْجِيلَ فِيهِ لِتَدَارُكِ الْعَمَلِ لَمْ يُعْطَ تأجيلاً ولَا بِمِقْدَارِ سَاعَةٍ، وإِذَا طَلَبَ الرَّجْعَةَ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ رُفِضَ طَلَبُهُ مَعَ الزَّجْرِ والتَّلْوِيم.

لِذَلِكَ أَقْسَمَ الله عَزَّ وجلّ بالعَصْر عَلَىٰ أنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، كُلَّمَا مَرَّ مِنْ عُمْرِهِ لَحْظَةٌ، لأنّهُ بِمُرُورِ الزَّمَنْ يُبَدِّدُ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ وَهُوَ عُمْرُه الْمُقَدَّرُ لَهُ، تَبْدِيداً هُوَ فِيهِ خَاسِرٌ لَا مَحَالَة، فَهُوَ فِي مُنْزَلَقٍ مِنَ الْخُسْرِ، لَكِنَّ الله عزَّ وجلّ اسْتَثْنَىٰ مِنْ عُمُومِ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَوَاصَوْا بالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْر، وذَلِك لأنّهم يُنْفِقُون أوقات أعْمَارهمْ فِي تِجَارَةٍ مَع اللَّهِ رَابِحَةٍ، ورِبْحُهَا عَظِيمٌ جِدّاً، فَوْقَ مَا يَسْتَطِيعُ تَقْدِيرَهُ أَيّ مُقَدِّر مِنَ النَّاسِ[1].

و«عباد الرَّحْمٰن» مِنْ هٰذا الْقِسْمِ الْمُسْتَثْنَىٰ، لأَنَّهُمْ حَمَلَةُ جَائِزَةِ تَفَوُّق، فإذا مَرّوا باللَّغْوِ مَرُّوا مُروراً عَابِراً، حَالَةَ كَوْنِهم كِراماً فِي أَنْفُسِهم، إِذْ لَا يُهِينُونَها بالْهُبُوطِ إِلَىٰ السَّفَاسِفِ ومُحْقَرَاتِ الأُمُورِ، وهُمْ يَخْشَوْنَ دَائِماً أَنْ يَخْسَرُوا مَقَادِيرَ مِنْ رَأْسِ مَالِهِمْ دُونَ تَحْقِيقِ رِبْحٍ وَفِيرٍ بِعَمَلٍ صَالِحٍ.

وشَأْنُ الكَرِيم أَنَّهُ إِذَا مَرَّ بِشَيْءٍ لَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنْ ذَاتِهِ أو مِنْ اهْتِمَامِهِ أَوْ وَقْتِهِ أو طَاقَتِهِ، ولَا يُرِيدُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ جَافِياً غَلِيظاً، مَرّ بِخِفَّةٍ وَلُطفٍ، فَشَارَكَ بِنَظْرَةٍ عَابِرَة، وفي لَمَحَاتٍ غَيْرِ خَاسِرَة، ولَمْ يَجْفُ وَلَمْ يَعْنُفْ، وَلَمْ يَكُنْ فَظّاً وَلاَ غَلِيظاً، ونَصَحَ بِرِفْقٍ بَالِغٍ، وأَرْشَدَ إِلَىٰ أَنَّ

---

(١) انظر تدبُّر سورة (العصر/ ٢٢ مصحف/ ١٣ نزول).

الْعُمْرَ ثَمِينٌ جِدّاً، ولا يَصِحُّ أَنْ يُضَيَّع فِي اللَّغْو الَّذِي لَا فَائِدَةَ تَحْصُل مِنْ وَرَائِهِ، ولا خَيْرَ يُرْجَىٰ مِنْهُ.

هٰكَذَا يَكُونُ مُرُورَ الكِرَام، إنّه مُرورُ تَحِيَّة وسَلَام، لا مُرُور تَطَفُّل ومُقَام.

و«عِبادُ الرَّحْمٰن» مِنْ خُلُقِهم عُلُوُّ الْهِمَّةِ، الَّتِي يَتَرَفَّعُونَ بِهَا عَنْ مُحْقَرَاتِ الأُمُور وصَغَائِرِهَا، ويَنْشُدُون بِهَا مَعَالِيَ الأُمُورِ وَكَمَالَاتِهَا، إذْ يُدْرِكُونَ أَنَّ التَّعَلُّقَ بمُحْقَراتِ الأُمُورِ مِنْ دَنَاءَةِ النَّفْسِ، وانْحِطَاطِ هِمَّتِها، وهٰذَا لَا يَفْعَلُهُ كِبَارُ الْقُلُوبِ والنُّفُوسِ، لِذَلِكَ فَهُمْ أَصْحَابُ نَظَرَاتِ آخِذَاتٍ فِي طَرِيقٍ صَاعِدَةٍ، وَمُتَطَلِّعَاتٍ إِلَىٰ آفَاقِ المَعَالِي، وهُمْ بِهٰذِهِ النَّظَرَاتِ يَرَوْنَ أنّ اللَّغْوَ مِنَ الْقَوْلِ أو الْفِعْلِ أو التَّفْكِير، هُوَ مِنْ مُحْقَرَاتِ الأُمُورِ وسَفَاسِفهَا، لِذٰلِكَ فَهُمْ لا يُضَيِّعُونَ فِيهَا إِلَّا اليَسِيرَ الْقَلِيلَ مِنْ طَاقَاتِهِمْ وأَوْقَاتِهِم.

فَإذا مَرُّوا فِي حَياتِهِمْ بأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ اللَّغْوِ أَعْرَضُوا عَنْهُ، أو خَفّوا فِي اجْتِيَازِ سَاحَتِه، وكَرَّموا نُفُوسَهُمْ عَنِ الإِقَامَةِ فِيها، ولَمْ يَسْمَحُوا لأَوْقَاتِهِمْ الثَّمِينَةِ الَّتِي هِيَ رَأْسُ مَالِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ بِأَنْ تَضِيعَ فِي اللَّغْوِ سُدَىٰ.

ولَمَّا كَانَ اللَّغْوُ اشْتِغالاً بمَا لَا نَفْعَ فِيهِ ولاَ فَائِدَةَ، كَانَ مِنَ الأَشْيَاءِ الَّتِي لا تَعْنِي الْعُقَلاء (أي: لا تُهِمَّهُمْ فَلَا يَحْتَفِلُونَ بِهَا) و«عِبَادُ الرَّحْمٰنِ» عُقَلَاءُ حَرِيصُونَ عَلَىٰ مَا يَعْنِيهِمْ ويَنْفَعُهُمْ)، ولَا يَشْتَغِلُونَ فِيمَا لا يعنيهم،عملاً بِوَصِيَّةِ الرَّسُول ﷺ.

روى مالك وأحمد عن عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْن، وروى ابن ماجه عن أبي هريرة أَنَّ رسول الله ﷺ قال:

«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنيه». (حديث صحيح).

وأُنَبِّهُ عَلَىٰ أَنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ اللَّغْوِ (أي: إعْطَاءَهُ جَانِبَ الْعَارِضِ الَّذِي هُوَ وَسَطٌ بَيْنَ الإِدْبَارِ والإِقْبَالِ) والْمُرُورَ بِهِ مرَّ الكِرام (أي: دُونَ إِقَامَةٍ ومُلاَزَمَةٍ) هُوَ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، وَمَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، لأَنَّ اللَّغْوَ الَّذِي لَا مَعْصِيَةَ لله فِيهِ لَا يَخْدِشُ حُقُوقَ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، فَقَدْ يَقَعُ مِنْهُمْ، لَكِنَّهُ لَا يَتَلَاءَمُ مَعَ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، فَضْلاً عَنْ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، ومِنْ هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ فَرِيقُ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، فاللَّغْوُ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ إِلَّا لِمَاماً وبِخِفَّةٍ وسُرْعَة.

واهْتِمَاماً بِتَرْبِيَةِ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِم حَتَّى يَرْتَقِي فَيَكُونَ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ (مِنَ الأَبْرَارِ فَالْمُحْسِنِينَ) وَصَفَ الله عزَّ وجلّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُفْلِحِينَ بأَنَّهُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، فَقَالَ تَعَالَى في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾.

فَأَثْبَتَ اللَّهُ عزَّ وجلّ فِي هٰذَا النَّصِّ الفَلَاحَ وَهُوَ الظَّفَرُ بِمَا يَطْمَحُ الإِنْسَانُ الْعَاقِلُ الرشيد إِلَيْهِ، وأَبَانَ أَنَّهُ مِيرَاثُ الفِرْدَوْسِ يَوْمَ الدِّينِ، وهُوَ أَوْسَطُ الْجِنَّةِ وأَعْلَاهَا، لِمَنِ اسْتَجْمَعَ عِدَّةَ صِفَاتٍ، مِنْهَا مَا هُوَ مِنْ حُقُوقِ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ كَأَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَحِفْظِ الْفُرُوجِ، ومِنْهَا مَا هُوَ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، فَدَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، وَهُمَا صِفَتَانِ: الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ، والإِعْرَاضِ عَنِ اللَّغْوِ.

ولَمَّا ارْتَقَوْا فَوْقَ سَقْفِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، اسْتَحَقُّوا أَنْ يَرِثُوا دَرَجَاتٍ فِي أَعْلَىٰ الْجَنَّة، حَيْثُ الفِرْدَوْس.

وأثْنَى اللَّهُ عزَّ وَجلّ عَلَىٰ بَعْضِ أهْلِ الكِتَابِ الأوَّلِ الَّذِينَ يَصِلُهُمْ الْبَلاغُ الْقُرْآنِيُّ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، ويُعْلِنُونَ أنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأنَّهُمْ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ، وأبَانَ تَعَالَىٰ أنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ أجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا، وَذَكَرَ مِنْ صِفَاتِهِمْ أنَّهُمْ يَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، وأنَّهُمْ يُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، وأنَّهُمْ إذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعْرَضُوا عَنْهُ، وقَالُوا لِلَّذِينَ يَسْتَغْرِقُونَ فِي أقْوَالِ اللَّغْوِ: لَنَا أعْمَالُنَا وَلَكُمْ أعْمَالُكُمْ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ.

وَنَسْتَطِيعُ أنْ نُدْرِكَ أنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ مِنْ زُمْرَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ (الأبْرَارِ أوِ الْمُحْسِنِينَ) بِدَلِيلِ إثْبَاتِ الأجْرِ الْمُضَاعَفِ لَهُمْ، مَعَ وَصْفِهِمْ بِالصَّبْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِ الأبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ، وَوَصْفِهِمْ بِأنَّهُمْ يَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، وأنَّهُمْ إذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعْرَضُوا عَنْهُ، وَرَدُّوا بالسَّلَامِ، ولَا يَرُدُّونَ الْجَهَالَةَ بِمِثْلِهَا، وَهٰذِهِ مِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، الْجَامِعِينَ لِلأبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ.

وفِي ذَلِكَ يَقُولُ الله عزَّ وجلّ في سُورَةِ (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

هٰذا النّص مَدَنيٌّ التنزيل من سورة (القصص) المكية في معظمها.



قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿يَخِرُّوا﴾: الخَرِيرُ والخُرُورُ السُّقُوطُ السَّرِيعُ مِنْ أَعْلَىٰ إِلَىٰ أَسْفَلٍ، فَيُرَافِقُهُ أَحْيَاناً صَوْتٌ يُلائِمُ مَا يَخِرُّ، كخريرُ المَاءِ، والصَّخْرِ، والسَّقْفِ، وغَيْرِها، ويُقَالُ: خَرَّ لله سَاجِداً، أي: أَسْرَعَ فَسَجَدَ لله واضعاً جَبْهَتَهُ عَلَىٰ الأرض.

مِنْ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰن» أَنَّهُمْ أَهْلُ حُضُورٍ مَعَ رَبِّهم في عِبَادَاتِهِمْ لَهُ، فَمِنْ خَلَائِقِهِمْ الدَّائِمَةِ الَّتِي تَتَكَرَّرُ فِي حَيَاتِهِمْ، أَنَّهُمْ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ تَذَكَّرُوا، وتَدَبَّرُوا، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِهِ، وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ، وَحِينَمَا يَخِرُّونَ عِنْدَ التَّذْكِيرِ بآيَاتِ اللَّهِ فَهمْ يَخِرُّونَ تَعْظِيماً لَهَا واحْتِرَاماً، وكَأَنَّهُمْ يَخِرُّونَ لِيَضَعُوا عَلىٰ الأرْضِ طَبْعَةَ سُجُودِ أَعْلَىٰ شَيْءٍ فِي وُجُوهِهِمْ، وَهِيَ جِبَاهُهُمْ، إِذْ يَعْبِدُونَ الله ويُعَظِّمُونَهُ بِذَلِكَ، ويُعْلِنُونَ خُضُوعَهُمْ لَهُ.

وَلَمْ يَخِرُّوا عَلَيها (خُرُوراً شَكْلِياً خالِياً مِنَ الْحُضُورِ مَعَ اللَّهِ، أَوْ بِتَأْثِيرِ الْعَادَةِ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْغَفْلَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ لَا يَكُونُ لَهُمْ حُضُورٌ مَعَ رَبِّهِمْ فِي صَلَوَاتِهِمْ، وَلَا كَمَا يَفْعَلُ الْمُنَافِقُونَ أو الْمُرَاؤُونَ إِذْ يَخِرُّونَ خُرُوراً شَكْلِياً بأجْسَادِهِمْ، لَا مِنْ أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ، فَأَفْكَارُ هٰؤُلاءِ وَتَصَوُّراتُهم وَحَرَكَاتُ قُلُوبِهم وسَائِرُ دَوَائِرِ نُفُوسِهِمْ تَكُونُ مُنْصَرِفَةً عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَمَا فِيهَا، مَشْغُولَةً لَاهِيَةً بِشُؤُونِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِها، ولَذَّاتِها، وَمَطَامِعِهَا، وأَسْبَابِهَا، أَمَّا آيَاتُ اللَّهِ الْمَشْهُودَةُ فَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا بِمَثَابَةِ العُمْيِ، وأمّا آياتُ الله الْمَتْلُوَّةُ فَهُم بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا بِمَثَابَةِ الصُّمِّ.

لَكِنّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» يُدْرِكُونَ دَلَالَاتِ آيَاتِ الله الْمَشْهُودَةَ والْمَتْلُوَّةَ فَإِذَا ذُكِّرُوا بِهَا كَانَ حَالُهُمْ تُجاهَهَا كَمَا ذَكَرَ الله عزَّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول).

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: مَا يُؤْمِنُ بآياتِ اللَّهِ إيماناً كَامِلاً ذا أَثَرٍ فِي السُّلُوكِ إلّا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِها خضعُوا لَها، وأَعْلَنُوا عَنْ خُضوعِهِمْ النَّفسِيّ والْقَلْبِيّ لَهَا، بأنْ يَخِرّوا سُجّداً لله، مُتَذَكِّرِينَ مُسَبِّحِينَ بِحَمْدِهِ، سَامِعِينَ لِمَا فِي مَتْلوِّهَا، ومُتَدَبِّرِينَ لَهُ، ومُتَفَكِّرِينَ فِي مشهُودِهَا ومُدْرِكِينَ لِدَلَالاتِهِ وإشَارَاتِهِ، وَفِي تَدَبُّرِهِمْ وَتَفَكُّرِهِمْ يَسْتَبْصِرُونَ أَوَامِرَ الله وَوَصَايَاهُ وَنَصَائِحَهُ وَهِدَايَتَهُ، وَيَسْتَبْصِرُونَ الْمَنْهَجَ الَّذِي تُرْشِدُهُمْ إِلَيْهِ وَتَدُلُّهُمْ عَلَيْهِ.

ونُلَاحِظ مِنْ رَوَائِع الْبَيَانِ الْقُرآني البديع في النَّصَّيْن الَّذي في (الفرقان) وَالَّذي فِي (السجدة) ما يلي:

● أنّ الّذِي فِي (الفُرْقَانِ) قَدْ نَفَىٰ عَنْ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» صِفَةَ الْخُرُورِ الشَّكْلِيّ الَّذِي لَا يُرَافِقُهُ حُضورٌ فِكْرِيٌّ وَقَلْبِيٌّ لَدَىٰ تَذْكِيرِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ، وهٰذَا الْمَنْفِيُّ عَنهُمْ هُوَ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْغَفْلَةِ والْمُرائِين والْمُنَافِقين.

وأنّ الَّذِي فِي (السجدة) قَدْ حَصَرَ كَمَالَ الإِيمَانِ فِي الَّذِينَ إذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، غَيْرَ مُسْتَكْبِرِينَ، فأَثْبَتَ الْخُرُورَ، والسُّجُودَ، والتَّسْبِيحَ بِحَمْدِ اللَّهِ، لِذَوِي الإِيمَانِ الكَامِلِ بآيَاتِ اللَّهِ، وَهٰذِهِ صِفَاتُ أَهْلِ الْحُضورِ الفِكْرِيّ والْقَلْبِيّ لَدَى تَذْكِيرِهِمْ بِآيَاتِ الله.

وَمِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ النصين نَفْهَمُ بِيَقِينٍ وَوُضُوحٍ تَامٍّ أنَّ مِنْ صِفَاتِ «عِبادِ الرَّحْمٰنِ» أنَّهُمْ إذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ اللَّهِ خَرُّوا سُجّداً وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ غَيْرَ مُسْتَكْبِرِينَ، مَعَ حُضُورٍ قَلْبِي وفِكْرِيّ فِي تَدَبُّرِ آيَاتِ اللَّهِ الْمَسْمُوعَةِ، والتَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ المَشْهُودَةِ، وَلَمْ يَخِرّوا غَافِلِينَ ولَا مُرَائِينَ ولَا مُنَافِقِينَ صُمّاً عَنْ آيَاتِ الله الْمُتْلُوّةِ، وعُمْياً عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمَشْهُودَةِ.

وهٰذا مَا دَعَا الزَّمَخْشِرِيّ إِلَىٰ أَنْ يَقُولَ في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، لَيْسَ بِنَفْيٍ لِلْخُرُور، إنّمَا هُوَ إثباتٌ لَهُ، وَنَفْيٌ لِلصَّمَمِ والْعَمَىٰ، كَمَا يُقَال: لَا يَلْقَانِي زَيْدٌ مُسَلِّماً، هُوَ نَفْيٌ للسَّلَام، لَا لِلِّقَاءِ، والْمَعْنَى: أَنَّهُمْ إذَا ذُكِّرُوا بِهَا أكَبُّوا عَلَيْهَا حِرْصاً عَلَىٰ اسْتِمَاعِهَا، وأَقْبَلُوا عَلَىٰ الْمُذَكِّر بِهَا، وهُمْ فِي إكْبَابِهِم عَلَيْه سَامِعُونَ بآذانٍ وَاعِيَةٍ، مُبْصِرُونَ بِعُيُونٍ رَاعِيَة، لَا كَالَّذِينَ يُذَكَّرُونَ بِهَا فَتَرَاهُمْ مُكِبِّينَ عَلَيْهَا، مُقْبِلِينَ عَلَىٰ مَنْ يُذَكِّرُهُمْ بِهَا، مُظْهِرِينَ الْحِرْصَ الشَّدِيدَ عَلَىٰ اسْتِمَاعِهَا، وهُمْ كالصُّمِّ والْعُمْيَانِ، حَيْثُ لا يَفْهَمُونَها، ولا يُبْصِرُونَ مَا فِيها، كَالْمُنَافِقِينَ.

وهٰذَا الَّذِي نَبَّهَ عَلَيْهِ الزَّمَخْشَرِيّ، وَنَقَلَهُ عَنْهُ الرَّازِي صَحِيحٌ وسَدِيدٌ بِدَلِيلِ الآيةِ التّي في «السجدة».

أقسام الناس عِنْدَ تذكِيرِهِمْ بآيات ربّهم:

لدَىٰ مُلاحظَة أَحْوَالِ النَّاسِ عِنْدَ تَذْكِيرِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ الْمَتْلُوَّةِ أو الْمَنْظُورَةِ فِي كُلِّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ، يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّهُمْ يَنْقَسِمُونَ إلى أقسام ستَّةٍ:

القسم الأول: قِسْمٌ يُذَكَّرُ بآيَاتِ رَبّه فَيُعْرِضُ عَنْهَا مُبَاشَرَةً، دُونَ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ نَفْسِهِ عَاطِفَةً ولَا فِكْراً، وَلَا سَمْعاً ولَا بَصَراً.

إنَّه قَدْ أَقَامَ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ ابْتِدَاءً مَا يَصُدُّهَا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَهِدَايَةٍ ونُصْحٍ، فَهُوَ لَا يَتَقَبَّلُ مَا يَهْدِيهِ إِلَىٰ الْحَقِّ، أَوْ يُخَفِّفُ مِنْ غُلَوَاءِ تَعَلُّقِهِ بالدُّنْيا وزِينَتِها، وشَهَوَاتِها ومَلَذَّاتِها والتَّفاخر بِهَا والتَّكَاثُرِ مِنْهَا.

وهٰذَا الْقِسْمُ مِنَ النَّاسِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هِدَايَةِ رَبِّهِ حِجَابٌ غَلِيظٌ، مِنْ أَهْوَائِهِ، وشَهَوَاتِهِ، وَكِبْرِ نَفْسِهِ، واسْتِغْرَاقِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وقَدْ جَاءَتِ الإِشَارَةُ إِلَىٰ هٰذَا القِسْمِ مِنَ النَّاس فِي قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

فَقُلُوبُ أَهْلِ هٰذَا الْقِسْمِ مِنَ النَّاسِ في أَكِنَّة (أيْ: مُغَلَّفَةٌ بِأُغْطِيَةٍ) بِسَبَبِ انْصِرَافِ كُلِّ مَشَاعِرِهِمْ بِإِرَادَتِهِمْ لِمَطَالِبِ أَجْسَادِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ مِنْ دُنْيَاهُم، فَهِيَ لَا تَفْقَهُ مَا تُذَكَّرُ بِهِ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ، وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ نُصْحاً مَهْمَا كَانَ بَيِّناً وَاضِحاً لا يَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيلٍ، لأنَّ الاسْتِمَاعَ إِلَىٰ الْقَوْلِ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ إِرَادَةِ فَهْمِ الْمُرَادِ بِهِ، وَمَنْ لا يُرِيدُ ذٰلِكَ انْصَرَفَ سَمْعُهُ عَنْهُ، فَهُوَ لَا يَسْمَعُ إِلَّا صَوْتاً لَا مَعْنَى لَهُ، كَمَنْ فِي أُذُنِهِ وَقْرٌ، (الوَقْرُ: ثِقْلٌ فِي السَّمْعِ حَتَّىٰ الصَّمَمِ).

القسم الثاني: قِسْمٌ يُذَكَّرُ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَيَسْمَعُها، ويَتَفَكَّرُ فِي دَلَالَاتِها، وقَدْ يَنْتَفِعُ بِهَا، لكِنْ تَغْلِبُهُ بَعْدَ ذَلِكَ شَهَوَاتُه وأَهْوَاءُ نَفْسِهِ، فَيُعْرِضُ عَنْهَا.

وَهٰذَا القِسْمُ مِنَ النَّاسِ قِسْمٌ يَصطَرِعُ فِي دَاخِلِهِ الفِكْرُ والْهَوَى، والضَّمِيرُ الرَّشِيدُ والشَّهَوَاتُ الْجَانِحَاتُ، ثُمَّ تَكُونُ أَهْوَاؤُه وشَهَوَاتُه بَعْدَ مَرْحَلَةِ صِرَاعٍ قَدْ تَطُولُ أَوْ تَقْصُرُ هِيَ الْغَالِبَةُ، فَتَخْضَعُ إِرَادَتُه، وَيَنْتُجُ عَنْ ذٰلِكَ إِعْرَاضُهُ عَنْ آيَاتِ رَبِّهِ بَعْدَ أَنْ تأَمَّلَ فِيهَا، وأَدْرَكَ مِنْ دَلَالَاتِها مَا يَكْفِيه للاقْتِنَاعِ بالْحَقِّ، وسُلُوكِ سَبِيلِ الرُّشْدِ.

وقد جَاءَتِ الإِشَارة إلىٰ هذا القسم مِنَ النَّاس فِي قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

إنّ هٰذا القِسْمَ مِنَ النَّاسِ قِسْمٌ مُجْرِمٌ كالْقِسْمِ الأوّلِ، إلَّا أَنّ احْتِمَالَ إِصْلَاحِهِ أَرْجَىٰ مِنْ إِصْلَاحِ الْقِسْمِ اللأوَّلِ، ولذٰلِكَ جَاءَ فِي بَيَانِ حَالِ الْقِسْمِ الأَوَّلِ قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ:

﴿... وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

ولَمْ يَأْتِ مِثْلُ هٰذَا فِي بَيَانِ الْقِسْمِ الثَّانِي. وقَدِ اسْتَطَعْنَا أَنْ نُدرِكَ أَنَّهُمَا قِسْمَانِ مُخْتَلِفَانِ مِنْ دَلَالَةِ تَغْيِير حَرْفِ الْعَطْفِ لَدَىٰ بَيَانِ كُلٍّ مِنْهُمَا، إِذْ جَاءَ عَطْفُ فِعْلِ (أَعْرَضَ) بِالفَاءِ لَدَىٰ بَيَانِ الْقِسْمِ الأَوَّل:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ... ﴿٥٧﴾﴾.

والفاء في اللّغة للتَّرْتِيبِ مَعَ التَّعْقِيبِ.

وجاءَ عَطْفُهُ بحَرْفِ «ثُمَّ» لَدَىٰ بَيَانِ الْقِسْمِ الثَّانِي:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ... ﴿٢٢﴾﴾.

وحرف «ثم» في اللُّغة للتَّرْتيب مع التراخي.

القسم الثالث: قِسْمٌ مُنافِقٌ يُذَكَّرُ بآيَاتِ رَبّه فَيُشَارِكُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَظْهَرِ الاسْتِجَابَةِ لَهَا، فَيَخِرّ سَاجِداً سُجُودَ الْجَسَدِ فَقَطْ، لٰكِنَّهُ فِي قَلْبِهِ كَافِرٌ، فأذنُهُ صَمَّاءُ وَعَيْنُهُ عَمْيَاءُ عَمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ التَّذْكِيرُ، وحَالَهُ كَحَالِ أَصْحَابِ الْقِسْمِ الأَوّلِ أَوِ القِسْمِ الثاني.

القسم الرابع: قِسْمٌ مُرَاءٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، هُوِ كَذٰلِكَ يَسْجُدُ سُجُودَ الْجَسَدِ، لا سُجُودَ الْقَلْبِ وَخُضُوعَ النَّفْسِ، لأنَّ إِرَادَتَهُ مُوَجَّهَةٌ لِمَصَالِحِ دُنْيَاهُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ مَظَاهِرِ عِبَادَةِ الله، وَرِيَاءُ هٰذَا المرائي يُحْبِطُ عَمَلَهُ عِنْدَ رَبِّهِ فَلا يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ عَلَيْهِ.

القسم الخامس: قِسْمٌ غَافِلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يَسْجُدُ سُجُودَ الْعَادَةِ لَا سُجُودَ الْعِبَادَةِ، فَفِكْرُهُ وَقَلْبُهُ أَجْهِزَةٌ مُنْصَرِفَةٌ إِلَىٰ مَا هِيَ مَشْغُولَةٌ بِهِ مِن أُمُورِ الدُّنْيَا، ولهذا القسم من الأجْرِ عندَ رَبِّهِ بمقدار قيمة عَمَلِهِ الناقِصِ في موازينِ الله.

القسم السادس: قِسْمٌ حَاضِرُ الْقَلْبِ والنَّفِسِ والفِكْرِ، يَسْجُدُ سُجُودَ

السَّمِيعِ الْبَصِيرِ الْمُتَدَبِّرِ لآيَاتِ اللَّهِ الْمَتْلُوَّة والمُتَفَكِّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمَنْظُورَةِ، وهٰذَا القِسْمُ عَلى مراتِب ودَرَجَاتٍ، فمنهم مُؤْمِنُونَ مِنْ مَرْتَبَةِ المتَّقين، ومنْهُمْ مُؤْمِنُونَ مِنْ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، ومِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ مِنْ مَرْتَبَةِ الْمُحُسِنِينَ (وَعِبادُ الرَّحْمٰنِ أَبْرَارٌ أَوْ مُحْسِنُونَ).

وقد دَلَّ عَلَىٰ هٰذا القِسْمِ الأَخِيرِ قولُ الله عزَّ وجلّ: في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

ودَلّ عَلَى الأَقْسَامِ الأَرْبَعَةِ الأَخِيرَةِ مَنْطُوقُ وَمَفْهُومُ قَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) فِي وَصْفِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.



قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾:

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: أي: بَرْدَ أعيُن، ولَا تكُونُ الأَعْيُنُ كَذٰلِكَ حَتَّىٰ تَمْتَلِئَ الأَنْفُسُ والْقُلُوبُ سُرُوراً.

ومِنْ صِفَاتِ «عِبادِ الرَّحْمٰنِ» أَنَّهُم يَتَمَنَّوْنَ أَنْ تَكُونَ أَزْوَاجُهُمْ وذُرِّيَّاتُهُمْ مِنْ أَهْلِ الإِيْمَانِ والتَّقْوَىٰ والْعَمَلِ الصَّالِحِ، حَتَّىٰ تَكُونَ أُسَرُهُمْ مُعِينَةً لَهُمْ عَلىٰ مَرْضَاةِ اللَّهِ ونَشْرِ الِدّينِ، وأُسْوَةً حَسَنَةً بَيْنَ النَّاسِ، وبذلِكَ تَكُونُ قُرَّةَ أعيُنٍ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ.

لذٰلِكَ فَهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ اخْتِيارِ الزَّوْجَاتِ الصَّالِحَاتِ، وعلى

مُجَاهَدَتِهِنَّ حَتَّىٰ يَكُنَّ قُدْوَةً حَسَنَةً للزَّوْجَاتِ، ويَحْرِصُونَ عَلَىٰ تَرْبِيَةِ ذُرِّيَّة صَالِحَةٍ يُقَدِّمُونَها لِمُجْتَمعاتِهِم أَمْثِلَةً فَاضِلَةً وأُسْوَةً حَسَنَةً.

فَالدُّعَاءُ بأَنْ يَكُونُوا قُرَّةَ أَعْيُنٍ لَهُمْ هو كِنَايَةٌ عِنِ الدُّعَاءِ لَهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ والتَّقْوَىٰ والْعَمَلِ الصَّالِحِ، مَعَ مَا يتَحلَّوْنَ بِهِ مِنْ صِفَاتٍ يَسْعَدُ ويَهْنأُ بِهَا الأَزْواجُ والآبَاءُ فِي الدُّنْيا، ومِنْها الطَّاعَةُ والبِرُّ والصِّحَّةُ والسَّلامَةُ، وإِنْعَامُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بالْحَياةِ الرَّضِيَّةِ السَّعِيدَةِ.

ومِنَ الأَزْواجِ الْمُلاءَمَةُ، وحُسْنُ الْمَعَاشَرَةِ، وحُسْنُ الْخُلُقِ، والطَّاعَةُ، والصِّفَاتُ النَّفْسِيَّةُ و الْجَسَدِيَّةُ الأُخْرَىٰ، الَّتِي تُسَاعِدُ الزَّوْجَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ غَضّاً لِلْبَصَرِ، وأَكْثَرَ حَصَانَةً وَعِفَّةً.

ومِنَ الذُّرِّيَّاتِ الطَّاعَةُ والْبِرُّ، وَأَنْ يَكُونُوا مُوَفَّقِينَ سُعَدَاءَ فِي حَيَاتِهِمْ، أَمْجَاداً أَطْهَاراً، أَصْحَابَ ذِكْرٍ حَسَنٍ، إِلَىٰ غَيْرِ ذلك مِمَّا يَسُرُّ الآبَاءَ أَنْ يَجِدُوهُ فِي أَبْنَائِهِمْ.

ومِنْ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» أَنَّهُمْ يَطْمَحُونَ دَواماً إِلَىٰ الارْتِقَاءِ فِي دَرَجَاتِ مَرْتَبَتَي الأَبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ حَتَّىٰ يَكُونُوا أَئِمَّةً يَقْتَدِي بِهِمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، لِذَلِكَ فَهُمْ مَعَ اجْتِهَادِهِمْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يُعِينَهُم علَىٰ تَحْقِيقِ هٰذَا الْمَطْلَبِ، حَتَّىٰ يَكُونُوا أَئِمَّةً لِلْمُتَّقِينَ، فَيَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ الَّذِي يُكَرِّرُونَهُ ضِمْنَ أَدْعِيَتِهِمُ: رَبَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنا قُرَّة أَعْيُنٍ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِين إِمَاماً.

إِنَّهُ دُعَاءٌ ذُو شِقَّيْنِ: فالأَوَّلُ يَتَعَلَّقُ بِأُسَرِهِمْ: أَزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ، والآخَرُ يَتَعَلَّقُ بِأَنْفُسِهِمْ، وتَحْقِيقُهُما يُسَهِّل لَهُمُ الْقِيَامَ بِوَظِيفَتَي الدَّعْوَةِ إِلىٰ اللَّهِ، والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَر.

﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: أي: ويَقُولُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ: رَبِّ اجْعَلْنِي لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً. وَقِيلَ: لَفْظُ «إِمَامٍ» هُنَا جَمْعٌ، نَظِيرُ صَائِمٍ وصِيَامٍ،

وقائِمٍ وقِيَامٍ، فاسْمُ الْفَاعِلِ مِنْ «أَمَّ الْقَوْمَ يَؤُمُّهُمْ أمّاً» هو «آمٌّ لَهُمْ» أَصْلُهُ «آمِمٌ».

أقول: ويَأْتِي لَفْظُ «إِمَام» مَصْدَراً لِفِعْلِ «أَمَّ الْقَوْمَ» يُقَالُ لُغَةً: أَمَّ الْقَوْمَ يؤمُّهُم أَمّاً وإِمَاماً وَإِمَامَةً، إِذَا تَقَدَّمَهُمْ فِي الصَّلَاةِ أَوْ غَيْرِهَا، فَهُمْ يَقْتَدُونَ بِهِ، وعَلَىٰ هَذَا فَالتَّعْبِيرُ فِي الآيَةِ هُو مِنْ قَبِيلِ الإِخْبَارِ أو الْوَصْفِ بالْمَصْدَرِ الَّذِي يَسْتَوِي فِيه الْمُفْرَدُ والْمُثَنىٰ والْجَمْعُ والْمُذَكَّرُ والْمُؤَنَّثُ، تَقُولُ فِي الإِخْبَارِ: هُوَ عَدْلٌ، وهُمَا عَدْلٌ، وهُمْ عَدْلٌ، وهِيَ عَدْلٌ، وهُنَّ عَدْلٌ، وكذَلِكَ تَقُولُ هُنَا: هُو إِمَامٌ، وهُمَا إِمَامٌ، وَهُمْ إِمَامٌ إِلَىٰ آخِرِ الأَقْسَامِ.

ومِنْ الظَّاهِرِ أَنَّه يَنْبَغِي لِلْإِمَامِ أَنْ يَكُونَ أَرْقَىٰ دَرَجَةً أَوْ مَرْتَبَةً مِنَ الْمُقْتَدِينَ بِهِ، وإِذْ يَسْأَلُ «عِبادُ الرَّحْمٰنِ» رَبَّهُمْ أَنْ يُعِينَهُمْ ويُوَفِّقَهُمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا فَوْقَ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، لِيَكُونُوا صَالِحِينَ لِهَذِهِ الإِمَامَةِ، ومِنَ الّذِينَ هُمْ فَوْقَ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، وَهُمُ الأَبْرَارُ فَالْمُحْسِنُونَ.

الأبرارُ: هُمُ الْمُتَوسِّعُونَ فِي نَوَافِلِ الطَّاعَاتِ وفِعْلِ الخَيْراتِ زِيَادَةً على حُقَوقِ مَرْتبةِ التقوى، ومَرْتَبَةُ الْبِّرِ هِي الْمَرْتَبَةُ الْوُسْطَىٰ، وَهِي ذاتُ دَرَجَاتٍ.

المُحْسِنُونَ: هُمُ الّذِينَ يَعْبُدُونَ الله كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ، ومَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ أَعْلَىٰ المَرَاتِبِ، وهي ذَاتُ دَرَجَاتٍ.

ونَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هٰذَا التَّوْجِيهِ لِهٰذا الدُّعَاءِ حَاجَةَ الْأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ دَواماً إِلَىٰ أَئِمَّةٍ يَكُونُونَ قُدْوةً للْمُتَّقِينَ، وأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ البِرِّ، أَوْ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ.

إنّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» إِذْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَهَبَهُمْ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وَأَنْ يَجْعَلَهُمْ لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً، فَإِنَّهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ عزَّ وجلّ أَمْتَعَ ما فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا، وأَرْفَعَ مَرْتَبَةٍ إِيمَانِيَّةٍ وعَمَلِيَّةٍ تُهيِّئُهُمْ لِأَرْفَعِ مَنْزِلَةٍ وأَنْعَمِهَا

يَوْمَ الدِّينِ، فِي الْغُرُفَاتِ الْعَالِيَاتِ مِنْ الفردَوْسِ الّذِي هُوَ أَوْسَطَ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا.

أَمَّا الزَّوْجَةُ الْمُلَائِمَةُ الصَّالِحَةُ فِهِيَ خَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا، روىٰ الإمامُ مُسْلِمٌ عن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرو بنِ الْعَاصِ، أن رسول الله ﷺ قَال:

«الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ».

ثُمَّ إِنّ أَجَلّ مَا يُصِيبُ الإِنْسَانُ مِنْ سَعَادَةٍ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا الذُّرِّيَّةُ الصَّالِحَةُ النَّجِيبَةَ، الْبَارَّةُ الرَّشِيدَةُ السَّعِيدَة، ولذلِكَ دَعَا سَيِّدُنا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّه أَنْ يَهَبَهُ ذُرِّيَّةً مِنَ الصَّالِحِينَ، فَقَالَ: «**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِين**».

قَالَ اللَّهُ عزَّ وجَلّ يَقُصُّ عَلَيْنَا جَانِباً مِنْ قَصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

وكَانَ هَذَا الْمُبَشَّرُ بِه هُوَ إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقَدِ امْتَحَنَهُ اللَّهُ بِه، فَأَمَرَهُ بِذَبْحِهِ، ولَمَّا أَسْلَمَا وَباشَرا التَّنْفِيذَ، فَدَاهُ اللَّهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ.

وَلِذَلِكَ أَيْضاً دَعا زَكَرِيَّا رَبّه أَنْ يَهَبُهُ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، وفِي بَيَانِ هَذا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

ولَمَّا جَعَلَ اللَّهُ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام إِمَاماً، رَغِبَ إِلَىٰ رَبِّه أَنْ يَكُونَ مِثْلُ ذَلِكَ لِبَعْضِ ذُرِّيَّتِه، فَقَالَ: «**وَمِنْ ذُرِّيتي**» فقَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لَهُ: ﴿لَا

يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وفِي بَيَانِ هذا قَالَ الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فاللَّهُ عَزَّ وجَلَّ جَعَلَ إبْرَاهِيمَ للنَّاسِ إِمَاماً بَعْدَ أَنِ امْتَحَنَهُ بكَلِمَاتٍ مِنَ الأَوَامِرِ والنَّوَاهِي والتَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ عَلَىٰ النُّفُوسِ، فأَتَمَّهُنَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السلام، واجْتَازَ الامْتِحَانَ بِنَجَاحٍ بَاهِرٍ، فأَعْطَاهُ اللَّهُ شَهَادَةَ التَّفَوُّقِ فِي الامْتِحَانِ، وأَعْطَاهُ حَقَّ التَّقَدُّمِ والإِمَامَةِ للنَّاسِ، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أُسْوَةً حَسَنَةً لِلنَّاسِ، حتَّىٰ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ مِنْ بَعْدهُ، فقال الله عزَّ وجلّ لِلْمُؤْمِنِين في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ . . . ﴿٤﴾﴾.

إنَّ مَطْلَبَ الإِمَامَةِ الَّذِي يَسْأَلُهُ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ لِأنْفُسِهِمْ إذْ يقُولُونَ: واجْعَلْنَا لْلمُتَّقِينَ إمَاماً، مَطْلَبٌ لَا يَكْفِي لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمُتَّقِين فَقَطْ، فَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَبْرَارِ وهُمْ فَوْقَ الْمُتَّقِينَ، أَوْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الْمُتَفَوِّقِينَ فِي الإِيْمَانِ والْعَمَلِ الصَّالحِ الّذِينَ يَعْبُدونَ اللَّهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَه.

ولمّا كَانَ إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ جَعَلَهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ إمَاماً للناس، وكذٰلِكَ لمَّا كَانَ إسْحَاقُ ويَعْقُوبُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنَ الْمُحْسِنِين جَعَلَهُمَا اللَّهُ مِنَ الأئِمَّةِ الّذِين يَهْدُونَ بأَمْرِهِ تَعالَىٰ، فَقَال الله عزَّ وجلّ في سياق الحديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وقال الله عزَّ وجلّ بشَأْنِ الصَّالِحين الْمُهْتَدِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سُورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فَمَرْتَبَةُ الْإِمَامَةِ مَرْتَبة جَلَيْلَةٌ خَطِيرةٌ، إنَّها وَظِيفَةٌ مِنْ وَظَائِفِ الأَنْبِيْاءِ والْمُرْسَلِينَ وَلَا يَنَالُها عَنْدَ اللَّهِ إِلَّا الْمُحْسِنُونَ أَوِ الأَبْرَارُ، وهُمْ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ.

❁ ❁ ❁

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾:

في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ عَرْضُ لَقَطاتٍ مِنْ ثَوَابِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ بَيَانِ السَّبَبِ الَّذِي قَدَّمُوهُ فَاسْتَحَقُّوا بِهِ هَذَا الثَّوابَ الْعَظِيمَ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ هُمْ «عِبَادُ الرَّحْمَنِ» واختيرَ اسْمُ الإِشَارَةِ أُولئِكَ الْمَوْضُوع لِلْمُشَارِ إِلَيْهِمُ الْبَعِيدِينَ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ عَنْدِ رَبِّهِمْ عِنْ سَائِرِ المتَّقِينَ الَّذِينَ لَمْ يَرْتَقُوا في دَرجات مرتبتي الأَبْرَارِ والمحسنين، بنوافل الفضائل النَّفْسِيَّةِ والسُّلُوكيَّة التِي تَزِيدُهُمْ من اللَّهِ قُرْباً وحُبًّا.

﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾: أي: يَجْزِيهِمُ اللَّهُ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ

مَنْزِلَةَ الْغُرْفَةِ الرَّفِيعَةِ، كَمَا ارْتَفَعَتْ مَنْزِلَتَهُمْ بِالإِيمَانِ والْعَمَلِ الصَّالِحِ والتَّحَلِّي بِالصِّفَاتِ الَّتِي جَاءَ وَصْفُهُمْ بِهَا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، أَوْ مَرْتَبة الْمُحْسِنِينَ فِي الدُّنْيَا.

والْغُرْفَةُ فِي الْقُصُورِ الدُّنْيَوِيّة عِنْدَ الْعَرَب ذاتُ مَنْزِلَةٍ رَفيعَةٍ فِيها، تُخْتَارُ لِسَيِّدِ الْقَصْرِ ومُتْعَتِهِ الخَاصَّةِ ، و يُصْعَدُ إِلَيْها بِدَرَجٍ، وتَكُونُ فِي الْعَادَةِ عَالِيَةً مُشْرِفَةً.

والمراد بِلَفظِ [الْغُرْفَةِ] الجِنْسُ الشَّامِلُ لمَا يَكُونُ لَهُمْ مِنْ غُرُفَاتٍ رَفيعَاتِ الْمَنَازِلِ فِي الْفِرْدَوْسِ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾: أيْ: بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ عَلَىٰ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وتَرْكِ المَخَالَفَاتِ، وصَبْرِهِمْ عَلَى الاسْتِزَادَةِ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ ونَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ فَوْقَ الْوَاجِبَاتِ، وَصَبْرِهِمْ عَلَى تَرْكِ الْمَكْرُوهَاتِ ومَا لَا يَلِيقُ بالأَبْرَارِ والْمُحْسِنينَ، فَوْقَ تَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، وصَبْرِهِمْ فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ، والأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، والتَّحَلِّي بِمَا يَلْزَمُ لإِمَامَةِ الْمُتَّقِينَ.

﴿وَيُلَقَّوْنَ ـ أوْ وَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾: عَلَىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ، تَقُولُ لُغَةً: لَقِيَ الشَّيْءَ إذا اسْتَقْبَلَهُ، وتَقُولُ: لقَّيْتُه الشَّيْءَ إِذَا قَدَّمْتَهُ إِلَيْهِ لِيَسْتَقْبِلَهُ ويَتَلقَّاهُ مِنْكَ.

وبهٰذَا نَرَىٰ أَنَّ القِراءَتَيْنِ قَدْ تَكَامَلَتَا فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَىٰ الْمُرادِ، فَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ يُلَقَّوْنَ مِنْ قِبَلِ المَلَائِكَةِ والْحُورِ الْعِينِ والوِلْدَانِ المُخَلَّدين تَحِيَّةً وسَلَاماً، وهُمْ مِنْ قِبَلِهِمْ يَلْقَوْنَ ذَلِكَ سُعَدَاء بِه.

وجَاءَ الْجَمعُ هُنا بيْنَ التَّحِيَّةِ والسَّلَام علَىٰ سَبِيلِ الْعَطْفِ الذي يَقْتَضِي التَّغَايُرَ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُلَقَّوْنَ فِي الْغُرْفَةِ فَيَلْقَوْنَ أَمْرين: التحيَّةَ والسَّلَامَ، فَمَا الْفَرْقُ بَيْنهما؟.

جَاءَ فِي كُتُبِ اللُّغَة أَنَّ «التَّحِيَّة» تَفْعِلَةٌ مِنَ الْحَيَاةِ بِمَعْنَىٰ الْبَقَاءِ فِي

الْحَيَاةِ. وجاءَ فِيهَا أَنَّ التَّحِيَّةَ تَأْتِي بِمَعْنَىٰ الْمُلْكِ، وتَأْتِي بِمَعْنَىٰ مُطْلَقِ السَّلَامِ.

وأَمَّا السَّلامُ فَهُوَ الْبَرَاءَةُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وكُلِّ نَقْصٍ، والْعَافِيَةُ، والأَمْنُ، كالسَّلَامَةِ. واخْتَارَهُ اللَّهُ لِيَكُونَ عِبَارَةَ اللِّقَاء بَيْنَ الْمُسْلِمين، إخاءً وتَكْرِيماً وإِينَاساً وَدُعاءً بالسَّلامة والأمن.

وباسْتِطَاعَتِنَا أنْ نُدْرِكَ بَعْدَ هٰذَا أَنَّ عِبَادَ الرَّحْمٰنِ يَلْقَوْنَ فِي الْغُرْفَةِ من الفِرْدَوس عِبَارَةَ تَحِيَّةٍ فِيهَا مَعْنى الدّعَاء بالحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ، مِثْل حيَّاكَ اللَّهُ، وقَدْ يُضَافُ إِلَيْهَا مَا يَدُلُّ عَلىٰ تَسْلِيمِهِمْ مُلْكَهُمُ البَاذِخَ الكَبِيرَ فِيها، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الإِنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) فِي وَصْفِ نَعِيمِ الأَبْرَارِ فِي الْجَنَّة:

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

ويَلْقَوْنَ أيضاً عِبَارَةَ سَلَامٍ، بِمَعْنَىٰ الأَمْنِ والسَّلَامَةِ من كُلِّ مَكْرُوهٍ ونَقْصٍ فِي أَنْفُسِهِمْ وفِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، مثل: سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ.

ويُلاحَظُ مِن اسْتِقْرَاءِ وَسَبْرِ النُّصُوصِ القُرآنِيَةِ أنّ الْجَمْعَ بَيْنَ التَّحِيَّةِ والسَّلَام مِمَّا فَضَّل اللَّهُ بِه عِبادَ الرَّحْمٰنِ فِي الْجَنَّةِ، أمّا الَّذِينَ هُمْ دُونَهُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ فَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ فَقَطْ.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: أيْ: يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ فِي الْفِرْدَوْسِ من الجنَّةِ حَالَة كَوْنِهم بَاقِينَ فِيها بَقَاءً أبدِيّاً بِلَا نِهَايَةٍ.

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: أيْ: يُلَازِمُها وَصْفُ الْحُسْنِ الْعَظِيم، سَوَاءٌ أكَانَتْ مُسْتَقَرّاً لِأَهْلِهَا الَّذِينَ أُوتُوا مُلْكَهَا، أمْ مُقَاماً لزُوّارِهَا مِنْ أَهْلِ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ فِي الْجَنَّةِ.

❋ ❋ ❋

نظرة عامة
حول هذا الدرس من دروس السورة

• أولاً:

يُلاحَظ أنَّ الصِّفَات الّتِي ذَكَرَتْهَا سُورَة (الفرقان) لِعبَادِ الرَّحْمٰنِ، تَشْتَمِلَ عَلَىٰ صِفَاتٍ أَسَاسِيَّةٍ هِيَ مِنْ صِفَاتِ مَرْتَبَةِ المُتَّقِين، لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الانْتِقَالَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الأبْرَارِ، فَمَرْتَبَةِ المُحْسِنِينَ الْجَامِعَتَيْنِ لِزُمْرَةِ «عِبَادِ الرَّحْمنِ» لَا يَتَحَقَّقُ دُونَ التَّحَقُّقِ أوّلاً بالصِّفَاتِ الكُلّيَّةِ الكُبْرَىٰ الّتِي تُشْتَرَطُ لاسْتِيفَاءِ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين.

فمَا جَاء فِي غُضُونِ ذِكْرِ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ مِنْ كَوْنِهِمْ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخر، ولَا يَقْتُلُونَ النّفْس التي حَرّمَ اللَّهُ إلا بِالحَقّ، وَلَا يَزْنُونَ، ولَا يَشْهَدُونَ شَهَادَةَ الزُّورِ، كُلُّهَا وَاجِبَةٌ لاِسْتِيفَاءِ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ المُتَّقِينَ، قَبْلَ الانْتِقَالِ إلىٰ مَا فَوْقَها، وهُمَا مَرْتَبةُ الأبْرَارِ، ومَرْتَبَةُ الْمُحْسِنِينَ. لَكِنْ لمَّا كَانَتْ شُرُوطُ وَأَرْكَانُ الْمَرْتَبَةِ الدُّنْيَا شُرُوطاً وأَرْكَاناً أَيْضاً لِمَا فَوْقَها مِنْ مَرَاتِب، كَانَ لَا بُدَّ مِن ذِكْرِهَا أَوِ الْإِشارَةِ إِلَىٰ أَهَمِّهَا لِقِيَاسِ سَائِرِ الشُّرُوطِ والأَرْكَانِ عَلَيْهَا.

ويَظْهَر لي أنَّ تَخْصِيص هٰذِهِ الصِّفَاتِ الّتِي هِيَ مِنْ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، بِذِكْرِهَا ضِمْنَ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ»، مُلَاحَظٌ فيه أنَّ أَشَدَّ الفِتَنِ الّتِي يَتعَرَّضُ لَهَا عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إذ يَصِلُون فِي مُجْتَمعَاتِهِمْ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الْإِمَامَةِ، حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، ويَنْصُرُونَهُمْ، هُوَ تَوجُّهُ عُظَمَاءِ قَوْمِهِمْ لَهُمْ بِالتَّعْظِيمِ والاحْتِرَام والاسْتِدْرَاجِ، لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِمْ عَنْ طَرِيقِهِمْ، أَوْ بِالْاضطِهَادِ والمُلَاحَقَةِ وأَنْواعِ الضُّرِّ والأذىٰ، فَيَلْجَؤُونَ إِلَىٰ غَيْرِ اللَّهِ لِلنَّجَاةِ، الأمْر الّذِي قَدْ يَجُرُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ الشِّرْكِ، كَاعْتِقَادِ الْفَاعِلِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ لِلأَسْبَابِ، وقَدْ يُسْتَدْرَجُونَ لِإِصْدَارِ أَحْكَامِ الْقَتْلِ ضِدَّ خُصُومِ السُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ، فَيُصْدِرُونَ هٰذِهِ الأَحْكَامَ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ، فيكُونُونَ شُرَكَاءَ فِي الْقَتْلِ

بغَيْرِ حَقٍّ، وقَدْ يُسْتَدْرَجون بجَمِيلَاتِ النِّسَاءِ لمُسَاعَدَةِ الْحُكَّام الظَّالِمِين عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ فَيَزْنُونَ، وقَدْ يُسْتَدْرَجُونَ لِحضُورِ مَشَاهِدِ الْبَاطِلِ وَالْإِثْم، أوْ لِتَقْدِيم شَهَادَاتِ الزُّورِ، إرْضَاءً لِلْحُكَّامِ الطُّغَاةِ الْبُغاةِ، فيَفْعَلُون ذلِك.

لذَلِكَ جَاءَ التَّشْدِيدُ فِي بَيَانِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا بمُضَاعَفَةِ الْعَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ، والخُلُودِ فِيه مَع الإِهَانةِ، وجَاءَ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ الْإِهَانَةِ لَهُمْ لِأَنَّ مِنْ دُوَافِعِهِمْ لِلاسْتِجَابَةِ لمّا اسْتُدرجُوا إلَيْهِ رغْبَتُهُمْ فِي المُحَافَظَةِ عَلَىٰ كَرَامَتِهِمْ وَمكَانَتِهِمْ الاجْتِمَاعِيَّةِ الّتِي بَلغُوهَا واسْتَمْتَعُوا بِشَرَابِها.

● ثانياً:

ويُلَاحَظ أنَّهُ جَاءَ فِي غُضُونِ عَرْضِ صِفَاتِ عِبادِ الرَّحْمٰنِ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بقَوْلِهِم: رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إنّ عَذَابَها كَانَ غَراماً، وبقَوْلِهِمْ: رَبَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وذُرّيَّاتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ، وهَذِهِ دَعَوَاتٌ يَدْعُو بِهَا الْمُؤْمِنُونَ جَمِيعاً، أَهْلُ دَرجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، وأَهْلُ دَرجَاتِ مَرْتَبَةِ الأبْرَارِ، وأَهْلُ دَرجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ.

● ثالثاً:

أمَّا الصِّفَاتُ الّتِي هِيَ مِنْ صِفَاتِ الأَبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ، وتُؤَهِّلُ مَنْ يَسْتَكْمِلُ حُقُوقَ مَرْتَبَةِ المُتَّقِينَ لِلدُّخُولِ فِي زُمْرَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، فهِي:

١ ـ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هُوْناً.

٢ ـ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا: سَلَاماً.

٣ ـ وَأَنَّهُمْ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً.

٤ ـ وَأَنَّهُمْ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً.

٥ ـ وَأَنَّهُمْ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً.

٦ ـ وَأَنّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَجْعَلَهُمْ أَئِمَةً لِلْمُتَّقِين. وَيَنْدَرِجُ فِي هَذا

الدُّعَاءِ كُلُّ الصِّفَاتِ وَفَضَائِلِ الأعْمَالِ الّتِي تُلائِمُ حُقُوقَ مَرْتَبَتِي الْبِرِّ والإِحْسَانِ.

• رابعاً:

لَا يُشْتَرَطُ لِلاحْتِفَاظِ بالَمرْتَبَةِ الْعُلْيَا، أَوْ الدُّخُولِ فِي زُمْرَةِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» عَدَمُ الْوُقُوعِ مُطْلَقاً بِالْمَعَاصِي الْمُنَافِيَةِ لشُرُوطِ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، فَعَوارِضُ الْمَعَاصِي دُونَ إِصْرَارٍ، إذَا تَبِعَتْهَا التَّوْبَةُ والاسْتِغْفَارُ والْحَسَنَاتُ الْمُذْهِبَاتُ للسَّيِّئَاتِ، لَا تُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنْ مَرْتَبَةٍ إِيمَانِيَّةٍ احْتَلَّهَا بِعَمَلِهِ وصَبْرِهِ وَجِهَادِهِ، وفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وهٰذَا كَرَمٌ وفَضْلٌ مِنَ اللَّهِ، يُرَاعِي اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ بِهِ حَالَةَ الضَّعْفِ الْبَشَرِيِّ، مَهْمَا اسْتَقَامَ الإِنْسَانُ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ، واسْتَزَادَ مِنَ أَعْمَالِ البِرِّ والْإِحْسَانِ، وجَاهَدَ لِلاتِّصَافِ بِصِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ.



نظرة عامة
حول ما جاء من صفات عباد الرحمٰن في سائر القرآن

• أولاً:

كُلُّ الآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الّتِي جَاءَ فِيها نِدَاءٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَفِيهَا دَعْوَةٌ إِلَىٰ فِعْلِ خَيْرٍ مَا هُوَ مِنْ الْبِرِّ أَوِ مِنَ الإِحْسَانِ، فَهُوَ مُلْحَقٌ بِصِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، وَبِالتَّحَلِّي بِهِ يَرْتَقِي الْمُتَّقُونَ فِي دَرَجَاتِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وجَلّ.

• ثانياً:

كُلُّ الآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَىٰ بَيَانِ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ، أَوْ أَعْمَالٍ أَوْجَبهَا اللَّهُ أَوْ حرَّمَها عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، فَالالتِزَامُ بِهَا هُوَ مِنْ حُقُوقِ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، ولَا يَرْتَقِي المُؤْمِنُ إِلَىٰ زُمْرَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ

حَتَّىٰ يَتَحقَّقَ بِهَا، إِذْ كُلُّ مَا هُوَ رُكْنٌ أَوْ شَرْطٌ لِلْمَرْتَبَةِ الدُّنيا، هُوَ رُكْنٌ أَوْ شَرْطٌ لِمَا فَوْقَها مِنْ مَرَاتِبَ.

• ثالثاً:

جَاءَ بَيَانُ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمَنِ» الْمُتَغَلْغِلَةِ فِي عُمْقِ النَّفْسِ خِلَالَ نِصُوصٍ قُرْآنِيّة مُوَزَّعَةٍ فِي عَدَدٍ مِنْ سُوَرِ الْقُرْآن الكَرِيمِ، وَهِيَ مَا يَلِي:

(١) ففي سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول) جَاءَتِ الإِشَارَةُ إِلَىٰ صِفَتَيْنِ مِنْها، فِي قول الله عزَّ وجلّ:

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ... ﴿٢٩﴾﴾.

• الصفة الأولى:

هِيَ صِفَةُ الإِيمَانِ، ومِنَ الْمَعْلُومِ فِي الدِّينِ وقَوَاعِدِهِ الأُولَىٰ، أَنَّ الإِيْمَانَ شَرْطٌ أَسَاسِيٌّ للنَّجاةِ، ولَا يُمْكِنُ الارْتِقَاءُ فِي مَرْتَبَةٍ مِنَ المَرَاتِبِ الصَّاعِدَةِ الَّتِي تَرْفَعُ الإِنْسَانَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، دُونَ التَّحقُّقِ بِشَرْطِ صِحَّةِ الإِيمَانِ.

فَصِحَّةُ الإِيمَانِ وسَلَامَتُه هِيَ الْقَاعِدَةُ الأُولَىٰ، وهِي الأَسَاسُ لِكُلِّ أَبْنِيَةِ الكَمَالِ الإِنْسَانِيّ، الّذِي يُقَرِّبُ العَبْدَ إِلَىٰ رَبِّه، ويَحِقّق لَهُ السَّعَادَةَ الْعُظْمَىٰ.

وبَيَانُ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ وبَيانُ أَرْكَانِه مُوَزَّعٌ فِي كِتَابِ الله وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ، ونُصُوصُ ذَلِكَ يُمْكِنُ أَنْ تُشْرَحَ فِي مُجَلَّدَاتٍ.

وبِنَظْرَةٍ عَامَّةٍ فَاحِصَةٍ نُلَاحِظُ أَنَّ الإِيمَانَ هُوَ الْقَاعِدَةُ الأُولىٰ، أَو الأَسَاسُ الأَعْظَمُ فِي بِنَاءِ الدِّينِ، وهُوَ الأَسَاسُ الأَعْظَمُ أيضاً فِي بِنَاءِ الْفِكْر السَّوِيّ ومَفهُومات ومُعْتَقدات الْحَيِّ المُدْرِكِ السَّوِيِّ، إِذْ لَا يَسْتَقِيمُ أَمْرُ إِنْسَانٍ، ولا يَكُونُ ذَا سُلُوكٍ عَاقِلٍ مُتَّزِنٍ، ما لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ قَاعِدَةٌ إِيمَانِيَّةٌ تُوَجِّهُ سُلُوكَهُ، وتُحَدِّدُ فِي الحَيَاةِ غَايَتَه.

والإِيمَانُ فِي الإِسْلَامِ هُوَ الاعْتِرافُ الإِرَادِي بِالْحَقِّ، النَّابعُ مِنْ عُمْقِ الْفُؤَادِ، وأعْظَمُ الْحقَائِق الّتِي كَلّفَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِها تَأسيساً لِقَاعِدَةِ الدِّينِ الأُولَىٰ، هِيَ حَقِيقَةُ وُجُودِ اللَّهِ الْخَالِقِ، ووَحْدَتُهُ فِي رُبُوبِيَّتِه وإِلَهِيَّتِه، وصِفَاتِه وأَسْمَائِه الْحُسْنَى، ومِنْ ذلِكَ حِكْمَته فِي الْخَلْقِ، وأَنَّهُ خَلَقَ ذَوِي الإِرَادَاتِ الحُرَّةِ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وأَنَّهُ أَعَدَّ حَيَاةً أُخْرَىٰ لإِدَانَتِهِمْ، تَأْتِي بَعْدَ هذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وأنّه أَرْسَلَ رُسُلاً وخَتَمَهُمْ بمُحَمَّدٍ ﷺ لِيُبَلِّغُوا النَّاسَ شَرِيعةَ اللَّهِ لَهُمْ، إِلَىٰ سَائِرِ أَرْكَانِ الإِيمَانِ وتَفْصِيلَاتِها، ومَا يَتَعَلَّقَ بِهَا.

ولذَلِكَ كَانَ الإِيمَانُ هُوَ الْقَضِيَّةَ الأُولَىٰ مِنْ قَضَايَا الإِسْلَامِ.

ولَمَّا كَانَ الإِيمَانُ هُوَ الأَسَاسَ الأَوَّلَ فِي بِنَاءِ الدِّينِ، وجَدْنَا أَنَّ أَوَّلَ مَا بَدَأَتْ بِه دَعَواتُ الرُّسُلِ عليهم الصلاة والسلام، تَأْسِيسُ الإِيمانِ فِي قُلُوبِ مَنْ يَدْعُونَهُم إِلَىٰ دِينِ الله، وَوَجَدْنا سيّدَنا محمّداً رسول الله وخاتم النبيّين، قَدْ بَدأ أَوَّل مَا بَدأ بالدَّعْوَةِ إِلَىٰ تَصْحيحِ الإِيمَانِ، والاهْتِمَامِ بتَأْسِيسِه، وبَذْلِ غَايَةِ الْجَهْدِ للإِقْنَاعِ بِعَنَاصِرِه، وتَرْسِيخِ قَاعِدَتِه، وَوَجَدْنَا الْقُرآنَ الكَرِيمَ يُوَجِّه أَعْظَمَ اهْتِمَامِه لقَضَايَا الإِيمَانِ، وَوَجَدْنَا أنّ مَا نزَلَ مِنْه في مُدَّة الدَّعْوَةِ المكّيَّةِ ـ وهِيَ المُدَّة الأُولَىٰ في الدَّعْوَةِ المُحَمَّدِيَّة الإِسْلَامِيَّة ـ يُعَالِجُ بالدَّرَجَةِ الأُولَى تَأْسِيسَ قَضَايا الإِيمانِ بمُخْتَلَفِ الوَسَائلِ الإِقْنَاعيَّة، ويُوَجِّهُ اهْتِمَامَهُ الأَكْبَر لِتَصْحِيحِ عَقَائِد النَّاسِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْها.

إِنَّ المَفَاهِيمَ الاعْتِقَادِيَّةَ الإِيمَانِيَّةَ ضَرُورِيَّةٌ لتوجيهِ كُلِّ أَنْواعِ السُّلُوكِ الإِنْسَانِيّ، فمَنْ لَيْسَ لَدَيْهِ مَفْهُومٌ صَحِيحٌ ثَابتٌ عَنْ أَمْرٍ مَا مِنْ أُمُورِ حَيَاتِه، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّخِذَ تُجاهَهُ قَراراً يَطْمَئِنُّ إِلَيْه، ولَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوَجِّهَ نَحْوَه عَاطِفَةً صَادِقَةً، ولَا يَسْتَطِيعُ أن يَرْسُمَ لِنَفْسِه بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سُلُوكاً لَا تَرَدُّدَ فيه ولا اضْطِرَابَ.

إِنَّنا حِينَ نُلاحِظُ أَنْوَاعَ سُلُوكِنَا الْعَادِيّ فِي الحَيَاةِ، نَجِدُ أَنَّ إرَادَاتِنَا تَتَصَرَّفُ بتَوْجِيهٍ مِنْ مَفَاهِيمِنَا الثَّابِتَةِ فِي نُفُوسِنَا، وهذِه المَفاهِيمُ الثابِتَةُ تُمَثِّلُ فِينَا مَجْمُوعَةَ عَقَائِدِنا في الحَيَاةِ.

مِنْ هذا نُدْرِكُ أَهَمِيَّةَ مفَاهِيمِنَا الثَّابِتَة ـ وهِيَ مَجْمُوعَةُ عَقَائِدِنَا ـ فِي تَوْجِيهِ إِرَادَاتِنَا لأَنْوَاعٍ مِنَ السُّلُوكِ، نَتَصَوَّرُ أَنَّها تَجْلُبُ لَنَا مَصَالِحَ أَوْ مَنَافِعَ أَوْ لَذَّاتٍ، وَهٰذِه أُمُورٌ نُحِبُّها، أو نَتصوَّر أنَّها تَدْفَعُ عَنَّا مَفَاسِدَ أَوْ مَضَارّ أَوْ آلاماً، وهذِه أُمُورٌ نكْرَهُهَا.

والمَفَاهِيمُ متَّىٰ غَدَتْ ثابِتَةً رَاسِخةً في نُفُوسِنَا، واطْمَأَنَّتْ قُلُوبُنَا إلَيْها، وصَارَتْ عَوَاطِفُنَا تَتَأَثَّر بِهَا، كَانَتْ عَقَائدَ رَاسخَةً لدَيْنَا، وهذا الْمُسْتَوىٰ مِنْ رُسُوخِ المَفَاهِيم، مَعَ طُمَأْنِينَةِ القَلْبِ إلَيْهَا، وتَأَثُّر الْعَوَاطِفِ بِهَا، هُوَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ «الإِيمَانِ» ومُشْتَقَّاتُ هذا اللَّفْظ.

والإِيمَانُ فِي اللُّغَة هُوَ التَّصْدِيقُ، والتَّصْدِيقُ الْقَلْبِيُّ الإِرادِيُّ الّذي يَعْتَرِفُ بِه ذُو الإِرادَةِ اعْتِرافاً داخلياً صَادقاً يَتَنَامَىٰ حَتَّىٰ تَقْتَرِنَ به الطُّمَأْنِينَةُ، ومِنَ التَّصْدِيقِ الْقَلْبِيِّ والطُّمأْنِينَةِ تَتولَّدُ العاطفة السامية، وهذه العاطِفَةُ تَحَرِّكُ الإِرَادَةَ لِلسُّلُوكِ الْمُلائِمِ الْمُحَقِّقِ للمطلوب.

وفِي «الإِيمَانِ» مَعَ دَلَالَتِه علَىٰ التَّصْدِيقِ الإِرَادِيِّ مَعْنَىٰ الأَمْنِ، والأَمْنُ متَىٰ لَامَسَ الْقُلُوبَ اطْمَأَنَّتْ وسَكَنَتْ، ولَمْ يَكُنْ فيها خَوْفٌ ولَا قَلَقٌ ولا اضْطِرَابٌ تُجاهَ الجِهَةِ الّتِي شَعَرَتْ نَحْوَها بالأَمْنِ.

إذَنْ: فالإِيمَانُ هُو طُمَأْنِينَةُ القَلْبِ لمَفْهُوم صَدَّقَ بِه تَصْدِيقاً إرَادِياً، وَأَمِنَ مِنِ احْتِمَالِ الْخطأ فيهِ، وغَدَا قَادِراً علَىٰ تَحْرِيكِ العَاطِفَةِ بمُوجِبِه، وتَوجِيهِ السُّلُوكِ عَلَىٰ مُقْتَضَاه.

وهذَا الإِيمَانُ هُوَ الرُّكْنُ الأَسَاسِيُّ الّذِي بَدَأَ بِه الإِسْلَامُ فِي تَكوينِ شخصِيَّةِ المُسْلِمِ، نَظَراً إلى أنّهُ الْجَذْرُ الأَوَّلُ فِي بِنَاءِ شَخْصِيَّتِه، وأنَّهُ العُنْصُرُ الأَسَاسِيُّ المُحَرِّكُ لِعَواطِفِه والْمُوَجِّهُ لسُلُوكِه.

ومتَىٰ صَحَّتْ عَنَاصِرُ الإيمَانِ فِي إنْسَانٍ مَا اسْتَقَامَت الأَسَاسِيَّاتُ الكُبْرَىٰ لَدَيْهِ، فَسَلَكَ طَرِيقَ الْخَيْرِ والحَقِّ والرَّشَادِ، واسْتَطَاعَ التَّحَكُّمَ بأَنْوَاعِ سُلُوكِه، واسْتَطَاعَ ضَبْطَهَا فِيمَا يَدْفَعُ عَنه الضُّرَّ، والأَلَمَ والْمَفْسَدَةَ، العَاجِلَ مِنْ ذلِكَ والآجِلَ، وفِيمَا يَجْلُبُ لَهُ النَّفْعَ واللَّذَّةَ والْمَصْلَحَةَ كَذلِكَ.

وقَدْ أدْرَكَ البَاحِثُونَ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمِينَ حَدِيثاً قِيمَةَ الْعَقَائِدِ الإيمَانِيَّةِ، فِي تَوْجِيهِ سُلُوكِ الإنْسَانِ، فَبَدَؤُوا يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا تَحْتَ عُنْوَانِ: «أَيْدَيُولُوجِيَّات» وَلَكِنَّهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَصِلُوا إلَىٰ المُسْتَوىٰ الّذِي وَصَلَ إلَيْهِ الإسلامُ، إذْ هُوَ يَبْنِي فِي الْفَرْدِ الْمُسْلِمِ إيمَاناً لَا يُضَارِعُه وَلَا يُشَابِهُهُ أيُّ عُنْصُرٍ اعْتِقَادِيٍّ يُحَاوِلُونَ غَرْسَهُ فِي نَفْسِ الْفَرْدِ مِنْ أَفْرَادِهِمْ، أو التَّابِعِ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ.

إنّ الدَّعْوَةَ إلَىٰ الإيمَانِ، وجَعْلَها هِيَ الْقَضِيَّةَ الأُولَىٰ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ، هُوَ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ بِنَاءِ الدِّينِ، وهِيَ طَبِيعَةُ كُلِّ دَعْوَةٍ تَسْتَدْعِي سُلُوكاً إرادِيًّا واعِياً.

إنّها فِكْرَةٌ مُدَعَّمَةٌ بالدَّلِيلِ الْحَقِّ، فَعَقِيدَةٌ إِرَادِيَّةٌ اخْتِيارِيَّةٌ، فَعَاطِفَةٌ، فإِرَادَةٌ سُلُوكِيَّةٌ، فَسُلُوكٌ.

أمَّا السُّلُوكُ مِنْ غَيْرِ إرَادَةٍ فَهُو إكْرَاهٌ، ولَا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ، وأمَّا الإرَادَةُ مِنْ غَيْرِ عَاطِفَةٍ مُلَائِمَةٍ فَهِيَ إرَادَةٌ بَارِدَةٌ لَا حَرَارَةَ فِيهَا ولَا قُوَّة، وأمَّا الْعَاطِفَةُ مِنْ غَيْرِ عَقِيدَةٍ فَهِيَ عَاطِفَةٌ انْفِعَالِيَّة هَوائِيَّة، سَرِيعَةُ التَّغَيُّرِ، سَهْلَةُ التقَلُّبِ، وأمّا الْعَقِيدَةُ الإرَادِيَّةُ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ مُدَعَّمَةٍ بالدَّلِيلِ الْحَقِّ فَهِيَ عَقِيدَةٌ خُرَافِيَّةٌ لَا قِيمَةَ لَهَا، ولَا وَزْنَ لَها.

مِنْ أَجْلِ كُلِّ ذَلِكَ كانَ الإيمانُ في البِنَاءِ الإسْلامِيِّ الصَّحِيحِ إنَّمَا يَتِمُّ بَعْدَ أَنْ تَبْلُغَ الْفِكْرَةُ مُستَوىٰ الْجزْمِ، بِالدَّلِيلِ الّذِي يَرْتَضِيهِ الفِكْرُ السَّلِيمُ، والمَنْطِقُ الصَّحِيحُ.

و«عِبَادُ الرَّحْمٰنِ» يَبْدَؤُونَ مَسِيرَتَهُمْ بالإيمانِ بالحَقِّ الّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم، عَلَىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ المُصْطَفَىٰ الْمُخْتَارِ، الّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

● الصفة الثانية:

هِيَ صِفَةُ التَّوكُّل الصَّادِقِ عَلَىٰ الرَّحْمٰنِ، وصِدْقُ التَّوكُّل لَا يَتَحقَّقُ إلّا إذَا كَانَتْ نِسْبَةُ الإيمَانِ باللَّهِ نِسْبَةً عَظِيمةً كَبِيرَةً، مُهَيمِنَةً عَلَىٰ التَّصَوُّرِ، مُسَكِّنَةً قلَقَ النَّفْسِ تُجاهَ مَطالِبِها.

وصِدْقُ التَّوَكُّلِ علَىٰ اللَّهِ وَظِيفَةٌ قَلْبِيَّةٌ وَنفْسيَّةٌ، وهِيَ فِي داخِلِ القَلْبِ وسَائِرِ جَوَانِبِ النَّفْسِ منْ ثَمراتِ الإيمَانِ الصَّحيحِ الصَّادِقِ.

أمَّا الأَعْمَالُ والإِعْدَادُ لَها، والتَّخطِيطُ لَهَا، فَنِظَامُهَا سَبَبِيٌّ، والْوَاجِبُ الدِّينِيُّ بالنِّسْبَةِ إليها هُوَ الأَخْذُ بِكَامِلِ الأَسْبَابِ، دُونَ التَّفرِيطِ بأيِّ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِهَا، أوْ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِها، أَوْ شَرْطٍ مِنْ شُرُوطِهَا.

فالتَّفرِيطُ فِي الأَسْبَابِ مِنَ الْعِصْيَانِ لأَمْرِ اللَّهِ بِوُجوبِ اتِّخَاذِها، وهُوَ يُفْضِي إلَىٰ الحِرْمَانِ مِنْ تَحْقِيقِ الْمَطَالِبِ، الّتِي جَعَلَ اللَّهُ فِي سُنَنِهِ التَّكْوِينِيَّةِ تَحْقِيقَها بِهَا، سَواءٌ أَكَانَتْ مَطَالِبَ دُنْيوِيّة، أمْ مَطَالِبَ أُخْرَوِيةً.

واعْتِمَادُ الْقَلْبِ وسَائِرِ جَوَانِبِ النَّفْسِ عَلَىٰ الأسْبَابِ، والثِّقَةُ بأَنَّها هِيَ الْمُؤَثِّرَةُ، مِمَّا يُخِلُّ بِصِحَّةِ الإيمَانِ وسَلامَتِه، وهُوَ فِي الحَقِيقَةِ شِرْكٌ باللَّهِ، وهُوَ مِنْ قَبِيلِ جَعْلِ الأسْبَابِ شَرِيكَةً للَّهِ عَزَّ وجلَ في رُبُوبِيَّتِهِ، مَعَ أَنَّ الله هُوَ خالِقُ الأَسْبَابِ، وهُوَ المُسَخِّر لَهَا، وهُوَ الَّذِي قَضَىٰ وقَدَّرَ أَنْ تكُونَ أسْبَاباً، لا يَسْتَطِيعُ المَخْلُوقُ الْمُرِيدُ إلّا أنْ يَتَقَيَّدَ بها في أَعْمَالِه وحَرَكَاتِه الإرَادِيَّة، مَعَ أنَّ آثارَهَا لَا تَتَحقَّقُ إلّا بِخَلْقِ اللَّهِ وَإرادَتِه، إذْناً وتَمْكِيناً بَعْدَ التَّسْخِير، أَوْ خَلْقاً مُبَاشِراً مِنْ خِلالَ مَظَاهِرِ القَنواتِ السَّبَبِيَّة.

وَلِمَعْرِفَةِ أنّ التَّوَكُّلَ عَلَىٰ اللَّهِ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ الإيمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، وأنَّهُ وَظِيفَةٌ مِنْ وَظَائِفِ الْقَلْبِ وسَائِرِ جَوانبِ النَّفْسِ، لدَىٰ مُمَارَسَةِ الأعْمَال طَاعةً لِلَّهِ عزَّ وجلّ، لَا بُدَّ أَنْ نُحْضِرَ فِي تَصَوُّرِنا أنّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ حَكِيمٌ قَدِيرٌ خَلَّاقٌ، بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وهُوَ الْمُهَيْمِنُ علَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، ولَهُ الْخَلْقُ والأَمْرُ، وهُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ، وهُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الحَيَاةُ والْمَوْتُ، والنَّفْعُ والضُّرُّ، والتَّوْفِيقُ والنَّصْرُ، وكُلُّ مَا يَجْرِي في الكَوْنِ إنّما يَجرِي بأمْرِه أَوْ بإذْنِه وَتَمْكِينِه، إنَّهُ سُبْحَانَهُ إذا شَاءَ وَهَبَ، وإذَا شَاءَ حَجَبَ، وإذَا شَاءَ أَذِنَ لِلأَسْبَابِ فأَثَّرَتْ آثَارَهَا، أَوْ أَلْغَاهَا، أَوْ قَطَعَهَا، أَوْ سَلَبَ تَأْثِيرَاتِها، فَلَمْ تُغْنِ شَيْئاً، وهُوَ الَّذِي إذا شَاءَ صَرَفَ الْمَوَانِعَ أَوْ أَقَامَهَا، حُكْمُهُ هُو النَّافِذُ، فَلَا مُعَقِّبَ لِحُكمِه، وقَضَاؤُه هُو الْمُنَجَّزُ فَلَا مُعَدِّلَ لِقَضَائِه.

كلُّ هذا هُوَ منْ عَناصِر القاعِدَةِ الإيمَانِيَّةِ، وهذِهِ العَنَاصِرُ مَتَىٰ كَانَتْ حَاضِرَةً في تَصَوُّرِ المُؤْمِنِ، جَعَلَتْهُ يُعَلِّقُ قَلْبَهُ وسَائِرَ جَوَانِبِ نَفْسِهِ باللَّهِ، فَيَطْلُبُ كُلَّ مَطَالِبِ حَيَاتِه مِنْه، وهُوَ يُبَاشِر أَعْمَالَهُ، ويَتَّخِذُ الأَسْبَابَ لِتَحْقِيقِهَا، ويَتوكَّلُ بِقَلْبِه عَلَيْهِ سُبْحَانَه، ويَدْعُوهُ أنْ يُحَقِّق لَه الخَيْر، لأنَّه يُؤْمِنُ إيمَاناً جَازِماً رَاسِخاً بأنَّ الله عزَّ وجلّ إذَا قَضَىٰ أَمْراً أَوْ أَذِنَ بِهِ يسَّرَ أَسْبَابَهُ، ودَفَعَ عَنْهُ الْمَوَانِعَ، وحقَّقَ النَّتَائِجَ الْمرجُوَّة، وإذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ في الأَمْرِ قَضَاءٌ أَوْ إِذْنٌ، لَمْ يُيَسِّرْ أَسْبَابَه، ولَمْ يَدْفَعْ المَوَانِعَ، ولَمْ يُحَقِّقِ النَّتائِجَ الّتِي يَرْجُوهَا الْعَامِلُونَ مِنْ عِبَادِه.

فالتَّوَكُّل عَلَى اللَّهِ سُلُوكٌ دَاخِلِيٌّ مِنْ عُمْقِ النَّفْسِ فَحَواشِيهَا، يَقْتَضِيهِ الإيمَانُ الصَّحِيحُ السَّلِيمُ، الْمَاثِلُ فِي سَاحَةِ التَّصَوُّرِ الْمُوَجِّهِ للسُّلُوكِ.

والتَّوكُّلُ علَىٰ اللَّهِ وظَيِفَةٌ مِنْ وَظَائِفِ الْقَلْبِ وسَائِرِ جَوَانِبِ النَّفْسِ لَدَىٰ الْمُؤْمِنِ، ومِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَشْحَنَ قُوَىٰ العَمَلِ بالثَّبَاتِ والصَّبْرِ والثِّقَةِ،

ويَدْفَعُ إلَى طَاعَةِ اللَّهِ باتِّخَاذِ الأسْبَابِ الّتي أَمَر تَبارَكَ وتَعَالَىٰ باتِّخاذِها، والقِيامِ بالْعَمَلِ الّذي رَبَط بِه مَطَالِبَ العِبَادِ فِي حَيَاتِهِمْ، وأَمَرَهُمْ بِهِ، سَواءً أكَانَتْ هذِه المطالِبُ مِنْ مَطَالِب الآخِرَةِ، أمْ مِنْ مَطَالِبِ الدُّنْيَا.

ولَيْسَ التَّوكُّلُ عَلَىٰ اللَّهِ وَظِيفَةً مِنْ وَظَائِفِ الْعَمَل الْجَسَدِيِّ أَوِ التَّدْبِيرِيِّ أو التَّخْطِيطِيِّ، حَتّىٰ يَكُونَ مُثَبِّطاً عَنِ الْعَمَلِ، أَوْ دَاعِياً إِلَىٰ التَّهَاوُنِ بِمُبَاشَرَةِ الأَسْبَابِ، والإِخْلَادِ إلى الرّاحَةِ، وتَرْكِ الأَمْرِ تَرْكاً كُلِّياً، اعْتِمَاداً عَلَىٰ المَقَادِيرِ الربَّانِيَّة، فَمِنَ المَقَادِيرِ الرّبّانِيَّةِ مَا هُوَ مَنُوطٌ بِأعْمَالِ العِبَادِ، فإذا عَمِلُوا مَا يَجِبُ أنْ يَعْمَلُوهُ لِمَا يَرْجُونَه، تحقَّقَتْ لَهُم ثَمَراتُ أَعْمَالِهِم، وإذَا تَرَكُوا الْعَمَلَ الوَاجِبَ الّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوهُ، تَحَقَّقَتْ لهُمُ بالمَقَادِيرِ الرّبّانِيّة نَتائِجَ كَسَلِهِمْ وتَهَاوُنِهِمْ خَيْبَةً وفَشَلاً ونَدَماً، وإنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ توكَّلُوا علَىٰ اللَّهِ.

فَلَا يَلُومَنَّ تَارِكُ العَمَلِ السَّبَبِيِّ الْوَاجِبِ إلَّا نَفْسَه، ولَا يَتّهِمَنَّ المَقَادِيرَ بأَنَّهَا لم تُعْطِهِ ما تَمَنَّىٰ، بعْدَ أَنْ لَمْ يُقَدِّمْ لتَحْقيق رغائِبِهِ ومَطَالِبِهِ مَا جَعَلَتْه المَقَادِيرُ الرَّبَّانِيَّة سَبَباً لها، فِي سُنَنِ اللَّهِ التَّكْوِينِيَّةِ.

وَفِي بَيَانِ ارْتِبَاطِ التَّوَكُّلِ علَىٰ اللَّهِ بالإِيمانِ، وبَيَانِ أَنَّهُ ثَمرَةٌ من ثَمَرَاتِه فِي السُّلُوكِ الدَّاخِلِيِّ مِنْ عُمْقِ الْقَلْبِ حتّىٰ سَائِرِ دَوَائِرِ النَّفْسِ، قالَ الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

أي: مَا الْمُؤْمِنُون كَامِلُو الإِيْمَانِ حقًّا إلَّا الّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، أي: خَافَتْ مِنْ عِقَابِه، لأنّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِعَدْلِه، وبِكَمَالِ قُدْرَتِه، ومُؤْمِنُونَ بِعَظَمَتِه وجَلَالِه، وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُه زَادَتْهُمْ إيماناً، لأَنَّها تَزِيدُهُمْ عِلْماً ومَعْرِفَةً بِحِكْمَتِه وَعِلْمِه، وإعْجَازِ قُرْآنِه المُنَزَّلِ، فَيَزِيدُهُمْ ذلك

إيماناً بِصِدْقِ وصِحَّةِ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِه علَىٰ لِسَانِ رَسُولِه، وإيمَاناً بِصِدْقِ رَسُولِه فِيمَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّه، وبأَنَّهُ الأَمِينُ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، وصِفَتُهُمْ الدَّائِمَة المتجدِّدَة الْحَرَكَة مَعَ كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ، أَنَّهُمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وحْدَه يَتوكّلُونَ في كُلِّ أُمُورِهِمْ، ولَا يَتوكّلُونَ عَلَىٰ غَيْرِهِ مُطْلقاً.

ولمّا كَانَ التَّوكُّلُ علَىٰ اللَّهِ مِنْ لوَازِم الإِيمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِق، وتَعْبِيراً دَاخِلِيًّا يَتَحرَّكُ مِنْ عُمْقِ الْقَلْبِ حَتَّى سَائرِ دَوائِرِ النَّفْسِ عَنْ صِحَّةِ اليَقِينِ بأَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، أَمَرَ اللَّهُ الـمُؤْمِنِينَ بأَنْ يَتوكّلُوا عَلَيْهِ وحْدَهُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وجلّ في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/١٠٨ نزول):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

وقال عزَّ وجلّ في سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول):

﴿. . . وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

(٢) وفِي سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) وفي سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) جاءت الإِشَارةُ إِلَىٰ صِفَةٍ ثَالِثَةٍ مِنْ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» الـمُتَغَلْغِلَةِ فِي عُمْقِ النَّفْسِ، وهِي: خَشْيَةُ الرَّحْمٰنِ بِالْغَيْبِ، وهذِه الصِّفَة ثَمَرَةٌ مِنْ ثمَراتِ الإِيمانِ فِي حَرَكَةِ النَّفْسِ ومَشَاعِرِ الْقَلْب.

فمَنْ صَحَّ إيمانُهُ بالله الرَّحْمٰن، وكَان إيمَانُه هذا مُهَيْمِناً علَىٰ تَصَوُّرِه مَعَ حَرَكَاتِ خَوَاطِرِه، خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بالْغَيْبِ، أي: خَشِيَهُ مَعَ أَنَّه غَيْبٌ عَنْ حَوَاسِّه، لكِنَّ حُضُورَه الذِّهْنِيّ والتصَوُّرِيَّ مَعَ الرَّحْمنِ الّذِي يَجْعلُه يُدْرِكُ مَعَ صِفَةِ رَحْمَتِه صِفَةَ عَدْلِه وقُدْرَتِه، لَا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَهُ فِي حَالَةِ خَشْيَةٍ مِنَ اللَّهِ، لأَنَّه قَدْ بَلَغَ مَبْلغاً قَرِيباً مِنَ الشُّهُودِ، لِشِدَّةِ يَقِينِه بمَا آمَن بِهِ، فَهُو يَعْبُدُ الله كَأَنَّه يَرَاهُ، فَيَسْعَىٰ فِي طَاعَتِهِ طَلَباً لِرِضْوَانِه، ويَجْتَنِبُ مَعْصِيَتَه حَذَراً مِنْ عِقَابِه.

والخَشْيَةُ فِي مُسْتَواهَا الأَعْلَىٰ شُعُورٌ نَفْسِيٌّ بالإِجْلَالِ، فِيهِ مَزِيجٌ مِنَ

الطَّمَعِ بفَيْضِ الْعَطَاءِ، والخَوْفِ مِنَ الْجَزَاءِ بالْعَدْلِ علَىٰ التَّفْرِيطِ فِي جَنْبِ اللَّهِ فِي سَاحَةِ الابْتِلَاءِ.

ومِنْ لَوازِمِ هذه الخَشْيَةِ الإِنَابَةُ إِلَىٰ اللَّهِ، والرُّجُوعُ إِلَيْهِ كُلَّما بَدَرَتْ مِنْ صَاحِبِ الخَشْيَةِ مَعْصِيَةٌ أو مُخالَفَةٌ يَخَافُ عِقَابَها، فَهُو يُنِيبُ رَاجِعاً إِلَىٰ ظِلِّ اسْمِ اللَّهِ «الرَّحْمٰنِ» لِيَغْفِرَ لَهُ، ويُكَفِّرَ عَنْهُ خَطِيئَتَهُ، ومِنْ ثَمَراتِها فِي السُّلوكِ الدَّائِم أَنْ يَكُونَ صَاحِبُها حَفِيظاً شَدِيدَ الْمُحَافَظَةِ علَىٰ فِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ، شَدِيدَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى عَهْدِه مَعَ اللَّهِ الّذِي عَاهَدَهُ يَوْمَ أَسْلَمَ.

● أمّا النَّصُّ الَّذِي في سُورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) فهو قول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أُزْلِفَتْ﴾: أي: قُرِّبَتْ.

﴿أَوَّابٍ﴾: الأوّاب هو الرّجاع إلى الله بالتوبة والندم.

﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: أي: بقلب راجع إلى ربّه كلّما صرفته عن ساحة القرب منه عوارض الغفلات، وغشاواتُ الزّلات، والتقصير في الطاعات والعبادات؛ وكانَ أخِرُ أَمْرِهِ الرُّجُوعَ إلى اللَّهِ بالتوبة والنّدم والطّاعة، ومَات علَىٰ ذَلِكَ.

دلّ هذا النصّ علىٰ مشْهَدٍ من مَشَاهِدِ يوْمِ القِيَامَةِ، فَقَبْلَ أنْ يَصْدُرَ الأَمْرُ بإِدْخَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ الجَنّةَ، وإدْخَالِ أَهْلِ النَّارِ النّارَ، يَسُرُّ اللَّهُ عَزَّ وجَلّ الْمُتَّقِينَ، فيُقَرِّبُ لهُم الجنّة تَقْرِيباً إلى مَكَانٍ غَيْرِ بَعِيدٍ عَنْهُم، حتَّىٰ يتَمَكّنُوا مِنْ رُؤْيَتِها، ومُشَاهَدَةِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ فِيهَا مِنْ نَعِيم لَهُمْ، وفي هذا التَّقْرِيبِ بِشَارةٌ لهُم ومَسَرَّةٌ، وتَشْوِيقٌ لدُخُولِها، وطُمَأْنِينَةُ قَلْبٍ بأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِها.

وبَعْدَ هذَا الإِزْلَافِ يُقالُ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مِنَ المتَّقِين: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾.

جَاءَ التَّعْبِيرُ بصِيغَةِ الفِعْلِ المُضَارِع، لأَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا الجَنَّةَ بَعْدُ، فهم ما زَالُوا يُوعَدُون، إلّا أَنَّهُمْ يُشَاهِدُون حينئذٍ بأبْصَارهم ما كانوا يُوعَدُونَ مِنْ قَبْلُ، ومَا زَالُوا يُوعَدُونَه.

ويَظْهَرُ أنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ بكَلِمَةِ (هذا) قِسْمٌ خَاصٌّ مِنَ الجنَّة، مُعَدٌّ لكُلِّ أوّابٍ حَفِيظٍ مِنْ عُمُوم الْمُتَّقِين ذَوِي الدَّرَجاتِ المُخْتَلِفَاتِ، لِذلِكَ جَاءَ في النَّصّ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: هذا ما توعَدُونَ بِه جَمِيعاً وَعْداً مَشْرُوطاً بِأَنَّ مُسْتَحِقَّه لَا بدَّ أنْ يَكُونَ في أَدْنَىٰ الدَّرَجاتِ أَوَّاباً حَفِيظاً.

الأوّابُ من المُتقين: هو كَثِيرُ الرُّجُوعِ إِلىٰ رَبِّه لَدَىٰ كُلِّ بَادِرَةِ مَعْصِيَةٍ تَكُونُ مِنْهُ، وكذَلِكَ سَرِيعُ الرُّجُوعِ إِلَىٰ رَبِّه بالتَّوْبَةِ والنَّدَمِ والاسْتِغْفَارِ، وكَثِيرُ الرُّجُوعِ إِلَىٰ مَوَاطِنِ الْقُرْبِ مِنْ رَبِّه كلّما ابتعَدَ بمَشَاغِلِ الدُّنْيَا ولَوْ مِنْ دُونِ مَعْصِيَةٍ، فَصِيغَةُ الْمُبَالَغَة والتكْثِيرِ فِي كَلِمَة «أَوَّاب» يُمْكِنُ حَمْلُهَا عَلَىٰ كُلِّ ذَلِكَ.

أَمَّا الْحَفِيظُ: فَهُوَ كَثِيرُ الْمُرَاقَبَةِ لأَعْمَالِه، وَأَوَامِرِ اللَّهِ ونَوَاهِيهِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَا، وكَثِيرُ الحِمَايَةِ لِنَفْسِه مِنْ مَزَالِقِ الْمَعَاصِي والآثَامِ والْمُخَالَفَاتِ، وكَثِيرُ الْعِنَايَةِ بتَغْذِيَةِ قَلْبِه وفِكْرِهِ ونَفْسِه ورُوحِهِ بِمَا يُنَمِّي فِيهَا الارْتِقَاءَ فِي مَعَارِجِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، والسَّعَادَةِ بِعِبَادَتِه ومُنَاجَاتِه وتَدَبُّر آياتِه، وكُلُّ هذِه الْمَعَانِي تَدْخُلُ فِي عُمُوم دَلَالَةِ كَلِمَةِ الْحِفْظ.

فالحَفِيظُ عَلَىٰ مَالِه يُراقِبُه خَوْفَ الْعَوَارِضِ والمَكَارِهِ فِيه، ويَحْمِيهِ، ويَعْتَنِي بِه بالتَّنْمِيَةِ، حَتَّىٰ لَا تُفْنِيَهُ آكِلَاتُ الزَّمَانِ.

والأوابُ الْحَفِيظُ هُوَ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بالْغَيْبِ، إِذْ خَشْيَتُهُ نَابِعَةٌ مِنْ

شُهُودِه فِي عُمْقِ فُؤَادِه مَعْنَىٰ اسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ، واسْتَمَرّ حَالُهُ علَىٰ ذَلِكَ حتَّىٰ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَجَاءَ إِلَىٰ رَبِّه بِقَلْبٍ مُنِيبٍ، أيْ: بِقَلْبٍ راجِعٍ إلى رَبِّه، تَائِبٍ ومُسْتَغْفِرٍ مِنْ ذَنْبِه، عَامِلٍ بِمَا أَمَرَهُ الله به، مُجْتَنِبٍ مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ.

• وأمّا النصّ الذي في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) فهو قول الله عزَّ وجلّ فيها خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

أي: إنّما يَنْفَعُ إنْذَارُكَ حِينَما تُنْذِرُ مَنْ أَصْغَىٰ للذِّكْرِ وهُوَ الْقُرْآنُ، واتَّبَعَ دَلَالَاتِه لِيَتَدبَّرَها ويَنْتَفِعَ بها، وخَشِيَ الرحْمٰنَ بالْغَيْبِ.

وقَدْ ظَهر لَنَا أنَّ خَشْيَةَ الرَّحْمٰنِ بالْغَيْبِ هِيَ ثَمَرَةُ الإِيمانِ الصَّحِيحِ الصَّادِق، المَاثِلِ فِي تَصَوُّراتِ الْمُؤْمِنِ الحَاضِرَةِ الْمُتَحَرِّكَةِ الْفَاعِلَةِ.

ومَنْ كَانَ كَذَلِكَ حَقَّتْ لَهُ البِشَارَةُ بمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وأجْرٍ كريمٍ، الأَجْرُ الكَرِيمُ هُوَ الأجْرُ الْعَظِيمُ الجَزِيلُ الْمَقْرُونُ بالتَّكْرِيمِ.

وهكَذا ظَهَرَ لَنا أنَّ مِنْ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» الْمُتَغَلْغِلَةِ فِي عُمْقِ النَّفْسِ ما يَلِي:

الصفة الأولى: الإِيمانُ الصَّحِيح الصَّادِقُ الْمُسْتَوْفِي كُلَّ عَنَاصِرِه.

الصفة الثانية: التَّوكُّلُ الصَّادِقُ علَىٰ الرَّحْمٰن مَعَ اتِّخَاذِ كَامِلِ الأَسْبَابِ.

الصفة الثالثة: خَشْيَةُ الرَّحْمٰنِ بالْغَيْبِ.

وبهذا نَخْتِمَ التدبُّرَ التَّحْليليَّ لِمَا جاءَ بِشَأْنِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ فِي الْقُرْآنِ.

❋ ❋ ❋

إجمال صفات عباد الرحمن
في سورة (الفرقان) وغيرها

(١) كُلُّ مَا هُو مَطْلُوبٌ مِنَ المتَّقِينَ بإلْزامٍ فِعْلاً أَوْ تَرْكاً فَهُو مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ.

(٢) مِنْ أَهَمِّ صِفَاتِ عِبادِ الرَّحْمٰنِ الْمُتَغلْغِلَةِ في عُمْقِ النَّفْسِ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ التاليات:

أ ـ الإِيمَانُ الصَّحِيحُ الصَّادِقُ الْمُسْتَوْفِي كُلَّ عَناصِرِهِ.

ب ـ التَّوكُّل الصَّادِقُ عَلَىٰ الرَّحْمٰنِ مَعَ اتِّخَاذِ كَامِلِ الأَسْبَابِ.

ج ـ خَشْيَةُ الرَّحْمٰنِ بِالْغَيْبِ.

(٣) صِفَاتُ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ الْمُفَصَّلَةُ فِي سُورَةِ (الفرقان) هِيَ اثْنَتَا عَشْرَةَ صِفَة:

الصفة الأولى: أَنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هَوْناً، بِخِفَّةٍ وَرِفْقٍ وسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ، غَيْرَ بَطِرينَ ولَا مُسْتَكْبِرِينَ ولَا مُتَبَخْتِرِينَ، وَلَا يَكِدُّونَ لِمَطَالِبِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِسَعْيٍ يَسْتَهْلِكُ كُلَّ طَاقَاتِهِمْ وأَوْقَاتِهِمْ.

الصفةُ الثانيةُ: أَنَّهُمْ إذا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ بجَهَالَةٍ وسَفَهٍ مُسْتَثِيرينَ غَضَبَهُمْ قَالُوا: سَلاماً، وفَارَقُوا بإعْلَانِ الأَمْنِ مَجَالِسَ الْجَاهِلِينَ.

الصفةُ الثَّالِثَة: أَنَّهُمْ قَوَّامُونَ فِي لَيَالِيهِمْ، يَتَهَجَّدُونَ لِلَّهِ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لَهُ وَحْدَهُ، ذَاكِرِينَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وقُلُوبِهِمْ، وأَفْكَارِهِمْ، يُمَجِّدُونَه، ويَحْمَدُونَه، ويُسَبِّحُونَ بِحَمْدِهِ، ويُقَدِّسُونَ لَهُ، ويَسْأَلُونَه خَوْفاً وطَمْعاً، يَخْشُونَ عَذَابَهُ، ويَرْجُونَ ثَوَابَهُ.

الصفةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُمْ يُكَرِّرُونَ فِي دُعَائِهِمْ لِرَبِّهِمْ قَوْلَهُم: رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، مُتَضَرِّعِينَ إِلَىٰ اللَّهِ، مُسْتَعْطِفِينَه بِبَيَانِ أَنَّ عَذَابَ جَهَنَّم هُوَ

أَشَدُّ الْعَذَابِ، وهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ تَحَمُّلَه، سَوَاءٌ أَكَانَتْ مُسْتَقَرًّا دَائِماً، أمْ مُقَاماً مُؤَقّتاً، ويَتَضَمَّنُ الدُّعَاءُ طَلَبَ إعانَتِهِمْ عَلَى حُسْنِ عِبادَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ، وتَوْفِيقِهِمْ لِلتَّحَقُّقِ بِمَا يَصْرِفُ عَنْهُمْ كُلَّ عَذَابِ جَهَنَّمَ.

الصفةُ الخامسَةُ: أَنَّهُمْ اقْتِصَادِيُّونَ أَهْلُ عَقْلٍ وبَصِيرَةٍ فِي تَصَرُّفَاتِهِمْ الْمَالِيَّةِ، إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُروا، بَلْ يَكُونُ إنْفَاقُهُم إنْفَاقاً مُعْتَدِلاً قَوَاماً بَيْنَ الإِسْرَافِ والتَّضْيِيقِ.

الصفةُ السّادسةُ: أَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَـهاً آخَرَ، مَهْمَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِمُ الضُّغُوطُ أَوِ الإغْرَاءَاتُ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ والْجَاهِ، بِسَبَبِ مَكَانَاتِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ الّتِي يَبْلُغُونَها، والْتِفَافِ جَمَاهِيرِ النَّاسِ حَوْلَهُمْ (ورُبَمَا سَقَطَ بهذَا سَاقِطُونَ كَانُوا مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ).

الصفةُ السابعةُ: أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلّا بِالْحَقّ، ولا يُفْتُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، مَهْمَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِمُ الضُّغُوط أَوِ الإِغْرَاءَاتُ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ والْجَاهِ، لِتَحْرِيضِهِمْ علَىٰ إصْدَارِ فَتَاوَىٰ أَوْ أحْكَام الْقَتْلِ بغَيْرِ حَقٍّ، باعْتِبَارِهِمْ أَئِمَّةً لِلْمُتَّقِينَ، ومَرْجِعاً لإِصْدَارِ الْفَتَاوَىٰ والأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ (ورُبمَا سَقَطَ بهذَا سَاقِطُونَ كَانُوا مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ).

الصفةُ الثامنةُ: أَنَّهُمْ لَا يَزْنُونَ، مَهْمَا تَيَسَّرَتْ لَهُمُ الْوَسَائِلُ بالنَظَرِ إلَىٰ مَكَانَتِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّة الْرفيعَةِ، أَوْ مَنَاصِبِهِمْ فِي الْقَضَاءِ، أَوِ الْفَتْوَىٰ، الَّتِي تُغْرِي الْمُجْرِمِينَ بمُحَاوَلَاتِ رِشْوَتِهِمْ واسْتِدْرَاجِهِمْ لِلْحُكْمِ بِالْبَاطِلِ عَنْ طَرِيقِ اسْتِرْضَاءِ شَهَوَاتِهِمْ (ورُبمَا سَقَطَ بهذَا سَاقِطُونَ كَانُوا مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ).

الصفة التاسِعَةُ: أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (أي: الْبَاطِلَ والْكَذِبَ) فَلَا يَحْضُرُونَ مَجَالِسَ الزُّورِ، لِمَا فِي حُضُورِهَا مِنْ مُشَارَكَةٍ فِي الإِثْمِ، ولَا يَشْهَدُونَ شِهَادَاتٍ كَاذِبَاتٍ تُغَيِّرُ وَجْهَ الْحَقِّ.

وعبادُ الرَّحْمٰنِ يَتعرَّضُونَ لِضُغُوطٍ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ أَوْ الْجَاهِ أَو

الْمَصَالِحِ بالنَّظَرِ إِلَىٰ مَكَانَتِهِمُ الاجْتِماعِيَّةِ، لاسْتِدْرَاجِهِمْ إِلَىٰ حُضُورِ مَجَالِسِ الْبَاطِلِ والإِثْمِ، أَوْ لِتَقْدِيمِ شَهَادَاتِهِمُ الكَاذِبَاتِ، الَّتِي يُغَطِّي بِهَا الْمُجْرِمُونَ بَاطِلَهُمْ وجَرَائِمُهُمْ (ورُبمَا سَقَطَ بهذَا سَاقِطُونَ كَانُوا مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ).

الصفة العاشِرَةُ: أَنَّهُمْ حَرِيصُونَ جِدًّا عَلَىٰ أَوْقَاتِهِمْ أَنْ تَضِيعَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِدُنْيَاهُمْ أَوْ آخِرَتِهِمْ، فَلَا يَشْتَغِلُونَ باللَّغْوِ واللَّهْوِ وسَفَاسِفِ الأُمُورِ، فَإِذَا مَرُوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً عَابِرِينَ غَيْرَ مَاكِثِينَ، فَشَارَكُوا بالْقَلِيلِ الْيَسِيرِ مِنْهُ، وانْصَرَفُوا بسُرْعَةٍ، وهذا مِنْ كَمَالِ عَقْلِهْم وحُسْنِ بَصِيرَتِهِم، وحِرْصِهِمْ علَىٰ مَا يَنْفَعُهُمْ، واقْتِصَادِهِمْ فِي أَوْقَاتِهِم الّتِي هِي رأْسُ مَالِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

الصفة الحادية عشرة: أَنَّهُمْ إِذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ خَضَعُوا لَهَا إيمَاناً بِهَا، وخَرُّوا لِرَبِّهْم سُجَّداً ذَاكِرِينَ اللَّهَ، مَعَ حُضُورٍ قَلْبِيٍّ وفِكْرِيٍّ ونَفْسِيّ.

ولَا يَكُونُ مِنهُمْ خُضُوعٌ شَكْلِيٌّ جَسَدِيٌّ فَقَطْ، خَالٍ مِنَ الْخُضُوعِ الْقَلْبِيّ والنَّفْسِيّ، وخَالٍ مِنَ الحُضُورِ الْفِكْرِيّ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُرَاءُونَ والمُنَافِقُونَ.

فَهُمْ إِذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وعُمْيَاناً، وإنَّما يَخِرُّونَ عَلَيْها سَمِعِينَ ومُبْصِرِينَ، ومُسَبِّحِينَ بحَمْدِ رَبِّهِمْ لَا يَسْتَكْبِرُون.

الصفة الثانيةَ عَشْرَةَ: أَنّهُمْ حَرِيصُونَ عَلَىٰ اخْتِيَارِ الزَّوْجَاتِ الصَّالِحَاتِ، اللَّائِي يَكُنَّ مُسَاعِدَاتٍ لَهُمْ عَلَىٰ مُهِمَّاتِهِمْ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، والْقِيَام بإمَامَةِ الْمُتَّقِينَ حَقًّا.

وأَنَّهُمْ حَرِيصُونَ عَلَىٰ تَرْبِيَةِ ذُرِّيَّةٍ صَالِحَةٍ يُقَدِّمُونَها لِمُجْتَمَعَاتِهِمْ أَمْثِلَةً فَاضِلَةً.

وحَرِيصُونَ عَلَىٰ الارْتِقَاءِ فِي دَرَجَاتِ السَّابِقِينَ في الإِيْمَانِ، والْعَمَلِ الصَّالِحِ، والتَّوسُّعِ فِي فِعْلِ الخَيْرَاتِ، حتّىٰ يَكُونُوا أَئِمَّةً لِلْمُتَّقِينَ، وقُدْوَةً حَسَنَةً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

لِذٰلِكَ فَهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ دَاعِينَ قَائِلِينَ: **رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا للمتَّقِينَ إِمَاماً.**

ونَفْهَمُ مِنْ هذا أَنَّ كُلَّ مَا يَتَّخِذُ الإِنْسَانُ أَسْبَابَهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ أنْ يُعِينَهُ عَلَيْه ويُوَفِّقَهُ فِيهِ.

❁ ❁ ❁

وأَخِيراً أَبَانَ اللَّهُ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ، الّذِي أَعَدَّهُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، لِزُمْرَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ.

❁ ❁ ❁

(١٥)
التدبّر التحليلي للدرس الحادي عشر من دروس السورة وهو الآية الأخيرة (٧٧) من آيات السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُرْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

تمهيد:

هذه الآية التي تمثّلُ الدرس الأَخير من دروس السورة، وهو درْسٌ موجَزٌ يعلم الله عزّ وجلّ فيه رَسُولَه، وكلَّ داعٍ إلى الله من أُمَّتِهِ مَا يَقُولُه لِكُفَّار قَوْمِهِ الّذِين أَصَرُوا عَلَىٰ مَواقِفِهِمْ بَعْدَ سِلْسِلَةِ الإِقْنَاعَاتِ والتَّرْغِيبَاتِ والتَّرْهِيبَاتِ والعِبَرِ والْعِظَاتِ، الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا هذِهِ السُّورَة، وَمَا سَبَقَها من سُوَرٍ في مَرَاحِلِ التنزيل.

التدبُّر التحليلي:

﴿قُلْ﴾: هذا خطابٌ للرّسول ثمّ لكلّ داعٍ إلى الله من بعده.

﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُرْ رَبِّي﴾: أي: مَا يُبَالِي بِكُمْ، أَصْلُ الْعِبْءِ في اللُّغَةِ الْحِمْل، والْجَمْعُ «أَعْبَاء» بمَعْنَىٰ أَحْمَال. والْعِبْءُ أيضاً الْعِدْلُ، لِمَا يُوضَعُ فِيهِ مِنْ أَشْيَاءَ تُحْمَلُ اهْتِمَاماً بِمَا فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ. وإنَّمَا يَحْمِلُ الْعُقَلَاءُ مَا لَهُ قِيمَةٌ، أَوْ لَهُمْ بِهِ مَصْلَحَةٌ أَوْ مَنْفَعَةٌ، أمَّا مَا لَا مَصْلَحَةَ لَهُمْ بِه فَإِنَّهُمْ يُهْمِلُونَهُ فَلَا يَحْمِلُونَهُ، ولَا يَجْعَلُونَهُ فِي أَوْعِيَتِهِمْ.

ومِنْ هُنَا يَأْتِي اسْتِعْمَال عِبَارَةِ: «لَا يَعْبَأُ بِه» بِمَعْنَىٰ: لَا يُبَالِي بِهِ لِعَدَمِ مَصْلَحَةٍ لَهُ فِيه.

وهُنَا نَقُول: هَلِ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ مَصْلَحَةٌ لِذَاتِهِ لَدَىٰ عِبَادِه؟

والجوابُ: لَقَدْ تَنَزَّهَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ، إنّ عِبَادَةَ عَابِدِيهِمْ لَا تَنْفَعُهُ بِشَيْءٍ، وَكُفْرَ كُفَّارِهِمْ وفُجُورَ فُجَّارِهِمْ لَا يَضُرُّه بِشَيْءٍ، إِذَنْ فَهُو لَا يُبَالِي مِنْ أَجْلِ ذَاتِه سُبْحَانَهُ بِعِبَادَةِ الْعَابِدِينَ، ولَا بِكُفْرِ الْكَافِرِينَ، أَوْ جُحُودِ الْجَاحِدِينَ، أَوْ فُجُورِ الْفَاجِرِينَ.

هذِه الْحَقِيقَةُ قَدْ جَاءَ بَيَانُهَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيّ الّذِي رَوَاهُ الإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ الله عَنْه، عَن النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَقَدْ جَاءَ فِيهِ أنّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ:

«يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبادي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذلِكَ في مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإنسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا عَلَىٰ أفْجَرِ قَلْب رجُلٍ وَاحِدٍ مَا نقَصَ ذلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذَا أُدْخِل الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خيراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

هذا الحديث القدسي يفسّر معنى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾ أيْ: مَا يُبَالِي بِكُمْ مِنْ أَجْلِ ذَاتِه، لأنّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرَّهُ فَتَضرُّوه، وَلَنْ تَبْلُغوا نَفْعَهُ فَتَنْفَعُوهُ.

وهُنَا يَأْتِي سُؤالٌ، وهُوَ: إِذَنْ فَلِمَاذَا بَعَثَ اللَّهُ لَنَا الرَّسُولَ، وأَنْزَلَ إِلَيْنَا الكِتَابَ، وَلِمَاذَا يُعَالِجُنَا بِالإِقْنَاعِ والْمُجَادَلَةِ والْهِدَايَةِ والتَّرْغِيبِ، والتَّرْهِيبِ، وسَائِرِ وَسَائِلِ التَّرْبِيَة؟

أَلَيْسَ هَذَا مِنْ مُبَالَاتِه بِنَا؟ وعِنَايَتِه بشُؤُونِنَا؟

والجواب: بَلَىٰ، إِنَّهُ سُبْحَانَه يَعْبَأُ بكُمْ وَلكِنْ لَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِه وذَاتِه، بَلْ مِنْ أَجْلِكُمْ أَنْتُمْ، رَحْمَةً بِكُمْ، واسْتِيفَاءً لِكُلِّ مَا يَلْزَمُ لِتَبْصِيرِكُمْ وَهِدَايَتِكُمْ وَإِرْشَادِكُمْ، فِي دَعَوتِكُمْ إِلَىٰ سَبِيلِ سَعَادَتِكُمْ ونَجَاتِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْمُعَدِّ لأَهْلِ الكُفْرِ والْفُجُورِ والْعِصْيَانِ.

فَلَوْلَا دُعاؤُكُمْ ـ أَيْ: دَعْوَتُكُمْ إِلَىٰ سُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِسَعَادَتِكُمْ ونَجاتِكُمْ ـ مَا كَانَ رَبِّي يَعْبَأُ بِكُمْ.

فَمَعْنَى: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾: لَوْلَا دُعَاءُ اللَّهِ إِيَّاكُمْ، لَفْظُ «دُعَاء» مَصْدَرٌ مُضَافٌ إِلَىٰ الْمَفْعُولِ بِه، والْفَاعِلُ مَعْلُومٌ مِنَ السَّابِقِ واللَّاحِقِ، وهُوَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ.

فَعِنَايَةُ اللَّهِ بِكُمْ هِيَ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَتِكُمْ، واسْتِيفَاءِ شُرُوطِ دَعْوَتِكُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي هذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ولَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَعْبأ اللَّهُ بِكُمْ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وذَاتِهِ، فَهُوَ سُبْحَانَه الْغَنِيُّ الْعَزِيزُ مَالِكُ الْمُلْكِ، وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَلَكِنَّكُمْ مَعَ هذِهِ الْعِنَايَةِ الْبَالِغَةِ بِكُمْ مِنْ أَجْلِكُمْ أَنْتُمْ، ورَحْمَةً بِكُمْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِه مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ وَنَجَاتِكُمْ، والْخِطَابُ هُنَا لِلَّذِينَ أَصَرُوا عَلَىٰ الكُفْرِ على الرغْمِ مِن كُلِّ أَنْواعِ الْعِلَاجِ الَّتِي جاءَتْ فِي سُورَة (الفرقان) ومَا نَزَلَ قَبْلَهَا مِنْ سُور القرآن.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾: أيْ: فَقَدْ كَذَّبْتُمْ الرَّسُولَ الْمَبْعُوثَ إِلَيْكُمْ، وكَذَّبْتُمْ بالْقُرْآنِ، وكَذَّبْتُمْ بالْجَزَاءِ وَبِيَوْمِ الدِّينِ، وأَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ مَوَاقِفِ الكُفْرِ، وَمَا لَكُمْ بِذَلِكَ حُجَّةٌ تَحْتَجُّونَ بِهَا لَدَىٰ رَبِّكُمْ، ولَا عُذْرٌ تَعْتَذِرُونَ بِهِ سَاعَةَ حِسَابِكُمْ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾: أيْ: فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْذِيبُكُمْ هَذَا لِزَاماً.

اللِّزَامُ: مَصْدَرٌ كالْمُلَازَمَة، تَقُولُ لُغَةً: لَازَمَهُ مُلَازَمَةً وَلِزَاماً. والْمَعْنَىٰ فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْذِيبُكُمْ هذا مُلَازِماً لَكُمْ حَتَّىٰ تَنَالُوا عِقَابَهُ يَوْمَ الدِّينِ، ضِمْنَ قَوَاعِدِ الْجَزَاءِ الْمُقَرَّرَةِ لِكُلِّ مَنْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، فَمَا دُونَ ذَلِكَ حتَّىٰ أَكْفَرِهِمْ وأَفْجَرِهِمْ، والذَّنْبُ الْمُلَازِمُ لِمَنِ ارْتَكَبَهُ لَا يَنْفَكُّ عَنْهُ حتَّىٰ يَنَالَ عِقَابَهُ، ومَعْلُوم أَنَّ عَذَابَ التَّكْذِيبِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَذَابٌ مُلَازِمٌ خالِدٌ في السَّعِيرِ دُونَ نِهَاية.

وتنتهي السورة وينقطع الحِوَارُ مَعَ الّذِين كَفَرُوا بِهٰذَا الْخِتَامِ الْحَاسِمِ.



ملاحق تدبُّرِ سُورة الفرقان

الملحق الأول: شجرة موضوع السّورة.

الملحق الثاني: مستخرجات بلاغيّة وفنيّة من السّورة.

الملحق الثالث: حول البيان المقرون بالحجّة والبرهان وبالتفسيرات الموضّحات للحكمة من الاختيار الرّبّاني في السورة.

الملحق الرابع: حول منهاج الدّعوة ووسائل التربية في السورة.

الملحق الخامس: حول ما يَنْبَغي أن يَتحلّى به حامل الرسالة أخْذاً ممّا جاء في السُّورة.

(١٦)

الملحق الأول

شجرة موضوع سورة (الفرقان)

سبق في مُقَدِّمَات تدبّر السُّورة بيَانُ موضُوعِها وبَيَانُ فُروع شَجَرَتِها، وفي هذا الملحق تَفْصِيلٌ لآياتها على خُطوطها في جداولَ مع التذكير بموضوعها وفروع شجرتها:

موضوع السُّورة: كُليَّاتٌ كُبْرَىٰ مِنْ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإِيمانِيَة وحال النَّاسِ فِي مَرْحَلَةِ نُزُولِ السُّورَةِ تُجَاهها مع التوجيه والتربيّة والمعالجة.

تَسِير آياتُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ علىٰ أَرْبَعَةِ خُطُوطٍ رَئِيسَةٍ ذَاتِ فُرُوع:

الخطّ الأول: الله عزَّ وجلّ، وبَعْضُ صِفَاتِه وأَسْمَائِه الْحُسْنَىٰ، وآيَاتِه فِي كَوْنِه الدّالّاتِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِه وأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، ومِنْهَا اسْمُ اللَّهِ الرّحْمٰنِ، مَعَ العِلْمِ بأَنّ كلَّ مَا دَلَّ عَلَىٰ الصِّفَةِ دَلَّ عَلَىٰ وُجودِ الذَّاتِ.

الخط الثاني: كِتَابُ اللَّهِ (القُرآن) وكَوْنُهُ فُرْقَاناً، ومَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ تَنْوِيعِ الأَدِلَّةِ وتَصْرِيفِهَا فيه، وأَقْوَالِ الَّذِين كَفَرُوا فِي مَعَاذِيرِهِمْ وتَعلَّاتِهِمْ لِرَفْضِ الإِيمَانِ بِه، مُدَّعِينَ أَنَّه لَيسَ كَلَامَ اللَّهِ، وَلَيْسَ مُنزَّلاً مِن لَدُنْهُ، مَعَ الْمُعَالَجةِ الرَّبَّانِيَّةِ، ومَعَ تَوْجِيهَاتِ الله لِرَسُولِه بِشَأْنِه، وهَذِهِ التَّوْجِيهَاتُ هِيَ تَوْجِيهَاتٌ لِخُلَفَاءِ الرَّسُولِ فِي دَعْوَةِ النَّاسِ جَمِيعاً إِلَى سَبِيل اللَّهِ، وَفِي الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيّ، وهَؤلَاءِ الْخُلَفَاءُ هُمْ أَئِمَّةُ الْمُتَّقِين.

الخطّ الثالث: الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَرِسَالَتُهُ، وأَقْوَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَعَاذِيرِهِمْ وتَعِلَّاتِهِمْ لِرَفْضِ الإِيْمَانِ بِه واتِّبَاعِه، وَفِي مُقْتَرَحَاتِهِمُ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا بِشَأْنِه حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بأَنّه رَسُولُ اللَّهِ حقًّا ويَتّبِعُوه.

وشَكَاوَىٰ الرَّسُولِ مِنْ أَحْوالِ قَوْمِه بشَأْنِ الْقُرْآن، وبِشَأْنِ رِسَالَتِه فِيهِمْ، وكِتْمَانِ مَا يَتَعَلَّقُ بِشَخْصِهِ وَبِالَّذِينَ آمَنُوا بِه واتَّبَعُوهُ.

مَعَ الْمُعَالَجَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، وَلِمَا صَرَّحَ بِهِ الرَّسُولُ فِي شَكْوَاهُ، ومُعَالَجَةِ نَفْسِهِ بِشَأْنِ مَا كَتَمَهُ مِنْ شَكَاوَىٰ لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا، وتَنْسَحِبُ هذِهِ الْمُعَالَجَةُ عَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، لأنَّ مَا نَالَهُ مِنْ قَوْمِه قَدْ نَالَهُمْ، وَرُبَّمَا تَعَرَّضُوا لأَذَىً مَادِّيٍّ أَكْثَر.

الخط الرابع: الْمُرْسَلُ إِلَيْهِم، الَّذِين صَارُوا فِي مَرْحَلَةِ نُزُولِ سُورَةِ (الفرقان) فَرِيقَيْنِ وَاضِحَيْنِ:

الفريق الأول: المؤْمِنُونَ وهُمُ القِلَّةُ المُضْطَّهَدَةُ، مَعَ تَوْجِيه طَائِفَةٍ مِنْهُمْ لِيَكُونُوا خُلَفَاء الرَّسُولِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ، وفِي الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وهُمْ طَائِفَةُ (عِبَادِ الرَّحْمٰنِ).

الفريق الثاني: الّذِين كَفَرُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وهُمُ الكَثْرَةُ ذَاتُ الْعِزَّةِ والسُّلْطَانِ فِي مَكَّةَ وتَوابِعِها يومئذٍ.

واشْتَمَلَ هذَا الْخَطُّ عَلَىٰ عَرْضِ مَوَاقِفِهِمْ من توحِيدِ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَهِيَّتِهِ، ومَوَاقِفِهِمْ مِنَ الْقُرْآن، ومِنَ الرَّسُولِ وَرِسَالَتِه.

مَعَ الْعَالَجَةِ الرَّبَّانِيَّة لَهُمْ بالحُجَجِ والبَرَاهِينِ الإِقْنَاعِيَّةِ، وبالتَّرْغِيبِ، وبالتَّرْهِيبِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ الْمُؤَجَّلِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وعِقَابِه المُعَجَّلِ فِي الدُّنْيا.

واشْتَمَلَتْ هذِه الْمُعَالَجَةُ عَلَىٰ عَرْضِ مَشَاهِدَ مِنْ يَوْمِ الدِّينِ، ومَوْقِفِ الْحِسَابِ، ولَقَطاتٍ مِنْ صُوَرِ الْعِقَابِ، وعَلَىٰ عَرْضِ عِبَرٍ تاريخيَّةٍ مِنْ قِصَصِ الْمُهْلَكين السّابِقينَ الّذِين كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ.

وقَدْ جَاءَتْ الإِشَارَةُ إِلَىٰ مَوْضُوعِ السُّورَةِ فِي الآيَةِ الأُوْلَىٰ مِنْها:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾.

وفِيمَا يَلِي جَدَاوِلُ خُطُوطِ السورة مَعَ توزيع آيَات السُّورَةِ عليها.

الخط الأول:

الله وبعض صفاته وأسمائه وآياته في كونه:

(أ) من صفات الله عزَّ وجلّ الدالة على توحيد ربوبيته فإلٓهيته:

١ ـ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.

٢ ـ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.

٣ـ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ.

٤ ـ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الآية: ٢].

(ب) من آيات الله في كونه الدالّات على بعض صفاته وأسمائه الحسنى، دليلاً على التوحيدين:

أولاً:

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ.

٢ ـ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا.

٣ ـ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا.

٤ ـ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الآيتان: ٤٥، ٤٦].

ثانياً:

١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا.

٢ ـ وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا.

٣ ـ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الآية: ٤٧].

ثالثاً:

١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ.

الخط الثاني:

كتاب الله (القرآن) والأقوال بشأنه مع المعالجة والتوجيهات:

(أ) من أقوال المشركين حول القرآن باتهام الرسول مع المعالجة الربّانية:

أولاً:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟:

١ ـ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ (أي: كذب).

٢ ـ ٱفْتَرَىٰهُ (أي: محمد).

٣ ـ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ.

(تعقيب):

• ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الآية: ٤].

ثانياً:

﴿وَقَالُوٓا۟:

١ ـ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ.

٢ ـ ٱكْتَتَبَهَا (أي: محمد).

٣ ـ فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الآية: ٥].

(تعقيب):

• ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾. [الآية: ٦].

(ب) شكاوى الرسول التي صرح بها بشأن القرآن، والمعالجة الرّبانية لما كتمه الرسول، ثم لِمَا صرّح به:

أولاً:

(شكوى):

تابع الخط الأول:

الله وبعض صفاته وأسمائه وآياته في كونه:

٢ ـ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا [الآية: ٤٨].

٣ ـ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا.

٤ ـ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا [الآية: ٤٩].

رابعاً:

١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ.

٢ ـ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ.

٣ ـ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا.

٤ ـ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الآية: ٥٣].

خامساً:

١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا.

٢ ـ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا.

٣ ـ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الآية: ٥٤].

سادساً:

١ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ.

٢ ـ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الآية: ٥٩].

سابعاً:

(الاستدلال لإثبات اسم الله الرحمن):

تابع الخط الثاني:

كتاب الله (القرآن) والأقوال بشأنه مع المعالجة والتوجيهات:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ:

١ ـ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا.

٢ ـ . . . (شيء طواه الرسول) [الآية: ٣٠].

(معالجة لما طواه الرسول).

١ ـ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ.

٢ ـ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الآية: ٣١].

ثانياً:

(شكوى):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟:

١ ـ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً.

٢ ـ . . . (شيءٌ آخر طواه الرسول).

(معالجة لما صرّح به الرسول):

كذلك:

(أي: أنزلناه منجماً).

١ ـ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ. (الخطاب للرسول).

٢ ـ ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الآية: ٣٢].

٣ ـ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

(معالجة لما طواه الرسول):

٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

(ج) بيان تنويع أساليب الإقناع والتربية والترغيب والترهيب فيما نزل من قرآن قبل سورة (الفرقان) مع التوجيه بشأنه.

تابع الخط الأول:

الله وبعض صفاته وأسمائه وآياته في كونه:

١ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا.

٢ ـ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا

[الآية: ٦١].

٣ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً.

٤ ـ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

[الآية: ٦٢].

تابع الخط الثاني:

كتاب الله (القرآن) والأقوال بشأنه مع المعالجة والتوجيهات:

١ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ.

٢ ـ لِيَذَّكَّرُوا۟.

٣ ـ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾

[الآية: ٥٠].

(تكليف الرسول مجاهدةَ قومه بالقرآن):

٤ ـ ﴿... وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾

[مِنَ الآية: ٥٢].



الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ وأقوال الذين كفروا بشأنه، ومقترحاتهم حوله، مع المعالجات الربانية:

(أ) من أقوال المشركين في الرسول ومقترحاتهم بشأنه، مع المعالجات الربّانية:

أولاً:

﴿وَقَالُوا:

١ - مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ.
٢ - لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الآية: ٧].
٣ - ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا.

ثانياً:

وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ:

٤ - إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الآية: ٨].

• (معالجة بالبيان والحجّة):

الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١) **فريق مَن آمن واتَّبع**

(٢) **وفريق مَن تولّى وكَفَر**

فريق المؤمنين	فريق الكافرين
	(أ) بيان صفات آلهتهم التي اتخذوها شركاء من دون الله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً: ١ - لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا. ٢ - وَهُمْ يُخْلَقُونَ. ٣ - وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا. ٤ - وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الآية: ٣]. (ب) بيان أساس العلة لدى المشركين وهو تكذيبهم بالجزاء يوم الدين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ...﴾ [من الآية: ١١]. (معالجة بالوعيد بعذاب السعير): ﴿... وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [من الآية: ١١].

الخط الثالث:



الرسول محمد ﷺ وأقوال الذين كفروا بشأنه، ومقترحاتهم حوله، مع المعالجات الربانية:

١ ـ ﴿أَنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾.

٢ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ.

٣ ـ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ.

٤ ـ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ [الآية: ١٠].

● (معالجة أخرىٰ وفيها توجيه للرسول):

١ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ.

٢ ـ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً.

٣ ـ أَتَصْبِرُونَ؟

٤ ـ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الآية: ٢٠].

(ب) من أعمال وأقوال المشركين ضد الرسول ورسالته، مع المعالجات الربّانية:

الخط الرابع:

المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١) **فريق مَن آمن واتَّبع**

(٢) **وفريق مَن تولَّى وكَفَر**

فريق المؤمنين

بيان أن المتقين قد وعدوا جنة الخلد:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

فريق الكافرين

١ ـ ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

٢ ـ ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾.

٣ ـ ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا.

٤ ـ وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الآية: ١٤].

(ج) مقارنة بين حال الكافرين وحال المؤمنين المتقين يوم الدين بتكليف الرسول مواجهتهم بها:

﴿قُلْ:

١ ـ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ؟

٢ ـ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ [الآية: ١٥].



الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ وأقوال الذين كفروا بشأنه، ومقترحاتهم حوله، مع المعالجات الربانية:

١ - ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا.
٢ - أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الآية: ٤١].
٣ - ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا.

(معالجة للمستهزئين بالتلويح بالوعيد):

٤ - وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٤٢].

(معالجة للرسول بشأن شكواه من أن قومه اتخذوا هذا القرآن مهجوراً):

١ - ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.
٢ - ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟
٣ - إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ.
٤ - بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٤٤].

الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١) فريق مَن آمن واتَّبع

(٢) وفريق مَن تولَّى وكَفَر

فريق المؤمنين

فريق الكافرين

٣ - ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ.
٤ - كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [الآية: ١٦].

(د) عرض مشهد من مشاهد محاسبة المشركين يوم الدين:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ:
١ - أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ؟
٢ - أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ؟﴾ [الآية: ١٧].

﴿قَالُوا:
١ - . سُبْحَانَكَ
٢ - مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ.
٣ - وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ.
٤ - وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الآية: ١٨].



الخط الثالث:

الرسول محمد ﷺ وأقوال الذين كفروا بشأنه، ومقترحاتهم حوله، مع المعالجات الربانية:

(معالجة للمعترضين على كون رسالة محمد عامّة للعالمين):

١ - ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾.

(معالجة للرسول بشأن مقترحات الذين كفروا):

٢ - ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ . . .

٣ - وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الآية: ٥٢].

(أي: بالقرآن وما فيه).

(ج) تربية الله لرسوله بشأن عدد من القضايا:

١ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

(أي: لست مكلّفاً إلزام الناس أو تحويلهم إلى الإيمان).

الخط الرابع:

المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١) **فريق مَن آمن واتّبع**

(٢) **وفريق مَن تولّى وكَفَر**

فريق المؤمنين

فريق الكافرين

(تعقيب على موقف الحساب والمحاكمة):

١ - ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ.

٢ - فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا.

٣ - وَلَا نَصْرًا.

٤ - وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الآية: ١٩].

(هـ) بيان مقترحات الذين كفروا بشأن تلقيهم الوحي مباشرة عن الملائكة أو عن الله:

• ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا:

(أي: لا يخافون لقاء الله).

١ - لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ.

٢ - أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا . . .﴾ [من الآية: ٢١].

الخط الثالث:

الرسول محمد ﷺ وأقوال الذين كفروا بشأنه، ومقترحاتهم حوله، مع المعالجات الربانية:

٢ - ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

٣ - ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ.

٤ - وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ.

٥ - وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الآية: ٥٨].

(أي: لا تحمل همّ ذنوب الناس من أجل ربّك، فهو خبير بأحوالهم، وقدير على إجراء ما يريد فيهم).

الخط الرابع:

المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١) فريق مَن آمن واتّبع

(٢) وفريق مَن تولّى وكَفَر

فريق المؤمنين

فريق الكافرين

(تعقيب ببيان علتهم النفسية وأثرها في سلوكهم):

٣ - ﴿... لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ.

٤ - وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [من الآية: ٢١].

(معالجة لاقتراحهم تلقي الوحي عن الملائكة):

● ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ:

١ - لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ

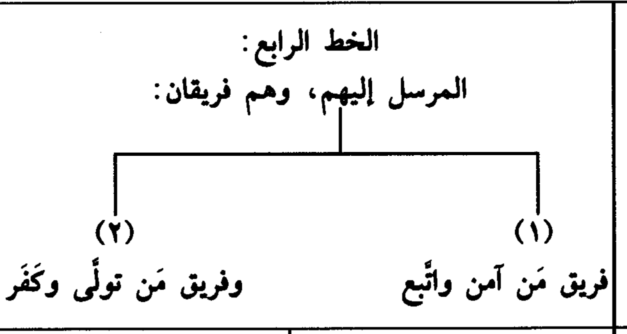
أصحاب الاقتراح وغيرهم.

٢ - وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الآية: ٢٢].

٣ - ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.



الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:



فريق المؤمنين	فريق الكافرين
	(مقارنة بينهم وبين المؤمنين المتقين): ٤ ـ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.
بيان ثواب المؤمنين بأنهم أصحاب الجنة وبأنهم خير مستقراً فيها وأحسن مقيلاً في البرزخ: • ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الآية: ٢٤].	(معالجة لاقتراحهم تلقي الوحي عن ربّهم مُباشرة): • ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾. (أي: وجاء الربّ لمحاسبة عباده ومحاكمتهم). ١ ـ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ. ٢ ـ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الآية: ٢٦]. (معالجة بعرض مشهد من مشاهد ندم الظالمين يوم الدين):



الخط الثالث :

الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية :

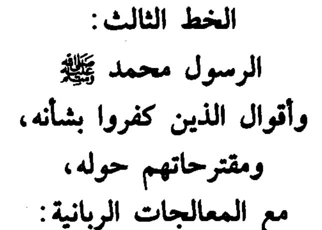
الخط الرابع :

المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١) فريق مَن آمن واتَّبع

(٢) وفريق مَن تولَّى وكَفَر

فريق المؤمنين	فريق الكافرين
	• ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ: ١ ـ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٢٧]. ٢ ـ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الآية: ٢٨]. ٣ ـ ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي . . .﴾. (تعقيب بشأن الشيطان سواء أكان من الجنّ أو من الإنس): ٤ ـ ﴿. . . وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الآية: ٢٩]. (و) التلويح بالعقاب المعجل بأسلوب عرض قصص بعض المهلكين من الأمم الماضية للاعتبار:



الخط الثالث:

الرسول محمد ﷺ وأقوال الذين كفروا بشأنه، ومقترحاتهم حوله، مع المعالجات الربانية:

الخط الرابع:

المرسل إليهم، وهم فريقان:

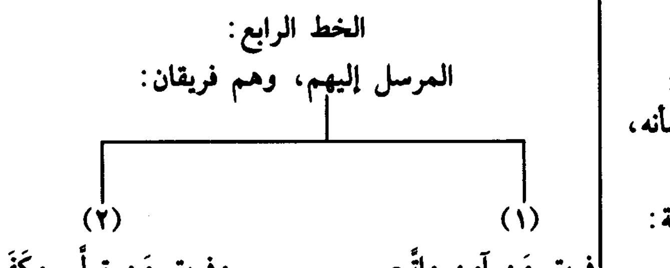
(١) فريق مَن آمن واتَّبع

(٢) وفريق مَن تولَّى وكَفَر

فريق المؤمنين	فريق الكافرين
	● (عبرة من قصة موسى وقومه): ١ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ. ٢ ـ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [الآية: ٣٥]. ٣ ـ ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا. ٤ ـ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الآية: ٣٦]. ● (عبرة من قصة نوح وقومه): ١ ـ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ . . . (أي: كذلك). ٢ ـ . . . لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ. ٣ ـ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً. ٤ ـ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الآية: ٣٧].

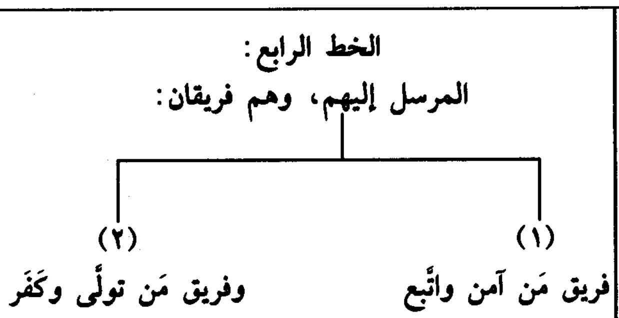
الخط الثالث:

الرسول محمد ﷺ وأقوال الذين كفروا بشأنه، ومقترحاتهم حوله، مع المعالجات الربانية:

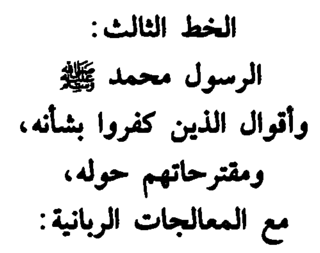


فريق المؤمنين	فريق الكافرين
	• (عبرة من قصص جملة أقوام): ١ ـ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ. ٢ ـ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الآية: ٣٨]. ٣ ـ ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ. ٤ ـ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الآية: ٣٩]. • (عبرة من قصة قوم لوط): ١ ـ ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ. ٢ ـ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا؟! (التعقيب): ٣ ـ بَلْ: (بل كانوا يرونها ولكن).. ٤ ـ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الآية: ٤٠].

الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ وأقوال الذين كفروا بشأنه، ومقترحاتهم حوله، مع المعالجات الربانية:



فريق المؤمنين	فريق الكافرين
	(ز) بيان أن الذين كفروا من المشركين ما زالوا مصرّين على أن يعبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم معاندين مظاهرين للشيطان:
	١ ـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ.
	٢ ـ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الآية: ٥٥].
	(ح) عرض إنكار الذين كفروا اسم الله «الرحمن» أي: إنكارهم صفة الرحمة من صفاته الجليلة:
	(بعد إثبات أن الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش هو الرحمٰن الذي يعرف رحمته المجربون أهل الخبرة، جاء العرض):



الخط الثالث:

الرسول محمد ﷺ وأقوال الذين كفروا بشأنه، ومقترحاتهم حوله، مع المعالجات الربانية:

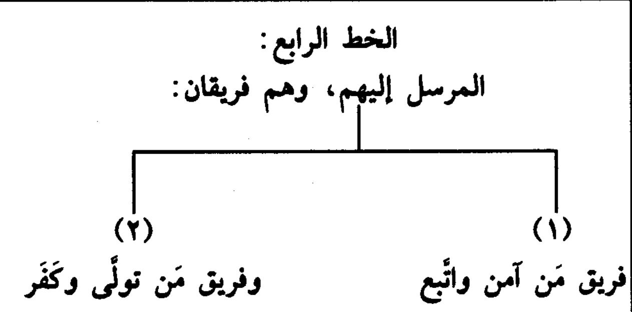
الخط الرابع:

المرسل إليهم، وهم فريقان:

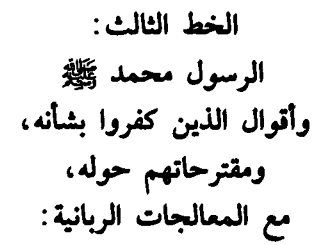
(١) فريق مَن آمن واتَّبع	(٢) وفريق مَن تولَّى وكَفَر
فريق المؤمنين	**فريق الكافرين**
بيان صفات عباد الرحمن من المؤمنين، وهم أئمة المتقين في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم وآدابهم، ومنهم الدعاة إلى سبيل الله في عموم الناس، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر بين جماعات المسلمين.	١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ. ٢ ـ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ؟! ٣ ـ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟! ٤ ـ وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الآية: ٦٠]. (المعالجة بعرض بعض آيات الله التي يؤمنون بأنها من آياته في السماء لتوجيههم لما لها من آثار في الأرض هي من آثار رحمته تعالى): ١ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا. ٢ ـ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الآية: ٦١]. ٣ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً. ٤ ـ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الآية: ٦٢].

الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

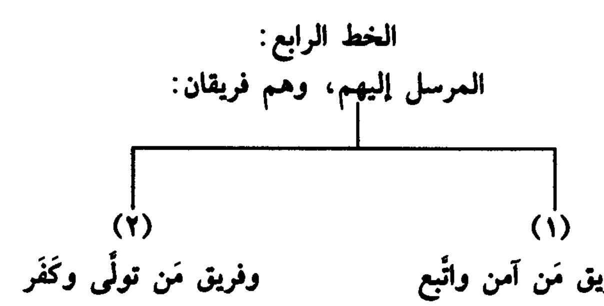
الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:



فريق المؤمنين	فريق الكافرين
وهم خلفاء الرسول في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ: ١ - ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا. ٢ - وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الآية: ٦٣]. ٣ - ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾. ٤ - ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ: • رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ. • إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الآية: ٦٥]. • ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.	



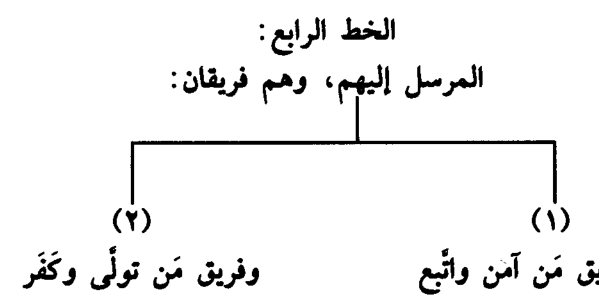
الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:



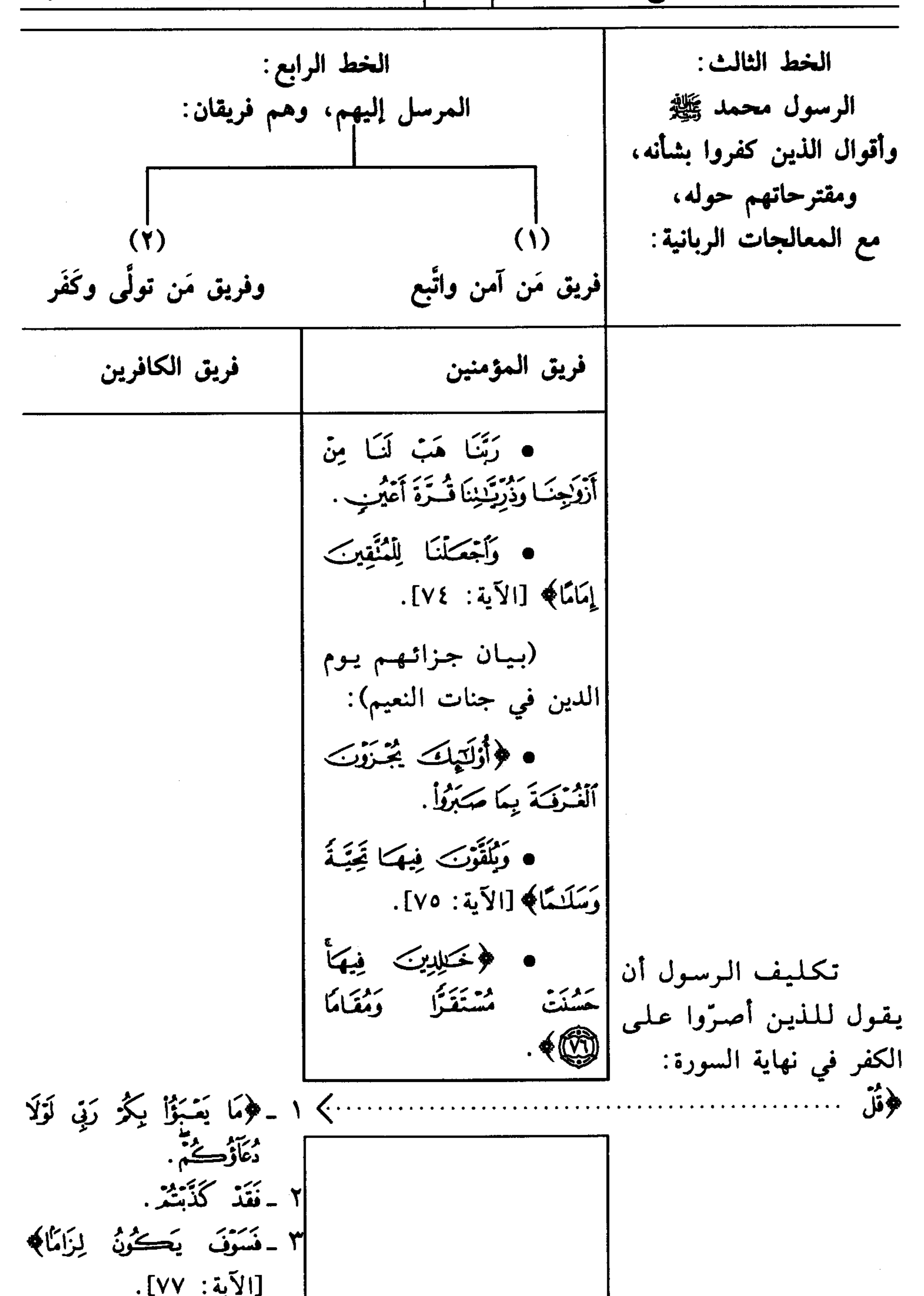
الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:

فريق المؤمنين	فريق الكافرين
٥ ـ ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟: • لَمْ يُسْرِفُوا۟. • وَلَمْ يَقْتُرُوا۟. • وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الآية: ٦٧]. ٦ ـ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ٧ ـ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ. ٨ ـ وَلَا يَزْنُونَ. (تحذير بشأن الشرك والقتل والزنا): • وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الآية: ٦٨]. • ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾. (استثناء من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً):	

الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ وأقوال الذين كفروا بشأنه، ومقترحاتهم حوله، مع المعالجات الربانية:



فريق المؤمنين	فريق الكافرين
• ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ. • وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الآية: ٧٠]. (بيان شرط هذه التوبة): • ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾. ٩ - ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ. ١٠ - وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الآية: ٧٢]. ١١ - ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾. ١٢ - ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ:	



وانتهت السورة

❁ ❁ ❁

(١٧)
الملحق الثاني
مستخرجات بلاغية وفنيّة من السورة

(١) نظام التقسيم المتناظر

من الروائع الملاحظة في سورة (الفرقان) رائعة التقسيم الرُّباعي المنتظم القائم على ذكر أربع جمل ضمن كلّ وحدة فكريّة يجمعها جامع ما.

ونجد هذا في معظم وحدات السورة التي يَجْمَعُ كلَّ وحدةٍ منها جامع، وخرج عن هذا التنظيم المتناظر بعض الوَحَدَات، إذْ جَاءَتْ ثُلاثيَّة، وبَعْضُ الْوَحَدَاتِ إذْ جَاءت ثُنائيّة، وقَدْ تأتِي خرجةٌ خامسةٌ فوق التقسيم الرّباعي، وقدْ تأتي جُمْلَةٌ واحِدَة ذاتُ وحدة فكريّة تامّة، وأخيراً جاءت صفات عباد الرحمٰن جامعة (١٢) صفة، وهي حاصل ضرب أَرْبَعَةٍ في ثَلاثَة، وكلّ ذلك ضِمْنَ نَسقٍ جَماليٍّ بديع.

ولعلّ التزام التقسيم الرّباعي غالباً في السورة قد لوحظ فيه أنّ موضوعها الذي أشارت إليه آيَتُها الأولى قد اشتمل على أقسام أربعة، هي:

«الله ـ الكتاب ـ الرسول ـ المرسَلُ إليهم».

وباستطاعة المتدبّر أن يتأكّد من هذه الملاحظة بأن ينظر في شجرة موضوع السورة، كما هو مفصّل في الملحق الأول، بدءاً من الآية الثانية في السورة، فالثالثة، وهكذا إلى سائر وحدات السورة، فجمل الوحدات مرقَّمَةٌ في جَدَاوِلِ الشجرة.

فالآية الثانية مثلاً اشتملت على أربع صفاتٍ لله عزَّ وجلّ.

والآيةُ الثالثة اشتَمَلَتْ على أربع صِفَاتٍ للآلهة التي اتّخذَها الْمُشْرِكُونَ.

وانظر متتبّعاً في الجداول.



(٢) التوطئة لما يُرادُ التفصيل فيه

من أغراض السورة الأساسيّة بيان أنّ من صفات الله عزَّ وجلّ صِفَةَ الرَّحْمَةِ، وأنّ من أسمائه الحسْنَى اسْمَهُ «الرَّحْمٰن» الأمر الذي لا يؤمِنُ بِهِ الكافرون المتحدّثُ عنهم في السورة، وأن اسم الله «الرحمٰن» هو الاسم الذي يكون حظّ أئمة المتّقين منه حظّاً وفيراً، إذِ ارتَقَوا فوق مرتبة «التقوى» ودخلوا في درجات مرتبة «البرّ» ثم مرتبة «الإِحسان» لذلك استحقُّوا أن يُلقَّبوا بلقب «عباد الرحمٰن» وهذا اللَّقب هو بمثابة جائزة تفوّق، أو شهادة تفوّق، عنوانها «عباد الرحمٰن».

وقد جاءت التوطئة باختيار ذكر اسم «الرحمٰن» من أسماء الله الحسنىٰ، في الآية (٢٦) بقوله تعالى بشأن يوم الدين:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

مع ما في ذكر هذا الاسم هنا من الإشارة إلى الرحمة العظيمة التي يرحم الله بها عباده يوم القيامة، على الرغم من أنه يومٌ عسيرٌ على الكافرين.

ثم جاء تفصيل الحديث عن اسم الله «الرحْمٰنِ» مع الأدلّة على صفة رحمة الله من الظاهرات الكونية، في الآيات (من ٥٩ إلى ٦٢) لإقناع المنكرين لهذا الاسم من أسماء الله الحسنى، باعتبار أنّهم ينكرون اتصافَهُ عزَّ وجلّ بصفة الرحمة.

وبعد ذلك جاء وصف عباد الرحمٰن، المستحقين لهذا اللّقب الشريف، بسبب تفوُّقهم، حتى صاروا أئمةً للمتقين.

❁ ❁ ❁

(٣) ذكر القضايا الكليّة عَقِبَ القضايا الجزئيّةِ لبيانِ دُخُولِها فِي عُمُومِها

من روائع أساليب القرآن البيانيّة ذكر القضايا الكليّة عقب الحديث عن قضايا جزئية للإشعار بدخول هذه القضايا الجزئية المتحدّث عنها في عموم القضايا الكليّة التي جاءت عقبها.

فيستفاد من هذا الأسلوب الرائع ما يلي:

١ ـ تأصيل القضيّة الكليّة، وبيان أنّها تنطبق على جزئيات كثيرة، ومنها الجزئية التي جاءت سابقةً لها.

٢ ـ الحُكْمُ علىٰ الْقَضِيَّةِ الْجُزْئِيَّةِ المتَحدَّثِ عَنْها بأنّها إحْدَىٰ جُزْئِيَّاتِ هٰذِهِ القضيّة الكليّة العامّة.

٣ ـ إدخالُ أشباه هذه القضيّة الجزئية ونظيراتها في عموم القضية الكليّة، فينطبق عليها حُكْمُها بمقتضىٰ دلالة العموم.

الأمثلة:

المثال الأول: في الآية (٦) من السورة، يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾.

أي: أنزل القرآن الذي يعلم كلّ السرّ، وممّا يعلم من السرِّ ما تخفونه في أنفسكم منْ عِلْمٍ بأنّ القرآنُ كلامُ الله، وبأنّ محمّداً رسول الله حقّاً، وبأنّه صادق فيما يبلغ عن ربّه.

وإنّ من صفات الله الثابتة له دواماً أنّه غفور رحيم، وبما أنكم من عباده، فإنه يَفْتَح لَكُم أبْوابَ غُفْرانِهِ ورَحْمته، إذا تُبْتُمْ وآمَنْتُمْ وأصْلَحْتُمْ قَبْلَ فَوَاتِ الأوان.

المثال الثاني: في الآية (١١) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ بشأن كفّار مكة المتحدَّثِ عنهم فيها:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾.

أي: وأعتدنا لكل من كذّب بالساعة عذاب السعير، ولمّا كان كفّار مكة المتحدّثُ عنهم في السورة ممَّن كذّب بالساعة كانوا داخلين في عموم هذه القضيّة الكليّة، فهم سينالون عذاب السعير، إذا انتهت مدّة امتحانهم قبل أن يتوبوا ويستغفروا ويُصْلِحوا.

المثال الثالث: في الآية (٢٠) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ في معالجة نفسه ممّا يعتلج فيها بسبب رفض كفار قومه أن يؤمنوا به، لأنه بَشَرٌ يأكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأسْوَاقِ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وجعلنا بعضكم يا أيّها الناس لبعضٍ فتنة (= مادَّة لِلامْتِحَان).

ولـمّا كان الرسول ﷺ واحداً من عموم الناس فهو عرضة لهذا الامتحان.

وجاءت جملة ﴿أَتَصْبِرُونَ ۗ﴾ قضيّة كلية، والرسول في عمومها مدعوٌّ لهذا الصبر.

وجاءت جملة: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ قضيَّةً كليّةً أيضاً، وحالة الرسول مع قومه من الحالات التي يُبْصِرُها اللّهُ وَيَعْلَمُها، ويَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُعَالِجُها بِحِكْمَتِهِ فَيَنْصُرُ رَسُولَه وَيَخْذُلُ أَعْدَاءَه.

المثال الرابع: في الآية (٢٦) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ بشأن بعض أحوال يوم القيامة:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وكان يوم القيامة يوماً عسيراً على كلّ الكافرين، ولمّا كان المتحدّث عنهم في السورة هم من الكافرين كان يوم القيامة يوماً عَسِيراً عليهم، إذا ماتوا وهم على كفرهم.

المثال الخامس: في الآية (٢٧) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: ويوم يعض كلّ ظالم على يديه ويقول كلّ ظالم: يا ليتني.

ولمّا كان المتحدّث عنهم في السورة من الظالمين، كما جاء في الآية (٨) عنهم، كانوا من الذين يعضون على أيديهم، ويقول كل واحد منهم: يا ليتني. . .

المثال السادس: في الآية (٢٩) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: خذولاً لكلّ إنسان، ولمّا كان كلُّ واحِدٍ من المتحدَّث عنهم التَّابِعِين للشيطان تأثُّراً بوَسَاوِسِه وتَسْوِيلاته هو إنْسَان كانَ من الذين يَخْذُلُهم الشيطان يوم الدِّين لأنَّه خَذُولُ لِلإِنْسان.

المثال السابع: في الآية (٣٧) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.

أي: واعْتَدْنَا لكلّ الظّالمين عذاباً أليماً، ولمّا كان قوم نوحٍ من

الظالمين كانوا من الّذين أعدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً يَذُوقُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ.

وكذلك لمَّا كانَ كُفَّار مكّة من الظالمين، كانوا من الذين أعدّ الله لهم عذاباً أليماً يَذُوقُه مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ عَلَىٰ كُفْرِهِ.

المثال الثامن: في الآية (٥٥): من السُّورَةَ يَقُولُ الله عزَّ وجلّ بشَأْنِ المتحَدَّثِ عَنْهُم فِيهَا وهُمْ كُفَّار مَكَّة إبَّان تَنْزِيلِها:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

أي: وَكَانَ كُلّ كَافِرٍ عَلَى رَبّه ظَهِيراً، ولمّا كَانَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ المتحدّث عنهم هُو كافرٌ، كَانَ ظَهِيراً علَىٰ ربّه.

❁ ❁ ❁

(٤) الالتفات

الالتفات هو الانتقال في الكلام بين الضمائر مع اتّحاد المقصود، كالانتقال من المواجهة بالخطاب إلى الحديث بضمير الغائب، ومن ضمير المتكلّم إلى ضمير الغائب، ونحو ذلك، مع أنّ المقصود واحد.

وقالوا في تعريفه: هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلُّم، والخطاب، والغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها.

ويُلَقَّبُ الالتفات بـ«شجاعة العربيّة».

ومن أغراض الالتفات التنويع في أساليب الكلام، لأنّ النُّفوسَ تُحبُّ التجديد، وتملُّ الوتيرة أو النَّمَطِيَّة الوَاحِدَة، فبالتجديد يتجدّد الانتباه لإدراك الدَّلَالَاتِ المقصوداتِ مِن الكلام.

وللالتفات أغراضٌ أُخرى يمكن استنباطُها لدى تحليل كلّ نصٍّ من النصوص المشتملة عليه.

قالوا: وله ست صور، وهي كما يلي:

١ ـ الانتقال من التكلّم إلى الخطاب.

٢ ـ الانتقال من التكلّم إلى الغيبة.

٣ ـ الانتقال من الخطاب إلى التكلّم.

٤ ـ الانتقال من الخطاب إلى الغيبة.

٥ ـ الانتقال من الغيبة إلى التكلّم.

٦ ـ الانتقال من الغيبة إلى الخطاب.

الأمثلة:

المثال الأول: في الآيات (من ٤٥ إلى ٤٩) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

في هذا النصّ التفات من الغيبة في ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ إلى ضمير المتكلّم العظيم في: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ فإلى الغيبة في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا... ـ حتى ـ: بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ فإلى ضمير المتكلّم العظيم في: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا... ـ حتى ـ: وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾.

ونلاحظ أنّ في هٰذه الالتفاتات تَنْوِيعاً جَمَالِيّاً يشُدُّ الانْتِباه، ويُعلّمنا كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ التَّنْوِيعُ فِي الكَلَامِ.

ومع هٰذا التَّنْوِيعِ الجَمَالِي يُلاحَظُ أيضاً ما يلي:

١ - غرض إظهار عظمة التقدير الحكيم البديعِ من الربّ العظيم، وغرض إظهار الامْتِنَانِ مِنَ الرّب العظيم على عباده في إتْقَانِ وضْعِ الأرْضِ والشَّمْسِ في مَواضِعِهِمَا مِنَ الْفَلَكِ، وإتقانِ حَرَكَةِ الأرض حَوْلَ نَفْسِهَا باتّجَاهِ الشَّمْسِ في دَوْرَةِ اللَّيل والنهار.

دلّ على ذلك ضمير المتكلّم العظيم في: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

٢ - وغرض إظْهَارِ عَظَمَةِ التَّقْدِيرِ الحَكِيم البَدِيعِ من الرّب العظيم في إنزال الماء الطهور من السماء بوسيلة التبخّر بحرارة الشمس، مع حركة اختلاف درجة الحرارة الناتج عن حركة الأرض حول نفسها كلّ يوم، وحول الشمس كلّ عام شمسيّ.

وغَرَضُ الامْتِنَان مِنَ الربِّ العَظِيمِ عَلَىٰ عِباده بإنزال الماء من السماء الذي فيه حياة النبات والحيوان ومنافع كثيرة للناس.

كلّ ذلك في: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

وقد دلّ على ذلك أيضاً ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّم الْعَظِيم.



(٥) الكناية والتعريض

الكناية: التعبير عن قضيّة مع إرادَةِ مَعْنًى آخَرَ هُوَ مِنَ اللَّوازم الفكريّة لها.

والتعريض: التعبير عن قضيّة ضمن مجراها الحقيقي أو المجازي،

للإشارة بها إلى أمرٍ آخر ليس هو من اللّوازم الْفِكْرِيَّةِ لِلقضيّة، لكنَّهُ يُفْهَمُ مِنَ الْقَرَائِن.

• ويلاحظ من الكناية أو التعريض في سورة (الفرقان) مثالان:

المثال الأول: في الآية (١٢) منها يقول الله عزَّ وجلّ في وصف السعير.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

فدَلَّ الْعُدُول فِي التَّعْبِير عَنْ بَيَانِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ السَّعِير إِلىٰ أنّ السَّعِيرَ هِيَ الَّتِي تَرَاهُمْ مَعَ إِثْبَاتِ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ تَغَيّظَهَا وزَفِيرَهَا علىٰ أَنَّ أَبْصَارَهُمْ مَحْجُوبَةٌ عَنْهَا، فَقَدْ يَدُلّ هٰذا عَلَىٰ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ حِينَئِذٍ عُمْيَاناً.

وفي الآيَة إسْنَادُ الرُّؤْيَة إِلَىٰ السَّعِير عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ، أي: إِذَا صَارَتِ السّعِيرُ فِي مَكَانٍ يُمْكِن فِيهِ أَنْ تَرَاهُمْ لَوْ كَانَ لَهَا بَصَرٌ كَأَبْصَارِ الأَحْيَاءِ، فاسْتُعِيرَتِ الرُّؤْيَةُ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ وُصُولِ النّارِ إِلَىٰ مَسَافَةٍ يَرَىٰ مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ أهْلِ الرُّؤْيَةِ الكَافِرِينَ الْمَجْمُوعِين في أَرْضِ الْمَحْشَرِ بانْتِظَارِ إِدْخَالِهِمْ فِيها.

أو عَلَىٰ سَبِيلِ الْمَجَازِ بالْحَذْفِ: أيْ: إِذَا رَأَتْهُمْ مَلَائِكَتُها، لَكِنَّ الاسْتِعَارَةَ هُنَا أَوْلَى بالاعْتِبار، فَهِي أَكْثَر إِبْداعاً.

المثال الثاني: في الآية (٢٧) منها يقول لله عزَّ وجلّ في معرض الحديث عن كفّار مكّة إبّان التنزيل:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ...﴾.

في هذا التعبير كناية عن النّدم الشديد، لأنّ من حركات النادم على مَا كَان منه أن يتصرّف تصرُّفاً يُؤْلم به نَفْسَه، ومنْ ذَلِكَ أن يَعَضّ عَلَىٰ يَدَيْهِ، أو يَضْرِبَ رَأْسَه، أَوْ يَلْطُم وجْهَه، وَلَو اسْتَطَاع الكَافِر يَوْمَ الدِّينِ أَنْ يَنْتَحِرَ لانْتَحر.

فالتعبير بعبارات تدلّ على بعض هذه الحركات والأعمال هو من الكناية عن الباعث لها وهو الندم الشديد.

● ويلاحظ من التعريض في سورة (الفرقان) ما جاء في الآية (٤٢) منها، فلْنَنْظر في قول الله عزَّ وجلّ خطاباً لرسوله بشأن كفّار مكة:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ تعريض لكفار مكة بأنّهم هم الذين يَنْزل العذاب بهم، وأنّهم هم الذين يظهر لهم أنّهم كانوا أضلّ سبيلاً، إذْ لم يهتدوا إلى سبيل نجاتهم من عذابِ رَبِّهُمْ علىٰ أيْدِي المُؤمنين فِي الدُّنيا، ومن عَذَابِ رَبِّهم في جَهَنَّم دَارِ العَذاب يَوْمَ الدِّين، وهذا المعْنَى يُفْهَمُ تَعْرِيضاً بمُسَاعَدةِ الْقَرَائِن.

❋ ❋ ❋

(٦) الإظهار في مقام الإضمار

من أساليب الكلام البليغ لتحقيق أغراضٍ فكرية في معاني الكلام، الإظهار في مقام الإضمار، وعكسه.

فمن الإظهار في مقام الإضمار في سورة (الفرقان) ما يلي:

المثال الأول: في الآية (٤) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ هو من الإظهار في مقام الإضمار، إذ الكلام السابق يتحدّث عن كفّار مكّة، وهُمْ أصْحَاب هذا

القول، فالكلام يستدعي الإِضمار، لكن جاء النصّ على خلاف هذا لحكمة بلاغية.

ويلاحظ أنّ الغرض من هذا الإِظهار وصْفُهُمْ بأنّهم قَدْ كَفَرُوا، بمعنى أنّهم ستروا الحقّ الواضح الذي عرفوه حقّاً في قرارة نفوسهم، وإذْ ستروه ظلماً زعموا زوراً أنّ القرآن إفكٌ لَيْسَ كَلامَ الله، وأنّ محمّداً افتراه، أي: اختلقه، وأنّ قوماً آخرين أعانوه على افترائه.

المثال الثاني: في الآيتين (٧ ـ ٨) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هو من الإِظهار في مقام الإِضمار، إذِ الكلام السابق يستدعي الإِضمار بأن يقال: وقالوا: إنْ تَتَّبعون إلّا رَجلاً مسحوراً.

ويُلاحظ أنّ الغرض من هذا الإِظهار في مقام الإِضمار وصْفُهم بأنهم ظالمون في قولهم لبعض الذين آمنوا بالرسول: إنْ تَتَّبعون إلّا رجلاً مسحوراً.

فلقد ظلموا بهذا القول الرسول الصادق الأمين ظلماً فاحشاً، وهم يَعْلَمُون أنّهم ظَالِمُون، لأنهم يَعْلَمُون أنّه غَيْرُ مَسْحُورٍ، لكنّهم يتّهِمُونَه بِأنّه مَسْحُورٌ ظلماً وعدواناً.

المثال الثالث: في الآية (٢١) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢١﴾.

لقد عرفنا أنّ الحديث في السورة يدور حول مقالاتِ وبَعْضِ أَعْمَالٍ صادرات عن كُبَراء كُفَّار مكَّة في مرحلة نزولها، وظاهر من سوابق هذا النص أنّ الكلام يستدعي الحديث عنهم بالإضمار، فيقال: وقالوا:

لكنّ الله عزَّ وجلّ قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فهو من الإظهار في مقام الإضمار.

ويلاحظ أنّ الغرض من هذا الإظهار بيان أن دافعهم الذي جعلهم يقولون مقالهم هذا أنّهم لا يَخافُونَ لِقَاء اللَّهِ للْحِسَابِ وَالجَزَاءِ يَوْمَ الدِّين، ولا يَتَوَقَّعُونَه، ولو أنهم كانوا يتوقعونه ويخافونه ما استكبروا هذا الاستكبار عَنِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ، ولا عَتوا هذا العتوّ حتى طلبوا أن يتلَقَّوْا الوحي مُبَاشرة عن الملائكة أو عن الله.

المثال الرابع: في الآية (٣٢) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

الحديث في سوابق الآية يتعلّق بكُبَراءِ كفّار مكة، والكلام عنهم يستدعي الإضمار، بأن يقال: وقالوا:

لكنّ الله تعالى قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فهو من الإظهار في مقام الإضمار.

ويلاحظ أنّ الغرض بيان أنّهم يعلمون أنّ القرآن كَلامُ الله، لَكِنّهُمْ يَسْتُرون هٰذِه الحَقِيقَةَ بِمَقَالَاتِهم، ومُقْتَرَحَاتِهِمْ واعْتَرَاضَاتِهم.

❊ ❊ ❊

(٧) استعمال الاستفهام في غير معناه الأصلي.

أَصْلُ الاسْتِفْهَام مَوْضُوعٌ لِطَلَبِ الْفَهْمِ أَوِ الإفْهَامِ، ويَخْرُجُ عَنْ هٰذا الْمَعْنَىٰ مَجَازاً إِلَىٰ مَعانٍ كَثِيرَةٍ.

وقد جاء في سورة (الفرقان) اسْتِعْمالُ الاستِفْهَامِ فِي غَيْرِ الْمَعْنَى الأَصْلِيِّ الَّذِي هُوَ لَهُ فِي وَضْعِ اللُّغَةِ، لِدَوَاعٍ بَلَاغِيَّةٍ.

الأمثلة:

المثال الأول: في الآية (١٥) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

نفهم من الاسْتِفْهَامِ في هذه الآية مَعْنَىٰ اسْتِثَارَةِ نُفُوسِهِم للتَّبَصُّر بِعِقَابِ المكذِّبين، وثَوابِ الْمُتَّقِين، عسَىٰ أَنْ يَتَأَثَّرُوا بالْوَعِيدِ فَيَرْهَبُوا، وبِالْوَعْدِ فَيَرْغَبُوا، فَيَكُونَ هَذَانِ المحْوَرَانِ بَاعِثَيْنِ لَهُمْ عَلَىٰ الإِيمَانِ بالرَّسُولِ واتِّبَاعِهِ.

المثال الثاني: في الآية (٢٠) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿أَتَصْبِرُونَ ۗ﴾؟

والْغَرَضُ الحَثُّ عَلَىٰ الصَّبْرِ بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الَّذِي فِيهِ رِفْقٌ فِي الطَّلَبِ، والمَعْنَى: اصْبِرُوا فالصَّبْرُ خَيْرٌ لَكُم.

المثال الثالث: في الآية (٤٠) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ﴾؟

الاستِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيريٌّ، ومَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَها، لَكِنَّهُمْ كَانُوا مُنْصَرِفِينَ عَنِ الاعْتِبَارِ بِهَا، لأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَخَافُونَ نُشُوراً.

والْغَرَضُ مِنْ اسْتِخْدَام الاسْتِفْهَام التَّقْرِيريّ هُنا انْتِزَاعُ اعْتِرَافِهِمْ، لِلَفْتِ أَنْظَارِهِمْ إلىٰ مَوْطِنِ الْعِبْرَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا آثَارُ قَومِ لُوطٍ عليه السلام.

المثال الرابع: في الآية (٤٣) يقول الله عزَّ وجلّ لرسوله:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾؟

الاسْتِفْهَامِ فِي: ﴿أَرَءَيْتَ﴾؟ بِمَعْنَىٰ اعْلَم، ولَكِنْ لَمْ يَأتِ تَكْلِيفاً بِفِعْلِ الأَمْرِ، وإِنَّمَا جَاءَ بِأُسْلُوبِ الاستِفْهَامِ: «أَرَأَيْتَ؟» أَيْ: أَعَلِمْتَ؟.

والاسْتِفْهَامُ فِي ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ هُوَ بِمَعْنَى أَنْتَ لَا تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً، وقدْ جَاءَ هٰذا النَّفْي بِأُسْلُوبِ الاستِفْهَامِ الَّذِي يَدُلُّ على أَنَّهُ لَيْسَ وَكِيلاً عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَكُونَ مَسْؤُولاً عَنْ إِيمَانِهِمْ أَوْ مُحَاسَباً عَلَىٰ كُفْرِهِمْ.

والْغَرَضُ بَيَانُ أَنَّ هٰذا المسْتَفْهَمَ عَنْهُ أَمْرٌ يَستدعي التَّعَجُّبَ بأُسْلُوبِ الاستِفْهَامِ، إذْ عَلَى الرَّسُول أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ يَقِينٍ بأَنَّهُ لَيْسَ وَكِيلاً عَلَى مَنِ اتَّخَذَ إلٰهَهُ هَوَاهُ، حَتَّىٰ يَحْمِلَ هَمَّ مَنْ كَفَرَ مِنْهُم.

المثال الخامس: في الآية (٤٤) يقول الله عزَّ وجلّ لرسوله:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

الاسْتِفْهَامُ هُنَا بمَعْنَى: لَا تَحْسَبْ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُون. ولَكِنْ لَمْ يَأْتِ بأُسْلُوبِ النهي، لِمَا فِي النَّهْي مِنْ عُنفِ المُوَاجَهَةِ بالتَّكْلِيفِ مَعَ عَدَمِ الدَّاعِي إِلَيْهِ، وإنّما جاء بأسلوبٍ أَلْطَفَ مُرَاعَاةً لمُقْتَضَىٰ الحَالِ، وكَانَ ذَلِكَ بأُسْلُوبِ الاستِفْهَام، لأنّ الجَوَابَ عَنِ الاسْتِفْهَامِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِوُجُوهٍ مِنْهَا: لَا أَحْسَبُ أَنَّ أكثرهم يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ، بخِلَافِ المُواجَهَةِ بالنَّهْيِ، فَإِنَّ الرّدّ يَكُونُ مِنَ الرَّسُول بِوَجْهٍ وَاحِدٍ، هُوَ إعلانُ السَّمْعِ والطَّاعَةِ، وهُوَ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ كَانَ يَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُون.

المثال السادس: في الآية (٤٥) يقول الله تعالى خِطاباً لِكُلّ ذِي فِكْرٍ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾.

فِي هٰذا الاسْتِفْهَامِ دَعْوَةٌ لِكُلّ مُتَفَكِّرٍ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ فِي هٰذِهِ الظَّاهِرَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا، ولكِنَّ هٰذِه الدَّعْوَةَ لَمْ تَأْتِ بأُسْلُوبِ الأَمْرِ، وإِنَّمَا جَاءَتْ بأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ عَنْ عَدَمِ حُصُولِ هٰذا التَّفَكُّر، تَرَفُّقاً بالْمَدْعُوِّين، لأنّ الْمَوْضُوعَ يَحْتَاجُ تَأَمُّلاً دَقِيقاً وبَحْثاً عِلْمِياً.



(٨) الإِيجاز بالحذف

من البلاغة الرفيعة الإِيجاز بالحَذْف، مع وُجُود ما يَدُلُّ عليه، من النصّ المَذْكُور باللَّفظ، أو مِنْ اللَّوازِم الفِكْرِيَّة.

وفي سورة (الفرقان) عدّة أمثلة من هذا الإِيجاز.

المثال الأول: في الآية الأولى من السورة يقول الله عزَّ وجل:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾.

وكذلك في الآية (٧):

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾.

لَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عزَّ وجَلّ مِنْ مُهِمَّاتِ الرَّسُولِ وَصْف الإِنْذَارِ، وبالتَّأمُلِ نُلاحِظُ أَنَّ الإِنْذَارَ هُوَ الْحَلَقَةُ الأَخِيرَةُ مِنْ حَلَقَاتِ سِلْسِلَةِ مُهِمَّاتِ الرَّسُولِ فِي رِسَالَتِهِ، وهٰذِهِ الْحَلَقَةُ تَدُلُّ بِاللُّزُومِ الفِكْرِيّ عَلَىٰ الْحَلَقَاتِ السَّابِقَاتِ لَهَا.

وذَلِكَ لأَنَّ الرَّسُولَ يَكُونُ فِي الْمَرْحَلَةِ الأُولَى دَاعِياً مُبَلِّغاً، ثُمَّ يَكُونُ مُبَيِّناً وشَارِحاً، ثُمَّ مُعَالِجاً بِمُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ والتَّرْبِيَةِ والتَّوْجِيهِ، ومِنْهَا

وَسَائِلُ الإِقْنَاعِ الكَثِيرَةِ الَّتِي تَدْخُل فِيهَا الْمُجَادَلَةُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وأَخِيراً تَأْتِي حَلْقَةُ الإِنْذَارِ الّتِي يُوَاجِهُ بِهَا مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ للدَّعْوَةِ، وَلَمَّا كَانَ أَكْثَرُ الْعَالَمِينَ مِنْ فِئَةِ الَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُونَ لدَعْوَةِ الرَّسُولِ كَانَ اللَّاصِقُ بِهِمْ أَخِيراً هُوَ الإِنْذَار، فَهُوَ حَظُّهُمْ مِنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

وبهٰذَا ظَهَرَ لَنَا أَنَّ ذِكْرَ الْإِنْذَارِ الَّذِي هُوَ آخِرُ حَلْقَاتِ سِلْسِلَةِ مُهِمّاتِ الرَّسُولِ يَدُلُّ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ بِاللّزُومِ الذِّهْنِيّ.

ومِثْلُ هٰذَا فِي اسْتِعْمَالَاتِ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَسُكَّانِها: «مَشَيْتُ عَلَىٰ سُورِ الصِّين» فإنّه يدلّ باللّزوم الذِّهْنِي عَلىٰ أنّه اتَّخَذَ كُلَّ الْوَسَائِلِ حَتَّى وَصَلَ إلىٰ السُّوَرِ وارْتَقَاهُ وَمَشَىٰ عَلَيْهِ. أَوْ يَقُولَ قَائِلٌ مِنَ أَهْلِ الصِّينِ وسُكَّانها: «طُفْتُ بِالْكَعْبَةِ الْمشَرَّفَةِ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ» فَإِنّهُ يَدُلُّ باللُّزومِ الذِّهْنِي عَلَىٰ أَنَّهُ اتَّخَذَ كُلَّ الوَسَائِلِ حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ مَكَّةَ وَطَافَ بالْكَعْبَةِ.

المثال الثاني: في الآية (٣) من السورة يصفُ الله عزَّ وجلّ آلهة المشركين بقوله:

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ... ﴿٣﴾﴾.

إنّ كَوْنَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً مَعَ حَاجَتِهِمْ إِلَىٰ جَلْبِ مَنَافِعَ لأنْفُسِهِمْ ودَفْعِ مَضَارّ عَنْهَا، يَدُلّ باللّزُومِ الذِّهْنِي عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِغَيْرِهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ.

وقد جَاءَ التَّصْرِيحُ بِهٰذَا اللَّازِمُ الذِّهْنِي في الآية (٥٥) من السورة فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

المثال الثالث: في الآية (١١) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾.

إنّ حَرْفَ ﴿بَل﴾ في هذه الآيةِ يَدُلُّ باللُّزُوم الذِّهْنِي عَلَىٰ مَحْذُوفٍ قَبْلَه، أيْ: لَيْسَ مَا يُقَدِّمُونَهُ مِن اعْتِرَاضَاتٍ عَلَىٰ الْقُرْآنِ أو عَلَىٰ الرَّسُول، ولَا ما يُقَدِّمُونَهُ مِنْ مُقْتَرَحَاتٍ. هُو للتَّثَبُّتِ مِنْ صِحَّةِ رِسَالَةِ الرَّسُولِ، وصِحَّةِ كَوْنِ هٰذا الَّذِي يُبَلِّغُه عَنْ رَبِّهِ كَلامَ اللَّه.

بَلْ مُشْكِلَتُهُمْ وَبَاعِثُهُم الدَّاخِلِيُّ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بالْجَزَاءِ ولا بِيَوْم الدِّين، لِذَلِكَ فَهُمْ لَا يُرِيدُونَ اتِّبَاعَ الرَّسُولِ والْإِيمَانَ بِهِ، لِئَلَّا يَلْتَزِمُوا بأَوَامِرِ الدِّينِ ونَواهِيهِ، فَيَعْمَلُوا بِوَاجِبَاتِهِ، وَيَجْتَنِبُوا مُحَرَّمَاتِهِ.

المثال الرابع: في الآية (٤٠) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ بِشَأْنِ كُبَرَاءِ كفار مكة:

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

إنّ حَرْفَ ﴿بَل﴾ فِي هٰذِهِ الآية يَدُلُّ باللُّزُومِ الذِّهْنِيِّ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ بَعْدَهُ، وباستطاعة المتدبّر المتأنّي أن يكتشفه، فالمعنى: بل كانوا يَرَوْنَها، ولَكِنْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً.

المثال الخامس: في الآيتين (٢٥ ـ ٢٦) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

لقد جَاءَتْ هَاتَانِ الآيتان جَواباً على طَلَب كُبَراء كُفّار مكّة أنْ يتَلقَّوا الْوَحْيَ مِنَ المَلائِكَةِ مُبَاشَرة دُون وِسَاطَةَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ، أَوْ مِنْ رَبِّهِمْ

مُبَاشَرَةً مِنْ خِلَالِ طَلَبِهِمْ رُؤْيَتَهُ، كَمَا جَاءَ بيانُه في الآية (٢١) وقد جاء في الآية (٢٢) بَيَانُ أَنَّ رُؤْيَتَهُمْ للملَائِكَةِ لَا تَكُونُ مُقْتَرِنَةً بِبُشْرَىٰ لَهُمْ بَلْ تَكُونُ بِمَا يُخِيفُهُمْ حَتَّى يَقُولُوا: حِجْراً مَحْجُوراً، وهٰذا يَكُونُ عِنْدَ مَوْتِهِمْ.

أمّا يَوْمَ القيامَةِ فَتُنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ مِنَ السَّمَاءِ فِي مَوَاكِبَ عَلَىٰ أَهْلِ الْمَوْقِفِ.

وقد سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) قوله:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

ثمّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ في سُورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) تأْكِيدَه، فَقَالَ تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

وجَاء فِيما رُوِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وصْفُ نُزُول الملائكة لمَوْقِفِ الحِسَابِ، وفِيه: «وَيَنْزِلُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَمَعَهُ الْكُرُوبِيُّونَ».

فدلّ هذا على أنّ الملائكة تُنَزَّلُ بأَمْرِ اللَّهِ، وأنّ الرَّبَّ يَجِيءُ لِلْحِسَابِ والْجَزَاءِ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرِ: وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً وَجَاءَ رَبُّكَ.

قد دلّ على هذا الحذف أمران:

الأمر الأول: قَرِينَةُ السُّؤَالِ.

الأمر الثاني: ما سَبَقَ أَنْ نَزَلَ مِنْ قُرآنٍ فِي سُورَةِ (الفجر).

ثم جَاءَ تَأْكِيدُهُ بِصَرْيحِ الْعِبارَةِ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي سُورَةِ (البقرة) أَوَائِلَ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ.

المثال السادس: في الآيتين (٣٠ ـ ٣١) من السورة قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

في هذا النصّ نُلاحُظ أنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾، قَدْ دَلَّ عَلَى أَمْرٍ مَكْتُومٍ بَيْنَ شَكْوَىٰ الرَّسُولِ الْمُعْلَنَةِ وَبَيْنَهُ، وَهٰذا الْمَكْتُومُ هُوَ شَيْءٌ آخَرَ غَيْرُ الَّذِي أَعْلَنَهُ الرَّسُولَ.

لِكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلّ بَنَىٰ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ﴾.

وَيَسْتَطِيعُ الْمُتَدبِّر أَنْ يَكْتَشِفَ هٰذَا الَّذِي كَتَمَهُ الرَّسُولُ وَلَمْ يُصَرِّحْ بِهِ النَّصُّ الْقُرآنيّ، وَهُوَ أَنّ قَوْمَهُ اتَّخَذُوهُ عَدُوّاً وبَدَؤُوا يُعِدّونَ الْعُدَّةَ لِحَرْبِهِ، وَحَرْبِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَقَمْعِ دَعْوَتِهِ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ فَأَشَارَ إِلَىٰ الْمَكْتُومِ الْمَطْوِيِّ فِي اللَّفْظِ باسْمِ الإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ الْبَعِيدِ، أيْ: وَكَمَا اتّخذَكَ قَوْمُكَ عَدُوّاً وبَدَؤُوا يُعِدُّونَ الْعُدَّةَ لِحَرْبِكَ، جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً مِنَ الْمُجْرِمِينَ.

إذن: فَلا يَضِقْ صَدْرُكَ مِنْ هٰذَا الأَمْرِ، وأَعِدَّ العِدَّةَ لِمُوَاجَهَةِ حَرْبِهِمْ بِحَرْبٍ مُضَادَّةٍ، وَسَيَهْدِيكَ رَبُّكَ إِلَىٰ سُبُلِ السَّلَامَةِ مِنْهُمْ، وَيَنْصُرُكَ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

المثال السابع: في الآيتين (٣٢ ـ ٣٣) من السورة قال الله عزَّ وجل:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى في هذا النصّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ يُفْهَمُ مِنَ السَّوَابِقِ واللَّوَاحِقِ.

وباسْتِطَاعَةِ الْمُتَدَبِّرِ أَنْ يَكْتَشِفَ هٰذَا الْمَحْذُوفَ، فَالمَعْنَى: أَنْزَلْنَا مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مُنَجَّماً، وَسَنُنَزِّلُ مَا بَقِيَ مِنَ الْقُرْآنِ مُنَجَّماً كَذٰلِكَ التَّنْزِيلِ الَّذِي اعْتَرَضُوا عَلَيْهِ واقْتَرَحُوا خِلَافَه لِلْحِكَمِ التَّالِيَة.

١ ـ لِنثبّت به فؤادك.

٢ ـ ولِنُرتّله تَرْتيلاً.

٣ ـ ولِنُتَابع أقْوالَ أَهْلِ الاعْتِرَاضِ، بِبَيَانِ الْحَقِّ، وَبَيَانِ مَا هُوَ أَحْسَنُ تَفْسِيراً.

المثال الثامن: في الآية (٣٤) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

هٰذه الآيةُ تَدلُّ عَلَىٰ أنّ مَوْقِفَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الرَّسُولِ ومِنَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَدْ كَانَ مَوْقِفَ الْمُحْتَقِر الْمُزْدَرِي لِمَكَانَتِهِمْ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي مَكَّةَ، والسَّاخِرِ مِنْ عَدَمِ تَوَصُّلِهِمْ إِلَىٰ سَبِيلٍ يَتَخَلَّصُونَ بِهِ مِن اضطّهَادِ الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي مَرْحَلَةِ الاضطّهادِ مِنْ أَجْلِ الدّين.

لَكِنْ لَمْ يَأْتِ فِي سَوَابِقِ الآيَةِ التَّصْرِيحُ بِبَيَانِ هَذَا الْمَوْقِفِ، بَيْدَ أَنَّ إِيرَادَ الآيَةِ بِهٰذِهِ الصِّيغَةِ يُشِيرُ إِلَيْهِ ضِمْنَاً، مَعَ دَلَالَةِ مَا جَاءَ فِي الآية (٣١) الْمُشِيرَةِ إِلَى أنّ كُفَّارَ مَكَّةَ قَدْ أَعْلَنُوا عَدَاوَتَهُمْ لِلرَّسُلِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وَبَدَؤوا يُعِدُّونَ لِلْحَرْبِ.

المثال التاسع: مَا يُلاحَظُ مِنَ الاخْتِزَالِ الشَّدِيدِ فِي عَرْضِ قِصَّةِ مُوسَىٰ وقَوْمِهِ، وهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ الْحَذْفِ، والاكْتِفَاءِ بالْتِقَاطِ ثَلَاثِ جُمَلٍ مِنَ الْقِصَّةِ الطَّوِيلَةِ.

وكذٰلِكَ فِي سَائِرِ العِبَرِ الَّتِي وَرَدَتْ بَعْدَهَا مِنْ قِصَصِ السَّابِقِينَ.

المثال العاشر: في الآية(٤١) يقول الله عزَّ وجلّ لرسوله بشأن كبراء كفّار مكة:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

من الظاهر في هذه الآية حَذْفُ مَحْذُوفٍ قَبْلَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ ويمكن تقديره كما يلي: وقَالُوا: أَهٰذا الَّذِي... أوْ: قَائِلِينَ: أَهَذَا الذي...

❁ ❁ ❁

(٩) القصر

في هٰذه السورة من أمثلة القصر ما يلي:

المثال الأول: ما جاء في قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

أي: ما تَتَّبِعُونَ يا أيُّها المؤمِنُونَ بِرِسالة مُحَمَّد إلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً، لَا نَبِياً مُرْسلاً من رَبِّه.

فقَصَرُوا صِفَةَ اتّباعِهِمْ عَلى اتّباعِ رجُلٍ مَسْحُور، وهو قصْرٌ إضافيّ، أي: بالإضافة إلى اتّباعهم في قضايا الدّين، إذْ لهم اتّباعٌ آخَرُ في غير قضايا الدّين.

المثال الثاني: ما جاء في قول الله عزَّ وجلّ خطاباً لرسوله وَرَداً على اعتراض الّذِينَ كَفَرُوا:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ... ﴿٢٠﴾﴾.

في هٰذا النَّصِّ بَيانُ قَصْرِ صِفَةِ إرْسَالِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ لِتَبْلِيغِ دِينِ اللَّه

للناس على بَشَرٍ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ في الأسواق.

وهو قَصْرٌ حَقيقيٌ مِنْ قبيل قَصْرِ الصفة على الموصوف.

المثال الثالث: مَا جَاء في قول الله عزَّ وجلّ خطاباً لرَسوله بشأن اعْتراضِ الَّذِين كَفَرُوا على تنزيل القرْآن منجّماً:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ومِنْ حِكَم تَنْزِيل الْقُرآنِ مُنَجّماً، أَنْ نَرُدَّ على اعْتِرَاضَاتِ الكافِرين بالبيانات الشافيات، فلا يأتُونَ باقتراحٍ على خلاف مقتضىٰ الحكمةِ الّتي راعيناها، إلَّا جِئْنَا بردٍّ فيه بيَانُ الحقّ، أوْ فِيهِ بيان الْوَجْهِ الأحْسَنِ والأَحْكَمِ الَّذِي اخْتَرْنَاهُ.

وهو قَصْرٌ حَقِيقيٌ من قبيلِ قَصْرِ مَا يأتون به من مقْتَرحات علىٰ الرَّدّ الرَّبّاني بما هُوَ الحقُّ أو الأحْسَنُ تَفْسِيراً.

المثال الرابع: ما جاء في قَوْلِ اللّهِ عَزَّ وجلّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ بشَأْنِ الكافِرِينَ بِهِ:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾

أي: مَا يَتَّخِذُونَكَ إلَّا مَهْزُوءاً به، وفي هٰذا قَصْرُ اتخاذِهِمْ لَهُ علىٰ صفة الهزْءِ به، وهو قَصْرٌ إضافي كما هو ظاهر.

المثال الخامس: ما جاء في قول اللّهِ عزَّ وجلّ خطاباً لِرَسُولِهِ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

في هذه الآية بَيَانُ قَصْرِ إرْسَال الرَّسُولِ عَلَى كونِهِ مبشّراً ونَذِيراً، وهو قَصْرُ إضافي كما هو ظاهر، وهو من قبيلِ قَصْرِ الموصوف على صفة.

❁ ❁ ❁

(١٨)
الملحق الثالث

حَولَ البيان المقرون بالحجّة والبرهان
وبالتفسيرات الموضّحاتِ لِلحكمة من الاختيار الرّباني في السّورة

إذَا كَانَتِ الْقَضِيَّةُ الْمَعْرُوضَةُ فِي الْبَيَانِ مِنَ قَضَايَا الحَقّ، الَّتِي يُرَادُ الإِقْنَاعُ بِهَا، وجَدْنَا الْقُرآنَ يُقِيمُ عَلَيْهَا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ الْعَقْلِيَّة المثْبِتَةَ لَهَا.

وإِذَا كَانَتْ الْقَضِيَّةُ الْمَعْرُوضَةُ فِي الْبَيَانِ مِنْ قَضَايَا الباطِل، الَّتِي يُرادُ الإِقْنَاعُ بِبُطْلَانِها وفَسَادِها، وجَدْنَا الْقُرْآنَ يُقِيمُ الأدِلَّةَ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ الْكَاشِفَةِ أَنَّهَا بَاطِلٌ لَا يَلِيقُ بِذِي عَقْلٍ أنْ يَعْتَقِدَهَا وَيَسْتَمْسِكَ بِهَا.

وإِذَا كَانَتْ الْقَضِيَّةُ الْمَعْرُوضَةُ فِي الْبَيَانِ مِنَ الأُمُورِ ذَاتِ الاحْتِمَالَاتِ الْمُتَعَدِّدَاتِ، والَّتِي تُقَدَّمُ فِيهَا عِدَّةُ مُقْتَرَحَاتٍ، لَكِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ اخْتَارَ وَاحِداً مِنْهَا فِي تَدْبِيرِهِ لِكَوْنِهِ أَوْ لِشُؤُونِ عِبَادِهِ، وَجَدْنَا الْقُرْآنَ يُفَسِّرُ وَجْهَ الحِكْمَةِ مِنَ الاخْتِيَارِ الرَّبَّانِيِّ، كَمَا فِي قَضِيَّةِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنَجَّماً لا دُفْعَةً وَاحِدَةً.

ونلاحظ في سورة (الفرقان) من ذلك ما يلي:

● أولاً:

عَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وجلّ فِيهَا عِدَّة قَضَايَا مِنْ قَضَايا حَقَائِقَ الإِيمَانِ، وأَتْبَعَهَا فِي ثَنَايَا السّورَةِ بِالحُجَجِ والْبَرَاهِينِ الدَّالّاتِ عَلَىٰ ثُبوتِها، وأَنَّهَا مِنْ قَضَايَا الْحقّ.

وعَرَضَ عِدَّةَ قَضَايَا مِنْ قَضَايَا بَاطِلِ الْمُشْرِكِينَ الّذين كَفَرُوا، وأَتْبَعَهَا فِي ثَنَايَا السُّورَةِ بالحُجَج والبَراهِينِ الدّالّاتِ عَلَىٰ أنّها باطِلٌ، وأَنَّ اعْتِقَادَهَا يَتَنَافَى مَعَ مَنْطِقِ الْعَقْلِ وَمَوَازِينِهِ الْفِطْرِيَّةِ السَّلِيمَة.

١ ـ فكَوْنُ اللَّهِ عزَّ وجلّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، قَدْ جَاءَ فِي السُّورَةِ الاسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ مِنَ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ الّتي هِيَ آثَارُ خَلْقِه وَحْدَه، لَا شَرِيكَ لَهُ، إذْ هِيَ آثَارُ رَبٍّ خَالِقٍ وَاحِدٍ أَحَدٍ فَرْدٍ لَهُ كُلّ صِفَاتِ الْكَمَالِ.

وَهٰذَا الاسْتِدْلَالُ يَظْهَرُ فِي الآيَاتِ الَّتِي أَرْشَدَتْ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ فِي الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّة، انظر الآيات (من ٤٥ إلى ٤٩) و(٥٣ ـ ٥٤) و(٥٩ ـ ٦١ ـ ٦٢).

وَيَلْزَمُ عَقْلاً مِنْ كَوْنِهِ خَالِقاً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَمَالِكاً لِكُلِّ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، أَنَّهُ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ، فَهُوَ مُنْذُ الأَزَلِ مُسْتَغْنٍ عَنِ الشَّرِيكِ، والصَّاحِبَةِ، وَالْوَلَدِ، ولَمَّا كَانَ فِي أَزَلِيَّتِهِ مُسْتَغْنِياً عَنْ كُلِّ ذَلِكَ، فَإِنَّ مَا كَانَ أَزَلِيّاً لَا يَتَبَدّلُ، فَلَا يَكُونُ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ شَرِيكٍ، أَوْ صَاحِبَةٍ، أَوْ وَلَد.

فَسِلْسِلَةُ الْبُرْهَانِ تَبْدَأُ مِنَ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ، ثُمَّ تَنْتَقِلُ إِلَىٰ اللَّوَازِمِ الْعَقْلِيَّةِ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ حَقَائِقَ أُخْرَىٰ تَهْدِي إِلَيْهَا اللَّوَازِمُ.

وَكُلُّ ذَلِكَ يُخَاطِبُ اللَّهُ عَزَّ وَجلّ بِهِ الْعُقُولُ، بِسَبَبِ مَا فَطَرَهَا عَلَيْهِ مِنْ مَوَازِينَ مَنْطِقِيَّةٍ عَقْلِيَّةٍ فِطْرِيَّةٍ، تَتَحَاكَمُ إِلَيْهَا فِي مُخْتَلِفِ قَضَايَا الْفِكْرِ.

٢ ـ وَقَضِيَّةُ اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ، قَدْ جَاءَ فِي السُّورَةِ الاسْتِدْلَالُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لِلَّهِ فِي الْوَاقِعِ، وادِّعَاءُ أنَّ لله عزَّ وجلّ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ ادِّعَاءٌ بَاطِلٌ، لَا يَصِحُّ بِأَيّ وَجْهٍ مِنَ الْوَجُوهِ.

والاسْتِدْلَالُ عَلَىٰ فَسَادِ الْفِكْرِ الَّذِي اتّخَذَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: بُرْهَانُ إِثْبَاتِ تَوْحِيدِ االرّبُوبِيّةِ والْخَلْقِ والْمِلْكِ لِلَّهِ عزَّ وجلّ.

الأمر الثاني: بُرْهَانُ التَّجْرِبَةِ الَّذِي يُثْبِتُ أنَّ هٰذِهِ الآلِهَةَ لَا تَمْلِكُ لأنْفُسِهَا دَفْعَ ضَرّ ولَا جَلْبَ نَفْعٍ، ولَا تَمْلِكُ لِغَيْرِهَا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ.

وهٰذَانِ الْبُرْهَانَانِ كَافِيَانِ لإسْقَاطِ مَقُولَةِ الْمُشْرِكِينَ، فِي اتِّخَاذِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ، ولِبَيَانِ فَسَادِهَا وبُطْلَانِها.

● ثانياً:

عَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ مَقَالَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا حَوْلَ الْقُرْآنِ، وأبَانَ أنَّهَا مَقَالَاتُ ظُلْمٍ وَزُورٍ، لأنَّهَا دَعَاوىٰ غَيْرُ مُقْتَرِنَةٍ بأيِّ دَلِيلٍ، فَهِيَ سَاقِطَةٌ مِنْ تِلْقَاءِ أنْفُسِهَا، وذَلِكَ لأنَّ الدَّعَاوَىٰ لَوْ كَانَتْ تُقْبَلُ بِمُجَرَّدِ إلْقَاءِ كَلِمَةِ الادِّعَاءِ، أَوِ الاتِّهَامِ، لاسْتَطَاعَ أيُّ سَخِيفٍ أو أحْمَقَ أَنْ يَقُولَ حِينَ تَكُونَ الشَّمْسَ مُشْرِقَةً تَغْمُرُ أشعَتُهَا مَا امْتَدّ إلَيْهِ الْبَصَرُ مِنَ الأرْضِ، إنَّ الوَقْتَ لَيْلٌ دَامِسٌ، ولَا تُوجَدُ شَمْسٌ مُشْرِقَةٌ هُنَا.

● ثالثاً:

عَرَضَ الله عَزَّ وَجلّ مُقْتَرَحَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا حَوْلَ الرَّسُولِ، وَحوْلَ الْقُرآنِ، وأَبَانَ أنَّهَا مُقْتَرَحَاتٌ تُخَالِفُ الاحْتِمَالَ الأَحْكَمَ والأفْضَلَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَاقِعُ عَلَيْهِ، فاشْتَمَلَ الْبَيَانُ عَلَىٰ تَفْسِيرِ أنَّ الاحْتِمَالَ الْمُخْتَارَ فِي الإرَادَةِ الرّبّانِيَّةِ هُوَ الأَحْسَنُ والأفْضَلُ والأَحْكَمُ.

● رابعاً:

عَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَضِيَّةَ إنْكَارِ مُشْرِكِي مَكَّةَ صِفَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ، واسْمَ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ، وأتْبَعَهُ بالاسْتِدْلَالِ مِنَ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وأنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ.

❋ ❋ ❋

(١٩)
الملحق الرابع
في منهاج الدعوة ووسائل التربية

نستَنْبِطُ مِنْ سُورَةِ الفُرْقَانِ لِمِنْهَاجِ الدَّعْوَةِ وَوَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ مَا يَلِي:

● أولاً:

الإِعْرَاضُ فِي تَوْجِيهِ الْبَيَانِ عَمَّنْ تولّى وكَفَرَ، بَعْدَ أَنْ وَصَلَ إِلَىٰ حَالِ الْمُكَابَرَةِ وَالعِنَادِ، وَمُعَادَاةِ الرَّسُولِ والمُؤْمِنِينَ، والْعَمَلِ عَلَىٰ قَمْعِ الدَّعْوَةِ بِالْقُوَّةِ، وَهوَ الْمَوْقِفُ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ كُفَّارُ مَكَّةَ فِي مَرْحَلَةِ نُزُولِ سُورة (الفرقان).

فَمِنَ الْمُلَاحَظِ في سورة (الفرقان) أَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ مِنْ حَدِيثٍ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَدْ جَاءَ بِأُسْلُوب الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ، أَوْ تَكْلِيفِ الرَّسُولِ مُخَاطَبَتَهُمْ، مِثْل:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

إِلَّا ما جاء في الآية (١٩) مِنْها في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

فَفِيهِ مُوَاجَهَةٌ بِالْوَعِيد.

أمّا قولُهُ تَعَالَىٰ فِي هٰذِهِ الآيَةِ نَفْسِها.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾.

فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً لِمَا يُقَالُ لِلْمُشْرِكِينَ فِي مَوْقِفِ مُحَاسَبَتِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، وقَدِ اقْتُطِعَ هٰذَا الْقَوْلُ مِنْ مَشْهَدِ الْمُحَاسَبَةِ، وقُدِّمَ فِي الْبَيَانِ كَمَا هُو.

وَيُلاحَظُ أنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ أَنْ وَصَلُوا إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ، بأُسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ، فِيهِ مَعْنَىٰ نَبْذِهِمْ، والتَّوَلِّي عَنْهُمْ، أَوِ الإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، مَعَ إِسْمَاعِهِمْ مَا يُرَادُ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ وَهُمْ بِحُكْمِ الْغَائِبِ، أَوْ بِوِسَاطَةِ مُبَلِّغ.

● ثانياً:

التَّرْبِيَةُ عَنْ طَرِيقِ الإِقْنَاعِ بِوَسَائِلِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، ومِنْهَا:

١ ـ بَيَانُ الْحَقِّ، وإتْبَاعُهُ بالأدِلَّة الَّتِي تُثْبِتُ أَنَّهُ حَقٌّ «كَأَدِلَّةِ إثْبَاتِ التَّوْحِيدِ فِي السُّورَةِ، مِنْهَا مَا فِي الآيَاتِ مِنْ ٤٥ إلى ٤٩ و٥٣ ـ ٥٤، و٦١ ـ ٦٢».

٢ ـ بَيَانُ الْبَاطِلِ، وإتْبَاعه بِالأدِلَّةِ الَّتِي تَكْشِفُ أَنَّهُ بَاطِلٌ «كَأَدِلَّةِ إبْطَالِ الشِّرْكِ فِي السُّورَةِ «انظر الآيتين ٣ و٥٥».

٣ ـ الإِحَالَةُ عَلَى دَلِيلِ الْمُلاَحَظَةِ والتَّجْرِبَةِ «كَتَوْجِيهِ الأَنْظَارِ للتَّأَمُّلِ فِي الظَّاهِرَات الكَوْنِيَّةِ بُغْيَةَ مُلَاحِظَةِ مَا يُلَاحَظُ فِيهَا، وتَجْرِبَةِ مَا يُجَرَّبُ مِنْهَا، والْبَحْثِ والتَّنْقِيبِ عَنْ خَفَايَاهَا بُغْيَةَ التَّوَصُّلِ إِلَىٰ دَقَائِقِ الْمَعَارِفِ، واسْتِنْبَاطِ الكَوَامِنِ وإِدْرَاكِ مَا وَرَاء الظَّوَاهِرِ «وهٰذَا كَثِيرٌ فِي السُّورَة».

٤ ـ الإِحَالَةُ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ «كَمَا فِي الآية ٢٠».

٥ ـ سُؤالُ الْمُجْرِمِينَ أَهْلِ الْخِبْرَةِ، للتَّوَصُّلِ عَنْ طَرِيقِ خِبْرَاتِهِمْ وَتَجَارِبِهِمْ إِلَىٰ الْحَقِّ، مِثْلِ مَا جَاءَ فِي الآية (٥٩): ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

٦ ـ تَفْسِيرُ تَرَاتِيبِ الْقَضَاءِ والْقَدَرِ بِمَا يَكْشِفُ وَجْهَ الحِكْمَةِ «كَالتَّفْسِيرَاتِ الَّتِي كَشَفَتْ وُجوهَ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي اخْتِيَارِ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ، وَعَدَمِ إعْطَائِهِ الْخَوارِقَ الَّتِي طَلَبَهَا الَّذِينَ كَفَرُوا، لأَنَّهَا مَطَالِبُ تَعَنُّتِيَّة، لَا مَطَالِبُ بَاحِثٍ عَنْ دَلِيلٍ لإِثْبَاتِ الحَقِّ والصِّدْقِ، وَكَشَفَتْ وُجُوهَ الْحِكْمَةِ فِي اخْتِيَارِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ مُفَرّقاً».

● ثالثاً:

التَّرْبِيَةُ عَنْ طَرِيقِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ بأَسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ، منها ما يلي:

١ ـ الوَعْدُ بِمَا أعَدَّ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم «كالَّذِي جَاءَ فِي الآيَاتِ ١٥ و١٦ و٢٤ و٧٥ و٧٦ من السورة».

٢ ـ الْوَعِيدُ بِمَا أعْتَدَ اللَّهُ لِلْمُجْرِمِينَ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ «كالَّذِي جاءَ فِي الآياتِ ١١ و١٢ و١٣ و١٩ و٦٩».

٣ ـ اقْتِطَاعُ مَشَاهِدَ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، لِكَشْفِ أَنَّهَا أُمُورٌ مُدَبَّرةٌ تَدْبِيراً كَامِلاً، مَرْسُومَةٌ رَسْماً دَقِيقاً بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا، حَتَّىٰ كَأَنَّهَا أُمُورٌ قَدْ وَقَعَتْ فِعْلاً، وَالْبَيَانُ يَحْكِي قِصَّةَ أَمْرٍ وَاقِعٍ بالْفِعْلِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ إِنْذَارٍ بِوَعِيدٍ عَامٍّ، سَتُدبَّر تَفَاصِيلُهُ فِيمَا بَعْدُ «كالَّذِي فِي الآيات ١٢ و١٣ و١٤ و١٧ و١٨ و١٩ و٢٢ و٢٣ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٤ من السورة».

٤ ـ تَوْجِيهُ الأفْكَارِ لِلاعْتِبَارِ بِمَا جَرَىٰ فِي سَالِفِ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ مِنْ جزاءاتٍ رَبَّانِيَّة، مَعَ الإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّهَا مِنْ ظَوَاهِرِ سُنَنِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا ولَا تَحْوِيلَ «كالذي في الآيات ٣٦ و٣٧ و٣٨ و٣٩ و٤٠».

ومعْلومٌ أنَّ سَوَابِقَ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ ولا سِيَّما التاريخُ البَشَرِيُّ، تُقَدِّمُ لِأُولِي الأَلْبَاب عِبَراً وعِظَاتٍ مُؤَثِّرَاتٍ، فِيهَا تَرْهِيبٌ وتَرْغِيبٌ، فالنَّاسُ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ سَوَابِقِ الأحْدَاثِ فَوَائِدَ كَثِيرَةً فِي حَيَاتِهِمْ.

فَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً فَتَعَرَّضَ فِيهِ لَمَكَارِهَ وَمَخَاطِرَ، كَانَتْ حَادِثَتُهُ تَارِيخاً يُذْكَرُ، وَيَعْتَبِرُ بِهِ وَيَتَّعِظُ كُلُّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْلُكَ هٰذَا الطَّرِيقَ.

وَمَنْ زَرَعَ زِرَاعَةً فَأَثْرَىٰ مِنْهَا كَانَتْ تَجْرِبَتُه قِصَّةً يَعْتَبِر بِهَا الْمُزَارِعُونَ، فَيُقَلِّدُونَهُ لَعَلَّهُمْ يُصِيبُونَ مِنَ الرِّبْحِ مِثْلَ مَا أَصَابَ.

ومَنْ سَرَقَ سَرِقَةً قُطِعَتْ يَدُهُ بِسَبَبِهَا، كَانَ مَا جَرَىٰ لَهُ عِبْرَةً وَعِظَةً لِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِأَنْ يَسْرِقَ، فَيَمْتَنِعُ لِئَلَّا تُقْطَعَ يَدُهُ.

٥ ـ الْوَعِيدُ بِالْعِقَابِ الْمُعَجَّلِ فِي الدُّنْيَا قِيَاساً عَلَىٰ أَمْثِلَةِ الْعِقَابِ الْمُعَجَّلِ الذِي جَرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ السَّابِقِينَ «كَمَا فِي الآية ـ ٣١ ـ بالإِشَارَةِ الضِّمْنِيَّةِ، والآية ـ ٤٢ ـ بالإِشَارَةِ الضِّمْنِيَّةِ أيضاً». وَهُوَ نَفْسُهُ وَعْدٌ للمُؤْمِنِينَ بالنَّصْرِ والتَّأْيِيدِ عَلَىٰ أعْدَائِهِمْ.

٦ ـ الْوَعْدُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ بِثَوَابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنْيَا، ومِنْهُ النَّجَاةُ مِنْ عَدُوِّهِمْ، والنَّصْرُ، والتَّمْكِينُ فِي الأرْضِ «كَمَا في إشارة الآيتين ٣١ و٤٢ من السورة» مع دلَالَةِ نَجَاةِ الرُّسُلِ والّذين آمَنُوا مَعَهُمْ فِي قِصَصِ الأَقْوَامِ الْمُهْلَكَةِ.

● رابعاً:

تَرْبِيَةُ الرَّسُولِ والدُّعَاةِ مِنْ بَعْدِهِ بالأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ «كَمَا فِي الآية ٢٠ والآية ٣١» وفِي هٰذِهِ التَّرْبِيَةِ إِقْنَاعٌ، وَتَسْلِيَةٌ، وَتَطْيِيبُ نَفْسٍ.

● خامساً:

معالَجَةُ نَفْسِ الرَّسُولِ تُجَاهَ أَنْوَاعِ الأَذَىٰ والصُّعُوبَاتِ الَّتِي لَقِيَهَا مِنْ قَوْمِهِ بما يلي:

١ ـ طَمْأَنَةُ قَلْبِهِ وَقُلُوب الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ.

٢ ـ تَهْدِيدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْعَاقِبَةِ الْوَخِيمَةِ.

انظر تفسير الآيات من (٣٤ إلى ٤٤).

● سادساً:

تَرْبِيَةُ الرَّسُولِ وَكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللَّهِ مِنْ بَعْدِهِ بالأُسْلُوبِ الْمُبَاشِرِ، عَنْ طَرِيقِ الأَمْرِ والنَّهْيِ، كما في:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

لأنَّ المَوْضُوعَ يَتَعَلَّقُ بِوَظِيفَةِ الرِّسَالَةِ، وَبَيَانِ التَّكَالِيفِ الوَاجِبَةِ فِيهَا.

- سابعاً:

تَرْبِيَةُ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللَّهِ والآمِرينَ بِالمَعْرُوفِ النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِينَ هُمْ فِئَةُ عَبَادِ الرَّحْمٰنِ وأَئِمَّةِ المُتَّقِينَ بِعَرْضِ صِفَاتِهِمْ عَرْضاً خَبَرِيّاً، وإِتْبَاعِهَا بِبَيَانِ مَنْزِلَتِهِمُ الرَّفِيعَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، لأنَّ الارْتِقَاء إِلَىٰ فِئَةِ الدُّعَاةِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الأفْرَادِ لَيْسَ أَمْراً إِلْزَامِياً، فالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ تَكُونُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّرْغِيبِ والنَّدْبِ، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِلْزَامِ والتَّكْلِيفِ الْفَرْدِي.

* * *

(٢٥)

الملحق الخامس

فيما ينبغي أن يتحلّى به أو يأخذ به الدّاعي إلى سبيل الله والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أخذاً من سورة الفرقان

نَسْتَنْبِطُ مِنْ سُورة (الفرقان) طَائِفَةً مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَلَّىٰ بِهَا أَوْ يَأْخُذَ بِهَا الدَّاعِي إِلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ والآمِرُ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ، والنَّاصِحُ والمُرْشِدُ، ومنها ما يلي:

- أوّلاً:

الصَّبْرُ عَلَىٰ أَنْوَاعِ الأَذَىٰ الَّتِي يَلْقَاهَا الدَّاعِي إِلَىٰ اللَّهِ والآمِرُ بِالْمَعْروفِ النَّاهِي عَن المنكر، والنَّاصح والمرشد، مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ يُوَجِّهُ لَهُم دَعْوَتَهُ وَنَصَائِحَهُ وَوَصَايَاهُ.

وَعَلَيْهِ أَنْ يَضَعَ فِي تَصَوُّرِهِ دواماً أَنَّهُ مُمْتَحَنٌ بِالَّذِينَ يُوَجِّهُ لَهُمْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ فِي السُّورة:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

• ثانياً:

أَلَّا يُطِيعَ الْكَافِرِينَ، فَلَا يَتَأَثَّرَ بِمُقْتَرَحَاتِهِمْ، وَمَزَالِقِهِمْ، وَمَا يَطْرَحُونَهُ مِنْ تَشْكِيكَاتٍ، عَمَلاً بقول الله لرسوله:

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

• ثالثاً:

أَنْ يُجَاهِدَ الكافرين بالقرآن جهاداً كبيراً، عملاً بِقَوْلِ الله لِرَسُولِه:

﴿... وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

• رابعاً:

أَنْ يَضَعَ فِي تَصَوُّرِهِ دَوَاماً أَنَّ رِسَالَتَهُ رِسَالَةُ تَكْلِيفٍ لِلتَّبْلِيغِ والإِقْنَاعِ والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ والتَّرْبِيَةِ، ثُمَّ الإِنْذَارِ بِعَذَابِ اللَّهِ لِمَنْ كَفَرَ وَعَصَىٰ، وَلَيْسَتْ رِسَالَتَهُ رِسَالَةَ تَكْلِيفٍ أَنْ يُحَوِّلَ النَّاسَ مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإِيمَانِ.

وأَخِيراً فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِمَنْ أَطَاعَ مُبَشِّراً، ولمن أبىٰ نذيراً، كما قال اللَّهُ لرسوله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

• خامساً:

أَنْ يُعْلِنَ لِلْجَمِيعِ أَنَّهُ مَا يَسْأَلُ النَّاسَ أَجْراً عَلَىٰ مَا يُقَدِّمُ لَهُمْ مِنْ هِدَايَةٍ وَخَيْرٍ، ومَا يَبْذُلُ مِنْ نُصْحٍ وَمُجَاهَدَةٍ، عَمَلاً بقول الله لرسوله:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

• سادساً:

أَنْ يَتَوَكَّلَ فِي مَسِيرَتِهِ ذَاتِ الأَعْبَاءِ الشَّاقَّةِ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وأَنْ يُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ آناءَ اللَّيْلِ وآناءَ النَّهَار وكُلَّما حَزَبَهُ أَمْرٌ، وأَنْ لا يَحْمِلَ هَمَّ مَا يُشَاهِدُ من ذُنوبِ عباد اللَّهِ الكثيرة، وأَنْ يُؤْمِنَ بأَنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بِهِمْ، عَلِيمٌ بأَحْوَالِهِمْ، وَكَفَىٰ بالله خبيراً بذُنوبِ عباده، عَملاً بقول الله عزّ وجلّ لِرَسُوله:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

• سابعاً:

أَنْ يَتَحَلَّى بِصِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ.



(٢١)

الملحق السادس

مِنْ أَدَبِ الرَّسُولِ مَعَ رَبِّهِ وَكَيفَ جَاءَ التَّعقِيبُ الرَّبَّانِيُّ

لَقَدْ كَتَمَ الرَّسُولُ مَا تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِهِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ نَفْسِهِ، ومِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَشْخَاصِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، أَدَباً مَعَ اللَّهِ، وَصَبْراً عَلَىٰ الشَّدَائِدِ، وَرِضاً بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

وَنَادَىٰ شَاكِياً مَا تَعَرَّضَ لَهُ الْقُرْآنَ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِهِ، مِنْ هَجْرٍ لَهُ، وانْتِقَادَاتٍ عَلَىٰ إِنْزَالِهِ مُفَرَّقاً.

فَكَانَ التَّعْقِيبُ الرَّبَّانِيُّ بِالْبَدْءِ بِمُعَالَجَةِ مَا كَتَمَهُ الرَّسُولُ وَلَمْ يُصَرِّحْ بِهِ، فَبِمُعَالَجَةِ مَا صَرَّحَ بِهِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْقُرآن، ثُمَّ الْعَوْدَةِ إِلَىٰ مُتَابَعَةِ مُعَالَجَةِ مَا كَتَمَهُ الرَّسُولُ ﷺ «تفكّرْ في الآيات من الآيَةِ (٣٠ وَحَتَّى الآية ٤٠) ثم «تفكّر فِي الآيات منَ الآية (٤١ وحتّى الآية ٤٤).

✽ ✽ ✽

الخاتمة

هذا ما فَتَحَ اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ فِي تَدَبُّري لِسُورَةِ (الْفرقان). وأَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ قَدَّمْتَ فِي هٰذَا التَّدبُّرِ بِفَتْحٍ مِنَ الرَّبِّ الْجَلِيلِ الْوَهَّابِ جَدِيداً يَخْدِمُ الفِكْرَ الإِسْلَامِيَّ، وَيَخْدِمُ كِتَابَ اللَّهِ الْمَجِيدِ، ويُقَدِّمُ نَمُوذَجاً يَجِدُ فِيهِ الْمُتَدَبِّرُونَ مَا يُشَجِّعُهُمْ عَلىٰ الاجْتِهَادِ فِي تَدَبُّرِ كِتَابِ الله بِمَنْهَجٍ ارْتِقَائِيٍّ لَا يَتَوَقَّفُ عَنْدَ حُدُودِ النَّقْلِ والْجَمْعِ وحَشْرِ الأَقْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلْمُفَسِّرِينَ، دونَ نَظَرٍ فِكْرِيٍّ شَامِلٍ يَهْتَمُّ بِقَضِيَّةِ أنَّ السُّورَةَ الْقُرْآنِيَّةَ ذَاتُ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، ويَهْتَمُّ أَيْضاً بِمُلَاحَظَةِ أنَّ مُعْظَمَ الْمَوْضُوعَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ ذَاتُ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، ويَهْتَمُّ أَيْضاً بِمُلاحَظَةِ أنّ مُعْظَمَ الْمَوْضُوعَاتِ الْقُرآنِيَّةِ ذَاتُ عَنَاصِرَ فِكْرِيَّة مُوَزَّعَة فِي الْقُرْآن الْمَجِيدِ تَوْزِيعاً حَكِيماً مُعْجِزاً بِلَا تَنَاقُضٍ ولَا تَخَالُفٍ، وأنَّ عَلَىٰ الْمُتَدَبِّر أَنْ يَجْمَعَ عَنَاصِرَ الْمَوْضُوعِ الَّذِي يَبْحَثُ فِيهِ مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ السُّوَرِ الْقُرْآنِيَّة، ويَنْظِمُهَا فِي نَسَقٍ فِكْرِيٍّ مُتَكَامِلٍ، عَلَىٰ مِثْلِ عِقْدٍ مِنْ نَفِيسِ الْجَوَاهِرِ، كُلُّ عُنْصُرٍ مِنْهُ فِي نَصٍّ مِنَ الْقُرْآنِ يَمْلَأُ فَرَاغَ حَبَّةٍ مِنْ حَبَّاتِ هَذَا الْعِقْدِ الْبَدِيعِ.

بهذا يستطيعُ المتفكرون المتدَبِّرون أنْ يَخْدموا كتابَ الله خدَمَاتٍ جديداتٍ يُضِيفُونَها إِلَىٰ خَدَمَاتِ السَّابِقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اهْتَمُّوا بتَدَبُّرِ كِتَابِ الله.

والحمْدُ لله على فتْحِه ومَنِّهِ ومَعُونَتِهِ وتوفيقه.

وكان الفراغ من إعداد هذا المجلد لتدبّر سورتي (يسٓ) و(الفرقان) مساء يوم الخميس ٤ من شهر ذي القعدة ١٤٢٠هـ الموافق لـ١٠/ ٢/ ٢٠٠٠م.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

سُورة يسٓ
٣٦ مصحف/ ٤١ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

ملاحق لتدبر سورة (يسٓ)

سورة الفرقان
٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**